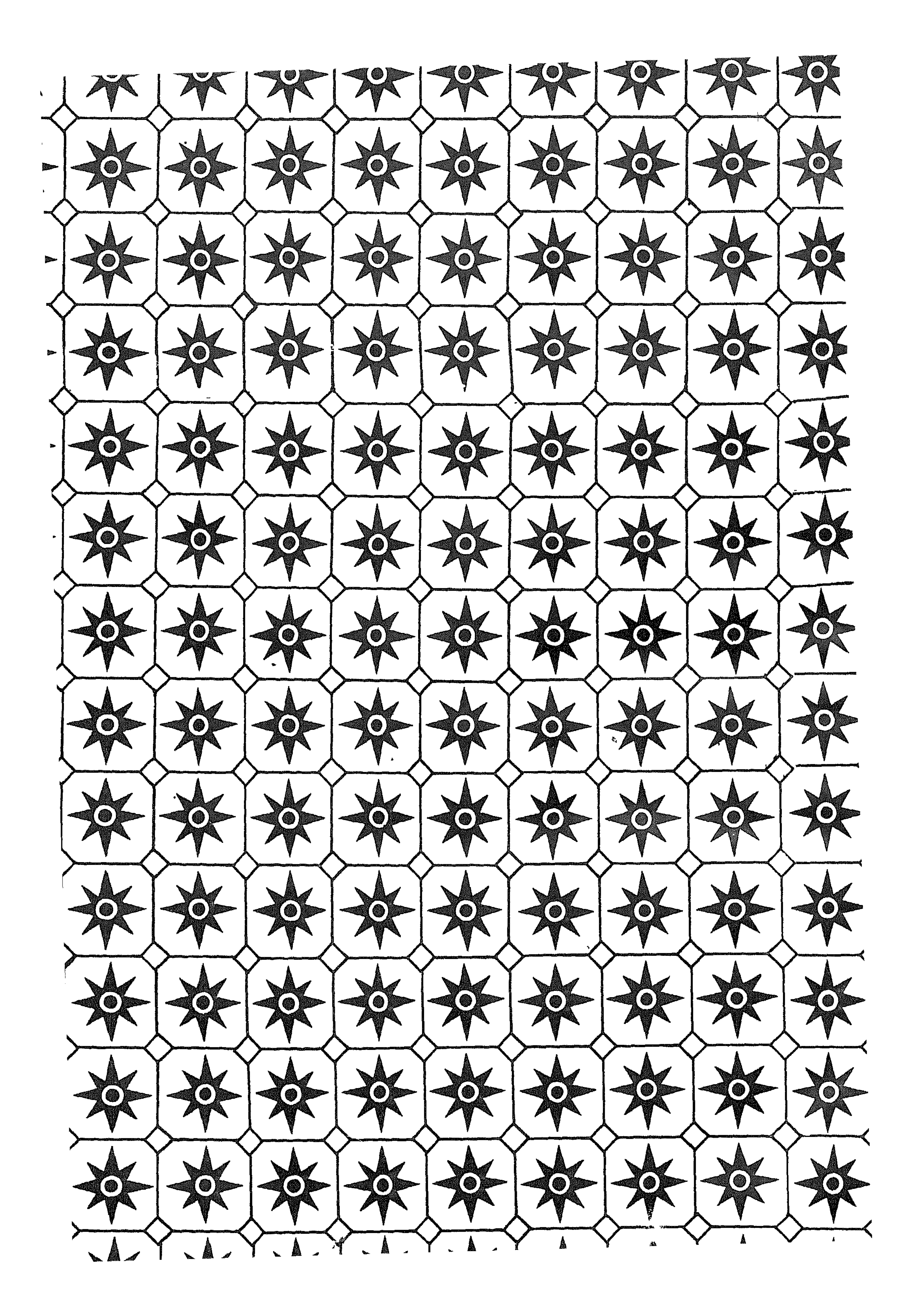
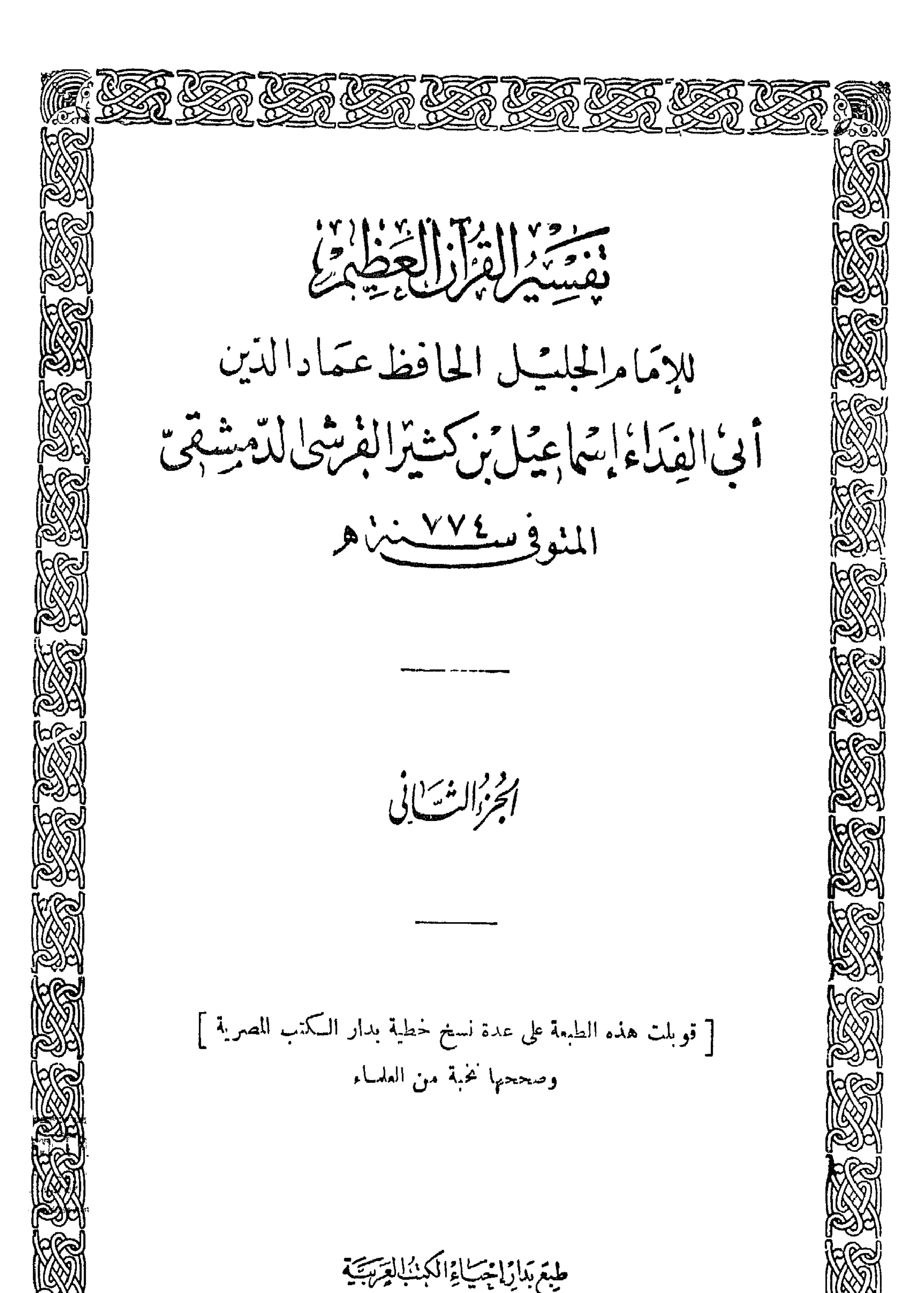






تفسير القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين

أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي

المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

الجزء الثاني

[قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية]

وصححها نخبة من العلماء

طبع بدار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه

﴿ تفسير سورة المائدة ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية شيبان عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت إني لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وروى ابن مردويه من حديث صالح بن سهل عن عاصم الأحول قال حدثتني أم عمرو عن عمها أنه كان في مسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت عليه سورة المائدة فاندق عنق الراحلة من ثقلها . وقال أحمد أيضا حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها تفرد به أحمد . وقد روى الترمذي عن قتيبة عن عبد الله بن وهب عن حي عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح ثم قال الترمذي هذا حديث غريب حسن وقد روى عن ابن عباس أنه قال آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح) وقد روى الحاكم في مستدركه من طريق عبد الله بن وهب بإسناده نحو رواية الترمذي ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال الحاكم أيضا حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا يحي بن نصر قال قرأ عليّ عبد الله بن وهب أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير قال حججت فدخلت على عائشة فقالت لي يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت نعم فقالت أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح وزاد وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت القرآن . ورواه النسائي من حديث ابن مهدى

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ * أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

قال ابن أبي حاتم حدثنا حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا مسعر حدثني معن وعوف أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلي فقال إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وقال حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم حدثنا الوليد حدثنا الأوزاعي عن الزهري قال إذا قال الله (يا أيها الذين آمنوا) افعلوا فالنبي ﷺ منهم وحدثنا أحمد بن سنان حدثنا محمد بن عبيد

حدثنا الأعمش عن خيثمة قال كل شيء في القرآن (يا أيها الذين آمنوا) فهو في التوراة يا أيها المساكين . فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي حدثنا معاوية يعني ابن هشام عن عيسى بن راشد عن علي بن بذيمة عن عكرمة عن ابن عباس قال ما في القرآن آية (يا أيها الذين آمنوا) إلا أن عليا سيدها وشريفها وأميرها وما من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه . فهو أثر غريب ولفظه فيه نكارة وفي إسناده نظر . وقال البخاري عيسى بن راشد هذا مجهول وخبره منكر قلت وعلي بن بذيمة وإن كان ثقة إلا أنه شيعي غال وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل . وقوله فلم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا عليا إنما يشير به إلى الآية الآمرة بالصدقة بين يدي النجوى فانه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي ونزل قوله (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) الآية وفي كون هذا عتابا نظر فانه قد قيل إن الأمر كان ندبا لا إيجابا ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل فلم يصدر من أحد منهم خلافه . وقوله عن علي أنه لم يعاتب في شيء من القرآن فيه نظر أيضاً فان الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء عمت جميع من أشار بأخذه ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعلم بهذا وبما تقدم ضعف هذا الأثر والله أعلم . وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث حدثني يونس قال : قال محمد بن مسلم قرأت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كتب لعمرو بن حزم حين بعثه الى نجران وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم فيه « هذا بيان من الله ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) فكتب الآيات منها حتى بلغ (إن الله سريع الحساب) » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحق حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ، ويأخذ صدقاتهم فكتب له كتابا وعهدا وأمره فيه بأمره فكتب « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله ورسوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) عهد من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن أمره بتقوى الله في أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » قوله تعالى (أوفوا بالعقود) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني بالعقود العهود وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك قال والعهود ما كانوا يتعاقدون عليه من الحلف وغيره وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) يعني العهود يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله ولا تغدروا ولا تنكثوا ثم شدد في ذلك فقال تعالى (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) الى قوله (سوء الدار) وقال الضحاك (أوفوا بالعقود) قال ما أحل الله وحرم وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام . وقال زيد بن أسلم (أوفوا بالعقود) قال : هي ستة ، عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين ، وقال محمد بن كعب هي خمسة منها حلف الجاهلية وشركة المفاوضة . وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية (أوفوا بالعقود) قال فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ويقتضي نفي خيار المجلس وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد والجمهور : والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » وفي لفظ آخر للبخاري « إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا » وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع وليس هذا منافياً للزوم العقد بل هو من مقتضياته شرعا فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود

وقوله تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام) هي الإبل والبقر والغنم قاله أبو الحسن وقتادة وغير واحد قال ابن جرير وكذلك هو عند العرب وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين اذا وجد ميتا في بطن أمه إذا ذبحت وقد رد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من طريق مجالد عن أبي الوداك جبير بن نوفل عن أبي سعيد قال قلنا يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله فقال « كلوه إن شئتم

فان ذكاته ذكاة أمه » وقال الترمذى حديث حسن . قال أبوداود حدثنا محمد بن يحيى بن فارس حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا عتاب بن بشير حدثنا عبيد الله بن أبى زياد القداح المكى عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ذكاة الجنين ذكاة أمه » تفرد به أبوداود وقوله (إلا ما يتلى عليكم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير وقال قتادة يعنى بذلك الميتة ومالم يذكر اسم الله عليه والظاهر والله أعلم أن المراد بذلك قوله (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع) فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض ولهذا قال (إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب) يعنى منها فانه حرام لا يمكن استدراكه وتلاحقه ولهذا قال تعالى (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) أى إلا ما سيتلى عليكم من تحريم بعضها فى بعض الأحوال وقوله تعالى (غير محلى الصيد وأنتم حرم) قال بعضهم هذا منصوب على الحال والمراد بالأنعام ما يعم الإنسى من الإبل والبقر والغنم وما يعم الوحشى كالظباء والبقر والحمر فاستثنى من الإنسى ما تقدم واستثنى من الوحشى الصيد فى حال الإحرام وقيل المراد أحللنا لكم الأنعام إلا ما استثنى منها لمن التزم تحريم الصيد وهو حرام لقوله (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى أبحنا تناول الميتة للمضطر بشرط أن يكون غير باغ ولا متعد وهكذا هنا أى كما أحللنا الأنعام فى جميع الأحوال فحرموا الصيد فى حال الإحرام فان الله قد حكم بهذا وهو الحكيم فى جميع ما يأمر به وينهى عنه ولهذا قال الله تعالى (إن الله يحكم ما يريد) ثم قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله) قال ابن عباس يعنى بذلك مناسك الحج وقال مجاهد الصفا والمروة ، والهدى والبدن من شعائر الله وقيل شعائر الله محارمه أى لا تحلوا محارم الله التى حرمها تعالى ولهذا قال تعالى (ولا الشهر الحرام) يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال وتأكيد اجتناب المحارم كما قال تعالى (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) وقال تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا) الآية وفى صحيح البخارى عن أبى بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة وذوالحجة والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت كما هو مذهب طائفة من السلف . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ولا الشهر الحرام) يعنى لا تستحلوا القتال فيه ، وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك الجزرى واختاره ابن جرير أيضاً وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ وأنه يجوز ابتداء القتال فى الأشهر الحرم واحتجوا بقوله تعالى (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) والمراد أشهر التسيير الأربعة قالوا فلم يستثن شهرا حراما من غيره ، وقد حكى الإمام أبو جعفر الإجماع على أن الله قد أحل قتال أهل الشرك فى الأشهر الحرم وغيرها من شهور السنة قال وكذلك أجمعوا على أن المشرك لو قلد عنقه أو ذراعيه بلحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أمانا من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أمان ولهذه المسئلة بحث آخر له موضع أبسط من هذا وقوله تعالى (ولا الهدى ولا القلائد) يعنى لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام فإن فيه تعظيم شعائر الله ولا تتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام وليعلم أنها هدى إلى الكعبة فيجتنبها من يريدها بسوء وتبعث من يراها على الإتيان بمثلها فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شىء ولهذا لما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم بات بذى الحليفة وهو وادى العقيق فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعا ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ثم أشعر هديه وقلده وأهل للحج والعمرة وكان هديه إبلا كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى (ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقال بعض السلف إعظامها استحسانها واستسمانها ، قال على بن أبى طالب أمرنا رسول صلى الله عليه وسلم أن نستشرف العين والأذن رواه أهل السنن وقال مقاتل بن حيان قوله (ولا القلائد) فلا تستحلوها وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم فى غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به رواه ابن أبى حاتم ثم قال حدثنا محمد بن عمار حدثنا سعيد بن سليمان قال حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن

الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال نسخ من هذه السورة آيتان آية القلائد وقوله (فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) وحدثنا المنذر بن شاذان حدثنا زكريا بن عدى حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عوف قال قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال لا، وقال عطاء كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مطرف بن عبد الله

وقوله تعالى (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا) أى ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذى من دخله كان آمنا وكذا من قصده طالبا فضل الله وراغبا فى رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه قال مجاهد وعطاء وأبو العالية ومطرف بن عبد الله وعبد الله بن عبيد بن عمير والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغير واحد فى قوله (يبتغون فضلا من ربهم) يعنى بذلك التجارة وهذا كما تقدم فى قوله (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وقوله (ورضوانا) قال ابن عباس يترضون الله بحجهم وقد ذكر عكرمة والسدى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى الحطم بن هند البكرى كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام القبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل (ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا)

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس وأن هذا الحكم منسوخ فى حقهم والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج عليا وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (ولا آمين البيت الحرام) يعنى من توجه قبل البيت الحرام فكان المؤمنون والمشركون يحجون فنهى الله المؤمنين أن يمنعوا أحدا من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعدها (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) الآية وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) وقال (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فنفى المشركين من المسجد الحرام وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة فى قوله (ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) قال منسوخ كان الرجل فى الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت فأمروا أن لا يقاتلوا فى الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله (ولا القلائد) يعنى إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمنوهم قال ولم تزل العرب تعير من أخفر ذلك قال الشاعر

ألم تقتلا الحرجين إذ أعورا لكم * يمران بالأيدى اللحاء المضفرا(١)

وقوله تعالى (وإذا حللتم فاصطادوا) أى إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذى يثبت على السبر أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى فان كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة ومن قال إنه للاباحة يرد عليه آيات أخرى والذى ينتظم الأدلة كلها هذا الذى ذكرناه كما اختاره بعض علماء الأصول والله أعلم. وقوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا) من القراء من قرأ أن صدوكم بفتح الألف من أن ومعناها ظاهر أى لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد وهذه الآية كما سيأتى من قوله (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فان العدل الواجب على كل أحد فى كل حال وقال بعض السلف

(١) فى الأميرية أعوزا وهو غلط. فهو بالراء ومعناه مكنا كما من عوراتهما

ماعاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . والعدل به قامت السموات والأرض . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سهل بن عفان حدثنا عبد الله بن جعفر عن زيد بن أسلم قال كان رسول الله ﷺ بالحديبية وأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية والشنآن هو البغض قاله ابن عباس وغيره وهو مصدر من شنأته أشنؤه شنآنا بالتحريك مثل قولهم جمزان ودرجان ورقلان من جمزودرج ورقل وقال ابن جرير : من العرب من يسقط التحريك فى شنآن فيقول شنان ولم أعلم أحداً قرأ بها . ومنه قول الشاعر

وما العيش إلا ما تحب وتشتهى * وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وقوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم قال ابن جرير الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ماحد الله فى دينكم ومجاوزة مافرض الله عليكم فى أنفسكم وفى غيركم ، وقد قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس عن جده أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما» قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما قال « تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره » انفرد به البخارى من حديث هشيم به نحوه ، وأخرجاه من طريق ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما قال « تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه » وقال أحمد . حدثنا يزيد حدثنا سفيان بن سعيد عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرا من الذى لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » وقد رواه أحمد أيضا فى مسند عبد الله بن عمر حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبى ﷺ أنه قال « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » وهكذا رواه الترمذى من حديث شعبة وابن ماجه من طريق إسحق بن يوسف كلاهما عن الأعمش به وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد أبو شيبة الكوفى حدثنا بكر بن عبد الرحمن حدثنا عيسى بن المختار عن ابن أبى ليلى عن فضيل ابن عمرو عن أبي وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله » ثم قال لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد قلت وله شاهد فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا عمرو بن إسحق بن إبراهيم بن زريق الحمصى حدثنا أبى حدثنا عمرو بن الحارث عن عبد الله بن سالم عن الزبيدى قال عباس بن يونس إن أبا الحسن نمران (١) بن صخر حدثه أن رسول الله ﷺ قال « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام »

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

يخبر تعالى عباده خبرا متضمنا النهى عن تعاطى هذه المحرمات من الميتة وهى مامات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهى ضارة للدين وللبدن فلهذ حرمها الله

(١) كذا بالأصول ، والصواب نمران بالنون . وفى نسخة الأزهر نمران بن مخمر .

عزوجل ، ويستثنى من الميتة السمك فانه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها لما رواه مالك فى موطئه والشافعى وأحمد فى مسنديهما وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ماء البحر فقال « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وهكذا الجراد لما سيأتى من الحديث وقوله (والدم) يعنى به المسفوح كقوله (أو دماً مسفوحاً) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير قال ابن أبى حاتم حدثنا كثير بن شهاب المذحجى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو يعنى ابن قيس عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال كلوه فقالوا إنه دم فقال إنما حرم عليكم الدم المسفوح . وكذا رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة قالت إنما نهى عن الدم السافح وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحل لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالسمك والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال » وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطنى والبيهقى من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف قال الحافظ البيهقى ورواه إسماعيل بن أبى إدريس عن أسامة وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا قلت وثلاثتهم كلهم ضعفاء ولكن بعضهم أصلح من بعض ، وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات عن زيد بن أسلم عن ابن عمر فوقفه بعضهم عليه قال الحافظ أبو زرعة الرازى وهو أصح وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب حدثنا بشير بن شريح عن أبى غالب عن أبى أمامة وهو صدى بن عجلان قال بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومى أدعوهم إلى الله ورسوله وأعرض عليهم شرائع الإسلام فأتيتهم فبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا هلم ياصدى فكل قال قلت ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه قالوا وما ذاك فتلوت عليهم هذه الآية (حرمت عليكم الميتة والدم) الآية ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث ابن أبى الشوارب بإسناده مثله وزاد بعده هذا السياق قال فجعلت أدعوهم إلى الإسلام ويأبون على فقلت ويحكم اسقونى شربة من ماء فإنى شديد العطش قال وعلىّ عباءتى فقالوا لا ولكن ندعك حتى تموت عطشا قال فاغتممت وضربت برأسى فى العباء ونمت على الرمضاء فى حر شديد قال فأتانى آت فى منامى بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه فأمكننى منه فشربته فلما فرغت من شرابى استيقظت فلا والله ماعطشت ولا عريت بعد تيك الشربة ، ورواه الحاكم فى مستدركه عن على بن حماد عن عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى عبد الله بن سلمة بن عياش العامرى حدثنا صدقة بن هرم عن أبى غالب عن أبى أمامة وذكر نحوه وزاد بعد قوله بعد تيك الشربة فسمعتهم يقولون أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعوه بمذقة ، فأتونى بمذقة فقلت لاحاجة لى فيها إن الله أطعمنى وسقانى وأريتهم بطنى فأسلموا عن آخرهم وما أحسن ما أنشد الأعشى فى قصيدته التى ذكرها ابن إسحق .

وإياك والميتات لا تقربنها * ولا تأخذن عظماً حديداً فتفصدا

أى لاتفعل فعل الجاهلية وذلك أن أحدهم كان إذا جاع يأخذ شيئاً محدداً من عظم ونحوه فيفصد به بعيره أو حيواناً من أى صنف كان فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشربه ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة ثم قال الأعشى

وذا النصب المنصوب لا تأتينه * ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

قوله (ولحم الخنزير) يعنى إنسيه ووحشيه واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية فى جمودهم ههنا وتعسفهم فى الاحتجاج بقوله (فإنه رجس أوفسقاً) يعنون قوله تعالى (إلا أن يكون ميتة أودماً مسفوحاً أولحم خنزير فإنه رجس) أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه وهذا بعيد من حيث اللغة فإنه لايعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف اليه والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب ومن العرف المطرد وفى صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم الخنزير ودمه » فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس فكيف يكون التهديد والوعيد

الأكيد على أكله والتغذى به وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره . وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام » فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال « لا، هو حرام » وفى صحيح البخارى من حديث أبى سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم نهانا عن الميتة والدم . وقوله (وما أهل لغير الله به) أى ماذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فانها حرام بالإجماع . وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية إما عمداً أو نسيانا كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن السنجانى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا ابن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبى الطفيل قال نزل آدم بتحريم أربع الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإن هذه الأربعة الأشياء لم تحل قط ولم تزل حراما منذ خلق الله السموات والأرض فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم فلما بعث الله عيسى بن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذى جاء به آدم وأحل لهم ماسوى ذلك فكذبوه وعصوه وهذا أثر غريب وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أبى حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ربعى عن عبد الله قال سمعت الجارود بن أبى سبرة قال هو جدى قال كان رجل من بنى رباح يقال له ابن وائل وكان شاعرا نافر غالبا أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء فلما وردت الماء قاما إليها بسيفيهما فجعلا يكشفان عراقيبها قال فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم ، قال وعلى بالكوفة قال فخرج على على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء وهو ينادى : يا أيها الناس لاتأكلوا من لحومها فإنها أهل بها لغير الله هذا أثر غريب ويشهد له بالصحة مارواه أبو داود حدثنا هرون بن عبد الله حدثنا ابن حماد ابن مسعدة عن عوف عن أبى ريحانة عن ابن عباس قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الأعراب ، ثم قال أبو داود محمد بن جعفر هو غندر أوقفه على ابن عباس تفرد به أبو داود وقال أبو داود أيضا حدثنا هرون بن زيد ابن أبى الزرقاء حدثنا أبى حدثنا جرير بن حازم عن الزبير بن حريث قال سمعت عكرمة يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل ، ثم قال أبو داود أكثر من رواه غير ابن جرير لا يذكر فيه ابن عباس تفرد به أيضاً . قوله (والمنخنقة) وهى التى تموت بالخنق إما قصداً وإما اتفاقا بأن تتخبل فى وثاقها فتموت به فهى حرام وأما الموقوذة فهى التى تضرب بشىء ثقيل غير محدد حتى تموت كما قال ابن عباس وغير واحد هى التى تضرب بالخشبة حتى يوقذها فتموت قال قتادة كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصىّ حتى إذا ماتت أكلوها . وفى الصحيح أن عدى بن حاتم قال قلت يارسول الله إنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب قال « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله وإن أصاب بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله » ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده فأحله وما أصاب بعرضه فجعله وقيذا لم يحله وهذا مجمع عليه عند الفقهاء واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله ولم يجرحه على قولين هما قولان للشافعى رحمه الله (أحدهما) لايحل كما فى السهم والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيذ (والثانى) أنه يحل لأنه حكم بإباحة ماصاده الكلب ولم يستفصل فدل على إباحة ما ذكرناه لأنه قد دخل فى العموم وقد قررت لهذه المسئلة فصلا فليكتب ههنا .

﴿ فصل ﴾ اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلبا على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه أو صدمه هل يحل أم لا ؟ على قولين (أحدهما) أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) وكذا عمومات حديث عدى بن حاتم وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعى رحمه الله وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووى والرافعى (قلت) وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعى فى الأم والمختصر فانه قال فى كلا الموضعين يحتمل معنيين ثم وجه كلا منهما فحمل ذلك الأصحاب منه فأطلقوا فى المسئلة قولين عنه اللهم إلا أنه فى بحثه للقول بالحل رشحه قليلا ولم يصرح بواحد منهما ولا جزم به والقول بذلك أعنى الحل نقله ابن الصباغ عن أبى حنيفه من رواية الحسن بن زياد عنه ولم يذكر غير ذلك . وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه فى تفسيره

عن سلمان الفارسي وأبي هريرة وسعد بن أبي وقاص وابن عمر وهذا غريب جداً وليس يوجد ذلك مصرحا به عنهم إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضي عنه (والقول الثاني) أن ذلك لا يحل وهو أحد القولين عن الشافعي رحمه الله واختاره المزني ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضا والله أعلم ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبي حنيفة وهو المشهور عن الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنه وهذا القول أشبه بالصواب والله أعلم لأنه أجرى عن القواعد الأصولية ، وأمس بالأصول الشرعية واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج قلت يا رسول الله إنا لا قو العدو غداً وليس معنى مدى أفنذبح بالقصب ؟ قال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » الحديث بتمامه وهو في الصحيحين . وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء في الأصول والفروع كما سئل عليه السلام عن البتع وهو نبيذ العسل فقال: « كل شراب أسكر فهو حرام » أفيقول فقيه إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل وهكذا هذا كما سألوه عن شيء من الذكاة فقال لهم كلاما عاما يشغل ذاك المسؤول عنه وغيره لأنه عليه السلام كان قد أوتي جوامع الكلم ، إذا تقرر هذا فما صدمه الكلب أو غمه بثقله ليس مما أنهر دمه فلا يحل لمفهوم هذا الحديث فان قيل هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء لأنهم إنما سألوه عن الآلة التي يذكى بها ولم يسألوه عن الشيء الذي يذكى ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر حيث قال « ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه وإلا لم يكن متصلا فدل على أن المسؤول عنه هو الآلة فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم فالجواب عن هذا بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضا حيث يقول « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » ولم يقل فاذبحوا به فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً يؤخذ حكم الآلة التي يذكى بها وحكم المذكى وأنه لا بد من إنهار دمه بآلة ليست سنا ولا ظفراً هذا مسلك

والمسلك الثاني طريقة المزني وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل وإن خزق فكل والكلب جاء مطلقا فيحمل على ما قيد هناك من الخزق لأنهما اشتركا في الموجب وهو الصيد فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب كما وجب حمل مطلق الاعتاق في الظهار على تقييده بالإيمان في القتل بل هذا أولى وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة فلا بد لهم من جواب عن هذا وله أن يقول هذا قتله الكلب بثقله فلم يحل قياسا على ما قتله السهم بعرضه والجامع أن كلا منهما آلة للصيد وقد مات بثقله فيهما ولا يعارض ذلك بعموم الآية لأن القياس مقدم على العموم كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور وهذا مسلك حسن أيضا (مسلك آخر) وهو أن قوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم) عام فيما قتلن بجرح أو غيره لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو إما أن يكون نطيحا أو في حكمه أو منخنقا أو في حكمه وأيا ما كان فيجب تقديم هذه الآية على تلك لوجوه (أحدها) أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد حيث يقول لعدي بن حاتم : وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيذ فلا تأكله ، ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية فقال إن الوقيذ معتبر حالة الصيد والنطيح ليس معتبرا فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقا للاجماع لا قائل به وهو محظور عند كثير من العلماء (الثاني) أن تلك الآية (فكلوا مما أمسكن عليكم) ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صدن من الحيوان المأكول وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ (المسلك الآخر) أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات فلا تحل قياسا على الميتة (المسلك الآخر) أن آية التحريم أعني قوله حرمت عليكم الميتة إلى آخرها محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة أعني قوله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) الآية فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلا وتكون السنة جاءت لبيان ذلك وشاهد ذلك قصة السهم فانه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية وهو ما إذا خزقه المعراض فيكون حلالا لأنه من الطيبات وما دخل في حكم تلك الآية آية التحريم وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل لأنه وقيذ فيكون أحد أفراد آية التحريم ، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب فهو داخل في حكم آية التحليل وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله فهو نطيح أو في حكمه

فلا يكون حلالا . (فان قيل) فلم لا فصل فى حكم الكلب فقال ما ذكرتم إن جرحه فهو حلال وإن لم يجرحه فهو حرام (فالجواب) أن ذلك نادر لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابه أو بهما معا وأما اصطدامه هو والصيد فنادر وكذا قتله إياه بثقله فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وأما السهم والمعراض فتارة يخطىء لسوء رمى راميه أو للهو أو لنحو ذلك بل خطؤه أكثر من إصابته فلهذا ذكر كلا من حكميه مفصلا والله أعلم . ولهذا لما كان الكلب من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال : « إن أكل فلا تأكل فانى أخاف أن يكون أمسك على نفسه » وهذا صحيح ثابت فى الصحيحين وهو أيضا مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين فقالوا لا يحل ما أكل منه الكلب حكى ذلك عن أبى هريرة وابن عباس وبه قال الحسن والشعبى والنخعى وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحباه وأحمد بن حنبل والشافعى فى المشهور عنه وروى ابن جرير فى تفسيره عن على وسعيد وسلمان وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس أن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب حتى قال سعيد وسلمان وأبو هريرة وغيرهم يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة وإلى ذلك ذهب مالك والشافعى فى قوله القديم وأومأ فى الجديد إلى قولين قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه وقد روى أبو داود بإسناد جيد قوى عن أبى ثعلبة الخشنى عن رسول الله ﷺ أنه قال فى صيد الكلب « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ماردت عليك يدك » ورواه أيضا النسائى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابيا يقال له أبو ثعلبة قال يارسول الله فذكره نحوه وقال محمد بن جرير فى تفسيره حدثنا عمران بن بكار الكلاعى حدثنا عبد العزيز بن موسى هو اللاحونى حدثنا محمد بن دينار هو الطاحى عن أبى إياس وهو معاوية ابن قرة عن سعيد بن المسيب عن سلمان الفارسى عن رسول الله ﷺ قال «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه فليأكل ما بقى » ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب عن سلمان موقوفا . وأما الجمهور فقدموا حديث عدى على ذلك وراموا تضعيف حديث أبى ثعلبة وغيره وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجىء فأكل منه لجوعه ونحوه فانه لا بأس بذلك لأنه والحالة هذه لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة فانه يظهر منه أنه أمسك على نفسه والله أعلم . فأما الجوارح من الطيور فنص الشافعى على أنها كالكلب فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور ولا يحرم عند الآخرين واختار المزنى من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح وهو مذهب أبى حنيفة وأحمد قالوا لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه وأيضا فانها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك وأيضا فالنص إنما ورد فى الكلب لا فى الطير وقال الشيخ أبو على فى الافصاح إذا قلنا يحرم ما أكل منه الكلب ففى تحريم ما أكل منه الطير وجهان وأنكر القاضى أبو الطيب هذا التفريع والترتيب لنص الشافعى رحمه الله على التسوية بينهما والله سبحانه وتعالى أعلم. وأما المتردية فهى التى تقع من شاهق أو موضع عال فتموت بذلك فلا تحل قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: المتردية التى تسقط من جبل وقال قتادة هى التى تتردى فى بئر وقال السدى هى التى تقع من جبل أو تتردى فى بئر. وأما النطيحة فهى التى ماتت بسبب نطح غيرها لها فهى حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحها والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة أى منطوحة وأكثر ما ترد هذه البنية فى كلام العرب بدون تاء التأنيث فيقولون عين كحيل وكف خضيب ولا يقولون كف خضيبة ولا عين كحيلة وأما هذه فقال بعض النحاة إنما استعمل فيها تاء التأنيث لأنها أجريت مجرى الأسماء كما فى قولهم طريقة طويلة وقال بعضهم إنما أتى بتاء التأنيث فيها لتدل على التأنيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب لأن التأنيث مستفاد من أول الكلام . وقوله تعالى (وما أكل السبع) أى ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك فهى حرام وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحها فلا تحل بالإجماع وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك فحرم الله ذلك على المؤمنين وقوله (إلا ما ذكيتم) عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة وذلك إنما يعود على قوله (والمنخنقة والموقوذة والمتردية

والنطيحة وما أكل السبع) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إلا ما ذكيتم) يقول إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه فهو ذكى وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصرى والسدى وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه عن على فى الآية قال إن مصعت بذنبها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها فكل . وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم وعباد قالا حدثنا حجاج عن حصين عن الشعبى عن الحارث عن على قال إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة وهى تحرك يداً أو رجلا فكلها وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح فهى حلال وهذا مذهب جمهور الفقهاء وبه قال أبو حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل قال ابن وهب سئل مالك عن الشاة التى يخرق جوفها السبع حتى تخرج أمعاؤها فقال مالك لا أرى أن تذكى أى شىء يذكى منها ؟ وقال أشهب سئل مالك عن الضبع يعدو على الكبش فيدق ظهره أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل فقال إن كان قد بلغ السحر فلا أرى أن يؤكل وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً قيل له وثب عليه فدق ظهره فقال لا يعجبنى هذا لا يعيش منه قيل له فالذئب يعدو على الشاة فيثقب بطنها ولا يثقب الأمعاء فقال إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل هذا مذهب مالك رحمه الله وظاهر الآية عام فيما استثناه مالك رحمه الله من الصور التى بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية والله أعلم . وفى الصحيحين عن رافع بن خديج أنه قال قلت يا رسول الله إنا لاقو العدو غداً وليس معنا مدى أفنذبح بالقصب ؟ فقال « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » وفى الحديث الذى رواه الدارقطنى مرفوعا وفيه نظر ، وروى عن عمر موقوفا وهو أصح « ألا ان الزكاة فى الحلق واللبة ولا تعجلوا الأنفس أن تزهق » وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية حماد بن سلمة عن أبى العشراء الدارمى عن أبيه قال قلت يارسول الله أما تكون الذكاة الا من اللبة والحلق فقال « لو طعنت فى فخذها لأجزأ عنك » وهو حديث صحيح ولكنه محمول على مالا يقدر على ذبحه فى الحلق واللبة وقوله (وما ذبح على النصب) قال مجاهد وابن جريج كانت النصب حجارة حول الكعبة قال ابن جريج وهى ثلثمائة وستون نصبا كانت العرب فى جاهليتها يذبحون عندها وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب وكذا ذكره غير واحد فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التى فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله فى الذبح عند النصب من الشرك الذى حرمه الله ورسوله وينبغى أن يحمل هذا على هذا لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله . وقوله تعالى (وأن تستقسموا بالأزلام) أى حرم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام واحدها زلم وقد تفتح الزاى فيقال زلم وقد كانت العرب فى جاهليتها يتعاطون ذلك وهى عبارة عن قداح ثلاثة على أحدها مكتوب افعل وعلى الآخر لا تفعل والثالث غفل ليس عليه شىء . ومن الناس من قال مكتوب على الواحد أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى والثالث غفل ليس عليه شىء فاذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله أو النهى تركه وإن طلع الفارغ أعاد والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام هكذا قرر ذلك أبو جعفر ابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا الحجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس (وأن تستقسموا بالأزلام) قال والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها فى الأمور وكذا روى عن مجاهد وإبراهيم النخعى والحسن البصرى ومقاتل بن حيان وقال ابن عباس هى قداح كانوا يستقسمون بها الأمور وذكر محمد بن إسحق وغيره أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل منصوب على بئر داخل الكعبة فيها توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها مايتحاكمون فيه مما أشكل عليهم فما خرج لهم منها رجعوا اليه ولم يعدلوا عنه وثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ لما دخل الكعبة وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها وفى أيديهما الأزلام فقال « قاتلهم الله لقد علموا انهما لم يستقسما بها أبدا » وفى الصحيحين ان سراقة بن مالك بن جعشم لما خرج فى طلب النبى ﷺ وأبى بكر وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين قال فاستقسمت بالأزلام هل أضرهم أم لا ؟ فخرج الذى أكره لا تضرهم قال فعصيت

الأزلام واتبعهم ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة كل ذلك يخرج الذى يكره لاتضرهم ، وكان كذلك وكان سراقة لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك : وروى ابن مردويه من طريق إبراهيم بن يزيد عن رقية عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبى الدرداء قال : قال رسول ﷺ : « لن ينال الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائرا » وقال مجاهد فى قوله (وأن تستقسموا بالأزلام) قال هى سهام العرب وكعاب فارس والروم كانوا يتقامرون. وهذا الذى ذكر عن مجاهد فى الأزلام أنها موضوعة للقمار فيه نظر اللهم إلا أن يقال إنهم كانوا يستعملونها فى الاستخارة تارة وفى القمار أخرى والله أعلم فإن الله سبحانه قد قرن بينها وبين القمار وهو الميسر فقال فى آخر السورة : (يا أيها آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء - إلى قوله - منتهون) وهكذا قال ههنا (وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق) أى تعاطيه فسق وغى وضلالة وجهالة وشرك وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا فى أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة فى الأمر الذى يريدونه كما روى الإمام أحمد والبخارى وأهل السنن من طرق عبد الرحمن بن أبى الموالى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن ويقول « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى - أو قال . عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى ويسره لى ثم بارك لى فيه ، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى فاصرفنى عنه واصرفه عنى واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » لفظ أحمد وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب لانعرفه إلا من حديث ابن أبى الموالى . وقوله (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى يئسوا أن يراجعوا دينهم وكذا روى عن عطاء بن أبى رباح والسدى ومقاتل بن حيان وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » ويحتمل أن يكون المراد أنهم يئسوا من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله ولهذا قال تعالى آمرا لعباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا فى مخالفة الكفار ولا يخافوا أحدا إلا الله فقال (فلا تخشوهم واخشون) أى لاتخافوهم فى مخالفتكم إياهم واخشونى أنصركم عليهم وأبيدهم وأظفركم بهم وأشف صدوركم منهم وأجعلكم فوقهم فى الدنيا والآخرة وقوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبى غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ماحرمه ، ولا دين إلا ماشرعه وكل شىء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأوامر والنواهى فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة ولهذا قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) أى فارضوه أنتم لأنفسكم فانه الدين الذى أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام ، وأنزل به أشرف كتبه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) وهو الإسلام أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدا ، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدا وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدا . وقال أسباط عن السدى نزلت هذه الآية يوم عرفة ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام ورجع رسول الله ﷺ فمات قالت أسماء بنت عميس : حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحجة فبينا نحن نسير إذ تجلى له جبريل فمال رسول الله ﷺ على الراحلة فلم تطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن فبركت فأتيته فسجيت عليه بردا كان على . وقال ابن جرير وغير واحد مات رسول الله صلى

الله عليه وسلم بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يوما رواهما ابن جرير ثم قال حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة عن أبيه قال لما نزلت (اليوم أكملت لكم دينكم) وذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبي ﷺ «ما يبكيك» قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا فأما إذا أكمل فانه لم يكمل شيء إلا نقص فقال «صدقت» ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت «إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء» وقال الإمام أحمد حدثنا جعفر بن عون حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال وأي آية ؟ قال قوله (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) فقال عمر والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ : عشية عرفة في يوم جمعة ورواه البخاري عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به ورواه أيضا مسلم والترمذي والنسائي أيضا من طرق عن قيس بن مسلم به ولفظ البخاري عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري عن قيس عن طارق قال : قالت اليهود لعمر إنكم تقرءون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيدا فقال عمر إني لأعلم حين أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت : يوم عرفة وأنا والله بعرفة قال سفيان وأشك كان يوم الجمعة أم لا (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية ، وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا وإن كان شكا في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم جمعة فهذا ما أخاله يصدر عن الثوري رحمه الله فان هذا أمر معلوم مقطوع به لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير ولا من الفقهاء ، وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها والله أعلم . وقد روى هذا من غير وجه عن عمر . وقال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا رجاء بن أبي سلمة أخبرنا عبادة بن نسي أخبرنا أميرنا إسحق قال أبو جعفر بن جرير هو إسحق بن حرشة عن قبيصة يعني ابن أبي ذئب قال : قال كعب لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم فاتخذوه عيدا يجتمعون فيه فقال عمر أي آية يا كعب ، فقال (اليوم أكملت لكم دينكم) فقال عمر قد علمت اليوم الذي أنزلت والمكان الذي أنزلت فيه نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة وكلاهما بحمد الله لنا عيد . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا قبيصة حدثنا حماد بن سلمة عن عمار هو مولى بني هاشم أن ابن عباس قرأ (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) فقال يهودي لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً فقال ابن عباس فانها نزلت في يوم عيدين اثنين يوم عيد ويوم جمعة. وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا موسى ابن هارون حدثنا يحيى بن الحماني حدثنا قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سلمان عن أبي عمر البزار عن ابن الحنفية عن علي قال نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة (اليوم أكملت لكم دينكم) وقال ابن جرير حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكوني حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس السكوني أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم) حتى ختمها فقال نزلت في يوم عرفة في يوم جمعة . وروى ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن موسى بن دحية عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال نزلت هذه الآية (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) يوم عرفة ورسول الله ﷺ واقف على الموقف ، فأما ما رواه ابن جرير وابن مردويه والطبراني من طريق ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس قال ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وفتح بدراً يوم الاثنين وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين — اليوم أكملت لكم دينكم . ورفع الذكر يوم الاثنين فانه أثر غريب وإسناده ضعيف وقد رواه الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبي عمران عن حنش الصنعاني عن ابن عباس قال ولد النبي ﷺ يوم الاثنين واستنبئ يوم الاثنين وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين وقدم المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين ، هذا لفظ أحمد ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين فالله أعلم ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين

اثنين كما تقدم فاشتبه على الراوى والله أعلم وقال ابن جرير : وقد قيل ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس ثم روى من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (اليوم أكملت لكم دينكم) يقول ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس قال: وقد قيل : إنها نزلت على رسول الله ﷺ فى مسيره إلى حجة الوداع ثم رواه من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس ، قلت وقد روى ابن مردويه من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدير خم حين قال لعلى « من كنت مولاه فعلى مولاه » ثم رواه عن أبى هريرة وفيه أنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة يعنى مرجعه عليه السلام من حجة الوداع ولا يصح هذا ولا هذا ، بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة وكان يوم جمعة كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبى سفيان وترجمان القرآن عبد الله بن عباس وسمرة بن جندب رضى الله عنه وأرسله الشعبى وقتادة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء : واختاره ابن جرير الطبرى رحمه الله وقوله (فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فان الله غفور رحيم) أى فمن احتاج إلى تناول شىء من هذه المحرمات التى ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور رحيم له لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك فيتجاوز عنه ويغفر له وفى المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفى لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الاثم مثل جبال عرفة » ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ،وقد يكون مندوبا ، وقد يكون مباحا بحسب الأحوال ، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق ، أوله أن يشبع أو يشبع ويتزود ؟ على أقوال كما هو مقرر فى كتاب الأحكام ، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيداً وهو محرم هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله ، على قولين هما قولان للشافعى رحمه الله . وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاما كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم ، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له ، وقد قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى حدثنا حسان بن عطية عن أبى واقد الليثى أنهم قالوا يا رسول الله . إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة فمتى تحل لنا بها الميتة ؟ فقال « إذا لم تصطبحوا ، ولم تغتبقوا ، ولم تحتفئوا بها بقلا فشأنكم بها » تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين ، وكذا رواه ابن جرير عن عبد الأعلى بن واصل عن محمد بن القاسم الأسدى عن الأوزاعى به ، لكن رواه بعضهم عن الأوزاعى عن حسان بن عطية عن مسلم بن يزيد عن أبى واقد به ومنهم من رواه عن الأوزاعى عن حسان عن مرثد أو أبى مرثد عن أبى واقد به ورواه ابن جرير عن هناد بن السرى عن عيسى بن يونس عن حسان عن رجل قد سمى له فذكره ، ورواه أيضا عن هناد عن ابن المبارك عن الأوزاعى عن حسان مرسلا وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن ابن عون قال : وجدت عند الحسن كتاب سمرة فقرأته عليه فكان فيه : ويجزى من الاضطرار غبوق أو صبوح . حدثنا أبو كريب حدثنا هشيم عن الخصيب بن زيد التميمى حدثنا الحسن أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال : متى يحل الحرام ؟ قال: فقال « إلى متى يروى أهلك من اللبن أو تجىء ميرتهم » حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق حدثنى عمر بن عبد الله بن عروة عن جده عروة بن الزبير عن جدته أن رجلا من الأعراب أتى النبى ﷺ يستفتيه فى الذى حرم الله عليه والذى أحل له ، فقال النبى ﷺ « يحل لك الطيبات ويحرم عليك الخبائث إلا أن تفتقر إلى طعام لك فتأكل منه حتى تستغنى عنه » فقال الرجل . وما فقرى الذى يحل لى وما غنائى الذى يغنينى عن ذلك ، فقال النبى ﷺ « إذا كنت ترجو غناء تطلبه فتبلغ من ذلك شيئا فأطعم أهلك ما بدالك حتى تستغنى عنه » فقال الأعرابى ما غنائى الذى أدعه إذا وجدته فقال ﷺ « إذا أرويت أهلك غبوقا من الليل فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام مالك فانه ميسور كله فليس فيه حرام » ومعنى قوله « مالم تصطبحوا » يعنى به الغداء « ومالم تغتبقوا » يعنى به العشاء « أو تحتفئوا بقلا فشأنكم بها » فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف يعنى قوله « أو تحتفئوا »

على أربعة أوجه : تحفؤابالهمزة ، وتحتفيوا : بتخفيف الياء والحاء وتحتفوا بتشديد وتحتفوا بالحاء وبالتخفيف ويحتمل الهمز كذا رواه فى التفسير (حديث آخر) قال أبوداود : حدثنا هرون بن عبدالله حدثنا الفضل بن دكين حدثناوهب بن عقبة العامرى سمعت أبى يحدث عن النجيع العامرى أنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ما يحل لنا من الميتة ، قال « ماطعامكم ؟ » قلنا نصطبح ونغتبق . قال أبونعيم : فسره لى عقبة ، قدح غدوة وقدح عشية قال : ذاك وأبى الجوع ، وأحل لهم الميتة على هذه الحال . تفرد به أبوداود وكأنهم كانوا يصطبحون ويغتبقون شيئاً لا يكفيهم فأحل لهم الميتة لتمام كفايتهم وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع ، ولايتقيد ذلك بسد الرمق والله أعلم (حديث آخر) قال أبوداود : حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد حدثنا سماك عن جابر عن سمرة أن رجلا نزل الحرة ومعه أهله وولده فقال له رجل إن ناقتى ضلت فإن وجدتها فأمسكها فوجدها ولم يجد صاحبها فمرضت فقالت له امرأته ، انحرها فأبى فنفقت فقالت له امرأته : اسلخها حتى تقدد شحمها ولحمها فنأكله قال لا حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتاه فسأله فقال «هل عندك غنى يغنيك » قال: لا ، قال « فكلوها » قال فجاء صاحبها فأخبره الخبر فقال : هلا كنت نحرتها ؟ قال استحييت منك تفرد به وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها والله أعلم . وقوله (غير متجانف لإثم) أى متعاط لمعصية الله فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر كما قال فى سورة البقرة (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصى بسفره لا يترخص بشىء من رخص السفر لأن الرخص لا تنال بالمعاصى والله أعلم

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

لما ذكر تعالى ماحرمه فى الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما فى بدنه أوفى دينه أوفيهما واستثنى ما استثناه فى حالة الضرورة كما قال تعالى (وقد فصل لكم ماحرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) قال بعدها (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) كما فى سورة الأعراف فى صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث قال ابن أبى حاتم . حدثنا أبوزرعة حدثنا يحيي بن عبد الله بن أبى بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير عن عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ فقالا يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات) قال سعيد . يعنى الذبائح الحلال الطيبة لهم . وقال مقاتل : الطيبات ما أحل لهم من كل شىء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق ، وقد سئل الزهرى عن شرب البول للتداوى فقال : ليس هو من الطيبات رواه ابن أبى حاتم ، وقال ابن وهب سئل مالك عن بيع الطير الذى يأكله فقال ليس هو من الطيبات ، وقوله تعالى (وماعلمتم من الجوارح مكلبين) أى أحل لكم الذبائح التى ذكر اسم الله عليها والطيبات من الرزق وأحل لكم ماصدتموه بالجوارح وهى الكلاب والفهود والصقور وأشباهها كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة وممن قال ذلك على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وماعلمتم من الجوارح مكلبين) وهن الكلاب المعلمة والبازى وكل طير يعلم للصيد والجوارح يعنى الكلاب الضوارى والفهود والصقور وأشباهها . رواه ابن أبى حاتم ثم قال وروى عن خيثمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبى كثير نحو ذلك وروى عن الحسن أنه قال : الباز والصقر من الجوارح وروى عن على بن الحسين مثله ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله وقرأ قوله(وما علمتم من الجوارح مكلبين) قال وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدى ثم قال حدثنا هناد حدثنا ابن أبى زائدة أخبرنا ابن جريج عن نافع عن ابن عمر قال أما ماصاد من الطير البازات وغيرها من الطير فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه ، قلت والمحكى عن الجمهور أن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه

الكلاب فلا فرق وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير . واحتج فى ذلك بما رواه عن هناد : حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال : سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازى فقال : « ما أمسك عليك فكل » واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه لماثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال « يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود » فقلت مابال الكلب الأسود من الأحمر ، فقال الكلب الأسود شيطان ، وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب ، ثم قال « مابالهم وبال الكلاب اقتلوا منها كل أسود بهيم » وسميت هذه الحيوانات التى يصطاد بهن جوارح من الجرح وهو الكسب كما تقول العرب فلان جرح أهله خيرا أى كسبهم خيرا ويقولون فلان لاجارح له أى لا كاسب له وقال الله تعالى (ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى ما كسبتم من خير وشر وقد ذكر فى سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذى رواه ابن أبى حاتم حدثنا حجاج بن حمزة حدثنا زيد بن حباب حدثنى يونس بن عبيدة حدثنى أبان بن صالح عن القعقاع بن حكيم عن سلمى أم رافع عن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب فقلت فجاء الناس فقالوا يارسول الله مايحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها ؟ فسكت فأنزل الله (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين) الآية فقال النبى ﷺ إذا أرسل الرجل كلبه وسمى فأمسك عليه فليأ كل مالم يأ كل » وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد بن الحباب بإسناده عن أبى رافع قال جاء جبريل إلى النبى ﷺ ليستأذن عليه فاذن له فقال قد أذنا لك يارسول الله قال أجل « ولكنا لاندخل بيتا فيه كلب » قال أبو رافع فأمرنى أن أقتل كل كلب بالمدينة حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبح عليها فتركته رحمة لها ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فأمرنى فرجعت إلى الكلب فقتلته فجاءوا فقالوا يارسول الله مايحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها قال فسكت رسول الله ﷺ قال فأنزل الله عز وجل (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم من الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين) ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق محمد بن إسحق عن أبان بن صالح به وقال صحيح ولم يخرجاه وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع فى قتل الكلاب حتى بلغ العوالى فجاء عاصم بن عدى وسعد بن خيثمة وعويم بن ساعدة فقالوا ماذا أحل لنا يارسول الله فنزلت الآية ورواه الحاكم من طريق سماك عن عكرمة وكذا قال محمد بن كعب القرظى فى سبب نزول هذه الآية انه فى قتل الكلاب وقوله تعالى (مكلبين) يحتمل أن يكون حالا من الضمير فى علمتم فيكون حالا من الفاعل ويحتمل أن يكون حالا من المفعول وهو الجوارح أى وماعلمتم من الجوارح فى حال كونهن مكلبات للصيد وذلك أن تقتنصه بمخالبها أو أظفارها فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمته وبمخلابه وظفره أنه لايحل له كما هو أحد قولى الشافعى وطائفة من العلماء ولهذا قال (تعلمونهن مما علمكم الله) وهو أنه إذا أرسله استرسل وإذا أشلاه استشلى وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجىء اليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) فمتى كان الجارح معلما وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله حل الصيد وإن قتله بالإجماع . وقد وردت السنة بمثل مادلت عليه هذه الآية الكريمة كما ثبت فى الصحيحين عن عدى بن حاتم قال قلت يارسول الله إنى أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله فقال « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » قلت وإن قتلن ؟ قال « وإن قتلن مالم يشركها كلب ليس منها فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره » قلت له فانى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلاتأ كله » وفى لفظ لهما « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله فإن أمسك عليك فأدركته حيا فاذبحه وإن أدركته قد قتل ولم يأ كل منه فكله فإن أخذ الكلب ذكاته » وفى رواية لهما « فإن أ كل فلاتأ كل فانى أخاف أن يكون أمسك على نفسه » فهذا دليل للجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعى وهو أنه إذا أ كل الكلب من الصيد يحرم مطلقا ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث ، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا لايحرم مطلقا

﴿ ذكر الآثار بذلك ﴾

قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا وكيع عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال : قال سلمان الفارسي : كل وإن أكل ثلثيه يعني الصيد إذا أكل منه الكلب وكذا رواه سعيد بن أبي عروبة وعمر بن عامر عن قتادة وكذا رواه محمد بن زيد عن سعيد بن المسيب عن سلمان ورواه ابن جرير أيضا عن مجاهد بن موسى عن يزيد عن حميد عن بكر بن عبد الله المزني والقاسم أن سلمان قال : إذا أكل الكلب فكل وإن أكل ثلثيه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني مخرمة بن بكير عن أبيه عن حميد بن مالك بن خيثم الدؤلي أنه سأل سعد بن أبي وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب فقال : كل وإن لم يبق منه إلا حذية يعني بضعة ورواه شعبة عن عبد ربه بن سعيد عن بكير بن الأشج عن سعيد بن المسيب عن سعد بن أبي وقاص قال : كل وإن أكل ثلثيه . وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن عامر عن أبي هريرة : قال إذا أرسلت كلبك فأكل منه فان أكل ثلثيه وبقي ثلثه فكله . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر قال سمعت عبيد الله : وحدثنا هناد حدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن عبد الله بن عمر قال إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك أكل أو لم يأكل وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبي ذئب وغير واحد عن نافع فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر وهو محكي عن علي وابن عباس واختلف فيه عن عطاء والحسن البصري وهو قول الزهري وربيعة ومالك وإليه ذهب الشافعي في القديم وأومأ اليه في الجديد

وقد روي من طريق سلمان الفارسي مرفوعا فقال ابن جرير حدثنا عمران بن بكار الكلاعي حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاحوني حدثنا محمد بن دينار وهو الطاجي عن أبي إياس معاوية بن قرة عن سعيد بن المسيب عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ قال « إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه فليأكل ما بقي » ثم قال ابن جرير وفي إسناد هذا الحديث نظر ، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع وهذا الذي قاله ابن جرير صحيح لكن قد روي هذا المعنى مرفوعا من وجوه أخر فقال أبو داود حدثنا محمد بن منهال الضرير حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن أعرابيا يقال له أبو ثعلبة قال يا رسول الله إن لي كلابا مكلبة فأفتني في صيدها فقال النبي ﷺ « إن كان لك كلاب مكلبة فكل مما أمسكن عليك » فقال ذكيا وغير ذكي وإن أكل منه ؟ قال « نعم وإن أكل منه » فقال يا رسول الله أفتني في قوسي قال « كل ما ردت عليك قوسك » قال ذكيا وغير ذكي ؟ قال « وإن تغيب عنك مالم يصل أو تجد فيه أثر غير سهمك » قال أفتني في آنية المجوس إذا اضطررنا إليها قال « اغسلها وكل فيها » هكذا رواه أبو داود وقد أخرجه النسائي وكذا رواه أبو داود من طريق يونس بن سيف عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ثعلبة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه وكل ماردت عليه يدك » وهذان إسنادان جيدان ، وقد روى الثوري عن سماك بن حرب عن عدي قال: قال رسول الله ﷺ « ماكان من كلب ضار أمسك عليك فكل » قلت وإن أكل قال « نعم » وروى عبد الملك بن حبيب حدثنا أسد بن موسى عن ابن أبي زائدة عن الشعبي عن عدي بمثله فهذه آثار دالة على أنه يغتفر وإن أكل منه الكلب وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه كما تقدم عمن حكيناه عنهم وقد توسط آخرون فقالوا إن أكل عقب ما أمسكه فانه يحرم لحديث عدي بن حاتم ، وللعلة التي أشار إليها النبي ﷺ « فان أكل فلا تأكل فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه فإنه لا يؤثر في التحريم وحملوا على ذلك حديث أبي ثعلبة الخشني . وهذا تفريق حسن ، وجمع بين الحديثين صحيح . وقد تمنى الأستاذ أبو المعالي الجويني في كتابه النهاية أن لو فصل مفصل هذا التفصيل وقد حقق الله أمنيته وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم . وقال آخرون قولا رابعا في المسئلة وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدي ، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم لأنه لا يقبل التعليم إلا بالأكل : وقال

ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أسباط بن محمد حدثنا أبو إسحق الشيبانى عن حماد عن إبراهيم عن ابن عباس أنه قال فى الطير إذا أرسلته فقتل فكل فان الكلب إذا ضربته لم يعد وإن تعلم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب فإذا أكل من الصيد ونتف الريش فكل، وكذا قال إبراهيم النخعى والشعبى وحماد بن أبى سليمان . وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا المحاربى حدثنا مجالد عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال : قلت يا رسول الله إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة فما يحل لنا منها؟ قال « يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه» ثم قال : « ما أرسلت من كلب وذكرت اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك » قلت : وإن قتل قال « وإن قتل مالم يأكل » قلت يارسول الله وإن خالطت كلابنا كلابا غيرها قال « فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك » قال قلت إنا قوم نرمى فما يحل لنا قال « ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل » فوجه الدلالة لهم أنه اشترط فى الكلب أن لا يأكل ولم يشترط ذلك فى البزاة فدل على التفرقة بينهما فى الحكم والله أعلم . وقوله تعالى (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) أى عند إرساله له كما قال النبى ﷺ لعدى بن حاتم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » وفى حديث أبى ثعلبة المخرج فى الصحيحين أيضاً « إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله » ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله فى المشهور عنه التسمية عند إرسال الكلب والرمى بالسهم لهذه الآية وهذا الحديث وهذا القول هو المشهور عن الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدى وغيره وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (واذكروا اسم الله عليه) يقول إذا أرسلت جارحك فقل باسم الله وإن نسيت فلا حرج وقال بعض الناس المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبى سلمة فقال « سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » وفى صحيح البخارى عن عائشة أنهم قالوا يا رسول الله إن قوما يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال « سموا الله أنتم وكلوا » . (حديث آخر) وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد حدثنا هشام عن بديل عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل الطعام فى ستة نفر من أصحابه فجاء أعرابى فأكله بلقمتين فقال النبى ﷺ « أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم فإذا أكل أحدكم طعاما فليذكر اسم الله فان نسى أن يذكر اسم الله فى أوله فليقل باسم الله أوله وآخره » هكذا رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هارون به وهذا منقطع بين عبد الله بن عبيد بن عمير وعائشة فانه لم يسمع منها هذا الحديث بدليل ما رواه الإمام أحمد : حدثنا عبدالوهاب أخبرنا هشام يعنى ابن أبى عبد الله الدستوائى عن بديل عن عبد الله بن عبيد بن عمير أن امرأة منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاما فى ستة نفر من أصحابه فجاء أعرابى جائع فأكله بلقمتين فقال « أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله فان نسى اسم الله فى أوله فليقل باسم الله أوله وآخره » رواه أحمد أيضا وأبو داود والترمذى والنسائى من غير وجه عن هشام الدستوائى به وقال الترمذى حسن صحيح. (حديث آخر) وقال أحمد : حدثنا على بن عبدالله حدثنا يحيى ابن سعيد حدثنا جابر بن صبح حدثنى المثنى بن عبد الرحمن الخزاعى وصحبته إلى واسط فكان يسمى فى أول طعامه وفى آخر لقمة يقول باسم الله أوله وآخره فقلت له إنك تسمى فى أول ما تأكل أرأيت قولك فى آخر ما تأكل باسم الله أوله وآخره فقال أخبرك أن جدى أمية بن مخشى وكان من أصحاب النبى ﷺ سمعته يقول إن رجلا كان يأكل والنبى ينظر فلم يسم حتى كان فى آخر طعامه لقمة قال باسم الله أوله وآخره فقال النبى صلى الله عليه وسلم « والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سمى فلم يبق شىء فى بطنه حتى قاءه » وهكذا رواه أبو داود والنسائى من حديث جابر بن صبح الراسبى أبى بشر البصرى ووثقه ابن معين والنسائى وقال أبو الفتح الأزدى لا تقوم به حجة . (حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن خيثمة عن أبى حذيفة ــ قال أبو عبدالرحمن عبد الله بن الامام أحمد واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب ــ من أصحاب ابن مسعود عن حذيفة قال كنا إذا حضرنا مع النبى على طعام لم نضع أيدينا حتى

يبدأ رسول الله فيضع يده وإنا حضرنا معه طعاما فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت تضع يدها فى الطعام فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وجاء اعرابى كأنما يدفع فذهب يضع يده فى الطعام فأخذ رسول الله بيده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها وجاء بهذا الأعرابى ليستحل به فأخذت بيده والذى نفسى بيده إن يده فى يدى مع يدهما » يعنى الشيطان وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى من حديث الأعمش به . (حديث آخر) روى مسلم وأهل السنن إلا الترمذى من طريق ابن جريج عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لامبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء » لفظ أبى داود . (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن وحشى بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبى ﷺ إنا نأكل ومانشبع قال «فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » ورواه أبوداود وابن ماجه من طريق الوليد بن مسلم

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى ماحرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده (اليوم أحل لكم الطيبات) ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومكحول وإبراهيم النخعى والسدى ومقاتل بن حيان يعنى ذبائحهم وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء إن ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله وان اعتقدوا فيه تعالى ماهو منزه عنه تعالى وتقدس . وقد ثبت فى الصحيح عن عبد الله بن مغفل قال أدلى بجراب من شحم يوم خيبر فحضنته وقلت لا أعطى اليوم من هذا أحداً والتفت فإذا النبى صلى الله عليه وسلم يتبسم فاستدل به الفقهاء على أنه يجوز تناول ما يحتاج اليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة قبل القسمة وهذا ظاهر واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة على أصحاب مالك فى منعهم أكل مايعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم فالمالكية لايجوزون للمسلمين أكله لقوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) قالوا وهذا ليس من طعامهم واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث وفى ذلك نظر لأنه قضية عين ويحتمل أن يكون شحما يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما والله أعلم ، وأجود منه فى الدلالة ماثبت فى الصحيح أن أهل خيبر أهدوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مصلية وقد سموا ذراعها وكان يعجبه الذراع فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه وأثر ذلك فى ثنايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى أبهره وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور فمات فقتل اليهودية التى سمتها وكان اسمها زينب ووجه الدلالة منه أنه عزم على أكلها ومن معه ولم يسألهم هل نزعوا منها مايعتقدون تحريمه من شحمها أم لا ، وفى الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أضافه يهودى على خبز شعير واهالة سنخة يعنى ودكا زنخا وقال ابن أبى حاتم قرئ على العباس بن الوليد بن مزيد أخبرنا محمد بن شعيب أخبرنى النعمان بن المنذر عن مكحول قال أنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ثم نسخه الرب عز وجل ورحم المسلمين فقال (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب وفى هذا الذى قاله مكحول رحمه الله نظر فانه لا يلزم من إباحته طعام أهل الكتاب إباحة أكل مالم يذكر اسم الله عليه لأنهم

يذكرون اسم الله على ذبائحهم وقرابينهم وهم متعبدون بذلك ولهذا لم يبح ذبائح من عداهم من أهل الشرك ، ومن شابههم لأنهم لم يذكرون اسم الله على ذبائحهم بل ولا يتوقفون فيما يأكلونه من اللحم على ذكاة بل يأكلون الميتة بخلاف أهل الكتابين(١) ومن شاكلهم من السامرة والصابئة ومن يتمسك بدين إبراهيم وشيث وغيرهما من الأنبياء على أحد قولي العلماء ونصارى العرب كبني تغلب وتنوخ وبهرا وجذام ولخم وعاملة ومن أشبههم لا تؤكل ذبائحهم عند الجمهور

وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن محمد بن عبيدة قال : قال علي لا تأكلوا ذبائح بني تغلب لأنهم إنما يتمسكون من النصرانية بشرب الخمر ، وكذا قال غير واحد من الخلف والسلف . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب والحسن أنهما كانا لا يريان بأسا بذبيحة نصارى بني تغلب . وأما المجوس فإنهم وان أخذت منهم الجزية تبعا وإلحاقا لأهل الكتاب فانه لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم خلافا لأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل . ولما قال ذلك واشتهر عنه أنكر عليه الفقهاء ذلك حتى قال عنه الإمام أحمد أبو ثور كاسمه يعني في هذه المسألة وكأنه تمسك بعموم حديث روى مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سنوا بهم سنة أهل الكتاب » ولكن لم يثبت بهذا اللفظ وإنما الذي في صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الجزية من مجوس هجر ولو سلم صحة هذا الحديث فعمومه مخصوص بمفهوم هذه الآية (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فدل بمفهومه مفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل وقوله تعالى (وطعامكم حل لهم) أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها والأول أظهر في المعنى أي ولكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبد الله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه قالوا لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك فأما الحديث الذي فيه « لا تصحب(٢) إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » فمحمول على الندب والاستحباب والله أعلم

وقوله (والمحصنات من المؤمنات) أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات وذكر هذا توطئة لما بعده وهو قوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فقيل أراد بالمحصنات الحرائر دون الإماء حكاه ابن جرير عن مجاهد وإنما قال مجاهد المحصنات الحرائر فيحتمل أن يكون أراد ماحكاه عنه ويحتمل أن يكون أراد بالحرة العفيفة كما قال في الرواية الأخرى عنه وهو قول الجمهور ههنا وهو الأشبه لئلا يجتمع فيها أن تكون ذمية وهي مع ذلك غير عفيفة فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ماقيل في المثل « حشفا وسوء كيلة » والظاهر من الآية أن المراد من بالمحصنات العفيفات عن الزنا كما قال تعالى في الآية الأخرى (محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان) ثم اختلف المفسرون والعلماء في قوله تعالى (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) هل يعم كل كتابية عفيفة سواء كانت حرة أو أمة حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف ممن فسر المحصنة بالعفيفة وقيل المراد بأهل الكتاب ههنا الإسرائيليات وهو مذهب الشافعي وقيل المراد بذلك الذميات دون الحربيات لقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية ويقول لا أعلم شركا أعظم من أن تقول إن ربها عيسى وقد قال الله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب حدثنا القاسم بن مالك يعني المزني حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبي مالك الغفاري عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) قال فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التي بعدها (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فنكح الناس نساء أهل الكتاب وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأسا أخذا بهذه الآية الكريمة (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) فجعلوا هذه مخصصة للتي في سورة البقرة (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها وإلا فلا

(١) بخلاف أهل الكتابين الخ كذا بالنسخ التي بأيدينا ولعل الظاهر بخلاف غير أهل الخ فتأمل . (٢) في الجامع الصغير لا تصاحب .

معارضة بينها وبينها لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع كقوله تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) وكقوله (وقل للذين أوتوا الكتب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا) الآية وقوله (إذا آتيتموهن أجورهن) أى مهورهن أى كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس وقد أفتى جابر بن عبد الله وعامر الشعبى وإبراهيم النخعى والحسن البصرى بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينهما ، وترد عليه ما بذل لها من المهر رواه ابن جرير عنهم

وقوله (محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان) فكما شرط الاحصان فى النساء وهى العفة عن الزنا كذلك شرطها فى الرجال وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا ولهذا قال غير مسافحين وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم ولا متخذى أخدان أى ذوى العشيقات الذين لا يفعلون إلا معهن كما تقدم فى سورة النساء سواء ، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقلع عما هو فيه من الزنا لهذه الآية وللحديث « لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا سليمان بن حرب حدثنا أبو هلال عن قتادة عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة فقال له أبى بن كعب يا أمير المؤمنين الشرك أعظم من ذلك وقد يقبل منه إذا تاب وسيأتى الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله (الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) ولهذا قال تعالى ههنا (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

قال كثيرون من السلف فى قوله (إذا قمتم إلى الصلاة) يعنى وأنتم محدثون وقال آخرون إذا قمتم من النوم إلى الصلاة وكلاهما قريب . وقال آخرون بل المعنى أعم من ذلك فالآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ولكن هو فى حق المحدث واجب وفى حق المتطهر ندب وقد قيل إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجبا فى ابتداء الاسلام ثم نسخ وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد فقال له عمر يا رسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال « إنى عمدا فعلته يا عمر » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من حديث سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد ووقع فى سنن ابن ماجه عن سفيان عن محارب بن دثار بدل علقمة بن مرثد كلاهما عن سليمان بن بريدة به وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عباد بن موسى أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائى حدثنا الفضل بن المبشر قال رأيت جابر بن عبد الله يصلى الصلوات بوضوء واحد فإذا بال أو أحدث توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين فقلت أبا عبد الله أشىء تصنعه برأيك ؟ قال بل رأيت النبى ﷺ يصنعه فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه وكذا رواه ابن ماجه عن إسماعيل بن توبة عن زياد البكائى به وقال أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن إسحق

حدثنى محمد بن يحيى بن حبان الأنصارى عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر قال أرأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر عمن هو ؟ قال حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن الغسيل حدثها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهر كان أو غير طاهر فلما شق ذلك عليه أمر بالسواك عند كل صلاة ووضع عنه الوضوء إلا من حدث فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك كان يفعله حتى مات وهكذا رواه أبو داود عن محمد بن عوف الحمصى عن أحمد بن خالد الذهبى عن محمد بن إسحق عن محمد بن يحيى بن حبان عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر ثم قال أبو داود ورواه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحق فقال عبيد الله بن عمر يعنى كما تقدم فى رواية الإمام أحمد وأياما كان فهو إسناد صحيح وقد صرح ابن إسحق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى ابن حبان فزال محذور التدليس لكن قال الحافظ ابن عساكر رواه سلمة بن الفضل وعلى بن مجاهد عن ابن إسحق عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة عن محمد بن يحيى بن حبان به والله أعلم وفى فعل ابن عمر هذا ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك كما هو مذهب الجمهور

وقال ابن جرير حدثنا زكريا بن يحيى بن أبى زائدة حدثنا أزهر عن ابن عون عن ابن سيرين أن الخلفاء كانوا يتوضئون لكل صلاة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت مسعود بن على الشيبانى سمعت عكرمة يقول كان على رضى الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) الآية وحدثنا ابن المثنى حدثنى وهب ابن جرير أخبرنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال بن سبرة قال رأيت علياً صلى الظهر ثم قعد للناس فى الرحبة ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه ثم مسح برأسه ورجليه وقال هذا وضوء من لم يحدث وحدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم أن علياً اكتال من حب فتوضأ وضوءا فيه تجوز فقال هذا وضوء من لم يحدث ، وهذه طرق جيدة عن على يقوى بعضها بعضا .

وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس قال توضأ عمر بن الخطاب وضوءا فيه تجوز خفيفا فقال هذا وضوء من لم يحدث وهذا إسناد صحيح . وقال محمد بن سيرين كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة وأما ما رواه أبو داود الطيالسى عن أبى هلال عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الوضوء من غير حدث اعتداء فهو غريب عن سعيد بن المسيب ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد وأما مشروعيته استحبابا فقد دلت السنة على ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن عمرو بن عامر الأنصارى سمعت أنس ابن مالك يقول كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة قال : قلت فأنتم كيف كنتم تصنعون ؟ قال كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد مالم نحدث ، وقد رواه البخارى وأهل السنن من غير وجه عن عمرو بن عامر به . وقال ابن جرير : حدثنا أبو سعيد البغدادى حدثنا إسحق بن منصور عن هريم عن عبد الرحمن بن زياد هو الافريقى عن أبى غطيف عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات » ورواه أيضا من حديث عيسى بن يونس عن الافريقى عن أبى غطيف عن ابن عمر فذكره وفيه قصة وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الافريقى به نحوه وقال الترمذى وهو إسناد ضعيف .

وقال ابن جرير وقد قال قوم إن هذه الآية نزلت إعلاما من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ . حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن جابر عن عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم عن عبد الله بن علقمة بن وقاص عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أراق البول نكلمه فلا يكلمنا ونسلم عليه فلا يرد علينا حتى نزلت آية الرخصة (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) الآية ورواه ابن أبى حاتم عن محمد بن مسلم عن أبى كريب به نحوه وهو حديث غريب جداً وجابر هذا هو ابن زيد الجعفى ضعفوه . وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبى مليكة عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم اليه

طعام فقالوا ألا نأتيك بوضوء فقال « إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة » وكذا رواه الترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى عن زياد بن أيوب عن إسماعيل وهو ابن علية به . وقال الترمذى : هذا حديث حسن وروى مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن سعيد بن الحويرث عن ابن عباس قال كنا عند النبى ﷺ فأتى الخلاء ثم انه رجع فأتى بطعام فقيل يارسول الله ألا تتوضأ فقال « لم أصل فأتوضأ » . وقوله (فاغسلوا وجوهكم) قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) على وجوب النية فى الوضوء لأن تقدير الكلام (إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) لها كما تقول العرب إذا رأيت الأمير فقم أى له وقد ثبت فى الصحيحين حديث « الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى » ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه لما ورد فى الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما فى الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم لما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده فى الإناء قبل أن يغسلها ثلاثا فإن أحدكم لايدرى أى باتت يده » وحد الوجه عند الفقهاء مابين منابت شعر الرأس ولا اعتبار بالصلع ولا بالغمم إلى منتهى اللحيين والذقن طولا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضا وفى النزعتين والتحذيف خلاف هل هما من الرأس أو الوجه ، وفى المسترسل من اللحية عن محل الفرض قولان (أحدهما) أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة . وروى فى حديث أن النبى ﷺ رأى رجلا مغطيا لحيته فقال « اكشفها فإن اللحية من الوجه » وقال مجاهد هى من الوجه ألا تسمع إلى قول العرب فى الغلام إذا نبتت لحيته طلع وجهه ، ويستحب للمتوضىء أن يخلل لحيته إذا كانت كثيفة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا إسرائيل عن عامر بن حمزة عن شقيق قال رأيت عثمان توضأ فذكر الحديث قال وخلل اللحية ثلاثا حين غسل وجهه ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل الذى رأيتمونى فعلت رواه الترمذى وابن ماجه من حديث عبد الرزاق وقال الترمذى: حسن صحيح وحسنه البخارى

وقال أبو داود حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا أبو المليح حدثنا الوليد بن زوران عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته وقال «هكذا أمرنى به ربى عز وجل » تفرد به أبو داود وقد روى هذا الوجه من غير وجه عن أنس قال البيهقى وروينا فى تخليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم عن على وغيره وروينا فى الرخصة فى تركه عن ابن عمر والحسن بن على ثم عن النخعى وجماعة من التابعين وقد ثبت عن النبى ﷺ من غير وجه فى الصحاح وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق فاختلف الأئمة فى ذلك هل هما واجبان فى الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله أو مستحبان فيهما كما هو مذهب الشافعى ومالك لما ثبت فى الحديث الذى رواه أهل السنن وصححه ابن خزيمة عن رفاعة بن رافع الزرقى أن النبى ﷺ قال للمسىء صلاته « توضأ كما أمرك الله » أو يجبان فى الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبى حنيفة أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « من توضأ فليستنشق » وفى رواية « إذا توضأ أحدكم فليجعل فى منخريه من الماء ثم لينتثر » والانتثار هو المبالغة فى الاستنشاق

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزاعى حدثنا سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستنثر ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا يعنى أضافها إلى يده الأخرى فغسل بها وجهه ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى ثم مسح رأسه ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى يتوضأ . ورواه البخارى عن محمد بن عبد الرحيم عن أبى سلمة منصور بن

سلمة الخزاعى به وقوله (وأيديكم إلى المرافق) أى مع المرافق كما قال تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) وقد روى الحافظ الدارقطنى وأبو بكر البيهقى من طريق القاسم بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جده عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه ولكن القاسم هذا متروك الحديث وجده ضعيف والله أعلم

ويستحب للمتوضىء أن يشرع فى العضد فيغسله مع ذراعيه لما روى البخارى ومسلم من حديث نعيم المجمر عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن أمتى يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل » وفى صحيح مسلم عن قتادة عن خلف بن خليفة عن أبى مالك الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة قال سمعت خليلى ﷺ يقول « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . وقوله تعالى (وامسحوا برءوسكم) اختلفوا فى هذه الباء هل هى للالصاق وهو الأظهر أو للتبعيض وفيه نظر على قولين ومن الأصوليين من قال هذا مجمل فليرجع فى بيانه إلى السنة وقد ثبت فى الصحيحين من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازنى عن أبيه أن رجلا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم وهو جد عمرو بن يحيى وكان من أصحاب النبى ﷺ هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين مرتين ثم مضمض واستنشق ثلاثا وغسل وجهه ثلاثا ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين ثم مسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه ثم غسل رجليه. وفى حديث عبد خير عن على فى صفة وضوء رسول الله ﷺ نحو هذا وروى أبو داود عن معاوية والمقداد بن معد يكرب فى صفة وضوء رسول الله ﷺ مثله ففى هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لاسيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل فى القرآن . وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربع الرأس وهو مقدار الناصية وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب مايطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد بل لو مسح بعض شعره من رأسه أجزأه واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال تخلف النبى صلى الله عليه وسلم فتخلفت معه فلما قضى حاجته قال هل معك ماء فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاق كم الجبة فأخرج يديه من تحت الجبة وألقى الجبة على منكبيه فغسل ذراعيه ومسح بناصيته ، وعلى العمامة وعلى خفيه . وذكر باقى الحديث وهو فى صحيح مسلم وغيره فقال لهم أصحاب الإمام أحمد إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع كما وردت بذلك أحاديث كثيرة وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين فهذا أولى وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة والله أعلم . ثم اختلفوا فى أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثا كما هو المشهور من مذهب الشافعى وإنما يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين فقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عطاء بن يزيد الليثى عن حمران بن أبان قال رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثا فغسلهما ثم تمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثا ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثا ثم غسل اليسرى مثل ذلك ثم مسح برأسه ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثا ثم اليسرى ثلاثا مثل ذلك ثم قال رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لايحدث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه » أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من طريق الزهرى به نحو هذا وفى سنن أبى داود من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبى مليكة عن عثمان فى صفة الوضوء ومسح برأسه مرة واحدة وكذا من رواية عبد خير عن على مثله . واحتج من استحب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عثمان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ثلاثا ثلاثا وقال أبو داود حدثنا محمد بن المثنى حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا عبد الرحمن بن وردان حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن حدثنى حمران قال رأيت عثمان بن عفان توضأ فذكر نحوه ولم يذكر المضمضة والاستنشاق قال فيه ثم مسح رأسه ثلاثا ثم غسل رجليه ثلاثا ثم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ هكذا وقال « من توضأ هكذا كفاه » تفرد به أبو داود

ثم قال وأحاديث عثمان فى الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة . قوله (وأرجلكم إلى الكعبين) قرئ وأرجلكم بالنصب عطفا على فاغسلوا وجوهكم وأيديكم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس أنه قرأها وأرجلكم يقول رجعت إلى الغسل وروى عن عبد الله بن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدى ومقاتل بن حيان والزهرى وإبراهيم التيمى نحو ذلك وهذه قراءة ظاهرة فى وجوب الغسل كما قاله السلف ومن ههنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب فى الوضوء كما هو مذهب الجمهور خلافا لأبى حنيفة حيث لم يشترط الترتيب بل لو غسل قدميه ثم مسح رأسه وغسل يديه ثم وجهه أجزأه ذلك لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء والواو لا تدل على الترتيب وقد سلك الجمهور فى الجواب عن هذا البحث طرقا فمنهم من قال الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة لأنه مأمور به بفاء التعقيب وهى مقتضية للترتيب ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولا ثم لا يجب الترتيب بعده بل القائل اثنان أحدهما يوجب الترتيب كما هو واقع فى الآية ، والآخر يقول لا يجب الترتيب مطلقا والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق ، ومنهم من قال لا نسلم أن الواو لا تدل على الترتيب بل هى دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة وأهل اللغة وبعض الفقهاء ، ثم نقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوى هى دالة على الترتيب شرعا فيما من شأنه أن يرتب ، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » لفظ مسلم ، ولفظ النسائى « ابدءوا بما بدأ الله به » وهذا لفظ أمر وإسناده صحيح فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعا والله أعلم . ومنهم من قال لما ذكر الله تعالى هذه الصفة فى هذه الآية على هذا الترتيب فقطع النظير عن النظير وأدخل الممسوح بين المغسولين دل ذلك على إرادة الترتيب ومنهم من قال لا شك أنه قد روى أبو داود وغيره من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة ثم قال « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » قالوا فلا يخلوا إما أن يكون توضأ مرتبا فيجب الترتيب ، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب ولا قائل به فوجب ما ذكرناه : وأما القراءة الأخرى وهى قراءة من قرأ وأرجلكم بالخفض : فقد احتج بها الشيعة فى قولهم بوجوب مسح الرجلين لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس . وقد روى عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح فقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا حميد قال : قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده يا أبا حمزة إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه فذكر الطهور فقال اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم وأرجلكم وإنه ليس شىء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما فقال أنس صدق الله وكذب الحجاج قال الله تعالى (وامسحوا برؤسكم وأرجلكم) قال وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما إسناد صحيح إليه وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا مؤمل حدثنا حماد حدثنا عاصم الأحول عن أنس قال نزل القرآن بالمسح والسنة بالغسل . وهذا أيضا إسناد صحيح . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن قيس الخراسانى عن ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال الوضوء غسلتان ومسحتان وكذا روى سعيد بن أبى عروبة عن قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو معمر المنقرى حدثنا عبد الوهاب حدثنا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس (وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين) قال هو المسح ثم قال وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبى جعفر محمد بن على والحسن فى إحدى الروايات وجابر بن زيد ومجاهد فى إحدى الروايات نحوه وقال ابن جرير حدثنا يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب قال رأيت عكرمة يمسح على رجليه قال وكان يقوله . وقال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنا ابن إدريس عن داود بن أبى هند عن الشعبى قال نزل جبريل بالمسح ثم قال الشعبى ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غسلا ويلغى ما كان مسحا وحدثنا ابن أبى زياد حدثنا يزيد أخبرنا إسماعيل قلت لعامر إن ناسا يقولون إن جبريل نزل بغسل الرجلين فقال نزل جبريل بالمسح فهذه آثار غريبة جداً وهى محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره

من السنة الثابتة فى وجوب غسل الرجلين ، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض إما على المجاورة وتناسب الكلام كما فى قول العرب جحر ضب خرب وكقوله تعالى (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق) وهذا ذائع شائع فى لغة العرب سائغ ومنهم من قال هى محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان قاله أبو عبد الله الشافعى رحمه الله ، ومنهم من قال هى دالة على مسح الرجلين ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضا لابد منه للآية والأحاديث التى سنوردها ، ومن أحسن ما يستدل على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف مارواه الحافظ البيهقى حيث قال أخبرنا أبو على الروزبادى حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن حموية العسكرى حدثنا جعفر بن محمد القلانسى حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عبد الملك بن ميسرة سمعت النزال بن سبرة يحدث عن على بن أبى طالب أنه صلى الظهر ثم قعد فى حوائج الناس فى رحبة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه ثم قام فشرب فضلته وهو قائم ثم قال إن ناسا يكرهون الشرب قائما وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت وقال « هذا وضوء من لم يحدث » رواه البخارى فى الصحيح عن آدم ببعض معناه . ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً ومن نقل عن أبى جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث وأوجب مسحهما للآية فلم يحقق مذهبه فى ذلك فان كلامه فى تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب دلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك فأوجب دلكهما ليذهب ما عليهما ولكنه عبر عن الدلك بالمسح فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما فحكاه من حكاه كذلك ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور فانه لا معنى للجمع بين المسح والغسل سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه وإنما أراد الرجل ما ذكرته والله أعلم : ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين فى قوله (وأرجلكم) خفضا على المسح وهو الدلك ونصبا على الغسل فأوجبهما أخذا بالجمع بين هذه وهذه

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى غسل الرجلين وأنه لابد منه ﴾

قد تقدم فى حديث أمير المؤمنين عثمان وعلى وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معديكرب أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين فى وضوئه إما مرة وإما مرتين أو ثلاثا على اختلاف رواياتهم وفى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه ثم قال « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به »

وفى الصحيحين من رواية أبى عوانة عن أبى بشر عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال تخلف عنا رسول الله ﷺ فى سفرة سافرناها فأدركنا وقد أرهقتنا الصلاة صلاة العصر ونحن نتوضأ فجعلنا نمسح على أرجلنا فنادى بأعلى صوته « أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار » وكذلك هو فى الصحيحين عن أبى هريرة وفى صحيح مسلم عن عائشة عن النبى ﷺ أنه قال : « أسبغوا الوضوء ويل للاعقاب من النار » وروى الليث بن سعد عن حيوة بن شريح عن عقبة بن مسلم عن عبد الله بن الحارث بن حرز أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار » رواه البيهقى والحاكم وهذا إسناد صحيح وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحق أنه سمع سعيد بن أبى كرب أو شعيب بن أبى كرب قال سمعت جابر بن عبد الله وهو على جبل يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ويل للعراقيب من النار » وحدثنا أسود بن عامر أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن سعيد بن أبى كرب عن جابر بن عبد الله قال رأى النبى ﷺ فى رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله فقال « ويل للاعقاب من النار » ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن أبى الأحوص عن أبى إسحق عن سعيد به نحوه وكذا رواه ابن جرير من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج وغير واحد عن أبى إسحق السبيعى عن سعيد بن أبى كريب عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله ثم قال حدثنا على بن مسلم حدثنا عبد الصمد

ابن عبد الوراث حدثنا حفص عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى قوما يتوضئون لم يصب أعقابهم الماء فقال « ويل للعراقيب من النار » وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا أيوب بن عقبة عن يحي بن كثير عن أبي سلمة عن معيقيب قال : قال رسول الله ﷺ « ويل للأعقاب من النار » تفرد به أحمد

وقال ابن جرير حدثني علي بن عبد الأعلى حدثنا المحاربي عن مطرح بن يزيد عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « ويل للأعقاب من النار » قال فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع إلا نظرت اليه يقلب عرقوبيه ينظر اليهما . وحدثنا أبو كريب حدثنا حسين عن زائدة عن ليث حدثني عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة أو عن أخي أبي أمامة أن رسول الله ﷺ أبصر قوما يصلون وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء فقال « ويل للأعقاب من النار » قال فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئاً لم يصبه الماء أعاد وضوءه . ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما أو أنه يجوز ذلك فيهما لما توعد على تركه لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف وهكذا وجه هذه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى وقد روى مسلم في صحيحه من طريق أبي الزبير عن جابر عن عمر بن الخطاب أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبي ﷺ وقال « ارجع فأحسن وضوءك » وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا محمد بن إسحق الصنعاني حدثنا هرون بن معروف حدثنا ابن وهب حدثنا جرير بن حازم أنه سمع قتادة بن دعامة قال حدثنا أنس بن مالك أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ قد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ارجع فأحسن وضوءك » وهكذا رواه أبو داود عن هرون بن معروف وابن ماجه عن حرملة ويحي كلاهما عن ابن وهب به وهذا إسناد جيد رجاله كلهم ثقات لكن قال أبو داود ليس هذا الحديث بمعروف لم يروه إلا ابن وهب وحدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد أخبرنا يونس وحميد عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى حديث قتادة

وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن أبي العباس حدثنا بقية حدثني بحي بن سعد عن خالد بن معدان عن بعض أزواج النبي ﷺ رأى رجلا يصلي وفي ظهر قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء . ورواه أبو داود من حديث بقية وزاد والصلاة وهذا إسناد جيد قوي صحيح والله أعلم .

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه . وروى أهل السنن من حديث إسماعيل بن كثير عن عاصم بن لقيط بن صبرة عن أبيه قال قلت يا رسول الله أخبرني عن الوضوء فقال « أسبغ الوضوء وخلل بين الأصابع وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائما »

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمن المقرى حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال : قال أبو أمامة حدثنا عمرو بن عبسة قال قلت يا رسول الله أخبرني عن الوضوء قال « ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق وينتثر إلا خرت خطاياه من فمه وخياشيمه مع الماء حين ينتثر ، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله ، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء ثم يقوم فيحمد الله ويثني عليه بالذي هو له أهل ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » قال أبو أمامة يا عمرو انظر ما تقول سمعت هذا من رسول الله ﷺ أيعطى هذا الرجل كله في مقامه ؟ فقال عمرو بن عبسة يا أبا أمامة لقد كبرت سني ورق عظمي واقترب أجلي وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مرة

أو مرتين أوثلاثا . لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك وهذا إسناد صحيح وهو فى صحيح مسلم من وجه آخر وفيه ثم يغسل قدميه كما أمره الله فدل على أن القرآن يأمر بالغسل ، وهكذا روى أبو إسحق السبيعى عن الحارث عن على ابن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم ، ومن ههنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن على أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما فى النعلين فدلكهما إنما أراد غسلا خفيفاً وهما فى النعلين ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل فى نعلها ولكن فى هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين . وهكذا الحديث الذى أورده ابن جرير على نفسه وهو من روايته عن الأعمش عن أبى وائل عن حذيفة قال : أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم فبال قائما ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه ، وهو حديث صحيح . وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ رووه عن الأعمش عن أبى وائل عن حذيفة قال فبال قائما ثم توضأ ومسح على خفيه قلت ويحتمل الجمع بينهما بأن يكون فى رجليه خفان وعليهما نعلان وهكذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحي عن شعبة حدثنى يعلى عن أبيه عن أوس بن أبى أوس قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على نعليه ثم قام إلى الصلاة . وقد رواه أبو داود عن مسدد وعباد بن موسى كلاهما عن هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه عن أوس بن أبى أوس قال رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه وقد رواه ابن جرير من طريق شعبة ومن طريق هشيم ثم قال وهذا محمول على أنه توضأ كذلك وهو غير محدث إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية متعارضة وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر بعموم غسل القدمين فى الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى اليه وبلغه ، ولما كان القرآن آمراً بغسل الرجلين كما فى قراءة النصب وكما هو الواجب فى حمل قراءة الخفض عليها توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين وقد روى ذلك عن على بن أبى طالب ولكن لم يصح إسناده ثم الثابت عنه خلافه وليس كما زعموه فإنه قد ثبت أن النبى ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة وقال الإمام أحمد . حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد عن جرير بن عبد الله البجلى قال أنا أسلمت بعد نزول المائدة وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت تفرد به أحمد وفى الصحيحين من حديث الأعمش عن إبراهيم عن همام قال بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه فقيل تفعل هذا ؟ فقال نعم رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه قال الأعمش قال إبراهيم فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائده : لفظ مسلم وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشروعية المسح على الخفين قولا منه وفعلا كما هو مقرر فى كتاب الأحكام الكبير مع مايحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه أو التفصيل فيه كما هو مبسوط فى موضعه وقد خالفت الروافض فى ذلك بلا مستند بل بجهل وضلال مع أنه ثابت فى صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه كما ثبت فى الصحيحين عنه عن النبى ﷺ النهى عن نكاح المتعة وهم يستبيحونها ، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق مادلت عليه الآية الكريمة ، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح فى نفس الأمر ولله الحمد ، وهكذا خالفوا الأئمة والسلف فى الكعبين اللذين فى القدمين فعندهم أنهما فى ظهر القدم فعندهم فى كل رجل كعب وعند الجمهور أن الكعبين هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم . قال الربيع قال الشافعى لم أعلم مخالفاً فى أن الكعبين اللذين ذكرهما الله فى كتابه فى الوضوء هما الناتئان وهما مجمع مفصل الساق والقدم هذا لفظه فعند الأئمة رحمهم الله فى كل قدم كعبان كما هو المعروف عند الناس وكما دلت عليه السنة ففى الصحيحين من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين واليسرى مثل ذلك

وروى البخارى تعليقاً مجزوما به وأبو داود وابن خزيمة فى صحيحه من رواية أبى القاسم الحسينى بن الحارث الجدلى عن النعمان بن بشير قال أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال « أقيموا صفوفكم — ثلاثا — والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم » قال فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه وركبته ركبة صاحبه ومنكبه بمنكبه

لفظ ابن خزيمة فليس يمكن ان يلزق كعبه بكعب صاحبه إلا والمراد به العظم الناتئ في الساق حتى يحاذى كعب الآخر فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظمان الناتئان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة . وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إسماعيل بن موسى أخبرنا شريك عن يحيى بن الحارث التيمى يعنى الجابر قال نظرت فى قتلى أصحاب زيد فوجدت الكعب فوق ظهر القدم وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم تنكيلا بهم فى مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه . وقوله تعالى (وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) كل ذلك قد تقدم الكلام عليه فى تفسير آية النساء فلا حاجة بنا إلى إعادته لئلا يطول الكلام. وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك لكن البخارى روى ههنا حديثا خاصا بهذه الآية الكريمة فقال حدثنا يحيى بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن أبيه عن عائشة قالت سقطت قلادة لى بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ﷺ ونزل فثنى رأسه فى حجرى راقداً فأقبل أبو بكر فلكزنى لكزة شديدة وقال: حبست الناس فى قلادة فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ منى وقد أوجعنى ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد فنزلت (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) إلى آخر الآية فقال أسيد بن الحضير لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر ما أنتم إلا بركة لهم . وقوله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أى فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم وجعله فى حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه وكما هو مقرر فى كتاب الأحكام الكبير . وقوله تعالى (ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) أى لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرأفة والرحمة والتسهيل والسماحة وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين فى امتثال هذه الآية الكريمة كما رواه الامام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتى فروحتها بعشى فأدركت رسول الله ﷺ قائما يحدث الناس فأدركت من قوله « مامن مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلا عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة » قال : قلت ما أجود هذه فإذا قائل بين يدى يقول التى قبلها أجود منها فنظرت فإذا عمر رضى الله عنه فقال إنى قد رأيتك جئت آنفا قال « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » لفظ مسلم .وقال مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب » رواه مسلم عن أبى الطاهر عن ابن وهب عن مالك به : وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان عن منصور عن سالم بن أبى الجعد عن كعب بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ « مامن رجل يتوضأ فيغسل يديه أو ذراعيه إلا خرجت خطاياه ، منهما فإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه فإذا مسح رأسه خرجت خطاياه من رأسه فإذا غسل رجليه خرجت خطاياه من رجليه » هذا لفظه وقد رواه الإمام أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن منصور عن سالم عن مرة بن كعب أو كعب بن مرة السلمى عن النبى ﷺ قال « وإذا توضأ العبد فغسل يديه خرجت خطاياه من بين يديه وإذا غسل وجهه خرجت خطاياه من وجهه وإذا غسل ذراعيه خرت خطاياه من ذراعيه وإذا غسل رجليه خرت خطاياه من رجليه » قال شعبة ولم يذكر مسح الرأس وهذا إسناد صحيح

وروى ابن جرير من طريق شمر بن عطية عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه » وروى مسلم فى صحيحه من حديث

يحيي بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال « الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والله أكبر تملأ مابين السماء والأرض والصوم جنة والصبر ضياء والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وفي صحيح مسلم من رواية سماك بن حرب عن مصعب بن سعد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقبل الله صدقة من غلول ولا صلاة بغير طهور » وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن قتادة سمعت أبي المليح الهذلي يحدث عن أبيه قال كنت مع رسول الله ﷺ في بيت فسمعته يقول « إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور ولا صدقة من غلول » وكذا رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعته ومناصرته ومؤازرته . والقيام بدينه وإبلاغه عنه وقبوله منه فقال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا) وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم كما قالوا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ، وقال الله تعالى (وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين) وقيل هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وقيل هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) قاله مجاهد ومقاتل بن حيان والقول الأول أظهر وهو المحكي عن ابن عباس والسدي واختاره ابن جرير ثم قال تعالى (واتقوا الله) تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال (إن الله عليم بذات الصدور) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله) أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل لا لأجل الناس والسمعة وكونوا (شهداء بالقسط) أي بالعدل لا بالجور وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال نحلني أبي نحلا فقالت أمي عمرة بنت رواحة لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ فجاءه ليشهده على صدقتي فقال « أكل ولدك نحلت مثله ؟ » قال لا فقال « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » وقال « إني لا أشهد على جور » قال فرجع أبي فرد تلك الصدقة . وقوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا) أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل في كل أحد صديقا كان أو عدواً ولهذا قال (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه كما في نظائره من القرآن وغيره كما في قوله (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) وقوله : هو أقرب للتقوى من باب استعمال أفعل التفضيل

فى المحل الذى ليس فى الجانب الآخر منه شىء كما فى قوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وكقول بعض الصحابيات لعمر أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ ثم قال تعالى (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) أى وسيجزيكم على ما علم من أفعالكم التى عملتموها إن خيراً فخير وإن شرا فشر ولهذا قال بعده (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) أى لذنوبهم (وأجر عظيم) وهو الجنة التى هى من رحمته على عباده لاينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم وهو تعالى الذى جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه فالكل منه وله فله الحمد والمنة ثم قال (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذى لا يجور فيه بل هو الحكم العدل الحكيم القدير وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى ذكره عن أبى سلمة عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم نزل منزلا وتفرق الناس فى العضاه يستظلون تحتها وعلق النبى ﷺ سلاحه بشجرة فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذه فسله ثم أقبل على النبى ﷺ فقال من يمنعك منى قال «الله عز وجل» قال الأعرابى مرتين أو ثلاثا من يمنعك منى ؟ والنبى ﷺ يقول «الله» قال فشام الأعرابى السيف فدعا النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابى وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه . وقال معمر كان قتادة يذكر نحو هذا ويذكر أن قوما من العرب أرادوا أن يفتكوا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذه الأعرابى وتأول (اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم) الآية وقصة هذا الأعرابى وهو غورث بن الحارث ثابتة فى الصحيح وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) وذلك أن قوما من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاما ليقتلوهم فأوحى الله اليه بشأنهم فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فأتوه رواه ابن أبى حاتم وقال أبو مالك نزلت فى كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد وأصحابه فى دار كعب بن الأشرف رواه ابن أبى حاتم وذكر محمد بن إسحق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت فى شأن بنى النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم فى دية العامريين ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك وأمروه إن جلس النبى صلى الله عليه وسلم تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه فأطلع الله النبى ﷺ على ما تمالئوا عليه فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله فى ذلك هذه الآية وقوله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعنى من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ * فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذى أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين اليهود والنصارى فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم ، وطردا عن بابه وجنابه ، وحجابا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق وهو العلم النافع والعمل الصالح فقال تعالى (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا) يعنى عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه وقد ذكر ابن عباس عن ابن إسحق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر بأن يقيم نقباء من كل سبط نقيب قال محمد بن إسحق فكان من سبط روبيل شامون بن زكون ومن سبط شمعون شافاط بن حرى ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا ومن سبط أتين ميخائيل بن يوسف ومن سبط يوسف وهو سبط إفرايم يوشع بن نون ومن سبط بنيامين فلطم بن دفون ومن سبط زبولون جدى بن شورى ومن سبط منشا بن يوسف جدى بن موسى ومن سبط دان خملائيل بن حمل ومن سبط أشار ساطور بن ملكيل ومن سبط نفثالى بحر بن وقسى ومن سبط يساخر لايل بن مكيد وقد رأيت فى السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بنى إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحق والله أعلم قال فيها فعلى بنى روبيل اليصور بن سادون وعلى بنى شمعون شموال بن صورشكى وعلى بنى يهوذا الحشون بن عمياذاب وعلى بنى يساخر شال بن صاعون وعلى بنى زبولون الياب بن حالوب وعلى بنى إفرايم منشا بن عمنهور وعلى بنى منشا حمليائيل بن يرصون وعلى بنى بنيامين أبيدن بن جدعون وعلى بنى دان جعيذر بن عميشذى وعلى بنى أشار نحايل بن عجران وعلى بنى كان السيف بن دعوابيل وعلى بنى نفتالى أجزع بن عمينان . وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة كان فيهم اثنا عشر نقيباً ثلاثة من الأوس وهم أسيد بن الحضير وسعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر ويقال بدله أبو الهيثم ابن التيهان رضى الله عنه وتسعة من الخزرج وهم أبو أمامة أسعد بن زرارة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة ورافع ابن مالك بن العجلان والبراء بن معرور وعبادة بن الصامت وسعد بن عبادة وعبد الله بن عمرو بن حرام والمنذر بن عمر بن حنيش[1] رضى الله عنهم وقد ذكرهم كعب بن مالك فى شعر له كما أورده ابن إسحق رحمه الله والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبى ﷺ لهم بذلك وهم الذين ولوا المعاقدة والمبايعة عن قومهم للنبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن زيد عن مجالد عن الشعبى عن مسروق قال كنا جلوسا عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن هل سألتم رسول الله ﷺ كم يملك هذه الأمة من خليفة ؟ فقال عبد الله ماسألنى عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ثم قال نعم ولقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « اثنا عشر كعدة نقباء بنى إسرائيل » هذا حديث غريب من هذا الوجه وأصل هذا الحديث ثابت فى الصحيحين من حديث جابر بن سمرة قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « لايزال أمر الناس ماضيا ماوليهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبى صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت على فسألت أبى ماذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، قال «كلهم من قريش» وهذا لفظ مسلم . ومعنى هذا الحديث البشارة بوجود اثنى عشر خليفة صالحا يقيم الحق ويعدل فيهم ولا يلزم من هذا توالبهم وتتابع أيامهم بل قد وجد منهم أربعة على نسق وهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم ومنهم عمر بن عبد العزيز بلا شك عند الأئمة وبعض بنى العباس ولا تقوم الساعة حتى تكون ولايتهم لامحالة والظاهر أن منهم المهدى المبشر به فى الأحاديث الواردة بذكره فذكر أنه يواطئ اسمه اسم النبى صلى الله عليه وسلم واسم أبيه اسم أبيه فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وليس هذا بالمنتظر الذى تتوهمه الرافضة وجوده ثم ظهوره من سرداب سامرا فإن ذلك ليس له حقيقة ولا وجود بالكلية بل هو من هوس العقول السخيفة ، وتوهم الخيالات الضعيفة وليس المراد بهؤلاء الخلفاء الاثنى عشر الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الاثنا عشرة من الروافض لجهلهم وقلة عقلهم وفى التوراة البشارة بإسماعيل عليه

(١) قوله عمر بن حنيش كذا بالأصل وحرر

السلام وأن الله يقيم من صلبه اثنى عشر عظيما وهم هؤلاء الخلفاء الاثنا عشر المذكورون في حديث ابن مسعود وجابر بن سمرة وبعض الجهلة ممن أسلم من اليهود إذا اقترن بهم بعض الشيعة يوهمونهم أنهم الأئمة الاثنا عشر فيتشيع كثير منهم جهلا وسفها لقلة علمهم وعلم من لقنهم ذلك بالسنن الثابتة عن النبي ﷺ وقوله تعالى (وقال الله إني معكم) أي بحفظي وكلاءتي ونصري (لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي) أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي (وعزرتموهم) أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق (وأقرضتم الله قرضاً حسنا) وهو الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته (لأكفرن عنكم سيئاتكم) أي ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أؤاخذكم بها (ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار) أي أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود وقوله (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده فقال (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم) أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى (وجعلنا قلوبهم قاسية) أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها (يحرفون الكلم عن مواضعه) أي فسدت فهومهم وساء تصرفهم في آيات الله وتأولوا كتابه على غير ما أنزله وحملوه على غير مراده وقالوا عليه مالم يقل عياذاً بالله من ذلك (ونسوا حظا مما ذكروا به) أي وتركوا العمل به رغبة عنه وقال الحسن تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها وقال غيره تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة فلا قلوب سليمة ولا فطر مستقيمة ولا أعمال قويمة (ولا تزال تطلع على خائنة منهم) يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك وقال مجاهد وغيره يعني بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم (فاعف عنهم واصفح) وهذا هو عين النصر والظفر كما قال بعض السلف ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ولعل الله أن يهديهم ولهذا قال تعالى (إن الله يحب المحسنين) يعني به الصفح عمن أساء إليك وقال قتادة هذه الآية فاعف عنهم واصفح منسوخة بقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) الآية . وقوله تعالى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم) أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح بن مريم عليه السلام وليسوا كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومناصرته وموازرته واقتفاء آثاره وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ونقضوا العهود ولهذا قال تعالى (فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضا ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضا فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها فالملكية تكفر اليعقوبية وكذلك الآخرون وكذلك النسطورية والآريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ثم قال تعالى (وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون) وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولدا تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل فقال تعالى (ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما

كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير) أى يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه وافتروا على الله فيه ويسكت عن كثير مما غيروه ولا فائدة فى بيانه وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب) فكان الرجم مما أخفوه ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) أى طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة (ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) أى ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفى عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى مخبرا وحاكيا بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح بن مريم وهو عبد من عباد الله وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه (قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً) أى لو أراد ذلك فمن ذا الذى كان يمنعه منه أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك ثم قال (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء) أى جميع الموجودات ملكه وخلقه وهو القادر على ما يشاء لا يسئل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة : ثم قال تعالى رادا على اليهود والنصارى فى كذبهم وافترائهم (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أى نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية وهو يحبنا ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل أنت ابنى بكرى فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا هذا يطلق عندهم على التشريف والاكرام كما نقل النصارى عن كتابهم أن عيسى قال لهم إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم يعنى ربى وربكم ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من البنوة ما ادعوها فى عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده ولهذا قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه . قال الله تعالى رادا عليهم (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) أى لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء أين تجد فى القرن أن الحبيب لا يعذب حبيبه فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفى هذه الآية (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) وهذا الذى قاله حسن وله شاهد فى المسند للامام أحمد حيث قال حدثنا ابن أبى عدى عن حميد عن أنس قال مر النبى صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول ابنى ابنى وسعت فأخذته فقال القوم يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ولدها فى النار قال فخفظهم النبى صلى الله عليه وسلم فقال «لا والله ما يلقى حبيبه فى النار » تفرد به أحمد (بل أنتم بشر ممن خلق) أى لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم وهو سبحانه الحاكم فى جميع عباده (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى هو فعال لما يريد لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب (ولله ملك السموات والأرض وما بينهما) أى الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه (وإليه المصير) أى المرجع والمآب إليه فيحكم فى عباده بما يشاء وهو العادل الذى لا يجور وروى محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد

عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس قال وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن آصا وبحر بن عمرو وشاس بن عدى فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا ماتخوفنا يامحمد نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله فيهم (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) إلى آخر الآية رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وروياأيضا من طريق أسباط عن السدى فى قول الله (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه) أما قولهم نحن أبناء الله فإنهم قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولدك بكرى من الولد فيدخلهم النار فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل فأخرجوهم فذلك قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودات

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين الذى لانبى بعده ولا رسول بل هو المعقب لجميعهم ولهذا قال على فترة من الرسل أى بعد مدة متطاولة مابين إرساله وعيسى بن مريم وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة كم هى فقال أبوعثمان النهدى وقتادة فى رواية عنه كانت ستمائة سنة ورواه البخارى عن سلمان الفارسى وعن قتادة خمسمائة وستون سنة وقال معمر عن بعض أصحابه خمسمائة وأربعون سنة وقال الضحاك أربعمائة وبضع وثلاثون سنة وذكر ابن عساكر فى ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبى أنه قال ومن رفع المسيح إلى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة والمشهور هو القول الأول وهو أنها ستمائة سنة ومنهم من يقول ستمائة وعشرون سنة ولا منافاة بينهما فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية والآخر أراد قمرية وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين ولهذا قال تعالى فى قصة أهل الكهف (ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) أى قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التى كانت معلومة لأهل الكتاب(١) وكانت الفترة بين عيسى بن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل وبين محمد خاتم النبيين من بنى آدم على الاطلاق كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بينى وبينه نبى » وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبى يقال له خالد بن سنان كما حكاه القضاعى وغيره والمقصود أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل وطموس من السبل وتغير الأديان وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة اليه أمر عمم ، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين كما قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد المجاشعى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال فى خطبته «وإن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا كل مال نحلته عبادى حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ثم إن الله عزوجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من بنى إسرائيل وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرأ نائماً ويقظانا ، ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا فقلت يارب إذن يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة فقال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق عليهم فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة أمثاله وقاتل بمن أطاعك من عصاك وأهل الجنة ثلاثة ذوسلطان مقسط موفق متصدق ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قربى ومسلم ورجل عفيف فقير ذو عيال وأهل النار خمسة الضعيف الذى لادين له والذين هم فيكم تبع أوتبعا ـ شك يحيى ـ لايبتغون أهلا ولامالا ، والخائن الذى لايخفى له طمع وإن دق إلا خانه ، ورجل لايصبح ولايمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخيل أوالكذب والشنظير

(١) التحقيق الموافق للحساب الفلكى أن الهجرة النبوية كانت سنة ٦٢٢ لميلاد المسيح والبعثة كانت قبل الهجرة بعشر سنين باعتبار التبليغ فهذا قريب مما اعتمده المؤلف .

الفاحش ثم رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائى من غير وجه عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير وفى رواية شعبة عن قتادة التصريح بسماع قتادة هذا الحديث من مطرف وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده أن قتادة لم يسمعه من مطرف وإنما سمعه من أربعة عنه ثم رواه هو عن روح عن عوف عن حكيم الأثرم عن الحسن قال حدثنى مطرف عن عياض بن حماد فذكره ورواه النسائى من حديث غندر عن عوف الأعرابى به والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بنى إسرائيل » وفى لفظ مسلم من أهل الكتاب وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور وتركهم على المحجة البيضاء والشريعة الغراء ولهذا قال تعالى (أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير) أى لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ماجاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر فقد جاءكم بشير ونذير يعنى محمداً ﷺ (والله على كل شىء قدير) قال ابن جرير معناه إنى قادر على عقاب من عصانى وثواب من أطاعنى

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ * قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم فى جمعه لهم خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء) أى كلما هلك نبى قام فيكم نبى من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده وكذلك كانوا لايزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى بن مريم عليه السلام ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الاطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وهو أشرف من كل من تقدمه منهم صلى الله عليه وسلم وقوله (وجعلكم ملوكا) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن الحكم أو غيره عن ابن عباس فى قوله وجعلكم ملوكا قال الخادم والمرأة والبيت وروى الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى أيضا عن الأعمش عن مجاهد عن بن عباس قال المرأة والخادم (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) قال الذين هم بين ظهرانيهم يومئذ ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمى ملكا وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا أبو هانىء أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلى يقول سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال ألسنا من فقراء المهاجرين فقال عبدالله ألك امرأة تأوى اليها قال نعم قال ألك مسكن تسكنه قال نعم ، قال فأنت من الأغنياء . فقال إن لى خادما قال فأنت من الملوك وقال الحسن البصرى : هل الملك إلا مركب وخادم ودار رواه ابن جرير ، ثم روى عن الحكم ومجاهد ومنصور وسفيان الثورى نحوا من هذا وحكاه ابن أبى حاتم عن ميمون بن مهران وقال ابن شوذب

كان الرجل من بنى إسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه فهو ملك . وقال قتادة كانوا أول من اتخذ الخدم وقال السدى فى قوله (وجعلكم ملوكا) قال يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله رواه ابن أبى حاتم وقال ابن أبى حاتم ذكر عن ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكا وهذا حديث غريب من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثنا الزبير ابن بكار حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض سمعت زيد بن أسلم يقول وجعلكم ملوكا فلا أعلم إلا أنه قال : قال رسول الله ﷺ من كان له بيت وخادم فهو ملك وهذا مرسل غريب . وقال مالك : بيت وخادم وزوجة (١) وقد ورد فى الحديث « من أصبح منكم معافى فى جسده آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » وقوله (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى عالمى زمانكم فإنهم كانوا أشرف الناس فى زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بنى آدم كما قال (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين) وقال تعالى إخبارا عن موسى لما قالوا (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) والمقصود أنهم كانوا أفضل زمانهم وإلا فهذه الأمة أشرف منهم وأفضل عند الله وأكمل شريعة وأقوم منهاجا وأكرم نبيا وأعظم ملوكا وأغزر أرزاقا وأكثر أموالا وأولادا وأوسع مملكة وأدوم عزا قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة فى فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) من سورة آل عمران؛ وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبى مالك وسعيد بن جبير أنهم قالوا فى قوله (وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فكأنهم أرادوا أن هذا الخطاب فى قوله (وآتاكم مالم يؤت أحدا) مع هذه الأمة والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه وهو محمول على عالمى زمانهم كما قدمنا . وقيل المراد وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين يعنى بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى ويظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات فالله أعلم . ثم قال تعالى مخبرا عن تحريض موسى عليه السلام لبنى إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى فوجدوا فيها قوما من العمالقة الجبارين قد استحوذوا عليها وتملكوها فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره فعوقبوا بالذهاب فى التيه والتمادى فى سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون فيه إلى مقصد مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفريطهم فى أمر الله تعالى . فقال تعالى مخبرا عن موسى أنه قال يا قومى ادخلوا الأرض المقدسة أى المطهرة وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله ادخلوا الأرض المقدسة قال هى الطور وما حوله وكذا قال مجاهد وغير واحد وروى سفيان الثورى عن أبى سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال هى أريحاء وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين وفى هذا نظر لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الطور شرقى بيت المقدس وقوله تعالى (التى كتب الله لكم) أى التى وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم (ولا ترتدوا على أدباركم) أى ولا تنكلوا عن الجهاد (فتنقلبوا خاسرين. قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون) أى اعتذروا بان فى هذه البلدة التى أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوما جبارين ذوى خلق هائلة وقوى شديدة ، وإنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ولا يمكننا الدخول إليها مادام فيها فان يخرجوا منها دخلناها وإلا فلا طاقة لنا بهم . وقد قال ابن جرير حدثنى عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان قال: قال أبو سعيد قال عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين قال فسار موسى بمن

(١) سقط هذا الأثر من النسخة الأميرية.

معه حتى نزل قريباً من المدينة وهى أريحاء فبعث إليهم اثنى عشر عينا من كل سبط منهم عين ليأتوه بخبر القوم قال فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيما من هيئتهم وجسمهم وعظمهم فدخلوا حائطا لبعضهم فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه فجعل يجتنى الثمار وينظر إلى آثارهم فتتبعهم فكلما أصاب واحدا منهم أخذه فجعله فى كمه مع الفاكهة حتى التقط الاثنى عشر كلهم فجعلهم فى كمه مع الفاكهة وذهب بهم إلى ملكهم فنثرهم بين يديه ، فقال لهم الملك قد رأيتم شأننا وأمرنا فاذهبوا فأخبروا صاحبكم قال فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم : وفى هذا الإسناد نظر(١) وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى وقومه بعث منهم اثنى عشر رجلا وهم النقباء الذين ذكرهم الله فبعثهم ليأتوه بخبرهم فساروا فلقيهم رجل من الجبارين فجعلهم فى كسائه فحملهم حتى أتى بهم المدينة ونادى فى قومه فاجتمعوا إليه فقالوا من أنتم ؟ قالوا نحن قوم موسى بعثنا نأتيه بخبركم فأعطوهم حبة من عنب تكفى الرجل فقالوا لهم اذهبوا إلى موسى وقومه فقولوا لهم هذا قدر فاكهتهم ، فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما رأوا فلما أمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم وقتالهم قالوا يا موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون رواه ابن أبى حاتم ثم قال حدثنا أبى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا يحى بن أيوب عن يزيد بن الهادى حدثنى يحى بن عبد الرحمن قال رأيت أنس بن مالك أخذ عصا فذرع فيها بشىء لا أدرى كم ذرع ثم قاس بها فى الأرض خمسين أو خمسا وخمسين ثم قال هكذا طول العماليق : وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا أخباراً من وضع بنى إسرائيل فى عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن منهم عوج بن عنق بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث ذراع تحرير الحساب وهذا شىء يستحى من ذكره ، ثم هو مخالف لما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافرا وأنه كان ولد زنية وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته : وهذا كذب وافتراء . فان الله تعالى ذكر أن نوحا دعا على أهل الأرض من الكافرين فقال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وقال تعالى (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين) وقال تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) وإذا كان ابن نوح الكافر غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ فى عقل ولا شرع . ثم فى وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر والله أعلم . وقوله تعالى (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) أى فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه . وقرأ بعضهم (قال رجلان من الذين يخافون) أى ممن لهم مهابة وموضع من الناس ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفنا(١) . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدى والربيع بن أنس وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالا (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غالبون * وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنون) أى إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم ودخلتم البلد التى كتبها الله لكم فلم ينفع ذلك فيهم شيئا (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) وهذا نكول منهم عن الجهاد ومخالفة لرسولهم : وتخلف عن مقاتلة الأعداء . ويقال إنهم لما نكلوا على الجهاد وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر سجد موسى وهرون عليهما السلام قدام ملأ من بنى إسرائيل إعظاما لما هموا به وشق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما ولا ماقومهما على ذلك فيقال إنهم رجموهما ، وجرى أمر عظيم وخطر جليل وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضى الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم فى قتال النفير الذين جاءوا لمنع العير الذى كان مع أبى سفيان ، فلما فات اقتناص العير واقترب منهم النفير وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف فى العدة والبيض واليلب فتكلم أبو بكر رضى الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله ﷺ يقول « أشيروا على أيها المسلمون » وما يقول ذلك إلا ليستعلم ماعند الأنصار لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يا رسول الله فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته

(١) والمتن خرافة إسرائيلية . (١) فى نسخة الأزهر . يوقنا بالقاف وضبط فى سفر العدد يفنه بفتح الياء وضم الفاء وتشديد النون.

لخضناه معك ماتخلف منارجل واحد ، وما نكره أن تلق بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب صدق(١) فى اللقاء لعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك . وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو حاتم الرازى حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ، ثم استشارهم فقالت الأنصار . يامعشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا إذا لانقول له كما قالت بنوا إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون) والذى بعثك بالحق لوضربت أكبادها الى برك الغماد لاتبعناك ورواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد عن حميد الطويل عن أنس به ورواه النسائى عن محمد بن المثنى عن خالد بن الحارث عن حميد به ورواه ابن حبان عن أبى يعلى عن عبد الأعلى بن حماد عن معمر بن سليمان عن حميد به وقال ابن مردويه أنا عبدالله بن جعفر أنا إسماعيل بن عبدالله حدثنا عبدالرحمن بن إبراهيم حدثنا محمد بن شعيب عن الحكم بن أيوب عن عبدالله بن ناسخ عن عتبة بن عبيد السلمى قال : قال النبى ﷺ لأصحابه « ألاتقاتلون ؟ » قالوا نعم ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندى رضى الله عنه كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنى سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسى عن طارق هو ابن شهاب أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر يارسول الله إنا لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، هكذا رواه أحمد من هذا الوجه ، وقد رواه من طريق أخرى فقال حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال: قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه :لقدشهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال والله يارسول الله لانقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إناهاهنا قاعدون) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله ﷺ أشرق لذلك وسره ذلك . وهكذا رواه البخارى فى المغازى وفى التفسير من طرق عن مخارق به ولفظه فى كتاب التفسير عن عبدالله قال : قال المقداد يوم بدر يارسول الله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن امض ونحن معك . فكأنه سرّى عن رسول الله ﷺ ثم قال البخارى رواه وكيع عن سفيان عن مخارق عن طارق أن المقداد قال للنبى صلى الله عليه وسلم وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد المشركون الهدى وحيل بينهم وبين مناسكهم « إنى ذاهب بالهدى فناحره عند البيت » فقال له المقداد بن الأسود : أما والله لانكون كالملأ من بنى إسرائيل إذ قالوا لنبيهم (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تتابعوا على ذلك ، وهذا إن كان محفوظا يوم الحديبية فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر . وقوله (قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) يعنى لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام . وقال داعيا عليهم (رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى) أى ليس أحد يطيعنى منهم فيمتثل أمر الله ويجيب إلى مادعوت اليه إلا أنا وأخى هرون (فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال العوفى عن ابن عباس يعنى اقض بينى وبينهم. وكذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وكذا قال الضحاك اقض بيننا وبينهم وافتح بيننا وبينهم وقال غيره افرق افصل بيننا وبينهم كما قال الشاعر :

يارب فافرق بينه وبينى * أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله تعالى (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) الآية لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم قدر مدة أربعين سنة فوقعوا فى التيه يسيرون دائما لايهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة

(١) صبر وصدق بضمتين فيهما جمع صبور وصدوق .

صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجرى لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك نزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ويقال لها قبة الزمان قال يزيد بن هرون عن أصبغ بن زيد عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير سألت ابن عباس عن قوله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) الآية . قال فتاهوا فى الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه وأنزل عليهم المن والسلوى وهذا قطعة من حديث الفتون ، ثم كانت وفاة هرون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبيا خليفة عن موسى بن عمران ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدة ، ويقال إنه لم يبق منه أحد سوى يوشع وكالب ومن ههنا قال بعض المفسرين فى قوله (قال فإنها محرمة عليهم) هذا وقف تام وقوله (أربعين سنة) منصوب بقوله (يتيهون فى الأرض) فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام أو بمن بقى منهم وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثانى فقصدبهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشى دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها على . فحبسها الله تعالى حتى فتحها وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بنى إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجدا وهم يقولون حطة أى حط عنا ذنوبنا فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون حبة فى شعرة ، وقد تقدم هذا كله فى سورة البقرة

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا محمد بن أبى عمر العبدى حدثنا سفيان عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قوله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض) قال فتاهوا أربعين سنة قال فهلك موسى وهرون فى التيه وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون وهو الذى قام بالأمر بعد موسى وهو الذى افتتحها وهو الذى قيل له اليوم يوم الجمعة فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يسبتوا فنادى الشمس إنى مأمور وإنك مأمورة فوقفت حتى افتتحها فوجد فيها من الأموال مالم ير مثله قط فقربوه إلى النار فلم تأته فقال فيكم الغلول فدعا رءوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلا فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده فقال : الغلول عندك فأخرجه فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان فأتت النار فأكلته وهذا السياق له شاهد فى الصحيح ، وقد اختار ابن جرير أن قوله (فإنها محرمة عليهم) هو العامل فى أربعين سنة وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة وهم تائهون فى البرية لا يهتدون لمقصد قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ففتح بهم بيت المقدس ثم احتج على ذلك من قال بإجماع علماء أحبار الأولين أن عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام قال : فلو كان قتله إياه قبل التيه لما رهبت بنو إسرائيل من العماليق فدل على أنه كان بعد التيه قال : وأجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى قال وما ذاك إلا بعد التيه لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه ، هذا استدلاله ، ثم قال : حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عطية حدثنا قيس عن أبى إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال كانت عصا موسى عشرة أذرع ووثبته عشرة أذرع ، وطوله عشرة أذرع فوثب فأصاب كعب عوج فقتله فكان جسرا لأهل النيل سنة وروى أيضا عن محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبى إسحق عن نوف هو البكالى قال كان سرير عوج ثمانمائة ذراع وكان طول موسى عشرة أذرع ، وعصاه عشرة أذرع ، ووثب فى السماء عشرة أذرع ، فضرب عوجا فأصاب كعبه فسقط ميتا وكان جسرا للناس يمرون عليه .

وقوله تعالى (فلا تأس على القوم الفاسقين) تسلية لموسى عليه السلام عنهم أى لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون ذلك . وهذه القصة تضمنت تقريع اليهود وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتهما فيما أمراهم به من الجهاد فضعفت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم مع ان بين أظهرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكليمه وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم هذا مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده فى اليم

وهم ينظرون لتقربه أعينهم وما بالعهد من قدم ، ثم ينكلون عن مقاتلة أهل بلد هي بالنسبة إلى ديار مصر لا توازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم ، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام ، وافتضحوا فضيحة لا يغطيها الليل ، ولا يسترها الذيل ، هذا وهم فى جهلهم يعمهون ، وفى غيهم يترددون ، وهم البغضاء إلى الله وأعداؤه ، ويقولون مع ذلك نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقبح الله وجوههم التى مسخ منها الخنازير والقرود وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود ، ويقضى لهم فيها بتأبيد الخلود ، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم فى خبر ابنى آدم لصلبه فى قول الجمهور وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغيا عليه وحسدا له فيما وهبه الله من النعمة وتقبل القربان الذى أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة فى الدارين فقال تعالى (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) أى اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابنى آدم وهما هابيل وقابيل فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف وقوله (بالحق) أى على الجلية والأمر الذى لا لبس فيه ولا كذب ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان كقوله تعالى (إن هذا لهو القصص الحق) وقوله تعالى (نحن نقص عليك نبأهم بالحق) وقال (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق) وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى شرع لآدم عليه السلام أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة، فأراد أن يستأثر بها على أخيه فأبى آدم ذلك إلا أن يقربا قربانا فمن تقبل منه فهى له فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه

﴿ ذكر أقوال المفسرين ههنا ﴾

قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل وكان قابيل صاحب زرع وكان هابيل صاحب ضرع وكان قابيل أكبرهما وكان له أخت أحسن من أخت هابيل وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبى عليه وقال هى أختى ولدت معى وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبى وأنهما قربا قربانا إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها قال الله عز وجل هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض قال اللهم لا قال إن لى بيتا فى مكة فأته فقال آدم للسماء احفظى

ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل فقال نعم تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك فلما انطلق آدم قربا قربانا وكان قابيل يفخر عليه فقال أنا أحق بها منك هى أختى وأنا أكبر منك وأنا وصى والدى فلما قربا قرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها فنزلت النار فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل فغضب وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختى فقال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين رواه ابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن خثيم قال أقبلت مع سعيد بن جبير فحدثنى عن ابن عباس قال نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة فقال أخو الدميمة أنكحنى أختك وأنكحك أختى فقال لا أنا أحق بأختى فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله إسناد جيد وحدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قوله (إذ قربا قرباناً) فقربا قربانهما فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض ، وصاحب الحرث بصبرة من طعامه فقبل الله الكبش فخزنه فى الجنة أربعين خريفا وهو الكبش الذى ذبحه إبراهيم عليه السلام إسناد جيد .

وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن أبى المغيرة عن عبد الله بن عمرو قال إن ابنى آدم اللذين قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم وإنهما أمر أن يقربا قربانا وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه وإن صاحب الحرث قرب أشر حرثه الكوزن والزوان غير طيبة بها نفسه ، وإن الله عز وجل تقبل قربان صاحب الغنم ولم يتقبل قربان صاحب الحرث وكان من قصتهما ما قص الله فى كتابه قال وايم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج أن يبسط يده إلى أخيه ، وقال إسماعيل بن رافع المدنى القاص بلغنى أن ابنى آدم لما أمرا بالقربان كان أحدهما صاحب غنم وكان أنتج له حمل فى غنمه فأحبه حتى كان يؤثره بالليل وكان يحمله على ظهره من حبه حتى لم يكن له مال أحب إليه منه فلما أمر بالقربان قربه لله عز وجل فقبله الله منه فما زال يرتع فى الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم عليه السلام رواه ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا الأنصارى حدثنا القاسم بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن على بن الحسين قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل إن ربى عهد إلى أنه كائن من ذريتى من يقرب القربان فقربا قربانا حتى تقرعينى إذا تقبل قربانكما فقربا وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكولة غنم خير ما له وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة من زرعه فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما فصعدا الجبل فوضعا قربانهما ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان فبعث الله ناراً حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه فقال ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قربانى فقال قابيل لهابيل لأقتلنك وأستريح منك دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك وكان يتوعده بالقتل إلى أن احتبس هابيل ذات عشية فى غنمه فقال آدم يا قابيل أين أخوك قال وبعثتنى له راعيا لا أدرى فقال آدم ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك فقال قابيل فى نفسه الليلة أقتله وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب فقال يا هابيل تقبل قربانك ورد على قربانى لأقتلنك فقال هابيل قربت أطيب مالى ، وقربت أنت أخبث مالك وإن الله لا يقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها فقال ويلك يا قابيل أين أنت من الله كيف يجزيك بعملك فقتله فطرحه فى حوبة من الأرض ، وحثى عليه شيئاً من التراب

وروى محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول أن آدم أمر ابنه قابيل أن ينكح أخته توأمة هابيل وأمر هابيل أن ينكح أخته توأمة قابيل فسلم لذلك هابيل ورضى وأبى ذلك قابيل وكره تكرما عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل وقال نحن من ولادة الجنة وهما من ولادة الأرض وأنا أحق بأختى ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول كانت أخت قابيل من أحسن الناس فضن بها على أخيه وأرادها لنفسه والله أعلم أى ذلك كان فقال له أبوه يا بنى

إنها لاتحل لك فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه قال له أبوه يابنى قرب قربانا ويقرب أخوك هابيل قربانا فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها وكان قابيل على بذر الأرض وكان هابيل على رعاية الماشية فقرب قابيل قمحا وقرب هابيل أبكارا من أبكار غنمه وبعضهم يقول قرب بقرة فأرسل الله نارا بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله رواه ابن جرير

وروى العوفى عن ابن عباس قال من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه وإنما كان القربان يقربه الرجل فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا لوقربنا قربانا وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل اليه نارا فتأكله وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا وكان الآخر حراثا وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع وإن ابن آدم قال لأخيه أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على فلا والله لاينظر الناس إلى وأنت خير منى فقال لأقتلنك فقال له أخوه ماذنبى إنما يتقبل الله من المتقين . رواه ابن جرير فهذا الأثر يقتضى أن تقريب القربان كان لاعن سبب ولا عن تدارؤ فى امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن (إذقربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين) فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه ثم المشهور عند الجمهور أن الذى قرب الشاة هو هابيل وأن الذى قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هابيل شاته حتى قال ابن عباس وغيره إنها الكبش الذى فدى به الذبيح وهو مناسب والله أعلم ولم يتقبل من قابيل . كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذى قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه وهذا خلاف المشهور ولعله لم يحفظ عنه جيدا والله أعلم

ومعنى قوله (إنما يتقبل الله من المتقين) أى ممن اتقى الله فى فعله ذلك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زيد حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنى صفوان بن عمرو عن تميم يعنى ابن مالك المقرى قال سمعت أبا الدرداء يقول لأن أستيقن أن الله قد تقبل لى صلاة واحدة أحب إلىّ من الدنيا ومافيها إن الله يقول (إنما يتقبل الله من المتقين) وحدثنا أبى حدثنا عبدالله بن عمران حدثنا إسحق بن سليمان يعنى الرازى عن المغيرة بن مسلم عن ميمون بن أبى حمزة قال كنت جالساً عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أباعفيف ألاتحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس فى بقيع واحد فينادى مناد أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لايحتجب الله منهم ولايستتر قلت من المتقون ؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة . وقوله (لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلنك إنى أخاف الله رب العالمين) يقول له أخوه الرجل الصالح الذى تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ماذنب منه اليه (لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك) أى لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة (إنى أخاف الله رب العالمين) أى من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب قال عبدالله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التحرج يعنى الورع ولهذا ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه . وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ليث بن سعد عن عياش بن عباس عن بكير بن عبد الله عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبى وقاص قال عند فتنة عثمان أشهد أن رسول الله ﷺ قال « إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشى والماشى خير من الساعى » قال أفرأيت إن دخل على بيتى فبسط يده إلى ليقتلنى فقال « كن كابن آدم » وكذا رواه الترمذى عن قتيبة بن سعيد وقال هذا حديث حسن وفى الباب عن أبى هريرة وخباب ابن الأرت وأبى بكر وابن مسعود وأبى واقد وأبى موسى وخرشة ورواه بعضهم عن الليث بن سعد وزاد فى الاسناد رجلا قال الحافظ ابن عساكر : الرجل هو حسين الأشجعى قلت وقد رواه أبو داود من طريقه فقال حدثنا يزيد بن خالد الرملى حدثنا

الفضل عن عباش بن عباس عن بكير عن بشر بن سعيد عن حسين بن عبدالرحمن الأشجعى أنه سمع سعد بن أبى وقاص عن النبى ﷺ فى هذا الحديث قال فقلت يارسول الله أرأيت إن دخل بيتى وبسط يده ليقتلنى قال فقال رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم « كن كابن آدم » وتلا (لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) قال أيوب السختيانى إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) لعثمان بن عفان رضى الله عنه رواه ابن أبى حاتم . وقال الإمام أحمد حدثنا ابن حزم حدثنى أبو عمران الجونى عن عبدالله بن الصامت عن أبى ذر قال ركب النبى ﷺ حمارا وأردفنى خلفه وقال « ياأباذر أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لاتستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع ؟ » قال : قال الله ورسوله أعلم قال « تعفف » قال « يا أباذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد يعنى القبر كيف تصنع ؟ » قات الله ورسوله أعلم قال « اصبر » قال « ياأباذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضا يعنى حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع ؟ » قال الله ورسوله أعلم قال « اقعد فى بيتك وأغلق عليك بابك » قال فان لم أترك[(1)] قال « فأت من أنت منهم فكن منهم » قال فآخذ سلاحى قال « فإذا تشاركهم فيما هم فيه ولكن إذا خشيت أن يردعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كى يبوء بإثمه وإثمك » ورواه مسلم وأهل السنن سوى النسائى من طرق عن أبى عمران الجونى عن عبدالله بن الصامت به ورواه أبو داود وابن ماجه من طريق حماد بن زيد عن أبى عمران عن المشعث بن طريف عن عبدالله بن الصامت عن أبى ذر بنحوه قال أبو داود ولم يذكر المشعث فى هذا الحديث غير حماد بن زيد وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن منصور عن ربعى قال كنا فى جنازة حذيفة فسمعت رجلا يقول سمعت هذا يقول فى ناس مما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم « لئن اقتتلتم لأنظرن إلى أقصى بيت فى دارى فلألجنه فلئن دخل على فلان لأقولن ها بؤ بإثمى وإثمك فأكون كخير ابنى آدم » وقوله (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى فى قوله (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك قاله ابن جرير . وقال آخرون يعنى بذلك إنى أريد أن تبوء بخطيئتى فتتحمل وزرها وإثمك فى قتلك إياى وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطا لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه يعنى ما رواه سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد (إنى أريد أن تبوء بإثمى) قال بقتلك إياى (وإثمك) قال بما كان منك قبل ذلك وكذا رواه عيسى بن أبى نجيح عن مجاهد بمثله وروى شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) يقول إنى أريد أن يكون عليك خطيئتى ودمى فتبوء بهما جميعا (قلت) وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول ويذكرون فى ذلك حديثا لا أصل له « ماترك القاتل على المقتول من ذنب » وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثا يشبه هذا ولكن ليس به فقال حدثنا عمرو بن على حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهانى حدثنا يعقوب بن عبدالله حدثنا عتبة بن سعيد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « قتل الصبر لايمر بذنب إلا محاه » وهذا بهذا لا يصح ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه فأما ان تحمل على القاتل فلا ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص وهو الغالب فإن المقتول يطالب القاتل فى العرصات فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المظالم كلها والقتل من أعظمها وأشدها والله أعلم وأما ابن جرير فقال والصواب من القول فى ذلك أن يقال إن تأويله إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى وذلك هو معنى قوله (إنى أريد تبوء بإثمى) وأما معنى (وإثمك) فهو إثمه يعنى قتله وذلك كمعصية الله عز وجل فى أعمال سواه وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه وأن الله عزوجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه فى خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذا بها القاتل وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه دون ماركبه قتيله هذا لفظه ثم أورد على هذا سؤالا حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله

(١) قوله فإن لم أترك الخ هكذا بالأصل وحرر .

وإثم نفسه مع أن قتله له محرم وأجاب بما حاصله أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله بل يكف عنه يده طالبا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه قلت وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ وزجرا له لوانزجر ولهذا قال (إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك) أى تتحمل إثمى وإثمك(فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين) وقال ابن عباس خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر وقوله تعالى (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)أى فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أى بعد هذه الموعظة وهذا الزجر وقد تقدم فى الرواية عن أبى جعفر الباقر وهو محمد بن على بن الحسين أنه قتله بحديدة فى يده وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة بن عبد الله وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فطوعت له نفسه قتل أخيه فطلبه ليقتله فراغ الغلام منه فى رءوس الجبال فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له وهو نائم فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فمات فتركه بالعراء رواه ابن جرير وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقا وعضا كما تقتل السباع وقال ابن جرير لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر ففعل بأخيه مثل ذلك رواه ابن أبى حاتم وقال عبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدرى كيف يقتله فجاءه إبليس فقال أتريد أن تقتله قال نعم قال فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه قال فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا فقال ياحواء إن قابيل قتل هابيل فقالت له ويحك وأى شىء يكون القتل قال لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك قالت ذلك الموت قال فهو الموت فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهى تصيح فقال مالك فلم تكلمه فرجع إليها مرتين فلم تكلمه فقال عليك الصيحة وعلى بناتك وأنا وبنىّ منها برآء رواه ابن أبى حاتم وقوله (فأصبح من الخاسرين) أى فى الدنيا والآخرة وأى خسارة أعظم من هذه وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل » وقد أخرجه الجماعة سوى أبى داود من طرق عن الأعمش به وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى حجاج قال: قال ابن جريج قال مجاهد علقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ووجهه فى الشمس حيثما دارت دارت، عليه فى الصيف حظيرة من نار وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج .قال وقال عبد الله بن عمرو إنا لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة. العذاب عليه شطر عذابهم .وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحق عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول إن أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر وذلك أنه أول من سن القتل وقال إبراهيم النخعى ما من مقتول يقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه رواه ابن جرير أيضا وقوله تعالى (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) قال السدى بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضى الله عنهم لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثى عليه فلما رآه قال (ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال جاء غراب إلى غراب ميت فبحث عليه من التراب حتى واراه فقال الذى قتل أخاه (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى) وقال الضحاك عن ابن عباس مكث يحمل أخاه فى جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان فقال (أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب) فدفن أخاه وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتا لا يدرى ما يصنع به يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب فقال (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقال عطية العوفى لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله رواه ابن جرير وروى

محمد بن إسحق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول لما قتله سقط فى يده أى ولم يدر كيف يواريه وذلك أنه كان ، فيما يزعمون ، أول قتيل فى بنى آدم وأول ميت (فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين) قال وزعم أهل التوراة أن قابيل لما قتل أخاه هابيل قال له الله عز وجل يا قابيل أين أخوك هابيل قال ما أدرى ما كنت عليه رقيبا فقال الله إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها فتلقت دم أخيك من يدك فان أنت عملت فى الأرض فانها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعاتائها فى الأرض وقوله (فأصبح من النادمين) قال الحسن البصرى علاه الله بندامة بعد خسران فهذه أقوال المفسرين فى هذه القصة وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه كما هو ظاهر القرآن وكما نطق به الحديث فى قوله « إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » وهذا ظاهر جلى ولكن قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن هو البصرى قال كان الرجلان اللذان فى القرآن اللذان قال الله (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق) من بنى إسرائيل ولم يكونا ابنى آدم لصلبه وإنما كان القربان من بنى إسرائيل وكان آدم أول من مات وهذا غريب جدا وفى إسناده نظر وقد قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « إن ابنى آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلا فخذوا بالخير منهما » ورواه ابن المبارك عن عاصم الأحول عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله ضرب لكم ابنى آدم مثلا فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم » وكذا أرسل هذا الحديث بكير بن عبد الله المزنى روى ذلك كله ابن جرير وقال سالم بن أبى الجعد لما قتل ابن آدم أخاه مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك ثم أتى فقيل له حياك الله وبياك أى أضحكك رواه ابن جرير ثم قال حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن غياث بن إبراهيم عن أبى إسحق الهمدانى قال : قال على ابن طالب لما قتل ابن آدم أخاه بكاه آدم فقال .

تغيرت البلاد ومن عليها * فلون الأرض مغبر قبيح * تغير كل ذى لون وطعم * وقل بشاشة الوجه المليح

فأجيب آدم عليه الصلاة السلام

أبا هابيل قد قتلا جميعا * وصار الحى بالميت الذبيح * وجاء بشرة قد كان منه * على خوف فجاء بها يصيح

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة كما ذكره مجاهد وابن جبير أنه علقت ساقه بفخذه يوم قتله وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلا به وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » وقد اجتمع فى فعل قابيل هذا وهذا فإنا لله وإنا إليه راجعون .

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ * إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا (كتبنا على بنى إسرائيل) أى شرعنا لهم وأعلمناهم (أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) أى من قتل

نفسا بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض واستحل قتلها بلاسبب ولا جناية فكأنما قتل الناس جميعاً لأنه لافرق عنده بين نفس ونفس ومن أحياها أى حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ولهذا قال (فكأنما أحيا الناس جميعاً) وقال الأعمش وغيره عن أبى صالح عن أبى هريرة قال دخلت على عثمان يوم الدار فقلت جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين فقال يا أباهريرة أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم قلت لا قال فإنك إن قتلت رجلا واحدا فكأنما قتلت الناس جميعاً فانصرف مأذونا لك مأجوراً غير مأزور قال فانصرفت ولم أقاتل وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس هو كما قال الله تعالى (من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرمها الله فذلك الذى أحيا الناس جميعاً يعنى أنه من حرم قتلها إلا بحق حي الناس منه وهكذا قال مجاهد ومن أحياها أى كف عن قتلها وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله فكأنما قتل الناس جميعاً يقول من قتل نفسا واحدة حرمها الله فهو مثل من قتل الناس جميعاً وقال سعيد بن جبير من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً هذا قول وهو الأظهر وقال عكرمة والعوفى عن ابن عباس من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعاً ومن شد على عضد نبي أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً رواه ابن جرير وقال مجاهد فى رواية أخرى عنه من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً وذلك لأن من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم قال ابن جريج عن الأعرج عن مجاهد فى قوله فكأنما قتل الناس جميعاً من قتل النفس المؤمنة متعمدا جعل الله جزاءه جهنم وغضب عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما يقول لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب قال ابن جريج قال مجاهد ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا قال من لم يقتل أحدا فقد حي الناس منه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من قتل نفساً فكأنما قتل الناس يعنى فقد وجب عليه القصاص فلا فرق بين الواحد والجماعة ومن أحياها أى عفا عن قاتل وليه فكأنما أحيا الناس جميعاً وحكى ذلك عن أبيه رواه ابن جرير وقال مجاهد فى رواية ومن أحياها أى أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة وقال الحسن وقتادة فى قوله انه من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً هذا تعظم لتعاطى القتل قال قتادة عظيم والله وزرها وعظيم والله أجرها وقال ابن المبارك عن سلام بن مسكين عن سليمان بن على الربعى قال قلت للحسن هذه الآية لنا يا أباسعيد كما كانت لبنى إسرائيل فقال اى والذى لا إله غيره كما كانت لبنى إسرائيل وما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دمائنا وقال الحسن البصرى فكأنما قتل الناس جميعاً قال وزراً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً قال أجرا وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا حيى بن عبدالله عن أبى عبدالرحمن الحبلى عن عبدالله بن عمرو قال جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله اجعلنى على شيء أعيش به فقال رسول الله ﷺ « ياحمزة نفس تحييها أحب إليك أم نفس تميتها » قال بل نفس أحييها قال « عليك بنفسك » .

قوله تعالى (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات) أى بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة (ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية ثم إذا وضعت الحروب أوزارها فدوا من أسروه وودوا من قتلوه وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة حيث يقول (وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) الآية المحاربة هى المضادة والمخالفة وهى صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل وكذا الافساد فى الأرض

يطلق على أنواع من الشر حتى قال كثير من السلف منهم سعيد بن المسيب إن قبض الدراهم والدنانير من الافساد فى الارض وقد قال الله تعالى (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) ثم قال بعضهم نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين كما قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين ابن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصرى قالا (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله — الى — إن الله غفور رحيم) نزلت هذه الآية فى المشركين فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه لم يكن عليه سبيل وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل أو أفسد فى الارض أو حارب الله ورسوله ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصاب ورواه أبو داود والنسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا نزلت فى المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصابه وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا) الآية قال كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف رواه ابن جرير .

وروى شعبة عن منصور عن هلال بن يساف عن مصعب بن سعد عن أبيه قال نزلت فى الحرورية (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا) رواه ابن مردويه ، والصحيح أن هذه الآية عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات كما رواه البخارى ومسلم من حديث أبى قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرمى البصرى عن أنس بن مالك أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الاسلام فاستوخموا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فقال « ألا تخرجون مع راعينا فى إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها » فقالوا بلى فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا فقتلوا الراعى وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث فى آثارهم فأدركوا فجىء بهم فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ثم نبذوا فى الشمس حتى ماتوا لفظ مسلم ، وفى لفظ لهما : من عكل أو عرينة وفى لفظ : وألقوا فى الحرة فجعلوا يستسقون فلا يسقون وفى لفظ لمسلم : ولم يحسمهم وعند البخارى قال أبو قلابة فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب وحميد عن أنس فذكر نحوه وعنده فارتدوا : وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس بنحوه وقال سعيد عن قتادة من عكل وعرينة ورواه مسلم من طريق سليمان التيمى عن أنس قال إنما سمل النبى صلى الله عليه وسلم أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء . ورواه مسلم من حديث معاوية بن قرة عن أنس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من عرينة فأسلموا وبايعوه وقد وقع بالمدينة الموم وهو البرسام ثم ذكر نحو حديثهم وزاد . عنده شباب من الأنصار قريب من عشرين فأرسلهم وبعث معهم قائفا يقفو أثرهم وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

وقال حماد بن سلمة حدثنا قتادة وثابت البنانى وحميد الطويل عن أنس بن مالك أن ناسا من عرينة قدموا المدينة فاجتووها فبعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إبل الصدقة وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا عن الاسلام وقتلوا الراعى وساقوا الابل فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم فجىء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمر أعينهم وألقاهم فى الحرة قال أنس فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشا حتى ماتوا ونزلت (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية وقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه وهذه لفظه وقال الترمذى حسن صحيح وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك منها مارواه من طريقين عن سلام بن أبى الصهباء عن ثابت عن أنس بن مالك قال ماندمت على حديث ماندمت على حديث سألنى عنه الحجاج قال أخبرنى عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قلت قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من

البحرين فشكوا إلى رسـول الله ﷺ مالقوا من بطونهم ، وقـد اصفرت ألوانهم ، وضمرت بطونهم فأمرهم رسـول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالهـا وألبانها حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخمصت بطونهم عمدوا إلى الراعى فقتلوه واستاقوا الإبل فأرسل رسـول الله ﷺ فى آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا ، فـكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول إن رسول الله ﷺ قدقطع أيدى قوم وأرجلهم ثم ألقاهم فى الرمضاء حتى ماتوا بحال ذود من الابل فـكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس

وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد يعنى ابن مسلم حدثنى سعيد عن قتادة عن أنس قال كانوا أربعة نفر من عرينة وثلاثة نفر من عكل فلماأتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم ولم يحسمهم وتركهم يلتقمون الحجارة بالحرة فأنزل الله فى ذلك (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية

وقال ابن أبى حاتم حدثناعلى بن حرب الموصلى حدثنا أبو مسعود يعنى عبد الرحمن بن الحسن الزجاج حدثنا أبو سعيد يعنى البقال عن أنس بن مالك قال كان رهط من عرينة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جهد مصفرة ألوانهم ، عظيمة(١) بطونهم فأمرهم أن يلحقوا بالابل فيشربوا من أبوالهـا وألبانها ففعلوا فصفت ألوانهم وخمصت بطونهم وسمنوا فقتلوا الراعى واستاقوا الابل فبعث النبى ﷺ فى طلبهم فأتى بهم فقتل بعضهم وسمر أعين بعضهم وقطع أيدى بعضهم وأرجلهم ونزلت (إنمـا جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله) إلى آخر الآية ، وقال أبو جعفر بن جرير حـدثنا أبو على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عبـدالملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هـذه الآية فـكتب إليه أنس يخبره ان هـذه الآية نزلت فى أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة قال أنس فارتدوا عن الإسـلام وقتلوا الراعى واستاقوا الابل وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام . وقال حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن أبى الزناد عن عبـد الله بن عبيد الله عن عبـد الله بن عمر أو عمرو شك يونس عن رسـول الله ﷺ بذلك يعنى بقصة العرنيين ونزلت فيهم آية المحاربة ورواه أبو داود والنسائى من طريق أبى الزناد وفيه عن ابن عمر من غير شك

وقال ابن جرير . حدثنا محمد بن خلف حدثنا الحسن بن حماد عن عمرو بن هاشم عن موسى بن عبيدة عن محمد بن إبراهيم عن جرير قال قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين فأمر بهم رسول الله ﷺ فلما صحوا واشتدوا قتـلوا رعاء اللقاح ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم قال جرير فبعثنى رسول الله ﷺ فى نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعـد ما أشرفوا على بلاد قومهم فقدمنا بهم على رسـول الله ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وسمل أعينهم فجعلوا يقولون المـاء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول النار حتى هلـكوا قال وكره الله عز وجل سمل الأعين فأنزل الله هـذه الآية (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) إلى آخر الآية هـذا حديث غريب ، وفى إسناده الربذى وهو ضعيف وفى إسناده فائدة وهو ذكر أمير هـذه السرية وهو جرير ابن عبد الله البجلى وتقدم فى صحيح مسلم أن هذه السرية كانوا عشرين فارسا من الأنصار . وأما قوله: فـكره الله سمل الأعين فأنزل الله هذه الآية فانه منكر وقد تقدم فى صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء فـكان ما فعل بهم قصاصا والله أعلم وقال عبد الرزاق عن إبراهيم بن محمد الأسلمى عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة قال قدم على رسول الله ﷺ رجال من بنى فزارة قد ماتوا هزلا فأمرهم النبى ﷺ إلى لقاحه فشربوا منها حتى صحوا ثم عمـدوا إلى لقاحه فسرقوها فطلبوا فأتى بهم النبى ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم . قال أبو هريرة ففيهم نزلت هـذه الآية (إنمـا جزاء الذين يحاربون الله ورسـوله) فترك النبى ﷺ سمر الأعـين بعـد . وروى من وجـه آخر عن أبى هريرة وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمـد بن إسحق حدثنا الحسين بن إسحق التسترى حـدثنا أبو القاسم محمد بن الوليدعن عمرو بن محمد المدينى حدثنا محمد بن طلحة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أبى سلمة بن عبـد الرحمن عن سلمة بن الأكوع قال كان للنبى ﷺ غلام يقال له يسار فنظر إليـه يحسن

(١) فى نسخة : قطيمة بطونهم .

الصلاة فأعتقه ، وبعثه فى لقاح له بالحرة فكان بها قال فأظهر قوم الإسلام من عرينة وجاءوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم قال فبعث بهم النبي ﷺ إلى يسار فكانوا يشربون من ألبان الابل حتى انطوت بطونهم ثم عدوا على يسار فذبحوه وجعلوا الشوك فى عينيه ثم أطردوا الابل فبعث النبي صلى الله عليه وسلم فى آثارهم خيلا من المسلمين كبيرهم كرز بن جابر الفهرى فلحقهم فجاء بهم إليه فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم . غريب جداً وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر وعائشة وغير واحد وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر ابن مردويه بتطريق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً فرحمه الله وأثابه . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن على بن الحسن ابن شقيق سمعت أبي يقول سمعت أبا حمزة عن عبد الكريم وسئل عن أبوال الابل فقال حدثنى سعيد بن جبير عن المحاربين فقال كان أناس أتوا رسول الله ﷺ فقالوا نبايعك على الإسلام فبايعوه وهم كذبة وليس الإسلام يريدون . ثم قالوا إنا نجتوى المدينة فقال النبي ﷺ هذه اللقاح تغدوا عليكم وتروح فاشربوا من أبوالها وألبانها قال فبيناهم كذلك إذ جاءهم الصريخ فصرخ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قتلوا الراعى واستاقوا النعم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فنودى فى الناس « أن يا خيل الله اركبي » قال فركبوا لاينتظر فارس فارساً قال وركب رسول الله ﷺ على أثرهم فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم مأمنهم فرجع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسروا منهم فأتوا بهم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) الآية قال فكان نفيهم أن نفوهم حتى أدخلوهم مأمنهم وأرضهم ونفوهم من أرض المسلمين وقتل نبي الله ﷺ منهم وصلب وقطع وسمر الأعين قال فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد قال ونهى عن المثلة وقال « ولا تمثلوا بشىء » قال وكان أنس يقول ذلك غير أنه قال أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم قال : وبعضهم يقول هم ناس من بنى سليم ومنهم من عرينة وناس من بجيلة . وقد اختلف الأئمة فى حكم هؤلاء العرنيين هل هو منسوخ أو محكم فقال بعضهم هو منسوخ بهذه الآية وزعموا أن فيها عتابا للنبي ﷺ كما فى قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ومنهم من قال هو منسوخ بنهى النبي ﷺ عن المثلة وهذا القول فيه نظر ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذى ادعاه عن المنسوخ وقال بعضهم : كان هذا قبل أن تنزل الحدود قاله محمد بن سيرين وفيه نظر فان قصته متأخرة . وفى رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها فانه أسلم بعد نزول المائدة ، ومنهم من قال لم يسمل النبي ﷺ أعينهم وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين وهذا القول أيضا فيه نظر فانه قد تقدم فى الحديث المتفق عليه أنه سمل ، وفى رواية سمر أعينهم . وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم قال ذاكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبي ﷺ أعينهم وتركه حسمهم حتى ماتوا فقال سمعت محمد بن عجلان يقول أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة فى ذلك وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفى ولم يسمل بعدهم غيرهم قال وكان هذا القول ذكر لأبى عمرو يعنى الأوزاعى فانكر أن يكون نزلت معاتبة ، وقال بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم ، ثم نزلت هذه الآية فى عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم . ورفع عنهم السمل ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء فى ذهابهم إلى أن حكم المحاربة فى الأمصار وفى السبلان على السواء لقوله (ويسعون فى الأرض فساداً) وهذا مذهب مالك والأوزاعى والليث بن سعد والشافعى وأحمد بن حنبل حتى قال مالك فى الذى يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتا فيقتله ويأخذ ما معه ان هذه محاربة ودمه إلى السلطان لا إلى ولى المقتول ولا اعتبار بعفوه عنه فى إسقاط القتل . وقال أبو حنيفة وأصحابه لا تكون المحاربة إلا فى الطرقات فأما فى الأمصار فلا لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث ، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه ، وقوله تعالى (أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية من شهر السلاح فى فئة الإسلام ، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فامام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وإبراهيم النخعى والضحاك وروى ذلك كله

أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله ومستند هذا القول ان ظاهر أو للتخيير كما فى نظائر ذلك من القرآن كقوله فى جزاء الصيد (فجزاء مثل ماقتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) وكقوله فى كفارة الفدية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وكقوله فى كفارة اليمين (إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) وهذه كلها على التخيير فكذلك فلتكن هذه الآية وقال الجمهور هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبد الله الشافعى أنبانا ابراهيم بن أبى يحيى عن صالح مولى التوأمة عن ابن عباس فى قطاع الطريق اذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا واذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا واذا أخذوا المال ولم يقتلوا اقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الارض. وقد رواه ابن أبى شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان عن حجاج عن عطية عن ابن عباس بنحوه وعن أبى مجلز وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والسدى وعطاء الخراسانى نحو ذلك وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة واختلفوا هل يصلب حيا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو بقتله برمح أو نحوه أو يقتل أولا ثم يصلب تنكيلا وتشديدا لغيره من المفسدين وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده فى ذلك كله خلاف محرر فى موضعه وبالله الثقة وعليه التكلان ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره ان صح سنده فقال حدثنا على بن سهل حدثنا الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية فكتب اليه يخبره أنها نزلت فى أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة قال أنس فارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل وأصابوا الفرج الحرام قال أنس فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبرائيل عليه السلام عن القضاء فيمن حارب فقال من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقته ورجله بإخافته، ومن قتل فاقتله ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه، وأما قوله تعالى (وينفوا من الأرض) قال بعضهم هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام رواه ابن جرير عن ابن عباس وأنس بن مالك وسعيد بن جبير والضحاك والربيع بن أنس والزهرى والليث بن سعد ومالك بن أنس: وقال آخرون هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية وقال الشعبى ينفيه — كما قال ابن هبيرة — من عمله كله وقال عطاء الخراسانى ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء والحسن والزهرى والضحاك ومقاتل بن حيان انه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون المراد بالنفى ههنا السجن وهو قول أبى حنيفة وأصحابه واختار ابن جرير أن المراد بالنفى ههنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله تعالى (ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى هذا الذى ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم خزى لهم بين الناس فى هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة وهذا يؤيد قول من قال إنها نزلت فى المشركين فأما أهل الإسلام ففى صحيح مسلم عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا يعضه بعضنا بعضاً فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له ومن ستره الله فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه. وعن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أذنب ذنباً فى الدنيا فعوقب به فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده ومن أذنب ذنباً فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه فالله أكرم من أن يعود عليه فى شىء قد عفا عنه» رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب وقد سئل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث فقال روى مرفوعا وموقوفا قال ورفعه صحيح، وقال ابن جرير فى قوله (ذلك لهم خزى فى الدنيا) يعنى شر وعار ونكال وذلة وعقوبة فى عاجل الدنيا قبل الآخرة (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا — فى الآخرة مع الجزاء الذى

جازيتهم به فى الدنيا والعقوبة التى عاقبتهم بها فى الدنيا عذاب عظيم يعنى عذاب جهنم وقوله تعالى (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) أما على قول من قال إنها فى أهل الشرك فظاهر وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل وهل يسقط قطع اليد أم لا فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع وعليه عمل الصحابة كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن مجالد عن الشعبى قال كان حارثة بن بدر التميمى من أهل البصرة وكان قد أفسد فى الأرض وحارب فكلم رجالا من قريش منهم الحسن بن على وابن عباس وعبد الله بن جعفر فكلموا عليا فيه فلم يؤمنه فأتى سعيد بن قيس الهمدانى فخلفه فى داره ثم أتى عليا فقال يا أمير المؤمنين أرأيت من حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا فقرأ حتى بلغ (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم) قال فكتب له أمانا قال سعيد بن قيس فانه حارثة بن بدر وكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن مجالد عن الشعبى به وزاد فقال حارثة بن بدر

ألا بلغن همدان اما لقيتها * على النأى لايسلم عدو يعيبها
لعمر أبيها إن همدان تتقى ا‍ل * إله ويقضى بالكتاب خطيبها

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثورى عن السدى ومن طريق أشعث كلاهما عن عامر الشعبى قال جاء رجل من مراد إلى أبى موسى وهو على الكوفة فى إمارة عثمان رضى الله عنه بعد ما صلى المكتوبة فقال يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك أنا فلان بن فلان المرادى وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت فى الأرض فسادا ، وإنى تبت من قبل أن تقدروا على فقال أبو موسى فقال إن هذا فلان بن فلان وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا ، وإنه تاب من قبل أن نقدر عليه فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير فإن يك صادقا فسبيل من صدق ، وإن يك كاذبا تدركه ذنوبه فأقام الرجل ما شاء الله ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله . ثم قال ابن جرير حدثنى على حدثنا الوليد بن مسلم قال : قال الليث وكذلك حدثنى موسى بن إسحق المدنى وهو الأمير عندنا أن عليا الأسدى حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامة فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائبا وذلك أنه سمع رجلا يقرأ هذه الآية (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) فوقف عليه فقال يا عبد الله أعد قراءتها فأعادها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائبا حتى قدم المدينة من السحر فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبى هريرة فى أغمار أصحابه فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا اليه فقال لا سبيل لكم على جئت تائبا من قبل أن تقدروا على فقال أبو هريرة صدق وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فى زمن معاوية فقال هذا على جاء تائبا ولا سبيل لكم عليه ولا قتل فترك من ذلك كله قال وخرج على تائبا مجاهدا فى سبيل الله فى البحر فلقوا الروم فقربوا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم فى سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر فمالت به وبهم فغرقوا جميعا

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وهى إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات وقد قال بعدها (وابتغوا إليه الوسيلة) قال سفيان الثورى عن طلحة عن عطاء عن ابن عباس أى القربة . وكذا قال مجاهد وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدى وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة أى تقربوا اليه بطاعته والعمل بما يرضيه ، وقرأ ابن زيد (أولئك الذين تدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) وهذا الذى قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه . وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر :

إذا غفل الواشون عدنا لو صلنا * وعاد التصافى بيننا والوسائل

والوسيلة هى التى يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضا علم على أعلى منزلة فى الجنة وهى منزلة رسول الله ﷺ وداره فى الجنة وهى أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت فى صحيح البخارى من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة »

(حديث آخر) فى صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ثم سلوا لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أناهو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبدالرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن كعب عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا صليتم على فسلوا لى الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أعلى درجة فى الجنة لاينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أناهو » ورواه الترمذى عن بندار عن أبى عاصم عن سفيان الثورى عن ليث بن أبى سليم عن كعب قال حدثنى أبو هريرة به ثم قال غريب وكعب ليس بمعروف لا نعرف أحدا روى عنه غير ليث بن أبى سليم : (حديث آخر) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال أبو بكر بن مردويه حدثنا عبدالباقى بن قانع حدثنا محمد بن نصر الترمذى حدثنا عبد الحميد بن صالح حدثنا ابن شهاب عن ليث عن المعلى عن محمد بن كعب عن أبى هريرة رفعه قال « صلوا على صلاتكم . وسلوا الله لى الوسيلة » فسألوه وأخبرهم أن الوسيلة درجة فى الجنة ليس ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا . (حديث آخر) قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى أخبرنا أحمد بن على الأبار حدثنا الوليد بن عبدالملك الحرانى حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة فانه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » ثم قال الطبرانى لم يروه عن ابن أبى ذئب إلا موسى بن أعين كذا قال : وقد رواه ابن مردويه حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء فذكر بإسناده نحوه . (حديث آخر) روى ابن مردويه بإسناديه عن عمارة بن غزية عن موسى بن وردان أنه سمع أباسعيد الخدرى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة فسلوا الله أن يؤتينى الوسيلة على خلقه » . (حديث آخر) روى ابن مردويه أيضا من طريقين عن عبد الحميد بن بحر حدثنا شريك عن أبى إسحق عن الحارث عن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « فى الجنة درجة تدعى الوسيلة فإذا سألتم الله فسلوا لى الوسيلة » قالوا يا رسول الله من يسكن معك قال « على وفاطمة والحسن والحسين » هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا الحسن الدشتكى حدثنا أبو زهير حدثنا سعيد بن طريف عن على بن الحسين الأزدى مولى سالم بن ثوبان قال سمعت على بن أبى طالب ينادى على منبر الكوفة : يا أيها الناس إن فى الجنة لؤلؤتين احداهما بيضاء والأخرى صفراء أما الصفراء فانها إلى بطنان العرش والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة كل بيت منها ثلاثة أميال وغرفها وأبوابها وأسرتها وسكانها من عرق واحد واسمها الوسيلة هى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، والصفراء فيها مثل ذلك هى لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته . وهذا أثر غريب أيضا . وقوله (وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون) لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبهم فى ذلك بالذى أعده للمجاهدين فى سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التى لا تبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها الطيبة مساكنها التى من سكنها ينعم لا يبأس ويحيى لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى

شبابه . ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال (إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) أى لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبا وبمثله ليفتدى بذلك من عذاب الله الذى قد أحاط به ، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص ولهذا قال (ولهم عذاب أليم) أى موجع (يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم) كما قال تعالى (كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها) الآية فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا فى أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها (ولهم عذاب مقيم) أى دائم مستمر لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها ، وقد قال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول شر مضجع ، فيقال هل تفتدى بقراب الأرض ذهبا ؟ قال فيقول نعم يارب فيقول الله تعالى كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » رواه مسلم والنسائى من طريق حماد بن سلمة بنحوه وكذا رواه البخارى ومسلم من طريق معاذ بن هشام الدستوائى عن أبيه عن قتادة عن أنس به وكذا أخرجاه من طريق أبى عمران الجونى واسمه عبد الملك بن حبيب عن أنس بن مالك به . ورواه مطر الوراق عن أنس بن مالك ، ورواه ابن مردويه من طريقه عنه ، ثم روى ابن مردويه من طريق المسعودى عن يزيد بن صهيب الفقير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) قال اتل أول الآية (إن الذين كفر لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به) الآية ألا إنهم الذين كفروا وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث من وجه آخر عن يزيد الفقير عن جابر وهذا أبسط سياقا وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن أبى شيبة الواسطى حدثنا يزيد ابن هارون أخبرنا مبارك بن فضالة حدثنى يزيد الفقير قال جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث فحدث أن ناسا يخرجون من النار قال وأنا يومئذ أنكر ذلك فغضبت وقلت ما أعجب من الناس ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يخرج ناسا من النار والله يقول (يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها) الآية فانتهرنى أصحابه وكان أحلمهم فقال دعوا الرجل إنما ذلك للكفار فقرأ (إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة) حتى بلغ (ولهم عذاب مقيم) أما تقرأ القرآن؟ قلت بلى قد جمعته قال أليس الله يقول (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) فهو ذلك المقام فان الله تعالى يحتبس أقواما بخطاياهم فى النار ماشاء لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم ، قال فلم أعد بعد ذلك إلى أن أكذب به ثم قال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا عمرو ابن حفص السدوسى حدثنا عاصم بن على أخبرنا العباس بن الفضل حدثنا سعيد بن المهلب حدثنى طلق بن حبيب قال كنت من أشد الناس تكذيبا بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله فقرأت عليه كل آية أقدر عليها يذكر الله فيها خلود أهل النار فقال : يا طلق أتراك أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله منى ؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوبا فعذبوا ثم أخرجوا منها ثم أهوى بيديه إلى أذنيه فقال صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول « يخرجون من النار بعد ما دخلوا » ونحن نقرأ كما قرأت

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى حاكما وآمرا بقطع يد السارق والسارقة وروى الثورى عن جابر بن يزيد الجعفى عن عامر بن شراحيل الشعبى

(١) كذا فى جميع النسخ . ومقتضى الاعراب فيردونهم .

أن ابن مسعود كان يقرؤها (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما) وهذه قراءة شاذة وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقا لها لابها بل هو مستفاد من دليل آخر وقد كان القطع معمولا به فى الجاهلية فقرر فى الإسلام وزيدت شروط أخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التى ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه وزيادات هى من تمام المصالح . ويقال إن أول من قطع الأيدى فى الجاهلية قريش قطعوا رجلا يقال له دويك مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة كان قد سرق كنز الكعبة ، ويقال سرقه قوم فوضعوه عنده وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلا أو كثيرا لعموم هذه الآية (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فلم يعتبروا نصابا ولا حرزا بل أخذوا بمجرد السرقة وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفى قال سألت ابن عباس عن قوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) أخاص أم عام ؟ فقال بل عام وهذا يحتمل أن يكون موافقة من ابن عباس لما ذهب اليه هؤلاء ويحتمل غير ذلك فالله أعلم . وتمسكوا بما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده » وأما الجمهور فاعتبروا النصاب فى السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف فى قدره فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول على حدة فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه وجب القطع واحتج فى ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع فى مجن ثمنه ثلاثة دراهم . أخرجاه فى الصحيحين قال مالك رحمه الله : وقطع عثمان رضى الله عنه فى أترجة قومت بثلاثة دراهم وهو أحب ما سمعت فى ذلك وهذا الأثر عن عثمان رضى الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله ابن أبى بكر عن أبيه عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقا سرق فى زمن عثمان أترجه فأمر بها عثمان أن تقوم فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثنى عشر درهما فقطع عثمان يده قال أصحاب مالك ومثل هذا الصنيع يشتهر ولم ينكر فمن مثله يحكى الاجماع السكوتى وفيه دلالة على القطع فى الثمار خلافا للحنفية وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافا لهم فى أنه لابد من عشرة دراهم وللشافعية فى اعتبار ربع دينار والله أعلم وذهب الشافعى رحمه الله إلى أن الاعتبار فى قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعدا ، والحجة فى ذلك ما أخرجه الشيخان البخارى ومسلم من طريق الزهرى عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « تقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا » ولمسلم من طريق أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عمرة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « لاتقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا » قال أصحابنا فهذا الحديث فاصل فى المسئلة ونص فى اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه قالوا وحديث ثمن المجن ، وأنه كان ثلاثة دراهم لاينافى هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار باثنى عشر درهما فهى ثمن ربع دينار فأمكن الجمع بهذا الطريق ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعى والشافعى وأصحابه ، وإسحق بن راهويه فى رواية عنه وأبو ثور وداود بن على الظاهرى رحمهم الله

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه فى رواية عنه إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعى فمن سرق واحدا منهما أو ما يساويه قطع عملا بحديث ابن عمر وبحديث عائشة رضى الله عنها ووقع فى لفظ عند الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اقطعوا فى ربع دينار ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك » وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم والدينار اثنى عشر درهما وفى لفظ للنسائى « لاتقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن » قيل لعائشة ما ثمن المجن قالت ربع دينار فهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم والله أعلم

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر وكذا سفيان الثورى رحمهم الله فانهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة واحتجوا بأن ثمن المجن الذى قطع فيه السارق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ثمنه عشرة دراهم وقد روى أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى حدثنا محمد بن إسحق عن

أيوب بن موسى عن عطاء عن ابن عباس قال كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم ثم قال حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقطع يد السارق فى دون ثمن المجن » وكان ثمن المجن عشرة دراهم قالوا فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر فى ثمن المجن فالاحتياط الأخذ بالأكثر لأن الحدود تدرأ بالشبهات . وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق فى عشرة دراهم أو دينار أو مايبلغ قيمته واحدا منهما يحكى هذا عن على وابن مسعود وإبراهيم النخعى وأبى جعفر الباقر رحمهم الله تعالى وقال بعض السلف لاتقطع الخمس إلا فى خمس أى فى خمسة دنانير أو خمسين درهما ، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبى هريرة « يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده » بأجوبة (أحدها) أنه منسوخ بحديث عائشة وفى هذا نظر لأنه لابد من بيان التاريخ (والثانى) أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن قاله الأعمش فيما حكاه البخارى وغيره عنه (والثالث) أن هذه وسيلة إلى التدرج فى السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الاخبار عما كان الأمر عليه فى الجاهلية حيث كانوا يقطعون فى القليل والكثير فلعن السارق الذى يبذل يده الثمينة فى الأشياء المهينة وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرى لما قدم بغداد اشتهر عنه أنه أورد إشكالا على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار ونظم فى ذلك شعرا دل على جهله ، وقلة عقله فقال :

يد بخمس مئين عسجد وديت * ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقض مالنا إلا السكوت له * وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم وقد أجابه الناس فى ذلك فكان جواب القاضى عبد الوهاب المالكى رحمه الله أن قال لما كانت أمينة كانت ثمينة ولما خانت هانت ، ومنهم من قال هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة فإن فى باب الجنايات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسمائة دينار لئلا يجنى عليها ، وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع فيه ربع دينار لئلا يسارع الناس فى سرقة الأموال فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الألباب . ولهذا قال (جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) أى مجازاة على صنيعهما السيء فى أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك نكالا من الله أى تنكيلا من الله بهما على ارتكاب ذلك (والله عزيز) أى فى انتقامه (حكيم) أى فى أمره ونهيه وشرعه وقدره . ثم قال تعالى (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) أى من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور وقال أبو حنيفة متى قطع وقد تلفت فى يده فإنه لايرد بدلها ، وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطنى من حديث(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال ما إخاله سرق فقال السارق بلى يارسول الله قال « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم ائتونى به » فقطع فأتى به فقال « تب إلى الله » فقال تبت إلى الله فقال « تاب الله عليك » وقد روى من وجه آخر مرسلا ورجح إرساله على بن المدينى وابن خزيمة رحمهما الله . وروى ابن ماجه من حديث ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عبد الرحمن بن ثعلبة الأنصارى عن أبيه أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى فأرسل إليهم النبى ﷺ فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا فأمر به فقطعت يده وهو يقول الحمد لله الذى طهرنى منك أردت أن تدخل جسدى النار . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن حي بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال سرقت امرأة حليا فجاء الذين سرقتهم فقالوا يارسول الله سرقتنا هذه المرأة فقال رسول الله ﷺ « اقطعوا يدها اليمنى » فقالت المرأة هل من توبة فقال رسول الله ﷺ « أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » قال فأنزل الله عز وجل (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) وقد رواه الإمام أحمد بأبسط من هذا

(١) هنا بياض بالأصل .

فقال حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثني حي بن عبد الله عن أبي عبدالرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها الذين سرقتهم فقالوا يارسول الله إن هذه المرأة سرقتنا قال قومها فنحن نفديها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقطعوا يدها » فقالوا نحن نفديها بخمسمائة دينار فقال « اقطعوا يدهـا » فقطعت يدهـا اليمنى فقالت المرأة هـل لى من توبة يا رسول الله قال « نعم أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله في سورة المائدة (فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهرى عن عروة عن عائشة ان قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح فقالوا من يكلم فيها رسـول الله ﷺ فقالوا ومن يجترئ عليـه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صلى الله عليـه وسلم فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال « أتشفع في حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة استغفر لى يا رسول الله ، فلما كان العشى قام رسـول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليـه الحد وإني والذى نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمـد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها قالت عائشة فحسنت توبتها بعـد وتزوجت وكانت تأتى بعـد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسـول الله ﷺ وهـذا لفظ مسلم وفي لفظ له عن عائشة قالت كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي ﷺ بقطع يدها وعن ابن عمر قال كانت امرأة مخزومية تستعير متاعا على ألسنة جاراتها وتجحده فأمر رسـول الله ﷺ بقطع يدها رواه الإمام أحمـد وأبو داود والنسائي وهـذا لفظه وفي لفظ له أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه فقال رسول الله ﷺ « لتتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم » ثم قال رسول الله ﷺ « قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها » وقد ورد في أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة في كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة ثم قال تعالى (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) أي هو المالك لجميع ذلك الحاكم فيه الذي لا معقب لحكمه وهو الفعال لما يريد (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عزوجل (من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) أي أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه وهؤلاء هم المنافقون (ومن الذين هادوا) أعداء الإسلام وأهله وهؤلاء كلهم (سماعون للكذب) أي مستجيبون له منفعلون عنه (سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) أي يستجيبون لأقوام آخرين لا يأتون مجلسك يا محمد وقيل المراد أنهم يتسمعون الكلام وينهونه إلى قوم آخرين ممن لا يحضر عندك من أعدائك (يحرفون الكلم من بعد مواضعه) أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تأتوه فاحذروا) قيل نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلا وقالوا تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد فإن حكم بالدية فاقبلوه وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن منهم فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والاركاب على حمار مقلوبين فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم تعالوا حتى نتحاكم إليه فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك وقد وردت الأحاديث بذلك فقال مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا نفضحهم ويجلدون قال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبدالله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فرأيت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة أخرجاه وهذا لفظ البخاري وفي لفظ له فقال لليهود «ما تصنعون بهما؟» قالوا نسخم وجوههما ونخزيهما قال (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ، فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها فوضع يده عليه فقال ارفع يدك فرفع فإذا آية الرجم تلوح قال يا محمد إن فيها آية الرجم ولكنا نتكاتمه بيننا فأمر بهما فرجما وعند مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بيهودي ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا نسود وجوههما ونحممهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما قال (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مر بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ مره فليرفع يده فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما. قال عبد الله بن عمر كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه. وقال أبو داود حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني حدثنا ابن وهب حدثنا هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر قال أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف فأتاهم في بيت المدراس فقالوا يا أبا القاسم إن رجلا منا زنى بامرأة فاحكم قال ووضعوا لرسول الله ﷺ وسادة فجلس عليها ثم قال «ائتوني بالتوراة» فأتي بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها وقال آمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال «ائتوني بأعلمكم» فأتي بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع وقال الزهري سمعت رجلا من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه ونحن عند ابن المسيب عن أبي هريرة قال زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله قلنا فتيا نبي من أنبيائك قال فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه فقالوا يا أبا القاسم ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم فقام على الباب فقال «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن» قالوا يحمم ويجبه ويجلد والتجبيه أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما ويطاف بهما قال وسكت شاب منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت ألظ به رسول الله صلى الله عليه وسلم النشدة فقال اللهم إذ نشدتنا فانا نجد في التوراة الرجم فقال النبي صلى الله عليه وسلم «فما أول ما ارتخصتم أمر الله» قال زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم ثم

زنى رجل فى أثره من الناس فأراد رجمه فحال قومه دونه وقالوا لا يرجم صاحبنا حتى تجىء بصاحبك فترجمه فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « فانى أحكم بما فى التوراة » فأمر بهما فرجما قال الزهرى فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) فكان النبى ﷺ منهم رواه أحمد وأبو داود وهذا لفظه وابن جرير وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن البراء بن عازب قال مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى محمم مجلود فدعاهم فقال « أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » فقالوا نعم فدعا رجلا من علمائهم فقال « أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ » فقال لا والله ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد فقلنا تعالوا حتى نجعل شيئا نقيمه على الشريف والوضيع فاجتمعنا على التحميم والجلد فقال النبى ﷺ « اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » قال فأمر به فرجم قال فأنزل الله عز وجل (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله (يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه) أى يقولون ائتوا محمدا فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا إلى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال فى اليهود إلى قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قال فى اليهود (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال فى الكفار كلها ، انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا مجالد بن سعيد الهمدانى عن الشعبى عن جابر بن عبد الله قال زنى رجل من أهل فدك فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة أن سلوا محمداً عن ذلك فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه فسألوه عن ذلك فقال « أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم » فجاءوا برجل أعور يقال له ابن صوريا وآخر فقال لهما النبى صلى الله عليه وسلم « أنتما أعلم من قبلكما » فقالا قد دعانا قومنا لذلك فقال النبى صلى الله عليه وسلم لهما « أليس عندكما التوراة فيها حكم الله » قالا بلى فقال النبى صلى الله عليه وسلم « فأنشدكم بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل وظلل عليكم الغمام وأنجاكم من آل فرعون وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم » فقال أحدهما للآخر ما نشدت بمثله قط ثم قالا نجد ترداد النظر زنية والاعتناق زنية والقبل زنية فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدئ ويعيد كما يدخل الميل فى المكحلة فقد وجب الرجم فقال النبى ﷺ « هو ذاك » فأمر به فرجم فنزلت (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث مجالد به نحوه ولفظ أبى داود عن جابر قال جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا فقال « ائتونى بأعلم رجلين منكم » فأتوه بابنى صوريا فنشدهما « كيف تجدان أمر هذين فى التوراة ؟ » قالا نجد إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة رجما ، قال « فما يمنعكما أن ترجموهما » قالا ذهب سلطاننا فكرهنا القتل فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشهود فجاء أربعة فشهدوا أنهم رأوا ذكره مثل الميل فى المكحلة فأمر رسول الله ﷺ برجمهما ثم رواه أبو داو عن الشعبى وإبراهيم النخعى مرسلا ولم يذكر فيه فدعا بالشهود فشهدوا فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم بموافقة حكم التوراة وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة ولكن هذا بوحى خاص من الله عز وجل إليه بذلك وسؤاله إياهم عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطئوا على كتمانه وجحده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم وعدولهم إلى تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان عن هوى منهم وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ولهذا قالوا (إن أوتيتم هذا) أى الجلد والتحميم فخذوه أى اقبلوه (وإن لم تؤتوه فاحذروا) أى من قبوله واتباعه . قال الله تعالى (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا

خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم سماعون للكذب) أى الباطل (أكالون للسحت) أى الحرام وهو الرشوة كما قاله ابن مسعود وغير واحد أى ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له ثم قال لنبيه (فإن جاءوك) أى يتحاكمون اليك (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) أى فلا عليك أن لا تحكم بينهم لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم اليك اتباع الحق بل ما يوافق أهواءهم قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى وزيد ابن أسلم وعطاء الخراسانى والحسن وغير واحد هى منسوخة بقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) أى بالحق والعدل وإن كانوا ظلمة خارجين من طريق العدل (إن الله يحب المقسطين) ثم قال تعالى منكرا عليهم فى آرائهم الفاسدة ومقاصدهم الزائغة فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدا ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين) ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا) أى لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها (والربانيون والأحبار) أى وكذلك الربانيون منهم وهم العلماء العباد والأحبار وهم العلماء (بما استحفظوا من كتاب الله) أى بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهروه ويعملوا به (وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشونى) أى لا تخافوا منهم وخافونى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فيه قولان سيأتى بيانهما

﴿ سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمات ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن العباس حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال إن الله أنزل : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون وأولئك هم الظالمون وأولئك هم الفاسقون قال : قال ابن عباس أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق فكانوا على ذلك حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق فقالت الذليلة وهل كان فى حيين دينهما واحد ونسبهما واحد وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض إنما أعطيناكم هذا ضيما منكم لنا وفرقا منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ثم ذكرت العزيزة فقالت والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيما منا وقهرا لهم فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه فدسوا إلى رسول الله ﷺ ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ فلما جاءوا رسول الله ﷺ أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا فأنزل الله تعالى (يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر) إلى قوله (الفاسقون) ففيهم والله أنزل وإياهم عنى الله عز وجل ورواه أبو داود من حديث ابن أبى الزناد عن أبيه بنحوه . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا هناد ابن السرى وأبو كريب قالا حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحق حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أن الآيات التى فى المائدة قوله (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم — إلى المقسطين) إنما أنزلت فى الدية فى بنى النضير وبنى قريظة وذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف تؤدى الدية كاملة وأن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك فجعل الدية فى ذلك سواء والله أعلم أى ذلك كان ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائى من حديث ابن إسحق بنحوه ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صالح عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت قريظة والنضير وكانت النضير أشرف من قريظة فكان إذا قتل القريظى رجلا من النضير قتل به وإذا قتل النضيرى رجلا من قريظة ودى بمائة وسق من تمر فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فقالوا ادفعوه اليه فقالوا بيننا وبينكم

رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرك من حديث عبيد الله بن موسى بنحوه . وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حبان وابن زيد وغير واحد وقد روى العوفي وعلى بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا كما تقدمت الأحاديث بذلك وقد يكون اجتمع هذان السببان في وقت واحد فنزلت هذه الآيات في ذلك كله والله أعلم ، ولهذا قال بعد ذلك (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين) إلى آخرها وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص والله سبحانه وتعالى أعلم وقوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم نزلت في أهل الكتاب زاد الحسن البصري وهي علينا واجبة وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل ورضي الله لهذه الأمة بها رواه ابن جرير وقال ابن جرير أيضا حدثنا يعقوب حدثنا هشيم أخبر عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال من السحت قال فقالا وفي الحكم قال ذاك الكفر ثم تلا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) وقال السدي (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) يقول ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمدا أو جار وهو يعلم فهو من الكافرين وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال من جحد ما أنزل الله فقد كفر ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق رواه ابن جرير ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب ، وقال عبد الرزاق عن الثوري عن زكريا عن الشعبي ومن لم يحكم بما أنزل الله قال للمسلمين

وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الصمد حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر عن الشعبي (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون قال هذا في المسلمين (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قال هذا في اليهود (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) قال هذا في النصارى وكذا رواه هشيم والثوري عن زكريا بن أبي زائدة عن الشعبي وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال سئل ابن عباس عن قوله (ومن لم يحكم) الآية قال هي به كفر قال ابن طاوس وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله وقال الثوري عن ابن جريج عن عطاء أنه قال كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق ، رواه ابن جرير وقال وكيع عن سعيد المكي عن طاوس (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ليس بكفر ينقل عن الملة وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس عن ابن عباس في قوله (ومن يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ورواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

وهذا أيضا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه فان عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون حكم ذلك عمدا وعنادا ويقيدون النضري من القرظي ولا يقيدون القرظي من النضري بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والاشهار ولهذا قال هناك (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) لأنهم جحدوا حكم الله قصدا منهم وعنادا وعمدا وقال ههنا (فأولئك هم الظالمون) لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم بعضا[1] وقال الإمام أحمد حدثنا يحيي بن آدم حدثنا ابن المبارك عن يونس بن يزيد عن على بن يزيد أخي يونس بن يزيد عن الزهري

(١) كذا في الأصول والوجه أن يقال وتعدى بعضهم على بعض

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين) نصب النفس ورفع العين وكذا رواه أبو داود والترمذى والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن المبارك وقال الترمذى حسن غريب وقال البخارى تفرد ابن المبارك بهذا الحديث وقد استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررا ولم ينسخ كما هو المشهور عن الجمهور وكما حكاه الشيخ أبو إسحق الاسفراينى عن نص الشافعى وأكثر الأصحاب بهذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها فى الجنايات عند جميع الأئمة وقال الحسن البصرى هى عليهم وعلى الناس عامة رواه ابن أبى حاتم وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووى فى هذه المسئلة ثلاثة أوجه ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره وصحح منها عدم الحجية ونقلها الشيخ أبو إسحق الاسفراينى أقوالا عن الشافعى وأكثر الأصحاب ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا فالله أعلم وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله فى كتابه الشامل إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم «أن الرجل يقتل بالمرأة» وفى الحديث الآخر «المسلمون تتكافأ دماؤهم» وهذا قول جمهور العلماء وعن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية لأن ديتها على النصف من دية الرجل وإليه ذهب أحمد فى رواية وحكى عن الحسن وعطاء وعثمان البستى ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمى وعلى قتل الحر بالعبد وقد خالفه الجمهور فيهما ففى الصحيحين عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا يقتل مسلم بكافر» وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر ولا يقتلون حرا بعبد وجاء فى ذلك أحاديث لا تصح وحكى الشافعى الإجماع على خلاف قول الحنيفية فى ذلك ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة .

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت فى ذلك كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن الربيع عمة أنس كسرت ثنية جارية فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «القصاص» فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا أنس كتاب الله القصاص» قال: فقال لا والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة : قال فرضى القوم فعفوا وتركوا القصاص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أخرجاه فى الصحيحين وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصارى فى الجزء المشهور من حديثه عن حميد عن أنس بن مالك أن الربيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت ثنيتها فعرضوا عليهم الأرش فأبوا فطلبوا الأرش والعفو فأبوا فأتوا رسول الله ﷺ فأمرهم بالقصاص فجاء أخوها أنس بن النضر فقال يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها فقال النبى ﷺ «يا أنس كتاب الله القصاص» فعفا القوم فقال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه البخارى عن الأنصارى بنحوه وروى أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن أبى نضرة عن عمران بن حصين أن غلاما لأناس فقراء قطع أذن غلام لأناس أغنياء فأتى أهله النبى ﷺ فقالوا يا رسول الله إنا أناس فقراء فلم يجعل عليه شيئا وكذا رواه النسائى عن إسحق بن راهويه عن معاذ بن هشام الدستوائى عن أبيه عن قتادة به وهذا إسناد قوى رجاله كلهم ثقات وهو حديث مشكل اللهم إلا أن يقال إن الجانى كان قبل البلوغ فلا قصاص عليه ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استعفاهم عنه . وقوله تعالى (والجروح قصاص) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال تقتل النفس بالنفس وتفقأ العين بالعين ويقطع الأنف بالأنف وتنزع السن بالسن وتقتص الجراح بالجراح فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم إذا كان عمدا فى النفس ومادون النفس ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس رواه ابن جرير وابن أبى حاتم

﴿ قاعـــدة مهمة ﴾

الجراح تارة تكون فى مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك وأما إذا لم تكن الجراح فى مفصل بل فى عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا فى الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر وقال أبوحنيفة وصاحباه لايجب القصاص فى شىء من العظام إلا فى السن وقال الشافعى لايجب القصاص فى شىء من العظام مطلقا وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس وبه يقول عطاء والشعبى والحسن البصرى والزهرى وإبراهيم النخعى وعمر بن عبدالعزيز واليه ذهب سفيان الثورى والليث بن سعد وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد وقد احتج أبوحنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه أنه لاقصاص فى عظم إلا فى السن وحديث الربيع لاحجة فيه لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية وجائز أن تكون سقطت من غير كسر فيجب القصاص والحالة هذه بالاجماع وتمموا الدلالة بما رواه ابن ماجه من طريق أبى بكر بن عياش عن دهشم بن قران عن نمران بن جارية عن أبيه جارية بن ظفر الحنفى أن رجلا ضرب رجلا على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها فاستعدى النبى ﷺ فأمر له بالدية فقال يارسول الله أريد القصاص فقال خذ الدية بارك الله لك فيها ولم يقض له بالقصاص ، وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر ليس لهذا الحديث غير هذا الاسناد ودهشم بن قران العكلى ضعيف أعرابى ليس حديثه مما يحتج به ونمران بن جارية ضعيف أعرابى أيضاً وأبوه جارية بن ظفر مذكور فى الصحابة ثم قالوا لايجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شىء له والدليل على ذلك مارواه الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا طعن رجلا بقرن فى ركبته فجاء إلى النبى ﷺ فقال أقدنى فقال « حتى تبرأ » ثم جاء اليه فقال أقدنى فأقاده فقال يا رسول الله عرجت فقال « قد نهيتك فعصيتنى فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه تفرد به أحمد ﴿ مسألة ﴾ فلو اقتص المجنى عليه من الجانى فمات من القصاص فلا شىء عليه عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم وقال أبوحنيفة تجب الدية فى مال المقتص وقال عامر والشعبى وعطاء وطاوس وعمرو بن دينار والحارث العكلى وابن أبى ليلى وحماد ابن أبى سليمان والزهرى والثورى تجب الدية على عاقلة المقتص له ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعى والحكم بن عتيبة وعثمان البستى يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقى فى ماله وقوله تعالى (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فمن تصدق به) يقول فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب وقال سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فمن تصدق به فهو كفارة للجارح وأجر المجروح على الله عزوجل رواه ابن أبى حاتم ثم قال وروى عن خيثمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم فى أحد قوليه وعامر الشعبى وجابر بن زيد نحو ذلك (الوجه الثانى) ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا حماد بن زاذان حدثنا حرمى يعنى بن عمارة حدثنا شعبة عن عمارة يعنى ابن أبى حفصة عن رجل عن جابر بن عبد الله فى قول الله عزوجل (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال للمجروح وروى عن الحسن البصرى وإبراهيم النخعى فى أحد قوليه وأبى إسحق الهمدانى نحو ذلك وروى ابن جرير عن عامر الشعبى وقتادة مثله وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبوداود الطيالسى حدثنا شعبة عن قيس يعنى ابن مسلم قال سمعت طارق بن شهاب يحدث عن الهيثم بن العريان النخعى قال رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيها بالموالى فسألته عن قول الله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ماتصدق به وهكذا رواه سفيان الثورى عن قيس بن مسلم وكذا رواه ابن جرير من طرق سفيان وشعبة ، وقال ابن مردويه حدثنى محمد بن على حدثنا عبدالرحيم بن محمد المجاشعى حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهرى حدثنا يحيى بن سليمان الجعفى حدثنا معلى يعنى ابن هلال أنه سمع أبان بن تغلب عن العريان بن الهيثم بن الأسود عن عبدالله بن عمرو عن أبان بن تغلب عن الشعبى عن رجل من الأنصار عن النبى ﷺ فى قوله (فمن تصدق به فهو كفارة له) قال « هو الذى تكسر سنه أو تقطع يده أو يقطع الشىء منه أو يجرح فى بدنه فيعفو عن ذلك » ــ قال ــ فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه وإن كان

الثلث فثلث خطاياه وإن كانت الدية حطت عنه خطاياه كذلك » ثم قال ابن جرير حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبي إسحق عن أبي السفر قال دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار فاندقت ثنيته فرفعه الأنصارى إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل قال شأنك وصاحبك قال وأبو الدرداء عند معاوية فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يصاب بشىء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال سمعته أذناى ووعاه قلبي . فخلى سبيل القرشي . فقال معاوية مروا له بمال ، هكذا رواه ابن جرير ورواه الإمام أحمد فقال حدثنا وكيع حدثنا يونس بن أبي إسحق عن أبي السفر قال كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار فاستعدى عليه معاوية فقال معاوية إنا سنرضيه فألح الأنصارى فقال معاوية شأنك بصاحبك وأبو الدرداء جالس فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يصاب بشيء من جسده فيتصدق به إلا رفعه الله به درجة وحط به عنه خطيئة » فقال الأنصارى فإنى قد عفوت وهكذا رواه الترمذى من حديث ابن المبارك وابن ماجه من حديث وكيع كلاهما عن يونس بن أبي إسحق به ثم قال الترمذى غريب من هذا الوجه ولا أعرف لأبي السفر سماعا من أبي الدرداء ، وقال ابن مردويه حدثنا دعلج بن أحمد حدثنا محمد ابن على بن زيد حدثنا سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمران بن ظبيان عن عدى بن ثابت أن رجلا أهتم فمه رجل على عهد معاوية رضي الله عنه فأعطى دية فأبى إلا أن يقتص فأعطى ديتين فأبى فأعطى ثلاثا فأبى فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « من تصدق بدم فمادونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان حدثنا هشيم عن المغيرة عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « مامن رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ماتصدق به » ورواه النسائى عن على ابن حجر عن جرير بن عبد الحميد ورواه ابن جرير عن محمود بن خداش عن هشيم كلاهما عن المغيرة به وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن مجالد عن عامر عن المحرر بن أبي هريرة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال ، « من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفارة له » .

وقوله (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

يقول تعالى (وقفينا) أى اتبعنا على آثارهم يعنى أنبياء بنى إسرائيل (بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى مؤمنا بها حاكما بما فيها (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) أى هدى إلى الحق ونور يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) أى متبعا لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) ولهذا كان المشهور من قولى العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى (وهدى وموعظة للمتقين) أى وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به وموعظة أى زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم للمتقين أى لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه . وقوله تعالى (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) قرىء وليحكم أهل الإنجيل بالنصب على أن اللام لام كى أى وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به فى زمانهم وقرىء وليحكم بالجزم على أن اللام لام الأمر أى ليؤمنوا بجميع مافيه وليقيموا ما أمروا به فيه ومما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد كما قال تعالى (قل يا أهل الكتاب

لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) الآية وقال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة) إلى قوله (المفلحون) ولهذا قال ههنا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) أي الخارجون عن طاعة ربهم المائلون إلى الباطل التاركون للحق وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى وهو ظاهر من السياق

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله باقامته واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق) أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله (مصدقا لما بين يديه من الكتاب) أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله وصدقوا رسل الله كما قال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد عليه السلام لمفعولا أي لكائنا لا محالة ولابد . وقوله تعالى (ومهيمنا عليه) قال سفيان الثوري وغيره عن أبي إسحق عن التميمي عن ابن عباس أي مؤتمنا عليه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس المهيمن الأمين قال القرآن أمين على كل كتاب قبله وروى عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي وابن زيد نحو ذلك وقال ابن جريج القرآن أمين على الكتب المتقدمة قبله فما وافقه منها فهو حق وما خالفه منها فهو باطل وعن الوالبي عن ابن عباس (ومهيمنا) أي شهيدا وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وقال العوفي عن ابن عباس (ومهيمنا) أي حاكما على ما قبله من الكتب وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى فان اسم المهيمن يتضمن هذا كله فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها أشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكما عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فأما ما حكاه ابن أبي حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وابن أبي نجيح عن مجاهد أنهم قالوا في قوله (ومهيمنا عليه) يعني محمداً ﷺ أمين على القرآن فانه صحيح في المعنى ولكن في تفسير هذا بهذا نظر وفي تنزيله عليه من حيث العربية أيضا نظر وبالجملة فالصحيح الأول وقال أبو جعفر بن جرير بعد حكايته له عن مجاهد وهذا التأويل بعيد من المفهوم في كلام العرب بل هو خطأ وذلك أن المهيمن عطف على المصدق فلا يكون إلا صفة لما كان المصدق صفة له قال: ولو كان الأمر كما قال مجاهد لقال : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب مهيمنا عليه ، يعني من غير عطف وقوله

تعالى (فاحكم بينهم بما أنزل الله) أى فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك فى هذا الكتاب العظيم وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك هكذا وجهه ابن جرير بمعناه قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قال كان النبى صلى الله عليه وسلم مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم فردهم إلى أحكامهم فنزلت (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا ، وقوله (ولا تتبع أهواءهم) أى آراءهم التى اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ولهذا قال تعالى (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) أى لا تنصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء وقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يوسف بن أبى إسحق عن أبيه عن التميمى عن ابن عباس (لكل جعلنا منكم شرعة) قال سبيلا وحدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن سفيان عن أبى إسحق عن التميمى عن ابن عباس (ومنهاجا) قال وسنة وكذا روى العوفى عن ابن عباس (شرعة ومنهاجا) سبيلا وسنة وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وقتادة والضحاك والسدى وأبى إسحق السبيعى أنهم قالوا فى قوله (شرعة ومنهاجا) أى سبيلا وسنة وعن ابن عباس أيضا ومجاهد أى وعطاء الخراسانى عكسه (شرعة ومنهاجا) أى سنة وسبيلا والأول أنسب فان الشرعة وهى الشريعة أيضا هى ما يبتدأ فيه إلى الشىء ومنه يقال شرع فى كذا أى ابتدأ فيه وكذا الشريعة وهى مايشرع فيها إلى الماء. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق . فتفسير قوله (شرعة ومنهاجا) بالسبيل والسنة أظهر فى المناسبة من العكس والله أعلم . ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد » يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) الآية ، وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهى فقد يكون الشىء فى هذه الشريعة حراما ثم يحل فى الشريعة الأخرى وبالعكس وخفيفا فيزاد فى الشدة فى هذه دون هذه وذلك لما له تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة قوله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) يقول سبيلا وسنة والسنن مختلفة هى فى التوراة شريعة ، وفى الإنجيل شريعة وفى الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين الذى لا يقبل الله غيره التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام وقيل المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناه لكل جعلنا القرآن منكم أيتها الأمة شرعة ومناجا أى هو لكم كلكم تقتدون به وحذف الضمير المنصوب فى قوله (لكل جعلنا منكم) أى جعلناه يعنى القرآن شرعة ومنهاجا أى سبيلا إلى المقاصد الصحيحة وسنة أى طريقا ومسلكا واضحا بينا هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله ، والصحيح القول الأول ويدل على ذلك قوله تعالى بعده (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) وهم أمة واحدة ولكن هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التى لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة لا ينسخ شىء منها ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة وجعله خاتم الأنبياء كلهم ولهذا قال تعالى (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) أى أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله وقال عبد الله بن كثير (فيما آتاكم) يعنى من الكتاب ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها فقال (فاستبقوا الخيرات)

وهى طاعة الله واتباع شرعه الذى جعله ناسخا لما قبله والتصديق بكتابه القرآن الذى هو آخر كتاب أنزله ثم قال تعالى (إلى الله مرجعكم) أى معادكم أيها الناس ومصيركم اليه يوم القيامة (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق فيجزى الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة ، وقال الضحاك (فاستبقوا الخيرات) يعنى أمة محمد ﷺ والأول أظهر وقوله (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهى عن خلافه ثم قال (واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أى واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه اليك من الأمور فلا تغتر بهم فإنهم كذبة كفرة خونة (فإن تولوا) أى عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أى فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التى اقتضت إضلالهم ونكالهم (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) أى إن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناكبون عنه كما قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه فقالوا يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم اليك فتقضى لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل فيهم (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) إلى قوله (لقوم يوقنون) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقوله تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهى عن كل شر وعدل إلى ماسواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذى وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت فى بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير قال تعالى (أفحكم الجاهلية يبغون) أى يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون ، (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) أى ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شىء القادر على كل شىء العادل فى كل شىء وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هلال بن فياض حدثنا أبو عبيدة الناجى قال سمعت الحسن يقول من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح قال كان طاوس إذا سأله رجل : أفضل بين ولدى فى النحل ؟ قرأ (أفحكم الجاهلية يبغون) الآية وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع أخبرنا شعيب بن أبى حمزة عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبى حسين عن نافع بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغى فى الإسلام سنة الجاهلية وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه » وروى البخارى عن أبى اليمان بإسناده نحوه بزيادة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن

تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الإسلام وأهله قاتلهم الله ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) الآية. قال ابن أبي حاتم حدثنا كثير بن شهاب حدثنا محمد يعني ابن سعيد بن سابق حدثنا عمرو بن أبي قيس عن سماك بن حرب عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع اليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد وكان له كاتب نصراني فرفع اليه ذلك فعجب عمر وقال إن هذا لحفيظ هل أنت قارىء لنا كتابا في المسجد جاء من الشام فقال إنه لا يستطيع فقال عمر أجنب هو قال لا بل نصراني قال فانتهرني وضرب فخذي ثم قال أخرجوه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآية، ثم قال حدثنا محمد بن الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عثمان بن عمر أنبانا ابن عون عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله ابن عتبة ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر قال فظنناه يريد هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآية وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن فضيل عن عاصم عن عكرمة عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب فقال: كل، قال الله تعالى (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) وروى عن أبي الزناد نحو ذلك وقوله تعالى (فترى الذين في قلوبهم مرض) أي شك وريب ونفاق يسارعون فيهم أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى (فعسى الله أن يأتي بالفتح) قال السدي يعني فتح مكة وقال غيره يعني القضاء والفصل (أو أمر من عنده) قال السدي يعني ضرب الجزية على اليهود والنصارى (فيصبحوا) يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين (على ما أسروا في أنفسهم) من الموالاة نادمين أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ولا دفع عنهم محذورا بل كان عين المفسدة فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ويتأولون فبان كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال تعالى (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) وقد اختلف القراء في هذا الحرف فقرأه الجمهور باثبات الواو في قوله (ويقول الذين) ثم منهم من رفع ويقول على الابتداء ومنهم من نصب عطفا على قوله (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) فتقديره أن يأتي وأن يقول وقرأ أهل المدينة (يقول الذين آمنوا) بغير واو وكذلك هو في مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير قال ابن جريج عن مجاهد (فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده) تقديره[1] حينئذ (يقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين) واختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمات فذكر السدي أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد أما أنا فاني ذاهب إلى ذلك اليهودي فآوى اليه وأتهود معه لعله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث وقال الآخر أما أنا فاني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فآوى اليه وأتنصر معه، فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) الآيات وقال عكرمة نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه ماذا هو صانع بنا فأشار بيده إلى حلقه أي انه الذبح رواه ابن جرير. وقيل نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول كما قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن إدريس قال سمعت أبي عن عطية بن سعد قال جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله فقال عبد الله بن أبي إني رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) كذا في النسخ التي بأيدينا ولعل فيه سقطا وعبارة روح المعاني وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر (يقول) بغير واو على أنه استئناف بياني كأنه قيل فماذا يقول المؤمنون حينئذ اه.

لعبد الله بن أبى « يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » قال قد قبلت فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذو اليهود والنصارى أولياء) الآيتين ثم قال ابن جرير : حدثنا هناد حدثنا يونس ابن بكير حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزهرى قال لما انهزم أهل بدر قال المسلمون لأوليائهم من اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر فقال مالك بن الصيف أغركم أن أصبتم رهطا من قريش لا علم لهم بالقتال أما لو أسررنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد أن تقاتلونا فقال عبادة بن الصامت يا رسول الله إن أوليائى من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيرا سلاحهم شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود ولا مولى لى إلا الله ورسوله فقال عبد الله بن أبى لكنى لا أبرأ من ولاية يهود إنى رجل لا بد لى منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا الحباب أرأيت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » فقال إذا أقبل ، قال فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء — إلى قوله تعالى — والله يعصمك من الناس) وقال محمد بن إسحق فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم بنو قينقاع فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه فقام إليه عبد الله بن أبى ابن سلول حين أمكنه الله منهم فقال يا محمد أحسن فى موالى وكانوا حلفاء الخزرج قال فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أحسن فى موالى قال فأعرض عنه قال فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ «أرسلنى» وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأوا لوجهه ظللا ثم قال « ويحك أرسلنى » قال لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدنى فى غداة واحدة امرؤ أخشى الدوائر قال : فقال رسول الله ﷺ « هم لك » قال محمد ابن إسحق فحدثنى أبى إسحق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبى وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بنى عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبى فجعلهم إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال يا رسول الله أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم، ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت الآيات فى المائدة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض) إلى قوله (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة ابن سعيد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن محمد بن إسحق عن الزهرى عن عروة عن أسامة بن زيد قال دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبى نعوده فقال له النبى ﷺ « قد كنت أنهاك عن حب يهود » فقال عبد الله فقد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات وكذا رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحق

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته فان الله سيستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلا كما قال تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين) وقال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى بممتنع ولا صعب. وقال تعالى ههنا

(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) أى يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب نزلت فى الولاة من قريش. وقال الحسن البصرى نزلت فى أهل الردة أيام أبى بكر. (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال الحسن هو والله أبو بكر وأصحابه رواه ابن أبى حاتم وقال أبو بكر بن أبى شيبة سمعت أبا بكر بن عياش يقول فى قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد هم قوم من سبأ وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله ابن الأجلح عن محمد بن عمرو عن سالم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال ناس من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون. وحدثنا أبى حدثنا محمد بن المصفى حدثنا معاوية يعنى ابن حفص عن أبى زياد الحلفانى عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال «هؤلاء قوم من أهل اليمن ثم من كندة ثم من السكون ثم من تجيب» وهذا حديث غريب جداً وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمر بن شبة حدثنا عبد الصمد يعنى ابن عبد الوارث حدثنا شعبة عن سماك سمعت عياضا يحدث عن أبى موسى الأشعرى قال لما نزلت (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) قال رسول الله ﷺ «هم قوم هذا» ورواه ابن جرير من حديث شعبة بنحوه. وقوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه متعززا على خصمه وعدوه كما قال تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وفى صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه. وقوله عز وجل (يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله وإقامة الحدود وقتال أعدائه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يردهم عن ذلك راد ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل: قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا سلام أبو المنذر عن محمد بن واسع عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر قال أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع، أمرنى بحب المساكين والدنو منهم وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى، ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرنى أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرنى أن لا أسأل أحدا شيئا وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرا، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم، وأمرنى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فانهن من كنز تحت العرش. وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان عن أبى المثنى أن أبا ذر رضى الله عنه قال بايعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وواثقنى سبعا، وأشهد الله على سبعا — أنى لا أخاف فى الله لومة لائم. قال أبو ذر فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «هل لك إلى بيعة ولك الجنة» قلت نعم وبسطت يدى فقال النبى صلى الله عليه وسلم وهو يشترط على «أن لا تسأل الناس شيئا» قلت نعم قال «ولا سوطك وإن سقط منك» يعنى تنزل إليه فتأخذه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن الحسن حدثنا جعفر عن المعلى الفردوسى عن الحسن عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده فانه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم» تفرد به أحمد. وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن زبيد عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرا لله فيه مقال فلا يقول فيه. فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت فى كذا وكذا؟ فيقول مخافة الناس، فيقول إياى أحق أن تخاف» ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به. وروى أحمد وابن ماجه من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبى طوالة عن نهار بن عبد الله العبدى المدنى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول له أى عبدى أرأيت منكرا فلم تنكره؟ فإذا لقن الله عبدا حجته قال أى رب وثقت بك وخفت الناس» وثبت فى الصحيح «ما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه» قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله قال «يتحمل من البلاء ما لا يطيق» (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) أى من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له (والله واسع عليم) أى واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه وقوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله

والذين آمنوا) أى ليس اليهود بأوليائكم بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين وقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام وهى له وحده لاشريك له وإيتاء الزكاة التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله (وهم راكعون) فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله (ويؤتون الزكاة) أى فى حال ركوعهم ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى ان بعضهم ذكر فى هذا أثرا عن على بن أبى طالب أن هذه الآية نزلت فيه وذلك أنه مر به سائل فى حال ركوعه فأعطاه خاتمه وقال ابن أبى حاتم حدثنا الربيع بن سليمان المرادى حدثنا أيوب بن سويد عن عتبة بن أبى حكيم فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) قال هم المؤمنون وعلى بن أبى طالب وحدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا الفضل بن دكين أبونعيم الأحول حدثنا موسى بن قيس الحضرمى عن سلمة بن كهيل قال تصدق على بخاتمه وهو راكع فنزلت (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وقال ابن جرير حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا غالب بن عبدالله سمعت مجاهدا يقول فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) الآية نزلت فى على بن أبى طالب تصدق وهو راكع وقال عبد الرزاق حدثنا عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) الآية نزلت فى على بن أبى طالب : عبد الوهاب بن مجاهد لايحتج به . وروى ابن مردويه من طريق سفيان الثورى عن أبى سنان عن الضحاك عن ابن عباس قال كان على بن أبى طالب قائما يصلى فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه فنزلت (إنما وليكم الله ورسوله) الآية :الضحاك لم يلق ابن عباس وروى ابن مردويه أيضا من طريق محمد بن السائب الكلبى وهو متروك عن أبى صالح عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد والناس يصلون بين راكع وساجد وقائم وقاعد وإذا مسكين يسأل فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أعطاك أحد شيئاً ؟» قال نعم قال «من ؟» قال ذلك الرجل القائم قال « على أى حال أعطاكه ؟» قال وهو راكع ، قال «وذلك على بن أبى طالب» قال فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وهو يقول (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وهذا إسناد لايفرح به ثم رواه ابن مردويه من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه نفسه وعمار بن ياسر وأبى رافع وليس يصح شىء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها ثم روى باسناده عن ميمون بن مهران عن ابن عباس فى قوله (إنما وليكم الله ورسوله) نزلت فى المؤمنين وعلى بن أبى طالب أولهم ، قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا عبدة عن عبدالملك عن أبى جعفر قال سألته عن هذه الآية (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) قلنا من الذين آمنوا ؟ قال الذين آمنوا قلنا بلغنا أنها نزلت فى على بن أبى طالب قال على من الذين آمنوا ، وقال أسباط عن السدى نزلت هذه الآية فى جميع المؤمنين ولكن على بن أبى طالب مر به سائل وهو راكع فى المسجد فأعطاه خاتمه ، وقال على بن أبى طلحة الوالبى عن ابن عباس من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا رواه ابن جرير ، وقد تقدم فى الأحاديث التى أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت فى عبادة بن الصامت رضى الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ولهذا قال تعالى بعد هذا كله (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح فى الدنيا والآخرة ومنصور فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ

وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

هذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والشركين الذين يتخذون أفضل مايعمله العاملون وهى شرائع الاسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوى وأخروى يتخذونها هزوا يستهزئون بها ، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب فى نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل :

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى (من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار) من ههنا لبيان الجنس كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقرأ بعضهم والكفار بالخفض عطفا وقرأ آخرون بالنصب على أنه معمول (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) تقديره (ولا الكفار أولياء) أى لاتتخذوا هؤلاء ولاهؤلاء أولياء والمراد بالكفار ههنا المشركون وكذلك وقع فى قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير (لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا) وقوله (واتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا كما قال تعالى (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) وقوله (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) أى وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التى هى أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب (اتخذوها) أيضا (هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لايعقلون) معانى عبادة الله وشرائعه وهذه صفات أتباع الشيطان الذى إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص أى ضراط حتى لايسمع التأذين فإذا قضى التأذين أقبل فاذا ثوب للصلاة أدبر فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لايدرى كم صلى فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام ، متفق عليه ، وقال الزهرى قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لايعقلون) رواه ابن أبى حاتم ، وقال أسباط عن السدى فى قوله (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا) قال كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى أشهد أن محمدا رسول الله قال حرق الكذاب ، فدخلت خادمه ليلة من الليالى بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شرارة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وذكر محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال فأمره أن يؤذن وأبوسفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة فقال عتاب بن أسيد لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه ، وقال الحارث بن هشام أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته ، فقال أبوسفيان لاأقول شيئا لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى فخرج عليه النبى ﷺ فقال « قد علمت الذى قلتم » ثم ذكر ذلك لهم فقال الحارث وعتاب نشهد أنك رسول ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك ، وقال الإمام أحمد حدثنا روح بن عبادة حدثنا ابن جريج أخبرنا عبدالعزيز بن عبدالملك بن أبى محذورة أن عبدالله بن محيريز أخبره وكان يتيما فى حجر أبى محذورة قال قلت لأبى محذورة ياعم إنى خارج إلى الشام وأخشى أن أسئل عن تأذينك فأخبرنى أن أبا محذوره قال له نعم خرجت فى نفر وكنا فى بعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض الطريق فأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعنا صوت المؤذن ونحن متنكبون فصرخنا نحكيه ونستهزئ به فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ « أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع » ؟ فأشار القوم كلهم إلى وصدقوا فأرسل كلهم وحبسنى وقال « قم فأذن » فقمت ولا شىء أكره إلى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا مما يأمرنى به فقمت بين

يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فألقى على رسول الله صلى عليه وسلم التأذين هو بنفسه قال « قل الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله حي على الصلاة حي على الصلاة حي على الفلاح حي على الفلاح الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله » ثم دعاني حين قضيت التأذين فأعطاني صرة فيها شيء من فضة ثم وضع يده على ناصية أبي محذورة ثم أمرّها على وجهه ثم بين ثدييه ثم على كبده حتى بلغت يد رسول الله ﷺ سرة أبي محذورة ثم قال رسول الله ﷺ « بارك الله فيك وبارك عليك » فقلت يا رسول الله مرني بالتأذين بمكة فقال « قد أمرتك به » وذهب كل شيء كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من كراهة وعاد ذلك كله محبة لرسول الله ﷺ فقدمت على عتاب بن أسيد عامل رسول الله ﷺ فأذنت معه بالصلاة عن أمر رسول الله ﷺ وأخبرني ذلك من أدركت من أهلي ممن أدرك أبا محذورة على نحو ما أخبرني عبدالله بن محيريز ، هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم في صحيحه وأهل السنن الأربعة من طريق عن عبد الله بن محيريز عن أبي محذورة واسمه سمرة بن معير(1) بن لوذان أحد مؤذني رسول الله ﷺ الأربعة وهو مؤذن أهل مكة وامتدت أيامه رضى الله عنه وأرضاه

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ * وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ * وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من أهل الكتاب : (هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) أي هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . فيكون الاستثناء منقطعا كما في قوله تعالى (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) وكقوله (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) وفي الحديث المتفق عليه « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله » وقوله (وأن أكثركم فاسقون) معطوف على (أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل) أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم

ثم قال (قل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله (من لعنه الله) أي أبعده من رحمته (وغضب عليه) أي غضبا لا يرضى بعده أبدا (وجعل منهم القردة والخنازير) كما تقدم بيانه في سورة البقرة وكما سيأتي إيضاحه في سورة الأعراف وقد قال سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد عن المغيرة بن عبد الله عن المعرور بن سويد عن ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير أهي مما مسخ الله فقال « إن الله لم يهلك قوما - أو قال لم يمسخ قوما - فيجعل لهم نسلا ولا عقبا وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبد الله اليشكري به ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا داود بن أبي الفرات عن محمد بن زيد عن أبي الأعين العبدي عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير أهي

(1) هذا قول مرجوح والمعتمد أن اسمه أوس ، ومعير بالمهملة بوزن منبر وقيل بتشديد الياء .

من نسل اليهود فقال « لا إن الله لم يلعن قوما قط فيمسخهم فكان لهم نسل ولكن هذا خلق كان فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم » ورواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به وقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي حدثنا أحمد بن إسحق بن صالح حدثنا الحسن بن محبوب حدثنا عبد العزيز بن المختار عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير » هذا حديث غريب جدا وقوله تعالى (وعبد الطاغوت) قرئ وعبد الطاغوت على أنه فعل ماض والطاغوت منصوب به أى وجعل منهم من عبد الطاغوت وقرئ وعبد الطاغوت بالاضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت أى خدامه وعبيده وقرئ وعبد الطاغوت على أنه جمع لجمع عبد وعبيد وعبد مثل ثمار وثمر حكاها ابن جرير عن الأعمش وحكى عن بريدة الأسلمي أنه كان يقرؤها وعابد الطاغوت وعن أبي وابن مسعود وعبدوا وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القارئ أنه كان يقرؤها وعبد الطاغوت على أنه مفعول مالم يسم فاعله ثم استبعد معناها والظاهر أنه لا بعد في ذلك لأن هذا من باب التعريض بهم أى وقد عبدت الطاغوت فيكم وأنتم الذين فعلتموه وكل هذه القراآت يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ماسواه كيف يصدر منكم هذا وأنتم قد وجد منكم جميع ماذكر ولهذا قال (أولئك شر مكانا) أى مما تظنون بنا (وأضل عن سواء السبيل) وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة كقوله عز وجل (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) وقوله تعالى (وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر ولهذا قال (وقد دخلوا) أى عندك يا محمد (بالكفر) أى مستصحبين الكفر فى قلوبهم ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال (وهم قد خرجوا به) فخصهم به دون غيرهم وقوله تعالى (والله أعلم بما كانوا يكتمون) أى عالم بسرائرهم وما تنطوى عليه ضمائرهم وإن أظهروا الخلقه خلاف ذلك وتزينوا بماليس فيهم فان الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء وقوله (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت) أى يبادرون إلى ذلك من تعاطى المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكلهم أموالهم بالباطل لبئس ما كانوا يعملون أى لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم

وقوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) يعنى هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطى ذلك والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم والأحبار هم العلماء فقط (لبئس ما كانوا يصنعون) يعنى من تركهم ذلك قاله على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم قال لهؤلاء حين لم ينهوا ولهؤلاء حين عملوا قال وذلك الأمر كان قال ويعملون ويصنعون واحد رواه ابن أبى حاتم وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عطية حدثنا قيس عن العلاء بن المسيب عن خالد بن دينار عن ابن عباس قال مافى القرآن آية أشد توبيخا من هذه الآية (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون) قال كذا قرأ ، وكذا قال الضحاك مافى القرآن آية أخوف عندى منها إنا لا ننهى رواه ابن جرير وقال ابن أبى حاتم وذكره يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا محمد بن مسلم بن أبى الوضاح حدثنا ثابت ابن سعيد الهمدانى قال لقيته بالرى فحدث عن يحي بن يعمر قال خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار فلما تمادوا فى المعاصى أخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقا ولا يقرب أجلا ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا شريك عن أبى إسحق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، ورواه أبو داود عن مسدد عن أبى الأحوص عن أبى إسحق عن المنذر بن جرير عن جرير قال سمعت رسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول « مامن رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيرون إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا » وقد رواه ابن ماجه عن على بن محمد عن وكيع عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبيد الله ابن جرير عن أبيه به ، قال الحافظ المزى وهكذا رواه شعبة عن أبى إسحق به

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه تعالى عن قولهم علوا كبيرا بأنه بخيل كما وصفوه بأنه فقير وهم أغنياء وعبروا عن البخل بأن قالوا (يد الله مغلولة) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبد الله الطهرانى حدثنا حفص بن عمر العدنى حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال : قال ابن عباس (مغلولة) أى بخيلة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) قال لايعنون بذلك أن يد الله موثقة ولكن يقولون بخيل يعنى أمسك ماعنده تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى والضحاك وقرأ (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) يعنى أنه ينهى عن البخل وعن التبذير وهو زيادة الانفاق فى غير محله وعبر عن البخل بقوله (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) وهذا هو الذى أراد هؤلاء اليهود عليهم لعائن الله وقد قال عكرمة إنها نزلت فى فنحاص اليهودى عليه لعنة الله وقد تقدم أنه الذى قال (إن الله فقير ونحن أغنياء) فضربه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس إن ربك بخيل لاينفق فأنزل الله (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) وقد رد الله عز وجل عليهم ماقالوه وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه فقال (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) وهكذا وقع لهم فان عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) الآية ، وقال تعالى (ضربت عليهم الذلة) الآية . ثم قال تعالى (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء) أى بل هو الواسع الفضل الجزيل العطاء الذى مامن شىء إلا عنده خزائنه وهو الذى مابخلقه من نعمة فمنه وحده لاشريك له الذى خلق لنا كل شىء مما نحتاج إليه ، فى ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا وفى جميع أحوالنا ، كما قال (وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) والآيات فى هذا كثيرة وقد قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه ـ قال ـ وعرشه على الماء وفى يده الأخرى الفيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض . وقال : يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك » أخرجاه فى الصحيحين البخارى فى التوحيد عن على بن المدينى ومسلم فيه عن محمد بن رافع كلاهما عن عبد الرزاق به ، وقوله تعالى (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) أى يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة

نقمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملا صالحاً وعلماً نافعا يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغيانا وهو المبالغة والمجاوزة للحد فى الأشياء وكفراً أى تكذيبا كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خساراً) وقوله تعالى (وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) يعنى أنه لاتجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقهم بعضهم فى بعض دائما لأنهم لايجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك وقال إبراهيم النخعى وألقينا بينهم العداوة والبغضاء قال الخصومات والجدال فى الدين رواه ابن أبى حاتم وقوله (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) أى كلما عقدوا أسبابا يكيدونك بها وكلما أبرموا أمورا يحاربونك بها أبطلها الله ورد كيدهم عليهم وحاق مكرهم السيء بهم (ويسعون فى الأرض فساداً والله لايحب المفسدين) أى من سجيتهم أنهم دائما يسعون فى الافساد فى الأرض والله لايحب من هذه صفته ، ثم قال جل وعلا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا) أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم (لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) أى لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم) قال ابن عباس وغيره هو القرآن (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء على ماهى عليه من غير تحريف ولا تبديل ولاتغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى مابعث الله به محمدا ﷺ فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتما لامحالة وقوله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (لأكلوا من فوقهم) يعنى لأرسل السماء عليهم مدرارا (ومن تحت أرجلهم) يعنى يخرج من الأرض بركاتها وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى كما قال تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) الآية وقال تعالى (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) الآية وقال بعضهم معناه (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) يعنى من غير كد ولاتعب ولاشقاء ولاعناء وقال ابن جرير قال بعضهم معناه لكانوا فى الخير كما يقول القائل هو فى الخير من فرقه إلى قدمه ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف

وقد ذكر ابن أبى حاتم عند قوله (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) أثرا فقال حدثنا علقمة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يوشك أن يرفع العلم » فقال زياد بن لبيد يارسول الله وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا فقال « ثكلتك أمك ياابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه أهل المدينة أوليست التوراة والانجيل بأيدى اليهود والنصارى فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله » ثم قرأ « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل) هكذا أورده ابن أبى حاتم معلقا من أول إسناده مرسلا فى آخره وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل متصلا موصولا فقال حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن سالم بن أبى الجعد عن زياد بن لبيد أنه قال ذكر النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال « وذاك عند ذهاب العلم » قال قلنا يارسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة فقال « ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والانجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشىء » هكذا رواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع به نحوه وهذا إسناد صحيح . وقوله تعالى (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون) كقوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكقوله عن أتباع عيسى (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) الآية فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين كما فى قوله عز وجل (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها) الآية والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة وقد قال أبوبكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا أحمد بن يونس الضبى حدثنا عاصم بن على حدثنا

أبو معشر عن يعقوب بن يزيد بن طلحة عن زيد بن أسلم عن أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة سبعون منها فى النار وواحدة فى الجنة وتفرقت أمة عيسى على ثنتين وسبعين ملة واحدة منها فى الجنة وإحدى وسبعون منها فى النار وتعلو أمتى على الفرقتين جميعا واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار » قالوا من هم يا رسول الله قال « الجماعات الجماعات » قال يعقوب بن زيد كان على بن أبى طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا فيه قرآنا قال (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم) إلى قوله تعالى (منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون) وتلا أيضا قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا حديث غريب جدا من هذا الوجه وبهذا السياق وحديث افتراق الأمم إلى بضع وسبعين مروى من طرق عديدة وقد ذكرناه فى موضع آخر ولله الحمد والمنة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم باسم الرسالة وآمرا له بابلاغ جميع ما أرسله الله به وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك وقام به أتم القيام قال البخارى عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) الآية هكذا رواه هاهنا مختصرا وقد أخرجاه فى مواضع من صحيحه مطولا وكذا رواه مسلم فى كتاب الإيمان والترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننهما من طرق عن عامر الشعبى عن مسروق بن الأجدع عنها رضى الله عنها وفى الصحيحين عنها أيضا أنها قالت لو كان محمد ﷺ كاتما شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد عن هرون بن عنترة عن أبيه قال كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال له إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس فقال ابن عباس ألم تعلم أن الله تعالى قال (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء وهذا إسناد جيد وهكذا فى صحيح البخارى من رواية أبى جحيفة وهب بن عبد الله السوائى قال قلت لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه هل عندكم شىء من الوحى مما ليس فى القرآن فقال لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن وما فى هذه الصحيفة قلت وما فى هذه الصحيفة قال العقل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر .

وقال البخارى : قال الزهرى من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم وقد شهدت له أمته بابلاغ الرسالة وأداء الأمانة واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع وقد كان هناك من أصحابه نحو من أربعين ألفاً كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ « أيها الناس إنكم مسئولون عنى فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع اصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول « اللهم هل بلغت » قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا فضيل يعنى ابن غزوان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع « يا أيها الناس أى يوم هذا » قالوا يوم حرام قال « أى بلد هذا » قالوا بلد حرام قال « فأى شهر هذا » قالوا شهر حرام قال « فان أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا » ثم أعادها مراراً ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال « اللهم هل بلغت » مراراً قال يقول ابن عباس والله لوصية إلى ربه عز وجل ثم قال « ألا فليبلغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم

رقاب بعض » وقد روى البخارى عن على بن المدينى عن يحيى بن سعيد عن فضيل بن غزوان به نحوه، وقوله تعالى (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعنى وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به فما بلغت رسالته أى وقد علم ما يترتب على ذلك لووقع وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا قبيصة بن عقبة حدثنا سفيان عن رجل عن مجاهد قال لما نزلت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) قال يا رب كيف أصنع وأنا وحدى يجتمعون على فنزلت (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) ورواه ابن جرير من طريق سفيان وهو الثورى به ، وقوله تعالى (والله يعصمك من الناس) أى بلغ أنت رسالتى وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم قبل نزول هذه الآية يحرس كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا يحيى قال سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث أن عائشة رضى الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه قالت : فقلت ما شأنك يا رسول الله قال « ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى الليلة » قالت فبينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال « من هذا » فقال أنا سعد بن مالك فقال « ما جاء بك » قال جئت لأحرسك يا رسول الله قالت فسمعت غطيط رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نومه أخرجاه فى الصحيحين من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى به ، وفى لفظ سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة مقدمه المدينة يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضى الله عنها وكان ذلك فى سنة ثنتين منها وقال ابن أبى حاتم حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصرى نزيل مصر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد يعنى أبا قدامة عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق عن عائشة قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) قالت فأخرج النبى ﷺ رأسه من القبة وقال « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل » وهكذا رواه الترمذى عن عبد بن حميد وعن نصر بن على الجهضمى كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به ثم قال وهذا حديث غريب ، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم فى مستدركه من طريق مسلم بن إبراهيم به ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وكذا رواه سعيد ابن منصور عن الحارث بن عبيد أبى قدامة الايادى عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق عن عائشة به ثم قال الترمذى وقد روى بعضهم هذا عن الجريرى عن ابن شقيق قال كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ولم يذكر عائشة قلت هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن علية، وابن مردويه من طريق وهيب كلاهما عن الجريرى عن عبد الله بن شقيق مرسلا وقد روى هذا مرسلا عن سعيد بن جبير ومحمد بن كعب القرظى رواهما ابن جرير والربيع بن أنس رواه ابن مردويه ثم قال حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن رشدين المصرى حدثنا خالد بن عبد السلام الصدفى حدثنا الفضل بن المختار عن عبد الله بن موهب عن عصمة بن مالك الخطمى قال كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) فترك الحرس: حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد بن محمد بن أحمد أبو نصر الكاتب البغدادى حدثنا كردوس بن محمد الواسطى حدثنا يعلى بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد الخدرى قال كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) ترك رسول الله ﷺ الحرس حدثنا على بن أبى حامد المدينى حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعرى حدثنا أبى حدثنا محمد بن معاوية بن عمار حدثنا أبى قال سمعت أبا الزبير المكى يحدث عن جابر بن عبد الله قال كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت (والله يعصمك من الناس) فذهب ليبعث معه فقال « يا عم إن الله قد عصمنى لا حاجة لى إلى من تبعث » وهذا حديث غريب وفيه نكارة فان هذه الآية مدنية وهذا الحديث يقتضى أنها مكية ثم قال حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيى حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحمانى عن النضر عن عكرمة عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بنى هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت

رسالته والله يعصمك من الناس) قال فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال « إن الله قد عصمنى من الجن والإنس » ورواه الطبرانى عن يعقوب بن غيلان العمانى عن أبى كريب به

وهذا أيضا حديث غريب والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هى من أواخر ما نزل بها والله أعلم ، ومن عصمة الله لرسوله حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها مع شدة العداوة والبغضة ونصب المحاربة له ليلا ونهارا بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة فصانه فى ابتداء الرسالة بعمه أبى طالب إذ كان رئيساً مطاعا كبيرا فى قريش وخلق الله فى قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك فى الكفر هابوه واحترموه فلما مات عمه أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرا ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهى المدينة فلما صار إليها منعوه من الأحمر والأسود وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم وأنزل عليه سورتى المعوذتين دواء لذلك الداء ولما سمه اليهود فى ذراع تلك الشاة بخيبر أعلمه الله به وحماه منه ولهذا أشباه كثيرة جدا يطول ذكرها . فمن ذلك ماذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلا اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها فأتاه أعرابى فاخترط سيفه ثم قال من يمنعك منى فقال « الله عز وجل » فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف منه وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله عز وجل (والله يعصمك من الناس) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحى بن سعيد القطان حدثنا زيد بن الحباب حدثنا موسى بن عبيدة حدثنى زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى أنمار نزل ذات الرقاع بأعلى نخل فبينا هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الحارث من بنى النجار لأقتلن محمداً فقال له أصحابه كيف تقتله قال أقول له أعطنى سيفك فإذا أعطانيه قتلته به قال فأتاه فقال يا محمد أعطنى سيفك أشيمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول الله ﷺ « حال الله بينك وبين ما تريد » فأنزل الله عز وجل (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس» وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقصة غورث بن الحارث مشهورة فى الصحيح وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أبو عمرو بن أحمد بن محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الوهاب حدثنا آدم حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال كنا إذا صحبنا رسول الله ﷺ فى سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلها فينزل تحتها فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل فأخذه فقال يا محمد من يمنعك منى فقال رسول الله ﷺ « الله يمنعنى منك ضع السيف » فوضعه فأنزل الله عز وجل (والله يعصمك من الناس) وكذا رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن عبد الله بن محمد عن إسحق بن إبراهيم عن المؤمل بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا إسرائيل يعنى الجشمى سمعت جعدة هو ابن خالد بن الصمة الجشمى رضى الله عنه قال سمعت النبى ﷺ ورأى رجلا سمينا فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يومئ إلى بطنه بيده ويقول « لو كان هذا فى غير هذا لكان خيراً لك » قال وأتى النبى صلى الله عليه وسلم برجل فقيل هذا أراد أن يقتلك فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « لم ترع ولو أردت ذلك لم يسلطك الله على » وقوله (إن الله لا يهدى القوم الكافرين) أى بلغ أنت والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء كما قال تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقال (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد (يا أهل الكتاب لستم على شيء) أي من الدين حتى تقيموا التوراة والإنجيل أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء وتعملوا بما فيها ومما فيها الإيمان بمحمد والأمر باتباعه ﷺ والإيمان بمبعثه والاقتداء بشريعته ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله (وما أنزل إليكم من ربكم) يعني القرآن العظيم وقوله (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) تقدم تفسيره (فلا تأس على القوم الكافرين) أي فلا تحزن عليهم ولا يهيدنك ذلك منهم ثم قال (إن الذين آمنوا) وهم مسلمون (والذين هادوا) وهم حملة التوراة (والصابئون) لما طال الفصل حسن العطف بالرفع والصابئون طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين قاله مجاهد وعنه من اليهود والمجوس وقال سعيد بن جبير من اليهود والنصارى وعن الحسن والحكم إنهم كالمجوس وقال قتادة هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى غير القبلة ويقرءون الزبور وقال وهب بن منبه هم قوم يعرفون الله وحده وليست لهم شريعة يعملون بها ولم يحدثوا كفرا وقال ابن وهب أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه قال الصابئون هم قوم مما يلي العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات وقيل غير ذلك وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر وهو الميعاد والجزاء يوم الدين وعملت عملا صالحا ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقا للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم ولا هم يحزنون وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يذكر أنه تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم وقدموها على الشرائع فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه ولهذا قال تعالى (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون وحسبوا أن لا تكون فتنة) أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب وهو أنهم عموا عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون اليه ثم تاب الله عليهم أي مما كانوا فيه (ثم عموا وصموا) أي بعد ذلك (كثير منهم والله بصير بما يعملون) أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

يقول تعالى حاكما بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوا كبيرا هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبدالله ورسوله وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد أن قال إنى عبد الله ولم يقل إنى أنا الله ولا ابن الله بل قال (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا) إلى أن قال (وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) وكذلك قال لهم فى حال كهولته ونبوته آمرا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ولهذا قال تعالى (وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله) أى فيعبد معه غيره (فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) أى فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وقال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) وفى الصحيح أن النبى ﷺ بعث مناديا ينادى فى الناس إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وفى لفظ مؤمنة وتقدم فى أول سورة النساء عند قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة : الدواوين ثلاثة فذكر منهم ديوانا لا يغفره الله وهو الشرك بالله قال الله تعالى (ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة) والحديث فى مسند أحمد ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار) أى وماله عندالله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه وقوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن المسنجانى حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مريم حدثنا الفضل حدثنى أبو صخر فى قول الله تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) قال هو قول اليهود عزيرا ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا قول غريب فى تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى والصحيح أنها أنزلت فى النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد ثم اختلفوا فى ذلك فقيل المراد بذلك كفارهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، قال ابن جرير وغيره والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم وهم مختلفون فيها اختلافا متباينا ليس هذا موضع بسطه وكل فرقة منهم تكفر الأخرى والحق أن الثلاثة كافرة وقال السدى وغيره نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار قال السدى وهى كقوله تعالى فى آخر السورة (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك) الآية وهذا القول هو الأظهر والله أعلم قال الله تعالى (ومامن إله إلا إله واحد) أى ليس متعددا بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ثم قال تعالى متوعدا لهم ومتهددا (وان لم ينتهوا عما يقولون) أى من هذا الافتراء والكذب (ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى فى الآخرة من الأغلال والنكال ثم قال (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه وقوله تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول الله قدخلت من قبله الرسل) أى له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وانه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل) وقوله (وأمه صديقة) أى مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وهذا معنى النبوة والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال قال الله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعرى رحمه الله الإجماع على ذلك وقوله تعالى (كانا يأكلان الطعام) أى يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما

زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ثم قال تعالى (انظر كيف نبين لهم الآيات) أى نوضحها ونظهرها (ثم انظر أنى يؤفكون) أى ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون وبأى قول يتمسكون وإلى أى مذهب من الضلال يذهبون

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

يقول تعالى منكرا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبينا له أنها لا تستحق شيئا من الإلهية فقال تعالى (قل) أى يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم ودخل فى ذلك النصارى وغيرهم (أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا) أى لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم (والله هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده العليم بكل شىء فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه ثم قال (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أى لا تجاوزوا الحد فى اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم فى المسيح وهو نبى من الأنبياء فجعلتموه إلها من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديما (وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) أى وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا عبد الله بن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع بن أنس قال وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زمانا فأتاه الشيطان فقال إنما تركت أثرا أو أمرا قد عمل قبلك فلا تحمد عليه ولكن ابتدع أمرا من قبل نفسك وادع إليه وأجبر الناس عليه ففعل ثم ادكر بعد فعله زمانا فأراد أن يتوب منه فخلع سلطانه وملكه وأراد أن يتعبد فلبث فى عبادته أياما فأتى فقيل له لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك ولكن ضل فلان وفلان وفلان فى سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبدا ففيه سمعنا وفى أشباهه هذه الآية (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه قال العوفى عن ابن عباس لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه فى زمانهم فقال تعالى (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) أى كان لا ينهى أحد منهم أحدا عن ارتكاب المآثم والمحارم ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يركب مثل الذى ارتكبوه فقال لبئس ما كانوا يفعلون وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد الله عن على بن بذيمة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم» قال يزيد وأحسبه قال «فى أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم

على لسان داود وعيسى بن مريم (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) » وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس فقال « لا والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » وقال أبوداود حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي حدثنا يونس ابن راشد عن على بن بذيمة عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول مادخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لايحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال - (لعن الذين كفروا من إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) إلى قوله (فاسقون) - ثم قال - كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » وكذا رواه الترمذى وابن ماجه من طريق على بن بذيمة به وقال الترمذى حسن غريب ثم رواه هو وابن ماجه عن بندار عن ابن مهدى عن سفيان عن على بن بذيمة عن أبى عبيدة مرسلا وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج وهرون بن إسحق الهمدانى قالا حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى عن العلاء بن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن أبى عبيدة عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل من بنى إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرا فإذا كان من الغد لم يمنعه مارأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه » وفى حديث هرون « وشريبه » ثم اتفقا فى المتن « فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ثم قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كما لعنهم » والسياق لأبى سعيد كذا قال فى رواية هذا الحديث وقد رواه أبو داود أيضا عن خلف بن هشام عن أبى شهاب الحناط عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن سالم وهو ابن عجلان الأفطس عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه عن النبى ﷺ بنحوه ثم قال أبوداود كذا رواه خالد عن العلاء عن عمرو بن مرة به ورواه المحاربى عن العلاء ابن المسيب عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس عن أبى عبيدة عن عبد الله قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطى عن العلاء بن المسيب عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن أبى موسى والأحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدا ولنذكر منها مايناسب هذا المقام قد تقدم حديث جابر عند قوله (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار) وسيأتى عند قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) حديث أبى بكر الصديق وأبى ثعلبة الخشنى فقال الإمام أحمد حدثنا سليمان الهاشمى أنبأنا إسماعيل بن جعفر أخبرنى عمرو بن أبى عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهلى عن حذيفة بن اليمان أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه الترمذى عن على بن حجر عن إسماعيل بن جعفر به وقال هذا حديث حسن وقال أبوعبد الله محمد ابن يزيد بن ماجه حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا معاوية بن هشام عن هشام بن سعد عن عمرو بن عثمان عن عاصم بن عمر بن عثمان عن عروة عن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول « مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم » تفرد به وعاصم هذا مجهول وفى الصحيح من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه عن أبى سعيد وعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم وقال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا سيف هو ابن أبى سليمان سمعت عدى بن عدى الكندى يحدث عن مجاهد قال حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يعنى عدى بن عميرة رضى الله عنه يقول سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله لايعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » ثم رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج عن عبد الله بن المبارك عن سيف بن أبى سليمان

عن عيسى بن عدى الكندى حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكره هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين قال أبوداود حدثنا أبو العلاء حدثنا أبو بكر حدثنا المغيرة بن زياد الموصلى عن عدى ابن عدى عن العرس يعنى ابن عميرة عن النبى ﷺ قال « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها- وقال مرة فأنكرها- كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » تفرد به أبو داود ثم رواه عن أحمد بن يونس عن أبى شهاب عن مغيرة بن زياد عن عدى بن عدى مرسلا وقال أبوداود حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر قالا حدثنا شعبة وهذا لفظه عن عمرو بن مرة عن أبى البحترى قال أخبرنى من سمع النبى ﷺ وقال سليمان حدثنى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم » وقال ابن ماجه حدثنا عمران بن موسى حدثنا حماد بن زيد حدثنا على بن زيد بن جدعان عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال « ألا لايمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال قد والله رأينا أشياء فهبنا وفى حديث إسرائيل عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه أبوداود والترمذى وابن ماجه وقال الترمذى حسن غريب من هذا الوجه . وقال ابن ماجه حدثنا راشد بن سعيد الرملى حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن أبى غالب عن أبى أمامة قال عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمرة الأولى فقال يارسول الله أى الجهاد أفضل فسكت عنه فلما رمى الجمرة الثانية سأله فسكت عنه فلما رمى جمرة العقبة ووضع رجله فى الغرز ليركب قال «أين السائل» قال أنا يارسول الله قال« كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر » تفرد به وقال ابن ماجه حدثنا أبوكريب حدثنا عبد الله بن نمير وأبومعاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البحترى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه قال « يرى أمر الله فيه مقال ثم لايقول فيه فيقول الله له يوم القيامة مامنعك أن تقول فى كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى » تفرد به وقال أيضا حدثنا على بن محمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبوطوالة حدثنا نهار العبدى أنه سمع أباسعيد الخدرى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فاذا لقن الله عبدا حجته قال يارب رجوتك وفرقت الناس » تفرد به أيضا ابن ماجه وإسناده لابأس به وقال الإمام أحمد حدثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن عن جندب عن حذيفة عن النبى ﷺ قال « لاينبغى لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يتعرض من البلاء لما لايطيق » وكذا رواه الترمذى وابن ماجه جميعا عن محمد بن بشار عن عمرو بن عاصم به وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب وقال ابن ماجه حدثنا العباس بن الوليد الدمشقى حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى حدثنا الهيثم بن حميد حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرعينى عن مكحول عن أنس بن مالك قال: قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم » قلنا يارسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا قال « الملك فى صغاركم والفاحشة فى كباركم والعلم فى رذالكم » قال زيد تفسير معنى قول النبى ﷺ والعلم فى رذالكم إذا كان العلم فى الفساق تفرد به ابن ماجه وسيأتى فى حديث أبى ثعلبة عند قوله (لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) شاهد لهذا إن شاء الله تعالى وبه الثقة وقوله تعالى (ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا) قال مجاهد يعنى بذلك المنافقين وقوله (لبئس ماقدمت لهم أنفسهم) يعنى بذلك موالاتهم للكافرين وتركهم موالاة المؤمنين التى أعقبتهم نفاقا فى قلوبهم وأسخطت الله عليهم سخطا مستمرا إلى يوم معادهم ولهذا قال (أن سخط الله عليهم) وفسر بذلك ماذمهم به ثم أخبر عنهم أنهم (فى العذاب خالدون) يعنى يوم القيامة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عمار حدثنا مسلم ابن على عن الأعمش باسناد ذكره قال « يا معشر المسلمين إياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاثا فى الدنيا وثلاثا فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فانه يذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التى فى الآخرة فانه يوجب سخط الرب

وسوء الحساب والخلود فى النار » ثم تلا رسول الله ﷺ (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون) هكذا ذكره ابن أبى حاتم وقد رواه ابن مردوية من طريق هشام بن عمار عن مسلم عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبى ﷺ فذكره وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عفير عن مسلم عن أبى عبد الرحمن الكوفى عن الأعمش عن شقيق عن حذيفة عن النبى ﷺ فذكر مثله وهذا حديث ضعيف على كل حال والله أعلم وقوله تعالى (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء) أى لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين فى الباطن ومعاداة المؤمنين بالله والنبى وما أنزل إليه (ولكن كثيراً منهم فاسقون) أى خارجون عن طاعة الله ورسوله مخالفون لآيات وحيه وتنزيله

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم وهذا القول فيه نظر لأن هذه الآية مدنية وقصة جعفر مع النجاشى قبل الهجرة وقال سعيد بن جبير والسدى وغيرهما نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه قال السدى فهاجر النجاشى فمات بالطريق وهذا من افراد السدى فإن النجاشى مات وهو ملك الحبشة وصلى عليه النبى ﷺ يوم مات وأخبر به أصحابه وأخبر أنه مات بأرض الحبشة . ثم اختلف فى عدة هذا الوفد فقيل اثنا عشر سبعة قساقسة وخمسة رهابين وقيل بالعكس وقيل خمسون وقيل بضع وستون وقيل سبعون رجلا فالله أعلم وقال عطاء بن أبى رباح هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين وقال قتادة هم قوم كانوا على دين عيسى بن مريم فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها

فقوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) ما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة وسموه وسحروه وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة قال الحافظ أبو بكر بن مردوية عند تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن محمد بن السرى حدثنا محمد بن على بن حبيب الرقى حدثنا على بن سعيد العلاف حدثنا أبو النضر عن الأشجعى عن سفيان عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله » ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحق العسكرى حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازى حدثنا فرج بن عبيد حدثنا عباد بن العوام عن يحيى بن عبد الله عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ما خلا يهودى بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله » وهذا

حديث غريب جدا ، وقوله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للاسلام وأهله فى الجملة وما ذاك إلا لما فى قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية) وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . وليس القتال مشروعا فى ملتهم ولهذا قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم واحدهم قسيس وقس أيضاً وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة وهى الخوف كراكب وركبان وفارس وفرسان قال ابن جرير وقد يكون الرهبان واحدا وجمعه رهابين مثل قربان وقرابين وجرذان وجراذين وقد يجمع على رهابنة ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحدا قول الشاعر :

لو عاينت رهبان دير فى القلل لانحدر الرهبان يمشى ونزل

وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم حدثنا نصير بن أبى الأشعث حدثنى الصلت الدهان عن جاثمة بن رئاب قال سألت سلمان عن قول الله تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) فقال دع القسيسين فى البيع والخرب أقرأنى رسول الله ﷺ « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحمانى عن نضير بن زياد الطائى عن صلت الدهان عن جاثمة بن رئاب عن سلمان به . وقال ابن أبى حاتم ذكره أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمانى حدثنا نضير بن زياد الطائى حدثنا صلت الدهان عن جاثمة بن رئاب قال سمعت سلمان وسئل عن قوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) فقال هم الرهبان الذين هم فى الصوامع والخرب فدعوهم فيها قال سلمان وقرأت على النبى ﷺ (ذلك بأن منهم قسيسين) فأقرأنى « ذلك بأن منهم صديقين ورهبانا » فقوله : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف فقال (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم (يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أى مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به وقد روى النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن عمر بن على بن مقدم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال نزلت هذه الآية فى النجاشى وفى أصحابه (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) وروى ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (فاكتبنا مع الشاهدين) أى مع محمد ﷺ وأمته هم الشاهدون يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ وللرسل أنهم قد بلغوا ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الطبرانى حدثنا أبو شبيل عبد الله بن عبد الرحمن بن واقد حدثنا أبى حدثنا العباس بن الفضل عن عبد الجبار بن نافع الضبى عن قتادة وجعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع) قال إنهم كانوا كرابين يعنى فلاحين قدموا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا وفاضت أعينهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » فقالوا لن ننتقل عن ديننا فأنزل الله ذلك من قولهم (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون فى قوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية وهم الذين قال الله فيهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) إلى قوله (لا نبتغى الجاهلين) ولهذا قال تعالى ههنا (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار) أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ماكثين فيها أبدا لا يحولون ولا يزولون (وذلك جزاء المحسنين) أى فى اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان ، ثم

أخبر عن حال الأشقياء فقال : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى جحدوا بها وخالفوها (أولئك أصحاب الجحيم) أى هم أهلها والداخلون فيها .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فأرسل اليهم فذكر لهم ذلك فقالوا نعم فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى » رواه ابن أبى حاتم ، وروى ابن مردويه من طريق العوفى عن ابن عباس نحو ذلك ، وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر فقال بعضهم لا آكل اللحم ، وقال بعضهم لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال « مابال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد عن عثمان يعنى ابن سعيد أخبرنى عكرمة عن ابن عباس أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنى إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء وإنى حرمت علىّ اللحم فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وكذا رواه الترمذى وابن جرير جميعاً عن عمرو بن على الفلاس عن أبى عاصم النبيل به وقال حسن غريب وقد روى من وجه آخر مرسلا وروى موقوفا على ابن عباس فالله أعلم ، وقال سفيان الثورى ووكيع عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن عبدالله بن مسعود قال كنا نغزو مع النبى صلى الله عليه وسلم وليس معنا نساء فقلنا ألا نستخصى فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ورخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ عبدالله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية أخرجاه من حديث إسماعيل وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة والله أعلم . وقال الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحارث عن عمرو بن شرحبيل قال جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال إنى حرمت فراشى فتلا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية وقال الثورى عن منصور عن أبى الضحى عن مسروق قال كنا عند عبد الله بن مسعود فجىء بضرع فتنحى رجل فقال له عبد الله ادن فقال إنى حرمت أن آكله فقال عبد الله ادن فأطعم وكفر عن يمينك وتلا هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) الآية رواهن ابن أبى حاتم وروى الحاكم هذا الأثر الأخير فى مستدركه من طريق إسحق بن راهويه عن جرير عن منصور به ثم قال على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ثم قال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه أن عبد الله بن رواحة أضافه ضيف من أهله وهو عند النبى ﷺ ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظارا له فقال لامرأته حبست ضيفى من أجلى هو على حرام فقالت امرأته هو على حرام وقال الضيف هو على حرام فلما رأى ذلك وضع يده وقال كلوا باسم الله ثم ذهب إلى النبى ﷺ فذكر الذى كان منهم ثم أنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) وهذا أثر منقطع

وفى صحيح البخارى فى قصة الصديق مع أضيافه شبيه بهذا وفيه وفى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعى وغيره إلى أن من حرم مأكلا أو ملبسا أو شيئا ماعدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضا ولقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) ولأن الذى حرم اللحم على نفسه كما فى الحديث المتقدم لم يأمره النبى ﷺ بكفارة وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو ملبسا

أوشيئا من الأشياء فانه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاما له بما التزمه كما أفتى بذلك ابن عباس وكما فى قوله تعالى (يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم) ثم قال (قدفرض الله لكم تحلة أيمانكم) الآية وكذلك هاهنا لماذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير والله أعلم ، وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا ويخصوا أنفسهم ويلبسوا المسوح فنزلت هذه الآية إلى قوله (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة فى أصحابه تبتلوا فجلسوا فى البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا مايؤكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل وهموا بالاختصاء وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) يقول لاتسيروا بغير سنة المسلمين يريد ماحرموا من النساء والطعام واللباس وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من الاختصاء فلما نزلت فيهم بعث اليهم رسول الله ﷺ فقال « إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا صوموا وأفطروا وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا اللهم سلمنا واتبعنا ما أنزلت ، وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ولها شاهد فى الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك ولله الحمد والمنه وقال أسباط عن السدى فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوما فذكر الناس ثم قام ولم يزدهم على التخويف فقال ناس من أصحاب النبى ﷺ كانوا عشرة منهم على بن أبى طالب وعثمان ابن مظعون ما حقنا إن لم نحدث عملا فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ، فحرم بعضهم أن يؤكل اللحم والودك وأن يأكل بالنهار وحرم بعضهم النوم وحرم بعضهم النساء فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء فكان لايدنو من أهله ولا يدنون منه فأتت امرأته عائشة رضى الله عنها وكان يقال لها الحولاء فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبى ﷺ مابالك ياحولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين فقالت وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجى وما رفع عنى ثوبا منذ كذا وكذا قال فجعلن يضحكن من كلامها فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال « مايضحككن » قالت يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوبامنذ كذا وكذا فأرسل اليه فدعاه فقال « مالك ياعثمان ؟ » قال إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة وقص عليه أمره وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك » فقال يارسول الله إنى صائم فقال « أفطر » فأفطر وأتى أهله فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت مالك ياحولاء فقالت إنه أتاها أمس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مابال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء فمن رغب عنى فليس منى » فنزلت (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) يقول لعثمان لاتجب نفسك فان هذا هو الاعتداء وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الأيمان) رواه ابن جرير وقوله تعالى (ولا تعتدوا) يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا فى التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم كما قاله من قاله من السلف ويحتمل أن يكون المراد كما لاتحرموا الحلال فلا تعتدوا فى تناول الحلال بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولاتجاوزوا الحد فيه كما قال تعالى (وكلوا واشربوا ولاتسرفوا) الآية وقال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه لاإفراط ولا تفريط ولهذا قال (لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين) ثم قال (وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا) أى فى حال كونه حلالا طيبا (واتقوا الله) أى فى جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه (الذى أنتم به مؤمنون)

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على اللغو فى اليمين فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا ولله الحمد والمنة وأنه قول الرجل فى الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله. وهذا مذهب الشافعى وقيل هو فى الهزل وقيل فى المعصية وقيل على غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد وقيل فى اليمين فى الغضب وقيل فى النسيان وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك واستدلوا بقوله (لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) أى بما صممتم عليه منها وقصدتموها (فكفارته إطعام عشرة مساكين) يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه وقوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة أى من أعدل ما تطعمون أهليكم وقال عطاء الخراسانى من أمثل ما تطعمون أهليكم قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن أبى إسحق السبيعى عن الحارث عن على قال خبز ولبن وخبز وسمن، وقال ابن أبى حاتم أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة حدثنا سفيان بن عيينة عن سليمان يعنى ابن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون وبعضهم قوتا فيه سعة فقال الله تعالى (من أوسط ما تطعمون أهليكم) أى من الخبز والزيت وحدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر عن ابن عباس (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال من عسرهم ويسرهم وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصى حدثنا محمد بن شعيب يعنى ابن شابور وحدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمى عن ليث بن أبى سليم عن عاصم الأحول عن رجل يقال له عبد الرحمن التميمى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال الخبز واللحم والخبز والسمن والخبز واللبن والخبز والزيت والخبز والخل وحدثنا على بن حرب الموصلى حدثنا أبو معاوية عن عاصم عن ابن سيرين عن ابن عمر فى قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال الخبز والسمن والخبز واللبن والخبز والزيت والخبز والتمر ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع كلاهما عن أبى معاوية ثم روى ابن جرير عن عبيدة والأسود وشريح القاضى ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبى رزين أنهم قالوا نحو ذلك وحكاه ابن أبى حاتم عن مكحول أيضا

واختار ابن جرير أن المراد بقوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) أى فى القلة والكثرة ثم اختلف العلماء فى مقدار ما يطعمهم فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن حصين الحارثى عن الشعبى عن الحارث عن على رضى الله عنه فى قوله (من أوسط ما تطعمون أهليكم) قال يغذيهم ويعشيهم وقال الحسن ومحمد بن سيرين يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزا ولحما زاد الحسن فان لم يجد فخبزا وسمنا ولبنا فان لم يجد فخبزا وزيتا وخلا حتى يشبعوا وقال آخرون يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما فهذا قول عمر وعلى وعائشة ومجاهد والشعبى وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وميمون بن مهران وأبى مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبى قلابة ومقاتل بن حيان وقال أبو حنيفة نصف صاع بر وصاع مما عداه وقد قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفى حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف حدثنا محمد بن معاوية حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سخبرة ابن أخى عائشة لأمه حدثنا عمر ابن يعلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كفر رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر الناس به ومن لم يجد فنصف صاع من بر ، ورواه ابن ماجه عن العباس بن يزيد عن زياد بن عبد الله البكاء عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن المنهال بن عمرو به لا يصح هذا الحديث لحال عمر بن عبد الله هذا فانه مجمع على ضعفه وذكروا أنه كان يشرب الخمر وقال الدارقطنى متروك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن داود يعنى ابن أبى هند عن

عكرمة عن ابن عباس أنه قال مد من بر يعنى لكل مسكين ومعه إدامه ثم قال وروى عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد ابن المسيب ومجاهد وعطاء وعكرمة وأبى الشعثاء والقاسم وسالم وأبى سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار والحسن ومحمد بن سيرين والزهرى نحو ذلك

وقال الشافعى الواجب فى كفارة اليمين مد بمد النبى ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم

واحتج بأمر النبى ﷺ للذى جامع فى رمضان بأن يطعم ستين مسكيناً من مكتل يسع خمسة عشر صاعا لكل واحد منهم مد وقد ورد حديث آخر صريح فى ذلك فقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن على بن الحسن المقرى حدثنا محمد بن إسحق السراج حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا النضر بن زرارة الكوفى عن عبدالله بن عمر العمرى عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مدا من حنطة بالمد الأول إسناده ضعيف لحال النضر بن زرارة ابن عبدالأكرم الذهلى الكوفى نزيل بلخ قال فيه أبوحاتم الرازى هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد وذكره ابن حبان فى الثقات وقال روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة فالله أعلم ثم إن شيخه العمرى ضعيف أيضاً وقال أحمد بن حنبل الواجب مد من بر أو مدان من غيره والله أعلم

وقوله تعالى (أو كسوتهم) قال الشافعى رحمه الله لودفع إلى كل واحد من العشرة مايصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك واختلف أصحابه فى القلنسوة هل تجزىء أم لا على وجهين فنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجا بما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطى قالا : حدثنا القاسم ابن مالك عن محمد بن الزبير عن أبيه قال سألت عمران بن الحصين عن قوله (أو كسوتهم) قال لو أن وفدا قدموا على أميركم فكساهم قلنسوة قلنسوة قلتم قد كسوا ولكن هذا إسناد ضعيف لحال محمد بن الزبير هذا والله أعلم وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الاسفراينى فى الخف وجهين أيضاً والصحيح عدم الاجزاء وقال مالك وأحمد بن حنبل لابد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه إن كان رجلا أو امرأة كل بحسبه والله أعلم وقال العوفى عن ابن عباس عباءة لكل مسكين أو شملة وقال مجاهد أدناه ثوب وأعلاه ما شئت وقال ليث عن مجاهد يجزىء فى كفارة اليمين كل شىء إلا التبان وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعى وحماد بن أبى سليمان وأبو مالك ثوب ثوب وعن إبراهيم النخعى أيضاً ثوب جامع كالملحفة والرداء ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعا وقال الأنصارى عن أشعث عن ابن سيرين والحسن ثوبان ثوبان وقال الثورى عن داود بن أبى هند عن سعيد بن المسيب عمامة يلف بها رأسه وعباءة يلتحف بها . وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا ابن المبارك عن عاصم الأحول عن ابن سيرين عن أبى موسى أنه حلف على يمين فكسا ثوبين من معقدة البحرين ، وقال ابن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا أحمد ابن المعلى حدثنا هشام بن عمار حدثنا إسماعيل بن عياش عن مقاتل بن سليمان عن أبى عثمان عن أبى عياض عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (أو كسوتهم) قال « عباءة لكل مسكين » حديث غريب وقوله (أو تحرير رقبة) أخذ أبو حنيفة باطلاقها فقال تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة ، وقال الشافعى وآخرون لابد أن تكون مؤمنة وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب ومن حديث معاوية بن الحكم السلمى الذى هو فى موطأ مالك ومسند الشافعى وصحيح مسلم أنه ذكر أن عليه عتق رقبة وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ « أين الله » قالت فى السماء قال « من أنا » قالت رسول الله قال « أعتقها فانها مؤمنة » الحديث بطوله فهذه خصال ثلاث فى كفارة اليمين أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع وقد بدأ بالأسهل فالأسهل فالاطعام أسهل وأيسر من الكسوة كما أن الكسوة أيسر من العتق فترقى فيها من الأدنى إلى الأعلى فان لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) وروى ابن جرير عن سعيد ابن جبير والحسن البصرى أنهما قالا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الاطعام وإلا صام ، وقال ابن جرير حاكيا عن بعض متأخرى متفقهة زمانه انه جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف فيه لمعاشه ومن الفضل عن ذلك ما يكفر

به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذى لا يفضل عن قوته وقوت عياله فى يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب ويجزئ التفريق ؟ قولان أحدهما لا يجب وهذا منصوص الشافعى فى كتاب الأيمان وهو قول مالك لإطلاق قوله (فصيام ثلاثة أيام) وهو صادق على المجموعة والمفرقة كما فى قضاء رمضان لقوله (فعدة من أيام أخر) ونص الشافعى فى موضع آخر فى الأم على وجوب التتابع كما هو قول الحنفية والحنابلة لأنه قد روى عن أبى بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن أبى بن كعب أنه كان يقرؤها (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وحكاها مجاهد والشعبى وأبو إسحق عن عبد الله بن مسعود وقال إبراهيم فى قراءة عبد الله بن مسعود (فصيام ثلاثة أيام متتابعات) وقال الأعمش كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك وهذه إذا لم يثبت كونها قرآنا متواترا فلا أقل أن يكون خبر واحد أو تفسيرا من الصحابة وهو فى حكم المرفوع وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن على حدثنا محمد بن جعفر الأشعرى حدثنا الهيثم ابن خالد القرشى حدثنا يزيد بن قيس عن إسماعيل بن يحيى عن ابن جريج عن ابن عباس قال لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة يا رسول الله نحن بالخيار قال « أنت بالخيار إن شئت أعتقت وإن شئت كسوت وإن شئت أطعمت فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وهذا حديث غريب جدا ، وقوله (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم) أى هذه كفارة اليمين الشرعية (واحفظوا أيمانكم) قال ابن جرير معناه لا تتركوها بغير تكفير (كذلك يبين الله لكم آياته) أى يوضحها ويفسرها (لعلكم تشكرون)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن تعاطى الخمر والميسر وهو القمار وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال الشطرنج من الميسر رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن عيسى بن مرحوم عن حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على به ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن سفيان عن ليث عن عطاء ومجاهد وطاوس قال سفيان أو اثنين منهم قالوا : كل شىء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز وروى عن راشد بن سعد وضمرة بن حبيب مثله وقالا حتى الكعاب والجوز والبيض التى تلعب بها الصبيان وقال موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال الميسر هو القمار وقال الضحاك عن ابن عباس قال الميسر هو القمار كانوا يتقامرون فى الجاهلية إلى مجىء الإسلام فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة وقال مالك عن داود بن الحصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين

وقال الزهرى عن الأعرج قال الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار وقال القاسم بن محمد كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر رواهن ابن أبى حاتم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزيادى حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن أبى العاتكة عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن أبى موسى الأشعرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التى يزجر بها زجرا فانها من الميسر »

حديث غريب وكأن المراد بهذا هو النرد الذى ورد الحديث به فى صحيح مسلم عن بريدة بن الحصيب الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده فى لحم خنزير ودمه » وفى موطأ مالك ومسند أحمد وسننى أبى داود وابن ماجه عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » وروى موقوفا عن أبى موسى من قوله فالله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إبراهيم حدثنا الجعيد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمى أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول أخبرنى ما سمعت أباك يقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الرحمن سمعت أبى يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مثل الذى يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى مثل الذى يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى » . وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر إنه شر من النرد وتقدم عن على أنه قال هو من الميسر ونص على تحريمه مالك وأبوحنيفة وأحمد وكرهه الشافعى رحمهم الله تعالى ، وأما الأنصاب فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد هى حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضا هى قداح كانوا يستقسمون بها رواه ابن أبى حاتم وقوله تعالى (رجس من عمل الشيطان) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى سخط من عمل الشيطان وقال سعيد بن جبير إثم وقال زيد بن أسلم أى شر من عمل الشيطان (فاجتنبوه) الضمير عائد على الرجس أى اتركوه (لعلكم تفلحون) وهذا ترغيب ثم قال تعالى (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وهذا تهديد وترهيب

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى بيان تحريم الخمر ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا أبو معشر عن أبى وهب مولى أبى هريرة عن أبى هريرة قال حرمت الخمر ثلاث مرات قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما فأنزل الله (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) إلى آخر الآية فقال الناس ما حرما علينا إنما قال (فيهما إثم كبير ومنافع للناس) وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه فى المغرب فخلط فى قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون) فكان الناس يشربون حتى يأتى أحدهم الصلاة وهو مغبق ثم أنزلت آية أغلظ منها (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) قالوا انتهينا ربنا وقال الناس يارسول الله ناس قتلوا فى سبيل الله وماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) إلى آخر الآية فقال النبى صلى الله عليه وسلم « لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم » انفرد به أحمد

وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى ميسرة عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر قال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدعى عمر فقرئت عليه فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا قال حى على الصلاة نادى : لايقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه : فقال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا : فنزلت الآية التى فى المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى (فهل أنتم منتهون) قال عمر انتهينا انتهينا وهكذا رواه أبوداود والترمذى والنسائى من طرق عن إسرائيل عن أبى إسحق عمر بن عبد الله السبيعى وعن أبى ميسرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمدانى عن عمر به وليس له عنه سواه قال أبو زرعة ولم يسمع منه وصحح هذا الحديث على بن المدينى والترمذى ، وقد ثبت فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قال فى خطبته على منبر رسول الله ﷺ أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ماخامر العقل . وقال البخارى حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا محمد

ابن بشر حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز حدثني نافع عن ابن عمر قال نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة مافيها شراب العنب . (حديث آخر) قال أبوداود الطيالسي حدثنا محمدبن أبي حميد عن المصري يعني أباطعمة قارئ مصر قال سمعت ابن عمر يقول نزلت في الخمر ثلاث آيات فأول شيء نزل (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية فقيل حرمت الخمر فقالوا يارسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى قال فسكت عنهم ثم نزلت هذه الآية (لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فقيل حرمت الخمر فقالوا يارسول الله إنا لانشربها قرب الصلاة ، فسكت عنهم ثم نزلت (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) الآيتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حرمت الخمر » . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعلى حدثنا محمد بن إسحق عن القعقاع بن حكيم أن عبد الرحمن بن وعلة قال سألت ابن عباس عن بيع الخمر فقال كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف أومن دوس فلقيه يوم الفتح براوية خمر يهديها اليه فقال رسول الله ﷺ « يافلان أما علمت أن الله حرمها » فأقبل الرجل على غلامه فقال اذهب فبعها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا فلان بماذا أمرته » فقال أمرته أن يبيعها قال « إن الذي حرم شربها حرم بيعها » فأمر بها فأفرغت في البطحاء رواه مسلم من طريق ابن وهب عن مالك عن زيد ابن أسلم ومن طريق ابن وهب أيضا عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد كلاهما عن عبد الرحمن بن وعلة عن ابن عباس به . ورواه النسائي عن قتيبة عن مالك به

(حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي حدثنا أبوبكر الحنفي حدثنا عبدالحميد ابن جعفر عن شهر بن حوشب عن تميم الداري أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر(١) فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال « إنها قد حرمت بعدك » قال يارسول الله فأبيعها وأنتفع بثمنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود حرمت عليهم شحوم البقر والغنم فأذابوه وباعوه والله حرم الخمر وثمنها » وقد رواه أيضا الإمام أحمد فقال حدثنا روح حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال سمعت شهر ابن حوشب قال حدثني عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام راوية من خمر فلما كان عام حرمت جاء براوية فلما نظر اليه ضحك فقال « أشعرت أنها قد حرمت بعدك » فقال يارسول الله ألا أبيعها وأنتفع بثمنها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لعن الله اليهود انطلقوا إلى ماحرم عليهم من شحم البقر والغنم فأذابوه فباعوه إنه ما يأكلون وإن الخمر حرام وثمنها حرام وإن الخمر حرام وثمنها حرام وإن الخمر حرام وثمنها حرام » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبدالرحمن عن نافع ابن كيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق يريد بها التجارة فأتى بها رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إني جئتك بشراب طيب فقال رسول الله ﷺ « يا كيسان إنها قد حرمت بعدك » قال فأبيعها يارسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « إنها قد حرمت وحرم ثمنها » فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم هراقها

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن حميد عن أنس قال كنت أسقي أباعبيدة بن الجراح وأبي ابن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرا من أصحابه عند أبي طلحة حتى كاد الشراب يأخذ منهم فأتى آت من المسلمين فقال أما شعرتم أن الخمر قد حرمت ؟ فقالوا حتى ننظر ونسأل فقالوا يا أنس اسكب مابقي في إنائك فوالله ماعادوا فيها وما هي إلا التمر والبسر وهي خمرهم يومئذ : أخرجاه في الصحيحين من غير وجه عن أنس وفي رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وماشرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادي قال اخرج فانظر فاذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت فجرت في سكك المدينة قال: فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم قتل فلان وفلان وهي في بطونهم قال فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثني عبد الكبير بن عبد المجيد حدثنا عباد بن

(١) في هذا أن تميما أسلم سنة تسع من الهجرة وقد حرمت الخمر سنة ثمان كما استظهره الحافظ في الفتح

راشـد عن قتادة عن أنس بن مالك قال بينا أنا أدير الكأس على أبي طلحة وأبي عبيدة بن الجراح وأبي دجانة ومعاذ ابن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رءوسهم من خليط بسر وتمر فسمعت مناديا ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا الفلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سليم ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) إلى قوله (فهل أنتم منتهون) فقال رجل يا رسول الله فما ترى فيمن مات وهو يشربها فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية فقال رجل لقتادة أنت سمعته من أنس بن مالك ؟ قال نعم وقال رجل لأنس بن مالك أنت سمعته من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . أو حدثني من لم يكذب ، ما كنا نكذب ولا ندري ما الكذب . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحي بن إسحق أخبرني يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن بكر بن سوادة عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال « إن ربي تبارك وتعالى حرم الخمر والكوبة والقنين وإياكم والغبيراء فإنها ثلث خمر العالم » . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا فرج بن فضالة عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع عن أبيه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله حرم على أمتي الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين وزادني صلاة الوتر » قال يزيد القنين البرابط تفرد به أحمد ، وقال أحمد أيضا حدثنا أبوعاصم وهو النبيل أخبرنا عبد الحميد بن جعفر حدثنا يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من جهنم » قال وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام » تفرد به أحمد أيضا . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن أبي طعمة مولاهم وعن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « لعنت الخمر على عشرة أوجه لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها » ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به، وقال أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبوطعمة سمعت ابن عمر يقول خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المربد فخرجت معه فكنت عن يمينه وأقبل أبوبكر فتأخرت عنه فكان عن يمينه وكنت عن يساره ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره فأتى رسول الله ﷺ المربد فإذا بزقاق على المربد فيها خمر قال ابن عمر فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدية قال ابن عمر وما عرفت المدية إلا يومئذ فأمر بالزقاق فشقت ثم قال « لعنت الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة اليه وعاصرها ومعتصرها وآكل ثمنها » . وقال أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا أبوبكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال : قال عبد الله بن عمر أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمدية وهي الشفرة فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها وقال « اغد علي بها » ففعلت فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام فأخذ المدية مني فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني وأمرني أن آتي الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته . (حديث آخر) قال عبدالله بن وهب أخبرني عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة والليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن ثابت أن يزيد الخولاني أخبره أنه كان له عم يبيع الخمر وكان يتصدق قال فنهيته عنها فلم ينته فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس فسألته عن الخمر وثمنها فقال هي حرام وثمنها حرام ثم قال ابن عباس رضي الله عنه يامعشر أمة محمد إنه لو كان كتاب بعد كتابكم ونبي بعد نبيكم لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم ولكن أخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ولعمري لهو أشد عليكم . قال ثابت فلقيت عبدالله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر فقال سأخبرك عن الخمر إني كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد فبينما هو محتب على حبوته ثم قال « من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها » فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم عندي راوية ويقول الآخر عندي زق أوماشاء الله أن يكون

عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اجمعوه ببقيع كذا وكذا ثم آذنونى » ففعلوا ثم آذنوه فقام وقمت معه ومشيت عن يمينه وهو متكىء على فلحقنا أبو بكر رضى الله عنه فأخرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلنى عن شماله وجعل أبا بكر فى مكانى ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخرنى وجعله عن يساره فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس « أتعرفون هذه » قالوا: نعم يارسول الله هذه الخمر قال « صدقتم » ثم قال « فان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها » ثم دعا بسكين فقال « اشحذوها » ففعلوا ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق قال: فقال الناس فى هذه الزقاق منفعة فقال «أجل ولكنى إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها من سخطه » فقال عمر أنا أكفيك يا رسول الله ، قال «لا» قال ابن وهب وبعضهم يزيد على بعض فى قصة الحديث رواه البيهقى

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو الحسين بن بشر أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار حدثنا محمد ابن عبيد الله المنادى حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة عن سماك عن مصعب بن سعد عن سعد قال أنزلت فى الخمر أربع آيات فذكر الحديث قال وضع رجل من الأنصار طعاما فدعانا فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشينا فتفاخرنا فقالت الأنصار نحن أفضل وقالت قريش نحن أفضل فأخذ رجل من الأنصار لحى جزور فضرب به أنف سعد ففزره وكانت أنف سعد مفزورة فنزلت (إنما الخمر والميسر) إلى قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) أخرجه مسلم من حديث شعبة

(حديث آخر) قال البيهقى وأخبرنا أبو نصر بن قتادة أنبأنا أبو على الرفا حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثنى أبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول صنع بى هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فيقول والله لو كان بى رءوفا رحيما ما صنع بى هذا ، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية (ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) إلى قوله تعالى (فهل أنتم منتهون) فقال أناس من المتكلفين هى رجس وهى فى بطن فلان وقد قتل يوم أحد فأنزل الله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) إلى آخر الآية ورواه النسائى فى التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة عن حجاج بن منهال .

(حديث آخر) قال ابن جرير حدثنى محمد بن خلف حدثنا سعيد بن محمد الحرمى عن أبى نميلة عن سلام مولى حفص أبى القاسم عن أبى بريدة عن أبيه قال بينا نحن قعود على شراب لنا ونحن على رملة ونحن ثلاثة أو أربعة وعندنا باطية لنا ونحن نشرب الخمر حلا إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه إذ نزل تحريم الخمر (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر) إلى آخر الآيتين (فهل أنتم منتهون) فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله (فهل أنتم منتهون) قال وبعض القوم شربته فى يده قد شرب بعضها وبقى بعض فى الإناء فقال بالاناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا ما فى باطيتهم فقالوا انتهينا ربنا

(حديث آخر) قال البخارى حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا ابن عيينة عن عمرو عن جابر قال صبح[1] أناس غداة أحد الخمر فقتلوا من يومهم جميعا شهداء وذلك قبل تحريمها هكذا رواه البخارى فى تفسيره من صحيحه وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار سمع جابر بن عبد الله يقول اصطبح ناس الخمر من أصحاب النبى ﷺ ثم قتلوا شهداء يوم أحد فقالت اليهود فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) ثم قال وهذا إسناد صحيح وهو كما قال ولكن فى سياقه غرابة

(حديث آخر) قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن أبى إسحق عن البراء بن عازب قال لما نزل تحريم الخمر قالوا كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم ؟ فنزلت (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) الآية ورواه الترمذى عن بندار عن غندر عن شعبة به نحوه وقال حسن صحيح (حديث آخر) قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا

(١) صبح بالتشديد ولفظه فى كتاب المغازى اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء والتصبيح الشرب فى الصباح

جعفر بن حميد الكوفى حدثنا يعقوب القمى عن عيسى بن جارية عن جابر بن عبد الله قال كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيعها من المسلمين فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقيه رجل من المسلمين فقال يا فلان إن الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تل وسجى عليها بأكسية ثم أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله بلغنى أن الخمر قد حرمت قال « أجل » قال لى أن أردها على من ابتعتها منه قال « لا يصلح ردها » قال لى أن أهديها إلى من يكافئنى منها ؟ قال « لا » قال فان فيها مالا ليتامى فى حجرى قال « إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم » ثم نادى بالمدينة فقال رجل يا رسول الله الأوعية ننتفع بها قال « فحلوا أوكيتها » فانصبت حتى استقرت فى بطن الوادى هـذا حديث غريب . (حديث آخر) قال الإمام أحمـد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن السدى عن أبى هبيرة وهو يحيى بن عباد الأنصارى عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسـول الله ﷺ عن أيتام فى حجره ورثوا خمراً فقال « أهرقها » قال أفلا نجعلها حلا ؟ قال « لا » ورواه مسلم وأبو داود والترمذى من حديث الثورى به نحوه

(حديث آخر) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حـدثنا عبد العزيز بن سلمة حدثنا هلال بن أبى هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال إن هذه الآية التى فى القرآن (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) قال : هى فى التوراة إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل ويبطل به اللعب والمزامير والزفن والـكبارات يعنى البرابط والزمارات يعنى به الدف والطنابير والشعر والخمر مرة لمن طعمها ، أقسم الله بيمينه وعزته من شربها بعدما حرمتها لأعطشنه يوم القيامة ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه إياها فى حظيرة القدس وهذا إسناد صحيح

(حديث آخر) قال عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن عمرو بن شعيب حدثهم عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص عن رسـول الله ﷺ قال « من ترك الصلاة سكرا مرة واحـدة فـكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها ، ومن ترك الصلاة سكرا أربع مرات كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال ؟ قال « عصارة أهل جهنم » ورواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب (حديث آخر) قال أبو داود حدثنا محمد بن رافع حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعانى قال سمعت النعمان هو ابن أبى شيبة الجندى يقول عن طاوس عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « كل مخمر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا فان تاب تاب الله عليـه فان عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قيل وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال « صديد أهـل النار . ومن سقاه صغيرا لا يعرف حلاله من حرامه كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » تفرد به أبو داود

(حديث آخر) قال الشافعى رحمه الله أنبأنا مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب منها حرمها فى الآخرة » أخرجه البخارى ومسلم من حديث مالك به وروى مسلم عن أبى الربيع عن حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها لم يشربها فى الآخرة » (حديث آخر) قال ابن وهب أخبرنى عمر ابن محمد عن عبد الله بن يسار أنه سمع سالم بن عبد الله يقول : قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمدمن الخمر والمنان بما أعطى » ورواه النسائى عن عمرو بن على عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمرى به وروى أحمد عن غندر عن شعبة عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر »

ورواه أحمد أيضا عن عبد الصمد عن عبد العزيز بن أسلم عن يزيد بن أبى زياد عن مجاهد به وعن مروان بن شجاع عن خصيف عن مجاهد به ورواه النسائى عن القاسم بن زكريا عن حسين الجعفى عن زائدة عن يزيد بن أبى زياد عن سالم بن أبى الجعد ومجاهد كلاهما عن أبى سعيد به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن منصور عن سالم ابن أبى الجعد عن جابان عن عبـد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال « لا يدخـل الجنة عاق ولا مدمن خمر ولا

منان ولا ولد زنية » وكذا رواه عن يزيد عن همام عن منصور عن سالم عن جابان عن عبدالله بن عمرو به وقد رواه أيضا عن غندر وغيره عن شعبة عن منصور عن سالم عن نبيط بن شريط عن جابان عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال « لا يدخل الجنة منان ولا عاق والديه ولا مدمن خمر » ورواه النسائي من حديث شعبة كذلك ثم قال ولا نعلم أحدا تابع شعبة عن نبيط بن شريط وقال البخاري لا يعرف لجابان سماع من عبدالله ولا لسالم من جابان ولا نبيط وقد روى هذا الحديث من طريق مجاهد عن ابن عباس ومن طريقه أيضا عن أبي هريرة فالله أعلم

وقال الزهري حدثني أبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال سمعت عثمان بن عفان يقول اجتنبوا الخمر فانها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية فأرسلت اليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابا أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت إني والله مادعوتك لشهادة ولكن دعوتك لتقع علي أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأسا فقال زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فانها لا تجتمع هي والإيمان أبدا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه رواه البيهقي وهذا إسناد صحيح وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم السكر عن محمد بن عبدالله بن بزيع عن الفضيل بن سليمان النميري عن عمر بن سعيد عن الزهري به مرفوعا والموقوف أصح والله أعلم وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وقال أحمد بن حنبل حدثنا أسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال لما حرمت الخمر قال ناس يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها فأنزل الله (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا) إلى آخر الآية ولما حولت القبلة قال ناس يارسول الله إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقال الإمام أحمد حدثنا داود بن مهران الدباغ حدثنا داود يعني العطار عن أبي خثيم عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول « من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة إن مات مات كافرا وإن تاب تاب الله عليه وإن عاد كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال » قالت قلت يارسول الله وما طينة الخبال ؟ قال « صديد أهل النار » وقال الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا) فقال النبي ﷺ « قيل لي أنت منهم » وهكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من طريقه . وقال عبد الله بن الإمام أحمد قرأت على أبي حدثنا علي بن عاصم حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم وهاتان الكعبتان(١) الموسومتان اللتان تزجران زجرا فإنهما ميسر العجم »

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

قال الوالبي عن ابن عباس قوله (ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم) قال هو الضعيف من الصيد وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه وقال مجاهد (تناله أيديكم) يعني صغار الصيد وفراخه (ورماحكم) يعني كباره وقال مقاتل بن حيان أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم لم يروا مثله قط فيما خلا فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون (ليعلم الله من يخافه

(١) الكعبتان والكعبان الفصان اللذان يلعب بهما بالنرد والمراد بوسمهما مافيهما من النقط التي يعرف بها الرابح والخاسر في الميسر .

بالغيب) يعنى أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم فى رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدى والرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم فى سره أو جهره كما قال تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير) وقوله هاهنا (فمن اعتدى بعد ذلك) قال السدى وغيره يعنى بعد هذا الاعلام والانذار والتقدم (فله عذاب أليم) أى لمخالفته أمر الله وشرعه ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم) وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الاحرام ونهى عن تعاطيه فيه وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولوما تولد منه ومن غيره فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها والجمهور على تحريم قتلها أيضا ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » وقال مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « خمس من الدواب ليس على المحرم فى قتلهن جناح : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » أخرجاه ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله قال أيوب فقلت لنافع فالحية قال الحية لاشك فيها ولايختلف فى قتلها ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد لأنها أشد ضررا منه فالله أعلم وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبى لهب قال « اللهم سلط عليه كلبك بالشام » فأكله السبع بالزرقاء ، قالوا فإن قتل ما عداهن فداه كالضبع والثعلب والوبر[1] ونحو ذلك قال مالك وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها وصغار الملحق بها من السباع العوادى وقال الشافعى يجوز للمحرم قتل كل مالا يؤكل لحمه ولا فرق بين صغاره وكباره وجعل العلة الجامعة كونها لاتؤكل وقال أبوحنيفة يقتل المحرم الكلب العقور والذئب لأنه كلب برى فإن قتل غيرهما فداه إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه وهذا قول الأوزاعى والحسن بن صالح بن حي وقال زفر ابن الهذيل يفدى ماسوى ذلك وإن صال عليه وقال بعض الناس المراد بالغراب هاهنا الأبقع وهو الذى فى بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود والأعصم وهو الأبيض لما رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان عن شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خمس يقتلهن المحرم : الحية والفأرة والحدأة والغراب الأبقع والكلب العقور » والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك لما ثبت فى الصحيحين من إطلاق لفظه وقال مالك رحمه الله لايقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه وقال مجاهد بن جبر وطائفة لايقتله بل يرميه ويروى مثله عن على وقد روى هشيم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى نعم عن أبى سعيد عن النبى ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم فقال « الحية والعقرب والفويسقة ويرمى الغراب ولايقتله والكلب العقور والحدأة والسبع العادى » رواه أبوداود عن أحمد بن حنبل والترمذى عن أحمد بن منيع كلاهما عن هشيم وابن ماجه عن أبى كريب وعن محمد بن فضيل كلاهما عن يزيد بن أبى زياد وهو ضعيف به وقال الترمذى هذا حديث حسن

وقوله تعالى (ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ماقتل من النعم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا ابن علية عن أيوب قال نبئت عن طاوس أنه قال لايحكم على من أصاب صيدا خطأ إنما يحكم على من أصابه متعمدا وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية وقال مجاهد بن جبر المراد بالمتعمد هنا القاصد إلى قتل الصيد الناسى لإحرامه فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه فذاك أمره أعظم من أن يكفر وقد بطل إحرامه رواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبى نجيح وليث بن أبى سليم وغيرهما عنه وهو قول غريب أيضا والذى عليه الجمهور أن العامد والناسى سواء فى وجوب الجزاء عليه وقال الزهرى دل الكتاب على العامد وجرت السنة على الناسى ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله (ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) وجاءت السنة من أحكام النبى ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء فى الخطأ كما دل الكتاب عليه فى العمد وأيضا فإن قتل الصيد إتلاف والاتلاف مضمون فى العمد وفى النسيان لكن المتعمد مأثوم والمخطىء غير ملوم وقوله تعالى

(١) كذا فى المكية وفى نسخة الأزهر : وهر البر .

(فجزاء مثل ما قتل من النعم) قرأ بعضهم بالإضافة وقرأ آخرون بعطفها (فجزاء مثل ما قتل من النعم) وحكى ابن جرير أن ابن مسعود قرأ (فجزاؤه مثل ما قتل من النعم) وفى قوله (فجزاء مثل ما قتل من النعم) على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الانسى خلافا لأبى حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثليا أو غير مثلى قال وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه وإن شاء اشترى به هديا والذى حكم به الصحابة فى المثل أولى بالاتباع فانهم حكموا فى النعامة ببدنة وفى بقرة الوحش ببقرة وفى الغزال بعنز وذكر قضايا الصحابة وأسانيدها مقرر فى كتاب الأحكام وأما إذا لم يكن الصيد مثليا فقد حكم ابن عباس فيه بثمنه يحمل إلى مكة رواه البيهقى

وقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) يعنى أنه يحكم بالجزاء فى المثل أو بالقيمة فى غير المثل عدلان من المسلمين واختلف العلماء فى القاتل هل يجوز أن يكون أحد الحكمين على قولين (أحدهما) لا، لأنه قد يتهم فى حكمه على نفسه وهذا مذهب مالك (والثانى) نعم لعموم الآية وهو مذهب الشافعى وأحمد واحتج الأولون بان الحاكم لا يكون محكوما عليه فى صورة واحدة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا جعفر هو ابن برقان عن ميمون ابن مهران أن أعرابيا أتى أبا بكر فقال قتلت صيدا وأنا محرم فما ترى على من الجزاء فقال أبو بكر رضى الله عنه لأبى بن كعب وهو جالس عنده ما ترى فيها قال: فقال الأعرابى أتيتك وأنت خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أسألك فإذا أنت تسأل غيرك فقال أبو بكر وما تنكر؟ يقول الله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) فشاورت صاحبى حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به، وهذا إسناد جيد لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق ومثله يحتمل ههنا فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابيا جاهلا وإنما دواء الجهل التعليم فأما إذا كان المعترض منسوبا إلى العلم فقد قال ابن جرير حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعى قالا حدثنا وكيع بن الجراح عن المسعودى عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بن جابر قال خرجنا حجاجا فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا فنتماشى نتحدث قال فبينما نحن ذات غداة إذ سنح[1] لنا ظبى أو برح فرماه رجل كان معنا بحجر فما أخطأ حشاه فركب وودعه ميتا قال فعظمنا عليه فلما قدمنا مكة خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقص عليه القصة فقال وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة يعنى عبد الرحمن بن عوف فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه قال ثم أقبل على الرجل فقال أعمدا قتلته أم خطأ؟ فقال الرجل لقد تعمدت رميه وما أردت قتله فقال عمر ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ اعمد إلى شاة فاذبحها وتصدق بلحمها واستبق اهابها قال فقمنا من عنده فقلت لصاحبى أيها الرجل عظم شعائر الله فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه اعمد إلى ناقتك فانحرها فلعل ذلك يعنى أن يجزىء عنك قال قبيصة ولا أذكر الآية من سورة المائدة (يحكم به ذوا عدل منكم) فبلغ عمر مقالتى فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرة قال فعلا صاحبى ضربا بالدرة أقتلت فى الحرم وسفهت فى الحكم قال ثم أقبل على فقلت يا أمير المؤمنين لا أحل لك اليوم شيئا يحرم عليك منى، فقال يا قبيصة بن جابر إنى أراك شاب السن فسيح الصدر بين اللسان وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيىء فيفسد الخلق السيىء الأخلاق الحسنة، فاياك وعثرات الشباب. وروى هشيم هذه القصة عن عبد الملك بن عمير عن قبيصة بنحوه ورواها أيضا عن حصين عن الشعبى عن قبيصة بنحوه وذكرها مرسلة عن عمر بن بكر بن عبد الله المزنى ومحمد بن سيرين بنحوه وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا شعبة عن منصور عن أبى وائل أخبرنى ابن جرير البجلى قال أصبت ظبيا وأنا محرم فذكرت ذلك لعمر فقال ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك فأتيت عبد الرحمن وسعدا فحكما على بتيس أعفر وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن عيينة عن مخارق عن طارق قال أوطأ أربد[2] ظبيا فقتله وهو محرم فأتى عمر ليحكم عليه فقال له عمر احكم معى فحكما فيه جديا قد جمع الماء والشجر ثم قال عمر (يحكم به ذوا عدل منكم) وفى هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين كما قاله الشافعى وأحمد رحمهما الله واختلفوا هل تستأنف الحكومة فى كل ما يصيبه المحرم فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل وإن كان قد حكم فى مثله الصحابة

(١) سنح: مر من اليمين إلى اليسار، وبرح عكسه، (٢) أربد: اسم رجل.

أو يكتفى بأحكام الصحابة المتقدمة ؟ على قولين فقال الشافعى وأحمد يتبع فى ذلك ما حكمت به الصحابة وجعلاه شرعا مقررا لا يعدل عنه وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين وقال مالك وأبو حنيفة بل يجب الحكم فى كل فرد فرد سواء وجد للصحابة فى مثله حكم أم لا لقوله تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) وقوله تعالى (هديا بالغ الكعبة) أى واصلا إلى الكعبة والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم وهذا أمر متفق عليه فى هذه الصورة وقوله (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) أى إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال أو قلنا بالتخيير فى هذا المقام بين الجزاء والاطعام والصيام كما هو قول مالك وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن وأحد قولى الشافعى والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر « أو » بأنها للتخيير والقول الآخر أنها على الترتيب فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبى حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم وقال الشافعى : يقوم مثله من النعم لو كان موجودا ثم يشترى به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعى ومالك وفقهاء الحجاز واختاره ابن جرير وقال أبو حنيفة وأصحابه يطعم كل مسكين مدين وهو قول مجاهد وقال أحمد مد من حنطة أو مدان من غيره فان لم يجد أو قلنا بالتخيير صام عن إطعام كل مسكين يوما وقال ابن جرير وقال آخرون يصوم مكان كل صاع يوما كما فى جزاء المترفه بالحلق ونحوه ، فان الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقا بين ستة أو يصوم ثلاثة أيام والفرق ثلاثة آصع واختلفوا فى مكان هذا الاطعام فقال الشافعى مكانه الحرم وهو قول عطاء وقال مالك يطعم فى المكان الذى أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه وقال أبو حنيفة إن شاء أطعم فى الحرم وإن شاء أطعم فى غيره

﴿ ذكر أقوال السلف فى هذا المقام ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن منصور عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس فى قول الله تعالى (فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) قال إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم فان لم يجد نظر كم ثمنه ثم قوم ثمنه طعاما فصام مكان كل نصف صاع يوما قال الله تعالى (أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) قال إنما أريد بالطعام والصيام فانه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه ، ورواه ابن جرير من طريق جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) إذا قتل المحرم شيئا من الصيد حكم عليه فيه فان قتل ظبيا أو نحوه فعليه شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فان لم يجد فصيام ثلاثة أيام فان قتل أيلا أو نحوه فعليه بقرة فان لم يجد أطعم عشرين مسكينا فان لم يجد صام عشرين يوما وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه فعليه بدنة من الإبل فان لم يجد أطعم ثلاثين مسكينا فان لم يجد صام ثلاثين يوما رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وزاد : الطعام مد مد يشبعهم ، وقال جابر الجعفى عن عامر الشعبى وعطاء ومجاهد (أو عدل ذلك صياما) قالوا إنما الطعام مد مد لمن لا يبلغ الهدى رواه ابن جرير وكذا روى ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدى أنها على الترتيب . وقال عطاء وعكرمة ومجاهد فى رواية الضحاك وإبراهيم النخعى هى على الخيار وهى رواية الليث عن مجاهد عن ابن عباس واختار ذلك ابن جرير رحمه الله وقوله (ليذوق وبال أمره) أى أوجبنا عليه الكفارة ليذوق عقوبة فعله الذى ارتكب فيه المخالفة (عفا الله عما سلف) أى فى زمان الجاهلية لمن أحسن فى الإسلام واتبع شرع الله ولم يرتكب المعصية ثم قال (ومن عاد فينتقم الله منه) أى ومن فعل ذلك بعد تحريمه فى الإسلام وبلوغ الحكم الشرعى إليه (فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام) قال ابن جريج قلت لعطاء ما (عفا الله عما سلف) قال عما كان فى الجاهلية قال قلت وما (ومن عاد فينتقم الله منه) قال ومن عاد فى الإسلام فينتقم الله منه وعليه مع ذلك الكفارة قال قلت فهل فى العود من حد تعلمه ؟ قال لا ، قال قلت فترى حقا على الإمام أن يعاقبه ؟ قال لا هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل ولكن يفتدى رواه ابن جرير وقيل معناه فينتقم الله منه بالكفارة قاله سعيد بن جبير وعطاء ، ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم

الصيد وجب الجزاء ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ماتكرر سواء الخطأ فى ذلك والعمد وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال من قتل شيئا من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلما قتله فإن قتله عمدا يحكم عليه فيه مرة واحدة فان عاد يقال له ينتقم الله منك كما قال الله عزوجل وقال ابن جرير حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبى عدى جميعا عن هشام هو ابن حسان عن عكرمة عن ابن عباس فيمن أصاب صيدا يحكم عليه ثم عاد قال لا يحكم عليه ينتقم الله منه وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصرى وإبراهيم النخعى رواهن ابن جرير ثم اختار القول الأول وقال ابن أبى حاتم حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا المعتمر بن سليمان عن زيد أبى المعلى عن الحسن البصرى أن رجلا أصاب صيدا فتجوز عنه ثم عاد فأصاب صيدا آخر فنزلت نار من السماء فأحرقته فهو قوله (ومن عاد فينتقم الله منه) وقال ابن جرير فى قوله (والله عزيز ذو انتقام) يقول عز ذكره والله منيع فى سلطانه لا يقهره قاهر ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع لأن الخلق خلقه والأمر أمره له العزة والمنعة وقوله (ذو انتقام) يعنى أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى رواية عنه وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وغيرهم فى قوله تعالى (أحل لكم صيد البحر) يعنى مايصطاد منه طريا (وطعامه) مايتزود منه مليحا يابسا ، وقال ابن عباس فى الرواية المشهورة عنه صيده ما أخذ منه حيا (وطعامه) مالفظه ميتا ، وهكذا روى عن أبى بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبدالله بن عمرو وأبى أيوب الأنصارى رضى الله عنهم وعكرمة وأبى سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعى والحسن البصرى . قال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن أبى بكر الصديق أنه قال (طعامه) كل مافيه ، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن مغيرة عن سماك قال : حدثت عن ابن عباس قال خطب أبو بكر الناس فقال (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) وطعامه ماقذف . قال وحدثنا يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان التيمى عن أبى مجلز عن ابن عباس فى قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه) قال (طعامه) ماقذف ، وقال عكرمة عن ابن عباس قال طعامه مالفظ من ميتة ورواه ابن جرير أيضا وقال سعيد بن المسيب طعامه مالفظه حيا أو حسر عنه فمات رواه ابن أبى حاتم ، وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبدالوهاب حدثنا أيوب عن نافع أن عبدالرحمن بن أبى هريرة سأل ابن عمر فقال : إن البحر قد قذف حيتانا كثيرة ميتة أفنأكلها ؟ فقال لا تأكلوها فلما رجع عبد الله إلى أهله أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية (وطعامه متاعا لكم وللسيارة) فقال اذهب فقل له فليأكله فانه طعامه وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه . قال وقد روى فى ذلك خبر وان بعضهم يرويه موقوفا حدثنا هناد بن السرى قال حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو حدثنا أبو سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) قال « طعامه مالفظه ميتا » ثم قال وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبى هريرة . حدثنا هناد حدثنا ابن أبى زائدة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة فى قوله (أحل لكم صيد البحر وطعامه) قال طعامه مالفظه ميتا . وقوله (متاعا لكم وللسيارة) أى منفعة وقوتا لكم أيها المخاطبون (وللسيارة) وهم جمع سيار قال عكرمة لمن كان بحضرة البحر والسفر وقال غيره الطرى منه لمن يصطاده من حاضرة البحر وطعامه مامات فيه

أو اصطيد منه وملح وقد يكون زاداً للمسافرين والنائين عن البحر وقد روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدى وغيرهم . وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة وبما رواه الإمام مالك بن أنس عن ابن وهب وابن كيسان عن جابر بن عبد الله قال بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلثمائة وأنا فيهم قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش فجمع ذلك كله فكان مزودى تمر قال فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فنى فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة فقال فقد وجدنا فقدها حين فنيت قال ثم انتهينا إلى البحر فاذا حوت مثل الظرب فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحلت ومرت تحتهما فلم تصبهما وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله طرق عن جابر وفى صحيح مسلم من رواية أبى الزبير عن جابر فاذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم فأتيناه فاذا بدابة يقال لها العنبر قال : قال أبو عبيدة ميتة ثم قال لا نحن رسل رسول الله ﷺ وقد اضطررتم فكلوا قال فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينيه بالقلال الدهن ويقتطع منه القدر كالثور قال ولقد أخذ منا أبو أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينيه وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحته وتزودنا من لحمه وشائق فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له فقال « هو رزق أخرجه الله لكم هل معكم من لحمه شىء فتطعمونا ؟ » قال فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأكله وفى بعض روايات مسلم أنهم كانوا مع النبى صلى الله عليه وسلم حين وجدوا هذه السمكة فقال بعضهم هى واقعة أخرى وقال بعضهم بل هى قضية واحدة ولكن كانوا أولا مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم بعثهم سرية مع أبى عبيدة فوجدوا هذه فى سريتهم تلك مع أبى عبيدة والله أعلم ، وقال مالك عن صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق أن المغيرة بن أبى بردة وهو من بنى عبد الدار أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله ﷺ « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعى وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع وصححه البخارى والترمذى وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبى ﷺ بنحوه . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من طرق عن حماد بن سلمة حدثنا أبو المهزم هو يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول : كنا مع رسول الله ﷺ فى حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربهن بعصينا وسياطنا فيقتلهن فسقط فى أيدينا فقلنا ما نصنع ونحن محرمون فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « لا بأس بصيد البحر » أبو المهزم ضعيف والله أعلم وقال ابن ماجه حدثنا هرون بن عبد الله الجمال حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا زياد بن عبد الله عن علاثة عن موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه عن جابر وأنس بن مالك أن النبى ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره ، وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء » فقال خالد يارسول الله كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره : فقال « إن الجراد نثرة الحوت فى البحر » قال هاشم قال زياد فحدثنى من رأى الحوت ينثره تفرد به ابن ماجه وقد روى الشافعى عن سعيد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس أنه أنكر على من يصيد الجراد فى الحرم ، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه تؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئا قد تقدم عن الصديق أنه قال طعامه كل ما فيه . وقد استثنى بعضهم الضفادع وأباح ماسواها لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى من رواية ابن أبى ذئب عن سعيد بن خالد عن سعيد بن المسيب عن أبى عبد الرحمن بن عثمان التيمى أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع وللنسائى عن عبد الله بن عمرو قال نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال نقيقها تسبيح وقال آخرون يؤكل من صيد البحر السمك ولا يؤكل الضفدع واختلفوا فيما سواهما فقيل يؤكل سائر ذلك وقيل لا يؤكل وقيل ما أكل شبهه من البر أكل مثله فى البحر ومالا يؤكل شبهه لايؤكل وهذه كلها وجوه فى مذهب

الشافعي رحمه الله تعالى، وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى لا يؤكل ما مات في البحر كما لايؤكل ما مات في البر لعموم قوله تعالى (حرمت عليكم الميتة) وقد ورد حديث بنحو ذلك فقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقي هوابن قانع حدثنا الحسين بن إسحق التسترى وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان قالا حدثنا الحسين بن يزيد الطحان حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ذئب عن أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه وما ألقى البحر ميتا طافيا فلا تأكلوه » ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية ويحي بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر به وهو منكر ، وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره وبحديث « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وقد تقدم أيضا وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم عن أبيه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « أحلت لنا ميتتان ودمان فأما الميتتان فالحوت والجراد وأما الدمان فالكبد والطحال » ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد وروى موقوفا والله أعلم . وقوله (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد ففيه دلالة على تحريم ذلك فاذا اصطاد المحرم الصيد متعمدا أثم وغرم أو مخطئا غرم وحرم عليه أكله لأنه في حقه كالميتة وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين عند مالك والشافعي في أحد قوليه وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو سيف ومحمد بن الحسن وغيرهم فان أكله أو شيئا منه فهل يلزمه جزاء ثان ؟ فيه قولان للعلماء (أحدهما) نعم قال عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال إن ذبحه ثم أكله فكفارتان وإليه ذهب طائفة (والثاني) لا جزاء عليه في أكله نص عليه مالك بن أنس قال أبو عمر بن عبد البر وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء ثم وجهه أبو عمر بما لو وطىء ثم وطىء ثم وطىء قبل أن يحد فإنما عليه حد واحد ، وقال أبو حنيفة عليه قيمة ما أكل ، وقال أبو ثور إذا قتل المحرم الصيد فعليه جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد إلا أنني أكرهه للذي قتله للخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيد البر لكم حلال وأنتم حرم مالم تصيدوه أو يصد لكم) وهذا الحديث سيأتي بيانه وقوله بإباحته للقاتل غريب وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عمن تقدم وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث والله أعلم .

وأما إذا صاد حلال صيدا فأهداه إلى محرم فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقا ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده من أجله أم لا حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزبير بن العوام وكعب الأحبار ومجاهد وعطاء في رواية وسعيد بن جبير وبه قال الكوفيون قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا بشر ابن المفضل حدثنا سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب حدثه عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال أيأكله المحرم قال فأفتاهم بأكله ثم لقى عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره فقال لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك ، وقال آخرون لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية ومنعوا من ذلك مطلقا لعموم هذه الآية الكريمة وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس وعبد الكريم عن ابن أبي آسية عن طاوس عن ابن عباس أنه كره أكل الصيد للمحرم وقال هي مبهمة يعني قوله (وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما) قال وأخبرني معمر عن الزهري عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال قال معمر وأخبرني أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله قال ابن عبد البر وبه قال طاوس وجابر بن زيد وإليه ذهب الثوري وإسحق بن راهويه في رواية وقد روى نحوه عن علي بن أبي طالب رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب أن عليا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال ، وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه في رواية والجمهور إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حمارا وحشيا وهو بالأبواء أو بودان فرده عليه فلما رأى ما في وجهه قال « إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة قالوا فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله

فرده لذلك فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فانه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش وكان حلالا لم يحرم وكان أصحابه محرمين فتوقفوا فى أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال « هل كان منكم أحد أشار إليها أوأعان فى قتلها ؟ » قالوا : لا ، قال « فكلوا » وأكل منها رسول الله ﷺ وهذه القصة ثابتة أيضاً فى الصحيحين بألفاظ كثيرة.

وقال الإمام أحمد حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد قالا حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد الله بن حنطب عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ وقال قتيبة فى حديثه سمعت رسول الله ﷺ يقول « صيد البر لكم حلال » قال سعيد ـ وأنتم حرم ـ مالم تصيدوه أو يصد لكم » وكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى جميعا عن قتيبة وقال الترمذى لا نعرف للمطلب سماعا من جابر ورواه الإمام محمد ابن إدريس الشافعى رضى الله عنه من طريق عمرو بن أبي عمرو عن مولاه المطلب عن جابر ثم قال وهذا أحسن حديث روى فى هذا الباب وأقيس وقال مالك رضى الله عنه عن عبد الله بن أبي بكر عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم فى يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان ثم أتى بلحم صيد فقال لأصحابه كلوا فقالوا أو لا تأكل أنت فقال إنى لست كهيئتكم إنما صيد من أجلى(١)

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (قل) يا محمد (لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك) أى يا أيها الإنسان (كثرة الخبيث) يعنى أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء فى الحديث « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وقال أبو القاسم البغوى فى معجمه حدثنا أحمد بن زهير حدثنا الحوطى حدثنا محمد بن شعيب حدثنا معان بن رفاعة عن أبي عبد الملك على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا فقال النبي ﷺ «قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه» (فاتقوا الله بأولى الألباب) أى يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة وتجنبوا الحرام ودعوه واقنعوا بالحلال واكتفوا به لعلكم تفلحون أى فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يبلغنى أحد عن أحد شيئا إنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وقال البخارى حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودى حدثنا أبى حدثنا شعبة عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ما سمعت مثلها قط وقال فيها « لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » قال فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنين فقال رجل من أبى قال «فلان» فنزلت هذه الآية (لا تسألوا عن أشياء) رواه النضر وروح بن عبادة عن شعبة وقد رواه البخارى فى غير هذا الموضع ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى من طرق عن شعبة بن الحجاج به وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة فى قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية قال فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر فقال « لا تسألونى اليوم عن شىء إلا بينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدى أمر قد حضر فجعلت لا ألتفت يمينا ولا شمالا إلا وجدت كلا لافا رأسه فى ثوبه يبكى فأنشأ رجل كان يلاحى

(١) سقط من هذا الموضع تفسير الثلاث الآيات ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، وترك لها بياض فى النسخة المكية .

فيدعى إلى غير أبيه فقال يانبي الله من أبي ؟ قال « أبوك حذافة » قال ثم قام عمر أو قال فأنشأ عمر فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا عائذا بالله أو قال أعوذ بالله من شر الفتن قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لم أر في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » أخرجاه من طريق سعيد ورواه معمر عن الزهري عن أنس بنحو ذلك أو قريبا منه قال الزهري فقالت أم عبد الله بن حذافة ما رأيت ولدا أعق منك قط أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية فتفضحها على رءوس الناس فقال والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته وقال ابن جرير أيضا حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا قيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام اليه رجل فقال أين أبي قال في « النار » فقام آخر فقال من أبي فقال « أبوك حذافة » فقام عمر بن الخطاب فقال رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا وبالقرآن إماما إنا يارسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك والله أعلم من آباؤنا قال فسكن غضبه ونزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية اسناده جيد وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من السلف منهم أسباط عن السدي أنه قال في قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) قال غضب رسول الله ﷺ يوما من الأيام فقام خطيبا فقال « سلوني فانكم لاتسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به » فقام اليه رجل من قريش من بني سهم يقال له عبد الله بن حذافة وكان يطعن فيه فقال يارسول الله من أبي فقال أبوك فلان فدعاه لأبيه فقام اليه عمر بن الخطاب فقبل رجله وقال يارسول الله رضينا بالله ربا وبك نبيا وبالاسلام دينا وبالقرآن إماما فاعف عنا عفا الله عنك فلم يزل به حتى رضي فيومئذ قال « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ثم قال البخاري حدثنا الفضل بن سهل حدثنا أبو النضر حدثنا أبو خيثمة حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء فيقول الرجل من أبي ويقول الرجل تضل ناقته أين ناقتي فأنزل الله فيهم هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) حتى فرغ من الآية كلها تفرد به البخاري وقال الإمام أحمد حدثنا منصور بن وردان الأسدي حدثنا علي بن عبد الأعلى عن أبيه عن أبي البختري وهو سعيد بن فيروز عن علي قال لما نزلت هذه الآية (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) قالوا يارسول الله أفي كل عام فسكت فقالوا أفي كل عام فسكت قال ثم قالوا أفي كل عام فقال « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » فأنزل الله (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية وكذا رواه الترمذي وابن ماجه من طريق منصور ابن وردان به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه وسمعت البخاري يقول أبو البختري لم يدرك عليا وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إبراهيم بن مسلم الهجري عن ابن عياض عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب عليكم الحج » فقال رجل أفي كل عام يارسول الله ؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثا فقال « من السائل ؟ » فقال فلان فقال « والذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ولو تركتموه لكفرتم » فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) حتى ختم الآية ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد عن أبي هريرة وقال فقام محصن الأسدي وفي رواية من هذه الطريق عكاشة بن محصن وهو أشبه وإبراهيم بن مسلم الهجري ضعيف وقال ابن جرير أيضا حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري حدثنا أبو زيد عبد العزيز أبي الغمر حدثنا ابن مطيع معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو حدثني سليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة الباهلي يقول قام رسول الله ﷺ في الناس فقال « كتب عليكم الحج » فقام رجل من الأعراب فقال أفي كل عام ؟ قال فعلا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسكت وأغضب واستغضب ومكث طويلا ثم تكلم فقال « من السائل » فقال الأعرابي أنا ذا فقال « ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم والله لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لكفرتم ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج والله لو أني أحللت لكم جميع ما في الأرض وحرمت عليكم منها موضع خف لوقعتم فيه » قال فأنزل الله عند ذلك (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا

عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الى آخر الآية فى إسناده ضعف وظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علمها الشخص ساءته فالأولى الاعراض عنها وتركها وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا حجاج قال سمعت إسرائيل بن يونس عن الوليد بن أبى هاشم مولى الهمدانى عن زيد بن زائد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « لايبلغنى أحد عن أحد شيئا فإنى أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر » الحديث وقد رواه أبو داود والترمذى من حديث إسرائيل قال أبو داود عن الوليد وقال الترمذى عن إسرائيل عن السدى عن الوليد بن أبى هاشم به ثم قال الترمذى غريب من هذا الوجه وقوله تعالى (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن هذه الأشياء التى نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين لكم (وذلك على الله يسير) ثم قال (عفا الله عنها) أى عما كان منكم قبل ذلك (والله غفور حليم) وقيل المراد بقوله (وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى لاتسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أوتضييق وقد ورد فى الحديث « أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذ لاحتياجكم اليها (عفا الله عنها) أى مالم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « ذرونى ماتركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم » وفى الحديث الصحيح أيضا « ان الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » ثم قال تعالى (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أى قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين أى بسببها أى بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد بل على وجه الاستهزاء والعناد وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية أن رسول الله ﷺ أذن فى الناس فقال « ياقوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بنى أسد فقال يارسول الله أفى كل عام فأغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فقال « والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت ولووجبت ما استطعتم وإذا لكفرتم فاتركونى ماتركتكم وإذا أمرتكم بشىء فافعلوا وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا عنه » فأنزل هذه الآية نهاهم أن يسألوا عن مثل الذى سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين فنهى الله عن ذلك وقال لاتسألوا عن أشياء ان نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ولكن انتظروا فاذا نزل القرآن فإنكم لاتسألون عن شىء الاوجدتم بيانه رواه ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) قال لما نزلت آية الحج نادى النبى صلى الله عليه وسلم فى الناس فقال « يا أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا » فقالوا يارسول الله أعاما واحدا أم كل عام ؟ فقال « لا بل عاما واحدا ولو قلت كل عام لوجبت ولووجبت لكفرتم » ثم قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء) إلى قوله (ثم أصبحوا بها كافرين) رواه ابن جرير وقال خصيف عن مجاهد عن ابن عباس (لاتسألوا عن أشياء) قال هى البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ألا ترى أنه قال بعدها (ما جعل الله من بحيرة) ولا كذا ولا كذا قال وأما عكرمة فقال إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك ثم قال (قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) رواه ابن جرير ، يعنى عكرمة رحمه الله أن المراد بهذا النهى عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهارا وأن يجعل لهم الصفا ذهبا وغير ذلك وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابا من السماء وقد قال الله تعالى (ومامنعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً) وقال تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون * ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله

ولكن أكثرهم يجهلون)

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

قال البخاري حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء قال وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب » والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الابل ثم تثنى بعد بأنثى وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث إبراهيم بن سعد به ثم قال البخاري وقال لي أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال سمعت سعيدا يخبر بهذا قال وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال الحاكم أراد البخاري أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت عن الزهري كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزي في الأطراف وسكت ولم ينبه عليه وفيما قاله الحاكم نظر فان الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد عن ابن الهاد عن الزهري نفسه والله أعلم، ثم قال البخاري حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا يونس عن الزهري عن عروة أن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا ورأيت عمرا يجر قصبه وهو أول من سيب السوائب ، تفرد به البخاري وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا محمد بن إسحق حدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي صالح عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون « يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك » فقال أكثم تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا ، إنك مؤمن وهو كافر إنه أول من غير دين إبراهيم وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي » ثم رواه عن هناد عن عبدة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله ، ليس هذان الطريقان في الكتب وقال الإمام أحمد حدثنا عمرو بن مجمع حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال « إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر وإني رأيته يجر أمعاءه في النار » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله ﷺ « إني لأعرف أول من سيب السوائب وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام » قالوا ومن هو يا رسول الله ؟ قال « عمرو بن لحي أخو بني كعب ، لقد رأيته يجر قصبه في النار تؤذي رائحته أهل النار وإني لأعرف أول من بحر البحائر » قالوا ومن هو يا رسول الله قال « رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع آذانهما وحرم ألبانهما ثم شرب ألبانهما بعد ذلك فلقد رأيته في النار وهما يعضانه بأفواههما ويطآنه بأخفافهما » فعمرو هذا هو ابن لحي بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) إلى آخر الآيات في ذلك فأما البحيرة فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن

نظروا إلى الخامس فان كان ذكرا ذبحوه فأكله الرجال دون النساء وإن كان أنثى جدعوا آذانها فقالوا هـذه بحيرة وذكر السدى وغيره قريبا من هذا، وأما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ماولدت من ولد كان بينها وبينه ستة أولاد كانت على هيئتها فإذا ولدت السابع ذكرا أو ذكرين ذبحوه فأكله رجالهم دون نسائهم وقال محمد بن إسحق: السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سيبت فلم تركب ولم يجز وبرها ولم يحلب لبنها إلا لضيف وقال أبو روق السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته سيب من ماله ناقة أو غيرها فجعلها للطواغيت فما ولدت من شيء كان لها وقال السدى كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته أو عوفي من مرض أو كثر ماله سيب شيئا من ماله للأوثان فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا

وأما الوصية فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن نظروا إلى السابع فان كان ذكرا وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء وإن كان أنثى استحيوها وإن كان ذكرا وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا وصلته أخته فحرمته علينا رواه ابن أبي حاتم وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب (ولا وصيلة) قال فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى ثم تثنت بأنثى فسموها الوصيلة ويقولون وصلت أنثيين ليس بينهما ذكر فكانوا يجدعونها لطواغيتهم وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وقال محمد بن إسحق الوصيله من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث وإن كانت ميتة اشتركوا فيها، وأما الحامى فقال العوفي عن ابن عباس قال كان الرجل إذا لقح فحله عشرا قيل حام فاتركوه وكذا قال أبو روق وقتادة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا حمى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئا ولا يجزون له وبراً ولا يمنعونه من حمى رعى ومن حوض يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول أما الحام فمن الإبل كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم من طريق أبي إسحق السبيعي عن أبي الأحوص الجشمي عن أبيه مالك بن نضلة قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في خلقان من الثياب فقال لي « هل لك من مال ؟ » فقلت نعم قال « من أي المال » قال فقلت من كل المال من الإبل والغنم والخيل والرقيق قال « فإذا آتاك الله مالا فـكثر عليك » ثم قال « تنتج ابلك وافية آذانها ؟ » قال قلت نعم وهـل تنتج الإبل إلا كذلك ؟ قال « فعلك تأخذ الموسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول هذه بحير وتشق آذان طائفة منها وتقول هذه حرم » قلت نعم قال « فلا تفعل إن كل ما آتاك الله لك حل » ثم قال (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) أما البحيرة فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأته ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها فإذا ماتت اشتركوا فيها .

وأما السائبة فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها ، وأما الوصيلة فالشاة تلد ستة أبطن فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرنها فيقولون قد وصلت فلا يذبحونها ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجا في الحديث

وقد روى من وجه آخر عن أبي إسحق عن أبي الأحوص عوف بن مالك من قوله وهو أشبه وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه به وليس فيه تفسير هذه والله أعلم .

وقوله تعالى (ولـكن الذين كفروا يفترون على الله الـكذب وأكثرهم لا يعقلون) أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ولـكن المشركون افتروا ذلك وجعلوه شرعا لهم وقربة يتقربون بها إليه وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك قال الله تعالى

(أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئاً) أى لايفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون اليه فكيف يتبعونهم والحالة هذه لايتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ومخبرا لهم أنه من أصلح أمره لايضره فساد من فسد من الناس سواء كان قريباً منه أو بعيدا . قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية يقول تعالى إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به وكذا روى الوالبى عنه وهكذا قال مقاتل بن حيان فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) نصب على الاغراء (لايضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيجازى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر وليس فيها دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكنا . وقد قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا زهير يعنى ابن معاوية حدثنا إسماعيل بن أبى خالد حدثنا قيس قال قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الناس إذا رأوا المنكر ولايغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه » قال وسمعت أبا بكر يقول يا أيها الناس إياكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان . وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة وابن حبان فى صحيحه وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة عن إسماعيل بن أبى خالد به متصلا مرفوعا ومنهم من رواه عنه به موقوفا على الصديق وقد رجح رفعه الدارقطنى وغيره وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولا فى مسند الصديق رضى الله عنه . وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى حدثنا عبد الله بن المبارك حدثنا عتبة بن أبى حكيم حدثنا عمرو ابن جارية اللخمى عن أبى أمية الشعبانى قال أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت له كيف تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية قلت قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) قال أما والله لقد سألت عنها خبيرا سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فان من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم » قال عبد الله بن المبارك وزاد غير عتبة قيل يارسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم قال « بل أجر خمسين منكم » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب صحيح وكذا رواه أبو داود من طريق ابن المبارك ورواه ابن ماجه وابن جرير وابن أبى حاتم عن عتبة بن أبى حكيم

وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال إن هذا ليس بزمانها إنها اليوم مقبولة ولكنه قد يوشك أن يأتى زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا أو قال فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لايضركم من ضل . ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن ابن مسعود فى قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل) الآية قال كانوا عند عبد الله ابن مسعود جلوسا فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر فقال آخر إلى جنبه عليك بنفسك فان الله يقول (عليكم أنفسكم) الآية قال فسمعها ابن مسعود فقال مه لم يجىء تأويل هذه بعد إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى صلى الله

عليه وسلم بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ما ذكر من الساعة ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ما ذكر من الحساب والجنة والنار فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية رواه ابن جرير

وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا الربيع بن صبيح عن سفيان بن عقال قال قيل لابن عمر لو جلست فى هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فان الله قال (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال ابن عمر إنها ليست لى ولا لأصحابى لأن رسول الله ﷺ قال « ألا فليبلغ الشاهد الغائب » فكنا نحن الشهود وأنتم الغيب ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم وقال أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم قالا حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد فى العين شديد اللسان فقال يا أبا عبد الرحمن نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه وكلهم مجتهد لا يألو وكلهم بغيض اليه أن يأتى دناءة إلا الخير وهم فى ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك فقال رجل من القوم وأى دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك ؟ فقال الرجل إنى لست إياك أسال إنما أسال الشيخ فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله لعلك ترى لا أبالك انى سآمرك أن تذهب فتقتلهم عظهم وانههم وإن عصوك فعليك بنفسك فان الله عز وجل يقول (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) الآية . وقال أيضا حدثنى أحمد بن المقدام حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبى حدثنا قتادة عن أبى مازن قال انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة فإذا قوم من المسلمين جلوس فقرأ أحدهم هذه الآية (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل) فقال أكثرهم لم يجىء تأويل هذه الآية اليوم وقال حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير قال كنت فى حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ وإنى لأصغر القوم فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقلت أنا أليس الله يقول فى كتابه (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ؟ فأقبلوا علىّ بلسان واحد وقالوا تنزع آية من القرآن لاتعرفها ولا تدرى ما تأويلها فتمنيت أنى لم أكن تكلمت وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا إنك غلام حديث السن وإنك نزعت آية ولاتدرى ماهى وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحا مطاعا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بنفسك لايضرك من ضل إذا اهتديت ، وقال ابن جرير حدثنا على بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة قال تلا الحسن هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال الحسن الحمد لله بها والحمد لله عليها ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله . وقال سعيد بن المسيب إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر فلا يضرك من ضل إذا اهتديت رواه ابن جرير وكذا روى من طريق سفيان الثورى عن أبى العميس عن أبى البخترى عن حذيفة مثله وكذا قال غير واحد من السلف . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن خالد الدمشقى حدثنا الوليد حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن كعب فى قوله (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) قال إذا هدمت كنيسة دمشق فجعلت مسجداً وظهر لبس العصب فحينئذ تأويل هذه الآية

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ

أَحَقُّ مِنْ شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ رواه العوفى عن ابن عباس وقال حماد بن أبى سليمان عن إبراهيم إنها منسوخة وقال آخرون وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير بل هو محكم ومن ادعى نسخه فعليه البيان فقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان) هذا هو الخبر(١) لقوله شهادة بينكم فقيل تقديره شهادة اثنين حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وقيل دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان وقوله تعالى (ذوا عدل) وصف الاثنين بأن يكونا عدلين وقوله (منكم) أى من المسلمين قاله الجمهور قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله (ذوا عدل منكم) قال من المسلمين رواه ابن أبى حاتم ثم قال وروى عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدى وقتادة ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون عنى ذلك (ذوا عدل منكم) أى من أهل الموصى وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما ، وقوله (أو آخران من غيركم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن عوف حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس فى قوله (أو آخران من غيركم) قال من غير المسلمين يعنى أهل الكتاب ثم قال وروى عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحى ابن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والشعبى وإبراهيم النخعى وقتادة وأبى مجلز والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة فى قوله منكم أن المراد من قبيلة الموصى يكون المراد ههنا (أو آخران من غيركم) أى من غير قبيلة الموصى وروى ابن أبى حاتم مثله عن الحسن البصرى والزهرى رحمهما الله ، وقوله تعالى (إن أنتم ضربتم فى الأرض) أى سافرتم (فأصابتكم مصيبة الموت) وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك فى سفر وأن يكون فى وصية كما صرح بذلك شريح القاضى ، قال ابن جرير حدثنا عمرو بن على حدثنا أبو معاوية ووكيع قالا حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن شريح قال لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا فى سفر ولا تجوز فى سفر إلا فى الوصية ثم رواه عن أبى كريب عن أبى بكر ابن عياش عن أبى إسحق السبيعى قال : قال شريح فذكر مثله وروى نحوه عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى وهذه المسألة من أفراده وخالفه الثلاثة فقالوا لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً ، وقال ابن جرير حدثنا عمرو بن على حدثنا أبو داود حدثنا صالح بن أبى الأخضر عن الزهرى قال مضت السنة أن لا تجوز شهادة الكافر فى حضر ولا سفر إنما هى فى المسلمين وقال ابن زيد نزلت هذه الآية فى رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام وذلك فى أول الإسلام والأرض حرب والناس كفار وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية وفرضت الفرائض وعمل الناس بها رواه ابن جرير وفى هذا نظر والله أعلم ، وقال ابن جرير اختلف فى قوله (شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم) هل المراد به أن يوصى إليهما أو يشهدهما على قولين (أحدهما) أن يوصى إليهما كما قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال سئل ابن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية قال هذا رجل سافر ومعه مال فأدركه قدره فان وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته وأشهد عليهما عدلين من المسلمين رواه ابن أبى حاتم وفيه انقطاع (والقول الثانى) انهما يكونان شاهدين وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فان لم يكن وصى ثالث معهما اجتمع فيهما الوصفان الوصاية والشهادة كما فى قصة تميم الدارى وعدى بن بداء كما سيأتى ذكرها آنفا إن شاء الله وبه التوفيق ، وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال لأنا لا نعلم حكما يحلف فيه الشاهد وهذا لا يمنع الحكم الذى تضمنته هذه الآية الكريمة وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جاريا على قياس جميع الأحكام على أن هذا حكم

(١) قوله هذا هو الخبر : كذا بالنسخ التى بأيدينا حرر اه .

خاص بشهادة خاصة فى محل خاص وقد اغتفر فيه من الأمور مالم يغتفر فى غيره فإذا قامت قرينة الريبة حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة وقوله تعالى (تحبسونهما من بعد الصلاة) قال العوفى عن ابن عباس يعنى صلاة العصر وكذا قال سعيد بن جبير وإبراهيم النخعى وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين وقال الزهرى يعنى صلاة المسلمين وقال السدى عن ابن عباس يعنى صلاة أهل دينهما وروى عن عبد الرزاق عن أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم (فيقسمان بالله) أى فيحلفان بالله (إن ارتبتم) أى إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا أو غلا فيحلفان حينئذ بالله (لا نشترى به) أى بأيماننا قاله مقاتل بن حيان (ثمنا) أى لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة (ولو كان ذا قربى) أى ولو كان المشهود عليه قريبا لنا لا نحابيه (ولا نكتم شهادة الله) أضافها إلى الله تشريفا لها وتعظيما لأمرها وقرأ بعضهم (ولا نكتم شهادةً اللهِ) مجرورا على القسم رواها ابن جرير عن عامر الشعبى وحكى عن بعضهم أنه قرأها (ولا نكتم شهادة آلله) والقراءة الأولى هى المشهورة (إنا إذا لمن الآثمين) أى إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية ، ثم قال تعالى (فان عثر على أنهما استحقا إثما) أى فان اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين) أنهما خانا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما وظهر عليهما بذلك (فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان) هذه قراءة الجمهور (استحق عليهم الأوليان) وروى عن على وأبى والحسن البصرى أنهم قرءوها (استحق عليهم الأولان) وروى الحاكم فى المستدرك من طريق إسحق بن محمد الفروى عن سليمان بن بلال عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن عبيد الله بن أبى رافع عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ (من الذين استحق عليهم الأوليان) ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس (من الذين استحق عليهم الأولين) وقرأ الحسن (من الذين استحق عليهم الأولان) حكاه ابن جرير فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أى متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة وليكونا من أولى من يرث ذلك المال (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) أى لقولنا إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة (وما اعتدينا) أى فيما قلنا فيهما من الخيانة (إنا إذا لمن الظالمين) أى إن كنا قد كذبنا عليهما وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث فى جانب القاتل فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمته إليهم كما هو مقرر فى باب القسامة من الأحكام ، وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة فقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا الحسين بن زياد حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن أبى النضر عن باذام يعنى أباصالح مولى أم هانىء بنت أبى طالب عن ابن عباس عن تميم الدارى فى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت) قال برىء الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة معه جام من فضة يريد به الملك وهو أعظم تجارته فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله قال تميم فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم واقتسمناه أنا وعدى فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ماكان معنا وفقدوا الجام فسألونا عنه فقلنا ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره قال تميم فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ودفعت إليهم خمسمائة درهم وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها فوثبوا عليه فأمرهم النبى أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فنزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) إلى قوله (فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء وهكذا رواه أبو عيسى الترمذى وابن جرير كلاهما عن الحسن ابن أحمد بن أبى شعيب الحرانى عن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق به فذكره وعنده فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البينة فلم يجدوا فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه فحلف فأنزل الله هذه الآية إلى قوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء ، ثم قال هذا حديث غريب

وليس إسناده بصحيح وأبو النضر الذى روى عنه محمد بن إسحق هذا الحديث هو عندى محمد بن السائب الكلبى يكنى أبا النضر وقد تركه أهل العلم بالحديث وهو صاحب التفسير سمعت محمد بن إسماعيل يقول محمد بن السائب الكلبى يكنى أبا النضر ثم قال ولا نعرف لأبى النضر رواية عن أبى صالح مولى أم هانئ ، وقد روى عن ابن عباس شىء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبى زائدة عن محمد بن أبى القاسم عن عبد الملك بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال خرج رجل من بنى سهم مع تميم الدارى وعدى بن بداء فمات السهمى بأرض ليس بها مسلم فلما قدما بتركته فقدوا جاما من فضة مخوصا بالذهب فأحلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدى فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وان الجام لصاحبهم وفيهم نزلت (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية وكذا رواه أبوداود عن الحسن ابن على عن يحيى بن آدم به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهو حديث ابن أبى زائدة ومحمد بن أبى القاسم الكوفى قيل انه صالح الحديث وقد ذكر هذه القصة مرسلة غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر رواه ابن جرير وكذا ذكرها مرسلة مجاهد والحسن والضحاك وهذا يدل على اشتهارها فى السلف وصحتها ، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضا مارواه أبوجعفر بن جرير حدثنى يعقوب حدثنا هشيم قال أخبرنا زكريا عن الشعبى أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا هذه قال فحضرته الوفاة ولم يجد أحدا من المسلمين يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب قال فقدما الكوفة فأتيا الأشعرى يعنى أباموسى الأشعرى رضى الله عنه فأخبراه وقدما الكوفة بتركته ووصيته فقال الأشعرى هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأحلفهما بعد العصر بالله ماخانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا وانها لوصية الرجل وتركته قال فأمضى شهادتهما ثم رواه عن عمرو بن على الفلاس عن أبى داود الطيالسى عن شعبة عن مغيرة الأزرق عن الشعبى أن أبا موسى قضى به وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبى عن أبى موسى الأشعرى ، فقوله هذا أمر لم يكن بعد الذى كان على عهد رسول الله ﷺ الظاهر والله أعلم أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بداء وقد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الدارى رضى الله عنه كان سنة تسع من الهجرة فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرا يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل فى هذا المقام والله أعلم وقال أسباط عن السدى فى الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم) قال هذا فى الوصية عند الموت يوصى ويشهد رجلين من المسلمين على ماله وماعليه قال هذا فى الحضر (أو آخران من غيركم) فى السفر (إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت) هذا الرجل يدركه الموت فى سفره وليس بحضرته أحد من المسلمين فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس فيوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه فيقبلان به فإن رضى أهل الميت الوصية وعرفوا ما لصاحبهم تركوهما وان ارتابوا رفعوهما إلى السلطان فذلك قوله تعالى (تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم) قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه كأنى أنظر إلى العلجين حين انتهى بهما إلى أبى موسى الأشعرى فى داره ففتح الصحيفة فأنكر أهل الميت وخوفوهما فأراد أبوموسى أن يستحلفهما بعد العصر فقلت إنهما لايباليان صلاة العصر ولكن استحلفهما بعد صلاتهما فى دينهما فيوقف الرجلان بعد صلاتهما فى دينهما فيحلفان بالله لانشترى به ثمنا قليلا ولوكان ذاقربى ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين ان صاحبهم لبهذا أوصى وان هذه لتركته فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا إنكما إن كتمتما أو خنتما فضحتكما فى قومكما ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما فاذا قال لهما ذلك (فان ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) رواه ابن جرير ، وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالا فى هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية قالا إذا حضر الرجل الوفاة فى سفر فليشهد رجلين من المسلمين فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب فاذا قدما بتركته فان صدقهما الورثة قبل قولهما وإن اتهموهما حلفا بعد صلاة العصر بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه

الآية فان ارتيب فى شهادتهما استحلفا بعد العصر بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنا قليلا فان اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا فى شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله ان شهادة الكافرين باطلة وإنا لم نعتد فذلك قوله تعالى (فإن عثر على أنهما استحقا إثماً) يقول إن اطلع على أن الكافرين كذبا (فآخران يقومان مقامهما) يقول من الأولياء فحلفا بالله ان شهادة الكافرين باطلة وانا لم نعتد فترد شهادة الكافرين وتجوز شهادة الأولياء وهكذا روى العوفى عن ابن عباس رواهما ابن جرير وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضى الله عنهم وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، وقوله (ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها) أى شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى من تحليف الشاهدين الذميين واستريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى وقوله (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) أى يكون الحامل لهم على الاتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه واجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون مايدعون ولهذا قال (أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم) ثم قال (واتقوا الله) أى فى جميع أموركم (واسمعوا) أى وأطيعوا (والله لا يهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم اليهم كما قال تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) وقال تعالى (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) وقول الرسل (لا علم لنا) قال مجاهد والحسن البصرى والسدى إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم قال عبد الرزاق عن الثورى عن الأعمش عن مجاهد (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) فيفزعون فيقولون (لا علم لنا) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام حدثنا عنبسة قال سمعت شيخا يقول سمعت الحسن يقول فى قوله (يوم يجمع الله الرسل) الآية قال من هول ذلك اليوم

وقال أسباط عن السدى (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا) ذلك أنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا (لا علم لنا) ثم نزلوا منزلا آخر فشهدوا على قومهم رواه ابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا الحجاج عن ابن جريج فى قوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) أى ماذا عملوا بعدكم وما أحدثوا بعدكم قالوا (لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) يقولون للرب عز وجل لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا رواه ابن جرير ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة ولا شك أنه قول حسن وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله . أى لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شىء فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه وأنت العليم بكل شىء المطلع على كل شىء فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك (أنت علام الغيوب)

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَبِرَسُولِى

قَالُوا ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

يذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال (اذكر نعمتى عليك) أى فى خلقى إياك من أم بلا ذكر وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء (وعلى والدتك) حيث جعلتك لها برهانا على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة (إذ أيدتك بروح القدس) وهو جبريل عليه السلام وجعلتك نبيا داعيا إلى الله فى صغرك وكبرك فأنطقتك فى المهد صغيرا فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لى بالعبودية وأخبرت عن رسالتى إياك ودعوت إلى عبادتى ولهذا قال (تكلم الناس فى المهد وكهلا) أى تدعو إلى الله الناس فى صغرك وكبرك وضمن تكلم تدعو لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب وقوله (وإذ علمتك الكتاب والحكمة) أى الخط والفهم (والتوراة) وهى المنزلة على موسى بن عمران الكليم وقد يرد لفظ التوراة فى الحديث ويراد به ما هو أعم من ذلك وقوله (وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى)أى تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذنى لك فى ذلك فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى أى فتنفخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه

وقوله تعالى (وتبرىء الأكمة والأبرص بإذنى) قد تقدم الكلام عليه فى سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته وقوله (وإذ تخرج الموتى بإذنى) أى تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا محمد بن طلحة يعنى ابن مصرف عن أبى بشر عن أبى الهذيل قال كان عيسى بن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى (تبارك الذى بيده الملك) وفى الثانية (ألم تنزيل) السجدة فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء يا قديم يا خفى يادائم يا فرد ياوتريا أحد يا صمد وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر يا حى ياقيوم يا ألله يا رحمن ياذا الجلال والاكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يارب وهذا أثر عظيم[1] جداً. وقوله تعالى(وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين) أى واذكر نعمتى عليك فى كفى إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا فى قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلى وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء أو يكون هذا الامتنان واقعا يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضى دلالة على وقوعه لامحالة وهذا من أسرار الغيوب التى أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ

وقوله (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى) وهذا أيضا من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحابا وأنصارا ثم قيل إن المراد بهذا الوحى وحى إلهام كما قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وهو وحى إلهام بلا خلاف وكما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا) الآية وهكذا قال بعض السلف فى هذه الآية (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) أى ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا قال الحسن البصرى ألهمهم الله عزوجل ذلك وقال السدى قذف فى قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا (آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون)

﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۞ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ

(١) فى المكية : عجيب .

وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾

هـذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال سورة المائدة وهى مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى لما أجاب دعاءه بنزولها فأنزل الله آية باهرة وحجة قاطعة وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة فى الإنجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين فالله أعلم فقوله تعالى (إذ قال الحواريون) وهم أتباع عيسى عليه السلام (ياعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك) هذه قراءة كثيرين وقرأ آخرون (هل تستطيع ربك) أى هل تستطيع أن تسأل ربك (أن ينزل علينا مائدة من السماء) والمائدة هى الخوان عليه طعام وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوون بها على العبادة (قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى فأجابهم المسيح عليه السلام قائلا لهم اتقوا الله ولا تسألوا هـذا فعساه أن يكون فتنة لكم وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين (قالوا نريد أن نأكل منها) أى نحن محتاجون إلى الأكل منها (وتطمئن قلوبنا) إذا شاهدنا نزولها رزقا لنا من السماء (ونعلم أن قد صدقتنا) أى ونزداد إيمانا بك وعلما برسالتك (ونكون عليها من الشاهـدين) أى ونشهد أنها آية من عند الله ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ماجئت به (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا) قال السدى أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيـه عيدا نعظمه نحن ومن بعدنا وقال سفيان الثورى يعنى يوما نصلى فيه وقال قتادة أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم وعن سلمان الفارسى عظة لنا ولمن بعدنا وقيل كافية لأولنا وآخرنا (وآية منك) أى دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء وعلى إجابتك لدعوتى فيصدقونى فيما أبلغه عنك (وارزقنا) أى من عندك رزقا هنيئا بلا كلفة ولا تعب (وأنت خير الرازقين قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم) أى فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها (فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) أى من عالمى زمانكم كقوله تعـالى (ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العـذاب) وكقوله (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) وقد روى ابن جرير من طريق عوف الأعرابى عن أبى المغيرة القواس عن عبد الله بن عمرو قال إن أشد الناس عذابا يوم القيامة ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون

﴿ ذكر أخبار رويت عن السلف فى نزول المائدة على الحواريين ﴾

قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حـدثنا الحسين حدثنى حجاج عن ليث عن عقيل عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبنى إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوما ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فان أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يامعلم الخير قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوما ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوما إلا أطعمنا حين نفرغ طعاما فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال عيسى (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين * قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين * قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين * قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين) قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم كذا رواه ابن جرير ، ورواه ابن أبى حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال كان ابن عباس يحدث فذكر نحوه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا سعيد بن عبد الله بن الحكم حدثنا أبو زرعة وهبة الله بن راشد حدثنا عقيل بن خالد أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس أن عيسى بن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا الحسن بن قزعة الباهلى حدثنا

سفيان بن حبيب حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن جلاس عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ثم رواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبي عدى عن سعيد عن قتادة عن جلاس عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبأوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنازير ، وقال ابن جرير حدثنا ابن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود عن سماك بن حرب عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جانب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدرى كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل ؟ قال قلت لا قال إنهم سألوا عيسى بن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد قال فقيل لهم فإنها مقيمة لكم مالم تخبأوا أو تخونوا أو ترفعوا فان فعلتم فاني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحدا من العالمين قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم يامعشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء فبعث الله فيكم رسولا من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكنزوا الذهب والفضة وايم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم الله عذاباً أليماً . وقال حدثنا القاسم حدثنا حسين حدثني حجاج عن أبي معشر عن إسحق ابن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى بن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ماشاءوا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غدا فرفعت ، وقال العوفى عن ابن عباس نزل على عيسى بن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا . وقال خصيف عن عكرمة ومقسم عن ابن عباس كانت المائدة سمكة وأريغفة ، وقال مجاهد هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا وقال أبو عبد الرحمن السلمى نزلت المائدة خبزا وسمكا وقال عطية العوفى المائدة سمك فيه طعم كل شيء وقال وهب بن منبه أنزلها من السماء على بني إسرائيل فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة فأكلوا ماشاءوا من ضروب شتى فكان يقعد عليها أربعة آلاف وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا على ذلك ماشاء الله عز وجل وقال وهب بن منبه نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات وحشا الله بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا . وقال الأعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير أنزل عليها كل شيء إلا اللحم . وقال سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة وجرير عن عطاء عن ميسرة قال كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدى بكل طعام إلا اللحم وعن عكرمة كان خبز المائدة من الأرز رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن علي فيما كتب إلي حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثني أبو عبد الله عبد القدوس ابن إبراهيم بن أبي عبيد الله بن مرداس العبدرى مولى بني عبد الدار عن إبراهيم بن عمر عن وهب بن منبه عن أبي عثمان النهدى عن سلمان الخير أنه قال لما سأل الحواريون عيسى بن مريم المائدة كره ذلك جدا فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها ، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك (قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا) الآية فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ماشاء الله فلما قضى صلاته قام قائما مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعا ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله فقال (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء) فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوى إليهم وعيسى يبكي خوفا من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابا ، لم يعذبه أحدا من العالمين ، وهو يدعو الله في مكانه ويقول اللهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها

عذاباً ، إلهى كم من عجيبة سألتك فأعطيتنى ، إلهى اجعلنا لك شاكرين ، اللهم إنى أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبا ورجزاً إلهى اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة . فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدى عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكرا له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا ، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة ، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمدا وغما ، ثم انصرفوا بغيظ شديد ، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ونحمد ربنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذى رزقنا فقال الحواريون ياروح الله وكلمته أنت أولانا بذلك وأحقنا بالكشف عنها . فقام عيسى عليه السلام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ثم بكى بكاء طويلا ودعا الله أن يأذن له فى الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا ثم انصرف وجلس إلى السفرة وتناول المنديل وقال باسم الله خير الرازقين وكشف عن السفرة فاذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس فى جوفها شوك يسيل السمن منها سيلا قد تحدق بها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات . فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى ياروح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال عيسى أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا فى سبب نزول هذه الآية . فقال له شمعون لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالا يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه السلام ليس شىء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة إنما هو شىء ابتدعه الله فى الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة ، فقال له كن فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فانه بديع قادر شاكر ، فقالوا ياروح الله وكلمته إنا نحب أن يرينا الله آية فى هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة فقال ياسمكة عودى بإذن الله حية كما كنت فأحياها الله بقدرته فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسيرها ففزع القوم منها وانحاسوا[1] فلما رأى عيسى منهم ذلك قال مالكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون ، ياسمكة عودى بإذن الله كما كنت فعادت بإذن الله مشوية كما كانت فى خلقها الأول ، فقالوا ياعيسى كن أنت ياروح الله الذى تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد ، فقال عيسى معاذ الله من ذلك . يبدأ بالأكل من طلبها . فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطة وفى أكلها مثلة فتحاموها فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله الذى أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون فاذا ما عليها كهيئته إذ نزلت من السماء لم ينقص منها شىء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرىء كل زمن أكل منها فلم يزالوا أغنياء أصحاء حتى خرجوا من الدنيا ، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها فى قلوبهم إلى يوم الممات قال وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو إسرائيل اليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضا الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضا فلما رأى ذلك جعلها نوبا بينهم تنزل يوما ولا تنزل يوما فلبثوا على ذلك أربعين يوما تنزل عليهم غبا عند ارتفاع النهار فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله وهم ينظرون إلى ظلها فى الأرض حتى توارى عنهم قال فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام أن اجعل رزقى فى المائدة للفقراء واليتامى والزمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها

(١) فى النسخة الأميرية : وانحازوا .

الأغنياء من الناس وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها فى أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا فى أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه فى قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أحق فانه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟ فقال عيسى عليه السلام هلكتم وإله المسيح طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها فأبشروا بالعذاب فانه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله ، فأوحى الله إلى عيسى إنى آخذ المكذبين بشرطى فإنى معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين . قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين فلما كان فى آخر الليل مسخهم الله خنازير فأصبحوا يتبعون الأقذار فى الكناسات ، هذا أثر غريب جداً قطعه ابن أبى حاتم فى مواضع من هذه القصة وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم وأكمل والله سبحانه وتعالى أعلم وكل هذه الآثار دالة على أن المائده نزلت على بنى إسرائيل أيام عيسى بن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم (قال الله إنى منزلها عليكم) الآية ،

وقال قائلون إنها لم تنزل فروى ليث بن أبى سليم عن مجاهد فى قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء رواه ابن أبى حاتم وابن جرير ثم قال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا القاسم هو ابن سلام حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم ، وقال أيضاً حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال فى المائدة إنها لم تنزل. وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم (فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل ، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله وكان يكون موجودا فى كتابهم متواترا ولا أقل من الآحاد والله أعلم ولكن الذى عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذى اختاره ابن جرير قال لأن الله تعالى أخبر بنزولها فى قوله تعالى (إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) قال ووعد الله ووعيده حق وصدق وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بنى أمية فى فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلىء وأنواع الجواهر فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بانى جامع دمشق فمات وهى فى الطريق فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام فالله أعلم . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبى ﷺ ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك قال « وتفعلون ؟ » قالوا نعم قال فدعا فأتاه جبريل فقال إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبه والرحمة . قال « بل باب التوبة والرحمة » ثم رواه أحمد وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث سفيان الثورى به .

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ

فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

هـذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله (ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رءوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعـالى (هذا يوم ينفع الصادقين صـدقهم) وقال السدى هـذا الخطاب والجواب فى الدنيا وصوبه ابن جرير قال وكان ذلك حين رفعـه إلى السماء واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحـدهما) أن الـكلام بلفظ المضى (والثانى) قوله : (إن تعذبهم) (وإن تغفر لهم) وهـذان الدليلان فيهما نظر لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضى ليدل على الوقوع والثبوت ومعنى قوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك) الآية التبرى منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعـه كما فى نظائر ذلك من الآيات والذى قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عبدالله مولى عمر بن عبدالعزيز وكان ثقة قال سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ « إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليـه فيقر بها فيقول (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك) الآية ثم يقول (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسئلون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدى الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار » وهذا حديث غريب عزيز

وقوله (سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق) هذا توفيق للتأدب فى الجواب الـكامل كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن طاوس عن أبى هريرة قال يلقى عيسى حجته ولقاه الله تعالى فى قوله (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) قال أبو هريرة عن النبى ﷺ فلقاه الله (سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق) إلى آخر الآية وقد رواه الثورى عن معمر عن ابن طاوس عن طاوس بنحوه وقوله (إن كنت قلته فقد علمته) أى إن كان صدر منى هذا فقد علمته يا رب فانه لا يخفى عليك شىء فما قلته ولا أردته فى نفسى ولا أضمرته ولهذا قال (تعلم مافى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب * ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به) بإبلاغه (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى ما دعوتهم إلا إلى الذى أرسلتنى به وأمرتنى بإبلاغه (أن اعبدوا الله ربى وربكم) أى هذا هو الذى قلت لهم وقوله (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم) أى كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم (فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد) قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثورى إلى المغيرة بن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «ياأيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا (كما بدأنا أول خلق نعيده) وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى ، فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح (وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد * إن تعذبهـم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحـكيم) فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » ورواه البخارى عند هذه الآية عن أبى الوليد عن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثورى كلاهما عن المغيرة بن النعمان به

وقوله (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل فإنه الفعال لما يشاء الذى لايسأل عما يفعل وهم يسألون ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها

قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن فضيل حدثنى فليت العامرى عن جسرة العامرية عن أبى ذر رضى الله عنه قال: صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فلما أصبح قلت يارسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال « إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله لمن لايشرك بالله شيئاً »

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى حدثنا قدامة بن عبد الله حدثتنى جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الربذة فسمعت أبا ذر يقول قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالى فى صلاة العشاء فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلى فجئت فقمت خلفه فأومأ إلىّ بيمينه فقمت عن يمينه ثم جاء ابن مسعود فقام خلفى وخلفه فأومأ اليه بشماله فقام عن شماله فقمنا ثلاثتنا يصلى كل واحد منا بنفسه ويتلو من القرآن ماشاء الله أن يتلو وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد الى ما صنع البارحة فقال ابن مسعود بيده لاأسأله عن شىء حتى يحدث إلىّ فقلت بأبى وأمى قمت بآية من القرآن ومعك القرآن لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال «دعوت لأمتى» قلت فما ذا أجبت أوماذا رد عليك ؟ قال « أجبت بالذى لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة » قلت أفلا أبشر الناس ؟ قال « بلى » فانطلقت معنقاً قريباً من قذفة بحجر فقال عمر يارسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات فناداه أن « ارجع » فرجع وتلك الآية (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول عيسى (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) فرفع يديه فقال « اللهم أمتى » وبكى فقال الله ياجبريل اذهب إلى محمد — وربك أعلم — فاسأله مايبكيه ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم فقال الله ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك . وقال الإمام أحمد حدثنا حسين قال حدثنا ابن لهيعة حدثنا ابن هبيرة أنه سمع أبا تميم الجيشانى يقول حدثنى سعيد بن المسيب سمعت حذيفة بن اليمان يقول غاب عنا رسول الله ﷺ يوما فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها فلما رفع رأسه قال « إن ربى عز وجل استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ فقلت ماشئت أى رب هم خلقك وعبادك فاستشارنى الثانية فقلت له كذلك ، فقال لى لا أخزيك فى أمتك يامحمد وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب . ثم أرسل إلىّ فقال ادع تجب وسل تعط . فقلت لرسوله أومعطى ربى سؤلى ؟ فقال ما أرسلنى إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطانى ربى ولا فخر وغفرلى ماتقدم من ذنبى وما تأخر وأنا أمشى حياً صحيحاً وأعطانى أن لاتجوع أمتى ولاتغلب ، وأعطانى الكوثر وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوضى وأعطانى العز والنصر والرعب يسعى بين يدى أمتى شهراً ، وأعطانى أنى أول الأنبياء يدخل الجنة وطيب لى ولأمتى الغنيمة وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا فى الدين من حرج »(1)

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

(1) الحديث ضعيف السند وفى أحاديث الشفاعة والسبعين ألفاً فى الصحاح غنى عنه

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام فيما أنهاه اليه من التبرى من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل فعند ذلك يقول تعالى (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) قال الضحاك عن ابن عباس يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) أى ماكثين فيها لايحولون ولا يزولون رضى الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى (ورضوان من الله أكبر) وسيأتى مايتعلق بتلك الآية من الحديث وروى ابن أبى حاتم هاهنا حديثاً عن أنس فقال حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا المحاربى عن ليث عن عثمان يعنى ابن عمير أخبرنا اليقظان عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ فيه « ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلونى سلونى أعطكم ـ قال ـ فيسألونه الرضا فيقول رضاى أحلكم دارى وأنا لكم كرامتى فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا ـ قال ـ فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى » وقوله (ذلك الفوز العظيم) أى هذا الفوز الكبير الذى لاأعظم منه كما قال تعالى (لمثل هذا فليعمل العاملون) وكما قال (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) وقوله (لله ملك السموات والأرض ومافيهن وهو على كل شىء قدير) أى هو الخالق للأشياء المالك لها المتصرف فيها القادر عليها فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفى مشيئته فلانظير له ولاوزير ولاعديل ولاوالد ولاولد ولاصاحبة ولا إله غيره ولارب سواه. قال ابن وهب سمعت حيى بن عبد الله يحدث عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبدالله بن عمر قال آخر سورة أنزلت سورة المائدة

﴿ تفسير سورة الأنعام وهى مكية ﴾

قال العوفى وعكرمة وعطاء عن ابن عباس أنزلت سورة الأنعام بمكة . وقال الطبرانى حدثنا على بن عبد العزيز حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح . وقال سفيان الثورى عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت نزلت سورة الأنعام على النبى ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبى صلى الله عليه وسلم إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة . وقال شريك عن ليث عن شهر عن أسماء قالت نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ وهو فى مسير فى زجل من الملائكة وقد طبقوا ما بين السماء والأرض . وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفاً من الملائكة وروى نحوه من وجه آخر عن ابن مسعود . وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب الحافظ وأبو الفضل الحسن بن يعقوب العدل قالا حدثنا محمد بن عبد الوهاب العبدى أخبرنا جعفر بن عون حدثنا إسماعيل بن عبد الرحمن السدى حدثنا محمد بن المنكدر عن جابر قال لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ماسد الأفق » ثم قال صحيح على شرط مسلم . وقال أبوبكر بن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا إبراهيم بن درستويه الفارسى حدثنا أبوبكر بن أحمد بن محمد بن سالم حدثنا ابن أبى فديك حدثنى عمر بن طلحة الرقاشى عن نافع بن مالك بن أبى سهيل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت سورة الأنعام معها موكب من الملائكة سد مابين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والأرض بهم ترتج » ورسول الله يقول « سبحان الله العظيم سبحان الله العظيم » ثم روى ابن مردويه عن الطبرانى عن إبراهيم بن نائلة عن إسماعيل بن عمر عن يوسف ابن عطية عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « نزلت على سورة الأنعام جملة واحدة وشيعها سبعون ألفاً من الملائكة لهم زجل بالتسبيح والتحميد »

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللَّهُ

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

يقول الله تعالى مادحا نفسه الكريمة وحامدا لها على خلقه السموات والأرض قرارا لعباده . وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم فجمع لفظ الظلمات ووحد لفظ النور لكونه أشرف كقوله تعالى (عن اليمين والشمائل) وكما قال فى آخر هذه السورة (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ثم قال تعالى (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى ومع هذا كله كفر به بعض عباده وجعلوا له شريكا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدا تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا . وقوله تعالى (هو الذى خلقكم من طين) يعنى أباهم آدم الذى هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا فى المشارق والمغارب وقوله (ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) قال سعيد بن جبير عن ابن عباس (ثم قضى أجلا) يعنى الموت (وأجل مسمى عنده) يعنى الآخرة وهكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم وعطية والسدى ومقاتل بن حيان وغيرهم وقول الحسن فى رواية عنه (ثم قضى أجلا) وهو ما بين أن يخلق إلى أن يموت (وأجل مسمى عنده) وهو ما بين أن يموت إلى أن يبعث هو يرجع إلى ما تقدم وهو تقدير الأجل الخاص وهو عمر كل إنسان وتقدير الأجل العام وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة وعن ابن عباس ومجاهد (ثم قضى أجلا) يعنى مدة الدنيا وأجل مسمى عنده) يعنى عمر الإنسان إلى حين موته وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) الآية وقال عطية عن ابن عباس (ثم قضى أجلا) يعنى النوم يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه عند اليقظة (وأجل مسمى عنده) يعنى أجل موت الإنسان وهذا قول غريب ومعنى قوله (عنده) أى لا يعلمه إلا هو كقوله (إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) وكقوله (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها) وقوله تعالى (ثم أنتم تمترون) قال السدى وغيره يعنى تشكون فى أمر الساعة وقوله تعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين تعالى عن قولهم علوا كبيرا بانه فى كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله فى السموات وفى الأرض أى يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من فى السموات ومن فى الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر من الجن والإنس وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أى هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض وعلى هذا فيكون قوله (يعلم سركم وجهركم) خبرا أو حالا (والقول الثانى) أن المراد أنه الله الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهر فيكون قوله يعلم متعلقا بقوله (فى السموات وفى الأرض) تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم فى السموات وفى الأرض ويعلم ما تكسبون والقول الثالث أن قوله (وهو الله فى السموات) وقف تام ثم استأنف الخبر فقال (وفى الأرض يعلم سركم وجهركم) وهذا اختيار ابن جرير وقوله (ويعلم ما تكسبون) أى جميع أعمالكم خيرها وشرها

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آية أى دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فانهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها قال الله تعالى (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم

فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لابد أن يأتيهم خبر ماهم فيه من التكذيب وليجدن غبه وليذوقن وباله ثم قال تعالى واعظا لهم ومحذرا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا وأكثر أموالا وأولادا واستعلاء فى الأرض وعمارة لها فقال (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم) أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ولهذا قال (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) أى شيئاً بعد شىء (وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم) أى أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض أى استدراجا وإملاء لهم (فأهلكناهم بذنوبهم) أى بخطاياهم وسيآتهم التى اجترموها (وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) أى فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث (وأنشأنا من بعدهم قوما آخرين) أى جيلا آخر لنختبرهم فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم فما أنتم بأعز على الله منهم والرسول الذى كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) أى عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك لقال (الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) وهذا كما قال تعالى مخبرا عن مكابرتهم للمحسوسات (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وكقوله تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم) (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) أى ليكون معه نذيراً قال الله تعالى (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون)أى لو نزلت الملائكة على ماهم عليه لجاءهم من الله العذاب كما قال الله تعالى (ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) الآية وقوله تعالى (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى ولو أنزلنا مع الرسول البشرى ملكا أى لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم فى قبول رسالة البشرى كقوله تعالى (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم ليدعو بعضهم بعضا وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض فى المخاطبة والسؤال كما قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) الآية قال الضحاك عن ابن عباس فى الآية يقول لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا فى صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور (وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى ولخلطنا عليهم ما يخلطون وقال الوالبى عنه ولشبهنا عليهم وقوله (ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) هذه تسلية للنبى ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة فى الدنيا والآخرة ثم قال تعالى (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فكروا فى أنفسكم وانظروا ما أحل الله

بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال والعقوبة فى الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم فى الآخرة وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين

﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهما وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما ثبت فى الصحيحين من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى» وقوله (ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه) هذه اللام هى الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده (إلى ميقات يوم معلوم) وهو يوم القيامة الذى لاريب فيه أى لاشك عند عباده المؤمنين فأما الجاحدون المكذبون فهم فى ريبهم يترددون وقال ابن مردويه عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا عبيد الله بن أحمد بن عقبة حدثنا عباس بن محمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا محصن بن عتبة اليمانى عن الزبير بن شبيب عن عثمان بن حاضر عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ عن الوقوف بين يدى رب العالمين هل فيه ماء قال « والذى نفسى بيده إن فيه لماء ، إن أولياء الله ليردون حياض الأنبياء ويبعث الله تعالى سبعين ألف ملك فى أيديهم عصى من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء » هذا حديث غريب وفى الترمذى « إن لكل نبى حوضا وأرجو أن أكون أكثرهم واردة » وقوله (الذين خسروا أنفسهم) أى يوم القيامة (فهم لا يؤمنون) أى لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم ثم قال تعالى (وله ما سكن فى الليل والنهار) أى كل دابة فى السموات والأرض الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره لا إله إلا هو (وهو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده. العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم الذى بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم (قل أغير الله أتخذ وليا فى السموات والأرض) كقوله (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون) والمعنى لا أتخذ وليا إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السموات والأرض أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق (وهو يطعم ولا يطعم) أى وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج اليهم كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الآية وقرأ بعضهم هاهنا (وهو يطعم ولا يطعم) أى لا يأكل وفى حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى صلى الله عليه وسلم على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبى صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال « الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب وكسانا من العرى وكل بلاء حسن أبلانا . الحمد لله غير مودع ربى ولا مكفى ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذى أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العرى وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا الحمد لله رب العالمين» (قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) أى من هذه الأمة (ولا تكونن من المشركين قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) يعنى يوم القيامة (من يصرف عنه) أى العذاب (يومئذ فقد رحمه) يعنى فقد رحمه الله (وذلك هو الفوز المبين) كقوله (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) والفوز حصول الربح ونفى الخسارة

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ * قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع وأنه المتصرف فى خلقه بما يشاء لامعقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو كل شىء قدير) كقوله تعالى (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده) الآية وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ولهذا قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده) أى هو الذى خضعت له الرقاب وذلت له الجبابرة[1] وعنت له الوجوه وقهر كل شىء ودانت له الخلائق وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه (وهو الحكيم) أى فى جميع أفعاله (الخبير) بمواضع الأشياء ومحالها فلايعطى إلا من يستحق ولا يمنع إلا من يستحق ثم قال (قل أى شىء أكبر شهادة) أى من أعظم الأشياء شهادة (قل الله شهيد بينى وبينكم) أى هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أى وهو نذير لكل من بلغه كقوله تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب فى قوله (ومن بلغ) من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ زاد أبو خالد وكلمه . ورواه ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » وقال الربيع بن أنس حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذى أنذر وقوله (أئنكم لتشهدون) أيها المشركون (أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد) كقوله (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) (قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون) ثم قال تعالى مخبرا عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذى جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته[1] وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته ولهذا قال بعده (الذين خسروا أنفسهم) أى خسروا كل الخسارة (فهم لا يؤمنون) بهذا الأمر الجلى الظاهر الذى بشرت به الأنبياء ونوهت به فى قديم الزمان وحديثه ثم قال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى لا أظلم ممن تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته (إنه لا يفلح الظالمون) أى لا يفلح هذا ولا هذا لا المفترى ولا المكذب

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟

(١) فى المكية الجباه. (١) فى الأميرية : ومعنه .

بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين (يوم نحشرهم جميعا) يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التى كانوا يعبدونها من دونه قائلا لهم (أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون) كقوله تعالى فى سورة القصص (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون)وقوله تعالى (ثم لم تكن فتنتهم) أى حجتهم إلا أن قالوا (والله ربنا ما كنا مشركين) قال الضحاك عن ابن عباس (ثم لم تكن فتنتهم) أى حجتهم. وقال عطاء الخراسانى عنه أى معذرتهم وكذا قال قتادة وقال ابن جريج عن ابن عباس : أى قيلهم وكذا قال الضحاك وقال عطاء الخراسانى(ثم لم تكن فتنتهم) بليتهم حين ابتلوا (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) وقال ابن جرير والصواب ثم لم يكن قيلهم عندفتنتنا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله (إلا أن قالوا والله ربنا ما كنامشركين) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازى عن عمرو ابن أبى قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال يا ابن عباس سمعت الله يقول (والله ربنا ما كنامشركين) قال أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة فقالوا تعالوا فلنجحد فيجحدون فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا فهل فى قلبك الآن شىء ؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا ونزل فيه شىء ولكن لا تعلمون وجهه . وقال الضحاك عن ابن عباس هذه فى المنافقين وفيه نظر فان هذه الآية مكية والمنافقون إنما كانوا بالمدينة والتى نزلت فى المنافقين آية المجادلة (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له) الآية وهكذا قال فى حق هؤلاء (انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) كقوله (ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا) الآية . وقوله (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزى عنهم شيئا لأن الله (جعل على قلوبهم أكنة) أى أغطية لئلا يفقهوا القرآن (وفى آذانهم وقرا)أى صمما عن السماع النافع لهم كما قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) الآية . وقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف كقوله تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم) الآية وقوله تعالى (حتى إذا جاءوك يجادلونك) أى يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) أى ما هذا الذى جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم وقوله (وهم ينهون عنه وينأون عنه) فى معنى ينهون عنه قولان (أحدهما) أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن (وينأون عنه) أى ويبعدون هم عنه فيجمعون بين الفعلين القبيحين لا ينتفعون ولا يدعون أحدا ينتفع قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وهم ينهون عنه) يردون الناس عن محمد ﷺ أن يؤمنوا به . وقال محمد بن الحنفية كان كفار قريش لا يأتون النبى ﷺ وينهون عنه وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد وهذا القول أظهر والله أعلم وهو اختيار ابن جرير (والقول الثانى) رواه سفيان الثورى عن حبيب ابن أبى ثابت عمن سمع ابن عباس يقول فى قوله (وهم ينهون عنه) قال نزلت فى أبى طالب كان ينهى الناس عن النبى ﷺ أن يؤذى وكذا قال القاسم بن مخيمرة وحبيب بن أبى ثابت وعطاء بن دينار وغيره أنها نزلت فى أبى طالب وقال سعيد بن أبى هلال نزلت فى عمومة النبى ﷺ وكانوا عشرة فكانوا أشد الناس معه فى العلانية وأشد الناس عليه فى السر رواه ابن أبى حاتم ، وقال محمد بن كعب القرظى (وهم ينهون عنه) أى ينهون الناس عن قتله وقوله (وينأون عنه) أى يتباعدون منه (وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أى وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعودوباله إلا عليهم وهم لا يشعرون

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا (ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملا صالحا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين قال الله تعالى (بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل) أى بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون فى أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها فى الدنيا أو فى الآخرة كما قال قبله بيسير (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم) ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل فى الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبرا عن موسى أنه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) الآية وقوله تعالى مخبرا عن فرعون وقومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ويبطنون الكفر ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ولا ينافى هذا كون هذه السورة مكية والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فقد ذكر الله وقوع النفاق فى سورة مكية وهى العنكبوت فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين فى الدار الآخرة حين يعاينون العذاب فظهر لهم حينئذ غب ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق والشقاق والله أعلم وأما معنى الإضراب فى قوله (بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل) فانهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة فى الإيمان بل خوفا من العذاب الذى عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ولهذا قال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) أى فى طلبهم الرجعة رغبة ومحبة فى الإيمان ثم قال مخبرا عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة (وإنهم لكاذبون) أى فى قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين أى لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا أى ماهى إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها ولهذا قال وما نحن بمبعوثين ، ثم قال (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) أى أوقفوا بين يديه قال (أليس هذا بالحق ؟) أى أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون)

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خسارة من كذب بلقائه وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ولهذا قال (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) وهذا الضمير يحتمل

عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة أى فى أمرها وقوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون) أى يحملون وقال قتادة يعملون ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا أبوخالد الأحمر عن عمرو ابن قيس عن أبى مرزوق قال يستقبل الكافر أو الفاجر عند خروجه من قبره كأقبح صوره رأيتها وأنتنه ريحاً فيقول من أنت فيقول أو ماتعرفنى فيقول لاوالله إلا أن الله قبح وجهك وأنتن ريحك فيقول أنا عملك الخبيث هكذا . كنت فى الدنيا خبيث العمل منتنه فطالما ركبتنى فى الدنيا هلم أركبك فهو قوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) الآية ، وقال أسباط عن السدى انه قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه أسود اللون منتن الريح وعليه ثياب دنسة حتى يدخل معه قبره فإذا رآه قال ما أقبح وجهك قال كذلك كان عملك قبيحاً قال ما أنتن ريحك قال كذلك كان عملك منتنا ، قال ما أدنس ثيابك ، قال فيقول إن عملك كان دنساً ، قال له من أنت ؟ قال عملك ، قال فيكون معه فى قبره فاذا بعث يوم القيامة قال له : إنى كنت أحملك فى الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملنى ، قال فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار ، فذلك قوله (وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون) وقوله (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى إنما غالبها كذلك (وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون)

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه (قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) أى قد أحطنا علما بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) كما قال تعالى فى الآية الأخرى (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً) وقوله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم كما قال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن ناجية بن كعب عن على قال : قال أبوجهل للنبى صلى الله عليه وسلم إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به فأنزل الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ورواه الحاكم من طريق إسرائيل عن أبى إسحق ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن الوزير الواسطى بمكة حدثنا بشر بن المبشر الواسطى عن سلام بن مسكين عن أبى يزيد المدنى أن النبى صلى الله عليه وسلم لقى أبا جهل فصافحه فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا الصابىء ؟ فقال والله إنى لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لبنى عبد مناف تبعا ؟ وتلا أبو يزيد (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقال أبوصالح وقتادة يعلمون أنك رسول الله ويجحدون ، وذكر محمد بن إسحق عن الزهرى فى قصة أبى جهل حين جاء يستمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحدهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال كل منهم للآخر ماجاء بك ؟ فذكر له ماجاء به ثم تعاهدوا أن لا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظنا أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق

فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لايعودوا فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا أن لايعودوا لمثلها ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أباسفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أباحنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أباثعلبة والله لقدسمعت أشياء أعرفها وأعرف مايراد بها وسمعت أشياء ماعرفت معناها وما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذى حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أباجهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم مارأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لانؤمن به أبدا ولانصدقه ، قال فقام عنه الأخنس وتركه .

وروى ابن جرير من طريق أسباط عن السدى فى قوله (قدنعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبنى زهرة يابنى زهرة إن محمداً ابن أختكم فأنتم أحق من ذب عن ابن أخته فانه إن كان نبيا لم تقاتلوه اليوم وإن كان كاذباً كنتم أحق من كف عن ابن أخته ، قفوا حتى ألقى أبا الحكم فان غلب محمد رجعتم سالمين ، وإن غلب محمد فان قومكم لم يصنعوا بكم شيئاً — فيومئذ سمى الأخنس وكان اسمه أبى — فالتقى الأخنس وأبو جهل فخلا الأخنس بأبى جهل فقال يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب فانه ليس هاهنا من قريش غيرى وغيرك يستمع كلامنا ؟ فقال أبوجهل ويحك والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهبت بنو قصى باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فآيات الله محمد ﷺ

وقوله (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) هذه تسلية للنبى ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعد مانالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ثم جاءهم النصر فى الدنيا كما لهم النصر فى الآخرة ولهذا قال (ولا مبدل لكلمات الله) أى التى كتبها بالنصر فى الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم النصورون * وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقوله (ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم فلك فيهم أسوة وبهم قدوة . ثم قال تعالى (وإن كان كبر عليك إعراضهم) أى إن كان شق عليك إعراضهم عنك (فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أوسلماً فى السماء) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : النفق السرب فتذهب فيه فتأتيهم بآية أو تجعل لك سلما فى السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به فافعل ، وكذا قال قتادة والسدى وغيرهما وقوله (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) كقوله تعالى (ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولوشاء الله لجمعهم على الهدى) قال ان رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لايؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ، وقوله تعالى (إنما يستجيب الذين يسمعون) أى إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) وقوله (والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) يعنى بذلك الكفار لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد فقال (والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) وهذا من باب التهكم بهم والازراء عليهم

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ

يُحْشَرُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم كانوايقولون لولانزل عليه آية من ربه أى خارق على مقتضىما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) الآيات (قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى هو تعالى قادر على ذلك ولكن حكمته تعالى تقتضى تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ماطلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) وقال تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آيةفظلت أعناقهم لها خاضعين) وقوله (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) قال مجاهد: أى أصناف مصنفة تعرف بأسمائها. وقال قتادة: الطيرأمة والإنس أمة والجن أمة وقالالسدى (إلا أمم أمثالكم) أىخلق أمثالكم

وقوله (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) أى الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحدا من جميعهامن رزقه وتدبيره سواء كان بريا أو بحريا كقوله (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) أى مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها وحاصر لحركاتها وسكناتها وقال تعالى (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقهاوإياكم وهو السميع العليم) وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسى أبوعباد حدثنى محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمدبن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قل الجراد فى سنةمن سنى عمر رضى الله عنه التى ولى فيها فسأل عنه فلم يخبر بشىء فاغتم لذلك فأرسل راكبا إلى كذا وآخر إلى الشأم وآخر إلى العراق يسأل هل رؤى من الجرادشىء أم لا؟ قال فأتاه الراكب الذىمن قبل اليمن بقبضة من جراد فألقاها بين يديه فلمارآها كبر ثلاثا ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «خلق الله عز وجل ألف أمة منها ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر وأول شىء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلكت تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه» وقوله (ثم إلى ربهم يحشرون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (ثم إلى ربهم يحشرون) قال حشرها الموت وكذا رواه ابن جرير من طريق إسرائيل عن سعيدعن مسروق عن عكرمة عن ابن عباس قالموت البهائم حشرها وكذا رواهالعوفىعنه قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والضحاك مثله (والقولالثانى) إن حشرها هوبعثها يوم القيامة لقوله (وإذا الوحوش حشرت) وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان عن منذر الثورى عن أشياخ لهم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان فقال «ياأباذر هل تدرى فيم تنتطحان؟» قال لا قال «لكن الله يدرى وسيقضى بينهما» ورواهعبدالرزاق عن معمر عن الأعمش عمن ذكره عن أبى ذر قال بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انتطحت عنزان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتدرون فيم انتطحتا!» قالوا لا ندرى قال «لكنالله يدرى وسيقضى بينهما» رواه ابن جرير ثم رواه منطريقمنذر الثورى عن أبى ذر فذكره وزاد قال أبو ذر ولقد تركنا رسول الله ﷺ وما يقلب طائر جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما وقال عبد الله ابن الإمام أحمد فى مسند أبيه حدثنى عباس بن محمد وأبو يحيى البزار قالا حدثنا حجاج بن نصير حدثناشعبة عن العوام بن مزاحم من بنى قيس بن ثعلبة عن أبى عثمان النهدى عنعثمان رضى اللهعنه أن رسول الله ﷺ قال «إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة» وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبى هريرة فى قوله (إلا أمم أمثالكم ما فرطنافى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شىء فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجماء من القرناء ثم يقول كونى ترابا فلذلك يقول الكافر (يا ليتنى كنت ترابا) وقد روى هذا مرفوعا فى حديث الصور

وقوله (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) أى مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم وهو

الذى لا يسمع أبكم وهو الذى لا يتكلم وهو مع هذا فى ظلمات لا يبصر فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه كقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون) وكما قال تعالى (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور) ولهذا قال (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد المتصرف فى خلقه بما يشاء وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه بل هو وحده لا شريك له الذى إذا سئل يجيب لمن يشاء ولهذا قال (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) أى أتاكم هذا أو هذا (أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) أى لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ولهذا قال (إن كنتم صادقين) أى فى اتخاذكم آلهة معه (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) أى فى وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية وقوله (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء) يعنى الفقر والضيق فى العيش (والضراء) وهى الأمراض والأسقام والآلام (لعلهم يتضرعون) أى يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون ، قال الله تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) أى فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا ولكن قست قلوبهم) أى ما رقت ولا خشعت (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) أى من الشرك والمعاندة والمعاصى (فلما نسوا ما ذكروا به) أى أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) أى فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذا بالله من مكره ، ولهذا قال (حتى إذا فرحوا بما أوتوا) أى من الأموال والأولاد والأرزاق (أخذناهم بغتة) أى على غفلة (فإذا هم مبلسون) أى آيسون من كل خير قال الوالبى عن ابن عباس المبلس: الآيس ، وقال الحسن البصرى من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأى له ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأى له ثم قرأ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) قال مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا ، رواه ابن أبى حاتم ، وقال قتادة بغت القوم أمر الله وما أخذ الله قوما قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله فانه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون رواه ابن أبى حاتم أيضاً

وقال مالك عن الزهرى (فتحنا عليهم أبواب كل شىء) قال رخاء الدنيا ويسرها ، وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين — يعنى ابن سعد أبا الحجاج المهرى — عن حرملة بن عمران التجيبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة ابن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج» ثم تلا رسول الله ﷺ (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا

أخذناهم بغتة فإذاهم مبلسون) ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث حرملة وابن لهيعة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا عراك بن خالد بن يزيد حدثني أبي عن إبراهيم ابن أبي عبلة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح لهم ـ أو فتح عليهم ـ باب خيانة (حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) كما قال (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ورواه أحمد وغيره

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ قل لهؤلاء المكذبين المعاندين (أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) أي سلبكم إياها كما أعطاكموها . كما قال تعالى (هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) الآية ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال (وختم على قلوبكم) كما قال (أمن يملك السمع والأبصار) وقال (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) وقوله (من إله غير الله يأتيكم به) أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك اليكم إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال (انظر كيف نصرف الآيات) أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال (ثم هم يصدفون) أي ثم هم مع هذا البيان يصدفون أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتباعه قال العوفي عن ابن عباس يصدفون أي يعدلون وقال مجاهد وقتادة يعرضون وقال السدي يصدون وقوله تعالى (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة) أي وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم (أو جهرة) أي ظاهراً عيانا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون كقوله (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الآية ، وقوله (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال (فمن آمن وأصلح) أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم (فلا خوف عليهم) أي بالنسبة لما يستقبلونه (ولا هم يحزنون أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه ، ثم قال (والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون) أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ * وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ * وَإِذَا جَآءَكَ

ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله) أى لست أملكها ولا أتصرف فيها (ولا أعلم الغيب) أى ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله عز وجل ولا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه (ولا أقول لكم إنى ملك) أى ولا أدعى أنى ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إلى من الله عز وجل شرفنى بذلك وأنعم علىّ به ولهذا قال (إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه (قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى هل يستوى من اتبع الحق وهدى اليه ومن ضل عنه فلم ينقد له (أفلا تتفكرون) وهذه كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولو الألباب) وقوله (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولىّ ولا شفيع) أى وأنذر بهذا القرآن يا محمد (الذين هم من خشية ربهم مشفقون) (الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) أى يوم القيامة (ليس لهم) أى يومئذ (من دونه ولى ولا شفيع) أى لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم (لعلهم يتقون) أى أنذر هذا اليوم الذى لا حاكم فيه إلا الله عز وجل (لعلهم يتقون) فيعملون فى هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه . وقوله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كقوله (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) وقوله (يدعون ربهم) أى يعبدونه ويسألونه (بالغداة والعشى) قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة المراد به الصلاة المكتوبة وهذا كقوله (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) أى أتقبل منكم وقوله (يريدن وجهه) أى يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات وقوله ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء) كقول نوح عليه السلام فى جواب الذين قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون وما علمى بما كانوا يعملون إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . أى إنما حسابهم على الله عز وجل وليس على من حسابهم من شىء كما أنه ليس عليهم من حسابى من شىء ، وقوله (فتطردهم فتكون من الظالمين) أى إن فعلت هذا والحالة هذه قال الإمام أحمد حدثنا أسباط هو ابن محمد حدثنى أشعث عن كردوس عن ابن مسعود قال مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء ؟ فنزل فيهم القرآن (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم — الى قوله — أليس الله بأعلم بالشاكرين) ورواه ابن جرير من طريق أشعث عن عن كردوس عن ابن مسعود قال . مر الملأ من قريش برسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك ، فنزلت هذه الآية (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) إلى آخر الآية ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد بن يحيى حدثنا سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد العنقزى حدثنا أسباط بن نصر عن السدى عن أبى سعيد الأزدى — وكان قارىء الأزد — عن أبى الكنود عن خباب فى قول الله عز وجل (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) قال جاء الأقرع ابن حابس التميمى وعيينة بن حسن الفزارى فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعدا فى ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبى صلى الله عليه وسلم حقروهم فى نفر فى أصحابه فأتوه فخلوا به وقالوا إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحيى أن ترانا العرب

مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال « نعم » قالوا فاكتب لنا عليك كتابا قال فدعا بصحيفة ودعا عليا ليكتب ونحن قعود فى ناحية فنزل جبريل فقال (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه ، ورواه ابن جرير من حديث أسباط به ، وهذا حديث غريب فان هذه الآية مكية والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر وقال سفيان الثورى عن المقدام بن شريح عن أبيه قال : قال سعد نزلت هذه الآية فى ستة من أصحاب النبى ﷺ منهم ابن مسعود قال كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع منه فقالت قريش تدنى هؤلاء دوننا فنزلت (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) رواه الحاكم فى مستدركه من طريق سفيان وقال على شرط الشيخين وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من طريق المقدام بن شريح به

وقوله (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) أى ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض (ليقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه فى أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل كما قال قوم نوح لنوح (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) الآية وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقال بل ضعفاؤهم فقال هم أتباع الرسل والغرض أن مشركى قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم وكانوا يقولون أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أى ما كان الله ليهدى هؤلاء إلى الخير لو كان ماصاروا إليه خيرا ويدعنا كقولهم (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) وكقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا) قال الله تعالى فى جواب ذلك (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) وقال فى جوابهم حين قالوا (أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) أى أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) وفى الحديث الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج عن عكرمة فى قوله (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) الآية قال جاء عتبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحارث بن نوفل وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل فى أشراف من بنى عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب فقالوا يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنما هم عبيدنا وعسفاؤنا كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له قال فأتى أبو طالب النبى ﷺ فحدثه بذلك فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذى يريدون وإلى ما يصيرون من قولهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية (وأنذر به الذين يخافون أن يحشرون إلى ربهم) إلى قوله (أليس الله بأعلم بالشاكرين) قال وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبى حذيفة وصبيحا مولى أسيد ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو ومسعود وابن القارى وواقد بن عبد الله الحنظلى وعمرو بن عبد عمرو وذو الشمالين ومرثد بن أبى مرثد وأبو مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء ونزلت فى أئمة الكفر من قريش والموالى والحلفاء (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) الآية فلما نزلت أقبل عمر رضى الله عنه فأتى النبى ﷺ فاعتذر من مقالته فأنزل الله عز وجل (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا) الآية وقوله (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) أى فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ولهذا قال (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أوجبها على نفسه الكريمة تفضلا منه وإحسانا وامتنانا (أنه من عمل منكم سوءا بجهالة) قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل ، وقال معتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان بن عكرمة فى قوله (من عمل منكم سوءاً بجهالة) قال الدنيا كلها جهالة رواه ابن أبى حاتم (ثم تاب من بعده وأصلح) أى رجع عما كان عليه من المعاصى وأقلع

وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل (فأنه غفور رحيم) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي » أخرجاه في الصحيحين وهكذا رواه الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ورواه موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبي هريرة وكذا رواه الليث وغيره عن محمد بن عجلان عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بذلك وقد روى ابن مردويه من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبي عثمان النهدي عن سلمان في قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) قال انا نجد في التوراة عطفتين أن الله خلق السموات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فيها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تبج البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتتابع الحيتان في البحر فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع ، وقد روى هذا مرفوعا من وجه آخر وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله (ورحمتي وسعت كل شيء) ومما يناسب هذه الآية من الأحاديث أيضا قوله ﷺ لمعاذ بن جبل « أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال « أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » وقد رواه الإمام أحمد من طريق كميل بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ * قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد (كذلك نفصل الآيات) أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها (ولتستبين سبيل المجرمين) أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل وقرئ (ولتستبين سبيل المجرمين) أي ولتستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين وقوله (قل إني على بينة من ربي) أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إلي (وكذبتم به) أي بالحق الذي جاءني من الله (ما عندي ما تستعجلون به) أي من العذاب (إن الحكم إلا لله) أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ولهذا قال (يقص الحق وهو خير الفاصلين) أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده، وقوله (قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم)أي لو كان مرجع ذلك إلى لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك والله أعلم بالظالمين ، فان قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال: إن الله قد

سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال فنادانى ملك الجبال وسلم على ثم قال يامحمد إن الله قدسمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك اليك لتأمرنى بأمرك فما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين فقال رسول الله ﷺ « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لايشرك به شيئاً » وهذا لفظ مسلم فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لايشرك به شيئاً فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى فى هذه الآية الكريمة (قل لو أن عندى ماتستعجلون به لقضى الأمر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين) فالجواب والله أعلم أن هذه الآية دلت على أنه لوكان اليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم بل عرض عليه ملك الجبال انه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم . وقوله تعالى (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو) قال البخارى حدثنا عبدالعزيز بن عبدالله حدثنا إبراهيم بن سعد عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مفاتح الغيب خمس لايعلمهن إلا الله » (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام ، وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وماتدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير) وفى حديث عمر أن جبريل حين تبدى له فى صورة أعرابى فسأل عن الإيمان والاسلام والاحسان فقال له النبى ﷺ فيما قال له « خمس لايعلمهن إلا الله » ثم قرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية . وقوله (ويعلم مافى البر والبحر) أى محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لايخفى عليه من ذلك شىء ولامثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وما أحسن ماقال الصرصرى :

فلا يخفى عليه الذر إما * تراءى للنواظر أو توارى

وقوله (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن سعيد بن مسروق حدثنا حسان النمرى عن ابن عباس فى قوله (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) قال مامن شجرة فى بر ولا بحر إلا وملك موكل بها يكتب مايسقط منها رواه ابن أبى حاتم وقوله (ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) قال ابن أبى حاتم حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المسور الزهرى حدثنا مالك بن سعير حدثنا الأعمش عن يزيد بن أبى زياد عن عبدالله بن الحارث قال مافى الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتى الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست وكذا رواه ابن جرير عن أبى الخطاب زياد بن عبد الله الحسانى عن مالك بن سعير به . ثم قال ابن أبى حاتم ذكر عن أبى حذيفة حدثنا سفيان عن عمرو بن قيس عن رجل عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خلق الله النون وهى الدواة وخلق الألواح فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضى ما كان من خلق مخلوق أورزق حلال أوحرام أوعمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية (وماتسقط من ورقة إلا يعلمها) إلى آخر الآية قال محمد بن إسحق عن يحيى بن النضر عن أبيه سمعت عبد الله بن عمرو ابن العاص يقول إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن مالوا أنهم ظهروا يعنى لكم لم تروا معهم نورا على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله عز وجل على كل خاتم ملك من الملائكة يبعث الله عز وجل اليه فى كل يوم ملكا من عنده أن احتفظ بما عندك .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّـٰكُم بِالَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا إِلَى اللَّهِ مَوْلَـٰهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَـٰسِبِينَ ﴾

يقول تعالى إنه يتوفى عباده فى منامهم بالليل وهذا هو التوفى الأصغر كما قال تعالى (إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى) وقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فذكر فى هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر فى هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه فى ليلهم ونهارهم فى حال سكونهم وحال حركتهم كما قال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وكما قال تعالى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أى فى الليل (ولتبتغوا من فضله) أى فى النهار كما قال (وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً) ولهذا قال تعالى هاهنا (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار) أى ما كسبتم من الأعمال فيه (ثم يبعثكم فيه) أى فى النهار قاله مجاهد وقتادة والسدى ، وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير أى فى المنام والأول أظهر وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ويرد اليه فإن أذن الله فى قبض روحه قبضه وإلا رد اليه » فذلك قوله (وهو الذى يتوفاكم بالليل)

وقوله (ليقضى أجل مسمى) يعنى به أجل كل واحد من الناس (ثم إليه مرجعكم) أى يوم القيامة (ثم ينبئكم) أى فيخبركم (بما كنتم تعملون) أى ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر وقوله (وهو القاهر فوق عباده) أى وهو الذى قهر كل شىء وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شىء (ويرسل عليكم حفظة) أى من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وحفظة يحفظون عمله ويحصونه كقوله (وإن عليكم لحافظين) الآية وكقوله (عن اليمين وعن الشمال قعيد * مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله (إذ يتلقى المتلقيان) الآية وقوله (حتى إذا جاء أحدكم الموت) أى احتضر وحان أجله (توفته رسلنا) أى ملائكة موكلون بذلك قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم ، وسيأتى عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الأحاديث المتعلقة بذلك الشاهدة لهذا المروى عن ابن عباس وغيره بالصحة ، وقوله (وهم لايفرطون) أى فى حفظ روح المتوفى بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل إن كان من الأبرار ففى عليين وإن كان من الفجار ففى سجين عياذا بالله من ذلك وقوله (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) قال ابن جرير (ثم ردوا) يعنى الملائكة (إلى الله مولاهم الحق) ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا حسين بن محمد حدثنا ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ، اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فلا تزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقال فلان فيقال لامرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فانه لايفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ماقيل فى الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ماقيل فى الحديث الثانى » هذا حديث غريب ويحتمل أن يكون المراد بقوله (ثم ردوا) يعنى الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله كما قال (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) وقال (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) إلى قوله (ولا يظلم ربك أحداً) ولهذا قال (مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين)

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عباده فى إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أى الحائرين الواقعين فى المهامه البرية وفى اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) الآية وقوله (هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) الآية وقوله (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) وقال فى هذه الآية الكريمة (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية) أى جهرا وسرا (لئن أنجانا) أى من هذه الضائقة (لنكونن من الشاكرين) أى بعدها قال الله (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم) أى بعد ذلك (تشركون) أى تدعون معه فى حال الرفاهية آلهة أخرى وقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) لما قال ثم أنتم تشركون عقبه بقوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا) أى بعد إنجائه إياكم كقوله فى سورة سبحان (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) قال ابن أبى حاتم ذكر عن مسلم بن إبراهيم حدثنا هارون الأعور عن جعفر بن سليمان عن الحسن فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال هذه للمشركين . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) لأمة محمد ﷺ وعفى عنهم ، ونذكر هنا الأحاديث الواردة فى ذلك والآثار وبالله المستعان وعليه التكلان وبه الثقة

قال البخارى رحمه الله تعالى فى قوله تعالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) يلبسكم يخلطكم من الالتباس يلبسوا يخلطوا شيعا فرقا حدثنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بوجهك » (أو من تحت أرجلكم) قال « أعوذ بوجهك » (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) قال رسول الله ﷺ « هذه أهون ـ أو ـ أيسر » وهكذا رواه أيضا فى كتاب التوحيد عن قتيبة عن حماد به ، ورواه النسائى أيضا فى التفسير عن قتيبة ومحمد بن النضر ابن مساور ويحيى بن حبيب بن عدى أربعتهم عن حماد بن زيد به ، وقد رواه الحميدى فى مسنده عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار سمع جابرا عن النبى صلى الله عليه وسلم به . ورواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى الموصلى عن أبى خيثمة عن سفيان بن عيينة به ، ورواه ابن جرير فى تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشى وسعيد بن الربيع وسفيان بن وكيع كلهم عن سفيان بن عيينة به . ورواه أبو بكر بن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد وعاصم ابن على عن سفيان بن عيينة به ورواه سعيد بن منصور عن حماد بن زيد وسفيان بن عيينة كلاهما عن عمرو بن دينار به

(طريق آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا مقدام بن داود حدثنا عبد الله ابن يوسف حدثنا عبد الله بن لهيعة عن خالد بن يزيد عن أبى الزبير عن جابر قال لما نزلت (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) قال رسول الله ﷺ « أعوذ بالله من ذلك » (أو من تحت أرجلكم) قال رسول الله ﷺ «أعوذ بالله من ذلك» (أو يلبسكم شيعا) قال «هذا أيسر» ولو استعاذه لأعاذه . ويتعلق بهذه الآية أحاديث كثيرة (أحدها) قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر يعنى ابن أبى مريم عن راشد هو ابن سعد المقرائى عن سعد بن أبى وقاص قال سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) فقال «أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» وأخرجه الترمذى عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش عن أبى بكر بن أبى مريم به ثم قال هذا حديث غريب .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يعلى هو ابن عبيد حدثنا عثمان بن حكيم عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بنى معاوية فدخل فصلى ركعتين فصلينا معه فناجى ربه عز وجل طويلا ثم قال « سألت ربى ثلاثا سألته أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتى بالسنة فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » انفرد بإخراجه مسلم فرواه فى كتاب الفتن عن أبى بكر بن أبى شيبة عن محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن عبد الله بن نمير وعن محمد بن يحيى بن أبى عمرو عن مروان بن معاوية كلاهما عن عثمان بن حكيم به (حديث آخر) قال الإمام أحمد قرأت على عبد الرحمن بن مهدى عن مالك عن عبد الله بن عبد الله ابن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك أنه قال جاءنا عبد الله بن عمر فى حرة بنى معاوية — قرية من قرى الأنصار — فقال لى هل تدرى أين صلى رسول الله ﷺ فى مسجدكم هذا ؟ فقلت نعم فأشرت إلى ناحية منه فقال هل تدرى ما الثلاث التى دعاهن فيه ؟ فقلت نعم فقال أخبرنى بهن فقلت دعا أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيهما . ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها ، قال صدقت فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة . ليس هو فى شىء من الكتب الستة وإسناده جيد قوى ولله الحمد والمنة

(حديث آخر) قال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد عن عبادة بن حنيف عن على بن عبد الرحمن أخبرنى حذيفة بن اليمان قال خرجت مع رسول الله ﷺ إلى حرة بنى معاوية قال فصلى ثمانى ركعات فأطال فيهن ثم التفت إلى فقال « حبستك يا حذيفة » قلت الله ورسوله أعلم قال « إنى سألت الله ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألته أن لا يسلط على أمتى عدوا من غيرهم فأعطانى وسألته أن لا يهلكهم بغرق فأعطانى وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنى» رواه ابن مردويه من حديث محمد بن إسحق ، (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبيدة ابن حميد حدثنى سليمان بن الأعمش عن رجاء الأنصارى عن عبد الله بن شداد عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال أتيت رسول الله ﷺ فقيل لى خرج قبل ، قال فجعلت لا أمر بأحد إلا قال مر قبل ، حتى مررت فوجدته قائما يصلى قال فجئت حتى قمت خلفه قال : فأطال الصلاة فلما قضى صلاته قلت يا رسول الله قد صليت صلاة طويلة فقال رسول الله ﷺ « إنى صليت صلاة رغبة ورهبة إنى سألت الله عز وجل ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتى غرقا فأعطانى وسألته أن لا يظهر عليهم عدوا ليس منهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فردها على » ورواه ابن ماجه فى الفتن عن محمد بن عبد الله بن نمير وعلى بن محمد كلاهما عن أبى معاوية عن الأعمش به ورواه ابن مردويه من حديث أبى عوانة عن عبد الله بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ بن جبل عن النبى ﷺ بمثله أو نحوه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هارون بن معروف حدثنا عبد الله بن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن بكير بن الأشج أن الضحاك بن عبد الله القرشى حدثه عن أنس بن مالك أنه قال رأيت رسول الله ﷺ فى سفر صلى سبحة الضحى ثمانى ركعات فلما انصرف قال «إنى صليت صلاة رغبة ورهبة وسألت ربى ثلاثا فأعطانى

اثنتين ومنعنى واحدة سألته أن لايبتلى أمتى بالسنين ففعل وسألته أن لا يظهر عليهم عدوهم ففعل، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً فأبى على » ورواه النسائى فى الصلاة عن محمد بن سلمة عن ابن وهب به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب بن أبى حمزة قال: قال الزهرى حدثنى عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن خباب عن أبيه خباب بن الأرت مولى بنى زهرة وكان قد شهد بدرا مع رسول الله ﷺ أنه قال وافيت رسول الله ﷺ فى ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله ﷺ من صلاته فقلت يارسول الله لقد صليت الليلة صلاة مارأيتك صليت مثلها فقال رسول الله ﷺ « أجل إنها صلاة رغب ورهب سألت ربى عز وجل فيها ثلاث خصال فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت ربى عز وجل أن لايهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها وسألت ربى عز وجل أن لايظهر علينا عدوا من غيرنا فأعطانيها وسألت ربى عز وجل أن لايلبسنا شيعاً فمنعنيها » ورواه النسائى من حديث شعيب ابن أبى حمزة به . ومن وجه آخر وابن حبان فى صحيحه بإسنادهما عن صالح بن كيسان والترمذى فى الفتن من حديث النعمان بن راشد كلاهما عن الزهرى به وقال حسن صحيح . (حديث آخر) قال أبو جعفر بن جرير فى تفسيره حدثنى زياد بن عبد الله المزنى حدثنا مروان بن معاوية الفزارى حدثنا أبومالك حدثنى نافع بن خالد الخزاعى عن أبيه أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود فقال «قد كانت صلاة رغبة ورهبة ،سألت الله عز وجل فيها ثلاثا أعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت الله أن لايصيبكم بعذاب أصاب به من كان قبلكم فأعطانيها وسألت الله أن لايسلط عليكم عدوا يستبيح بيضتكم فأعطانيها وسألت الله أن لايلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها » قال أبومالك فقلت له أبوك سمع هذا من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال نعم سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق قال : قال معمر أخبرنى أيوب عن أبى قلابة عن الأشعث الصنعانى عن أبى أسماء الرحبى عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله زوى لى الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وان ملك أمتى سيبلغ مازوى لى منها وإنى أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر وإنى سألت ربى عز وجل أن لا يهلك أمتى بسنة عامة وأن لايسلط عليهم عدوا فيهلكهم بعامة وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فقال يامحمد إنى إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإنى قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لاأسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضا وبعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبى بعضاً »قال: وقال النبى ﷺ « إنى لاأخاف على أمتى إلا الأئمة المضلين فإذا وضع السيف فى أمتى لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » ليس فى شىء من الكتب الستة وإسناده جيد قوى وقد رواه ابن مردويه من حديث حماد بن زيد وعباد بن منصور وقتادة ثلاثتهم عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان عن رسول الله ﷺ بنحوه والله أعلم

(حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبدالله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمى وميمون بن إسحق بن الحسن الحنفى قالا حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا محمد بن فضيل عن أبى مالك الأشجعى عن نافع بن خالد الخزاعى عن أبيه قال وكان أبوه من أصحاب رسول الله ﷺ وكان من أصحاب الشجرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى والناس حوله صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود قال فجلس يوما فأطال الجلوس حتى أومأ بعضنا الى بعض ان اسكتوا إنه ينزل عليه فلما فرغ قال له بعض القوم يارسول الله لقد أطلت الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض انه ينزل عليك قال« لا ولكنها كانت صلاة رغبة ورهبة سألت الله فيها ثلاثا فأعطانى اثنتين ومنعنى واحدة سألت الله أن لا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم فأعطانيها وسألت الله أن لا يسلط على أمتي عدوا يستبيحها فأعطانيها وسألته أن لايلبسكم شيعاً وأن لايذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها » قال قلت له أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال نعم سمعته يقول إنه سمعها من رسول الله ﷺ عدد أصابعى هذه عشر أصابع

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس هو ابن محمد المؤدب حدثنا ليث هو ابن سعد عن أبى وهب الخولانى

عن رجل قد سماه عن أبي بصرة الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله ﷺ قال « سألت ربي عز وجل أربعاً فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة سألت الله أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألت الله أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم فأعطانيها وسألت الله عز وجل أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

(حديث آخر) قال الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا أبو حذيفة الثعلبي عن زياد بن علاقة عن جابر بن سمرة السوائي عن علي أن رسول الله ﷺ قال « سألت ربي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة فقلت يارب لا تهلك أمتي جوعا فقال هذه لك قلت يارب لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم يعني أهل الشرك فيجتاحهم قال ذلك لك قلت يارب لا تجعل بأسهم بينهم - قال - فمنعني هذه ». (حديث آخر) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم عن أحمد بن محمد بن عاصم . حدثنا أبو الدرداء المروزي حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان حدثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « دعوت ربي عز وجل أن يرفع عن أمتي أربعاً فرفع الله عنهم ثنتين وأبى علي أن يرفع عنهم ثنتين ، دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع اثنتين القتل والهرج» . (طريق أخرى) عن ابن عباس أيضا قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن يزيد حدثني الوليد بن أبان حدثنا جعفر بن منير حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد حدثنا عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال: فقام النبي ﷺ فتوضأ ثم قال « اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ولا تلبسهم شيعاً ولا تذق بعضهم بأس بعض » قال فأتاه جبريل فقال يا محمد إن الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم . (حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى حدثنا أحمد بن محمد بن يحيي بن سعيد حدثنا عمرو بن محمد العنقزي حدثنا أسباط عن السدي عن أبي المنهال عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « سألت ربي لأمتي أربع خصال فأعطاني ثلاثا ومنعني واحدة سألته أن لا تكفر أمتي صفقة واحدة فأعطانيها وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم فأعطانيها وسألته أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد بن يحيي بن سعيد القطان عن عمرو بن محمد العنقزي به نحوه

(طريق أخرى) وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن يحيي حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذئاب سمع أبا هريرة يقول قال النبي ﷺ « سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم فأعطاني وسألته أن لا يهلكهم بالسنين فأعطاني وسألته أن لا يلبسهم شيعاً وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعني » ثم رواه ابن مردويه بإسناده عن سعد بن سعيد عن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه ورواه البزار من طريق عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ بنحوه

(أثر آخر) قال سفيان الثوري عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال أربع في هذه الأمة قد مضت اثنتان وبقيت اثنتان (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال الرجم (أو من تحت أرجلكم) قال الخسف (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال سفيان يعني الرجم والخسف ، وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) قال فهي أربع خلال منها اثنتان بعد وفاة رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان لابد منهما واقعتان الرجم والخسف ، ورواه أحمد

عن وكيع عن أبى جعفر. ورواه ابن أبى حاتم وقال ابن أبى حاتم حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو الأشهب عن الحسن فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث) الآية قال حسبت عقوبتها حتى عمل ذنبها فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك والسدى وابن زيد وغير واحد فى قوله (عذابا من فوقكم) يعنى الرجم (أو من تحت أرجلكم) يعنى الخسف وهذا هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم) قال كان عبد الله بن مسعود يصيح وهو فى المسجد أو على المنبر يقول ألا أيها الناس إنه قد نزل بكم ، إن الله يقول (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحدا (أو من تحت أرجلكم) لو خسف بكم الأرض أهلككم ولم يبق منكم أحدا (أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث (قول ثان) قال ابن جرير وابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب سمعت خلاد بن سليمان يقول سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول إن ابن عباس كان يقول فى هذه الآية (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) فأئمة السوء (أو من تحت أرجلكم) فخدم السوء وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (عذابا من فوقكم) يعنى أمراءكم (أو من تحت أرجلكم) يعنى عبيدكم وسفلتكم ، وحكى ابن أبى حاتم عن أبى سنان وعمرو بن هانىء نحو ذلك . قال ابن جرير وهذا القول وإن كان له وجه صحيح لكن الأول أظهر وأقوى ، وهو كما قال ابن جرير رحمه الله ويشهد له بالصحة قوله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وفى الحديث «ليكونن فى هذه الأمة قذف وخسف ومسخ» وذلك مذكور مع نظائره فى أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة وستأتى فى موضعها إن شاء الله تعالى وقوله (أو يلبسكم شيعا) يعنى يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين . قال الوالبى عن ابن عباس يعنى الأهواء وكذا قال مجاهد وغير واحد وقد ورد فى الحديث المروى من طرق عنه ﷺ أنه قال « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة » وقوله تعالى (ويذيق بعضكم بأس بعض) قال ابن عباس وغير واحد يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل) وقوله تعالى (انظر كيف نصرف الآيات) أى نبينها ونوضحها مرة ونفسرها (لعلهم يفقهون) أى يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه . قال زيد بن أسلم لما نزلت (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم) الآية قال رسول الله ﷺ « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف » قالوا ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله قال « نعم» فقال بعضهم لا يكون هذا أبدا أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون فنزلت (انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون* وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) رواه ابن أبى حاتم وابن جرير

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى (وكذب به) أى بالقرآن الذى جئتهم به والهدى والبيان (قومك) يعنى قريشا (وهو الحق) أى الذى ليس وراءه حق (قل لست عليكم بوكيل) أى لست عليكم بحفيظ ولست بموكل بكم كقوله (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى إنما على البلاغ وعليكم السمع والطاعة فمن اتبعنى سعد فى الدنيا والآخرة ومن خالفنى فقد شقى فى الدنيا والآخرة ولهذا قال (لكل نبأ مستقر) قال ابن عباس وغير واحد أى لكل نبأ حقيقة أى لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال (ولتعلمن نبأه بعد حين) وقال (لكل أجل كتاب) وهذا تهديد ووعيد أكيد

ولهذا قال بعده (وسوف تعلمون) وقوله (وإذارأيت الذين يخوضون فى آياتنا) أى بالتكذيب والاستهزاء (فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره) أى حتى يأخذوا فى كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب (وإما ينسينك الشيطان) والمراد بذلك كل فرد فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فان جلس أحد معهم ناسيا (فلا تقعد بعد الذكرى) بعد التذكر (مع القوم الظالمين) ولهذا ورد فى الحديث «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ». وقال السدى عن أبى مالك وسعيد بن جبير فى قوله (وإما ينسينك الشيطان) قال إن نسيت فذكرت (فلا تقعد) معهم وكذا قال مقاتل بن حيان وهذه الآية هى المشار إليها فى قوله (وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم) الآية أى إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه وقوله(وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) أى إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم فى ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبدالله بن موسى عن إسرائيل عن السدى عن أبى مالك عن سعيد بن جبير قوله (وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء) قال ما عليك أن يخوضوا فى آيات الله إذا فعلت ذلك أى إذا تجنبتهم وأعرضت عنهم ، وقال آخرون بل معناه وإن جلسوا معهم فليس عليهم من حسابهم من شىء وزعموا أن هذا منسوخ بآية النساء المدنية وهى قوله (إنكم إذا مثلهم) قاله مجاهد والسدى وابن جريج وغيرهم . وعلى قولهم يكون قوله (ولكن ذكرى لعلهم يتقون) أى ولكن أمرناكم بالاعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه

﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا) أى دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فانهم صائرون إلى عذاب عظيم ولهذا قال وذكر به أى ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة وقوله تعالى (أن تبسل نفس بما كسبت) أى لئلا تبسل قال الضحاك عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن والسدى تبسل : تسلم، وقال الوالبى عن ابن عباس تفتضح. وقال قتادة تحبس وقال مرة وابن زيد تؤاخذ . وقال الكلبى تجزى وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة فى المعنى وحاصلها الإسلام للهلكة والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) وقوله (ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع) أى لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون) وقوله (وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا) الآية وكذا قال ههنا (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون)

﴿ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

قال السدى: قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عزوجل (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) أى فى الكفر (بعد إذ هدانا الله) فيكون مثلنا مثل الذى استهوته الشياطين فى الأرض يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام رواه ابن جرير ، وقال قتادة (استهوته الشياطين فى الأرض) أضلته فى الأرض يعنى استهوته سيرته كقوله (تهوى إليهم) وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا) الآية هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعوا إليها والدعاة الذين يدعون إلى هدى الله عز وجل كمثل رجل ضل عن طريق تائها إذ ناداه مناد يا فلان ابن فلان هلم إلى الطريق وله أصحاب يدعونه يافلان هلم إلى الطريق فان اتبع الداعى الأول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق وهذه الداعية التى تدعو فى البرية من الغيلان ، يقول مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه فى شىء حتى يأتيه الموت فيستقبل الندامة والهلكة وقوله (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض) هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها وهو يرى أنه فى شىء فيصبح وقدرمته فى هلكة وربما أكلته أو تلقيه فى مضلة من الأرض يهلك فيها عطشا فهذا مثل من أجاب الآلهة التى تعبد من دون الله عزوجل رواه ابن جرير وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كالذى (استهوته الشياطين فى الأرض حيران) قال رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق وذلك مثل من يضل بعد أن هدى . وقال العوفى عن ابن عباس قوله (كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب) هو الذى لا يستجيب لهدى الله وهو رجل أطاع الشيطان وعمل فى الأرض بالمعصية وحاد عن الحق وضل عنه وله أصحاب يدعونه إلى الهدى ويزعمون أن الذى يأمرونه به هدى يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس (إن الهدى هدى الله) والضلال ما يدعو إليه الجن رواه ابن جرير ثم قال وهذا يقتضى أن أصحابه يدعونه إلى الضلال ويزعمون أنه هدى قال وهذا خلاف ظاهر الآية فان الله أخبر أنهم يدعونه إلى الهدى فغير جائز أن يكون ضلالا وقد أخبر الله أنه هدى وهو كما قال ابن جرير فان السياق يقتضى أن هذا الذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران وهو منصوب على الحال أى فى حال حيرته وضلاله وجهله وجه المحجة وله أصحاب على المحجة سائرون فجعلوا يدعونه إليهم وإلى الذهاب معهم على الطريقة المثلى وتقدير الكلام فيأبى عليهم ولا يلتفت إليهم ولو شاء الله لهداه ولرد به إلى الطريق ولهذا قال (قل هدى الله هو الهدى) كما قال (ومن يهد الله فما له من مضل) وقال (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين) وقوله (وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى نخلص له العبادة وحده لا شريك له (وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال (وهو الذى إليه تحشرون) أى يوم القيامة (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) أى بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما وقوله (ويوم يقول كن فيكون) يعنى يوم القيامة الذى يقول الله كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب ، ويوم منصوب إما على العطف على قوله واتقوه وتقديره واتقوا يوم يقول كن فيكون وإما على قوله (خلق السموات والأرض) أى وخلق يوم يقول كن فيكون فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره واذكر يوم يقول كن فيكون وقوله (قوله الحق وله الملك) جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين ، وقوله (يوم ينفخ فى الصور) يحتمل أن يكون بدلا من قوله (ويوم يقول كن فيكون يوم ينفخ فى الصور) ويحتمل أن يكون ظرفا لقوله (وله الملك يوم ينفخ فى الصور) كقوله (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار)

كقوله (الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا) وما أشبه ذلك ، واختلف المفسرون فى قوله (يوم ينفخ فى الصور) فقال بعضهم المراد بالصور هنا جمع صورة أى يوم ينفخ فيها فتحيا . قال ابن جرير كما يقال: سور لسور البلد وهو جمع سورة والصحيح أن المراد بالصور القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام قال ابن جرير والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » رواه مسلم فى صحيحه، وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان التيمى عن أسلم العجلى عن بشر بن شغاف عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابى يا رسول الله ما الصور ؟ قال «قرن ينفخ فيه »

وقد روينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى فى كتابه المطولات قال حدثنا أحمد بن الحسن المقرى الأبلى حدثنا أبو عاصم النبيل حدثنا إسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو فى طائفة من أصحابه فقال «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر » قلت يا رسول الله وما الصور قال « القرن» قلت كيف هو ؟ قال « عظيم والذى بعثنى بالحق إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ينفخ فيه ثلاث نفخات النفخة الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام لرب العالمين يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول انفخ فينفخ نفخة الفزع فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ويأمره فيطيلها ويديمها ولا يفتر وهى كقول الله (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق) فيسير الجبال فتمر مر السحاب فتكون سرابا ثم ترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة المرمية فى البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق فى العرش ترجرجه الرياح وهو الذى يقول (يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة) فيميد الناس على ظهرها وتذهل المراضع وتضع الحوامل وتشيب الولدان وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الأقطار فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين ما لهم من أمن الله من عاصم ينادى بعضهم بعضا وهو الذى يقول الله تعالى (يوم التناد) فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر فرأوا أمرا عظيما لم يروا مثله وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ثم انشقت السماء فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها » قال رسول الله ﷺ « الأموات لا يعلمون بشىء من ذلك » قال أبو هريرة يا رسول الله من استثنى الله عز وجل حين يقول (ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) ؟ قال « أولئك الشهداء » وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه — قال — وهو الذى يقول الله عز وجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب شديد) فيقومون فى ذلك العذاب ما شاء الله إلا أنه يطول ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله فإذا هم قد خمدوا وجاء ملك الموت إلى الجبار عز وجل فيقول يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت فيقول الله وهو أعلم بمن بقى فمن بقى ؟ فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت حملة العرش وبقى جبريل وميكائيل وبقيت أنا فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل فينطق الله العرش فيقول يا رب يموت جبريل وميكائيل،فيقول اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى فيموتان ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول يا رب قد مات جبريل وميكائيل فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت حملة عرشك وبقيت أنا فيقول الله لتمت حملة العرش فتموت ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتى ملك الموت فيقول يا رب قد مات حملة عرشك فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول يا رب بقيت أنت الحى الذى لا تموت وبقيت أنا فيقول الله أنت خلق من خلق خلقتك لما رأيت فمت فيموت

فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولا طوى السموات والأرض طى السجل للكتب ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث مرات ثم يقول أنا الجبار أنا الجبار أنا الجبار ثلاثا ثم هتف بصوته (لمن الملك اليوم) ثلاث مرات فلا يجيبه أحد ثم يقول لنفسه (لله الواحد القهار) يقول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فيبسطهما ويسطحهما ثم يمدهما مد الأديم العكاظى (لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً) ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم فى هذه الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى من كان فى بطنها كان فى بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ثم ينزل الله عليهم ماء من تحت العرش ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً حتى يكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعا ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث أو كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت قال الله عز وجل ليحى حملة عرشى فيحيون ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول ليحى جبريل وميكائيل فيحييان ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقبضها جميعاً ثم يلقيها فى الصور ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول وعزتى وجلالى ليرجعن كل روح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فتدخل فى الخياشيم ثم تمشى فى الأجساد كما يمشى السم فى اللديغ ثم تنشق الأرض عنهم وأنا أول من تنشق الأرض عنه فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون (مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) حفاة عراة غرلا فتقفون موقفا واحدا مقداره سبعون عاما لا ينظر إليكم ولا يقضى بينكم فتبكون حتى تنقطع الدموع ثم تدمعون دما وتعرقون حتى يلجمكم العرق أو يبلغ الأذقان وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا فتقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه فيأبى ويقول ما أنا بصاحب ذلك فيستقرئون الأنبياء نبيا نبيا كلما جاءوا نبيا أبى عليهم - قال رسول الله ﷺ - حتى يأتونى فأنطلق إلى الفحص فأخر ساجدا - قال أبو هريرة يارسول الله وما الفحص ؟ قال - قدام العرش حتى يبعث الله إلىّ ملكا فيأخذ بعضدى ويرفعنى فيقول لى يامحمد فأقول نعم يارب ، فيقول الله عز وجل ماشأنك وهو أعلم - فأقول يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى خلقك فاقض بينهم قال الله قد شفعتك أنا آتيكم أقضى بينكم - قال رسول الله ﷺ - فأرجع فأقف مع الناس فبينا نحن وقوف إذ سمعنا من السماء حسا شديداً فهالنا فينزل أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم أفيكم ربنا ؟ قالوا لا وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثلى من نزل من الملائكة وبمثلى من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم وأخذوا مصافهم وقلنا لهم أفيكم ربنا؟ فيقولون لا . وهو آت ، ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة فيحمل عرشه يومئذ ثمانيه - وهم اليوم أربعة - أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى ، والأرض والسموات إلى حجزهم والعرش على مناكبهم لهم زجل فى تسبيحهم يقولون سبحان ذى العرش والجبروت سبحان ذى الملك والملكوت سبحان الحى الذى لا يموت سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت سبوح قدوس قدوس قدوس سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ثم يهتف بصوته فيقول يامعشر الجن والإنس إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأبصر أعمالكم فانصتوا إلى فإنما هى أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التى كنتم توعدون) أو - بها تكذبون - شك أبو عاصم (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) فيميز الله الناس وتجثو الأمم . يقول الله تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون) فيقضى الله عز وجل بين خلقه إلا الثقلين الجن

والإنس فيقضى بين الوحوش والبهائم حتى إنه ليقضى للجماء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبعة عند واحدة للأخرى قال الله لها كونى ترابا فعند ذلك يقول الكافر (ياليتنى كنت ترابا) ثم يقضى الله بين العباد فكان أول مايقضى فيه الدماء ويأتى كل قتيل فى سبيل الله ويأمر الله عز وجل كل من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه فيقول يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول ـ وهو أعلم ـ فيم قتلتهم ؟ فيقول قتلتهم لتكون العزة لك فيقول الله له صدقت فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ثم تمر به الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه فيقول يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول ـ وهو أعلم ـ لم قتلتهم ؟ فيقول يارب قتلتهم لتكون العزة لى فيقول تعست ، ثم لاتبقى نفس قتلها إلا قتل بها ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها ، وكان فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء رحمه ، ثم يقضى الله تعالى بين من بقى من خلقه حتى لاتبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء ، فإذا فرغ الله من ذلك نادى مناد يسمع الخلائق كلهم . ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى بن مريم . ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذى يقول (لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) فاذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون جاءهم الله فيما شاء من هيئته فقال يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون فيقولون والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره فينصرف عنهم وهو الله الذى يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره فيكشف لهم عن ساقه ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم فيخرون للأذقان سجدا على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ويجعل الله أصلابهم كصياصى البقر ، ثم يأذن الله لهم فيرفعون ويضرب الله الصراط بين ظهرانى جهنم كحد الشفرة أو كحد السيف عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان دونه جسر دحض مزلة فيمرون كطرف العين أو كلمح البرق أو كمر الريح أو كجياد الخيل أو كجياد الركاب أو كجياد الرجال فناج سالم وناج مخدوش ومكردس على وجهه فى جهنم ، فاذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة قالوا من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا فيأتون آدم فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ولكن عليكم بنوح فإنه أول رسل الله فيؤتى نوح فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم بإبراهيم فإن الله اتخذه خليلا ، فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول ما أنا بصاحب ذلك ويقول عليكم بموسى فإن الله قربه نجيا وكلمه وأنزل عليه التوراة . فيؤتى موسى فيطلب ذلك اليه فيذكر ذنبا ويقول لست بصاحب ذلك ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم ، فيؤتى عيسى بن مريم فيطلب ذلك اليه فيقول ما أنا بصاحبكم ولكن عليكم بمحمد » قال رسول الله ﷺ « فيأتونى ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن فأنطلق فآتى الجنة فآخذ بحلقة الباب فأستفتح فيفتح لى فأحيا ويرحب بى فإذا دخلت الجنة فنظرت الى ربى خررت ساجدا فيأذن الله لى من تحميده وتمجيده بشىء ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول ارفع رأسك يامحمد واشفع تشفع وسل تعطه فإذا رفعت رأسى يقول الله ـ وهو أعلم ـ ما شأنك ؟ فأقول يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنى فى أهل الجنة فيدخلون الجنة فيقول الله قد شفعتك وقد أذنت لهم فى دخول الجنة » وكان رسول الله ﷺ يقول « والذى نفسى بيده ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة سبعين مما ينشىء الله عزوجل وثنتين آدميتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما الله فى الدنيا فيدخل على الأولى فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ عليها سبعون زوجا من سندس وإستبرق ثم انه يضع يده بين كتفيها ثم ينظر الى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وانه لينظر الى مخ ساقها كما ينظر أحدكم الى السلك فى قصبة الياقوت

كبدها له مرآة وكبده لها مرآة . فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره وما تشتكي قبلها ، فبينا هو كذلك إذ نودى إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أنه لا منى ولا منية إلا أن لك أزواجا غيرها فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما أتى واحدة قالت له والله ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك ولا فى الجنة شيء أحب إلى منك . وإذا وقع أهل النار فى النار وقع فيها خلق من خلق ربك أو بقتهم أعمالهم فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ومنهم من تأخذه إلى حقويه ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه حرم الله صورته عليها » قال رسول الله ﷺ « فأقول يارب شفعنى فيمن وقع فى النار من أمتى فيقول أخرجوا من عرفتم فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يأذن الله فى الشفاعة فلا يبقى نبى ولا شهيد إلا شفع فيقول الله أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار إيمانا فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ثم يشفع الله فيقول أخرجوا من وجدتم فى قلبه إيمانا ثلثى دينار ثم يقول ثلث دينار ثم يقول ربع دينار ثم يقول قيراطا ثم يقول حبة من خردل فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد وحتى لا يبقى فى النار من عمل لله خيراً قط ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع حتى إن إبليس يتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له . ثم يقول بقيت وأنا أرحم الراحمين فيدخل يده فى جهنم فيخرج منها مالا يحصيه غيره كأنهم حمم فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل فما يلى الشمس منها أخيضر وما يلى الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث حتى يكونوا أمثال الذر مكتوب فى رقابهم الجهنميون عتقاء الرحمن يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ما عملوا خيراً لله قط فيمكثون فى الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم ثم يقولون ربنا امح عنا هذا الكتاب فيمحوه الله عز وجل عنهم »

ثم ذكره بطوله ثم قال هذا حديث مشهور وهو غريب جدا ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة وفى بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاضى أهل المدينة وقد اختلف فيه فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى وعمرو بن على الفلاس ومنهم من قال فيه هو متروك وقال ابن عدى أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء ، قلت وقد اختلف عليه فى إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها فى جزء على حدة وأما سياقه فغريب جداً ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقا واحدا فأنكر عليه بسبب ذلك وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفا قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فالله أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ * فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما كان اسمه تارخ رواه ابن أبى حاتم وقال أيضا حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم النبيل حدثنا أبى حدثنا أبو عاصم شبيب حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قوله (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) يعنى بآزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه تارخ وأمه اسمها شانى وامرأته اسمها سارة وأم إسماعيل اسمها هاجر وهى سرية إبراهيم وهكذا قال غير واحد من علماء النسب أن اسمه تارخ وقال مجاهد والسدى آزر اسم صنم قلت كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم فالله أعلم ، وقال ابن جرير وقال آخرون هو سب وعيب بكلامهم ومعناه

معوج ولم يسنده ولا حكاه عن أحد. وقد قال ابن أبي حاتم ذكر عن معتمر بن سليمان سمعت أبي يقرأ (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) قال بلغني أنها أعوج وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم عليه السلام ثم قال ابن جرير والصواب أن اسم أبيه آزر ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارخ ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان كما لكثير من الناس أو يكون أحدهما لقبا وهذا الذي قاله جيد قوي والله أعلم ، واختلف القراء في أداء قوله تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة) معناه يا آزر أتتخذ أصناما آلهة ، وقرأ الجمهور بالفتح إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف وهو بدل من قوله لأبيه أو عطف بيان وهو أشبه وعلى قول من جعله نعتا لا ينصرف أيضاً كأحمر وأسود فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولا لقوله (أتتخذ أصناما) تقديره يا أبت أتتخذ آزر أصناما آلهة فانه قول بعيد في اللغة فان ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله لأن له صدر الكلام كذا قرره ابن جرير وغيره وهو مشهور في قواعد العربية والمقصود أن إبراهيم وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه فلم ينته كما قال (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟) أي أتتأله لصنم تعبده من دون الله (إني أراك وقومك)أي السالكين مسلكك (في ضلال مبين) أي تائهين لا يهتدون أين يسلكون بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم . وقال تعالى (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا * يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا * يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته فلما مات على الشرك وتبين لإبراهيم ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه كما قال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وثبت في الصحيح أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر يا بني اليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم أي رب ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال يا ابراهيم انظر ما وراءك فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار وقوله (وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والأرض) أي نبين له وجه الدلالة في نظره الى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه وأنه لا إله غيره ولا رب سواه كقوله (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) وقوله (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) وأما ما حكاه ابن جرير وغيره عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم قالوا واللفظ لمجاهد فرجت له السموات فنظر الى مافيهن حتى انتهى بصره الى العرش وفرجت له الأرضون السبع فنظر الى ما فيهن وزاد غيره فجعل ينظر الى العباد على المعاصي ويدعو عليهم فقال الله له اني أرحم بعبادي منك لعلهم أن يتوبوا أو يرجعوا . وروى ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين عن معاذ وعلي ولكن لا يصح إسنادها والله أعلم وروى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) فانه تعالى جلا له الأمر سره وعلانيته فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله إنك لا تستطيع هذا فرده كما كان قبل ذلك فيحتمل أن يكون كشف له عن بصره حتى رأى ذلك عيانا ويحتمل أن يكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة والدلالات القاطعة كما رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام « أتاني ربي في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ فقلت لا أدري يا رب ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك » وذكر الحديث . وقوله (وليكون من الموقنين)قيل

الواو زائدة تقديره وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين كقوله (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وقيل بل هي على بابها أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً وقوله تعالى (فلما جن عليه الليل) أي تغشاه وستره (رأى كوكباً) أي نجماً (قال هذا ربي فلما أفل) أي غاب قال محمد بن إسحق بن يسار الأفول: الذهاب، وقال ابن جرير يقال أفل النجم يأفل ويأفل أفولا وأفلا إذا غاب ومنه قول ذي الرمة :

مصابيح ليست باللواتي تقودها ❊ دياج[1] ولا بالآفلات الزوائل[2]

ويقال أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا : قال (لا أحب الآفلين) قال قتادة علم أن ربه دائم لا يزول فلما رأى القمر بازغاً) أي طالعاً (قال هذا ربي فلما أفل قال) لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ❊ (فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي) أي هذا النير الطالع ربي (هذا أكبر) أي جرما من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة (فلما أفلت) أي غابت (قال ياقوم إني بريء مما تشركون ❊ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي (للذي فطر السموات والأرض) أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق (حنيفاً) أي في حال كوني حنيفا أي مائلا عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال (وما أنا من المشركين) وقد اختلف المفسرون في هـذا المقام هل هو مقام نظر أو مناظرة فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر واختاره ابن جرير مستدلا بقوله (لئن لم يهدني ربي) الآية وقال محمد بن إسحق قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه فأمر بقتل الغلمان عامئـذ فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ذهبت به إلى سرب ظاهر البلد فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك وذكر أشـياء من خوارق العادات كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهيا كل والأصـنام فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضـية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسـلون اليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغـير ذلك مما يحتاجون اليه . وبين في هـذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهيا كل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشـترى وزحل وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة فبين أولا صلوات الله وسـلامه عليه أن هـذه الزهرة لا تصلح للالهية فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفاً بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة وهي تطلع من المشرق ثم تسـير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ثم تبدو في الليلة القابلة على هـذا المنوال ومثل هـذه لا تصلح للالهية ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم ثم انتقل إلى الشمس كذلك فلما انتفت الالهية عن هـذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليـل القاطع (قال ياقوم إني بريء مما تشركون) أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن فان كانت آلهة فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون (إني وجهت وجهي للذي فطر السـموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه كما قال تعالى (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ❊ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) الآيات وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ❊ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ❊ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ❊ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (قل

(١) في المكية نجوم (٢) وفيها أيضا الدوالك .

إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « كل مولود يولد على الفطرة » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال « قال الله إنى خلقت عبادى حنفاء » وقال الله فى كتابه العزيز (فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وقال تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى) ومعناه على أحد القولين كقوله (فطرت الله التى فطر الناس عليها) كما سيأتى بيانه . فاذا كان هذا فى حق سائر الخليقة فكيف يكون إبراهيم الخليل الذى جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ناظرا فى هذا المقام بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب ومما يؤيد أنه كان فى هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا قوله تعالى

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب اليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال (أتحاجونى فى الله وقد هدان) أى تجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرنى وهدانى إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة وقوله (ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً) أى ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم اليه أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدونى بها ولا تنظرون بل عاجلونى بذلك . وقوله تعالى (إلا أن يشاء ربى شيئا) استثناء منقطع أى لا يضر ولا ينفع إلا الله عزوجل (وسع ربى كل شىء علماً) أى أحاط علمه بجميع الأشياء فلا تخفى عليه خافية (أفلا تتذكرون) أى فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبى الله هود عليه السلام على قومه عاد فيما قص عنهم فى كتابه حيث يقول (قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها) الآية وقوله (وكيف أخاف ما أشركتم) أى كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً) قال ابن عباس وغير واحد من السلف أى حجة وهذا كقوله تعالى (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله) وقوله تعالى (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) وقوله (فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) أى فأى طائفتين أصوب الذى عبد من بيده الضر والنفع أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لاشريك له قال الله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أى هؤلاء الذى أخلصوا العبادة لله وحده لاشريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون فى الدنيا والآخرة

قال البخارى حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال أصحابه وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت (إن الشرك لظلم عظيم) وقال الإمام أحمد

حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على الناس فقالوا يا رسول الله أينا لا يظلم نفسه ؟ قال «إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك»

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع وابن إدريس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبدالله قال لما نزلت (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ قالوا وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله ﷺ «ليس كما تظنون إنما قال لابنه (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)» وحدثنا عمر بن تغلب النمرى حدثنا أبوأحمدحدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فنزلت (إن الشرك لظلم عظيم) رواه البخارى وفى لفظ قالوا أينا لم يظلم نفسه فقال النبى ﷺ «ليس بالذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (إن الشرك لظلم عظيم) إنما هو الشرك» ولابن أبى حاتم عن عبد الله مرفوعا قال (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال «بشرك» قال وروى عن أبى بكر الصديق وعمر وأبى بن كعب وسلمان وحذيفة وابن عباس وابن عمر وعمرو بن شرحبيل وأبى عبد الرحمن السلمى ومجاهد وعكرمة والنخعى والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد نحو ذلك ، وقال ابن مردويه حدثنا الشافعى حدثنامحمدبن شداد المسمعى حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال لما نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) قال رسول الله ﷺ «قيل لى أنت منهم»

وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن يوسف حدثنا أبو جناب عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا فقال رسول الله ﷺ «كأن هذا الراكب إياكم يريد» فانتهى إلينا الرجل فسلم فرددنا عليه فقال له النبى صلى الله عليه وسلم «من أين أقبلت ؟» قال من أهلى وولدى وعشيرتى قال : «فأين تريد ؟» قال أريد رسول الله ﷺ قال «فقد أصبته» قال يا رسول الله علمنى ما الإيمان قال «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت» قال قد أقررت قال ثم إن بعيره دخلت يده فى جحر جرذان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات فقال رسول الله ﷺ «علىّ بالرجل» فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه فقالا : يا رسول الله قبض الرجل قال فأعرض عنهما رسول الله ﷺ ثم قال لهما رسول الله ﷺ «أما رأيتما إعراضى عن الرجل فانى رأيت ملكين يدسان فى فيه من ثمار الجنة فعلمت أنه مات جائعا» ثم قال رسول الله ﷺ «هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) الآية ، ثم قال «دونكم أخاكم» فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال «الحدوا ولا تشقوا فان اللحد لنا والشق لغيرنا» ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر عن عبد الحميد ابن جعفر الفراء عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله فذكر نحوه وقال فيه هذا ممن عمل قليلا وأجر كثيراً ،

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يوسف بن موسى القطان حدثنا مهران بن أبى عمر حدثنا على بن عبد الله عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كنا مع رسول الله ﷺ فى مسير ساره إذ عرض له أعرابى فقال يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى ومالى لأهتدى بهداك وآخذ من قولك وما بلغتك حتى مالى طعام إلا من خضر الأرض فاعرض على فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل فازدحمنا حوله فدخل خف بكره فى بيت جرذان فتردى الأعرابى فانكسرت عنقه فقال رسول الله ﷺ «صدق والذى بعثنى بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدى بهداى ويأخذ من قولى وما بلغنى حتى ماله طعام إلا من خضر الأرض أسمعتم بالذى عمل قليلا وأجر كثيراً ؟ هذا منهم . أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ؟ فان هذا منهم» وفى لفظ قال «هذا عمل قليلا وأجر كثيراً» وروى ابن مردويه من

حديث محمد بن يعلى الكوفى وكان نزل الرى حدثنازيادبن خيثمة عن أبى داود عن عبد الله بن سخبرة قال:قالرسول الله ﷺ « من أعطى فشكر ومنع فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر » وسكت قال : فقالوا يا رسول الله ماله ؟ قال (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) وقوله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) أى وجهنا حجته عليهم قال مجاهد وغيره يعنى بذلك قوله (وكيف أخاف ما شركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن) الآية وقد صدقه الله وحكى له بالأمن والهداية فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ثم قال بعد ذلك كله (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتمن نشاء) قرىء بالاضافة وبلا إضافة كما فى سورة يوسف وكلاهما قريب فى المعنى وقوله (إن ربك حكيم عليم) أى حكيم فى أقواله وأفعاله عليم أى بمن يهديه ومن يضله وان قامت عليه الحجج والبراهين كما قال (ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (ان ربك حكيم عليم)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَٰفِرِينَ * أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولدفجاءتهالملائكةوهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحق فتعجبت المرأة من ذلك وقالت (يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىءعجيب*قالواأتعجبينمنأمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلا وعقبا كما قال تعالى(وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين) وهذا أكمل فى البشارة وأعظم فى النعمة وقال (فبشرناها بإسحق ومنوراءإسحق يعقوب) أى ويولد لهذا المولود ولد فى حياتكما فتقر أعينكما بهكماقرت بوالده فإن الفرح بولد الولدشديدلبقاءالنسلوالعقبولماكان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذىفيهاشتقاق العقب والذرية وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهباً الى عبادة الله فى الأرض فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه علىدينه لتقربهم عينه كما قال تعالى(فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوبوكلا جعلنا نبيا) وقالههنا (ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا) وقوله (ونوحا هدينا من قبل) أى من قبله هديناه كما هديناهووهبنا له ذرية صالحة وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أمانوح عليه السلام فانالله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه فى السفينة جعلاللهذريته هم الباقين فالناس كلهم من ذريته ، وأما الخليلإبراهيمعليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيا إلا من ذريته كما قال تعالى (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) الآية وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحاوإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب) وقال تعالى (أولئك الذين أنعم الله عليهم من

النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) وقوله فى هذه الآية الكريمة (ومن ذريته) أى وهدينا من ذريته (داود وسليمان) الآية وعود الضمير إلى نوح لأنه أقرب المذكورين ظاهر لا إشكال فيه وهو اختيار ابن جرير . وعوده إلى إبراهيم لأنه الذى سيق الكلام من أجله حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه هاران بن آزر اللهم إلا أن يقال إنه دخل فى الذرية تغليبا كما فى قوله (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) فإسماعيل عمه دخل فى آبائه تغليبا ، وكما قال فى قوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) فدخل إبليس فى أمر الملائكة بالسجود وذم على المخالفة لأنه كان فى تشبه بهم فعومل معاملتهم ودخل معهم تغليبا وإلا فهو كان من الجن وطبيعته من النار والملائكة من النور وفى ذكر عيسى عليه السلام فى ذرية إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام فإنه لا أب له . قال ابن أبى حاتم حدثنا سهل ابن يحيى العسكرى حدثنا عبد الرحمن بن صالح حدثنا على بن عابس عن عبدالله بن عطاء المكى عن أبى حرب بن أبى الأسود قال أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم تجده فى كتاب الله ـ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام (ومن ذريته داود وسليمان) حتى بلغ (ويحيى وعيسى) قال بلى . قال أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال صدقت . فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه واحتجوا بقول الشاعر العربى :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا * بنوهن أبناء الرجال الأجانب

وقال آخرون . ويدخل بنو البنات فيهم أيضا لما ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال للحسن ابن على « إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فسماه ابنا فدل على دخوله فى الأبناء . وقال آخرون : هذا تجوز ، وقوله (ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوى طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم ولهذا قال (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) ثم قال تعالى (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) أى إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته كقوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك) الآية ، وهذا شرط والشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وكقوله (لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) وكقوله (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق مايشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) : وقوله تعالى (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) أى أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفا منا بالخليقة (فإن يكفر بها) أى بالنبوة ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة ، وقوله (هؤلاء) يعنى أهل مكة قاله ابن عباس وسعيد ابن المسيب والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد (فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) أى إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين فقد وكلنا بها قوما آخرين ، أى المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة (ليسوا بها بكافرين) أى لا يجحدون منها شيئا ولا يردون منها حرفا واحدا بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمداً ﷺ (أولئك) يعنى الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والاخوان وهم الأشباه (الذين هدى الله) أى هم أهل الهدى لا غيرهم (فبهداهم اقتده) أى اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به قال البخارى عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام أن ابن جريج

أخبرهم قال أخبرنى سليمان الأحول أن مجاهداً أخبره أنه سأل ابن عباس أفى (ص) سجدة ؟ فقال نعم ثم تلا (ووهبنا له إسحق ويعقوب) إلى قوله (فبهداهم اقتده) ثم قال هو منهم ، زاد يزيد بن هرون ومحمد بن عبيد وسهيل بن يوسف عن العوام عن مجاهد قلت لابن عباس فقال نبيكم ﷺ ممن أمر أن يقتدى بهم وقوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا) أى لا أطلب منكم على إبلاغى إياكم هذا القرآن أجرا أى أجرة ولا أريد منكم شيئاً (إن هو إلا ذكرى للعالمين) أى يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغى إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ * وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

يقول الله تعالى وماعظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير نزلت فى قريش واختاره ابن جرير ، وقيل نزلت فى طائفة من اليهود . وقيل فى فنحاص رجل منهم . وقيل فى مالك بن الصيف (قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) والاول أصح لأن الآية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر كما قال (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) وكقوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وقال هاهنا (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) قال الله تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس) أى قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شىء من الكتب من عند الله فى جواب سلبهم العام باثبات قضية جزئية موجبة (من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى) وهو التوراة التى قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورا وهدى للناس أى ليستضاء بها فى كشف المشكلات ويهتدى بها من ظلم الشبهات وقوله (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) أى تجعلون جملتها قراطيس أى قطعا تكتبونها من الكتاب الأصلى الذى بأيديكم وتحرفون منها ما تحرفون وتبدلون وتتأولون وتقولون هذا من عند الله أى فى كتابه المنزل وما هو من عند الله ولهذا قال (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) وقوله تعالى (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) أى ومن أنزل القرآن الذى علمكم الله فيه من خبر ما سبق ونبأ ما يأتى مالم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم وقد قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب[1] وقال مجاهد هذه للمسلمين وقوله تعالى (قل الله) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أى قل الله أنزله ، وهذا الذى قاله ابن عباس هو المتعين فى تفسير هذه الكلمة ، لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى (قل الله) أى لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة «الله» وهذا الذى قاله هذا القائل يكون أمرا بكلمة مفردة من غير تركيب والاتيان بكلمة مفردة لا يفيد فى لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها ، وقوله (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى ثم دعهم فى جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين ؟ وقوله (وهذا كتاب) يعنى القرآن (أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى) يعنى مكة (ومن حولها) من أحياء العرب ومن سائر طوائف بنى آدم من عرب وعجم كما قال فى الآية الأخرى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال (لأنذركم به ومن بلغ) وقال (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقال (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا) وقال (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) وثبت فى

(١) قيل إن هذه نزلت مرتين مرة بمكة والخطاب فيها للمشركين . ولعلها قراءة ابن كثير وأبى عمرو يجعلونه بالياء ، ومرة بالمدينة . ولعلها قراءة تجعلونه بالتاء لأنه خطاب لليهود .

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى » وذكر منهن « وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ولهذا قال (والذين يؤمنوا بالآخرة يؤمنون به) أى كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذى أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن (وهم على صلاتهم يحافظون) أى يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات فى أوقاتها

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولدا أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله ولهذا قال تعالى (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء) قال عكرمة وقتادة نزلت فى مسيلمة الكذاب (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) أى ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحى مما يفتريه من القول كقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) الآية قال الله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) أى فى سكراته وغمراته وكرباته (والملائكة باسطو أيديهم) أى بالضرب كقوله (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى) الآية وقوله (يبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) الآية وقال الضحاك وأبو صالح باسطو أيديهم أى بالعذاب كقوله (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) ولهذا قال (والملائكة باسطو أيديهم) أى بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ولهذا يقولون لهم (أخرجوا أنفسكم) وذلك أن الكافر إذ احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم فتتفرق روحه فى جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق) الآية أى اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله ، وقد وردت الأحاديث المتواترة فى كيفية احتضار المؤمن والكافر وهى مقررة عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وقد ذكر ابن مردويه ههنا حديثا مطولا جداً من طريق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا فالله أعلم ، وقوله (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى يقال لهم يوم معادهم هذا كما قال (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى كما بدأناكم أعدناكم وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث ، وقوله (وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى من النعم والأموال التى اقتنيتموها فى الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » وقال الحسن البصرى : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيقول الله عز وجل أين ما جمعت ؟ فيقول يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان فيقول له يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئا ، وتلا هذه الآية (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآية رواه ابن أبى حاتم ، وقوله (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا فى الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفعهم فى معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد فإذا كان

يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون ويناديهم الرب جل جلاله على رءوس الخلائق . (أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟) ويقال لهم (أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟) ولهذا قال ههنا (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى فى العبادة لهم فيكم قسط فى استحقاق العبادة لهم ، ثم قال تعالى (لقد تقطع بينكم) قرىء بالرفع أى شملكم وبالنصب أى لقد تقطع [1] ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل (وضل عنكم) أى ذهب عنكم (ما كنتم تزعمون) من رجاء الأصنام والأنداد كقوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) وقال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وقال تعالى(إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) وقال(وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم)الآية وقال (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا) إلى قوله (وضل عنهم ما كانوا يفترون) والآيات فى هذا كثيرة جدا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى أى يشقه فى الثرى فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى ولهذا فسر قوله (فالق الحب والنوى) بقوله (يخرج من الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) أى يخرج النبات الحى من الحب والنوى الذى هو كالجماد الميت كقوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) إلى قوله (ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) وقوله(ومخرج الميت من الحى) معطوف على (فالق الحب والنوى) ثم فسره ثم عطف عليه قوله (ومخرج الميت من الحى) وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ومن قائل يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه وغير ذلك من العبارات التى تنتظمها الآية وتشملها

ثم قال تعالى (ذلكم الله) أى فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له (فأنى تؤفكون) أى كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره وقوله(فالق الاصباح وجعل الليل سكنا) أى خالق الضياء والظلام كما قال فى أول السورة (وجعل الظلمات والنور) أى فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضىء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجىء النهار بضيائه وإشراقه ، كقوله (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظم سلطانه فذكر أنه فالق الاصباح وقابل ذلك بقوله (وجعل الليل سكنا)أى ساجيا مظلما لتسكن فيه الأشياء كما قال (والضحى والليل إذا سجى) وقال (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى)وقال (والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها) وقال صهيب الرومى رضى الله عنه لامرأته وقد عاتبته فى كثرة سهره : إن الله جعل الليل سكنا إلا لصهيب إن صهيبا إذ ذكر الجنة طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه رواه ابن أبى حاتم. وقوله(والشمس والقمر حسبانا) أى يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب بل لكل منهما منازل يسلكها فى الصيف والشتاء فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا كما قال (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل) الآية وكما قال (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وقال(والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) وقوله (ذلك تقدير العزيز العليم) أى الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف ، العليم بكل شىء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ،

(١) فى نسخة الأزهر : انقطع .

وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية وكما في قوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) ولما ذكر خلق السموات والأرض ومافيهن في أول سورة حم السجدة قال (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) وقوله تعالى (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) قال بعض السلف من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر. وقوله (قد فصلنا الآيات) أى قد بيناها ووضحناها (لقوم يعلمون) أى يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) يعنى آدم عليه السلام، كما قال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وقوله (فمستقر ومستودع) اختلفوا في معنى ذلك فعن ابن مسعود وابن عباس وأبى عبد الرحمن السلمى وقيس بن أبى حازم ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى والضحاك وقتادة والسدى وعطاء الخراسانى وغيرهم (فمستقر) أى في الأرحام قالوا أو أكثرهم (ومستودع) أى في الأصلاب وعن ابن مسعود وطائفة عكسه وعن ابن مسعود أيضا وطائفة فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت ، وقال سعيد بن جبير فمستقر في الأرحام وعلى ظهر الأرض وحيث يموت ، وقال الحسن البصرى المستقر الذى قد مات فاستقر به عمله . وعن ابن مسعود ومستودع في الدار الآخرة والقول الأول أظهر والله أعلم ، وقوله تعالى (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى يفهمون ويعون كلام الله ومعناه ، وقوله تعالى (وهو الذى أنزل من السماء ماء) أى بقدر مباركا ورزقا للعباد وإحياء وغياثا للخلائق رحمة من الله بخلقه (فأخرجنا به نبات كل شىء) كقوله (وجعلنا من الماء كل شىء حى) (فأخرجنا منه خضرا) أى زرعا وشجرا أخضر ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ولهذا قال تعالى (نخرج منه حبا متراكبا) أى يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها (ومن النخل من طلعها قنوان) أى جمع قنو وهى عذوق الرطب (دانية) أى قريبة من المتناول كما قال على بن أبى طلحة الوالبى عن ابن عباس (قنوان دانية) يعنى بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض رواه ابن جرير . قال ابن جرير وأهل الحجاز يقولون قنوان وقيس يقول قنوان . قال امرؤ القيس :

فأثت أعاليه وآدت أصوله * ومال بقنوان من البسر أحمرا

قال وتميم يقولون قنيان بالياء قال وهى جمع قنو كما أن صنوان جمع صنو وقوله تعالى (وجنات من أعناب) أى ونخرج منه جنات من أعناب وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) وكان ذلك قبل تحريم الخمر وقال (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب) وقوله تعالى (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) قال قتادة وغيره متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض ومتخالف في الثمار شكلا وطعما وطبعا وقوله تعالى (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أى نضجه قاله البراء بن عازب وابن عباس والضحاك وعطاء الخراسانى والسدى وقتادة وغيرهم أى فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطبا صار عنبا ورطبا وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح كقوله تعالى (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من

أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) الآية ولهذا قال هاهنا (إن فى ذلكم) أيها الناس (لآيات) أى دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته (لقوم يؤمنون) أى يصدقون به ويتبعون رسله

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا به فى عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له فى العبادة تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فان قيل فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ماعبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله (إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يعبدون إلا شيطانا مريدا * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) وكقوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى) الآية وقال إبراهيم لأبيه (يا أبت لاتعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا) وكقوله (ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدومبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم) وتقول الملائكة يوم القيامة (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) ولهذا قال تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم) أى وقد خلقهم فهو الخالق وحده لاشريك له فكيف يعبد معه غيره كقول إبراهيم (أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون) ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لاشريك له وقوله تعالى (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) ينبه به تعالى على ضلال من ضل فى وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قاله من اليهود فى عزير ومن قال من النصارى فى عيسى ومن قال من مشركى العرب فى الملائكة انها بنات الله (تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) ومعنى وخرقوا أى اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وخرقوا يعنى تخرصوا وقال العوفى عنه (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) قال جعلوا له بنين وبنات وقال مجاهد (وخرقوا له بنين وبنات) قال كذبوا وكذا قال الحسن وقال الضحاك وضعوا وقال السدى قطعوا قال ابن جرير وتأويله إذاً : وجعلوا لله الجن شركاء فى عبادتهم إياهم وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير (وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) بحقيقة مايقولون ولكن جهلا بالله وبعظمته فانه لاينبغى لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة ولا أن يشركه فى خلقه شريك ولهذا قال (سبحانه وتعالى عما يصفون) أى تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الاولاد والانداد والنظراء والشركاء

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(بديع السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدى ومنه سميت البدعة بدعة لانه لانظير لها فيما سلف (أنى يكون له ولد) أى كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة أى والولد إنما يكون متولدا بين شيئين متناسبين والله تعالى لايناسبه ولايشابهه شىء من خلقه لانه خالق كل شىء فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدا) إلى قوله (وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) فبين تعالى أنه الذى خلق كل شىء وأنه بكل شىء عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذى لانظير له فأنى يكون له ولد تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

يقول تعالى (ذلكم الله ربكم) أى الذى خلق كل شىء ولا ولد له ولا صاحبة (لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) أى فاعبدوه وحده لا شريك له وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو وأنه لا ولد له ولا والد ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل (وهو على كل شىء وكيل) أى حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلأهم بالليل والنهار وقوله (لا تدركه الأبصار) فيه أقوال للأئمة من السلف (أحدها) لا تدركه فى الدنيا وإن كانت تراه فى الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت فى الصحاح والمسانيد والسنن كما قال مسروق عن عائشة أنها قالت من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب وفى رواية على الله فان الله تعالى قال (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود عن أبى الضحى عن مسروق ورواه غير واحد عن مسروق وثبت فى الصحيح وغيره عن عائشة من غير وجه وخالفها ابن عباس فعنه إطلاق الرؤية وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين والمسئلة تذكر فى أول سورة النجم إن شاء الله ، وقال ابن أبى حاتم ذكر محمد بن مسلم حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى حدثنا يحيى بن معين قال سمعت إسماعيل بن علية يقول فى قول الله تعالى (لا تدركه الأبصار) قال هذا فى الدنيا، وذكر أبى عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك. وقال آخرون (لا تدركه الأبصار) أى جميعها وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له فى الدار الآخرة ، وقال آخرون من المعتزلة بمقتضى مافهموه من هذه الآية أنه لا يرى فى الدنيا ولا فى الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة فى ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب فقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقال تعالى عن الكافرين (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) قال الإمام الشافعى فدل هذا على أن المؤمنين لا يحجبون عنه تبارك وتعالى . أما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبى سعيد وأبى هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين يرون الله فى الدار الآخرة فى العرصات وفى روضات الجنات جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين وقيل المراد بقوله (لا تدركه الأبصار) أى العقول رواه ابن أبى حاتم عن على بن الحسين عن الفلاس عن ابن مهدى عن أبى الحصين يحيى بن الحصين قارىء أهل مكة أنه قال ذلك وهذا غريب جداً وخلاف ظاهر الآيه وكأنه اعتقد أن الإدراك فى معنى الرؤية والله أعلم

وقال آخرون لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفى الادراك وأخص من الرؤية فإن الإدراك لا يلزم من نفى الأخص انتفاء الأعم .ثم اختلف هؤلاء فى الادراك المنفى ما هو فقيل معرفة الحقيقة فان هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون كما أن من رأى القمر فانه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى . قال ابن علية فى الآية هذا فى الدنيا رواه ابن أبى حاتم

وقال آخرون الادراك أخص من الرؤية وهو الاحاطة قالوا ولا يلزم من عدم الاحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم قال تعالى (ولا يحيطون به علما) وفى صحيح مسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولا يلزم منه عدم الثناء فكذلك هذا. قال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال لا يحيط بصر أحد بالملك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد حدثنا أسباط عن سماك عن عكرمة أنه قيل له (لا تدركه الأبصار) قال ألست ترى السماء ؟ قال بلى قال فكلها ترى؟ وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى الآية (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) هو أعظم من أن تدركه الأبصار

وقال ابن جرير حدثنا سعد بن عبدالله بن عبدالحكم حدثنا خالد بن عبدالرحمن حدثنا أبو عرفجة عن عطية العوفى فى قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) قال هم ينظرون إلى الله لا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره محيط بهم فذلك قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وورد فى تفسير هذه الآية حديث رواه ابن أبى حاتم ههنا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث السهمى حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال « لو أن الجن والإنس

والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبدا » غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم

وقال آخرون فى الآية بما رواه الترمذى فى جامعه وابن أبى عاصم فى كتاب السنة له وابن أبى حاتم فى تفسيره وابن مردويه أيضا والحاكم فى مستدركه من حديث الحكم بن أبان قال سمعت عكرمة يقول سمعت ابن عباس يقول رأى محمد ربه تبارك وتعالى فقلت أليس الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) الآية فقال لى لا أم لك ذلك نوره الذى هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شىء، وفى رواية لا يقوم له شىء ، قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفى معنى هذا الأثر ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه مرفوعا « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار حجابه النور - أو النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وفى الكتب المتقدمة إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى إنه لا يرانى حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده .أى تدعثر وقال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ونفى هذا الأثر الادراك الخاص لا ينفى الرؤية يوم القيامة يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه تعالى وتقدس وتنزه فلا تدركه الأبصار ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تثبت الرؤية فى الدار الآخرة وتنفيها فى الدنيا وتحتج بهذه الآية (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) فالذى نفته الادراك الذى هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فان ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشىء وقوله (وهو يدرك الأبصار) أى يحيط بها ويعلمها على ما هى عليه لأنه خلقها كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين كما قال السدى فى قوله (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) لا يراه شىء وهو يرى الخلائق وقال أبو العالية فى قوله تعالى (وهو اللطيف الخبير) قال اللطيف لاستخراجها الخبير بمكانها والله أعلم وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه (يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها إن الله لطيف خبير)

﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ * وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

البصائر هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن وما جاء به الرسول ﷺ (فمن أبصر فلنفسه) كقوله (فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) ولهذا قال (ومن عمى فعليها) لما ذكر البصائر قال (ومن عمى فعليها) أى إنما يعود وباله عليه كقوله (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (وما أنا عليكم بحفيظ) أى بحافظ ولا رقيب بل إنما أنا مبلغ والله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وقوله (وكذلك نصرف الآيات) أى وكما فصلنا الآيات فى هذه السورة من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو هكذا نوضح الآيات ونفسرها ونبينها فى كل موطن لجهالة الجاهلين وليقول المشركون والكافرون المكذبون دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم هكذا قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم وقال الطبرانى حدثنا عبد الله بن أحمد حدثنا أبى حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن كيسان قال سمعت ابن عباس يقول دارست تلوت خاصمت جادلت وهذا كقوله تعالى إخبارا عن كذبهم وعنادهم (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها) الآية وقال تعالى إخبارا عن زعيمهم وكاذبهم (إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) ، وقوله (ولنبينه لقوم يعلمون) أى ولنوضحه لقوم

يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه فلله تعالى الحكمة البالغة فى إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) الآية وكقوله (ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا * كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ومايعلم جنود ربك إلا هو) وقال (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضل به من يشاء ويهدى به من يشاء ولهذا قال هاهنا (وكذلك نصرف الآيات وليقولوا دارست ولنبينه لقوم يعلمون) وقرأ بعضهم (درست) قال التميمى عن ابن عباس درست أى قرأت وتعلمت وكذا قال مجاهد والسدى والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد وقال عبد الرزاق عن معمر قال الحسن (وليقولوا درست) يقول تقادمت وامحت وقال عبد الرزاق أيضا أنبأنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار سمعت ابن الزبير يقول إن صبيانا يقرأون هاهنا دارست وإنما هى درست وقال شعبة حدثنا أبو إسحق الهمدانى قال هى فى قراءة ابن مسعود درست يعنى بغير ألف بنصب السين ووقف على التاء قال ابن جرير ومعناه امحت وتقادمت أى أن هذا الذى تتلوه علينا قد مر بنا قديما وتطاولت مدته وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أنه قرأها درست أى قرئت وتعلمت وقال معمر عن قتادة درست قرئت وفى حرف ابن مسعود درس وقال أبو عبيد القاسم بن سلام حدثنا حجاج عن هرون قال هى فى حرف أبى بن كعب وابن مسعود وليقولوا درس قال يعنون النبى ﷺ أنه قرأ وهذا غريب فقد روى عن أبى بن كعب خلاف هذا قال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا الحسن بن ليث حدثنا أبو سلمة حدثنا أحمد بن أبى بزة(1) المكى حدثنا وهب بن زمعة عن أبيه عن حميد الأعرج عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال أقرأنى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وليقولوا درست) ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث وهب بن زمعة وقال يعنى بجزم السين ونصب التاء ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

يقول تعالى آمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ولمن اتبع طريقته (اتبع ما أوحى إليك من ربك) أى اقتد به واقتف أثره واعمل به فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لامرية فيه لأنه لاإله إلاهو (وأعرض عن المشركين) أى اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم واعلم أن لله حكمة فى إضلالهم فانه لوشاء لهدى الناس جميعا ولو شاء لجمعهم على الهدى (ولو شاء الله ما أشركوا) أى بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره لايسأل عما يفعل وهم يسألون وقوله تعالى (وما جعلناك عليهم حفيظا) أى حافظا تحفظ أقوالهم وأعمالهم (وما أنت عليهم بوكيل) أى موكل على أرزاقهم وأمورهم (إن عليك إلا البلاغ) كما قال تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر) وقال (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب)

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(1) فى النسخة الأميرية : أبى نسرة .

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله ﷺ والمؤمنين عن سب آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها وهى مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين وهو (الله لا إله إلا هو) كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم (فيسبوا الله عدواً بغير علم) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم فأنزل الله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنه قال فى تفسير هذه الآية لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعهم فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبى ابنا خلف وعقبة بن أبى معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البخترى وبعثوا رجلا منهم يقال له المطلب قالوا استأذن لنا على أبى طالب فأتى أباطالب فقال هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك فأذن لهم عليه فدخلوا عليه فقالوا يا أباطالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبوطالب هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماتريدون ؟ » قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك فقال النبى ﷺ « أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج » قال أبوجهل وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها قالوا فما هى ؟ قال « قولوا لاإله إلاالله » فأبوا واشمأزوا قال أبوطالب يا ابن أخى قل غيرها فان قومك قد فزعوا منها قال « ياعم ما أنا بالذى يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدى ولو أتوا بالشمس فوضعوها فى يدى ما قلت غيرها » إرادة أن يؤيسهم فغضبوا وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أولنشتمنك ونشتمن من يأمرك فذلك قوله (فيسبوا الله عدواً بغير علم) ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ماجاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من سب والديه » قالوا يارسول الله وكيف يسب الرجل والديه ، قال « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » أوكما قال صلى الله عليه وسلم وقوله (كذلك زينا لكل أمة عملهم) أى وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار كذلك زينا لكل أمة أى من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذى كانوا فيه ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره (ثم إلى ربهم مرجعهم) أى معادهم ومصيرهم (فينبئهم بما كانو يعملون) أى يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أى حلفوا أيماناً مؤكدة (لئن جاءتهم آية) أى معجزة وخارق (ليؤمنن بها) أى ليصدقنها (قل إنما الآيات عندالله) أى قل يامحمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتا وكفرا وعنادا لاعلى سبيل الهدى والاسترشاد إنما مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم قال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا يونس بن بكير حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى قال كلم رسول الله ﷺ قريش فقالوا يامحمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى شىء تحبون أن آتيكم به ؟ » قالوا تجعل لنا الصفا ذهبا فقال لهم « فان فعلت تصدقونى » قالوا نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوا فجاءه جبريل عليه السلام فقال له ماشئت إن شئت أصبح الصفا ذهبا ولئن أرسل آية فلم يصدقوا عند ذلك ليعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل يتوب تائبهم » فأنزل الله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الى قوله تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون)

وهذا مرسل وله شواهد من وجوه أخر . وقال الله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية وقوله تعالى (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) قيل المخاطب بما يشعركم المشركون ، وإليه ذهب مجاهد كأنه يقول لهم وما يدريكم بصدقكم فى هذه الأيمان التى تقسمون بها وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر إنها على استئناف الخبر عنهم بنفى الأيمان عند مجيء الآيات التى طلبوها ، وقرأ بعضهم (أنها إذا جاءت لا تؤمنون) بالتاء المثناة من فوق وقيل المخاطب بقوله وما يشعركم المؤمنون يقول وما يدريكم أيها المؤمنون وعلى هذا فيجوز فى قوله (انها) الكسر كالأول والفتح على أنه معمول يشعركم وعلى هذا فتكون لا فى قوله (أنها إذا جاءت لا يؤمنون) صلة كقوله (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) وقوله (وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون) أى ما منعك أن تسجد إذ أمرتك وحرام أنهم لا يرجعون وتقديره فى هذه الآية وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون قال بعضهم أنها بمعنى لعلها قال ابن جرير وذكروا أن ذلك كذلك فى قراءة أبى بن كعب قال وقد ذكر عن العرب سماعا اذهب إلى السوق انك تشترى لنا شيئاً بمعنى لعلك تشترى قال وقد قيل إن قول عدى ابن زيد العبادى من هذا : أعاذل ما يدريك أن منيتى * إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد

وقد اختار هذا القول ابن جرير وذكر عليه من شواهد أشعار العرب والله أعلم . وقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء وردت عن كل أمر وقال مجاهد فى قوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) ونحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة وكذا قال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه وقال (ولا ينبئك مثل خبير) جل وعلا (أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله) إلى قوله (لو أن لى كرة فأكون من المحسنين) فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى وقال (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم فى الدنيا وقوله (ونذرهم) أى نتركهم (فى طغيانهم) قال ابن عباس والسدى فى كفرهم . وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة فى ضلالهم (يعمهون) قال الأعمش يلعبون وقال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره فى كفرهم يترددون

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يقول تعالى ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) و(قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا نزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) (وكلمهم الموتى) أى فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل (وحشرنا عليهم كل شيء قبلا) قرأ بعضهم قبلا بكسر القاف وفتح الباء من المقابلة والمعاينة وقرأ آخرون بضمهما قيل معناه من المقابلة والمعاينة أيضا كما رواه على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال مجاهد قبلا أى أفواجا قبيلا قبيلا أى تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به (ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) أى إن الهداية إليه لا إليهم بل يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعال لما يريد (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته وهذه الآية كقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

يقول تعالى وكما جعلنالك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يحزنك ذلك كما قال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) الآية وقال تعالى (ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم) وقال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) الآية وقال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وقوله (شياطين الإنس والجن) بدل من (عدوا) أي لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم ، قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله (شياطين الإنس والجن) قال من الجن شياطين ومن الإنس شياطين يوحي بعضهم إلى بعض ، قال قتادة وبلغني أن أبا ذر كان يوما يصلي فقال النبي ﷺ « تعوذ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن » فقال أو إن من الإنس شياطين فقال رسول الله ﷺ « نعم » وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذر . وقد روى من وجه آخر عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا أبو صالح حدثني معاوية بن صالح عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة عن ابن عائذ عن أبي ذر قال أتيت رسول الله ﷺ في مجلس قد أطال فيه الجلوس قال: فقال « يا أبا ذر هل صليت » قلت لا يا رسول الله قال « قم فاركع ركعتين » قال ثم جئت فجلست إليه فقال « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس » قال قلت لا يا رسول الله وهل للانس من شياطين ؟ قال « نعم هم شر من شياطين الجن » وهذا أيضا فيه انقطاع ، وروى متصلا كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا المسعودي أنبأني أبو عمر الدمشقي عن عبيد بن الحسيحاس[1] عن أبي ذر قال أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست فقال « يا أبا ذر هل صليت؟ » قلت لا قال « قم فصل » قال فقمت فصليت ثم جلست فقال « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال قلت يا رسول الله وللانس شياطين ؟ قال « نعم » وذكر تمام الحديث بطوله وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من حديث جعفر بن عون ويعلى بن عبيد وعبيد الله بن موسى ثلاثتهم عن المسعودي به .

(طريق أخرى عن أبي ذر) قال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن حميد بن هلال حدثني رجل من أهل دمشق عن عوف بن مالك عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال قلت يا رسول الله هل للانس من شياطين ؟ قال « نعم »

(طريق أخرى للحديث) قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا أبو المغيرة حدثنا معاذ بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « يا أبا ذر تعوذت من شياطين الجن والإنس » قال يا رسول الله وهل للانس شياطين ؟ قال « نعم (شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعضهم زخرف القول غرورا) » وقوله (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فهذه طرق لهذا الحديث ومجموعها يفيد قوته وصحته والله أعلم ، قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو نعيم عن شريك عن سعيد بن مسروق عن عكرمة (شياطين الإنس والجن) قال ليس في الانس شياطين ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الانس وشياطين الانس يوحون إلى شياطين الجن ، قال وحدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن السدي عن عكرمة في قوله (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال للانس شياطين وللجن شياطين فيلقى شيطان الانس شيطان الجن فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، وقال أسباط عن السدي عن عكرمة في قوله (يوحي بعضهم إلى بعض)

(١) في نسخة الأميرية : مسحاس.

أما شياطين الإنس فالشياطين التى تضل الإنس وشياطين الجن التى تضل الجن يلتقيان فيقول كل واحد منهما لصاحبه إنى أضللت صاحبى بكذا وكذ فأضل أنت صاحبك بكذا وكذا فيعلم بعضهم بعضا ، ففهم ابن جرير من هذا أن المراد بشياطين الإنس عند عكرمة والسدى الشياطين من الجن الذين يضلون الناس لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عكرمة وأما كلام السدى فليس مثله فى هذا المعنى وهو محتمل وقد روى ابن أبى حاتم نحو هذا عن ابن عباس من رواية الضحاك عنه قال إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم قال فيلتقى شياطين الإنس وشياطين الجن فيقول هذا لهذا أضلله بكذا فهو قوله (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وعلى كل حال فالصحيح ماتقدم من حديث أبى ذر إن للانس شياطين منهم وشيطان كل شىء مارده ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال « الكلب الأسود شيطان » ومعناه والله أعلم شيطان فى الكلاب وقال ابن جريج قال مجاهد فى تفسير هذه الآية كفار الجن شياطين يوحون إلى شياطين الإنس كفار الإنس زخرف القول غرورا ، وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى حتى كاد يتعاهد مبيتى بالليل ، قال: فقال لى أخرج إلى الناس فحدثهم قال فخرجت فجاء رجل فقال : ما تقول فى الوحى، فقلت الوحى وحيان قال الله تعالى (بما أوحينا إليك هذا القرآن) وقال تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) قال فهموا بى أن يأخذونى فقلت لهم : مالكم ذاك إنى مفتيكم وضيفكم فتركونى ، وإنما عرض عكرمة بالمختار وهو ابن أبى عبيد قبحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحى ، وقد كانت أخته صفية تحت عبدالله ابن عمر وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبدالله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى اليه فقال صدق قال الله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقوله تعالى (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) أى يلقى بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف وهو المزوق الذى يغتر سامعه من الجهلة بأمره (ولو شاء ربك مافعلوه) أى وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبى عدو من هؤلاء (فذرهم) أى فدعهم (وما يفترون) أى يكذبون . أى دع أذاهم وتوكل على الله فى عداوتهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم ،وقوله تعالى(ولتصغى إليه)أى ولتميل اليه . قاله ابن عباس (أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة) أى قلوبهم وعقولهم وأسماعهم : وقال السدى : قلوب الكافرين (وليرضوه) أى يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى (فإنكم وماتعبدون* ما أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم) وقال تعالى (إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك) وقوله (وليقترفوا ماهم مقترفون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وليكتسبوا ماهم مكتسبون وقال السدى وابن زيد وليعملوا ماهم عاملون

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره (أفغير الله أبتغى حكما) أى بينى وبينكم (وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا) أى مبينا (والذين آتيناهم الكتاب) أى من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق أى بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين (فلا تكونن من الممترين) كقوله (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) وهذا شرط والشرط لا يقتضى وقوعه ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أشك ولا أسأل » وقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) قال قتادة صدقا فيما قال وعدلا فيما حكم يقول صدقا فى الأخبار

وعدلا فى الطلب فكل ما أخبر به فحق لامرية فيه ولا شك وكل ما أمر به فهو العدل الذى لاعدل سواه وكل مانهى عنه فباطل فإنه لاينهى إلا عن مفسدة كما قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) إلى آخر الآية (لامبدل لكلماته) أى ليس أحد يعقب حكمه تعالى لافى الدنيا ولا فى الآخرة (وهو السميع) لأقوال عباده (العليم) بحركاتهم وسكناتهم الذى يجازي كل عامل بعمله

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بنى آدم أنه الضلال كما قال تعالى (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين) وقال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل (إن يتبعون إلاالظن وإنهم إلايخرصون) فإن الخرص هو الحزر ومنه خرص النخل وهوحزر ماعليها من التمر وذلك كله عن قدر الله ومشيئته (هو أعلم من يضل عن سبيله) فييسره لذلك (وهو أعلم بالمهتدين) فييسرهم لذلك وكل ميسر لما خلق له

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ومفهومه أنه لايباح مالم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ماذبح على النصب وغيرها ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال (وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ماحرم عليكم) أى قد بين لكم ماحرم عليكم ووضحه وقرأ بعضهم فصل بالتشديد وقرأ آخرون بالتخفيف والكل بمعنى البيان والوضوح (إلاما اضطررتم إليه) أى إلا فى حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم ثم بين تعالى جهالة المشركين فى آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال (وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هوأعلم بالمعتدين) أى هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾

قال مجاهد (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) المعصية فى السر والعلانية وفى رواية عنه هو ماينوى مما هو عامل وقال قتادة (وذروا ظاهر الإثم وباطنه) أى سره وعلانيته قليله وكثيره ، وقال السدى : ظاهره الزنا مع البغايا ذوات الرايات وباطنه الزنا مع الخليلة والصدائق والأخدان وقال عكرمة ظاهره نكاح ذوات المحارم والصحيح أن الآية عامة فى ذلك كله وهى كقوله تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن) الآية ولهذا قال تعالى (إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون) أى سواء كان ظاهرا أوخفيا فإن الله سيجزيهم عليه قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن ابن عرفة حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال « الإثم ماحاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه »

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وان كان الذابح مسلما ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال ، فمنهم من قال لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبى ومحمد بن سيرين وهو رواية عن الإمام مالك ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهرى واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن على الطائى من متأخرى الشافعية فى كتابه الأربعين واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله فى آية الصيد (فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه) ثم قد أكد فى هذه الآية بقوله (وإنه لفسق) والضمير قيل عائد على الأكل وقيل عائد على الذبح لغير الله وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهما فى الصحيحين ، وحديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » وهو فى الصحيحين أيضاً وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » رواه مسلم ، وحديث جندب بن سفيان البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله » أخرجاه وعن عائشة رضى الله عنها أن ناسا قالوا يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال « سموا عليه أنتم وكلوا » قالت وكانوا حديثى عهد بالكفر رواه البخارى ، ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت وأمرهم باجراء أحكام المسلمين على السداد والله أعلم والمذهب الثانى فى المسئلة أنه لا يشترط التسمية بل هى مستحبة فإن تركت عمدا أو نسياناً لا يضر وهذا مذهب الإمام الشافعى رحمه الله وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الإمام مالك ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه وحكى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح والله أعلم . وحمل الشافعى الآية الكريمة (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى (أوفسقا أهل لغير الله به) وقال ابن جريج عن عطاء (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان وينهى عن ذبائح المجوس وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو فى قوله (وإنه لفسق) حالية أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقا ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم منه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية وهذا ينتقض عليه بقوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) فإنها عاطفة لا محالة فإن كانت الواو التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فان عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله والله أعلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) قال هى الميتة . ثم رواه عن أبى زرعة عن يحيى بن أبى كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به ، وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسى مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال « إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقى أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها المتقدم أن ناسا قالوا يارسول الله إن قوما حديثى عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أنتم وكلوا » قال: فلو كان وجود التسمية شرطا لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم

المذهب الثالث فى المسئلة إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحق بن راهويه وهو محكى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه الهداية الاجماع قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمدا فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الاجماع ، وهذا الذى قاله غريب جدا وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعى والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناسى فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك يعنى مارواه الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسى حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل بن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المسلم يكفيه اسمه إن نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأ كله » وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزرى فانه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدى روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبى الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزادا فى إسناده أبا الشعثاء ووثقاه وهذا أصح ، نص عليه البيهقى وغيره من الحفاظ ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبى ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانا والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرا والله أعلم إلا أن من قاعدة ابن جرير انه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعا فليعلم هذا والله الموفق قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جهير بن يزيد قال سئل الحسن سأله رجل أتيت بطير كذا فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسى أن يذكر اسم الله عليه واختلط الطير فقال الحسن كله كله ، قال وسألت محمد بن سيرين فقال: قال الله (ولا تأ كلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبى هريرة وأبى ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » وفيه نظر والله أعلم ، وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى من حديث مروان بن سالم القرقسانى عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ، فقال النبى ﷺ « اسم الله على كل مسلم » ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقسانى أبا عبد الله الشامى ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة والله أعلم ، وقد أفردت هذه المسئلة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومأخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم

قال ابن جرير وقد اختلف أهل العلم فى هذه الآية هل نسخ من حكمها شىء أم لا ؟ فقال بعضهم لم ينسخ منها شىء وهى محكمة فيما عنيت به ، وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم وروى عن الحسن البصرى وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال الله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) وقال (ولا تأ كلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) فنسخ واستثنى من ذلك فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم) وقال ابن أبى حاتم قرأ على العباس بن الوليد بن يزيد حدثنا محمد بن شعيب أخبرنى النعمان يعنى ابن المنذر عن مكحول قال أنزل الله فى القرآن (ولا تأ كلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ، وهذا الذى قاله صحيح ومن أطلق من السلف النسخ هاهنا فإنما أراد التخصيص والله سبحانه وتعالى أعلم ، وقوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو بكر ابن عياش عن أبى إسحق قال : قال رجل لابن عمر إن المختار يزعم أنه يوحى اليه قال صدق وتلا هذه الآية (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وحدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا عكرمة بن عمار عن أبى زميل قال كنت قاعدا

عند ابن عباس وحج المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال يا ابن عباس زعم أبو إسحق أنه أوحى إليه الليلة فقال ابن عباس صدق ، فنفرت وقلت يقول ابن عباس صدق فقال ابن عباس هما وحيان وحى الله ووحى الشيطان فوحى الله إلى محمد ﷺ ووحى الشيطان إلى أوليائه ثم قرأ (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) وقد تقدم عن عكرمة فى قوله (يوحى بعض إلى بعض زخرف القول غرورا) نحو هذا وقوله (ليجادلوكم) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير قال خاصمت اليهود النبي ﷺ فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) هكذا رواه مرسلا ورواه أبو داود متصلا فقال حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا عمران بن عيينة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية وكذا رواه ابن جرير عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وكيع كلاهما عن عمران بن عيينة به . ورواه البزار عن محمد بن موسى الجرسى عن عمران بن عيينة به وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة (أحدها) أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا (الثانى) أن الآية من الأنعام وهى مكية (الثالث) أن هذا الحديث رواه الترمذى عن محمد بن موسى الجرسى عن زياد بن عبد الله البكائى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ورواه الترمذى بلفظ أتى ناس النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقال حسن غريب وروى عن سعيد بن جبير مرسلا وقال الطبرانى حدثنا على بن المبارك حدثنا زيد بن المبارك حدثنا موسى بن عبد العزيز حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً وقولوا له فما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال وما ذبح الله عز وجل بشمشير من ذهب يعنى الميتة فهو حرام فنزلت هذه الآية (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) أى وإن الشياطين من فارس ليوحون إلى أوليائهم من قريش ، وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا إسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم) يقولون ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم فكلوه فأنزل الله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم عليه) ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمرو ابن عبد الله عن وكيع عن إسرائيل به وهذا إسناد صحيح ورواه ابن جرير من طرق متعددة عن ابن عباس وليس فيه ذكر اليهود ، فهذا هو المحفوظ لأن الآية مكية واليهود لا يحبون الميتة وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) إلى قوله (ليجادلوكم) قال يوحى الشياطين إلى أوليائهم تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله ؟ وفى بعض ألفاظه عن ابن عباس أن الذى قتلتم ذكر اسم الله عليه وأن الذى قد مات لم يذكر اسم الله عليه ، وقال ابن جريج قال عمرو بن دينار عن عكرمة إن مشركى قريش كاتبوا فارس على الروم وكاتبتهم فارس فكتبت فارس إليهم ان محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكلونه وما ذبحوه هم يأكلونه فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب رسول الله ﷺ فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شىء فأنزل الله (وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) ونزلت (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال السدى فى تفسير هذه الآية إن المشركين قالوا للمسلمين كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه ؟ فقال الله تعالى (وإن أطعتموهم) فى أكل الميتة (إنكم لمشركون) وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف

وقوله تعالى (وإن أطعتموهم إنكم لمشركون) أى حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك كقوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) الآية وقد روى الترمذى فى تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال يا رسول الله ما عبدوهم فقال « بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم »

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتا أى فى الضلالة هالكا حائرا فأحياه الله أى أحيا قلبه بالايمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله (وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) أى يهتدى كيف يسلك وكيف يتصرف به والنور هو القرآن كما رواه العوفى وابن أبى طلحة عن ابن عباس وقال السدى الاسلام والكل صحيح (كمن مثله فى الظلمات) أى الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة (ليس بخارج منها) أى لا يهتدى إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وفى مسند الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله خلق خلقه فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » كما قال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم) وقال تعالى (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون) وقال تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير) والآيات فى هذا كثيرة ووجه المناسبة فى ضرب المثلين ههنا بالنور والظلمات ما تقدم فى أول السورة (وجعل الظلمات والنور) وزعم بعضهم أن المراد بهذا المثل رجلان معينان فقيل عمر بن الخطاب هو الذى كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نورا يمشى به فى الناس وقيل عمار بن ياسر وأما الذى فى الظلمات ليس بخارج منها أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله . والصحيح أن الآية عامة يدخل فيها كل مؤمن وكافر

وقوله تعالى (كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) أى حسنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدرا من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾

يقول تعالى وكما جعلنا فى قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) الآية وقال تعالى (وإذ أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) الآية قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمرا قدريا كما قال ههنا (ليمكروا فيها) وقوله تعالى (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس (أكابر مجرميها ليمكروا فيها) قال سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب . وقال مجاهد وقتادة (أكابر مجرميها) عظماؤها قلت وهكذا قوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) وقوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخبارا عن قوم نوح (ومكروا مكرا كبارا) وقوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين

استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان قال كل مكر في القرآن فهو عمل وقوله تعالى (وما يمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون) أي ومايعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم كما قال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقال (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألاساء مايزرون) . وقوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا (لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) الآية ، وقوله (الله أعلم حيث يجعل رسالته) أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك) الآية ، يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل فى أعينهم (من القريتين) أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسدا ، وعنادا واستكباراً كقوله تعالى مخبرا عنه (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) وقال تعالى (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا) وقال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه ، وطهارة بيته ومرباه ، ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه ، حتى انهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى اليه « الأمين » وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب ، قال هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ قال لا ــ الحديث بطوله الذى استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ماجاء به وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا الأوزاعى عن شداد أبى عمار عن واثلة ابن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » انفرد باخراجه مسلم من حديث الأوزاعى وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام به نحوه وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبى وداعة قال : قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال « من أنا ؟ » قالوا أنت رسول الله ، فقال « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقة وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفساً » صدق صلوات الله وسلامه عليه . وفى الحديث أيضا المروى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « قال لى جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » رواه الحاكم والبيهقى . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو بكر حدثنا عاصم عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود قال : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيء . وقال أحمد حدثنا شجاع بن الوليد قال ذكر قابوس بن أبى ظبيان عن أبيه عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ « ياسلمان لا تبغضنى فتفارق دينك » قلت يارسول الله كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال « تبغض العرب فتبغضنى » وذكر ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية ذكر عن محمد بن منصور الجواز حدثنا سفيان عن أبى

حسين قال أبصر رجل ابن عباس وهو داخل من باب المسجد فلما نظر اليه راعه فقال من هـذا قالوا ابن عباس ابن عم رسول الله ﷺ فقال (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ، وقوله تعالى (سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد) الآية هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلا يوم القيامة لما استكبروا فى الدنيا كقوله تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين ذليلين حقيرين وقوله تعالى (وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا وهو التلطف فى التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقا (ولا يظلم ربك أحدا) كما قال تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر المستترات والمكنونات والضمائر وجاء فى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان » والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفيا لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشورا على صاحبه بما فعل

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) أى ييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه) الآية وقال تعالى (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون) وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر . وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن أبى جعفر قال سئل رسول الله ﷺ أى المؤمنين أكيس ؟ قال « أكثرهم ذكرا للموت وأكثرهم لما بعده استعدادا » قال وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » وقال ابن جرير حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان يعنى الثورى عن عمرو بن مرة عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) فذكر نحو ماتقدم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن الحسن بن الفرات القزاز عن عمرو بن مرة عن أبى جعفر قال : قال رسول الله ﷺ (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قال رسول الله ﷺ « إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح » قالوا يارسول الله هل لذلك من أمارة ؟ قال « نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت » وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبرى حدثنا المعتمر بن سليمان سمعت أبى يحدث عن عبد الله بن مرة عن أبى جعفر فذكره . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن مسعود قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) قالوا يارسول الله ما هذا الشرح ؟ قال « نور يقذف به فى القلب » قالوا يارسول الله فهل لذلك من أمارة تعرف ؟ قال « نعم » قالوا وما هى قال « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت »

وقال ابن جرير أيضا حدثنى هلال بن العلاء حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد حدثنا محمد بن مسلم عن أبى عبد الرحمن

عن زيد بن أبي أنيسة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح » قالوا فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال « الانابة إلى دار الخلود والتنحى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت » وقد رواه من وجه آخر عن ابن مسعود متصلا مرفوعا فقال حدثنى ابن سنان القزاز حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمى عن يونس عن عبد الرحمن بن عبيدالله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا يا رسول الله وكيف يشرح صدره ؟ قال « يدخل فيه النور فينفسح » قالوا وهل لذلك علامة يارسول الله ؟ قال « التجافى عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت » فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة يشد بعضها بعضا والله أعلم

وقوله تعالى (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) قرىء بفتح الضاد وتسكين الياء والأكثرون ضيقا بتشديد الياء وكسرها وهما لغتان كهين وهين وقرأ بعضهم حرجا بفتح الحاء وكسر الراء قيل بمعنى آثم قاله السدى وقيل بمعنى القراءة الأخرى حرجا بفتح الحاء والراء وهو الذى لا يتسع لشىء من الهدى ولا يخلص إليه شىء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه . وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال هى الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شىء فقال عمر رضى الله عنه كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شىء من الخير . وقال العوفى عن ابن عباس يجعل الله عليه الإسلام ضيقا والإسلام واسع وذلك حين يقول (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) يقول ما جعل عليكم فى الإسلام من ضيق وقال مجاهد والسدى ضيقا حرجا شاكا وقال عطاء الخراسانى ضيقا حرجا أى ليس للخير فيه منفذ وقال ابن المبارك عن ابن جريج ضيقا حرجا بلا إله إلا الله حتى لا يستطيع أن تدخل قلبه كأنما يصعد فى السماء من شدة ذلك عليه . وقال سعيد بن جبير يجعل صدره ضيقا حرجا قال لا يجد فيه مسلكا إلا صعدا وقال السدى (كأنما يصعد فى السماء) من ضيق صدره

وقال عطاء الخراسانى (كأنما يصعد فى السماء) يقول مثله كمثل الذى لا يستطيع أن يصعد إلى السماء وقال الحكم ابن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (كأنما يصعد فى السماء) يقول فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والايمان قلبه حتى يدخله الله فى قلبه وقال الأوزاعى (كأنما يصعد فى السماء) كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا أن يكون مسلما . وقال الامام أبو جعفر بن جرير وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر فى شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول فمثله فى امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه لأنه ليس فى وسعه وطاقته ، وقال فى قوله (كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) يقول كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الايمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: الرجس الشيطان وقال مجاهد : الرجس كل مالا خير فيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس العذاب

﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى (وهذا صراط ربك مستقيما) منصوب على الحال أى هذا الدين الذى شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم كما تقدم فى حديث الحارث عن على فى نعت القرآن : هو صراط الله المستقيم وحبل الله المتين وهو الذكر الحكيم رواه أحمد والترمذى بطوله (قد فصلنا الآيات) أى وضحناها وبيناها وفسرناها (لقوم يذكرون) أى لمن له فهم ووعى يعقل عن الله ورسوله (لهم دار السلام) وهى الجنة (عند ربهم) أى يوم القيامة وإنما وصف الله الجنة ههنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفى أثر الأنبياء وطرائقهم فكما

سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام (وهو وليهم) أى[1] حافظهم وناصرهم ومؤيدهم (بما كانوا يعملون) أى جزاء على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (و)اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به (يوم يحشرهم جميعا) يعنى الجن وأولياءهم من الانس الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا (يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس) أى يقول يا معشر الجن وسياق الكلام يدل على المحذوف ومعنى قوله (قد استكثرتم من الانس) أى من إغوائهم وإضلالهم كقوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبد الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس) يعنى أضللتم منهم كثيرا وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة (وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض) يعنى أن أولياء الجن من الانس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الأشهب هوذة بن خليفة حدثنا عوف عن الحسن فى هذه الآية قال استكثرتم من أهل النار يوم القيامة فقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض ، قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الانس . وقال محمد بن كعب فى قوله (ربنا استمتع بعضنا ببعض) قال الصحابة فى الدنيا . وقال ابن جريج كان الرجل فى الجاهلية ينزل الأرض فيقول أعوذ بكبير هذا الوادى . فذلك استمتاعهم فاعتذروا به يوم القيامة وأما استمتاع الجن بالانس فانه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الانس من تعظيمهم إياهم فى استعانتهم بهم فيقولون قد سدنا الانس والجن (وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا) قال السدى يعنى الموت (قال النار مثواكم) أى مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم (خالدين فيها) أى ماكثين فيها مكثا مخلدا إلا ماشاء الله قال بعضهم يرجع معنى الاستثناء إلى البرزخ وقال بعضهم هذا رد إلى مدة الدنيا وقيل غير ذلك من الأقوال التى سيأتى تقريرها عند قوله تعالى فى سورة هود (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) وقد روى ابن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيره هذه الآية من طريق عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) قال إن هذه الآية آية لا ينبغى لأحد أن يحكم على الله فى خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

قال سعيد عن قتادة فى تفسيرها إنما يولى الله الناس بأعمالهم فالمؤمن ولى المؤمن أين كان وحيث كان والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان ليس الايمان بالتمنى ولا بالتحلى واختاره ابن جرير ، وقال معمر عن قتادة فى تفسير الآية نولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار يتبع بعضهم بعضا . وقال مالك بن دينار قرأت فى الزبور إنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين ثم انتقم من المنافقين جميعا وذلك فى كتاب الله قوله الله تعالى (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا) قال ظالمى الجن وظالمى الانس وقرأ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين) قال ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الانس وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة عبدالباقى بن أحمد من طريق سعيد بن عبد الجبار الكرابيسى عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن ابن مسعود مرفوعا « من أعان ظالما سلطه الله عليه » وهذا حديث غريب وقال بعض الشعراء :

وما من يد إلا يد الله فوقها * ولا ظالم إلا سيبلى بظالم

(١) فى النسختين الأميرية والأزهرية أى والسلام وهو الله وليهم أى حافظهم الخ .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰفِرِينَ ﴾

وهذا أيضا مما يقرع الله به كافرى الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم وهو أعلم هل بلغتهم الرسل رسالاته وهذا استفهام تقرير (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) أى من جملتكم والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ، وقال ابن عباس الرسل من بنى آدم ومن الجن نذر . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن فى الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفيه نظر لأنها محتملة وليست بصريحة وهى والله أعلم كقوله (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) إلى أن قال (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو[1] وهذا واضح ولله الحمد وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير ، والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده — إلى قوله — رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقوله تعالى عن إبراهيم (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم فى ذريته ولم يقل أحد من الناس إن النبوة كانت فى الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ومعلوم أن الجن تبع للإنس فى هذا الباب ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين) وقد جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن وفيها قوله تعالى (سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا) أى أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك وأن هذا اليوم كائن لا محالة وقال تعالى (وغرتهم الحياة الدنيا) أى وقد فرطوا فى حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها (وشهدوا على أنفسهم) أى يوم القيامة (أنهم كانوا كافرين) أى فى الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ * وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) أى إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه دعوة ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحدا إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى (وإن من قرية إلا خلا فيها نذير) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم

(١) هكذا كان المتقدمون يقولون ، ثم ثبت أن بعض الأنهار الحلوة الماء قد استخرج منها اللؤلؤ .

يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا) والآيات فى هذا كثيرة قال الإمام أبوجعفر بن جرير ويحتمل قوله تعالى (بظلم) وجهين (أحدهما) ذلك من أجل أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون يقول لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولا ينبههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ولم يكن بالذى يؤاخذهم غفلة فيقولوا ماجاءنا من بشير ولانذير (والوجه الثانى) (ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم) يقول لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك والله غيرظلام لعبيده ثم شرع رجح الوجه الأول ولاشك أنه أقوى والله أعلم .

قال وقوله تعالى (ولكل درجات مما عملوا) أى ولكل عامل من طاعة الله أومعصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ويثيبه بها إن خيرا فخير وإن شرا فشر (قلت) ويحتمل أن يعود قوله (ولكل درجات مما عملوا) أى من كافرى الجن والانس أى ولكل درجة فى النار بحسبه كقوله (قال لكل ضعف) وقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابافوق العذاب بما كانوا يفسدون) (ومار بك بغافل عمايعملون) قال ابن جرير أى وكل ذلك من عملهم يامحمد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عندلقائهم إياه ومعادهم اليه

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يقول تعالى (وربك) يامحمد (الغنى) أى عن جميع خلقه من جميع الوجوه وهم الفقراء اليه فى جميع أحوالهم (ذوالرحمة) أى وهو مع ذلك رحيم بهم كما قال تعالى (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) (إن يشأيذهبكم) أى إذا خالفتم أمره (ويستخلف من بعدكم مايشاء) أى قوما آخرين أى يعملون بطاعته (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أى هو قادر على ذلك سهل عليه يسير لديه كما أذهب القرون الأولى وأتى بالذى بعدها كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والاتيان بآخرين كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا) وقال تعالى (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز)

وقال تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال محمد بن إسحق عن يعقوب بن عتبة قال سمعت أبان بن عثمان يقول فى هذه الآية (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) الذرية الأصل والذرية النسل وقوله تعالى (إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين) أى أخبرهم يامحمد أن الذى يوعدون به من أمر المعاد كائن لامحالة (وما أنتم بمعجزين) أى ولا تعجزون الله بل هو قادر على إعادتكم وإن صرتم ترابا رفاتا وعظاما هو قادر لايعجزه شىء ، وقال ابن أبى حاتم فى تفسيرها حدثنا أبى حدثنا محمد بن المصفى حدثنا محمد بن حمير عن أبى بكر ابن أبى مريم عن عطاء بن أبى رباح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده إنماتوعدون لآت وما أنتم بمعجزين »

وقوله تعالى (قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون) هذاتهديد شديد ووعيد أكيد أى استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون انكم على هدى فأنا مستمر على طريقتى ومنهجى كقوله (وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إناعاملون وانتظروا إنامنتظرون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (على مكانتكم) ناحيتكم (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لايفلح الظالمون) أى أتكون لى أولكم وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه أى فانه تعالى مكنه فى البلاد وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه واستقر أمره على سائر جزيرة العرب وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك فى حياته ثم

فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته فى أيام خلفائه رضى الله عنهم أجمعين كما قال الله تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقال تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) وقال تعالى إخبارا عن رسله (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) وقال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا) الآية وقد فعل الله ذلك بهذه الأمة المحمدية وله الحمد والمنة أولا وآخراً وظاهرا وباطنا

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفروا وشركا وجعلوا لله شركا وجزءا من خلقه وهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى ولهذا قال تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ) أى مما خلق وبرأ (من الحرث) أى من الزرع والثمار (والأنعام نصيبا) أى جزءا وقسما (فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) وقوله (فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) قال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس أنه قال فى تفسير هذه الآية إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثا أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءا وللوثن جزءا فما كان من حرث أو ثمرة أو شىء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه وإن سقط منه شىء فيما سمى للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن وإن سبقهم الماء الذى جعلوه للوثن فسقى شيئا جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن وإن سقط شىء من الحرث والثمرة الذى جعلوه لله فاختلط بالذى جعلوه للوثن قالوا هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوه لله وإن سبقهم الماء الذى جعلوه لله فسقى ما سمى للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للاوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله فقال الله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا) الآية وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدى وغير واحد ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى الآية كل شىء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبدا حتى يذكروا معه أسماء الآلهة وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ (ساء ما يحكمون) أى ساء ما يقسمون فانهم أخطأوا أولا فى القسم لأن الله تعالى هو رب كل شىء ومليكه وخالقه وله الملك وكل شىء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها كقوله جل وعلا (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) وقال تعالى (وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين) وقال تعالى (ألكم الذكر وله الأنثى) وقوله (تلك إذا قسمة ضيزى)

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الاملاق ووأد البنات خشية العار ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم وقال مجاهد شركاؤهم شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة وقال السدى أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما ليردوهم فيهلكوهم ، وإما ليلبسوا عليهم دينهم أى فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقتادة وهذا كقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) الآية وكقوله (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) وقد كانوا أيضا يقتلون الأولاد من الاملاق وهو الفقر أو خشية الاملاق أن يحصل لهم فى تلف المال وقد نهاهم عن قتل أولادهم لذلك وإنما كان هذا كله من تزيين الشياطين وشرعهم ذلك ، قوله تعالى (ولو شاء الله ما فعلوه) أى كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كونا وله الحكمة التامة فى ذلك فلا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (فذرهم وما يفترون) أى فدعهم و اجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الحجر الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما وقال قتادة (وقالوا هذا أنعام وحرث حجر) تحريم كان عليهم من الشياطين فى أموالهم وتغليظ وتشديد ولم يكن من الله تعالى ، وقال ابن زيد بن أسلم (حجر) إنما احتجروها لآلهتهم ، وقال السدى (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يقولون حرام أن يطعم إلا من شئنا وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) وكقوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) وقال السدى أما الأنعام التى حرمت ظهورها فهى البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأما الأنعام التى لا يذكرون اسم الله عليها لا إذا ولدوها ولا إن نحروها . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود قال لى أبو وائل أتدرى ما فى قوله (وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ؟) قلت لا قال هى البحيرة كانوا لا يحجون عليها ، وقال مجاهد كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا فى شىء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا ولا إن عملت شيئا (افتراء عليه) أى على الله وكذبا منهم فى إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فانه لم يأذن لهم فى ذلك ولا رضيه منهم (سيجزيهم بما كانوا يفترون) أى عليه ويسندون إليه

﴿ وَقَالُوا مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

قال أبو إسحق السبيعى عن عبد الله بن أبى الهذيل عن ابن عباس (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) الآية قال اللبن وقال العوفى عن ابن عباس (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرانهم وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء فنهى الله عن ذلك وكذا قال السدى وقال الشعبى البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال مجاهد فى قوله (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) قال هى السائبة والبحيرة وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة فى قول الله (سيجزيهم وصفهم) أى قولهم الكذب فى ذلك يعنى كقوله تعالى (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع) الآية إنه (حكيم) أى فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى قدخسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم وضيقوا عليهم فى أموالهم فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم وأما فى الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم كقوله تعالى (إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقال الحافظ أبوبكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا عبد الرحمن بن المبارك حدثنا أبو عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) وهكذا رواه البخارى منفرداً فى كتاب مناقب قريش من صحيحه عن أبى النعمان محمد بن الفضل عارم عن أبى عوانة واسمه الوضاح بن عبد الله اليشكرى عن أبى بشر واسمه جعفر بن أبى وحشية عن إياس به

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مبينا أنه الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزؤوها فجعلوا منها حراما وحلالا فقال (وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس معروشات مسموكات وفى رواية فالمعروشات ماعرش الناس وغير معروشات ماخرج فى البر والجبال من الثمرات ، وقال عطاء الخراسانى عن ابن عباس معروشات ماعرش من الكرم وغير معروشات مالم يعرش من الكرم وكذا قال السدى وقال ابن جريج متشابها وغير متشابه قال متشابها فى المنظر وغير متشابه فى المطعم وقال محمد بن كعب (كلوا من ثمره إذا أثمر) قال من رطبه وعنبه ، وقوله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) قال ابن جرير قال بعضهم هى الزكاة المفروضة حدثنا عمرو حدثنا عبد الصمد حدثنا يزيد بن درهم قال سمعت أنس بن مالك يقول (وآتوا حقه يوم حصاده) قال الزكاة المفروضة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وآتوا حقه يوم حصاده) يعنى الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله وكذا قال سعيد بن المسيب ، وقال العوفى عن ابن عباس (وآتوا حقه يوم حصاده) وذلك أن الرجل كان إذا زرع فكان يوم حصاده لم يخرج مما حصد شيئاً فقال الله تعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) وذلك أن يعلم ما كيله وحقه من كل عشرة واحد وما يلقط الناس من سنبله ، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود فى سننه من حديث محمد بن إسحق حدثنى محمد بن يحيى بن حبان عن عمه واسع بن حبان عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ أمر من كل جاذ عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق فى المسجد للمساكين وهذا إسناد جيد قوى ، وقال طاوس وأبو الشعثاء وقتادة والحسن والضحاك وابن جريج هى الزكاة وقال الحسن البصرى هى الصدقة من الحب والثمار وكذا قال زيد بن أسلم وقال آخرون وهو حق آخر سوى الزكاة وقال أشعث عن محمد بن سيرين ونافع عن ابن عمر فى قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال كانوا يعطون شيئا سوى الزكاة رواه ابن مردويه وروى عبد الله بن المبارك وغيره عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح فى قوله (وآتوا حقه يوم حصاده) قال يعطى من حضره يومئذ ماتيسر وليس بالزكاة وقال مجاهد إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وآتوا حقه يوم حصاده) قال عند الزرع يعطى القبضة

وعند الصرام يعطى القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصرام ، وقال الثورى عن حماد عن إبراهيم النخعى قال يعطى مثل الضغث وقال ابن المبارك عن شريك عن سالم عن سعيد بن جبير (وآتوا حقه يوم حصاده) قال كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته وفى حديث ابن لهيعة عن دراج عن أبى الهيثم عن سعيد مرفوعا (وآتوا حقه يوم حصاده) قال (ماسقط من السنبل) رواه ابن مردويه وقال آخرون هذا شيء كان واجبا ثم نسخه الله بالعشر أو نصف العشر حكاه ابن جرير عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية وإبراهيم النخعى والحسن والسدى وعطية العوفى وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله ، قلت وفى تسمية هذا نسخا نظر لأنه قد كان شيئاً واجبا فى الأصل ثم إنه فصل بيانه وبين مقدار المخرج وكميته قالوا وكان هذا فى السنة الثانية من الهجرة فالله أعلم ، وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون كما ذكر عن أصحاب الجنة فى سورة « ن » (إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم) أى كالليل الدلهم سوداء محترقة (فتنادوا مصبحين * أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين * فانطلقوا وهم يتخافتون * أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين * وغدوا على حرد) أى قوة وجلد وهمة (قادرين * فلما رأوها قالوا إنا لضالون بل نحن محرومون * قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون * قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين * فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين * عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون * كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

وقوله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) قيل معناه لا تسرفوا فى الاعطاء فتعطوا فوق المعروف وقال أبو العالية كانوا يعطون يوم الحصاد شيئا ثم تباروا فيه وأسرفوا فأنزل الله (ولا تسرفوا) وقال ابن جريج نزلت فى ثابت بن قيس ابن شماس جذ نخلا له فقال لا يأتينى اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله تعالى (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) رواه ابن جرير عنه وقال ابن جريج عن عطاء نهوا عن السرف فى كل شيء ، وقال إياس بن معاوية ما جاوزت به أمر الله فهو سرف ، وقال السدى فى قوله ولا تسرفوا قال لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء وقال سعيد ابن المسيب ومحمد بن كعب فى قوله (ولا تسرفوا) قال لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ربكم ، ثم اختار ابن جرير قول عطاء انه نهى عن الاسراف فى كل شيء ولا شك أنه صحيح لكن الظاهر والله أعلم من سياق الآية حيث قال تعالى (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا) أن يكون عائدا على الأكل أى لا تسرفوا فى الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن كقوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) الآية ، وفى صحيح البخارى تعليقا « كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة » وهذا من هذا والله أعلم وقوله عز وجل (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أى وأنشأ لكم من الأنعام ماهو حمولة وما هو فرش قيل المراد بالحمولة مايحمل عليه من الإبل والفرش الصغار منها كما قال الثورى عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله فى قوله حمولة ما حمل عليه من الإبل وفرشا الصغار من الإبل رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه : وقال ابن عباس الحمولة هى الكبار والفرش الصغار من الإبل وكذا قال مجاهد ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أما الحمولة فالابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه وأما الفرش فالغنم واختاره ابن جرير قال وأحسبه إنما سمى فرشا لدنوه من الأرض ، وقال الربيع بن أنس والحسن والضحاك وقتادة وغيره الحمولة الابل والبقر والفرش الغنم . وقال السدى أما الحمولة فالابل وأما الفرش فالفصلان والعجاجيل والغنم وما حمل عليه فهو حمولة وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الحمولة ما تركبون والفرش ما تأكلون وتحلبون : شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافا وفرشا وهذا الذى قاله عبد الرحمن فى تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال تعالى (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين) إلى أن قال (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وقال تعالى (الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون *

ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون) وقوله تعالى (كلوا مما رزقكم الله) أى من الثمار والزروع والأنعام فكلها خلقها الله وجعلها رزقا لكم (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا مارزقهم الله أى من الثمار والزروع افتراء على الله (إنه لكم) أى إن الشيطان أيها الناس لكم (عدو مبين) أى بين ظاهر العداوة كما قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما) الآية وقال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) والآيات فى هذا كثيرة فى القرآن

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّٰكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعا بحيرة وسائبة ووصيلة وحاما وغير ذلك من الأنواع التى ابتدعوها فى الأنعام والزروع والثمار فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشا . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن وسواد وهو المعز[1] ذكره وأنثاه وإلى إبل ذكورها وإناثها وبقر كذلك وأنه تعالى لم يحرم شيئا من ذلك ولا شيئا من أولادها بل كلها مخلوقة لبنى آدم أكلا وركوبا وحمولة وحلبا وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) الآية وقوله تعالى (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) رد عليهم فى قولهم (مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا الآية وقوله تعالى (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) أى أخبرونى عن يقين كيف حرم الله عليكم مازعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك ، وقال العوفى عن ابن عباس قوله (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) فهذه أربعة أزواج (قل آلذكرين حرم أم الانثيين) يقول لم أحرم شيئا من ذلك (أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين) يعنى هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم تحرمون بعضا وتحلون بعضا ؟ (نبئونى بعلم إن كنتم صادقين) يقول تعالى كله حلال وقوله تعالى (أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا) تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) أى لا أحد أظلم منه (إن الله لا يهدى القوم الظالمين) وأول من دخل فى هذه الآية عمرو بن لحى بن قمعة لأنه أول من غير دين الأنبياء وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامى كما ثبت ذلك فى الصحيح

﴿ قُل لَّا أَجِدُ مَا أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمرا عبده ورسوله محمدا ﷺ (قل) يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله (لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) أى آكل يأكله قيل معناه لا أجد شيئا مما حرمتم حراما سوى هذه وقيل معناه لا أجد من الحيوانات شيئا حراما سوى هذه فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا فى سورة المائدة وفى الأحاديث الواردة رافعا للمفهوم هذه الآية ومن الناس من يسمى هذا نسخا والأكثرون من المتأخرين لا يسمونه نسخاً لأنه من باب رفع مباح الأصل والله أعلم ، وقال العوفى عن ابن عباس (أو دما مسفوحا) يعنى المهراق

(١) ليس كل الضأن أبيض ولا كل المعز أسود وليس فى الآية ذكر للبياض والسواد

وقال عكرمة فى قوله (أو دما مسفوحا) لولاهذهالآية لتتبع الناس مافى العروق كما تتبعه اليهود ، وقال حماد عن عمران ابن جرير قال سألت أبا مجلز عن الدم ، وما يتلطخ من الذبيح من الرأس وعن القدرير فيها الحمرة فقال إنما نهى الله عن الدم المسفوح وقال قتادة حرم من الدماء ما كان مسفوحا فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا حجاج بن منهاج حدثنا حماد عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت لا ترى بلحوم السباع بأسا والحمرة والدم يكونان على القدر بأسا وقرأت هذه الآية صحيح غريب

وقال الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار قال قلت لجابر بن عبد الله إنهم يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر فقال قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أبى ذلك البحر يعنى ابن عباس وقرأ (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية وكذا رواه البخارى عن على بن المدينى عن سفيان به ،وأخرجه أبو داود من حديث ابن جريج عن عمرو بن دينار ورواه الحاكم فى مستدركه مع أنه فى صحيح البخارى كما رأيت ، وقال أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين حدثنا محمد بن شريك عن عمرو بن دينار عن أبى الشعثاء عن ابن عباس قال كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا فبعث الله نبيه وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو وقرأ هذه الآية (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود منفردا به عن محمد بن داود بن صبيح عن أبى نعيم به وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت يارسول الله ماتت فلانة تعنى الشاة قال « فلم لا أخذتم مسكها » قالت نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله ﷺ « إنما قال الله (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مفسوحا أو لحم خنزير) وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه فتنتفعوا به » فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها » رواه أحمد ورواه البخارى والنسائى من حديث الشعبى عن عكرمة عن ابن عباس عن سودة بنت زمعة بذلك أو نحوه وقال سعيد بن منصور حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عيسى بن نميلة الفزارى عن أبيه قال كنت عند ابن عمر فسأله رجل عن أكل القنفذ فقرأ عليه (قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه) الآية فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول ذكر عند النبى ﷺ فقال « خبيث من الخبائث » فقال ابن عمر : إن كان النبى ﷺ قاله فهو كما قال ورواه أبو داود عن أبى ثور عن سعيد بن منصور به

وقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أى فمن اضطر إلى أكل شىء مما حرم الله فى هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغى ولا عدوان (فان ربك غفور رحيم) أى غفور له رحيم به وقد تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم وإنما حرم ما ذكر فى هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما عدا ذلك فلم يحرم وإنما هو عفو مسكوت عنه فكيف تزعمون أنتم أنه حرام ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟ وعلى هذا فلا يبقى تحريم أشياء أخر فيما بعد هذا كما جاء النهى عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذى مخلب من الطير على المشهور من مذاهب العلماء

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى وحرمنا على اليهود كل ذى ظفر وهو البهائم والطير مالم يكن مشقوق الأصابع كالابل

والنعام والإوز والبط قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) وهوالبعير والنعامة وكذا قال مجاهد والسدى فى رواية وقال سعيد بن جبير هو الذى ليس منفرج الأصابع وفى رواية عنه كل متفرق الأصابع ومنه الديك وقال قتادة فى قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) وكان يقال البعير والنعامة وأشياء من الطير والحيتان وفى رواية البعير والنعامة وحرم عليهم من الطير البط وشبهه وكل شىء ليس بمشقوق الأصابع ، وقال ابن جريج عن مجاهد كل ذى ظفر قال النعامة والبعير شقاشقا قلت للقاسم بن أبى بزة وحدثته ماشقاشقا قال كل مالا ينفرج من قوائم البهائم قال وما انفرج أكلته قال انفرجت قوائم البهائم والعصافير قال فيهود تأكله قال ولم تنفرج قائمة البعير — خفه — ولا خف النعامة ولا قائمة الوز فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعامة ولا الوز ولا كل شىء لم تنفرج قائمته ولا تأكل حمار الوحش ، وقوله تعالى (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) قال السدى يعنى الثرب وشحم الكليتين وكانت اليهود تقول إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه وكذا قال ابن زيد ، وقال قتادة الثرب[1] وكل شحم كان كذلك ليس فى عظم ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إلا ماحملت ظهورهما) يعنى ماعلق بالظهر من الشحوم ، وقال السدى وأبوصالح الألية مما حملت ظهورهما وقوله تعالى (أو الحوايا) قال الإمام أبوجعفر بن جرير الحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحوية وهو ماتحوى من البطن فاجتمع واستدار وهى بنات اللبن وهى المباعر وتسمى المرابض وفيها الأمعاء قال ومعنى الكلام : ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ماحملت ظهورهما وما حملت الحوايا . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أو الحوايا وهى المبعر وقال مجاهد الحوايا المبعر والمربض وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وقتادة وأبومالك والسدى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد الحوايا المرابض التى تكون فيها الأمعاء تكون وسطها وهى بنات اللبن وهى فى كلام العرب تدعى المرابض ، وقوله تعالى (أوما اختلط بعظم) يعنى إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم ، وقال ابن جريج شحم الألية ما اختلط بالعصعص فهو حلال وكل شىء فى القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه قاله السدى وقوله تعالى (ذلك جزيناهم ببغيهم) أى هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا كما قال تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا) وقوله (وإنا لصادقون) أى وإنا لعادلون فيما جازيناهم به وقال ابن جرير وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذى حرمه على نفسه والله أعلم وقال عبد الله بن عباس بلغ عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن سمرة باع خمرا فقال قاتل الله سمرة ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها » أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس عن عمر به وقال الليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب قال : قال عطاء بن أبى رباح سمعت جابر بن عبد الله يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح « ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل يارسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس فقال « لا هو حرام » ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك « قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه » ورواه الجماعة من طرق عن يزيد بن أبى حبيب به ، وقال الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها » ورواه البخارى ومسلم جميعا عن عبدان عن ابن المبارك عن يونس عن الزهرى به ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن إسحق حدثنا سليمان بن حرب حدثنا وهيب حدثنا خالد الحذاء عن بركة أبى الوليد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان قاعدا خلف المقام فرفع بصره إلى السماء فقال « لعن الله اليهود — ثلاثا — إن الله حرم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها وان الله لم يحرم على قوم أكل شىء إلا حرم عليهم ثمنه » وقال الإمام أحمد حدثنا على بن عاصم أنبأنا خالد الحذاء عن بركة أبى الوليد أنبأنا ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا فى المسجد مستقبلا الحجر فنظر إلى السماء

(١) الثرب بالفتح : الشحم الذى على الكرش والأمعاء .

وضحك وقال « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » ورواه أبو داود من حديث خالد الحذاء ، وقال الأعمش عن جامع بن شداد عن كلثوم عن أسامة بن زيد قال دخلنا على رسول الله ﷺ وهو مريض نعوده فوجدناه نائما قد غطى وجهه ببرد عدني فكشف عن وجهه وقال « لعن الله اليهود يحرمون شحوم الغنم ويأكلون أثمانها » وفي رواية « حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها » وفي لفظ لأبي داود عن ابن عباس مرفوعا « إن الله إذا حرم أكل شيء حرم عليهم ثمنه »

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل (ربكم ذو رحمة واسعة) وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله (ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين) ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى في آخر هذه السورة (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) وقال تعالى (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) وقال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) وقال (إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد * وهو الغفور الودود) والآيات في هذا كثيرة جدا .

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا بذلك ولهذا قالوا (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) كما في قوله تعالى (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) الآية وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء قال الله تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء وهي حجة داحضة باطلة لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام وأذاق المشركين من أليم الانتقام (قل هل عندكم من علم) أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه (فتخرجوه لنا) أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه (إن تتبعون إلا الظن) أي الوهم والخيال والمراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد (وإن أنتم إلا تخرصون) تكذبون على الله فيما ادعيتموه ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (ولو شاء الله ما أشركنا) وقال (كذلك كذب الذين من قبلهم) ثم قال (ولو شاء الله ما أشركوا) فإنهم قالوا عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زلفى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم فقوله (ولو شاء الله ما أشركوا) يقول تعالى لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين ، وقوله تعالى (قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) يقول تعالى لنبيه ﷺ (قل) لهم يا محمد (فلله الحجة البالغة) أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل (فلو شاء لهداكم أجمعين) فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) وقال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم

من الجنة والناس أجمعين) قال الضحاك لا حجة لأحد عصى الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده وقوله تعالى (قل هلم شهداءكم) أى أحضروا شهداءكم (الذين يشهدون أن الله حرم هذا) أى هذا الذى حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه (فان شهدوا فلا تشهد معهم) أى لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبا وزورا (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون) أى يشركون به ويجعلون له عديلا .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال داود الأودى عن الشعبى عن علقمة عن ابن مسعود رضى الله عنه قال من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا — إلى قوله — لعلكم تتقون) وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا بكر بن محمد الصيرفى عن عروة حدثنا عبدالصمد بن الفضل حدثنا مالك بن إسماعيل المهدى حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الله بن خليفة قال سمعت ابن عباس يقول فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) الآيات ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه . قلت ورواه زهير وقيس بن الربيع كلاهما عن أبى إسحق عن عبد الله بن قيس عن ابن عباس به والله أعلم وروى الحاكم أيضا فى مسنده من حديث يزيد بن هارون عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن أبى إدريس عن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « أيكم يبايعنى على ثلاث » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من الآيات « فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وإنما اتفقا على حديث الزهرى عن أبى إدريس عن عبادة « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً » الحديث ، وقد روى سفيان بن حسين كلا الحديثين فلا ينبغى أن ينسب إلى الوهم فى أحد الحديثين إذا جمع بينهما والله أعلم . وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا مارزقهم الله وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم (قل) لهم (تعالوا) أى هلموا وأقبلوا (أتل ماحرم ربكم عليكم) أى أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ولا ظنا بل وحيا منه وأمرا من عنده (ألا تشركوا به شيئا) وكأن فى الكلام محذوفا دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم (ألا تشركوا به شيئا) ولهذا قال فى آخر الآية (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكما قال الشاعر :

حج وأوصى بسليمى الأعبدا * أن لاترى ولا تكلم أحدا * ولا يزل شرابها مبردا

وتقول العرب أمرتك أن لا تقوم وفى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئا من أمتك دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر » وفى بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه عليه الصلاة والسلام قال فى الثالثة « وإن رغم أنف أبى ذر » فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث « وإن رغم أنف أبى ذر » وفى بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول تعالى ﴿ يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فانى أغفر لك على ماكان منك ولا أبالى ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة مالم تشرك بى شيئا ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ﴾ ولهذا شاهد فى

القرآن قال الله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جدا ، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبى الدرداء « لا تشركوا بالله شيئا وإن قطعتم أوصلبتم أو حرقتم » وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنى سيار بن عبدالرحمن عن يزيد بن قوذر عن سلمة بن شريح عن عبادة بن الصامت قال أوصانا رسول الله ﷺ بسبع خصال « ألا تشركوا بالله شيئا وإن حرقتم وقطعتم وصلبتم » رواه ابن أبى حاتم . وقوله تعالى (وبالوالدين إحسانا) أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا أى أن تحسنوا إليهم كما قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقرأ بعضهم ، ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا » أى أحسنوا إليهم والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما وقال تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا) الآية والآيات فى هذا كثيرة وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « برالوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قال ابن مسعود حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبى الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله صلى الله عليه وسلم « أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » ولكن فى إسنادهما ضعف والله أعلم . وقوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم) لما أوصى تعالى بالوالدين[1] والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق) وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت ثم أى قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت ثم أى قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) الآية وقوله تعالى (من إملاق) قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره هو الفقر أى ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل ، وقال فى سورة الاسراء (ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق) أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر فى الآجل ولهذا قال هناك (نحن نرزقهم وإياكم) فبدأ برزقهم للاهتمام بهم أى لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال (نحن نرزقكم وإياهم) لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) كقوله تعالى (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) وقد تقدم تفسيرها فى قوله تعالى (وذروا ظاهرا الإثم وباطنه) وفى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وقال عبد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاه المغيرة قال : قال سعد بن عبادة لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » أخرجاه وقال كامل أبو العلاء عن أبى صالح عن أبى هريرة قال قيل يارسول الله إنا نغار قال « والله إنى لأغار والله أغير منى ومن غيرته نهى عن الفواحش » رواه ابن مردويه ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة وهو على شرط الترمذى فقد روى بهذا السند . أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين » وقوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيدا وإلا فهو

(١) فى نسخة الأزهر : ببر الآباء الخ

داخل فى النهى عن الفواحش ماظهر منها وما بطن فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفى لفظ لمسلم « والذى لا إله غيره لايحل دم رجل مسلم وذكره قال الأعمش فحدثت به إبراهيم فحدثنى عن الأسود عن عائشة بمثله وروى أبوداود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث خصال زان محصن يرجم ، ورجل قتل متعمدا فيقتل ورجل يخرج من الإسلام وحارب الله ورسوله فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض » وهذا لفظ النسائى وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو محصور سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه ، أوزنى بعد احصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس » فوالله مازنيت فى جاهلية ولا إسلام . ولا تمنيت أن لى بدينى بدلامنه بعد إذ هدانى الله ، ولاقتلت نفسا ، فيم تقتلوننى ؟ » رواه الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى هذا حديث حسن ، وقد جاء النهى والزجر والوعيد فى قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب فروى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ مرفوعا « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً » رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح ، وقوله (ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) و (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) الآية فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم) قال فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم رواه أبوداود ، وقوله تعالى (حتى يبلغ أشده) قال الشعبى ومالك وغير واحد من السلف يعنى حتى يحتلم وقال السدى حتى يبلغ ثلاثين سنة ، وقيل أربعون سنة وقيل ستون سنة قال وهذا كله بعيد هاهنا والله أعلم ، وقوله تعالى (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط) يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه فى قوله تعالى (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان وفى كتاب الجامع لأبى عيسى الترمذى من حديث الحسين بن قيس أبى على الرحبى عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحاب الكيل والميزان « إنكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم » ثم قال لانعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسين وهو ضعيف فى الحديث وقد روى بإسناد صحيح عن ابن عباس موقوفا ، قلت وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث شريك عن الأعمش عن سالم بن أبى الجعد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنكم معشر الموالى قد بشركم الله بخصلتين بها هلكت القرون المتقدمة المكيال والميزان » وقوله تبارك وتعالى (لانكلف نفسا إلا وسعها) أى من اجتهد فى أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه وقد روى ابن مردويه من حديث بقية عن ميسرة بن عبيد عن عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه عن

سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها) فقال «من أوفى على يده فى الكيل والميزان والله يعلم صحة نيته بالوفاء فيهما لم يؤاخذ وذلك تأويل وسعها» هذا مرسل غريب وقوله (وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) كقوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط) الآية وكذا التى تشبهها فى سورة النساء يأمر تعالى بالعدل فى الفعال والمقال على القريب والبعيد والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد فى كل وقت وفى كل حال ، وقوله (وبعهد الله أوفوا) قال ابن جرير يقول وبوصية الله التى أوصاكم بها فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم وتعملوا بكتابه وسنة رسوله وذلك هو الوفاء بعهد الله (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) يقول تعالى هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه (لعلكم تذكرون) أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وفى قوله (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) ونحو هذا فى القرآن قال أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد وقال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا الأسود بن عامر شاذان حدثنا أبو بكر هو ابن عياش عن عاصم هو ابن أبى النجود عن أبى وائل عن عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه قال خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وكذا رواه الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبى بكر بن عياش به وقال صحيح ولم يخرجاه ، وهكذا رواه أبو جعفر الرازى وورقاء وعمرو بن أبى قيس عن عاصم عن أبى وائل شقيق بن سلمة عن ابن مسعود مرفوعا به نحوه وكذا رواه يزيد بن هرون ومسدد والنسائى عن يحيى بن حبيب بن عربى وابن حبان من حديث ابن وهب أربعتهم عن حماد بن زيد عن عاصم عن أبى وائل عن ابن مسعود به ، وكذا رواه ابن جرير عن المثنى عن الحمانى عن حماد بن زيد به ورواه الحاكم عن أبى بكر بن إسحق عن إسماعيل بن إسحق القاضى عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد به كذلك وقال صحيح ولم يخرجاه . وقد روى هذا الحديث النسائى والحاكم من حديث أحمد بن عبد الله بن يونس عن أبى بكر بن عياش عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث يحيى الحمانى عن أبى بكر بن عياش عن عاصم عن زر به فقد صححه الحاكم كما رأيت من الطريقين ولعل هذا الحديث عن عاصم بن أبى النجود عن زر وعن أبى وائل شقيق بن سلمة كلاهما عن ابن مسعود به والله أعلم . وقال الحاكم وشاهد هذا الحديث حديث الشعبى عن جابر من وجه غير معتمد . يشير إلى الحديث الذى قال الإمام أحمد وعبد بن حميد جميعا واللفظ لأحمد حدثنا عبد الله بن محمد وهو أبو بكر بن أبى شيبة أنبأنا أبو خالد الأحمر عن مجالد عن الشعبى عن جابر قال كنا جلوسا عند النبى ﷺ فخط خطاً هكذا أمامه فقال « هذا سبيل الله » وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال « هذه سبل الشيطان » ثم وضع يده فى الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) ورواه أحمد وابن ماجه فى كتاب السنة من سننه والبزار عن أبى سعيد عبد الله بن سعيد عن أبى خالد الأحمر به قلت ورواه الحافظ بن مردويه من طريقين عن أبى سعيد الكندى حدثنا أبو خالد عن مجالد عن الشعبى عن جابر قال خط رسول الله ﷺ خطا وخط عن يمينه خطا وخط عن يساره خطا ووضع يده على الخط الأوسط وتلا هذه الآية (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) ولكن العمدة على حديث ابن مسعود مع ما فيه من الاختلاف ان كان مؤثرا ، وقد روى موقوفا عليه قال ابن جرير حدثنا محمد بن

عبدالأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أبان بن عثمان أن رجلا قال لابن مسعود ما الصراط المستقيم ؟ قال تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد وعن يساره جواد ثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ فى تلك الجواد انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة ثم قرأ ابن مسعود (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) الآية وقال ابن مردويه حدثنا أبو عمرو حدثنا محمد بن عبدالوهاب حدثنا آدم حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا أبان بن عياش عن مسلم بن أبى عمران عن عبد الله بن عمر سأل عبد الله عن الصراط المستقيم فقال ابن مسعود تركنا محمد ﷺ فى أدناه وطرفه فى الجنة وذكر تمام الحديث كما تقدم والله أعلم

وقد روى من حديث النواس بن سمعان نحوه قال الإمام أحمد حدثنى الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعنى ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير بن نفير حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعا ولا تفرقوا وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فانك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم » ورواه الترمذى والنسائى عن على بن حجر زاد النسائى وعمرو بن عثمان كلاهما عن بقية بن الوليد عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن النواس بن سمعان به ، وقال الترمذى حسن غريب وقوله تعالى (فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) إنما وحد سبيله لأن الحق واحد ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا سفيان بن حسين عن الزهرى عن أبى إدريس الخولانى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « أيكم يبايعنى على هؤلاء الآيات الثلاث » ثم تلا (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) حتى فرغ من ثلاث آيات ثم قال « ومن وفى بهن فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله فى الدنيا كانت عقوبته ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه »

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قال ابن جرير (ثم آتينا موسى الكتاب) تقديره ثم قل يا محمد مخبرا عنا انا آتينا موسى الكتاب بدلالة قوله (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم) قلت وفى هذا نظر وثم ههنا إنما هى لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب ههنا كما قال الشاعر

قل لمن ساد ثم ساد أبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده

وههنا لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) عطف بمدح التوراة ورسولها فقال ثم آتينا موسى الكتاب وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى (ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا) وقوله أول هذه السورة (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا) الآية وبعدها (وهذا كتاب أنزلناه مبارك) الآية وقال تعالى مخبرا عن المشركين (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) قال تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون) وقال تعالى مخبرا عن الجن انهم قالوا (يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق) الآية وقوله تعالى (تماماً على الذى أحسن وتفصيلا) أى آتيناه الكتاب الذى أنزلناه إليه تماماً كاملا جامعا لما يحتاج إليه فى شريعته كقوله (وكتبنا

له فى الألواح من كل شىء) الآية وقوله تعالى (على الذى أحسن) أى جزاء على إحسانه فى العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله (هل حزاء الإحسان إلا الإحسان) وكقوله (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما) وكقوله (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس (ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن) يقول أحسن فيما أعطاه الله وقال قتادة من أحسن فى الدنيا تمم له ذلك فى الآخرة واختار ابن جرير أن تقديره (ثم آتينا موسى الكتاب تماما) على إحسانه فكأنه جعل الذى مصدرية كما قيل فى قوله تعالى (وخضتم كالذى خاضوا) أى كخوضهم وقال ابن رواحة

وثبت الله ما آتاك من حسن * فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا

وقال آخرون الذى ههنا بمعنى الذين قال ابن جرير وذكر عن عبدالله بن مسعود أنه كان يقرؤها تماما على الذين أحسنوا وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد تماما على الذى أحسن قال على المؤمنين والمحسنين وكذا قال أبو عبيدة وقال البغوى المحسنون الأنبياء والمؤمنون . يعنى أظهرنا فضله عليهم قلت كقوله تعالى (قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) ولا يلزم اصطفاؤه على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والخليل عليهما السلام لأدلة أخرى قال ابن جرير وروى أبو عمرو بن العلاء عن يحيى بن يعمر أنه كان يقرؤها تماما على الذى أحسن رفعا بتأويل على الذى هو أحسن ثم قال وهذه قراءة لا أستجيز القراءة بها وإن كان لها فى العربية وجه صحيح ، وقيل معناه تماما على إحسان الله إليه زيادة على ما أحسن إليه حكاه ابن جرير والبغوى ولا منافاة بينه وبين القول الأول وبه جمع ابن جرير كما بيناه ولله الحمد وقوله تعالى (وتفصيلا لكل شىء وهدى ورحمة) فيه مدح لكتابه الذى أنزله الله عليه (لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) فيه الدعوة إلى اتباع القرآن يرغب سبحانه عباده فى كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين

﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَٰبُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾

قال ابن جرير معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا (إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا) يعنى لينقطع عذركم كقوله تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك) الآية وقوله تعالى (على طائفتين من قبلنا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هم اليهود والنصارى وكذا قال مجاهد والسدى وقتادة وغير واحد وقوله (وإن كنا عن دراستهم لغافلين) أى وما كنا نفهم ما يقولون لأنهم ليسوا بلساننا ونحن فى غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه وقوله (أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) أى وقطعنا تعللكم أن تقولوا لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) الآية وهكذا قال ههنا (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) يقول فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبى العربى قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما فى القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه . وقوله تعالى (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أى لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل به ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله أى صرف الناس وصدهم عن ذلك قاله السدى، وعن ابن عباس ومجاهد وقتادة وصدف عنها أعرض عنها وقول السدى ههنا فيه قوة لأنه قال (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) كما تقدم فى أول السورة (وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) وقال فى هذه الآية الكريمة (سنجزى الذين

يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) وقد يكون المراد فيما قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) أى لا آمن بها ولا عمل بها كقوله تعالى (فلا صدق ولاصلى ولكن كذب وتولى) وغير ذلك من الآيات الدالة على اشتمال الكافر على التكذيب بقلبه وترك العمل بجوارحه ولكن كلام السدى أقوى وأظهر والله أعلم لأن الله قال (فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها) كقوله تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعدا للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك) وذلك كائن يوم القيامة (أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لاينفع نفسا إيمانها) وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئا من أشراط الساعة كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا عمارة حدثنا أبو زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها » فذلك حين (لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) حدثنا إسحق حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها » وفى لفظ « فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون وذلك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » ثم قرأ هذه الآية . هكذا روى هذا الحديث من هذين الوجهين ومن الوجه الأول أخرجه بقية الجماعة فى كتبهم إلا الترمذى من طرق عن عمارة بن القعقاع بن شبرمة عن أبى زرعة ابن عمرو بن جرير عن أبى هريرة به .

وأما الطريق الثانى فرواه عن إسحق غير منسوب وقيل هو ابن منصور الكوسج وقيل إسحق بن نصر والله أعلم وقد رواه مسلم عن محمد بن رافع الجنديسابورى كلاهما عن عبد الرزاق به وقد ورد هذا الحديث من طرق أخر عن أبى هريرة كما انفرد مسلم بروايته من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب مولى الحرقة عن أبيه عن أبى هريرة به ، وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن فضيل عن أبيه عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إذا خرجن لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » ورواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبى حازم سلمان عن أبى هريرة به وعنده والدخان ورواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وزهير بن حرب عن وكيع ورواه هو أيضا والترمذى من غير وجه عن فضيل بن غزوان به ورواه إسحق بن عبد الله القروى عن مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ولكن لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذا الوجه لضعف القروى والله أعلم ، وقال ابن جرير حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا شعيب بن الليث عن أبيه عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت آمن الناس كلهم وذلك حين لاينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » الآية ورواه ابن لهيعة عن الأعرج عن أبى هريرة به ورواه وكيع عن فضيل بن غزوان عن أبى حازم عن أبى هريرة به أخرج هذه الطرق كلها الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره ، وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن أيوب عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها قبل منه » لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة

(حديث آخر) عن أبى ذر الغفارى فى الصحيحين وغيرهما من طرق عن إبراهيم بن يزيد بن شريك التيمى عن أبيه

عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت لا أدري : قال « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ثم تقوم حتى يقال لها ارجعي فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها ارجعي من حيث جئت وذلك حين (لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) »

(حديث آخر) عن حذيفة بن أسيد بن أبي شريحة الغفاري رضي الله عنه ، قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا سفيان عن فرات عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال رسول الله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، وخروج الدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا » وهكذا رواه مسلم وأهل السنن الأربعة من حديث فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد به وقال الترمذي حسن صحيح . (حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، قال الثوري عن منصور عن ربعي عن حذيفة قال سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله ما آية طلوع الشمس من مغربها ؟ فقال النبي ﷺ « تطول تلك الليلة حتى تكون قدر ليلتين فينتبه الذين كانوا يصلون فيها فيعملون كما كانوا يعملون قبلها والنجوم لاترى قد غابت مكانها ثم يرقدون ثم يقومون فيصلون ثم يرقدون ثم يقومون تبطل عليهم جنوبهم حتى يتطاول عليهم الليل فيفزع الناس ولا يصحون فبينماهم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذ طلعت من مغربها فاذا رآها الناس آمنوا فلم ينفعهم إيمانهم » رواه ابن مردويه وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه والله أعلم

(حديث آخر) عن أبي سعيد الخدري واسمه سعد بن مالك بن سنان رضي الله عنه وأرضاه قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا ابن أبي ليلى عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ « (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها) ـ قال ـ طلوع الشمس من مغربها » ورواه الترمذي عن سفيان بن وكيع عن أبيه به وقال غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه وفي حديث طالوت بن عباد عن فضال بن جبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال : قال رسول الله ﷺ « إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها » وفي حديث عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن صفوان بن عسال قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله فتح بابا قبل المغرب عرضه سبعون عاما للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه » رواه الترمذي وصححه النسائي وابن ماجه في حديث طويل

(حديث آخر) عن عبد الله بن أبي أوفى قال ابن مردويه حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا ضرار بن صرد حدثنا ابن فضيل عن سليمان بن زيد عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ليأتين على الناس ليلة تعدل ثلاث ليالي من لياليكم هذه فاذا كان ذلك يعرفها المتنفلون يقوم أحدهم فيقرأ حزبه ثم ينام ثم يقوم فيقرأ حزبه ثم ينام فبينماهم كذلك إذ صاح الناس بعضهم في بعض فقالوا ما هذا فيفزعون إلى المساجد فاذا هم بالشمس قد طلعت حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت وطلعت من مطلعها ـ قال حينئذ ـ لا ينفع نفساً إيمانها » هذا حديث غريب من هذا الوجه وليس هو في شيء من الكتب الستة

(حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا أبو حيان عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات يقول إن أولها خروج الدجال قال فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات فقال لم يقل مروان شيئا حفظت من رسول الله ﷺ يقول « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة ضحى فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها » ثم قال عبد الله وكان يقرأ الكتب وأظن أولها خروجا طلوع الشمس من مغربها وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع حتى إذا بدا لله

أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل، أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت فى الرجوع فلم يرد عليها شىء ثم استأذنت فى الرجوع فلا يرد عليها شىء حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إذا أذن لها فى الرجوع لم تدرك المشرق قالت رب ما أبعد المشرق من لى بالناس حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت فى الرجوع فيقال لها من مكانك فاطلعى فطلعت على الناس من مغربها ثم تلا عبدالله هذه الآية (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) الآية وأخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود وابن ماجه فى سننهما من حديث أبى حيان التيمى واسمه يحيى بن سعيد بن حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير به (حديث آخر عنه) قال الطبرانى حدثنا أحمد بن يحيى بن خالد بن حيان الرقى حدثنا إسحق بن إبراهيم ابن زريق الحمصى حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار حدثنا ابن لهيعة عن حيى بن عبد الله عن أبى عبدالرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال النبى ﷺ « إذا طلعت الشمس من مغربها خر إبليس ساجدا ينادى ويجهر إلهى مرنى أن أسجد لمن شئت - قال - فيجتمع إليه زبانيته فيقولون كلهم ما هذا التضرع فيقول إنما سألت ربى أن ينظرنى إلى الوقت المعلوم وهذا الوقت المعلوم - قال - ثم تخرج دابة الأرض من صدع فى الصفا - قال - فأول خطوة تضعها بانطاكيا فتأتى إبليس فتلطمه » هذا حديث غريب جدا وسنده ضعيف ولعله من الزاملتين اللتين أصابهما عبد الله بن عمرو يوم اليرموك فأما رفعه فمنكر والله أعلم (حديث آخر) عن عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهم أجمعين قال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد يرده إلى مالك بن يخامر عن ابن السعدى أن رسول الله ﷺ قال « لا تنقطع الهجرة مادام العدو يقاتل » فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص إن رسول الله ﷺ قال « إن الهجرة خصلتان إحداهما تهجر السيئات والأخرى تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع ما تقبلت التوبة ولا تزال التوبة تقبل حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفى الناس العمل » هذا الحديث حسن الإسناد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة والله أعلم (حديث آخر) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال عوف الأعرابى عن محمد بن سيرين حدثنى أبو عبيدة عن ابن مسعود أنه كان يقول ما ذكر من الآيات فقد مضى غير أربع طلوع الشمس من مغربها ، والدجال . ودابة الأرض وخروج يأجوج ومأجوج . قال وكان يقول الآية التى تختم بها الأعمال طلوع الشمس من مغربها ألم تر أن الله يقول (يوم يأتى بعض آيات ربك) الآية كلها يعنى طلوع الشمس من مغربها . حديث ابن عباس رضى الله عنهما رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه عن ابن عباس مرفوعا فذكر حديثا طويلا غريبا منكرا رفعه ؛ وفيه أن الشمس والقمر يطلعان يومئذ من المغرب مقرونين وإذا انتصفا السماء رجعا ثم عادا إلى ما كانا عليه . وهو حديث غريب جدا بل منكر بل موضوع إن ادعى أنه مرفوع فأما وقفه على ابن عباس أو وهب بن منبه وهو الأشبه فغير مدفوع والله أعلم ، وقال سفيان عن منصور عن عامر عن عائشة رضى الله عنها قالت إذا خرج أول الآيات طرحت وحبست الحفظة وشهدت الأجساد على الأعمال رواه ابن جرير رحمه الله تعالى ، فقوله تعالى (لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل) أى إذا أنشأ الكافر إيمانا يومئذ لا يقبل منه فأما من كان مؤمنا قبل ذلك فان كان مصلحا فى عمله فهو بخير عظيم وإن لم يكن مصلحا فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة وعليه يحمل قوله تعالى (أو كسبت فى إيمانها خيرا) أى ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملا به قبل ذلك وقوله تعالى (قل انتظروا إنا منتظرون) تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) وقوله تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا) الآية

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدى نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) الآية ، وقال ابن جرير حدثنى سعيد بن عمر السكونى حدثنا بقية بن الوليد كتب إلى عباد بن كثير حدثنى ليث عن طاوس عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى هذه الآية « (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) وليسوا منك هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة » لكن هذا إسناد لا يصح فان عباد ابن كثير متروك الحديث ولم يختلق هذا الحديث ولكنه وهم فى رفعه فانه رواه سفيان الثورى عن ليث وهو ابن أبى سليم عن طاوس عن أبى هريرة فى الآية أنه قال نزلت فى هذه الأمة ، وقال أبو غالب عن أبى أمامة فى قوله (وكانوا شيعاً) قال هم الخوارج وروى عنه مرفوعا ولا يصح وقال شعبة عن مجالد عن الشعبى عن شريح عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها « (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً) - قال - هم أصحاب البدع » وهذا رواه ابن مردويه وهو غريب أيضاً ولا يصح رفعه والظاهر أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفا له فان الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق فمن اختلف فيه (وكانوا شيعاً) أى فرقا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فان الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه وهذه الآية كقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك) الآية وفى الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » فهذا هو الصراط المستقيم وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرسول المتأخر وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء والرسل برءآء منها كما قال الله تعالى (لست منهم فى شىء) وقوله تعالى (إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) كقوله تعالى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة) الآية ثم بين لطفه سبحانه فى حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى وهى قوله (من جاء بالحسنة فله خير منها) وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية كما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا الجعد أبو عثمان عن أبى رجاء العطاردى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى « إن ربكم عز وجل رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة . ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك » ورواه البخارى ومسلم والنسائى من حديث الجعد أبى عثمان به وقال أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله عز وجل من عمل حسنة فله عشر أمثاله وأزيد ومن عمل سيئة فجزاؤه مثلها أو أغفر ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقينى لا يشرك بى شيئا جعلت له مثلها مغفرة ومن اقترب إلى شبرا اقتربت إليه ذراعا ومن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » ورواه مسلم عن أبى كريب عن أبى معاوية به وعن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع عن الأعمش به ورواه ابن ماجه عن على بن محمد الطنافسى عن وكيع به ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا شيبان حدثنا حماد حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنه فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب عليه شىء فان عملها كتبت عليه سيئة واحدة » واعلم أن تارك السيئة الذى لا يعملها على ثلاثة أقسام تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى وهذا عمل ونية ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة

كما جاء فى بعض ألفاظ الصحيح فانما تركها من جرائى أى من أجلى ، وتارة يتركها نسيانا وذهولا عنها فهذا لا له ولا عليه لأنه لم ينو خيرا ولا فعل شرا ، وتارة يتركها عجزا وكسلا عنها بعد السعى فى أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قالوا يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصا على قتل صاحبه » وقال الإمام أبو يعلى الموصلى حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا على وحدثنا الحسن بن الصباح وأبو خيثمة قالا حدثنا إسحق بن سليمان كلاهما عن موسى بن عبيدة عن أبى بكر بن عبيدالله بن أنس عن جده أنس قال: قال رسول الله ﷺ « من هم بحسنة كتب الله له حسنة فان عملها كتبت له عشرا ومن هم بسيئة لم تكتب عليه حتى يعملها فإن عملها كتبت عليه سيئة فان تركها كتبت له حسنة يقول الله تعالى إنما تركها من مخافتى » هذا لفظ حديث مجاهد يعنى ابن موسى ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن ابن مهدى حدثنا شيبان بن عبدالرحمن عن الركين بن الربيع عن أبيه عن عمه فلان بن عميلة عن خريم بن فاتك الأسدى أن النبى ﷺ قال « إن الناس أربعة والأعمال ستة فالناس موسع له فى الدنيا والآخرة وموسع له فى الدنيا مقتور عليه فى الآخرة ومقتور عليه فى الدنيا موسع له فى الآخرة وشقى فى الدنيا والآخرة والأعمال موجبتان ومثل بمثل وعشرة أضعاف وسبعمائة ضعف فالموجبتان من مات مسلما مؤمنا لايشرك بالله شيئا وجبت له الجنة ومن مات كافرا وجبت له النار ومن هم بحسنة فلم يعملها فعلم الله أنه قد أشعرها قلبه وحرص عليها كتبت له حسنة ومن هم بسيئة لم تكتب عليه ومن عملها كتبت واحدة ولم تضاعف عليه ومن عمل حسنة كانت عليه بعشر أمثالها ومن أنفق نفقة فى سبيل الله عز وجل كانت بسبعمائة ضعف » ورواه الترمذى والنسائى من حديث الركين بن الربيع عن أبيه عن بشير بن عميلة عن خريم بن فاتك به ببعضه والله أعلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب بن المعلم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يحضر الجمعة ثلاثة نفر رجل حضرها بلغو فهو حظه منها ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحدا فهى كفارة له إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك لأن الله عزوجل يقول (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا هاشم بن مرثد حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها[1] وزيادة ثلاثة أيام وذلك لأن الله تعالى قال (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) » وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله » رواه الإمام أحمد وهذا لفظه والنسائى وابن ماجه والترمذى وزاد « فأنزل الله تصديق ذلك فى كتابه (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) اليوم بعشرة أيام » ثم قال هذا حديث حسن وقال ابن مسعود (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) من جاء بلا إله إلا الله ومن جاء بالسيئة يقول بالشرك وهكذا جاء عن جماعة من السلف رضى الله عنهم أجمعين وقد ورد فيه حديث مرفوع الله أعلم بصحته لكنى لم أروه من وجه يثبت والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف (ديناً قيماً) أى قائما ثابتاً (ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) كقوله (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) وقوله (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم) وقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه

(١) فى النسخة المكية التى قبلها .

اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الاطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام . وقد قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن حفص حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبوداود الطيالسى حدثنا شعبة أنبأنا سلمة بن كهيل سمعت ذر بن عبد الله الهمدانى يحدث عن ابن أبزى عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال « أصبحنا على ملة الاسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الحنيفية السمحة » وقال أحمد أيضا حدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذقنى على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة حتى كنت التى مللت فانصرفت عنه . قال عبد الرحمن عن أبيه قال : قال لى عروة إن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ « لتعلم يهود أن فى ديننا فسحة إنى أرسلت بحنيفية سمحة » أصل الحديث مخرج فى الصحيحين والزيادة لها شواهد من طرق عدة وقد استقصيت طرقها فى شرح البخارى ولله الحمد والمنة ، وقوله تعالى (قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم فى ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لاشريك له وهذا كقوله تعالى (فصل لربك وانحر) أى أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عماهم فيه والاقبال بالقصد والنية والعزم على الاخلاص لله تعالى قال مجاهد فى قوله (إن صلاتى ونسكى) النسك الذبح فى الحج والعمرة وقال الثورى عن السدى عن سعيد بن جبير (ونسكى) قال ذبحى وكذا قال السدى والضحاك ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عوف حدثنا أحمد بن خالد الذهبى حدثنا محمد بن إسحق عن يزيد بن أبى حبيب عن ابن عباس عن جابر ابن عبد الله قال ضحى رسول الله ﷺ فى يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما[1] « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » وقوله عز وجل (وأنا أول المسلمين) قال قتادة أى من هذه الأمة وهو كما قال فان جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الاسلام وأصله عبادة الله وحده لاشريك له كما قال (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقد أخبرنا تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف عليه السلام (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولىي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وقال موسى (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين) وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار) الآية وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالاسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضا إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التى لا تنسخ أبد الآبدين ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة ولهذا قال عليه السلام « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » فإن أولاد العلات هم الإخوة

(١) فى المكية وجهها .

من أب واحد وأمهات شتى فالدين واحدوهوعبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التى هى بمنزلة الأمهات كما أن اخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى والاخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة والله أعلم وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الماجشون حدثنا عبد الله بن الفضل الهاشمى عن الأعرج عن عبيد الله بن أبى رافع عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا كبر استفتح ثم قال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من مشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » إلى آخر الآية(١) « اللهم أنت الملك لا إله أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك » ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله فى الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم فى صحيحه

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين بالله فى اخلاص العبادة له والتوكل عليه (أغير الله أبغى ربا) أى أطلب ربا سواه (وهو رب كل شىء) يربينى ويحفظنى ويكلؤنى ويدبر أمرى ، أى لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شىء ومليكه وله الخلق والأمر . ففى هذه الآية الأمر باخلاص التوكل كما تضمنت التى قبلها اخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا فى القرآن كقوله تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا له (إياك نعبد وإياك نستعين) وقوله (فاعبده وتوكل عليه) وقوله (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) وقوله (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وأشباه ذلك من الآيات . وقوله تعالى (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى) إخبار عن الواقع يوم القيامة فى جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد وهذا من عدله تعالى كما قال (وان تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى) وقوله تعالى (فلا يخاف ظلما ولا هضما) قال علماء التفسير : أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته وقال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) معناه كل نفس مرتهنة بعملها السىء إلا أصحاب اليمين فانه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم كما قال فى سورة الطور (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء) أى ألحقنا بهم ذريتهم فى المنزلة الرفيعة فى الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم فى الأعمال ، بل فى أصل الإيمان ، وما ألتناهم أى نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة ، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته ثم قال (كل امرىء بما كسب رهين) أى من شر ، وقوله (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) أى اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه فى الدار الدنيا كقوله (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ✻ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) أى جعلكم تعمرونها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن وخلفا بعد سلف . قاله ابن زيد وغيره كقوله تعالى (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) وكقوله تعالى

(١) كذا فى النسختين الأميرية والمكية والمراد إلى آخر الآية التى بعدهذه وقد أثبتت الأخيرة فى النسخة الأزهرية . فلم تذكر فيها هذه العبارة

(وبجعلكم خلفاء الأرض) وقوله (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقوله (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) وقوله (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) أى فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوى والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة فى ذلك كقوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) وقوله (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)

وقوله تعالى (ليبلوكم فيما آتاكم) أى ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغنى فى غناه ويسأله عن شكره والفقير فى فقره ويسأله عن صبره . وفى صحيح مسلم من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » وقوله تعالى (إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم) ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله (وإنه لغفور رحيم) لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب . وقال محمد بن إسحق ليرحم العباد على ما فيهم رواه ابن أبى حاتم وكثيرا ما يقرن الله تعالى فى القرآن بين هاتين الصفتين كقوله (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم * وإن ربك لشديد العقاب) وقوله (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها وتارة بهما لينجع فى كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا زهير عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون » ورواه الترمذى عن قتيبة عن عبد العزيز الدراوردى عن العلاء به وقال حسن ورواه مسلم عن يحيى ابن يحيى وقتيبة وعلى بن حجر ثلاثتهم عن إسماعيل بن جعفر عن العلاء وعنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى » وعنه أيضا قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه » رواه مسلم ـ آخر تفسير سورة الأنعام ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة الأعراف وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓصٓ * كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱتَّبِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام فى أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف وبسطه واختلاف الناس فيه، قال ابن جرير حدثنا سفيان ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن عطاء بن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس (المص) أنا الله أفصل وكذا قال سعيد بن جبير (كتاب أنزل إليك) أى هذا كتاب أنزل إليك أى من ربك (فلا يكن فى صدرك حرج منه) قال مجاهد وقتادة والسدى شك منه وقيل لا تتحرج به فى إبلاغه والانذار به (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) ولهذا قال (لتنذر به) أى أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين (وذكرى للمؤمنين) ثم قال تعالى مخاطبا للعالم (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) أى اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه (ولا تتبعوا من دونه أولياء) أى لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره (قليلا ما تذكرون)

كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقوله (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) الآية وقوله (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

يقول الله تعالى (وكم من قرية أهلكناها) أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) وكقوله (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد) وقال تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين) وقوله (فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون) أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أى ليلا أوهم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو كما قال (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقال (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) وقوله (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أى فما كان قولهم عند مجىء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم وأنهم حقيقون بهذا كقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة - إلى قوله - خامدين) قال ابن جرير : فى هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » حدثنا بذلك ابن حميد حدثنا جرير عن أبى سنان عن عبد الملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبد الله بن مسعود قال رسول الله ﷺ « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » قال قلت لعبد الملك كيف يكون ذاك قال فقرأ هذه الآية (فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) ، وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم) الآية كقوله (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) وقوله (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ولهذا قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) قال عما بلغوا ، وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن حدثنا أبو سعيد الكندى حدثنا المحاربى عن ليث عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام يسأل عن رعيته والرجل يسأل عن أهله والمرأة تسأل عن بيت زوجها والعبد يسأل عن مال سيده » قال الليث وحدثنى ابن طاوس مثله ثم قرأ (فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين) وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين بدون هذه الزيادة وقال ابن عباس فى قوله (فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين) يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون (وما كنا غائبين) يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير لأنه تعالى الشهيد على كل شىء لا يغيب عنه شىء ولا يغفل عن شىء بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)

﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى (والوزن) أى للأعمال يوم القيامة (الحق) أى لا يظلم تعالى أحدا كقوله (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) وقال تعالى (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية) وقال تعالى (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون)

﴿ فصل ﴾ والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل الأعمال وإن كانت أعراضا إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساما قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس كما جاء فى الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف . ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون فيقول من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك وأظمأت نهارك . وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح » وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق وقيل يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله فيقول يارب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى إنك لا تظلم . فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذى بنحو من هذا وصححه وقيل يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال «أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد» وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحا فتارة توزن الأعمال وتارة توزن محالها وتارة يوزن فاعلها والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارا وجعل فيها رواسى وأنهارا وجعل لهم فيها منازل وبيوتا وأباح لهم منافعها وسخر لهم السحاب لاخراج أرزاقهم منها وجعل لهم فيها معايش أى مكاسب وأسبابا يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) وقد قرأ الجميع معايش بلا همز إلا عبد الرحمن بن هرمز الأعرج فإنه همزها والصواب الذى عليه الأكثرون بلا همز لأن معايش جمع معيشة من عاش يعيش عيشا ومعيشة أصلها معيشة فاستثقلت الكسرة على الياء فنقلت إلى العين فصارت معيشة فلما جمعت رجعت الحركة إلى الياء لزوال الاستثقال فقيل معايش ووزنه مفاعل لأن الياء أصلية فى الكلمة بخلاف مدائن وصحائف وبصائر جمع مدينة وصحيفة وبصيرة من مدن وصحف وأبصر فإن الياء فيها زائدة ولهذا تجمع على فعائل ونهمز لذلك والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

ينبه تعالى بنى آدم فى هذا المقام على شرف أبيهم آدم ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منطو عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا) وهذا كقوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب وصوره بشرا سويا ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيما لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين وقد تقدم الكلام على إبليس فى أول تفسير سورة البقرة وهذا الذى قررناه هو اختيار ابن جرير أن المراد

بذلك كله آدم عليه السلام وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن منهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) قال خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه ونقل ابن جرير عن بعض السلف أيضا أن المراد بخلقناكم ثم صورناكم الذرية

وقال الربيع بن أنس والسدى وقتادة والضحاك فى هذه الآية (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) أى خلقنا آدم ثم صورنا الذرية وهذا فيه نظر لأنه قال بعده (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فدل على أن المراد بذلك آدم وإنما قيل ذلك بالجمع لأنه أبو البشر كما يقول الله تعالى لبنى إسرائيل الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ (وظللنا عليكم الغمام وأنزلناه عليكم المن والسلوى) والمراد آباؤهم الذين كانوا فى زمن موسى ولكن لما كان ذلك منة على الآباء الذين هم أصل صار كأنه واقع على الأبناء وهذا بخلاف قوله (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) الآية فان المراد منه آدم المخلوق من السلالة وذريته مخلوقون من نطفة وصح هذا لأن المراد من خلقنا الإنسان الجنس لامعيناً والله أعلم

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة فى توجيه قوله تعالى (ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك) لا هنا زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد كقول الشاعر * ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * فأدخل «إن» وهى للنفى على ما النافية لتأكيد النفى قالوا وكذا هنا (ما منعك أن لا تسجد) مع تقدم قوله (لم يكن من الساجدين) حكاهما ابن جرير وردهما واختار أن منعك مضمن معنى فعل آخر تقديره ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا. وهذا القول قوى حسن والله أعلم، وقول إبليس لعنه الله (أنا خير منه) من العذر الذى هو أكبر من الذنب كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول يعنى لعنه الله وأنا خير منه فكيف تأمرنى بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص قوله تعالى (فقعوا له ساجدين) فشذ من بين الملائكة لترك السجود فلهذا أبلس من الرحمة أى أويس من الرحمة فأخطأ قبحه الله فى قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضا فان الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والاصلاح والنار من شأنها الاحراق والطيش والسرعة ولهذا خان إبليس عنصره ونفع آدم عنصره بالرجوع والانابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ «خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» هكذا رواه مسلم وقال ابن مردويه حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا إسماعيل بن عبدالله بن مسعود حدثنا نعيم بن حماد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم» قلت لنعيم بن حماد أين سمعت هذا من عبد الرزاق؟ قال باليمن وفى بعض ألفاظ هذا الحديث فى غير الصحيح «وخلقت الحور العين من الزعفران» وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن كثير عن ابن شوذب عن مطر الوراق عن الحسن فى قوله (خلقتنى من نار وخلقته من طين) قال قاس إبليس وهو أول من قاس إسناده صحيح وقال حدثنى عمر بن مالك حدثنى يحيى بن سليم الطائفى عن هشام عن ابن سيرين قال أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس إسناد صحيح أيضا

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لإبليس بأمر قدرى كونى (فاهبط منها) أى بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى

فما يكون لك أن تتكبر فيها قال كثير من المفسرين الضمير عائد إلى الجنة ويحتمل أن يكون عائداً إلى المنزلة التى هو فيها فى الملكوت الأعلى (فاخرج إنك من الصاغرين) أى الذليلين الحقيرين معاملة له بنقيض قصده ومكافأة لمراده بضده فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين قال (أنظرنى إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين) أجابه تعالى إلى ما سأل لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنذر إبليس (إلى يوم يبعثون) واستوثق إبليس بذلك أخذ فى المعاندة والتمرد فقال (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى كما أغويتنى قال ابن عباس كما أضللتنى وقال غيره كما أهلكتنى لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذى أبعدتنى بسببه على (صراطك المستقيم) أى طريق الحق وسبيل النجاة ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياى وقال بعض النحاة الباء هنا قسمية كأنه يقول فباغوائك إياى لأقعدن لهم صراطك المستقيم قال مجاهد : صراطك المستقيم يعنى الحق وقال محمد بن سوقة عن عون بن عبد الله يعنى طريق مكة ، قال ابن جرير الصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك (قلت) لما روى الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا أبو عقيل يعنى الثقفى عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب أخبرنى سالم بن أبى الجعد عن سبرة بن أبى الفاكه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه فقعد له بطريق الإسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك قال فعصاه وأسلم » قال « وقعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهاد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال قال فعصاه وجاهد » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة وإن قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة وإن غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة » وقوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم) الآية قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ثم لآتينهم من بين أيديهم) أشككهم فى آخرتهم (ومن خلفهم) أرغبهم فى دنياهم (وعن أيمانهم) أشبه عليهم أمر دينهم (وعن شمائلهم) أشهى لهم المعاصى وقال ابن أبى طلحة فى رواية العوفى كلاهما عن ابن عباس أما من بين أيديهم فمن قبل دنياهم وأما من خلفهم فأمر آخرتهم وأما عن أيمانهم فمن قبل حسناتهم وأما عن شمائلهم فمن قبل سيئاتهم وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار ومن خلفهم من أمر الدنيا فزينها لهم ودعاهم إليها وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطأهم عنها وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله . وكذا روى عن إبراهيم النخعى والحكم بن عيينة والسدى وابن جريج إلا أنهم قالوا من بين أيديهم الدنيا ومن خلفهم الآخرة وقال مجاهد من بين أيديهم وعن أيمانهم من حيث يبصرون ومن خلفهم وعن شمائلهم حيث لا يبصرون واختار ابن جرير أن المراد جمع طرق الخير والشر فالخير يصدهم عنه والشر يحسنه لهم وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) ولم يقل من فوقهم لأن الرحمة تنزل من فوقهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولا تجد أكثرهم شاكرين) قال موحدين وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم وقد وافق فى هذا الواقع كما قال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ) ولهذا ورد فى الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها كما قال

الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا نصر بن على حدثنا عمرو بن مجمع عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم يعنى نافع بن جبير عن ابن عباس وحدثنا عمر بن الخطاب يعنى السجستانى حدثنا عبيد الله بن جعفر حدثنا عبد الله ابن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة عن يونس بن خباب عن ابن جبير بن مطعم عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى واحفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتى » تفرد به البزار وحسنه وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبادة بن مسلم الفزارى حدثنى جرير بن أبى سليمان بن جبير بن مطعم سمعت عبد الله بن عمر يقول لم يكن رسول الله يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » قال وكيع من تحتى يعنى الخسف . ورواه أبوداود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبادة بن مسلم به وقال الحاكم صحيح الإسناد

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

أكد تعالى عليه اللعنة والطرد والإبعاد والنفى عن محل الملأ الأعلى بقوله (اخرج منها مذءوما مدحورا) قال ابن جرير أما المذءوم فهو المعيب والذأم غير مشدد العيب يقال ذأمه يذأمه ذأما فهو مذءوم ويتركون الهمز فيقول ذمته أذيمه ذيما وذاما ، والذام والذيم أبلغ فى العيب من الذم قال والمدحور المقصى وهو المبعد المطرود وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم مانعرف المذءوم والمذموم إلا واحداً وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن التميمى عن ابن عباس اخرج منها مذءوما مدحوراً قال مقيتا وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس صغيرا مقيتا وقال السدى مقيتا مطرودا وقال قتادة لعينا مقيتا وقال مجاهد منفياً مطروداً وقال الربيع بن أنس مذءوما منفيا والمدحور المصغر . وقوله تعالى (لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) كقوله (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)

﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة البقرة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى فى المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ماهما فيه من النعمة واللباس الحسن (وقال) كذبا وافتراء (مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين) أى لئلا تكونا ملكين أو خالدين هاهنا ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) أى لئلا تكونا ملكين كقوله (يبين الله لكم أن تضلوا) أى لئلا تضلوا (وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى لئلا تميد بكم وكان ابن عباس ويحيى بن أبى كثير يقرآن (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام وقرأه الجمهور بفتحها (وقاسمهما) أى حلف لهما بالله (إنى لكما لمن الناصحين) فانى من قبلكما هاهنا وأعلم بهذا المكان وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين كما قال خالد بن زهير ابن عم أبى ذؤيب .

وقاسمهم بالله جهدا لأنتم * ألذ من السلوى إذ ما نشورها

أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما وقد يخدع المؤمن بالله ، وقال قتادة فى الآية حلف بالله إنى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما وكان بعض أهل العلم يقول من خدعنا بالله انخدعنا له

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب رضى الله عنه قال كان آدم رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق كثير شعر الرأس فلما وقع فيما وقع فيه من الخطيئة بدت له عورته عند ذلك وكان لا يراها فانطلق هاربا فى الجنة فتعلقت برأسه شجرة من شجر الجنة فقال لها أرسليني فقالت إنى غير مرسلتك فناداه ربه عز وجل يا آدم أمنى تفر؟ قال يارب إنى استحييتك وقد رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عن الحسن عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ مرفوعا والموقوف أصح إسنادا وقال عبد الرزاق أنبأنا سفيان بن عيينة وابن المبارك أنبأنا الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما وكان الذى وارى عنهما من سوآتهما أظفارها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ورق التين يلزقان بعضه إلى بعض فانطلق آدم عليه السلام موليا فى الجنة فعلقت برأسه شجرة من الجنة فناداه الله يا آدم أمنى تفر ؟ قال لا ولكنى استحييتك يارب قال أما كان لك فيما منحتك من الجنة وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك قال بلى يارب ولكن وعزتك ماحسبت أن أحداً يحلف بك كاذباً قال وهو قول الله عز وجل (وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين) قال فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا قال فأهبط من الجنة وكانا يأكلان منها رغدا فأهبط إلى غير رغد من طعام وشراب فعلم صنعة الحديد وأمر بالحرث فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد ثم داسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله أن يبلغ وقال الثورى عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قال ورق التين صحيح إليه وقال مجاهد جعلا يخصفان عليهما من ورق الجنة قال كهيئة الثوب وقال وهب بن منبه فى قوله ينزع عنهما لباسهما قال كان لباس آدم وحواء نورا على فروجهما لا يرى هذا عورة هذه ولا هذه عورة هذا فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما رواه ابن جرير بسند صحيح إليه وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال : قال آدم أى رب أرأيت إن تبت واستغفرت قال إذا أدخلك الجنة وأما إبليس فلم يسأله التوبة وسأله النظرة فأعطى كل واحد منهما الذى سأله وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال لما أكل آدم من الشجرة قيل له لم أكلت من الشجرة التى نهيتك عنها قال حواء أمرتنى قال فإنى قد أعقبتها أن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها قال فرنت عند ذلك حواء فقيل لها الرنة عليك وعلى ولدك وقال الضحاك بن مزاحم فى قوله (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

قيل المراد بالخطاب فى (اهبطوا) آدم وحواء وإبليس والحية ومنهم من لم يذكر الحية والله أعلم والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ولهذا قال تعالى فى سورة طه قال (اهبطا منها جميعا) الآية وحواء تبع لآدم والحية إن كان ذكرها صحيحا فهى تبع لإبليس وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات

والله أعلم بصحها ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه أو رسوله ﷺ وقوله (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) أى قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة قد جرى بها القلم وأحصاها القدر وسطرت فى الكتاب الأول وقال ابن عباس (مستقر) القبور وعنه قال (مستقر) فوق الأرض وتحتها رواهما ابن أبى حاتم وقوله (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) كقوله تعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) يخبر تعالى أنه جعل الأرض دارا لبنى آدم مدة الحياة الدنيا فيها محياهم وفيها مماتهم وقبورهم ومنها نشورهم ليوم القيامة الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازى كلا بعمله

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش فاللباس ستر العورات وهى السوآت والرياش والريش ما يتجمل به ظاهرا فالأول من الضروريات والريش من التكملات والزيادات قال ابن جرير : الرياش فى كلام العرب الأثاث وما ظهر من الثياب وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس وحكاه البخارى عنه الرياش: المال ، وهكذا قال مجاهد وعروة ابن الزبير والسدى والضحاك وغير واحد وقال العوفى عن ابن عباس: الريش اللباس والعيش والنعيم وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الرياش الجمال وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا أصبغ عن أبى العلاء الشامى قال لبس أبو أمامة ثوبا جديداً فلما بلغ ترقوته قال الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » ورواه الترمذى وابن ماجه من رواية يزيد بن هارون عن أصبغ هو ابن زيد الجهنى وقد وثقه يحيى بن معين وغيره وشيخه أبو العلاء الشامى لا يعرف إلا بهذا الحديث ولكن لم يخرجه أحد والله أعلم وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن عبيد حدثنا مختار بن نافع التمار عن أبى مطر أنه رأى عليا رضى الله عنه أتى غلاما حدثا فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه ما بين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى فقيل هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن النبى ﷺ قال هذا شىء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى » رواه الإمام أحمد وقوله تعالى (ولباس التقوى ذلك خير) قرأ بعضهم ولباس التقوى بالنصب وقرأ الآخرون بالرفع على الابتداء وذلك خير خبره واختلف المفسرون فى معناه فقال عكرمة يقال هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة رواه ابن أبى حاتم وقال زيد بن على والسدى وقتادة وابن جريج ولباس التقوى الإيمان وقال العوفى عن ابن عباس العمل الصالح قال الديال بن عمرو عن ابن عباس هو السمت الحسن فى الوجه وعن عروة بن الزبير لباس التقوى خشية الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ولباس التقوى يتقى الله فيوارى عورته فذاك لباس التقوى وكلها متقاربة ويؤيد ذلك الحديث الذى رواه ابن جرير حيث قال حدثنى المثنى حدثنا إسحق بن الحجاج حدثنى إسحق بن إسماعيل عن سليمان بن أرقم عن الحسن قال رأيت عثمان بن عفان رضى الله عنه على منبر رسول الله ﷺ عليه قميص فوهى محلول الزر وسمعته يأمر بقتل الكلاب وينهى عن اللعب بالحمام ثم قال يا أيها الناس اتقوا الله فى هذه السرائر فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » ثم قرأ هذه الآية (وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله) قال السمت الحسن هكذا رواه ابن جرير من رواية سليمان بن أرقم وفيه ضعف وقد روى الأئمة الشافعى وأحمد والبخارى فى كتاب الأدب من طرق صحيحة عن الحسن البصرى أنه سمع أمير المؤمنين عثمان ابن عفان يأمر بقتل الكلاب وذبح الحمام يوم الجمعة على المنبر وأما المرفوع منه فقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى

فى معجمه الـكبير له شاهدا من وجه آخر حيث قال حدثنا (١)

﴿ يَٰبَنِي ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب فى هتك عورته بعد ما كانت مستورة عنه وما هـذا إلا عن عداوة أكيدة وهذا كقوله تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لـكم عدو بئس للظالمين بدلا)

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

قال مجاهد كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قلبها النسعة أو الشىء وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) الآية قلت كانت العرب ما عدا قريشا لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الحمس يطوفون فى ثيابهم ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملـكه أحد ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول .

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنـكر الله تعـالى عليهم ذلك فقال (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) فقال تعالى ردا عليهم (قل) أى يا محمد لمن ادعى ذلك (إن الله لا يأمر بالفحشاء) أى هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة والله لا يأمر بمثل ذلك (أتقولون على الله مالا تعلمون) أى أتسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته وقوله تعـالى (قل أمر ربى بالقسط) أى بالعـدل والاستقامة (وأقيموا وجوهكم عنـد كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين) أى أمركم بالاستقامة فى عبادته فى محالها وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له فى عبادته فانه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابا موافقاً للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك وقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) إلى قوله (الضلالة) اختلف فى معنى قوله (كما بدأكم تعودون) فقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (كما بدأكم تعودون) يحييكم بعد موتكم وقال الحسن البصرى كما بدأكم فى الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء وقال قتادة (كما بدأكم تعودون) قال بدأ خلقهم ولم يكونوا شيئا ثم ذهبوا ثم يعيدهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كما بدأكم أولا كذلك يعيدكم آخرا واختار هذا القول أبو جعفر بن جرير وأيده بما رواه من حديث سفيان الثورى وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة ابن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قام فينا رسـول الله ﷺ بموعظة فقال « يا أيها الناس إنـكم

(١) كذا بهامش النسخة الأميرية : هنا بياض فى الأصل بمقدار نصف صحيفة وانظر النسخ الصحيحة التامة .

تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من حديث شعبة وفى حديث البخارى أيضا من حديث الثورى به وقال ورقاء بن إياس أبو يزيد عن مجاهد (كما بدأكم تعودون) قال يبعث المسلم مسلما والكافر كافراً وقال أبو العالية (كما بدأكم تعودون) ردوا إلى علمه فيهم وقال سعيد بن جبير (كما بدأكم تعودون) كما كتب عليكم تكونون وفى رواية كما كنتم عليه تكونون وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله تعالى (كما بدأكم تعودون) من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إلى ما ابتدئ عليه خلقه وإن عمل بأعمال أهل السعادة ومن ابتدأ خلقه على السعادة صار إلى ما ابتدئ خلقه عليه وإن عمل بأعمال أهل الشقاء كما أن السحرة عملوا بأعمال أهل الشقاء ثم صاروا إلى ما ابتدؤا عليه وقال السدى (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) يقول (كما بدأكم تعودون) كما خلقناكم فريق مهتدون وفريق ضلال كذلك تعودون وتخرجون من بطون أمهاتكم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (كما بدأكم تعودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) قال إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا كما قال (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا قلت ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود فى صحيح البخارى « فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » . وقال أبو القاسم البغوى حدثنا على بن الجعد حدثنا أبو غسان عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وانه من أهل الجنة وإنما الأعمال بالخواتيم » هذا قطعة من حديث البخارى من حديث أبى غسان محمد بن مطرف المدنى فى قصة قزمان يوم أحد وقال ابن جرير حدثنى ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به ولفظه « يبعث كل عبد على ما مات عليه » وعن ابن عباس مثله قلت ويتأيد بحديث ابن مسعود قلت ولا بد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها) وما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » الحديث ، ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر فى ثانى الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك وجعله فى غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقيا ومنهم سعيدا (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) وفى الحديث « كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وقدر الله نافذ فى بريته فانه هو (الذى قدر فهدى) و (الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) وفى الصحيحين « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » ولهذا قال تعالى (فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة) ثم علل ذلك فقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) الآية قال ابن جرير وهذا من أبين الدلالة على خطأ من زعم أن الله لا يعذب أحدا على معصية ركبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها فيركبها عنادا منه لربه فيها لأنه لو كان كذلك لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل وهو يحسب أنه مهتد وفريق الهدى فرق وقد فرق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية .

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء الرجال بالنهار والنساء بالليل وكانت المرأة تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله * وما بدا منه فلا أحله

فقال الله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (خذوا زينتكم عند كل مسجد) الآية قال كان رجال يطوفون بالبيت عراة فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس وهو مايواري السوأة وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد وهكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وقتادة والسدي الضحاك ومالك عن الزهري وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها أنها نزلت في طوائف المشركين بالبيت عراة وقد روى الحافظ بن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعي عن قتادة عن أنس مرفوعا أنها نزلت في الصلاة في النعال ولكن في صحته نظر والله أعلم ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ولا سيما يوم الجمعة ويوم العيد والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ومن أفضل اللباس البياض كما قال الإمام أحمد حدثنا علي بن عاصم حدثنا عبد الله بن عثمان بن خيثم عن سعيد بن جبير وصححه عن ابن عباس مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر » هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم ، ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث عبد الله بن عثمان بن خيثم به وقال الترمذي حسن صحيح ، وللإمام أحمد أيضا وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أن تميما الداري اشترى رداء بألف وكان يصلي فيه ، وقوله تعالى (وكلوا واشربوا) الآية قال بعض السلف جمع الله الطب كله في نصف آية (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) وقال البخاري قال ابن عباس كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : أحل الله الأكل والشرب مالم يكن سرفا أو مخيلة ، إسناده صحيح ، وقال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا همام عن قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده » ورواه النسائي وابن ماجه من حديث قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال « كلوا وتصدقوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سليمان بن سليم الكلبي حدثنا يحيى بن جابر الطائي سمعت المقدام بن معد يكرب الكندي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فان كان فاعلا لامحالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ورواه النسائي والترمذي من طرق عن يحيى بن جابر به وقال الترمذي حسن وفي نسخة حسن صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا بقية عن يوسف بن أبي كثير عن نوح بن ذكوان عن الحسن عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » ورواه الدارقطني في الافراد وقال هذا حديث غريب تفرد به بقية ، وقال السدي كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرمون عليهم الودك ما أقاموا في الموسم فقال الله تعالى لهم (كلوا واشربوا) الآية يقول لاتسرفوا في التحريم وقال مجاهد أمرهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم الله وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ولا تسرفوا) يقول ولا تأكلوا حراما ذلك الاسراف ، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين) في الطعام والشراب ، وقال ابن جرير وقوله (إنه لا يحب المسرفين) يقول الله تعالى (إن الله لايحب المعتدين) حده في حلال أو حرام الغالين فيما أحل باحلال الحرام

أو بتحريم الحلال ولكنه يحب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم وذلك العدل الذى أمر به

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم (من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) الآية أى هى مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا وإن شركهم فيها الكفار حسا فى الدنيا فهى لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار فان الجنة محرمة على الكافرين قال أبو القاسم الطبرانى حدثنا أبو حصين محمد بن الحسين القاضى حدثنا يحيى الحمانى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة يصفرون ويصفقون فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) فأمروا بالثياب

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق أبى وائل عن عبد الله بن مسعود وتقدم الكلام على ما يتعلق بالفواحش ما ظهر منها وما بطن فى سورة الأنعام وقوله (والإثم والبغى بغير الحق) قال السدى أما الاثم فالمعصية والبغى أن تبغى على الناس بغير الحق وقال مجاهد الاثم المعاصى كلها وأخبر أن الباغى بغيه على نفسه وحاصل ما فسر به الاثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه والبغى هو التعدى إلى الناس فحرم الله هذا وهذا وقوله تعالى (وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا) أى تجعلوا له شركاء فى عبادته (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ونحو ذلك مما لا علم لكم به كقوله (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) الآية

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى (ولكل أمة) أى قرن وجيل (أجل فإذا جاء أجلهم) أى ميقاتهم المقدر لهم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ثم أنذر تعالى بنى آدم أنه سيبعث إليهم رسلا يقصون عليهم آياته وبشر وحذر فقال (فمن اتقى واصلح) أى ترك المحرمات وفعل الطاعات (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) أى كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ماكثون فيها مكثا مخلدا

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

يقول (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) أى لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله أو كذب بآياته المنزلة (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) اختلف المفسرون فى معناه فقال العوفى عن ابن عباس ينالهم ما كتب عليهم وكتب لمن كذب على الله أن وجهه مسود وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يقول نصيبهم من الأعمال من عمل خيرا جزى به ومن عمل شرا جزى به وقال مجاهد ما وعدوا به من خير وشر وكذا قال قتادة والضحاك وغير واحد واختاره ابن جرير وقال محمد بن كعب القرظى (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب)قال عمله ورزقه وعمره وكذا قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا القول قوى فى المعنى والسياق يدل عليه وهو قوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) ونظير المعنى فى هذه الآية كقوله (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون) وقوله (ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا) الآية وقوله (حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم) الآية يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم فى الحياة الدنيا وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه قالوا (ضلوا عنا) أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم (وشهدوا على أنفسهم) أى أقروا واعترفوا على أنفسهم (أنهم كانوا كافرين)

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته (ادخلوا فى أمم) أى من أمثالكم وعلى صفاتكم (قد خلت من قبلكم) أى من الأمم السالفة الكافرة(من الجن والإنس فى النار) يحتمل أن يكون بدلا من قوله فى أمم ويحتمل أن يكون فى أمم أى مع أمم وقوله (كلما دخلت أمة لعنت أختها) كما قال الخليل عليه السلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) الآية ، وقوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) وقوله (حتى إذا اداركوا فيها جميعا) أى اجتمعوا فيها كلهم(قالت أخراهم لأولاهم) أى أخراهم دخولا وهم الأتباع لأولاهم وهم المتبوعون لأنهم أشد جرما من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل فيقولون (ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار) أى أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا * وقالو ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب) الآية وقوله (قال لكل ضعف) أى قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه كقوله (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية وقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم)وقوله (ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) الآية (وقالت أولاهم لأخراهم) أى قال المتبوعون للأتباع (فما كان لكم علينا من فضل) قال السدى فقد ضللتم كما ضللنا (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وهذه الحال كما أخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار

إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

قوله (لاتفتح لهم أبواب السماء) قيل المراد لايرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء قاله مجاهد وسعيد بن جبير ورواه العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس وكذا رواه الثورى عن ليث عن عطاء عن ابن عباس ، وقيل المراد لاتفتح لأرواحهم أبواب السماء رواه الضحاك عن ابن عباس وقاله السدى وغير واحد ويؤيده ماقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبوبكر بن عياش عن الأعمش عن المنهال هو ابن عمرو عن زاذان عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر وأنه يصعد بها إلى السماء فيصعدون بها فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء فيستفتحون بابها له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتفتح لهم أبواب السماء) الآية هكذا رواه وهو قطعة من حديث طويل رواه أبوداود والنسائى وابن ماجه من طرق عن المنهال بن عمرو به وقد رواه الإمام أحمد بطوله فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر - مرتين أو ثلاثة ثم قال - إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس المطمئنة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان - قال - فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عزوجل اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فانى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربى الله فيقولان له مادينك فيقول دينى الاسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقولان هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له وما عملك فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد البصر - قال - ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجىء بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى - قال - وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال الى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال فتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من

الملائكة إلا قالوا ماهذه الروح الخبيثة فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا يفتح له — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — (لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا — ثم قرأ — (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لاأدرى فيقولان مادينك فيقول هاه هاه لاأدرى فيقولان ماهذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول هاه هاه لاأدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة» وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن خباب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى جنازة فذكر نحوه وفيه حتى إذا خرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم وفى آخره ثم يقيض له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فرش من النار وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن جرير واللفظ له من حديث محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس المطمئنة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقولون ذلك حتى يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقال مرحبا بالنفس الطيبة التى كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عز وجل وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فيقولون ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا فيقولون فلان فيقولون لامرحبا بالنفس الخبيثة التى كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لم يفتح لك أبواب السماء فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى القبر» وقد قال ابن جريج فى قوله (لاتفتح له أبواب السماء) لاتفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم وهذا فيه جمع بين القولين والله أعلم، وقوله تعالى (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) هكذا قرأه الجمهور وفسروه بأنه البعير قال ابن مسعود هو الجمل ابن الناقة وفى رواية زوج الناقة وقال الحسن البصرى حتى يدخل البعير فى خرق الابرة وكذا قال أبو العالية والضحاك وكذا روى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس وقال مجاهد وعكرمة عن ابن عباس انه كان يقرؤها يلج الجمل فى سم الخياط بضم الجيم وتشديد الميم يعنى الحبل الغليظ فى خرق الابرة وهذا اختيار سعيد بن جبير وفى رواية أنه قرأ حتى يلج الجمل يعنى قلوس السفن وهى الحبال الغلاظ، وقوله (لهم من جهنم مهاد) قال محمد بن كعب القرظى (لهم من جهنم مهاد) قال الفرش (ومن فوقهم غواش) قال اللحف وكذا قال الضحاك بن مزاحم والسدى (وكذلك نجزى الظالمين)

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَـٰئِكَ أَصْحَـٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ضد (أولئك الذين كفروا بآيات الله واستكبروا عنها) نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل لأنه تعالى قال (لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * ونزعنا مافى صدورهم من غل) أى من حسد وبغض كما جاء فى صحيح البخارى من حديث قتادة عن أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أدل منه بمسكنه كان فى الدنيا » وقال السدى فى قوله (ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار) الآية إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فشربوا من إحداهما فينزع مافى صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدا ، وقد روى أبو إسحق عن عاصم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب نحوا من هذا كما سيأتى فى قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقال قتادة: قال على رضى الله عنه إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله تعالى فيهم (ونزعنا مافى صدورهم من غل) رواه ابن جرير وقال عبدالرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسرائيل قال سمعت الحسن يقول قال على : فينا والله أهل بدر نزلت (ونزعنا مافى صدرهم من غل) وروى النسائى وابن مردويه واللفظ له من حديث أبى بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هدانى فيكون له شكرا وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هدانى فيكون له حسرة » ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا أن تلكم أورثتموها بما كنتم تعملون ، أى بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم . وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال «واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله قال « ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل »

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً) أن ههنا مفسرة للقول المحذوف وقد للتحقيق أى قالوا لهم قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً قالوا نعم كما أخبر تعالى فى سورة الصافات عن الذى كان له قرين من الكفار (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم * قال تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) أى ينكر عليه مقالته التى يقولها فى الدنيا ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال وكذلك تقرعهم الملائكة يقولون لهم (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) وكذلك قرّع رسول الله ﷺ قتلى القليب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ويا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ـ وسمى رءوسهم ـ هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فانى وجدت ما وعدنى ربى حقاً » وقال عمر يا رسول الله تخاطب قوما قد جيفوا فقال «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا »

وقوله تعالى (فأذن مؤذن بينهم) أى أعلم معلم ونادى مناد (أن لعنة الله على الظالمين) أى مستقرة عليهم ثم وصفهم

بقوله (الذين يصدون عن سبيل ويبغونها عوجا) أى يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد (وهم بالآخرة كافرون) أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة كافرون أى جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل لأنهم لا يخافون حسابا عليه ولا عقابا فهم شر الناس أقوالا وأعمالا

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجابا وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير وهو السور الذى قال الله تعالى فيه (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) وهو الأعراف الذى قال الله تعالى فيه (وعلى الأعراف رجال) ثم روى بإسناده عن السدى أنه قال فى قوله تعالى (وبينهما حجاب) هو السور وهو الأعراف وقال مجاهد الأعراف حجاب بين الجنة والنار سور له باب ، قال ابن جرير والأعراف جمع عرف وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى عرفا ، وإنما قيل لعرف الديك عرفا لارتفاعه . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول الأعراف هو الشىء المشرف وقال الثورى عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال الأعراف سور كعرف الديك ، وفى رواية عن ابن عباس الأعراف جمع : تل بين الجنة والنار حبس عليه ناس من أهل الذنوب بين الجنة والنار ، وفى رواية عنه هو سور بين الجنة والنار ، وكذا قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير ، وقال السدى إنما سمى الأعراف أعرافا لأن أصحابه يعرفون الناس ، واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله ، وقد جاء فى حديث مرفوع رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا عبد الله بن إسماعيل حدثنا عبيد بن الحسن حدثنا سليمان بن داود حدثنا النعمان بن عبد السلام حدثنا شيخ لنا يقال له أبو عباد عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر بن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عمن استوت حسناته وسيئاته فقال « أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه من وجه آخر عن سعيد بن سلمة عن أبى الحسام عن محمد بن المنكدر عن رجل من مزينة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن استوت حسناته وسيئاته وعن أصحاب الأعراف فقال « إنهم قوم خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم فقتلوا فى سبيل الله » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معشر حدثنا يحيى بن شبل عن يحيى بن عبد الرحمن المزنى عن أبيه قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم ناس قتلوا فى سبيل الله بمعصية آبائهم فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم ومنعهم من النار قتلهم فى سبيل الله » ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبى حاتم من طرق عن أبى معشر به ، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعا من حديث أبى سعيد الخدرى وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة وقصاراها أن تكون موقوفة وفيه دلالة على ما ذكر . وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف قال فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، قال فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم ، وقد رواه من وجه آخر أبسط من هذا فقال حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يونس بن أبى إسحق قال : قال الشعبى أرسل إلىّ عبد الحميد بن عبد الرحمن وعنده أبو الزناد عبد الله بن ذكوان مولى قريش فإذا هما قد ذكرا من أصحاب الأعراف ذكراً ليس كما ذكرا فقلت لهما إن شئتما أنبأتكما بما ذكر حذيفة فقالا هات فقلت إن حذيفة ذكر أصحاب الأعراف فقال : هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة (فإذا صرفت

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) فبيناهم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال لهم اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم . وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي قال : قال سعيد بن جبير وهو يحدث ذلك عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار ثم قرأ قول الله (فمن ثقلت موازينه) الآيتين ثم قال الميزان يخف بمثقال حبة ويرجح قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار (قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) تعوذوا بالله من منازلهم قال فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نوراً وكل أمة نوراً فإذا أتوا على الصراط سلب الله نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة مالقي المنافقون قالوا (ربنا أتمم لنا نورنا) وأما أصحاب الأعراف فإن النور كان بأيديهم فلم ينزع فهنالك يقول الله تعالى (لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع دخولا قال فقال ابن مسعود: إن العبد إذا عمل حسنة كتب له بها عشر وإذا عمل سيئة لم تكتب إلا واحدة ثم يقول هلك من غلبت آحاده عشراته رواه ابن جرير وقال أيضا حدثني ابن وكيع حدثنا ابن حميد قالا حدثنا جرير عن منصور عن حبيب بن أبي ثابت عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس قال الأعراف:السور الذي بين الجنة والنار وأصحاب الأعراف بذلك المكان حتى إذا بدا الله أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له نهر الحياة حافتاه قصب الذهب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك فألقوا فيه حتى تصلح ألوانهم وتبدو في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها حتى إذا صلحت ألوانهم أتى بهم الرحمن تبارك وتعالى فقال : تمنوا ماشئتم ، فيتمنون حتى إذا انقطعت أمنيتهم قال لهم : لكم الذي تمنيتم ومثله سبعون ضعفاً ، فيدخلون الجنة وفي نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها يسمون مساكين أهل الجنة وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن يحيى بن المغيرة عن جرير به وقد رواه سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن مجاهد وعن عبد الله بن الحارث من قوله وهذا أصح والله أعلم وهكذا روي عن مجاهد والضحاك وغير واحد وقال سعيد بن داود حدثني جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير قال سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف قال « هم آخر من يفصل بينهم من العباد فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد قال أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة فأنتم عتقائي فارعوا من الجنة حيث شئتم » وهذا مرسل حسن ، وقيل هم أولاد الزنا حكاه القرطبي وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة الوليد بن موسى عن شيبة ابن عثمان عن عروة بن رويم عن الحسن عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنهم فقال على الأعراف وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ فسألناه وما الأعراف فقال حائط الجنة تجري فيه الأنهار وتنبت فيه الأشجار والثمار رواه البيهقي عن ابن بشران عن علي بن محمد المصري عن يوسف ابن يزيد عن الوليد بن موسى به ، وقال سفيان الثوري عن خصيف عن مجاهد قال أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن سليمان التيمي عن أبي مجلز في قوله تعالى (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم) قال هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار قال (ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون * وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة) قال فيقال حين يدخل أهل الجنة الجنة (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق وقول الجمهور مقدم على قوله بدلالة الآية على ماذهبوا اليه وكذا قول مجاهد إنهم قوم صالحون علماء فقهاء فيه غرابة أيضا والله أعلم ، وقد حكى القرطبي وغيره فيهم اثني عشر قولا منها انهم شهدوا أنهم صلحاء تهرعوا من فزع الآخرة وخلق يطلعون على أخبار الناس وقيل هم أنبياء وقيل هم ملائكة وقوله تعالى (يعرفون كلا بسيماهم) قال

على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل النار بسواد الوجوه وكذا روى الضحاك عنه ، وقال العوفى عن ابن عباس أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا من فى الجنة والنار وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام لم يدخلوها وهم يطمعون أن يدخلوها وهم داخلوها إن شاء الله وكذا قال مجاهد والضحاك والسدى والحسن وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم ، وقال معمر عن الحسن إنه تلا هذه الآية (لم يدخلوها وهم يطمعون) قال والله ماجعل ذلك الطمع فى قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم وقال قتادة قد أنبأكم الله بمكانهم من الطمع وقوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين) قال الضحاك عن ابن عباس إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين. وقال السدى وإذا مروا بهم يعنى بأصحاب الأعراف بزمرة يذهب بها إلى النار قالوا: ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين . وقال عكرمة تحدد وجوههم للنار فإذا رأوا أصحاب الجنة ذهب ذلك عنهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) فرأوا وجوههم مسودة وأعينهم مزرقة (قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين)

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم فى النار بسيماهم (ما أغنى عنكم جمعكم) أى كثرتكم (وما كنتم تستكبرون) أى لاينفعكم كثرتكم ولا جموعكم من عذاب الله بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أصحاب الأعراف (ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) الآية قال فلما قالوا لهم الذى قضى الله أن يقولوا يعنى أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار قال الله لأهل التكبر والأموال (أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقال حذيفة إن أصحاب الأعراف قوم تكافئت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة وقصرت بهم سيئاتهم عن النار فجعلوا على الأعراف يعرفون الناس بسيماهم فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة فأتوا آدم فقالوا يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك فقال هل تعلمون أن أحدا خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وسبقت رحمته اليه غضبه وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم فيقول تعلمون من أحد اتخذه الله خليلا هل تعلمون أن أحدا أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى ؟ فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا ابنى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقول هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليما وقربه نجيا غيرى فيقولون لا فيقول ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له اشفع لنا عند ربك فيقول هل تعلمون أحدا خلقه الله من غير أب[1] فيقولون لافيقول هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال فيقولون لا فيقول أنا حجيج نفسى ماعلمت كنهه ما أستطيع أن أشفع لكم ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى ثم أقول أنا لها ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش فآتى ربى عز وجل فيفتح لى من الثناء مالم يسمع السامعون بمثله قط ثم أسجد فيقال لى يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى ثم أثنى على ربى عز وجل ثم أخر ساجدا فيقال لى ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول ربى أمتى فيقول هم لك فلا يبقى نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا غبطنى بذلك المقام وهو المقام المحمود فآتى بهم الجنة فأستفتح فيفتح لى ولهم

(١) لم يرد فى النسخ هنا كلمة غيرى .

فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ترابه المسك وحصباؤه الياقوت فيغتسلون منه فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها يقال مساكين أهل الجنة

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ * ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) يعنى الطعام وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم ، وقال الثورى عن عثمان الثقفى عن سعيد بن جبير فى هذه الآية قال: ينادى الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفض على من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون (إن الله حرمهما على الكافرين) وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (إن الله حرمهما على الكافرين) يعنى طعام الجنة وشرابها ، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار فى دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أى الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ « أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » وقال أيضاً حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح قال لما مرض أبو طالب قالوا له لو أرسلت إلى ابن أخيك هذا فيرسل إليك بعنقود من الجنة لعله أن يشفيك به فجاءه الرسول وأبو بكر عند النبى ﷺ فقال أبو بكر إن الله حرمهما على الكافرين ثم وصف تعالى الكافرين بما كانوا يعتمدونه فى الدنيا باتخاذهم الدين لهوا ولعبا واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للآخرة ، وقوله (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) أى يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شىء ولا ينساه كما قال تعالى (فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى) وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله (نسوا الله فنسيهم) وقال (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال تعالى (وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) قال نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر ، وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا ، وقال مجاهد نتركهم فى النار ، وقال السدى نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا ، وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى فيقول أظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنساك كما نسيتنى

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اعذاره إلى المشركين بارسال الرسل إليهم بالكتاب الذى جاء به الرسول وانه كتاب مفصل مبين كقوله (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) الآية ، وقوله (فصلناه على علم) للعالمين أى على علم منا بما فصلناه

به كقوله (أنزله بعلمه) قال ابن جرير وهـذه الآيه مردودة على قوله (كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه) الآية (ولقد جئناهم بكتاب) الآية وهذا الذى قاله فيـه نظر فانه قد طال الفصل ولا دليل عليـه وإنمـا الأمر أنه لما أخبر بما صاروا إليه من الخسارة فى الآخرة ذكر أنه قد أزاح عللهم فى الدنيا بارسال الرسل وإنزال الـكتب كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) ولهـذا قال (هل ينظرون إلا تأويله) أى ما وعدوا به من العذاب والنـكال والجنة والنار قاله مجاهد وغير واحد وقال مالك: ثوابه، وقال الربيع لا يزال يجىء من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فيتم تأويله يومئذ قوله و(يوم يأتى تأويله) أى يوم القيامة قاله ابن عباس (يقول الذين نسوه من قبل)أى تركوا العمل به وتناسوه فى الدار الدنيا (قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) أى فى خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيـه (أو نرد) إلى الدار الدنيا (فنعمل غير الذى كنا نعمل) كقوله (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نـكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبـل ولو ردوا لعادوا لمـا نهوا عنه وإنهم لـكاذبون) كما قال ههنا (قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق العالم سماواته وأرضه وما بين ذلك فى سته أيام كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن والستة الأيام هى الأحد والاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم عليه السلام واختلفوا فى هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الاذهان أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهـد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمى السبت وهو القطع فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا حجاج حـدثنا ابن جريج أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المـكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الاربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعـد العصر يوم الجمعة آخر الخلق فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم بن الحجاج فى صحيحه والنسائى من غير وجه عن حجاج وهو ابن محمد الاعور عن ابن جريج به وفيه استيعاب الأيام السبعة والله تعالى قد قال فى ستة أيام ولهـذا تكلم البخارى وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ليس مرفوعا والله أعلم

وأما قوله تعالى (ثم استوى على العرش) فللناس فى هذا المقام مقالات كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها وإنما نسلك فى هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعى والثورى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديما وحديثا وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل والظاهر المتبادر إلى أذهـان المشبهين منفى عن الله فان الله لا يشبهه شىء من خلقه و(ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى قال من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذى يليق بجلال الله ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى ، وقوله تعالى (يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا) أى يذهب ظلام هـذا بضياء هـذا وضياء هذا بظلام هذا وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أى سريعا

لايتأخرعنه بل إذا ذهب هذا جاءهذا وعكسه كقوله (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذاهم مظلمون * والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) فقوله (ولاالليل سابق النهار) أى لايفوته بوقت يتأخر عنه بل هو فى أثره بلا واسطة بينهما ولهذا قال (يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) منهم من نصب ومنهم من رفع وكلاهما قريب المعنى أى الجميع تحت قهره وتسخيره ومشيئته ولهذا قال منبها (ألا له الخلق والأمر) أى له الملك والتصرف (تبارك الله رب العالمين) كقوله (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) الآية قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا هشام أبو عبد الرحمن حدثنا بقية بن الوليد حدثنا عبد الغفار بن عبد العزيز الأنصارى عن عبد العزيز الشامى عن أبيه وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ « من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئا فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه » لقوله (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وفى الدعاء المأثور عن أبى الدرداء وروى مرفوعا « اللهم لك الملك كله ولك الحمد كله وإليك يرجع الأمر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله »

﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم فقال (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) قيل معناه تذللا واستكانة، وخيفة كقوله (واذكر ربك فى نفسك) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولاغائبا إن الذى تدعون سميع قريب » الحديث ، وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله (تضرعا وخفية) قال السر وقال ابن جرير تضرعا تذللا واستكانة لطاعته وخفية يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لاجهارا مراءاة وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور وما يشعرون به ولقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبدا ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالى يقول (ادعوا ربكم تضرعا وخيفة) وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله فقال (إذ نادى ربه نداء خفيا) وقال ابن جريج يكره رفع الصوت والنداء والصياح فى الدعاء ويؤمر بالضرع والاستكانة ثم روى عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس فى قوله (إنه لايحب المعتدين) فى الدعاء ولا فى غيره وقال أبو مجلز (إنه لايحب المعتدين) لايسأل منازل الأنبياء ، وقال أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن زياد بن مخراق سمعت أبا نعامة عن مولى لسعد أن سعدا سمع ابنا له يدعو وهو يقول اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها فقال لقد سألت الله خيرا كثيرا وتعوذت به من شر كثير وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ـ وفى لفظ ـ يعتدون فى الطهور والدعاء ـ وقرأ هذه الآية (ادعوا ربكم تضرعا) الآية ـ وإن بحسبك أن تقول اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل » ورواه أبو داود من حديث شعبة عن زياد بن مخراق عن أبى نعامة عن مولى لسعد عن سعد فذكره والله أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا الجريرى عن أبى نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال يابنى سل الله الجنة وعذ به من النار

فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » وهكذا رواه ابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة عن عفان به وأخرجه أبوداود عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة عن سعيد بن إياس الجريري عن أبي نعامة واسمه قيس بن عباية الحنفي البصري وهو إسناد حسن لابأس به والله أعلم ، وقوله تعالى (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها) ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض وما أضره بعد الاصلاح فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ثم وقع الافساد بعدذلك كان أضر ما يكون على العباد فنهى تعالى عن ذلك وأمر بعبادته ودعائه والتضرع إليه والتذلل لديه فقال (وادعوه خوفا وطمعاً) أي خوفا مما عنده من وبيل العقاب وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ثم قال (إن رحمت الله قريب من المحسنين) أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون) الآية وقال قريب ولم يقل قريبة لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب أو لأنها مضافة إلى الله فلهذا قال قريب من المحسنين وقال مطر الوراق استنجزوا موعود الله بطاعته فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر وأرشد إلى دعائه لأنه على مايشاء قادر نبه تعالى على أنه الرزاق وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال (وهو الذي يرسل الرياح نشراً) أي منتشرة بين يدي السحاب الحامل للمطر ومنهم من قرأ بشرا كقوله (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) وقوله (بين يدي رحمته) أي بين يدي المطر كما قال (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد) وقال (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) وقوله (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا) أي حملت الرياح سحاباً ثقالا أي من كثرة مافيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة كما قال زيد ابن عمرو بن نفيل رحمه الله

وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له المزن تحمل عذبا زلالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت * له الأرض تحمل صخرا ثقالا

وقوله (سقناه لبلد ميت) أي إلى أرض ميتة مجدبة لانبات فيها كقوله (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) الآية ولهذا قال (فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى) أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء فتمطر الأرض أربعين يوما فتنبت منه الأجساد في قبورها كما ينبت الحب في الأرض وهذا المعنى كثير في القرآن يضرب الله مثلا ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها ولهذا قال (لعلكم تذكرون) وقوله (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه) أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسنا كقوله (وأنبتها نباتاً حسناً) (والذي خبث لايخرج إلا نكداً) قال مجاهد وغيره كالسباخ ونحوها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وقال البخاري حدثنا محمد بن العلاء حدثنا حماد ابن أسامة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بردة عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ « مثل مابعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه مسلم والنسائي من طرق عن أبي أسامة حماد بن أسامة به

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس النبي عليه السلام فيما يزعمون وهو أول من خط بالقلم ابن برد بن مهليل بن قنين بن يانش بن شيث بن آدم عليهم السلام هكذا نسبه محمد بن إسحق وغير واحد من أئمة النسب قال محمد بن إسحق ولم يلق نبي من قومه من الأذى مثل نوح إلا نبي قتل وقال يزيد الرقاشي إنما سمي نوح لكثرة ما ناح على نفسه وقد كان بين آدم إلى زمن نوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صورا أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به (قال الملأ من قومه) أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم (إنا لنراك في ضلال مبين) أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة كقوله (وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) إلى غير ذلك من الآيات (قال ياقوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين) أي ما أنا ضال ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا « أيها الناس إنكم مسئولون عني فما أنتم قائلون ؟ » قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول « اللهم اشهد اللهم اشهد»

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن نوح أنه قال لقومه (أو عجبتم) الآية أي لا تعجبوا من هذا فان هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفا وإحسانا إليكم لينذركم ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به (ولعلكم ترحمون) قال الله تعالى (فكذبوه) أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته وما آمن معه منهم إلا قليل كما نص عليه في موضع آخر (فأنجيناه والذين معه في الفلك) أي السفينة كما قال : فأنجيناه وأصحاب السفينة (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) كما قال (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقوله (إنهم كانوا قوما عمين) أي عن الحق لا يبصرونه ولا يهتدون له فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه وأنجى رسوله والمؤمنين وأهلك أعداءهم من الكافرين كقوله (إنا لننصر رسلنا) الآية وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين

والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ونجى نوحا وأصحابه المؤمنين وقال مالك عن زيد بن أسلم كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ماعذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز وقال ابن وهب بلغني عن ابن عباس أنه نجا مع نوح في السفينة ثمانون رجلا أحدهم جرهم وكان لسانه عربيا رواه ابن أبي حاتم وروى متصلا من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا قال محمد بن إسحق هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح (قلت) هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف وهي جبال الرمل قال محمد بن إسحق عن محمد بن عبد الله بن أبي سعيد الخزاعي عن أبي الطفيل عامر بن واثلة سمعت عليا يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيبا أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ، قال لا ولكني قد حدثت عنه فقال الحضرمي وما شأنه يا أمير المؤمنين قال فيه قبر هود عليه السلام رواه ابن جرير ، وهذا فيه فائدة أن مساكنهم كانت باليمن فان هودا عليه السلام دفن هناك وقد كان من أشرف قومه نسبا لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه (قال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم (إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والاقبال على عبادة الله وحده كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد فقالوا (أجعل الآلهة إلها واحدا) الآية (قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين) أي لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه (أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين) وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل البلاغ والنصح والأمانة (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه بل احمدوا الله على ذاكم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه (وزادكم في الخلق بسطة) أي زاد طولكم على الناس بسطة أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت (وزاده بسطة في العلم والجسم) (واذكروا آلاء الله) أي نعمه ومننه عليكم (لعلكم تفلحون) والآلاء جمع إلى وقيل ألى

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ

قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِي أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده) الآية كقول الكفار من قريش (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقد ذكر محمد بن إسحق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناما فصنم يقال له صمد وآخر يقال له صمود وآخر يقال له الهنا[1] ولهذا قال هود عليه السلام (قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب) أى قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس قيل هو مقلوب من رجز وعن ابن عباس معناه سخط وغضب (أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم) أى أتحاجوننى فى هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة وهى لا تضر ولا تنفع ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا ولهذا قال (ما نزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ولهذا عقبه بقوله (فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين) وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم فى أماكن أخر من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم كما قال فى الآية الأخرى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية) لما تمردوا وعتوا أهلكهم الله بريح عاتية فكانت تحمل الرجل منهم فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتثلغ رأسه حتى تبينه من بين جثته ولهذا قال (كأنهم أعجاز نخل خاوية) وقال محمد بن إسحق كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله فبعث الله إليهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعاً فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس فأبوا عليه وكذبوه وقالوا من أشد منا قوة واتبعه منهم ناس وهم يسير يكتمون إيمانهم فلما عتت عاد على الله وكذبوا نبيه وأكثروا فى الأرض الفساد وتجبروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع كلمهم هود فقال (أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) أى بجنون (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان وطلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة عمليق بن لاود[2] بن سام بن نوح وكان سيدهم إذ ذاك رجلا يقال له معاوية بن بكر وكانت له أم من قوم عاد واسمها جلهذة[3] ابنة الخيبرى[4] قال فبعث عاد وفدا قريبا من سبعين رجلا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان: قينتان لمعاوية وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر فلما طال مقامهم عنده وأخذته شفقة على قومه واستحيا منهم أن يأمرهم بالانصراف عمل شعرا يعرض لهم بالانصراف وأمر القينتين أن تغنياهم به فقال:

ألا ياقيل ويحك قم فهينم * لعل الله يصبحنا غماما * فيسقى أرض عاد إن عادا

قد امسوا لا يبينون الكلاما * من العطش الشديد فليس نرجو * به الشيخ الكبير ولا الغلاما

(١) فى المكية : وصوابها الهباء . (٢) فى نسخة الأزهر : لاوم بالميم . (٣) فى تفسير البغوى : فى النسخة الهندية كلهدة .
(٤) فى نسخة الأزهر : الخيرى

وقد كانت نساؤهم بخير * فقد أمست نساؤهم غيامى * وإن الوحش تأتيهم جهارا
ولا تخشى لعادى سهاما * وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم * نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم * ولا لقوا التحية والسلاما

قال فعند ذلك تنبه القوم لما جاءوا له فنهضوا إلى الحرم ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو قيل بن عنز فأنشأ الله سحابات ثلاثا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادا رمددا، لاتبقى من عاد أحدا لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته همدا، إلا بنى الوذية المهندا، قال وبنوالوذية بطن من عاد يقيمون بمكة فلم يصبهم ما أصاب قومهم قال وهم من بقى من أنسالهم وذراريهم عادالآخرة قال وساق الله السحابة السوداء فيما يذكرون التى اختارها قيل ابن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شيء) أى تهلك كل شيء مرت به فكان أول من أبصرمافيها وعرف أنهاريح فيما يذكرون امرأة من عاد يقال لها مميد(١) فلما تبينت مافيها صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا مارأيت يامميد؟ قالت ريحا فيها شبه النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما قال الله تعالى والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك، واعتزل هود عليه السلام فيما ذكرلى ومن معه من المؤمنين فى حظيرة مايصيبه ومن معه الا ماتلين عليه الجلود وتلذ الأنفس وانها لتمر على عاد بالظعن مابين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وذكر تمام القصة بطولها وهو سياق غريب فيه فوائد كثيرة وقد قال الله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)

وقد ورد فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده قريب مما أورده محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله، وقال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنى أبوالمنذر سلام بن سليمان النحوى حدثنا عاصم بن أبى النجود عن أبى وائل عن الحارث البكرى قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررت بالربذة فإذا بعجوز من بنى تميم منقطع بها فقالت لى ياعبد الله إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة هل أنت مبلغى إليه قال فحملتها فأتيت المدينة فإذا المسجد غاص بأهله وإذا راية سوداء تخفق وإذا بلال متقلد سيفا بين يدى رسول الله ﷺ فقلت ماشأن الناس؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجها قال فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لى فدخلت وسلمت فقال هل بينكم وبين تميم شيء قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها فسألتنى أن أحملها اليك وهاهى بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يارسول الله ان رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزا فاجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت يارسول الله فالى أين يضطر مضطرك قال قلت: ان مثلى مثل ماقال الأول : معزى حملت حتفها، حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصما أعوذ بالله وبرسوله أن أكون كوافد عاد قال لى « وما وافد عاد؟ » وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه قلت إن عادا قحطوا فبعثوا وافدا لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهرا يسقيه الخمر وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إنك تعلم أنى لم أجئ إلى مريض فأداويه، ولا إلى أسير فأفاديه. اللهم اسق عادا ما كنت تسقيه، فمرت به سحابات سود فنودى منها اختر فأوما إلى سحابة منها سوداء فنودى منها خذها رمادا رمددا، لاتبقى من عاد أحدا قال فما بلغنى أنه بعث الله عليهم من الريح إلا قدر مايجرى فى خاتمى هذا حتى هلكوا قال أبووائل وصدق قال وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافدا لهم قالوا لاتكن كوافد عاد هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند، ورواه الترمذى عن عبد بن حميد عن زيد بن الحباب به نحوه، ورواه النسائى من حديث سلام ابن أبى المنذر عن عاصم وهو ابن بهدلة ومن طريقه رواه ابن ماجه أيضا عن أبى وائل عن الحارث بن حسان البكرى به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن زيد بن حباب به ووقع عنده عن الحارث بن يزيد البكرى فذكره ورواه أيضا

(١) فى النسخة المكية مهد، وفى البغوى مهدد.

عن أبي كريب عن أبي بكر بن عياش عن عاصم عن الحارث بن حسان البكرى فذكره ولم أر في النسخة أبا وائل والله أعلم

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

قال علماء التفسير والنسب ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك فى سنة تسع قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا لها القدور فأمرهم النبى ﷺ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال « إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » وأصل هذا الحديث مخرج فى الصحيحين من غير وجه ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس « الصلاة جامعة » قال فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ممسك بعنزة وهو « يقول ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك . رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم فاستقيموا وسددوا فان الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا » لم يخرجه أحد من أصحاب السنن وأبو كبشة اسمه عمر بن سعد ويقال عامر بن سعد والله أعلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن أبى الزبير عن جابر قال لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت — يعنى الناقة — ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها فأخذتهم صيحة أخمد الله من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحداً كان فى حرم الله » فقالوا من هو يا رسول الله قال: « أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه » وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة وهو على شرط مسلم . قوله تعالى (وإلى ثمود) أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا (قال ياقوم

اعبدوا الله مالكم من إله غيره) فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية) أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد والحباب صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلهس وكان جندع بن عمرو بن عم يقال له : شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن حراس وكان من أشراف ثمود وأفاضلها فأراد أن يسلم أيضا فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم فقال في ذلك رجل من مؤمني ثمود يقال له مهوش بن عثمة بن الدميل رحمه الله

وكانت عصبة من آل عمرو * إلى دين النبي دعوا شهابا * عزيز ثمود كلهم جميعا * فهم بأن يجيب فلو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزاً * وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا * ولكن الغواة من آل حجر * تولوا بعد رشدهم ذيابا

وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوما وتدعه لهم يوما وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر) وقال تعالى (هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فج وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء وكانت على ما ذكر خلقا هائلا ومنظراً رائعا إذا مرت بأنعامهم نفرت منها فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال انهم اتفقوا كلهم على قتلها ، قال قتادة بلغني أن الذي قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن وعلى الصبيان قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) وقال (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) وقال (فعقروا الناقة) فأسند ذلك على مجموع القبيلة فدل على رضى جميعهم بذلك والله أعلم ، وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير وغيره من علماء التفسير أن سبب قتلها أن امرأة منهم يقال لها عنيزة ابنة غنم بن مجلز وتكنى أم عثمان كانت عجوزا كافرة وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانت لها بنات حسان ومال جزيل وكان زوجها ذؤاب بن عمرو أحد رؤساء ثمود وامرأة أخرى يقال له صدقة[1] بنت المحيا بن زهير بن المختار ذات حسب ومال وجمال وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته فكانتا تجعلان لمن التزم لهما بقتل الناقة فدعت صدقة رجلا يقال له الحباب فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة فأبى عليها فدعت ابن عم لها يقال له مصدع بن مهرج بن المحيا فأجابها إلى ذلك ودعت عنيزة بنت غنم قدار بن سالف بن جذع وكان رجلا أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه كان ولد زنية وأنه لم يكن من أبيه الذي ينسب إليه وهو سالف وإنما هو من رجل يقال له صهياد ولكن ولد على فراش سالف وقالت له أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة فعند ذلك انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغويا غواة من ثمود فاتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط وهم الذين قال الله تعالى (وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) وكانوا رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة بكمالها فطاوعتهم على ذلك فانطلقوا فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قدار ابن سالف في أصل صخرة على طريقها وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها وخرجت بنت غنم عنيزة وأمرت ابنتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت عن وجهها لقدار وزمرته وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ورعت رغاة واحدة تحذر سقبها ثم طعن

(١) النسخة المكية : صروف .

فى لبتها فنحرها وانطلق سقبها وهو فصيلها حتى أتى جبلا منيعا فصعد أعلى صخرة فيه ورغا فروى عبدالرزاق عن معمر عمن سمع الحسن البصرى أنه قال يارب أين أمى ويقال إنه رغا ثلاث مرات وإنه دخل فى صخرة فغاب فيها ويقال إنهم اتبعوه فعقروه مع أمه فالله أعلم . فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة وبلغ الخبر صالحا عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون فلما رأى الناقة بكى وقال (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام) الآية وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء فلما أمسى أولئك التسعة الرهط عزموا على قتل صالح وقالوا إن كان صادقا عجلناه قبلنا وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) الآية فلما عزموا على ذلك وتواطئوا عليه وجاءوا من الليل ليفتكوا بنبى الله فأرسل الله سبحانه وتعالى وله العزة ولرسوله عليهم حجارة فرضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه عياذا بالله من ذلك لايدرون ماذا يفعل بهم ولا كيف يأتيهم العذاب وأشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس فى ساعة واحدة (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى صرعى لا أرواح فيهم ولم يفلت منهم أحد لا صغير ولا كبير لا ذكر ولا أنثى قالوا إلا جارية كانت مقعدة واسمها كلبة ابنة السلق ويقال لها الذريعة وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام فلما رأت ما رأت من العذاب أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حيا من الأحياء فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها ثم استسقتهم من الماء فلما شربت ماتت قال علماء التفسير ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه رضى الله عنهم إلا أن رجلا يقال له أبو رغال كان لما وقعت النقمة بقومه مقيما إذ ذاك فى الحرم فلم يصبه شىء فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحل جاءه حجر من السماء فقتله وقد تقدم فى أول القصة حديث جابر بن عبد الله فى ذلك وذكروا أن أبا رغال هذا هو والد ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف قال عبد الرزاق عن معمر أخبرنى إسماعيل بن أمية أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال فقال « أتدرون من هذا ؟ » قالو الله ورسوله أعلم قال « هذا قبر أبى رغال رجل من ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه فدفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب فنزل القوم فابتدروه بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن » وقال عبد الرزاق قال معمر قال الزهرى أبو رغال أبو ثقيف هذا مرسل من هذا الوجه ، وقد روى متصلا من وجه آخر كما قال محمد بن إسحق عن إسماعيل بن أمية عن بجير بن أبى بجير قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول حين خرجنا معه إلى الطائف فمررنا بقبر فقال « هذا قبر أبى رغال وهو أبو ثقيف وكان من ثمود وكان بهذا الحرم فدفع عنه فلما خرج أصابته النقمة التى أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه وآية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه فابتدره الناس فاستخرجوا منه الغصن » وهكذا رواه أبو داود عن يحيى بن معين عن وهب بن جرير بن حازم عن أبيه عن ابن إسحق به قال شيخنا أبو الحجاج المزى وهو حديث حسن عزيز (قلت) تفرد بوصله بجير بن أبى بجير هذا وهو شيخ لايعرف إلا بهذا الحديث ، قال يحيى بن معين ولم أسمع أحدا روى عنه غير إسماعيل بن أمية (قلت) وعلى هذا فيخشى أن يكون وهم فى رفع هذا الحديث . وإنما يكون من كلام عبد الله بن عمرو مما أخذه من الزاملتين قال شيخنا أبو الحجاج بعد أن عرضت عليه ذلك وهذا محتمل والله أعلم

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق

وإعراضهم عن الهدى إلى العمى قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول « يا أبا جهل بن هشام ياعتبة بن ربيعة ياشيبة ابن ربيعة ويافلان بن فلان هل وجدتم ماوعد ربكم حقا فإنى وجدت ماوعدنى ربى حقا » فقال له عمر يارسول الله ماتكلم من أقوام قد جيفوا فقال « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لايجيبون » وفى السيرة أنه عليه السلام قال لهم « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه (لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم) أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لاتحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ولهذا قال (ولكن لاتحبون الناصحين) وقد ذكر بعض المفسرين أن كل نبى هلكت أمته كان يذهب فيقيم فى الحرم حرم مكة والله أعلم، وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال لما مر رسول الله ﷺ بوادى عسفان حين حج قال (يا أبا بكر أى واد هذا ؟) قال هذا وادى عسفان قال « لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمهن الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يلبون يحجون البيت العتيق » هذا حديث غريب من هذا الوجه لم يخرجه أحد منهم

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (لوطا) أو تقديره (و) اذكر (لوطا إذ قال لقومه) ولوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام وهاجر معه إلى أرض الشام فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عزوجل ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا غيرهم وهو إتيان الذكور دون الاناث وهذا شىء لم يكن بنوآدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله قال عمرو بن دينار فى قوله (ماسبقكم بها من أحد من العالمين) قال مانزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بانى جامع دمشق لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ماظننت أن ذكرا يعلو ذكرا ولهذا قال لهم لوط عليه السلام (أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) أى عدلتم عن النساء وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال وهذا إسراف منكم وجهل لانه وضع الشىء فى غير محله ولهذا قال لهم فى الآية الأخرى (هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا اليه بأنهم لايشتهونهن (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) أى لقد علمت أنه لاأرب لنا فى النساء ولا إرادة وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض وكذلك نساؤهم كن قد استغنين بعضهن ببعض أيضاً

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أى ما أجابوا لوطا إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم فأخرجه الله تعالى سالما وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين ، وقوله تعالى (إنهم أناس يتطهرون) قال قتادة عابوهم بغير عيب . وقال مجاهد : إنهم أناس يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس أيضاً

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فأنجينا لوطا وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) إلا امرأته فانها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه وتعلمهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتهم فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال ههنا (إلا امرأته كانت من الغابرين) أى الباقين وقيل من الهالكين وهو تفسير باللازم ، وقوله (وأمطرنا عليهم مطرا) مفسر بقوله (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد) ولهذا قال (فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) أى انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصى الله عز وجل ويكذب رسله وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصنا أو غير محصن وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الدراوردى عن عمرو بن أبى عمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وقال آخرون هو كالزانى فان كان محصنا رجم ، وإن لم يكن محصنا جلد مائة جلدة وهو القول الآخر للشافعى ، وأما إتيان النساء فى الأدبار فهو اللوطية الصغرى وهو حرام بإجماع العلماء إلا قولا شاذا لبعض السلف وقد ورد فى النهى عنه أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر قال واسمه بالسريانية يثرون (قلت) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله وبه الثقة (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) هذه دعوة الرسل كلهم قد جاءتكم بينة من ربكم أى قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ، ثم وعظهم فى معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أى لا يخونوا الناس فى أموالهم ويأخذوها على وجه البخس وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى (ويل للمطففين — إلى قوله — لرب العالمين) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد نسأل الله العافية منه ، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذى يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

ينهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون) أى توعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم قال السدى وغيره : كانوا عشارين ، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد (ولا

تقعدوا بكل صراط توعدون) أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر لأنه قال (بكل صراط) وهو الطريق وهذا الثانى هو قوله (وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا)أى وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة (واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم) أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) أى من الأمم الخالية والقرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله . وقوله (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا)أى قد اختلفتم على (فاصبروا) أى انتظروا (حتى يحكم الله بيننا) وبينكم أى يفصل (وهو خير الحاكمين)فانه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ * قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين فى توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفى عن القرية أو الاكراه على الرجوع فى ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب مع الرسول والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة ، وقوله (أو لو كنا كارهين؟) يقول أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه فانا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أندادا وهذا تنفير منه عن اتباعهم (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا)وهذا رد إلى الله مستقيم فانه يعلم كل شىء وقد أحاط بكل شىء علما (على الله توكلنا) أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) أى احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم (وأنت خير الفاتحين) أى خير الحاكمين ، فانك العادل الذى لا يجور أبداً

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ولهذا أقسموا وقالوا (لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون) فلهذا عقبه بقوله (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة وذلك كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء كما أخبر عنهم فى سورة هود فقال (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) والمناسبة هناك والله أعلم أنهم لما تهكموا به فى قولهم (أصلاتك تأمرك) الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم ، وقال تعالى إخبارا عنهم فى سورة الشعراء (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وما ذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة (فأسقط علينا كسفا من السماء) الآية ، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة وقد اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) ثم قال تعالى (كأن لم يغنوا فيها) أى كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم (الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين)

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال وقال مقرعا لهم وموبخا (ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم) أى قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به فلهذا قال (فكيف آسى على قوم كافرين ؟)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ * ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء . يعنى بالبأساء مايصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء مايصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك لعلهم يضرعون ، أى يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف مانزل بهم . وتقدير الكلام انه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذى أراد منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه ولهذا قال (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ومن فقر إلى غنى ليشكروا على ذلك فما فعلوا وقوله (حتى عفوا) أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم يقال عفا الشىء إذا كثر . (وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون) يقول تعالى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لاهذا ولا هذا ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا قد مسنا من البأساء والضراء ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ويصبرون على الضراء كما ثبت فى الصحيحين « عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء فى الحديث « لايزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار لايدرى فيم ربطه أهله ولافيم أرسلوه » أو كما قال ، ولهذا عقب هذه الصفة بقوله (فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون) أى أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أى على بغتة وعدم شعور منهم أى أخذناهم فجأة كما فى الحديث « موت الفجأة رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر »

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل كقوله تعالى (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) أى ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعد ماعاينوا العذاب كما قال تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين) وقال تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير) الآية وقوله تعالى (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا) أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل وصدقت به واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) أى قطر السماء ونبات الأرض قال تعالى (ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) أى ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم ثم قال تعالى محوفا ومحذرا من مخالفة أوامره والتجرؤ على

زواجره (أفأمن أهل القرى) أى الكافرة (أن يأتيهم بأسنا) أى عذابنا ونكالنا (بياتا) أى ليلا (وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) أى فى حال شغلهم وغفلتهم (أفأمنوا مكر الله) أى بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون) ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله (أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها) أولم يتبين لهم أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم وكذا قال مجاهد وغيره وقال أبو جعفر بن جرير فى تفسيرها يقول تعالى أولم يتبين للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها فساروا سيرتهم وعملوا أعمالهم وعتوا على ربهم (أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم (ونطبع على قلوبهم) يقول ونختم على قلوبهم (فهم لا يسمعون) موعظة ولا تذكيرا (قلت) وهكذا قال تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقال تعالى (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) وقال (أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم) الآية وقال تعالى (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا) أى هل ترى لهم شخصا أو تسمع لهم صوتا وقال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين * ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون * ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال تعالى (وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) وقال تعالى (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) وقال تعالى (فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه لأوليائه ولهذا عقب ذلك بقوله وهو أصدق القائلين ورب العالمين

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾

لما قص تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما كان من إهلاكه الكافرين وإنجائه المؤمنين وأنه تعالى أعذر اليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى (تلك القرى نقص عليك) أى يا محمد (من أنبائها) أى من أخبارها (ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات) أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما

كذبوا من قبل) الباء سببية أى فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم حكاه ابن عطية رحمه الله وهو متجه حسن كقوله (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية ولهذا قال هنا (كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين وما وجدنا لأكثرهم) أى لأكثر الأمم الماضية (من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين) أى ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذى أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا شرع وفى الفطر السليمة خلاف ذلك وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم يقول الله تعالى « إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » الحديث وقال تعالى فى كتابه العزيز (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) إلى غير ذلك من الآيات وقد قيل فى تفسير قوله تعالى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ما روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال كان فى علمه تعالى يوم أقروا له بالميثاق أى فما كانوا ليؤمنوا لعلم الله منهم ذلك وكذا قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب عن أنس واختاره ابن جرير وقال السدى (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) قال ذلك يوم أخذ منهم الميثاق فآمنوا كرها وقال مجاهد فى قوله (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) هذا كقوله (ولو ردوا لعادوا) الآية

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى (ثم بعثنا من بعدهم) أى الرسل المتقدم ذكرهم كنوح وهود وصالح ولوط وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر أنبياء الله أجمعين (موسى بآياتنا) أى بحججنا ودلائلنا البينة إلى فرعون وهو ملك مصر فى زمن موسى (وملئه) أى قومه (فظلموا بها) أى جحدوا وكفروا بها ظلما منهم وعنادا كقوله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى الذين صدوا عن سبيل الله وكذبوا رسله أى انظر يا محمد كيف فعلنا بهم وأغرقناهم عن آخرهم بمرأى من موسى وقومه وهذا أبلغ فى النكال بفرعون وقومه وأشفى لقلوب أولياء الله موسى وقومه من المؤمنين به

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون وإلجامه إياه بالحجة وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر فقال تعالى (وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين) أى أرسلنى الذى هو خالق كل شىء وربه ومليكه (حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق) فقال بعضهم معناه حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق أى جدير بذلك وحرى به قالوا والباء وعلى يتعاقبان يقال رميت بالقوس وعلى القوس وجاء على حال حسنة وبحال حسنة وقال بعض المفسرين معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق وقرأ آخرون من أهل المدينة حقيق علىّ بمعنى واجب وحق علىّ ذلك أن لا أخبر عنه إلا بما هو حق وصدق لما أعلم من جلاله وعظيم شأنه (قد جئتكم ببينة من ربكم) أى بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدق فيما جئتكم به (فأرسل معى بنى إسرائيل) أى أطلقهم من أسرك وقهرك ودعهم وعبادة ربك وربهم

فانهم من سلالة نبي كريم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن (قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين) أى قال فرعون لست بمصدقك فيما قلت ولا بمطيعك فيما طلبت فان كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقا فيما ادعيت

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ثعبان مبين) الحية الذكر وكذا قال السدى والضحاك وفى حديث الفتون من رواية يزيد بن هارون بن الأصبغ بن زيد عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (فألقى عصاه) فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل وقال قتادة تحولت حية عظيمة مثل المدينة وقال السدى فى قوله (فإذا هى ثعبان مبين) الثعبان الذكر من الحيات فاتحة فاها واضعة لحيها الأسفل فى الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه فلما رآها ذعر منها ووثب وأحدث ولم يكن يحدث قبل ذلك وصاح يا موسى خذها وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى عليه السلام فعادت عصا ، وروى عن عكرمة عن ابن عباس نحو هذا ، وقال وهب بن منبه لما دخل موسى على فرعون قال له فرعون أعرفك قال نعم قال (ألم نربك فينا وليدا) قال فرد إليه موسى الذى رد فقال فرعون خذوه فبادر موسى (فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) فحملت على الناس فانهزموا منها فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت رواه ابن جرير والإمام أحمد فى كتابه الزهد وابن أبى حاتم وفيه غرابة فى سياقه والله أعلم وقوله (ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه فإذا هى بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض كما قال تعالى (وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) الآية وقال ابن عباس فى حديث الفتون: من غير سوء يعنى من غير برص ثم أعادها إلى كمه فعادت إلى لونها الأول وكذا قال مجاهد وغير واحد

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أى قال الملأ وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعد مارجع إليه روعه واستقر على سرير مملكته بعد ذلك قال للملأ حوله (إن هذا لساحر عليم) فوافقوه وقالوا كمقالته وتشاوروا فى أمره كيف يصنعون فى أمره وكيف تكون حيلتهم فى إطفاء نوره وإخماد كلمته وظهور كذبه وافترائه وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره فيما يعتقدون فيكون ذلك سببا لظهوره عليهم وإخراجه إياهم من أرضهم والذى خافوا منه وقعوا فيه كما قال تعالى (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فلما تشاوروا فى شأنه وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم فى قوله تعالى

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

قال ابن عباس (أرجه) أخره وقال قتادة احبسه (وأرسل) أى ابعث (فى المدائن) أى فى الأقاليم ومدائن ملكك (حاشرين) أى من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ويجمعهم وقد كان السحر فى زمانهم غالبا كثيرا ظاهرا واعتقد من اعتقد منهم وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء موسى به عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات كما أخبر تعالى عن فرعون حيث قال (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى) وقال تعالى ههنا

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنهم وليعطينهم عطاء اجزيلا فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده فلما توثقوا من فرعون لعنه الله

﴿ قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فى قولهم (إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين) أى قبلك كما قال فى الآية الأخرى (وإما أن نكون أول من ألقى) فقال لهم موسى عليه السلام ألقوا أى أنتم أولا، قيل الحكمة فى هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فرغوا من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلى بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع فى النفوس وكذا كان ولهذا قال تعالى (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال كما قال تعالى (فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ماصنعوا إن ماصنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا قال فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى وقال محمد بن إسحق صف خمسة عشر ألف ساحر مع كل ساحر حباله وعصيه وخرج موسى عليه السلام معه أخوه يتكئ على عصاه حتى أتى الجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف أهل مملكته ثم قال السحرة (ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم) فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد ثم ألقى كل رجل منهم ما فى يده من الحبال والعصى فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا وقال السدى كانوا بضعة وثلاثين ألف رجل ليس رجل منهم إلا ومعه حبل وعصا (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم) يقول فرقوهم أى من الفرق وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن هشام الدستوائى حدثنا القاسم بن أبى برة قال جمع فرعون سبعين ألف ساحر فألقوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا حتى جعل يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ولهذا قال تعالى (وجاءوا بسحر عظيم)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ * وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله موسى عليه السلام فى ذلك الموقف العظيم الذى فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل يأمره بأن يلقى ما فى يمينه وهى عصاه (فإذا هى تلقف) أى تأكل (ما يأفكون) أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل قال ابن عباس فجعلت لا تمر بشىء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شىء من السماء ليس هذا بسحر فخروا سجدا وقالوا (آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) وقال محمد بن إسحق جعلت تتبع تلك الحبال والعصى واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادى قليل ولا كثير مما ألقوا ثم أخذها موسى فإذا هى عصا فى يده كما كانت ووقع السحرة سجدا قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون لو كان هذا ساحرا ما غلبنا وقال القاسم ابن أبى برة أوحى الله اليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين فاغر فاه يبتلع حبالهم وعصيهم فألقى السحرة عند ذلك سجدا فما رفعوا رءوسهم حتى رأوا الجنة والنار وثواب أهلهما

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون لعنه الله السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها) أى إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ورضا منكم لذلك كقوله في الآية الأخرى (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهو يعلم وكل من له لب أن هذا الذى قاله من أبطل الباطل فان موسى عليه السلام بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله وأظهر المعجزات الباهرة والحجج القاطعة على صدق ماجاء به فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه وأحضرهم عنده ووعدهم بالعطاء الجزيل ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك وعلى الظهور في مقامهم ذلك والتقدم عند فرعون . وموسى عليه السلام لايعرف أحدا منهم ولا رآه ولا اجتمع به وفرعون يعلم ذلك وإنما قال هذا تسترا وتدليسا على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) فان قوما صدقوه في قوله (أنا ربكم الأعلى) من أجهل خلق الله وأضلهم ، وقال السدى في تفسيره بإسناده المشهود عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة في قوله تعالى (إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة) قال التقى موسى عليه السلام وأمير السحرة فقال له موسى أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ماجئت به حق قال الساحر لآتين غدا بسحر لايغلبه سحر فوالله لئن غلبتنى لأومنن بك ولأشهدن أنك حق وفرعون ينظر اليهما قالوا فلهذا قال ماقال ، وقوله (لتخرجوا منها أهلها) أى تجتمعوا أنتم وهو وتكون لكم دولة وصولة وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وتكون الدولة والتصرف لكم (فسوف تعلمون) أى ما أصنع بكم ثم فسر هذا الوعيد بقوله (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) يعنى يقطع يد الرجل اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس (ولأصلبنكم أجمعين) وقال في الآية الأخرى (في جذوع النخل) أى على الجذوع قال ابن عباس وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف فرعون وقول السحرة (إنا إلى ربنا منقلبون) أى قد تحققنا أنا اليه راجعون وعذابه أشد من عذابك ونكاله على ماتدعونا اليه اليوم وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك فلنصبرن اليوم على عذابك لنخلص من عذاب الله ولهذا قالوا (ربنا أفرغ علينا صبرا) أى عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه (وتوفنا مسلمين) أى متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون (فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لايموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى) فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة ، قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ * قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوٓا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة (وقال

الملأ من قوم فرعوى) أى لفرعون(أتذرموسى وقومه) أى أتدعهم ليفسدوا فى الأرض أى يفسدوا أهـل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك يالله العجب صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولـكن لا يشعرون ولهذا قالوا (ويذرك وآلهتك) قال بعضهم الواوها هنا حالية أى أتذره وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك ؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك حكاه ابن جرير وقال آخرون هى عاطفة أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك وقرأ بعضهم إلاهتك أى عبادتك وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره وعلى القراءة الأولى قال بعضهم كان لفرعون إله يعبده قال الحسن البصرى كان لفرعون إله يعبده فى السر وقال فى رواية أخرى كان له حنانة فى عنقه معلقة يسجد لها وقال السدى فى قوله تعالى (ويذرك وآلهتك) وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم السامرى عجلا جسدا له خوار . فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وهذا أمر ثان بهذا الصنيع وقد كان نـكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذرا من وجوده فـكان خلاف ما رامه وضد ما قصده فرعون . وهكذا عومل فى صنيعه أيضا لما أراد إذلال بنى إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد : أعزهم الله وأذله وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده . ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبنى إسرائيل (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا) ووعدهم بالعاقبة وأن الدار ستصير لهم فى قوله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * قال أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) أى قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والإذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك فقال منبها لهم على حالهم الحاضر وما يصيرون إليه فى ثانى الحال (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) الآية وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون) أى اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم (بالسنين) وهى سنين الجوع بسبب قلة الزروع (ونقص من الثمرات) قال مجاهد وهو دون ذلك وقال أبو إسحق عن رجاء بن حيوة كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة (لعلهم يذكرون فإذا جاءتهم الحسنة) أى من الخصب والرزق (قالوا لنا هذه) أى هذا لنا بما نستحقه (وإن تصبهم سيئة) أى جدب وقحط (يطيروا بموسى ومن معه) أى هذا بسببهم وما جاءوا به (ألا إنما طائرهم عند الله) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ألا إنما طائرهم عند الله) يقول مصائبهم عند الله (ولـكن أكثرهم لا يعلمون) وقال ابن جريج عن ابن عباس قال (ألا إنما طائرهم عنـــد الله) أى من قبل الله

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَٰءِيلَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق وإصرارهم على الباطل فى قولهم (مهما

تأتنا بهمن آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) يقولون أى آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها فلا نقبلها منك ولا نؤمن بك ولا بما جئت به قال الله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان) اختلفوا فى معناه فعن ابن عباس فى رواية كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس فى رواية أخرى هو كثرة الموت وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كل حال ، وقال ابن جرير حدثنا ابن هشام الرفاعى حدثنا يحيى بن يمان حدثنا المنهال بن خليفة عن الحجاج عن الحكم بن ميناء عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « الطوفان الموت » وكذا رواه ابن مردويه من حديث يحيى بن يمان به وهو حديث غريب وقال ابن عباس فى رواية أخرى هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) وأما الجراد فمعروف مشهور وهو مأكول لما ثبت فى الصحيحين عن أبى يعفور قال سألت عبد الله بن أبى أوفى عن الجراد فقال غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد ، وروى الشافعى وأحمد بن حنبل وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال « أحلت لنا ميتتان ودمان . الحوت والجراد والكبد والطحال » ورواه أبو القاسم البغوى عن داود بن رشيد عن سويد بن عبد العزيز عن أبى تمام الأيلى عن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعا مثله، وروى أبو داود عن محمد بن الفرج عن محمد بن زبرقان الأهوازى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن سلمان قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال « أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه السلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل الضب وأذن فيه ، وقد روى الحافظ ابن عساكر فى جزء جمعه فى الجراد من حديث أبى سعيد الحسن بن على العدوى حدثنا نصر بن يحيى بن سعيد حدثنا يحيى بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ وسلم لا يأكل الجراد ولا الكلوتين ولا الضب من غير أن يحرمها أما الجراد فرجز وعذاب . وأما الكلوتان فلقربهما من البول ، وأما الضب فقال « أتخوف أن يكون مسخا » ثم قال غريب لم أكتبه إلا من هذا الوجه وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشتهيه ويحبه فروى عبد الله بن دينار عن ابن عمر أن عمر سئل عن الجراد فقال ليت أن عندنا منه قفعة أو قفعتين نأكله ، وروى ابن ماجه حدثنا أحمد بن منيع عن سفيان بن عيينة عن أبى سعد سعيد بن المرزبان البقال سمع أنس بن مالك يقول كان أزواج النبى ﷺ يتهادين الجراد على الأطباق ، وقال أبو القاسم البغوى حدثنا داود بن رشيد حدثنا بقية بن الوليد عن يحيى بن يزيد القعنبى حدثنى أبى عن صدى بن عجلان عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ « إن مريم بنت عمران عليها السلام سألت ربها عز وجل أن يطعمها لحما لا دم له فأطعمها الجراد فقالت اللهم أعشه بغير رضاع وتابع بينه بغير شياع » وقال نمير الشياع الصوت وقال أبو بكر بن أبى داود حدثنا أبو بقى هشام بن عبد الملك المزنى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى زهير النميرى قال: قال رسول الله ﷺ « لا تقاتلوا الجراد فانه جند الله الأعظم » غريب جداً وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد) قال كانت تأكل مسامير أبوابهم وتدع الخشب ، وروى ابن عساكر من حديث على بن زيد الخرائطى عن محمد بن كثير سمعت الأوزاعى يقول خرجت إلى الصحراء فإذا أنا برجل من جراد فى السماء فإذا برجل راكب على جرادة منها وهو شاك فى الحديد وكلما قال بيده هكذا مال الجراد مع يده وهو يقول الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها الدنيا باطل باطل ما فيها ، وروى الحافظ أبو الفرج المعافى بن زكريا الحريرى حدثنا محمد بن الحسن بن زياد حدثنا أحمد بن عبد الرحيم أخبرنا وكيع عن الأعمش أنبأنا عامر قال سئل شريح القاضى عن الجراد فقال قبح الله الجرادة فيها خلقة سبعة جبابرة رأسها رأس فرس . وعنقها عنق ثور . وصدرها صدر أسد . وجناحها جناح نسر . ورجلاها رجل جمل وذنبها ذنب حية . وبطنها بطن عقرب . وقدمنا عند قوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة) حديث حماد بن سلمة عن أبى المهزم عن أبى هريرة قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حج أو عمرة فاستقبلنا رجل جراد فجعلنا نضربه بالعصى ونحن

محرمون فسألنا رسول الله ﷺ فقال « لا بأس بصيد البحر » وروى ابن ماجه عن هرون الحمانى عن هشام بن القاسم عن زياد بن عبد الله بن علاثة وعن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمى عن أبيه عن أنس وجابر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا دعا على الجراد قال « اللهم أهلك كباره واقتل صغاره وأفسد بيضه واقطع دابره وخذ بأفواهه عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء » فقال له جابر يارسول الله أتدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره ؟ فقال « إنما هو نثرة حوت فى البحر » قال هشام أخبرنى زياد أنه أخبره من رآه ينثره الحوت قال من حقق ذلك إن السمك إذا باض فى ساحل البحر فنضب الماء عنه وبدا للشمس أنه يفقس كله جرادا طيارا . وقدمنا عند قوله (إلا أمم أمثالكم) حديث عمر رضى الله عنه ان الله خلق ألف أمة ستمائة فى البحر وأربعمائة فى البر وان أولها هلاكا الجراد ، وقال أبو بكر بن أبى داود حدثنا يزيد بن المبارك حدثنا عبد الرحمن بن قيس حدثنا سلم بن سالم حدثنا أبو المغيرة الجوزجانى محمد بن مالك عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ « لاوباء مع السيف ولا لحاء مع الجراد » حديث غريب ، وأما القمل فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة وعنه أنه الدبا وهو الجراد الصغار الذى لاأجنحة له وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعن الحسن وسعيد بن جبير القمل دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: القمل البراغيث ، وقال ابن جرير القمل جمع واحدتها قملة وهى دابة تشبه القمل تأكل الإبل فيما بلغنى وهى التى عناها الأعشى بقوله :

قوم يعالج قملا أبناؤهم ‪*‬ وسلاسلا أجداً وبابا موصدا

قال وكان بعض أهل العلم بكلام العرب من أهل البصرة يزعم أن القمل عند العرب الحمنان واحدتها حمنانة وهى صغار القردان فوق القمقامة . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن حميد الرازى حدثنا يعقوب القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير قال : لما أتى موسى عليه السلام فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ فقالوا هذا ما كنا نتمنى فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لايبقى الزرع ، فقالوا ياموسى ادع لنا ربك فيكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل فداسوا وأحرزوا فى البيوت فقالوا قد أحرزنا فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يرد منها إلا ثلاثة أقفزة فقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون ماتلقى أنت وقومك من هذا فقال وما عسى أن يكون كيد هذا فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه ، فقالوا لموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل[1] فلم يؤمنوا وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا فشكوا إلى فرعون فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم وليس لنا شراب فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا فأتوه وقالوا ياموسى ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، وقد روى نحو هذا عن ابن عباس والسدى وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بذلك ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مغلولا ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر فتابع الله عليه الآيات فأخذه بالسنين وأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم ، آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض ، ثم ركد لايقدرون

(١) كذا فى جميع النسخ ، ولعله سقط منه ، فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع .

على أن يحرثوا ولا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا فلما بلغهم ذلك (قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل) فدعا موسى ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر فيما بلغنى حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ماقالوا فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم القمل فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم قالوا له مثل ماقالوا له فدعا ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه ، فلما جهدهم ذلك قالوا له مثل ماقالوا فسأل ربه فكشف عنهم فلم يفوا له بشىء مما قالوا فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما لايستقون من بئر ولا نهر ، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور المروزى أنبأنا النضر أنبأنا إسرائيل أنبأنا جابر بن يزيد عن عكرمة عن عبيد الله بن عمرو قال : لاتقتلوا الضفادع فإنها لما أرسلت على قوم فرعون انطلق ضفدع منها فوقع فى تنور فيه نار يطلب بذلك مرضاة الله فأبدلهن الله من هذا أبرد شىء يعلمه من الماء وجعل نقيقهن التسبيح ، وروى من طريق عكرمة عن ابن عباس نحوه ، وقال زيد بن أسلم : يعنى بالدم الرعاف . رواه ابن أبى حاتم

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم فى اليم وهو البحر الذى فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها ، وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين كانوا يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها كما قال تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقال تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين) وعن الحسن البصرى وقتادة فى قوله (مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها) يعنى الشام ، وقوله (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) قال مجاهد وابن جرير وهى قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وقوله (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) أى وخربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع (وما كانوا يعرشون) قال ابن عباس ومجاهد (يعرشون) يبنون :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا (فأتوا) أى فمروا (على قوم يعكفون على أصنام لهم) . قال بعض المفسرين كانوا من الكنعانيين وقيل كانوا من لخم

قال ابن جرير وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا (يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون) أى تجهلون عظمة الله وجلاله وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل (إن هؤلاء متبر ماهم فيه) أى هالك (وباطل ما كانوا يعملون) وروى الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال فقلنا يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال « قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت يا نبى الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ، فقال النبى ﷺ « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من قبلكم » أورده ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده مرفوعا

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره وما كانوا فيه من الهوان والذلة وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه فى حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره وقد تقدم تفسيرها فى البقرة

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على بنى إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة قال المفسرون فصامها موسى عليه السلام وطواها فلما تم الميقات استاك بلحاء شجرة فأمره الله تعالى أن يكمل بعشر أربعين وقد اختلف المفسرون فى هذه العشر ما هى فالأكثرون على أن الثلاثين هى ذو القعدة والعشر عشر ذى الحجة قاله مجاهد ومسروق وابن جريج وروى عن ابن عباس وغيره فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ كما قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) فلما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور كما قال تعالى (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن) الآية فحينئذ استخلف موسى على بنى إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الافساد. وهذا تنبيه وتذكير وإلا فهارون عليه السلام نبى شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ

سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكلم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال (رب أرني أنظر إليك قال لن تراني) وقد أشكل حرف لن ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤية في الدنيا والآخرة وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة كما سنوردها عند قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وقوله تعالى إخبارا عن الكفار (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وقيل انها لنفي التأبيد في الدنيا جمعا بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤية في الدار الآخرة وقيل إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وقد تقدم ذلك في الأنعام وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام «ياموسى أنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده» ولهذا قال تعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) قال أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسير هذه الآية حدثنا أحمد بن سهيل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا الأعمش عن رجل عن أنس عن النبي ﷺ قال لما تجلى ربه للجبل أشار باصبعه فجعله دكا وأرانا أبو إسماعيل باصبعه السبابة ، هذا الإسناد فيه رجل مبهم لم يسم ، ثم قال حدثني المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد عن ليث عن أنس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال: هكذا باصبعه ، ووضع النبي ﷺ اصبعه الابهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل هكذا وقع في هذه الرواية حماد بن سلمة عن ليث عن أنس والمشهور حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس كما قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قرأ رسول الله ﷺ (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) قال : ووضع الابهام قريباً من طرف خنصره ، قال : فساخ الجبل ، قال حميد لثابت يقول هكذا فرفع ثابت يده فضرب صدر حميد وقال يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس وأنا أكتمه ؟ وهكذا رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا أبو المثنى معاذ بن معاذ العنبري حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله (فلما تجلى ربه للجبل) قال : قال : هكذا ، يعني أنه أخرج طرف الخنصر قال أحمد أرانا معاذ فقال له حميد الطويل ما تريد إلى هذا يا أبا محمد قال فضرب صدره ضربة شديدة وقال من أنت يا حميد وما أنت ياحميد يحدثني به أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول ما تريد إليه ؟ وهكذا رواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن عبد الوهاب بن الحكم الوراق عن معاذ بن معاذ به وعن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به ثم قال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث حماد وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من طرق عن حماد بن سلمة به وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه أبو محمد الحسن بن محمد بن علي الخلال عن محمد بن علي بن سويد عن أبي القاسم البغوي عن هدبة بن خالد عن حماد بن سلمة فذكره وقال هذا إسناد صحيح لا علة فيه ، وقد رواه داود بن المحبر عن شعبة عن ثابت عن أنس مرفوعا وهذا ليس بشيء لأن داود بن المحبر كذاب رواه الحافظان أبو القاسم الطبراني وأبو بكر بن مردويه من طريقين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس مرفوعا بنحوه وأسنده ابن مردويه من طريق ابن البيلماني عن أبيه عن ابن عمر مرفوعا ولا يصح أيضاً، رواه الترمذي وصححه الحاكم وقال على شرط مسلم وقال السدي عن عكرمة عن ابن عباس في قول الله تعالى (فلما تجلى ربه للجبل) قال ما تجلى منه إلا قدر الخنصر (جعله دكا) قال ترابا (وخر موسى صعقا) قال مغشيا عليه رواه ابن جرير وقال قتادة (وخر موسى صعقا) قال ميتاً وقال سفيان الثوري ساخ الجبل في الأرض حتى وقع في البحر فهو يذهب معه وقال سنيد عن حجاج بن محمد الأعور عن أبي بكر الهذلي (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا) انقعر فدخل تحت الأرض فلا يظهر إلى يوم القيامة وجاء في بعض الأخبار أنه ساخ في الأرض فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة رواه ابن مردويه وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شبة حدثنا محمد بن يحيي أبو غسان الكناني حدثنا

عبد العزيز بن عمران عن معاوية بن عبدالله عن الجلد بن أيوب عن معاوية بن قرة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال « لما تجلى الله للجبال طارت لعظمته ستة أجبل فوقعت ثلاثة بالمدينة وثلاثة بمكة بالمدينة أحد وورقان ورضوى ووقع بمكة حراء وثبير وثور » وهذا حديث غريب بل منكر وقال ابن أبي حاتم ذكر عن محمد بن عبدالله بن أبي البلح حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا عثمان بن حصين بن العلاف عن عروة بن رويم قال كانت الجبال قبل أن يتجلى الله لموسى على الطور صما ملساء فلما تجلى الله لموسى على الطور دك وتفطرت الجبال فصارت الشقوق والكهوف وقال الربيع بن أنس (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) وذلك أن الجبل حين كشف الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك وقال بعضهم جعله دكا أى فتنة وقال مجاهد فى قوله (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) فإنه أكبر منك وأشد خلقا (فلما تجلى ربه للجبل جعله) فنظر إلى الجبل لايتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى مايصنع الجبل فخر صعقا وقال عكرمة جعله دكا قال نظر الله إلى الجبل فصار صحراً ترابا وقد قرأ بهذا القراءة بعض القراء واختارها ابن جرير وقد وردفيها حديث مرفوع رواه ابن مردويه والمعروف أن الصعق هو الغشى هاهنا كما فسره ابن عباس وغيره لا كما فسره قتادة بالموت وإن كان ذلك صحيحاً فى اللغة كقوله تعالى (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) فان هناك قرينة تدل على الموت كما أن هنا قرينة تدل على الغشى وهى قوله (فلما أفاق) والافاقة لاتكون إلا عن غشى (قال سبحانك) تنزيها وتعظيما وإجلالا أن يراه أحد فى الدنيا إلا مات وقوله (تبت إليك) قال مجاهد أن أسألك الرؤية (وأنا أول المؤمنين) قال ابن عباس ومجاهد من بنى إسرائيل واختاره ابن جرير وفى رواية أخرى عن ابن عباس (وأنا أول المؤمنين) أنه لايراك أحد وكذا قال أبو العالية قد كان قبله مؤمنون ولكن يقول أنا أول من آمن بك انه لايراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة وهذا قول حسن له اتجاه وقد ذكر محمد بن جرير فى تفسيره هاهنا أثراً طويلا فيه غرائب وعجائب عن محمد بن إسحق بن يسار وكأنه تلقاه من الإسرائيليات والله أعلم، وقوله (وخر موسى صعقا) فيه أبو سعيد وأبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأما حديث أبي سعيد فأسنده البخارى فى صحيحه هاهنا فقال حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عمرو بن يحيي المازنى عن أبيه عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال جاء رجل من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قد لطم وجهه، وقال يا محمد إن رجلا من أصحابك من الأنصار لطم وجهى قال « ادعوه » فدعوه قال « لم لطمت وجهه ؟ » قال يارسول الله إنى مررت باليهودى فسمعته يقول والذى اصطفى موسى على البشر قال وعلى محمد ؟ قال فقلت وعلى محمد وأخذتنى غضبة فلطمته فقال « لاتخيرونى من بين الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » وقد رواه البخارى فى أماكن كثيرة من صحيحه ومسلم فى أحاديث الأنبياء من صحيحه وأبو داود فى كتاب السنة من سننه من طرق عن عمرو بن يحيي بن عمارة بن أبي الحسن المازنى الأنصارى المدنى عن أبيه عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى به . وأما حديث أبي هريرة فقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا أبو كامل حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وعبد الرحمن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى والذى اصطفى موسى على العالمين فغضب المسلم على اليهودى فلطمه فأتى اليهودى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترف بذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتخيرونى على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى ممسك بجانب العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى أم كان ممن استثنى الله عز وجل » أخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به . وقد روى الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا رحمه الله أن الذى لطم اليهودى فى هذه القضية هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه ولكن تقدم فى الصحيحين أنه رجل من الأنصار وهذا هو أصح وأصرح والله أعلم والكلام فى قوله عليه السلام « لاتخيرونى على موسى » كالكلام على قوله « لاتفضلونى على الأنبياء ولا على

يونس بن متى » قيل من باب التواضع وقيل قبل أن يعلم بذلك ، وقيل نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب وقيل على وجه القول بمجرد الرأى والتشهى والله أعلم ، وقوله « فإن الناس يصعقون يوم القيامة » الظاهر أن هذا الصعق يكون فى عرصات القيامة يحصل أمر يصعقون منه والله أعلم به وقد يكون ذلك إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء وتجلى للخلائق الملك الديان كما صعق موسى من تجلى الرب تبارك وتعالى ولهذا قال عليه السلام « فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » وقد روى القاضى عياض فى أوائل كتابه الشفاء بسنده عن محمد بن محمد ابن مرزوق حدثنا قتادة حدثنا الحسن عن قتادة عن يحيى بن وثاب عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «لما تجلى الله لموسى عليه السلام كان يبصر النملة على الصفا فى الليلة الظلماء مسيرة عشرة فراسخ» ثم قال ولا يبعد على هذا أن يختص نبينا بما ذكرناه من هذا الباب بعد الإسراء والحظوة بما رأى من آيات ربه الكبرى انتهى ماقاله وكأنه صحح هذا الحديث وفى صحته نظر ولا تخلو رجال إسناده من مجاهيل لا يعرفون ومثل هذا إنما يقبل من رواية العدل الضابط عن مثله حتى ينتهى إلى منتهاه والله أعلم

﴿ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ولهذا اختصه الله تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تستمر شريعته إلى قيام الساعة وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم وبعده فى الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ولهذا قال الله تعالى له (فخذ ما آتيتك) أى من الكلام والمناجاة (وكن من الشاكرين) أى على ذلك ولا تطلب مالا طاقة لك به ثم أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء قيل كانت الألواح من جوهر وان الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس) وقيل الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منه والله أعلم (وقوله فخذها بقوة) أى بعزم على الطاعة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه وقوله (سأريكم دار الفاسقين) أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، قال ابن جرير وإنما قال (سأريكم دار الفاسقين) كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غدا إلى ما يصير اليه حال من خالف أمرى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره ، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى وقيل معناه (سأريكم دار الفاسقين) أى من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقال بعض السلف لا ينال العلم حيي ولا مستكبر وقال آخر من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا ، وقال سفيان بن عيينة في قوله (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي قال ابن جرير وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة . قلت ليس هذا بلازم لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة ولا فرق بين أحد وأحد في هذا والله أعلم ، وقوله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقوله (وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) أي وإن ظهر لهم سبيل الرشد أي طريق النجاة لا يسلكوها وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أي كذبت بها قلوبهم (وكانوا عنها غافلين) أي لا يعملون بما فيها . وقوله (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم) أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله وقوله (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها إن خيراً فخير وإن شراً فشر وكما تدين تدان .

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ * وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار عجلا جسداً له خوار والخوار صوت البقر وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم ويقال إنهم لما صوت لهم العجل رقصوا حوله وافتتنوا به وقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي قال الله تعالى (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا) وقال في هذه الآية الكريمة (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلا جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبي داود عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ « حبك الشيء يعمي ويصم » وقوله (ولما سقط في أيديهم) أي ندموا على ما فعلوا (ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) وقرأ بعضهم لئن لم ترحمنا بالتاء المثناة من فوق ربنا منادى وتغفر لنا (لنكونن من الخاسرين) أي من الهالكين وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ

﴿الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى القومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان أسف قال أبو الدرداء الأسف أشد الغضب (قال بئسما خلفتموني من بعدي) يقول بئس ما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم، وقوله (أعجلتم أمر ربكم) يقول استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدر من الله تعالى وقوله (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) قيل كانت الألواح من زمرد وقيل من ياقوت وقيل من برد وقيل من سدر وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث «ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه وهذا قول جمهور العلماء سلفا وخلفا وروى ابن جرير عن قتادة في هذا قولا غريبا لا يصح إسناده إلى حكاية قتادة وقد رده ابن عطية وغير واحد من العلماء وهو جدير بالرد وكأنه تلقاه قتادة عن بعض أهل الكتاب وفيهم كذابون ووضاعون وأفاكون وزنادقة وقوله (وأخذ برأس أخيه يجره إليه) خوفا أن يكون قد قصر في نهيهم كما قال في الآية الأخرى (قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي * إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي) وقال هاهنا (ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين) أي لا تسقني مساقهم ولا تخلطني معهم وإنما قال : ابن أم ليكون أرق وأنجع عنده وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى (ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري) فعندذلك (قال) موسى (رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح »

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في عبادة العجل فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضا كما تقدم في سورة البقرة (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلا وصغاراً في الحياة الدنيا وقوله (وكذلك نجزي المفترين) نائلة لكل من افترى بدعة فان ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات وطقطقت بهم البراذين : وهكذا روى أيوب السختياني عن أبي قلابة الجرمي أنه قرأ هذه الآية (وكذلك نجزي المفترين) فقال هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة وقال سفيان بن عيينة كل صاحب بدعة ذليل ، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق ولهذا عقب هذه القصة بقوله (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك) أي يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة (من بعدها) أي من بعد تلك الفعلة (لغفور رحيم) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبان حدثنا قتادة عن عزرة عن الحسن العرني عن علقمة عن عبدالله بن مسعود أنه سئل عن ذلك يعني عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) فتلاها عبد الله عشر مرات فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾

يقول تعالى (ولما سكت) أى سكن (عن موسى الغضب) أى غضبه على قومه (أخذ الألواح) أى التى كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضبا له (وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) يقول كثير من المفسرين إنها لما ألقاها تكسرت ثم جمعها بعد ذلك ولهذا قال بعض السلف فوجد فيها هدى ورحمة ، وأما التفصيل فذهب وزعموا إن رضاضها لم يزل موجودا فى خزائن الملوك من بنى إسرائيل إلى الدولة الإسلامية والله أعلم بصحة هذا . وأما الدليل الواضح على أنها تكسرت حين ألقاها وهى من جوهر الجنة فقد أخبر تعالى أنه لما أخذها بعد ما ألقاها وجد فيها (هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) ضمن الرهبة معنى الخضوع ولهذا عداها باللام ، وقال قتادة : فى قوله تعالى (أخذ الألواح) قال رب انى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئاً ولم يعرفوه وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم قال رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلون الأعور الكذاب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد قال رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ويؤجرون عليها وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلها وان ردت عليه فتأكلها السباع والطير وان الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم قال رب فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد. قال رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الشفعون والشفوع لهم فاجعلهم أمتى قال تلك أمة أحمد . قال قتادة فذكر لنا أن نبى الله موسى عليه السلام نبذ الألواح وقال اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ * وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلا فاختار سبعين رجلا فبرزهم ليدعوا ربهم وكان فيما دعوا الله أن قالوا اللهم أعطنا مالم تعطه أحدا قبلنا ولا تعطه أحدا بعدنا فكره الله ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) الآية وقال السدى إن الله أمر موسى أن يأتيه فى ثلاثين من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موعدا (واختار موسى قومه سبعين رجلا) على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا فلما أتوا ذلك المكان قالوا (لن نؤمن لك) يا موسى (حتى نرى الله جهرة) فانك قد كلمته فأرناه (فأخذتهم الصاعقة) فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد اهلكت خيارهم (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) وقال محمد بن إسحق اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا باذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه لموسى اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره وانكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم فقالوا يا موسى (لن نؤمن لك حتى

نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة) وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) قد سفهوا ، أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل

وقال سفيان الثوى حدثنى أبو إسحق عن عمارة بن عبيد السلولى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال انطلق موسى وهارون وشبر وشبير فانطلقوا إلى سفح جبل فقام هارون على سرير فتوفاه الله عز وجل فلما رجع موسى إلى بنى إسرائيل قالوا له أين هارون قال توفاه الله عز وجل قالوا أنت قتلته حسدتنا على خلقه ولينه أو كلمة نحوها قال فاختاروا من شئتم قال فاختاروا سبعين رجلا قال فذلك قوله تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا) فلما انتهوا إليه قالوا يا هارون من قتلك قال ما قتلنى أحد ولكن توفانى الله قالوا يا موسى لن تعصى بعد اليوم فأخذتهم الرجفة قال فجعل موسى عليه السلام يرجع يمينا وشمالا وقال يا رب (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) قال فأحياهم الله وجعلهم أنبياء كلهم هذا أثر غريب جدا وعمارة بن عبيد هذا لا أعرفه وقد رواه شعبة عن أبى إسحق عن رجل من بنى سلول عن على فذكره وقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جرير إنهم أخذتهم الرجفة لأنهم لم يزايلوا قومهم فى عبادتهم العجل ولا نهوهم ويتوجه هذا القول بقول موسى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) وقوله (إنا هى إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وأبو العالية والربيع بن أنس وغير واحد من علماء السلف والخلف ولا معنى له غير ذلك يقول ان الأمر إلا أمرك وإن الحكم إلا لك فما شئت كان . تضل من تشاء وتهدى من تشاء ولا هادى لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لمن منعت ولا مانع لما أعطيت فالملك كله لك والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر وقوله (أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين) الغفر هو الستر وترك المؤاخذة بالذنب والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه فى مثله فى المستقبل (وأنت خير الغافرين) أى لا يغفر الذنب إلا أنت (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) الفصل الأول من الدعاء لدفع المحذور وهذا لتحصيل المقصود (واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة) أى أوجب لنا وأثبت لنا فيهما حسنة وقد تقدم تفسير الحسنة فى سورة البقرة (إنا هدنا إليك) أى تبنا ورجعنا وأنبنا إليك قاله ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وأبو العالية والضحاك وإبراهيم التيمى والسدى وقتادة وغير واحد وهو كذلك لغة ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبى عن شريك عن جابر عن عبد الله بن يحيى عن على قال إنما سميت اليهود لأنهم قالوا (إنا هدنا إليك) جابر هو ابن يزيد الجعفى ضعيف

﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مجيبا لنفسه فى قوله (إن هى إلا فتنتك) الآية قال (عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء) أى أفعل ما أشاء وأحكم ما أريد ولى الحكمة والعدل فى كل ذلك سبحانه لا إله إلا هو ، وقوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء) آية عظيمة الشمول والعموم كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله انهم يقولون (ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما) . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا الجريرى عن أبى عبد الله الجشمى حدثنا جندب هو ابن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال جاء أعرابى فأناخ راحلته ثم علقها ثم صلى خلف رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ثم ركبها ثم نادى اللهم ارحمنى ومحمدا ولا تشرك فى رحمتنا أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتقولون هذا أضل أم بعيره ألم تسمعوا ما قال ؟ » قالوا بلى قال « لقد حظرت رحمة واسعة ان الله عز وجل خلق مائة رحمة فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق جنها وانسها وبهائمها وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » رواه أحمد وأبو داود عن على بن نصر عن عبد الصمد بن عبد الوارث

به ، وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبى عثمان عن سلمان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » تفرد بإخراجه مسلم فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان وداود بن أبى هند كلاهما عن أبى عثمان واسمه عبد الرحمن بن مل عن سلمان هو الفارسى عن النبى ﷺ به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عاصم بن بهدلة عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن لله مائة رحمة عنده تسعة وتسعون وجعل عندكم واحدة تتراحمون بها بين الجن والإنس وبين الخلق فإذا كان يوم القيامة ضمها اليه » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « لله مائة رحمة فقسم منها جزءا واحدا بين الخلق به يتراحم الناس والوحش والطير » ورواه ابن ماجه من حديث أبى معاوية عن الأعمش به ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن يونس حدثنا سعد أبو غيلان الشيبانى عن حماد بن أبى سليمان عن إبراهيم عن صلة بن زفر عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الفاجر فى دينه الأحمق فى معيشته والذى نفسى بيده ليدخلن الجنة الذى قد محشته النار بذنبه والذى نفسى بيده ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة يتطاول لها إبليس رجاء أن تصيبه » هذا حديث غريب جدا وسعد هذا لا أعرفه ، وقوله (فسأكتبها للذين يتقون) الآية يعنى فسأوجب حصول رحمتى منة منى وإحسانا إليهم كما قال تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وقوله (للذين يتقون) أى سأجعلها للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم (الذين يتقون) أى الشرك والعظائم من الذنوب قوله (ويؤتون الزكاة) قيل زكاة النفوس وقيل الأموال ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية (والذين هم بآياتنا يؤمنون) أى يصدقون

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) وهذه صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتب الأنبياء بشروا أممهم ببعثه وأمروهم بمتابعته ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم . كما روى الإمام أحمد حدثنا إسماعيل عن الجريرى عن أبى صخر العقيلى حدثنى رجل من الأعراب . قال جلبت حلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ فلما فرغت من بيعى قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له فى الموت كأجمل الفتيان وأحسنها فقال رسول الله ﷺ « أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك هذا صفتى ومخرجى » فقال برأسه هكذا أى لا فقال ابنه اى والذى أنزل التوراة إنا لنجد فى كتابنا صفتك ومخرجك وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله فقال « أقيموا اليهودى عن أخيكم » ثم تولى كفنه والصلاة عليه هذا حديث جيد قوى له شاهد فى الصحيح عن أنس ، وقال الحاكم صاحب المستدرك أخبرنا محمد بن عبد الله ابن إسحق البغوى حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى حدثنا عبد العزيز بن مسلم بن إدريس حدثنا عبد الله بن إدريس عن شرحبيل بن مسلم عن أبى أمامة الباهلى عن هشام بن العاص الأموى قال بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الإسلام فخرجنا حتى قدمنا الغوطة يعنى غوطة دمشق فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغسانى فدخلنا عليه فإذا هو على سرير له فأرسل إلينا برسوله نكلمه فقلنا والله لا نكلم رسولا وإنما بعثنا إلى الملك فإن أذن لنا كلمناه وإلا لم

نكلم الرسول فرجع اليه الرسول فأخبره بذلك قال فأذن لنا فقال تكلموا فكلمه هشام بن العاص ودعاه إلى الإسلام فاذا عليه ثياب سود فقال له هشام وما هذه التي عليك ؟ فقال لبستها وحلفت أن لا أنزعها حتى أخرجكم من الشام قلنا ومجلسك هذا والله لنأخذنه منك ولنأخذن ملك الملك الأعظم إن شاء الله أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ قال : لستم بهم بل هم قوم يصومون بالنهار ويقومون بالليل فكيف صومكم ؟ فأخبرناه فملئ وجهه سوادا فقال قوموا وبعث معنا رسولا إلى الملك فخرجنا حتى إذا كنا قريبا من المدينة قال لنا الذي معنا إن دوابكم هذه لاتدخل مدينة الملك فإن شئتم حملناكم على براذين وبغال قلنا والله لاندخل إلا عليها فأرسلوا إلى الملك أنهم يأبون ذلك فأمرهم أن ندخل على رواحلنا فدخلنا عليها متقلدين سيوفنا حتى انتهينا إلى غرفة له فأنخنا فى أصلها وهو ينظر الينا فقلنا لا إله إلا الله والله أكبر فالله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى صارت كأنها عذق تصفقه الرياح . قال فأرسل الينا ليس لكم أن تجهروا علينا بدينكم وأرسل الينا أن ادخلوا فدخلنا عليه وهو على فراش له وعنده بطارقة من الروم وكل شيء فى مجلسه أحمر وما حوله حمرة وعليه ثياب من الحمرة فدنونا منه فضحك فقال ماعليكم لو جئتمونى بتحيتكم فيما بينكم ؟ وإذا عنده رجل فصيح بالعربية كثير الكلام فقلنا ان تحيتنا فيما بيننا لاتحل لك وتحيتك التى تحيا بها لايحل لنا أن نحييك بها قال كيف تحيتكم فيما بينكم ؟ قلنا السلام عليك قال فكيف تحيون ملككم ؟ قلنا بها قال فكيف يرد عليكم ؟ قلنا بها ، قال فما أعظم كلامكم قلنا لا إله إلا الله والله أكبر فلما تكلمنا بها والله يعلم لقد انتفضت الغرفة حتى رفع رأسه اليها قال فهذه الكلمة التى قلتموها حيث انتفضت الغرفة أكلما قلتموها فى بيوتكم انتفضت عليكم غرفكم فلما لا ، ما رأيناها فعلت هذا قط إلا عندك قال لوددت أنكم كلما قلتم انتفض كل شيء عليكم وإنى قد خرجت من نصف ملكى قلنا لم ؟ قال لأنه كان أيسر لشأنها وأجدر أن لاتكون من أمر النبوة وأنها تكون من حيل الناس ، ثم سألنا عما أراد فأخبرناه ثم قال كيف صلاتكم وصومكم فأخبرناه فقال قوموا فأمر لنا بمنزل حسن ونزل كثير فأقمنا ثلاثا فأرسل إلينا ليلا فدخلنا عليه فاستعاد قولنا فأعدناه ثم دعا بشيء كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتا وقفلا فاستخرج حريرة سوداء فنشرناها فاذا فيها صورة حمراء وإذا فيها رجل ضخم العينين عظيم الأليتين لم أر مثل طول عنقه وإذا ليست له لحية وإذا له ضفيرتان أحسن ماخلق الله فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا آدم عليه السلام وإذ هو أكثر الناس شعرا ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء وإذا فيها صورة بيضاء وإذا له شعر كشعر القطط أحمر العينين ضخم الهامة حسن اللحية فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا نوح عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج حريرة سوداء وإذا فيها رجل شديد البياض حسن العينين صلت الجبين طويل الخد أبيض اللحية كأنه يبتسم فقال هل تعرفون هذا قلنا لا قال هذا إبراهيم عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله ﷺ فقال أتعرفون هذا ؟ قلنا نعم هذا محمد رسول الله ﷺ قال وبكينا قال والله يعلم أنه قام قائما ثم جلس وقال والله إنه لهو قلنا نعم إنه لهو كأنك تنظر اليه فأمسك ساعة ينظر اليها ثم قال أما إنه كان آخر البيوت ولكنى عجلته لكم لأنظر ماعندكم ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فاذا فيها صورة أدماء سحماء وإذا رجل جعد قطط غائر العينين حديد النظر عابس مترا كب الأسنان متقلص الشفة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا موسى عليه السلام وإلى جنبه صورة تشبهه إلا أنه مدهان الرأس عريض الجبين فى عينيه قبل فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا هرون بن عمران عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل آدم سبط ربعة كأنه غضبان فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا لوط عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أبيض مشرب حمرة أقنى خفيف العارضين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا إسحق عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة تشبه إسحق إلا أنه على شفته خال فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يعقوب عليه السلام ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة رجل أبيض حسن الوجه أقنى الأنف حسن القامة يعلو وجهه نور يعرف فى وجهه الخشوع يضرب إلى الحمرة قال هل تعرفون هذا ؟

قلنا لا قال هذا إسماعيل جد نبيكم ﷺ ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة كصورة آدم كأن وجهه الشمس فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا يوسف عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فاذا فيها صورة رجل أحمر حمش الساقين أخفش العينين ضخم البطن ربعة متقلد سيفا فقال هل تعرفون هذا ! قلنا لا قال هذا داود عليه السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة بيضاء فيها صورة رجل ضخم الأليين طويل الرجلين راكب فرسا فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا سليمان بن داود عليهما السلام ، ثم فتح بابا آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فيها صورة بيضاء وإذا شاب شديد سواد اللحية كثير الشعر حسن العينين حسن الوجه فقال هل تعرفون هذا ؟ قلنا لا قال هذا عيسى بن مريم عليه السلام ، قلنا من أين لك هذه الصور لأنا نعلم أنها على ماصورت عليه الأنبياء عليهم السلام لأنا رأينا صورة نبينا عليه السلام مثله فقال إن آدم عليه السلام سأل ربه أن يريه الأنبياء من ولده فأنزل عليه صورهم فكانت فى خزانة آدم عليه السلام عند مغرب الشمس فاستخرجها ذوالقرنين من مغرب الشمس فدفعها إلى دانيال ، ثم قال أما والله إن نفسى طابت بالخروج من ملكى وإنى كنت عبدا لأشركم ملكة حتى أموت ثم أجازنا فأحسن جائزتنا وسرحنا فلما أتينا أبا بكر الصديق رضى الله عنه فحدثناه بما أرانا وبما قال لنا وما أجازنا قال فبكى أبو بكر ، وقال مسكين لو أراد الله به خيرا لفعل ثم قال أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم واليهود يجدون نعت محمد صلى الله عليه وسلم عندهم ، وهكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقى رحمه الله فى كتاب دلائل النبوة عن الحاكم إجازة فذكره وإسناده لا بأس به . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا عثمان بن عمر حدثنا فليح عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال أجل والله إنه لموصوف فى التوراة كصفته فى القرآن (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى اسمك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح به قلوبا غلفا وآذانا صما وأعينا عميا . قال عطاء ثم لقيت كعبا فسألته عن ذلك فما اختلف حرفا إلا أن كعبا قال بلغته قال قلوبا غلوفيا وآذانا صموميا وأعينا عموميا وقد رواه البخارى فى صحيحه عن محمد بن سنان عن فليح عن هلال بن على فذكر باسناده نحوه وزاد بعد قوله ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وذكر حديث عبد الله بن عمرو ثم قال ويقع فى كلام كثير من السلف إطلاق التوراة على كتب أهل الكتاب وقد ورد فى بعض الأحاديث مايشبه هذا والله أعلم ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا موسى بن هرون حدثنا محمد بن إدريس بن وراق بن الحميدى حدثنا محمد بن عمر بن إبراهيم من ولد جبير بن مطعم قال حدثتنى أم عثمان بنت سعيد وهى جدتى عن أبيها سعيد بن محمد بن جبير عن أبيه محمد بن جبير عن أبيه محمد جبير بن مطعم قال خرجت تاجرا إلى الشام فلما كنت بأدنى الشام لقينى رجل من أهل الكتاب فقال هل عندكم رجل نبيا قلت نعم قال هل تعرف صورته إذا رأيتها قلت نعم فأدخلنى بيتا فيه صور فلم أر صورة النبى صلى الله عليه وسلم فبينا أنا كذلك إذ دخل رجل منهم علينا فقال فيم أنتم فأخبرناه فذهب بنا إلى منزله فساعة مادخلت نظرت إلى صورة النبى صلى الله عليه وسلم وإذا رجل آخذ بعقب النبى ﷺ قلت من هذا الرجل القابض على عقبه قال إنه لم يكن نبى إلا كان بعده نبى إلا هذا النبى فإنه لا نبى بعده وهذا الخليفة بعده وإذا صفة أبى بكر رضى الله عنه وقال أبوداود حدثنا عمر بن حفص أبوعمرو الضرير حدثنا حماد بن سلمة أن سعيد بن إياس الجريرى أخبرهم عن عبد الله بن شقيق العقيلى عن الأقرع مؤذن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قال بعثنى عمر إلى الأسقف فدعوته فقال له عمر هل تجدنى فى الكتاب قال نعم قال كيف تجدنى قال أجدك قرنا فرفع عمر الدرة وقال قرن مه قال قرن حديد أمير شديد قال فكيف تجد الذى بعدى قال أجد خليفة صالحا غير أنه يؤثر قرابته قال عمر يرحم الله عثمان ثلاثا قال كيف تجد الذى بعده قال أجده صدأ حديد قال فوضع عمر يده على رأسه وقال يادفراه يادفراه قال يا أمير المؤمنين إنه خليفة صالح ولكنه يستخلف حين يستخلف والسيف مسلول والدم مهراق وقوله تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) هذه صفة الرسول صلى الله عليه

وسلم فى الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبد الله بن مسعود إذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فإنه خير تؤمر به أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظمه مابعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لاشريك له والنهى عن عبادة من سواه كما أرسل به جميع الرسل قبله كما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال الإمام أحمد حدثنا أبوعامر هو العقدى عبد الملك بن عمرو حدثنا سليمان هو ابن بلال عن ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد عن أبى حميد وأبى أسيد رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم الحديث عنى تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب فأنا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » رواه الإمام أحمد رضى الله عنه بإسناد جيد ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن على رضى الله عنه قال إذا سمعتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا فظنوا به الذى هو أهدى والذى هو أهنى والذى هو أتقى ثم رواه عن يحيى عن ابن سعيد عن مسعر عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى عبد الرحمن عن على رضى الله عنه قال إذا حدثتم عن رسول الله ﷺ حديثا فظنوا به الذى هو أهداه وأهناه وأتقاه ، وقوله (ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) أى يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ويحرم عليهم الخبائث قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كلحم الخنزير والربا وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التى حرمها الله تعالى . قال بعض العلماء فكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين وكل ماحرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين وقد تمسك بهذه الآية الكريمة من يرى التحسين والتقبيح العقليين وأجيب عن ذلك بما لا يتسع هذا الموضع له وكذا احتج بها من ذهب من العلماء إلا أن المرجع فى حل المآكل التى لم ينص على تحليلها ولا تحريمها إلى ما استطابته العرب فى حال رفاهيتها وكذا فى جانب التحريم إلى ما استخبثته وفيه كلام طويل أيضا ، وقوله (ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) أى أنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد الحديث من طرق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرى لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا » وقال صاحبه أبو برزة الأسلمى إنى صحبت رسول الله ﷺ وشهدت تيسيره وقد كانت الأمم الذين قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم فوسع الله على هذه الأمة أمورها وسهلها لهم ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تجاوز لأمتى ماحدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل » وقال « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه قد فعلت قد فعلت ، وقوله (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه) أى عظموه ووقروه ، وقوله (واتبعوا النور الذى أنزل معه) أى القرآن والوحى الذى جاء به مبلغا إلى الناس (أولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ (قل) يا محمد (يا أيها الناس) وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى (إنى رسول الله إليكم جميعا) أى جميعكم وهذا من شرفه وعظمته صلى الله عليه وسلم أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة كما قال الله تعالى (قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال

تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) والآيات فى هذا كثيرة كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى الناس كلهم قال البخارى رحمه الله فى تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله حدثنا سليمان بن عبد الرحمن وموسى بن هارون قالا حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عبد الله ابن العلاء بن زيد حدثنى بسر بن عبد الله حدثنى أبو إدريس الخولانى قال سمعت أبا الدرداء رضى الله عنه يقول : كانت بين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما محاورة فأغضب أبو بكر عمر فانصرف عنه عمر مغضبا فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له فلم يفعل حتى أغلق بابه فى وجهه فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء ونحن عنده فقال رسول الله ﷺ « أما صاحبكم هذا فقد غامر » أى غاضب وحاقد قال وندم عمر على ما كان منه فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقص على رسول الله ﷺ الخبر قال أبو الدرداء فغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول والله يا رسول الله لأنا كنت أظلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم تاركوا لى صاحبى ؟ إنى قلت يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت » انفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد العزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس مرفوعا أن رسول الله ﷺ قال « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخرا بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا » إسناد جيد ولم يخرجوه وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك قام من الليل يصلى فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسونه حتى إذا صلى انصرف إليهم فقال لهم « لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلى أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة وكان من قبلى إنما يرسل إلى قومه ونصرت على العدو بالرعب ولو كان بينى وبينهم مسيرة شهر لملئ منى رعبا وأحلت لى الغنائم آكلها وكان من قبلى يعظمون أكلها كانوا يحرقونها وجعلت الأرض مسجدا وطهورا أينما أدركتنى الصلاة تمسحت وصليت وكان من قبلى يعظمون ذلك إنما كانوا يصلون فى بيعهم وكنائسهم والخامسة هى ما هى قيل لى سل فإن كل نبى قد سأل فأخرت مسألتى إلى يوم القيامة فهى لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله » إسناد جيد قوى أيضا ولم يخرجوه ، وقال أيضاً حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من سمع بى من أمتى يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى لم يدخل الجنة » وهذا الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس وهو سليم بن جبير عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار » تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى بردة عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً بعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا وأحلت لى الغنائم ولم تحل لمن كان قبلى ونصرت بالرعب مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة وليس من نبى إلا وقد سأل الشفاعة وإنى قد اختبأت شفاعتى ثم جعلتها لمن مات من أمتى لم يشرك بالله شيئاً » وهذا أيضا إسناد صحيح ولم أرهم خرجوه والله أعلم وله مثله من حديث ابن عمر بسند جيد أيضا وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة

وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » وقوله (الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت) صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والاحياء والاماتة وله الحكم » وقوله (فآمنوا وبالله ورسوله النبي الأمي) أخبرهم أنه رسول الله إليهم ثم أمرهم باتباعه والإيمان به (النبي الأمي) أي الذي وعدتم به وبشرتم به في الكتب المتقدمة فانه منعوت بذلك في كتبهم ولهذا قال النبي الأمي وقوله (الذي يؤمن بالله وكلماته) أي يصدق قوله عمله وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه (واتبعوه) أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره (لعلكم تهتدون) أي إلى الصراط المستقيم

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن بني إسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به كما قال تعالى (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب) وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآية وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) الآية وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) وقد ذكر ابن جرير في تفسيرها خبراً عجيباً فقال حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا حجاج عن ابن جريج قوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثنى عشر سبطا تبرأ سبط منهم مما صنعوا واعتذروا وسألوا الله عز وجل أن يفرق بينهم وبينهم ففتح الله لهم نفقا في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا قال ابن جريج قال ابن عباس فذلك قوله (وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) ووعد الآخرة عيسى بن مريم قال ابن جريج قال ابن عباس ساروا في السرب سنة ونصفا وقال ابن عيينة عن صدقة أبي الهذيل عن السدي (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال قوم بينكم وبينهم نهر من شهد

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسير هذا كله في سورة البقرة وهي مدنية وهذا السياق مكي ونبهنا على الفرق بين هذا السياق وذاك بما أغنى عن إعادته هنا ولله الحمد والمنة

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت) الآية يقول تعالى لنبيه صلوات الله

وسلامه عليه (واسألهم) أى واسأل عن هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ماحل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى أيلة وهى على شاطئ بحر القلزم قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر) قال هى قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور وكذا قال عكرمة ومجاهد وقتادة والسدى وقال عبدالله بن كثير القارئ سمعنا أنها أيلة وقيل هى مدن وهو رواية عن ابن عباس وقال ابن زيد هى قرية يقال لها معتا بين مدين وعينونا وقوله (إذ يعدون فى السبت) أى يعتدون فيه ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا) قال الضحاك عن ابن عباس أى ظاهرة على الماء وقال العوفى عن ابن عباس ظاهرة من كل مكان قال ابن جرير وقوله (ويوم لايسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) أى نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء فى اليوم المحرم عليهم صيده واخفائها عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده (كذلك نبلوهم) نختبرهم (بما كانوا يفسقون) يقول بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام وقد قال الفقيه الإمام أبو عبد الله ابن بطة رحمه الله: حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هرون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لاترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن سلم هذا ذكره الخطيب فى تاريخه ووثقه وباقى رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذى بمثل هذا الاسناد كثيراً

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ* فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت كما تقدم بيانه فى سورة البقرة وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً) أى لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم ، قالت لهم المنكرة (معذرة إلى ربكم) قرأ بعضهم بالرفع كأنه على تقديره هذه معذرة وقرأ آخرون بالنصب أى نفعل ذلك (معذرة إلى ربكم) أى فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (ولعلهم يتقون) يقولون ولعل لهذا الانكار يتقون ماهم فيه ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم قال تعالى (فلما نسوا ماذكروا به) أى فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) أى ارتكبوا المعصية (بعذاب بئيس) فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين وسكت عن الساكتين لأن الجزاء من جنس العمل فهم لايستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً) هى قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم وكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها فمضى على ذلك ماشاء الله ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم فنهتهم طائفة وقالوا تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ، فلم يزدادوا إلا غيا وعتوا وجعلت طائفة أخرى تنهاهم فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النهاة تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب (لم تعظون قوما الله مهلكهم)

وكانوا أشد غضبا لله من الطائفة الأخرى فقالوا (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) وكل قد كانوا ينهون فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم والذين قالوا معذرة إلى ربكم وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة ، وروى العوفى عن ابن عباس قريبا من هذا ، وقال حماد بن زيد عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس فى الآية قال ما أدرى أنجا الذين قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) أم لا ؟ قال فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا فكسانى حلة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج حدثنى رجل عن عكرمة قال جئت ابن عباس يوما وهو يبكى وإذا المصحف فى حجره فأعظمت أن أدنو منه ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمت فجلست فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلنى الله فداك ؟ قال فقال هؤلاء الورقات قال وإذا هو فى سورة الأعراف قال تعرف أيلة ؟ قلت نعم قال فانه كان بها حى من اليهود سيقت الحيتان إليهم يوم السبت ثم غاصت لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كد ومؤنة شديدة كانت تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال إنما نهيتم عن أكلها يوم السبت فخذوها فيه وكلوها فى غيره من الأيام فقالت ذلك طائفة منهم وقالت طائفة بل نهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحت واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت وقال الأيمنون ويلكم الله ، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة الله وقال الأيسرون (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) قال الأيمنون (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) أى ينتهون ، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يصابوا ولا يهلكوا وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم فمضوا على الخطيئة وقال الأيمنون فقد فعلتم يا أعداء الله والله لنأتينكم الليلة فى مدينتكم والله ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب ونادوا فلم يجابوا فوضعوا سلما وأعلوا سور المدينة رجلا فالتفت إليهم فقال أى عباد الله قردة والله تعادى تعاوى لها أذناب قال ففتحوا فدخلوا عليهم فعرفت القرود أنسابها من الإنس ولا تعرف الإنس أنسابها من القردة فجعلت القرود يأتيها نسيبها من الإنس فتشم ثيابه وتبكى فيقول ألم ننهكم عن كذا فتقول برأسها أى نعم ثم قرأ ابن عباس (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) قال فأرى الذين نهوا قد نجوا ولا أرى الآخرين ذكروا ، ونحن نرى أشياء ننكرها ولا نقول فيها ، قال قلت جعلنى الله فداك ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم ؟) قال فأمر لى فكسيت ثوبين غليظين ، وكذا روى مجاهد عنه ، وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا أشهب بن عبد العزيز عن مالك قال زعم ابن رومان أن قوله تعالى (تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) قال كانت تأتيهم يوم السبت فإذا كان المساء ذهبت فلا يرى منها شىء إلى يوم السبت الآخر فاتخذ لذلك رجل خيطا ووتدا فربط حوتا منها فى الماء يوم السبت حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجد الناس ريحه فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم فلم يزالوا به حتى قال لهم فانه جلد حوت وجدناه فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك ولا أدرى لعله قال ربط حوتين فلما أمسى من ليلة الأحد أخذه فاشتواه فوجدوا رائحة فجاءوا فسألوه فقال لهم لو شئتم صنعتم كما أصنع فقالوا له وما صنعت ؟ فأخبرهم ففعلوا مثل ما فعل حتى كثر ذلك وكانت لهم مدينة لها ربض يغلقونها عليهم فأصابهم من المسخ ما أصابهم فغدوا عليهم جيرانهم ممن كانوا حولهم يطلبون منهم ما يطلب الناس فوجدوا المدينة مغلقة عليهم فنادوا فلم يجيبوهم فتسوروا عليهم فإذا هم قردة فجعل القرد يدنو يتمسح بمن كان يعرف قبل ذلك ويدنو منه ويتمسح به ، وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية ولله الحمد والمنة (القول الثانى) ان الساكتين كانوا من الهالكين قال محمد ابن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال ابتدعوا السبت فابتلوا فيه فحرمت عليهم فيه الحيتان فكانوا إذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر فاذا انقضى السبت ذهبت فلم تر حتى السبت المقبل فإذا جاء السبت جاءت شرعا فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا كذلك ثم إن رجلا منهم أخذ حوتا فخزم أنفه ثم

ضرب له وتدا فى الساحل وربطه وتركه فى الماء ، فلما كان الغد أخـذه فشواه فأكله ففعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك فى الأسواق ففعل علانية قال فقالت طائفة للذين ينهونهم (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم) فقالوا نسخط أعمالهم (ولعلهم يتقون * فلما نسوا ماذكروا به — إلى قوله — قردة خاسئين) قال ابن عباس كانوا أثلاثا ثلث نهوا وثلث قالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم) وثلث أصحاب الخطيئة فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم ، وهـذا إسناد جيد عن ابن عباس ولكن رجوعه إلى قول عكرمة فى نجاة الساكتين أولى من القول بهذا لأنه تبين حالهم بعد ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس) فيه دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا وبئيس فيه قراآت كثيرة ومعناه فى قول مجاهد الشديد . وفى رواية أليم وقال قتادة موجع والكل متقارب والله أعلم ، وقوله (خاسئين) أى ذليلين حقيرين مهانين

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

(تأذن) تفعل من الأذان أى أعلم قاله مجاهد وقال غيره أمر ، وفى قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهـذا أتبعت باللام فى قوله (ليبعثن عليهم) أى على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه واحتيالهم على المحارم ، ويقال إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين وقيل ثلاث عشرة سنة وكان أول من ضرب الخراج ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين والكلدانيين ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ثم جاء الإسلام ومحمد صلى الله عليه وسلم فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية : قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هـذه الآية قال هى المسكنة وأخذ الجزية منهم ، وقال على بن أبى طلحة عنه هى الجزية والذى يسومهم سوء العذاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته إلى يوم القيامة ، وكذا قال سعيد بن جبير وابن جريج والسدى وقتادة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن سعيد بن المسيب قال يستحب أن تبعث الأنباط فى الجزية قلت : ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصارا للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام وذلك آخر الزمان وقوله (إن ربك لسريع العقاب) أى لمن عصاه وخالف شرعه (وإنه لغفور رحيم) أى لمن تاب إليه وأناب وهـذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيرا لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم فى الأرض أمما أى طوائف وفرقا كما قال (وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض

فإذا جاء وعدالآخرة جئنابكم لفيفا) (منهم الصالحون ومنهم دون ذلك) أى فيهم الصالح وغير ذلك كقول الجن (وأنامنا الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قددا) (وبلوناهم) أى اختبرناهم (بالحسنات والسيئات)أى بالرخاء والشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء (لعلهم يرجعون) ثم قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) الآية يقول تعالى فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر لاخير فيهم وقد ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة وقال مجاهد هم النصارى وقد يكون أعم من ذلك (يأخذون عرض هذا الأدنى) أى يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ويسوفون أنفسهم ويعدونها بالتوبة وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) وكما قال سعيد بن جبير يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ويعترفون لله فان عرض ذلك الذنب أخذوه وقال مجاهد فى قوله تعالى (يأخذون عرض هذا الأدنى) قال لا يشرف لهم شىء من الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ويتمنون المغفرة (ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) وقال قتادة فى الآية إى والله لخلف سوء (ورثوا الكتاب) بعد أنبيائهم ورسلهم أورثهم الله وعهد إليهم ، وقال الله تعالى فى آية أخرى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة) الآية قال (يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا) تمنوا على الله أمانى وغرة يغترون بها (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) لا يشغلهم شىء عن شىء ولا ينهاهم شىء عن ذلك كلما هف لهم شىء من الدنيا أكلوه لا يبالون حلالا كان أو حراما ؛ وقال السدى قوله (فخلف من بعدهم خلف) إلى قوله (ودرسوا ما فيه) قال كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له ما شأنك ترتشى فى الحكم ؟ فيقول سيغفر لى ، فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشى ، يقول وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه قال الله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) الآية يقول تعالى منكرا عليهم فى صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه كقوله (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) وقال ابن جريج قال ابن عباس (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق) قال فيما يتمنون على الله من غفران ذنوبهم التى لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها ، وقوله تعالى والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) يرغبهم فى جزيل ثوابه ويحذرهم من وبيل عقابه أى وثوابى وما عندى خير لمن اتقى المحارم وترك هوى نفسه وأقبل على طاعة ربه (أفلا تعقلون) يقول أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا بعرض الدنيا عما عندى عقل يردعهم عما هم فيه من السفه والتبذير ، ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال تعالى (والذين يمسكون بالكتاب) أى اعتصموا به واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره (وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين)

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) يقول رفعناه وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) بميثاقهم وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعته الملائكة فوق رءوسهم وهو قوله (ورفعنا فوقهم الطور) وقال القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب وأمرهم بالذى أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم (كأنه ظلة) قال رفعته الملائكة فوق رءوسهم رواه النسائى بطوله. وقال سنيد بن داود فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن أبى بكر بن عبد الله قال هذا كتاب أتقبلونه بما فيه فان فيه بيان ما أحل لكم وماحرم عليكم وما أمركم ومانهاكم ؟ قالوا انشر علينا ما فيها فان كانت فرائضها وحدودها يسيرة قبلناها قال

اقبلوها بما فيها قالوا لا حتى نعلم مافيها كيف حدودها وفرائضها فراجعوه مرارا فأوحى الله إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال لهم موسى ألاترون مايقول ربى عز وجل لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل قال فحدثنى الحسن البصرى قال لما نظروا إلى الجبل خركل رجل ساجدا على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من أن يسقط عليه فكذلك ليس اليوم فى الأرض يهودى يسجد إلا على حاجبه الأيسر يقولون هذه السجدة التى رفعت بها العقوبة قال أبو بكر فلما نشر الألواح فيها كتاب الله كتبه بيده لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز فليس اليوم يهودى على وجه الأرض صغير ولا كبير تقرأ عليه التوراة إلا اهتز ونغض لها رأسه أى حول كما قال تعالى (فسينغضون إليك رءوسهم) والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء» وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الإمام أبوجعفر بن جرير رحمه الله حدثنا يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية بعد ماقتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال « مابال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل يارسول الله أليسوا أبناء المشركين فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها وينصرانها » قال الحسن والله لقد قال الله فى كتابه (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) الآية ، وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به ، وأخرجه النسائى فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثنى الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك ، وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم : قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن أبى عمران الجونى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لاتشرك بى شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بى » أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد حدثنا جرير يعنى ابن حازم عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أوتقولوا - إلى قوله - المبطلون) وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه عن محمد بن عبدالرحيم صاعقة عن حسين بن محمد المروزى به ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من

حديث حسين بن محمد به إلا أن ابن أبي حاتم جعله موقوفا ، وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث حسين بن محمد وغيره عن جرير بن حازم عن كلثوم بن جبير به ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبير هكذا قال وقد رواه عبد الوارث عن كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فوقفه ، وكذا رواه إسماعيل بن علية ووكيع عن ربيعة بن كلثوم عن جبير عن أبيه به ، وكذا رواه عطاء بن السائب وحبيب بن أبي ثابت وعلي بن بذيمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وكذا رواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس فهذا أكثر وأثبت والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي عن أبي هلال عن أبي حمزة الضبعي عن ابن عباس . قال أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذي من الماء ، وقال أيضا حدثنا علي بن سهل حدثنا ضمرة بن ربيعة حدثنا أبو مسعود عن جرير قال مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال: فقال ياجابر إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده فان ابني مجلس ومسئول ففعلت به الذي أمر فلما فرغت قلت يرحمك الله عما يسئل ابنك من يسأله إياه قال يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قلت ياأبا القاسم وماهذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم قال حدثني ابن عباس إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن جرير حدثنا عبد الرحمن بن الوليد حدثنا أحمد بن أبي طيبة عن سفيان بن سعيد عن الأجلح عن الضحاك عن منصور عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) قال أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس فقال لهم (ألست بربكم قالوا بلى) قالت الملائكة (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) أحمد بن أبي طيبة هذا هو أبو محمد الجرجاني قاضي قومس كان أحد الزهاد أخرج له النسائي في سننه وقال أبو حاتم الرازي يكتب حديثه وقال ابن عدي حدث بأحاديث كثيرة غرائب وقد روى هذا الحديث عبدالرحمن بن حمزة بن مهدي عن سفيان الثوري عن منصور عن مجاهد عن عبدالله بن عمرو وكذا رواه جرير عن منصور به وهذا أصح والله أعلم . (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح هو ابن عبادة حدثنا مالك وحدثنا إسحق حدثنا مالك عن زيد بن أبي أنيسة أن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب أخبره عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) الآية فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » فقال رجل يارسول الله ففيم العمل قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » وهكذا رواه أبو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة والترمذي في تفسيرهما عن إسحق ابن موسى عن معن وابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب وابن جرير عن روح بن عبادة وسعيد بن عبد الحميد بن جعفر ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه من رواية أبي مصعب الزبيري كلهم عن الإمام مالك بن أنس به قال الترمذي وهذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر كذا قاله أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة وهذا الذي قاله أبو حاتم رواه أبو داود في سننه عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جعثم القرشي عن زيد بن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن مسلم بن يسار الجهني عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) فذكره وقال

الحافظ الدارقطنى وقد تابع عمر بن جعثم بن زيد بن سنان أبو فروة الرهاوى وقولهما أولى بالصواب من قول مالك والله أعلم قلت الظاهر أن الإمام مالكا إنما أسقط ذكر نعيم بن ربيعة عمدا لما جهل حال نعيم ولم يعرفه فانه غير معروف إلا فى هذا الحديث ولذلك يسقط ذكر جماعة ممن لا يرتضيهم ولهذا يرسل كثيرا من المرفوعات ويقطع كثيرا من الموصولات والله أعلم. (حديث آخر) قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال أى رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود قال فجحد آدم فجحدت ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطئ آدم فخطئت ذريته» ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ورواه ابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه أنه حدث عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فذكر نحو ما تقدم إلى أن قال «ثم عرضهم على آدم فقال يا آدم هؤلاء ذريتك وإذا فيهم الأجذم والأبرص والأعمى وأنواع الأسقام فقال آدم يا رب لم فعلت هذا بذريتى قال كى تشكر نعمتى وقال آدم يا رب من هؤلاء الذين أراهم أظهر الناس نورا قال هؤلاء الأنبياء يا آدم من ذريتك» ثم ذكر قصة داود كنحو ما تقدم

(حديث آخر) قال عبد الرحمن بن قتادة النضرى عن أبيه عن هشام بن حكيم رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى ﷺ فقال يا رسول الله أتبدأ الأعمال أم قد قضى القضاء؟ قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم فى كفيه ثم قال هؤلاء فى الجنة وهؤلاء فى النار فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنه وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار» رواه ابن جرير وابن مردويه من طرق عنه

(حديث آخر) روى جعفر بن الزبير وهو ضعيف عن القاسم عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «لما خلق الله الخلق وقضى القضية أخذ أهل اليمين بيمينه وأهل الشمال بشماله فقال يا أصحاب اليمين فقالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم؟ قالوا بلى قال يا أصحاب الشمال قالوا لبيك وسعديك قال ألست بربكم؟ قالوا بلى ثم خلط بينهم فقال قائل له يا رب لم خلطت بينهم قال لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ثم ردهم فى صلب آدم» رواه ابن مردويه.

(أثر آخر) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم) الآيات قال فجمعهم له يومئذ جميعا ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى) الآية قال فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة ولم نعلم بهذا اعلموا أنه لا إله غيرى ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا وإنى سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى قالوا نشهد أنك ربنا وإلهنا لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك فأقروا له يومئذ بالطاعة ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير وحسن الصورة ودون ذلك فقال يا رب لو سويت بين عبادك؟ قال إنى أحببت أن أشكر ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النور وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة فهو الذى يقول تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) الآية وهو الذى يقول (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله) الآية ومن ذلك قال (هذا نذير من النذر الأولى) ومن ذلك قال (وما وجدنا لأكثرهم من عهد) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير

وابن مردويه فى تفاسيرهم من رواية ابن جعفر الرازى به وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف سياقات توافق هذه الأحاديث اكتفينا بإيرادها عن التطويل فى تلك الآثار كلها وبالله المستعان . فهذه الأحاديث دالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار وأما الاشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وفى حديث عبد الله بن عمرو وقد بينا أنهما موقوفان لا مرفوعان كما تقدم ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا ولهذا قال (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) ولم يقل من آدم (من ظهورهم) ولم يقل من ظهره (ذرياتهم) أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرناً بعد قرن كقوله تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) ثم قال (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا والشهادة تارة تكون بالقول كقوله (قالوا شهدنا على أنفسنا) الآية وتارة تكون حالا كقوله تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك وكذا قوله تعالى (وإنه على ذلك لشهيد) كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله (وآتاكم من كل ما سألتموه) قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه فان قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ولهذا قال (أن تقولوا) أى لئلا تقولوا يوم القيامة (إنا كنا عن هذا) أى التوحيد (غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا) الآية

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

قال عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن الأعمش ومنصور عن أبى الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية قال هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم ابن باعوراء وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن ابن عباس هو صيفى ابن الراهب قال قتادة وقال كعب كان رجلا من أهل البلقاء وكان يعلم الاسم الأكبر وكان مقيما ببيت المقدس مع الجبارين وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنه هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم آتاه الله آياته فتركها ، وقال مالك ابن دينار كان من علماء بنى إسرائيل وكان مجاب الدعوة يقدمونه فى الشدائد بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله فأقطعه وأعطاه فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام وقال سفيان بن عيينة عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس هو بلعم بن باعوراء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال ابن جرير حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا إسرائيل عن مغيرة عن مجاهد عن ابن عباس قال هو بلعام وقالت ثقيف هو أمية بن أبى الصلت وقال شعبة عن يعلى بن عطاء عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو فى قوله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) الآية

قال هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت وقد روى من غير وجه عنه وهو صحيح اليه وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل اليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ولكنه لم ينتفع بعلمه فانه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته وظهرت لكل من له بصيرة ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة قبحه الله . وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ممن آمن لسانه ولم يؤمن قلبه فإن له أشعارا ربانية وحكما وفصاحة ولكنه لم يشرح الله صدره للاسلام . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي نمر حدثنا سفيان عن أبي سعيد الأعور عن عكرمة عن ابن عباس في قوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) قال هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن وكانت له امرأة له منها ولد فقالت اجعل لي منها واحدة قال فلك واحدة فما الذي تريدين ؟ قالت ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل فدعا الله فجعلها أجمل امرأة في بني إسرائيل فلما علمت أن ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر فدعا الله أن يجعلها كلبة فصارت كلبة فذهبت دعوتان فجاء بنوها فقالوا ليس بنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة يعيرنا الناس بها فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت وذهبت الدعوات الثلاث وتسمى البسوس ، غريب ، وأما المشهور في سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين في زمن بني إسرائيل كما قال ابن مسعود وغيره من السلف وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعام وكان يعلم اسم الله الأكبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره من علماء السلف كان مجاب الدعوة ولا يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه وأغرب بل أبعد بل أخطأ من قال كان قد أوتي النبوة فانسلخ منها حكاه ابن جرير عن بعضهم ولا يصح ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لما نزل موسى بهم يعني بالجبارين ومن معه أتاه - يعني بلعم - أتاه بنو عمه وقومه فقالوا إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه الله ما كان عليه فذلك قوله تعالى (فانسلخ منها فأتبعه الشيطان) الآية ، وقال السدي لما انقضت الأربعون سنة التي قال الله (فإنها محرمة عليهم أربعين سنة) بعث يوشع بن نون نبيا فدعا بني إسرائيل فأخبرهم أنه نبي وأن الله أمره أن يقاتل الجبارين فبايعوه وصدقوه وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له بلعام فكان عالما يعلم الاسم الأعظم المكتوم فكفر - لعنه الله - وأتى الجبارين وقال لهم لا ترهبوا بني إسرائيل فاني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوة فيهلكون وكان عندهم فيما شاء من الدنيا غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساء لعظمهن فكان ينكح أتانا له وهو الذي قال الله تعالى (فانسلخ منها) وقوله تعالى (فأتبعه الشيطان) أي استحوذ عليه وعلى أمره فمهما أمره امتثل وأطاعه ولهذا قال (فكان من الغاوين) أي من الهالكين الحائرين البائرين وقد ورد في معنى هذه الآية حديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده حيث قال حدثنا محمد بن مرزوق حدثنا محمد بن بكر عن الصلت بن بهرام حدثنا الحسن حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد أن حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه حدثه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الاسلام اعتراه إلى ماشاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك » قال قلت يانبي الله أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي ؟ قال « بل الرامي » هذا إسناد جيد والصلت بن بهرام كان من ثقات الكوفيين ولم يرم بشيء سوى الارجاء وقد وثقه الإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وغيرهما

وقوله تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه) يقول تعالى (ولو شئنا لرفعناه بها) أي لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها (ولكنه أخلد إلى الأرض) أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها وأقبل على لذاتها ونعيمها وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى ، وقال أبو الراهويه في قوله تعالى (ولكنه أخلد إلى الأرض) قال تراءى له الشيطان على علوة من قنطرة بانياس فسجدت الحمارة لله وسجد بلعام للشيطان ، وكذا قال عبد الرحمن بن جبير بن نفير وغير واحد ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله وكان من قصة

هذا الرجل ماحدثنا محمد بن عبدالأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه أنه سئل عن هذه الآية (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا) فحدث عن سيار أنه كان رجلا يقال له بلعام وكان مجاب الدعوة قال وإن موسى أقبل فى بنى إسرائيل يريد الأرض التى فيها بلعام أوقال الشام قال فرعب الناس منه رعبا شديدا فأتوا بلعام فقالوا ادع الله على هذا الرجل وجيشه قال حتى أؤامر ربى أوحتى أؤامر قال فآمر فى الدعاء عليهم فقيل له لاتدع عليهم فإنهم عبادى وفيهم نبيهم قال فقال لقومه إنى قد آمرت ربى فى الدعاء عليهم وإنى قد نهيت فأهدوا له هدية فقبلها ثم راجعوه فقالوا ادع عليهم فقال حتى أؤامر ربى فآمر فلم يأمره بشىء فقال قد وامرت فلم يأمرنى بشىء فقالوا لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك المرة الأولى قال فأخذ يدعو عليهم فإذا دعا عليهم جرى على لسانه الدعاء على قومه وإذا أراد أن يدعو أن يفتح لقومه دعا أن يفتح لموسى وجيشه أو نحوا من ذلك إن شاء الله قال فقالوا مانراك تدعو إلا علينا قال مايجرى على لسانى إلا هكذا ولو دعوت عليه أيضا ما استجيب لى ولكن سأدلكم على أمر عسى أن يكون فيه هلاكهم ، إن الله يبغض الزنا وإنهم إن وقعوا فى الزنا هلكوا ورجوت أن يهلكهم الله فأخرجوا النساء تستقبلهم فإنهم قوم مسافرون فعسى أن يزنوا فيهلكوا قال ففعلوا فأخرجوا النساء تستقبلهم قال وكان للملك ابنة فذكر من عظمها ما الله أعلم به قال فقال أبوها أو بلعام لا تمكنى نفسك إلا من موسى قال ووقعوا فى الزنا قال فأتاها رأس سبط من أسباط بنى إسرائيل فأرادها على نفسها فقالت ما أنا بممكنة نفسى إلا من موسى فقال إن منزلتى كذا وكذا وإن من حالى كذا وكذا فأرسلت إلى أبيها تستأمره قال فقال لها مكنيه قال ويأتيهما رجل من بنى هرون ومعه الرمح فيطعنهما قال وأيده الله بقوة فانتظمهما جميعا ورفعهما على رمحه فرآهما الناس ــ أوكما حدث ــ قال وسلط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفا . قال أبو المعتمر فحدثنى سيار أن بلعاما ركب حمارة له حتى أتى المعلولى أو قال طريقا من المعلولى جعل يضربها ولا تتقدم وقامت عليه فقالت علام تضربنى ؟ أما ترى هذا الذى بين يديك ؟ فإذا الشيطان بين يديه قال فنزل وسجد له قال الله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ــ إلى قوله ــ لعلهم يتفكرون) قال فحدثنى بهذا سيار ولا أدرى لعله قد دخل فيه شىء من حديث غيره (قلت) هو بلعام ويقال باعم بن باعوراء ويقال ابن ابر ، ويقال ابن باعور ابن شهتوم بن قوشتم بن ماب بن لوط بن هاران ويقال ابن حران بن آزر وكان يسكن قرية من قرى البلقاء قال ابن عساكر : وهو الذى كان يعرف اسم الله الأعظم فانسلخ من دينه له ذكر فى القرآن ثم أورد من قصته نحوا مما ذكرنا هاهنا أورده عن وهب وغيره والله أعلم ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن سالم أبى النضر أنه حدث أن موسى عليه السلام لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعام اليه فقالوا له هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وإنا قومك وليس لنا منزل وأنت رجل مجاب الدعوة فاخرج فادع الله عليهم قال ويلكم نبى الله معه الملائكة والمؤمنون كيف أذهب أدعو عليهم وأنا أعلم من الله ما أعلم ؟ قالوا له مالنا من منزل فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون اليه حتى فتنوه فافتتن فركب حمارة له متوجها إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل وهو جبل حسبان فلما سار عليها غير كثير ربضت به فنزل عنها فضربها حتى إذا أزلقها قامت فركبها فلم تسر به كثيرا حتى ربضت به فضربها حتى إذا أزلقها أذن لها فكلمته حجة عليه فقالت ويحك يابلعم أين تذهب ؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا ؟ تذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم فلم ينزع عنها فضربها فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حسبان على عسكر موسى وبنى إسرائيل جعل يدعو عليهم ولايدعو عليهم بشر إلا صرف الله لسانه الى قومه ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل فقال له قومه أتدرى يابلعم ما تصنع ؟ إنما تدعو لهم وتدعو علينا قال فهذا مالا أملك ، هذا شىء قد غلب الله عليه ، قال واندلع لسانه فوقع على صدره فقال لهم قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال ، جملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن الى العسكر يبعنها فيه ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت

امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتى - ابنة صور رأس أمته - برجل من عظماء بنى إسرائيل وهو زمرى بن شلوم رأس سبط شمعون بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام فلما رآها أعجبته فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى وقال إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقربها قال أجل هى حرام عليك قال فوالله لا أطيعك[1] فى هذا فدخل بها قبته فوقع عليها وأرسل الله عز وجل الطاعون فى بنى إسرائيل وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يجوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وكان بكر العيزار وجعل يقول اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك ورفع الطاعون فحسب من هلك من بنى إسرائيل فى الطاعون فيما بين أن أصاب زمرى المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفا والمقلل لهم يقول عشرون ألفا فى ساعة من النهار فمن هنالك تعطى بنو إسرائيل ولد فنحاص من كل ذبيحة ذبحوها الرقبة والزراع واللحى والبكر من كل أموالهم وأنفسها لأنه كان بكر أبيه العيزار ، ففى بلعام بن باعوراء أنزل الله (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها — إلى قوله — لعلهم يتفكرون) وقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) اختلف المفسرون فى معناه فعلى سياق ابن إسحق عن سالم عن أبى النضر أن بلعاما اندلع لسانه على صدره فتشبيهه بالكلب فى لهيثه فى كلتا حالتيه إن زجر وإن ترك ظاهر ، وقيل معناه فصار مثله فى ضلاله واستمراره فيه وعدم انتفاعه بالدعاء إلى الإيمان وعدم الدعاء كالكلب فى لهيثه فى حالتيه إن حملت عليه وإن تركته هو يلهث فى الحالين فكذلك هذا لا ينتفع بالموعظة والدعوة إلى الإيمان ولا عدمه كما قال تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) ونحو ذلك : وقيل معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف فارغ من الهدى فهو كثير الوجيب فعبر عن هذا بهذا نقل نحوه عن الحسن البصرى وغيره وقوله تعالى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (فاقصص القصص لعلهم) أى لعل بنى إسرائيل العالمين بحال بلعام وما جرى له فى إضلال الله إياه وإبعاده من رحمته بسبب أنه استعمل نعمة الله عليه فى تعليمه الاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب فى غير طاعة ربه بل دعا به على حزب الرحمن . وشعب الإيمان ، أتباع عبده ورسوله فى ذلك الزمان ، كليم الله موسى بن عمران عليه السلام ولهذا قال (لعلهم يتفكرون) أى فيحذروا أن يكونوا مثله فان الله قد أعطاهم علما وميزهم على من عداهم من الأعراب وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ يعرفونها كما يعرفون أبناءهم فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ولهذا من خالف منهم ما فى كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلا فى الدنيا موصولا بذل الآخرة وقوله (ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) يقول تعالى ساء مثلا مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا أى ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب التى لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة فمن خرج عن حيز العلم والهدى وأقبل على شهوة نفسه واتبع هواه صار شبيها بالكلب وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ليس لنا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه » وقوله (أنفسهم كانوا يظلمون) أى ما ظلمهم الله ولكن هم ظلموا أنفسهم باعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات وموافقة الهوى

﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى من هداه الله فانه لا مضل له ومن أضله فقد خاب وخسر وضل لا محالة ، فانه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء فى حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك

(١) فى نسخة الأزهر : لا نطيعك .

له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم)أى خلقنا وجعلنا لجهنم(كثيراً من الجن والإنس) أى هيأناهم لها وبعمل أهلها يعملون فانه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ماهم عاملون قبل كونهم فكتب ذلك عنده فى كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »

وفى صحيح مسلم أيضاً من حديث عائشة بنت طلحة عن خالتها عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت: دعى النبى صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت يا رسول الله طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم » وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود « ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد » وتقدم أن الله لما استخرج ذرية آدم من صلبه وجعلهم فريقين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قال « هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى » والأحاديث فى هذا كثيرة ومسألة القدر كبيرة ليس هذا موضع بسطها وقوله تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) يعنى ليس ينتفعون بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية كما قال تعالى (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الآية ، وقال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) هذا فى حق المنافقين ، وقال فى حق الكافرين (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) ولم يكونوا صما ولا بكما ولا عميا إلا عن الهدى كما قال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) وقوله تعالى (أولئك كالأنعام) أى هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا فى الذى يقيتها فى ظاهر الحياة الدنيا كقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء) أى ومثلهم فى حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول . ولهذا قال فى هؤلاء (بل هم أضل) أى من الدواب لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها ، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء ؛ ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها بخلاف الكافر فانه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة فى معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ، ولهذا قال تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن لله تسعا وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه فى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عنه ؛ ورواه البخارى عن أبى اليمان عن شعيب عن أبى حمزة عن أبى الزناد به ، وأخرجه الترمذى فى جامعه عن الجوزجانى عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب فذكر بسنده مثله وزاد بعد قوله « يحب الوتر : هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور

الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور » ثم قال الترمذى هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث ، ورواه ابن حبان فى صحيحه من طريق صفوان به ، وقد رواه ابن ماجه فى سننه من طريق آخر عن موسى بن عقبة عن الأعرج عن أبى هريرة مرفوعا فسرد الأسماء كنحو ما تقدم بزيادة ونقصان ، والذى عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانى عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أى أنهم جمعوها من القرآن كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوى والله أعلم ، ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى غير منحصرة فى تسعة وتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن يزيد بن هارون عن فضيل ابن مرزوق عن أبى سلمة الجهنى عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك عدل فىّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً » فقيل يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال « بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها » وقد أخرجه الإمام أبو حاتم بن حبان البستى فى صحيحه بمثله ، وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربى أحد أئمة المالكية فى كتابه الأحوذى فى شرح الترمذى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم فالله أعلم ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال إلحاد الملحدين أن دعوا اللات فى أسماء الله ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وذروا الذين يلحدون فى أسمائه) قال اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، وقال قتادة يلحدون: يشركون فى أسمائه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد فى القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى (وممن خلقنا) أى بعض الأمم (أمة) قائمة بالحق قولا وعملا (يهدون بالحق) يقولونه ويدعون إليه (وبه يعدلون) يعملون ويقضون ، وقد جاء فى الآثار أن المراد بهذه الأمة المذكورة فى الآية هى هذه الأمة المحمدية قال سعيد عن قتادة فى تفسير هذه الآية بلغنى أن النبى ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية « هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) » وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال : قال رسول الله ﷺ « إن من أمتى قوماً على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » وفى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفى رواية « حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك » وفى رواية « وهم بالشام »

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾

يقول تعالى (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ومعناه أنه يفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش فى الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء كما قال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) ولهذا قال تعالى (وأملى لهم) أى وسأملى لهم أى أطول لهم ما هم فيه (إن كيدى متين) أى قوى شديد

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى (أو لم يتفكروا) هؤلاء المكذبون بآياتنا (ما بصاحبهم) يعنى محمداً ﷺ (من جنة) أى ليس به جنون بل هو رسول الله حقا دعا إلى حق (إن هو إلا نذير مبين) أى ظاهر لمن كان له لب وقلب يعقل به ويعى به كما قال تعالى (وما صاحبكم بمجنون) وقال تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) يقول إنما أطلب منكم أن تقوموا قياما خالصاً لله ليس فيه تعصب ولا عناد مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ثم تتفكروا فى هذا الذى جاءكم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا فإنكم إذا فعلتم ذلك بان لكم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا ، وقال قتادة بن دعامة ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشا فجعل يفخذهم فخذاً فخذاً يا بنى فلان يا بنى فلان فحذرهم بأس الله ووقائع الله فقال قائلهم إن صاحبكم هذا لمجنون بات يصوت إلى الصباح أو حتى أصبح فأنزل الله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين)

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى أو لم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا فى ملك الله وسلطانه فى السموات والأرض وفيما خلق من شىء فيهما فيتدبروا ذلك ويعتبروا به ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ولا شبيه ومن فعل من لا ينبغى أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له فيؤمنوا به ويصدقوا رسوله وينيبوا إلى طاعته ويخلعوا الأنداد والأوثان ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه ، وقوله (فبأى حديث بعده يؤمنون) يقول فبأى تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذى أتاهم به من عند الله فى آى كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذى جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟ وقد روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى وعثمان بن مسلم وعبد الصمد بن عبد الوارث كلهم عن حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « رأيت ليلة أسرى بى كذا فلما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقى فإذا أنا برعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا فلما نزلت إلى السماء الدنيا فنظرت إلى أسفل منى فإذا أنا برهج ودخان وأصوات فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال هؤلاء الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض ولولا ذلك لرأوا العجائب » على بن زيد بن جدعان له منكرات . ثم قال تعالى

﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى من كتب عليه الضلالة فانه لا يهديه أحد ولو نظر لنفسه فيما نظر فانه لا يجزى عنه شيئاً (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) وكما قال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى (يسألونك عن الساعه) كما قال تعالى (يسألك الناس عن الساعة) قيل نزلت فى قريش وقيل فى نفر من اليهود والأول أشبه لأن الآية مكية وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعادا لوقوعها وتكذيبا بوجودها كما قال تعالى (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) وقال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد) وقوله (أيان مرساها) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس منتهاها أى متى محطها وأيان آخر مدة الدنيا الذى هو أول وقت الساعة (قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) أمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد علمها إلى الله تعالى فانه هو الذى يجليها لوقتها أى يعلم جلية أمرها ومتى يكون على التحديد لا يعلم ذلك إلا هو تعالى ولهذا قال (ثقلت فى السموات والأرض) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قال ثقل علمها على أهل السموات والأرض أنهم لا يعلمون قال معمر قال الحسن إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض يقول كبرت عليهم ، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (ثقلت فى السموات والأرض) قال ليس شىء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة ، وقال ابن جريج (ثقلت فى السموات والأرض) قال إذا جاء انشقت السماء وانتثرت النجوم . وكورت الشمس . وسيرت الجبال وكان ما قال الله عز وجل فذلك ثقلها ، واختار ابن جرير رحمه الله أن المراد ثقل علم وقتها على أهل السموات والأرض كما قال قتادة ، وهو كما قالاه كقوله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) ولا ينفى ذلك ثقل مجيئها على أهل السموات والأرض والله أعلم وقال السدى (ثقلت فى السموات والأرض) يقول خفيت فى السموات والأرض فلا يعلم قيامها حين تقوم ملك مقرب ولا نبى مرسل (لا تأتيكم إلا بغتة) يبغتهم قيامها تأتيهم على غفلة وقال قتادة فى قوله تعالى (لا تأتيكم إلا بغتة) قضى الله أنها (لا تأتيكم إلا بغتة) قال وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق ويخفض ميزانه ويرفعه » وقال البخارى حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب أنبأنا أبو الزناد عن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » وقال مسلم فى صحيحه حدثنى زهير بن حرب حدثنا سفيان بن عيينه عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة يبلغ به قال تقوم الساعة والرجل يحلب لقحته فما يصل الإناء الى فيه حتى تقوم الساعة والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلوط حوضه فما يصدر حتى تقوم .

وقوله (يسألونك كأنك حفى عنها) اختلف المفسرون فى معناه فقيل معناه كما قال العوفى عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفى عنها) يقول كأن بينك وبينهم مودة كأنك صديق لهم قال ابن عباس لما سأل الناس النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمدا حفى بهم فأوحى الله اليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكا مقربا ولا رسولا ، وقال قتادة قالت قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم إن بيننا وبينك قرابة فأسر الينا متى الساعة فقال الله عز وجل (يسألونك كأنك حفى عنها) وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وأبى مالك والسدى وهذا قول والصحيح عن مجاهد من رواية ابن أبى نجيح وغيره (يسألونك كأنك حفى عنها) قال استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها وكذا قال الضحاك عن ابن عباس (يسألونك كأنك حفى عنها) يقول كأنك عالم بها لست تعلمها (قل إنما علمها عند الله) وقال معمر عن بعضهم (كأنك حفى عنها) كأنك عالم بها وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (كأنك حفى عنها) كأنك بها عالم وقد أخفى الله علمها على خلقه وقرأ (إن الله عنده علم الساعة) الآية وهذا القول أرجح

فى المقام من الأول والله أعلم ولهذا قال (قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون) ولهذا لما جاء جبريل عليه السلام فى صورة أعرابى ليعلم الناس أمر دينهم فجلس من رسول الله ﷺ مجلس السائل المسترشد وسأله صلى الله عليه وسلم عن الاسلام .ثم عن الإيمان . ثم عن الإحسان . ثم قال فمتى الساعة ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » أى لست أعلم بها منك ولا أحد أعلم بها من أحد ثم قرأ النبى صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة) الآية ، وفى رواية فسأله عن أشراط الساعة فبين له أشراط الساعة ثم قال « فى خمس لايعلمهن إلا الله » وقرأ هذه الآية وفى هذا كله يقول له بعد كل جواب صدقت ولهذا عجب الصحابة من هذا السائل يسأله ويصدقه ، ثم لما انصرف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » وفى رواية قال « وما أتانى فى صورة إلا عرفته فيها إلا صورته هذه » وقد ذكرت هذا الحديث بطرقه وألفاظه من الصحاح والحسان والمسانيد فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة ، ولما سأله ذلك الأعرابى وناداه بصوت جهورى فقال يامحمد قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هاؤم » على نحو من صوته قال يامحمد متى الساعة ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويحك إن الساعة آتية فما أعددت لها » قال ما أعددت لها كبير صلاة ولاصيام ولكنى أحب الله ورسوله فقال له رسول الله ﷺ « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشىء فرحهم بهذا الحديث وهذا له طرق متعددة فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال « المرء مع من أحب » وهى متواترة عند كثير من الحفاظ المتقنين ففيه أنه عليه السلام كان إذا سئل عن هذا الذى لايحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ماهو الأهم فى حقهم وهو الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وان لم يعرفوا تعيين وقته . ولهذا قال مسلم فى صحيحه حدثنا أبوبكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة متى الساعة فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول«إن يعش هذا لم يدركه الهرم حتى قامت عليكم ساعتكم» يعنى بذلك موتهم الذى يفضى بهم إلى الحصول فى برزخ الدار الآخرة ثم قال مسلم وحدثنا أبوبكر بن أبى شيبة حدثنا يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لايدركه الهرم حتى تقوم الساعة » انفرد به مسلم وحدثنى حجاج بن الشاعر حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعيدبن أبىهلال المصرى عنأنس بنمالك رضى الله عنه أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم قال متى الساعة ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم هنيهة ثم نظر إلىغلام بينيديه من أزدشنوءة فقال « إن عمر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » قال أنس ذلك الغلام من أترابى وقال حدثنا هرون بنعبد الله حدثنا عفان بن مسلم حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس قالمر غلام للمغيرة بنشعبة وكان منأترابى فقال النبى ﷺ « إن يؤخر هذا لم يدركه الهرم حتى تقوم الساعة » ورواه البخارى فى كتاب الأدب من صحيحه عن عمرو بنعاصم عن همام بنيحيى عن قتادة عن أنس أن رجلا من أهل البادية قال يارسول الله متىالساعة فذكر الحديث وفىآخره فمر غلام للمغيرة بنشعبة وذكره وهذا الاطلاق فىهذه الروايات محمول على التقييد بساعتكم فىحديثعائشة رضى اللهعنها ، وقال ابنجريج أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابربن عبد الله يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر « تسألونى عن الساعة وإنما علمها عند الله وأقسم بالله ماعلى ظهر الأرض اليوم من نفس منفوسة تأتى عليها مائة سنه » رواه مسلم وفى الصحيحين عن ابن عمر مثله قال ابن عمر وإنما أراد رسول الله ﷺ انخرام ذلك القرن ، وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أنبأنا العوام عن جبلة بنسحيم عن موثربن عفارة عن ابنمسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمر الساعة -قال- فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام فقال لا علم لى بها ، فردوا أمرهم الى موسى فقال لاعلم لى بها ، فردوا أمرهم الى عيسى فقال عيسى أماوجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل وفيما عهد إلى ربه عزوجل أنالدجال خارج -قال-

ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال فيهلكه الله عز وجل إذا رآنى حتى إن الشجر والحجر يقول يا مسلم إن تحتى كافرا فتعال فاقتله قال فيهلكهم الله عز وجل ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم قال فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطأون بلادهم لا يأتون على شىء إلا أهلكوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه قال ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عز وجل عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن قال فينزل الله عز وجل المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر قال الإمام أحمد قال يزيد بن هارون ثم تنسف الجبال وتمد الأرض مد الأديم ثم رجع إلى حديث هشيم قال ففيما عهد إلى ربى عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلا أو نهارا ورواه ابن ماجه عن بندار عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب بسنده نحوه فهؤلاء أكابر أولى العزم من المرسلين ليس عندهم علم بوقت الساعة على التعيين وإنما ردوا الأمر إلى عيسى عليه السلام فتكلم على أشراطها لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذا لأحكام رسول الله ﷺ ويقتل المسيح الدجال ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه فأخبر بما أعلمه الله تعالى به : وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن أبى بكير حدثنا عبد الله بن زياد بن لقيط قال سمعت أبى يذكر عن حذيفة قال سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال « علمها عند ربى عز وجل لا يجليها لوقتها إلا هو ولكن سأخبركم بمشاريطها وما يكون بين يديها إن بين يديها فتنة وهرجا » قالوا يا رسول الله الفتنة قد عرفناها فما الهرج قال « بلسان الحبشة القتل » قال « ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً » لم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه وقال وكيع حدثنا ابن أبى خالد عن طارق بن شهاب قال كان رسول الله ﷺ لا يزال يذكر من شأن الساعة حتى نزلت (يسألونك عن الساعة أيان مرساها) الآية ورواه النسائى من حديث عيسى بن يونس عن إسماعيل بن أبى خالد به وهذا إسناد جيد قوى فهذا النبى الأمى سيد الرسل وخاتمهم محمد صلوات الله عليه وسلامه نبى الرحمة ونبى التوبة ونبى الملحمة والعاقب والمقفى والحاشر الذى تحشر الناس على قدميه مع قوله فيما ثبت عنه فى الصحيح من حديث أنس وسهل بن سعد رضى الله عنهما « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقرن بين إصبعيه السبابة والتى تليها ومع هذا كله قد أمره الله أن يرد علم وقت الساعة إليه إذا سئل عنها فقال (قل إن علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا اطلاع له على شىء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الآية وقوله (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال عبد الرزاق عن الثورى عن منصور عن مجاهد (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) قال لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملا صالحا وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال مثله ابن جريج وفيه نظر لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفى رواية كان إذا عمل عملا أثبته فجميع عمله كان على منوال واحد كأنه ينظر إلى الله عز وجل فى جميع أحواله اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك والله أعلم . والأحسن فى هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) أى من المال وفى رواية لعلمت إذا اشتريت شيئاً ما أربح فيه فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ولا يصيبنى الفقر ، وقال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما مسنى السوء) قال لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ثم

أخبر أنه إنما هو نذير وبشير أى نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) أى ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه (فلما تغشاها) أى وطئها (حملت حملا خفيفا) وذلك أول الحمل لا تجد المرأة له ألما إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله (فمرت به) قال مجاهد استمرت بحمله ، وروى عن الحسن وإبراهيم النخعى والسدى نحوه ، وقال ميمون بن مهران عن أبيه استخفته ، وقال أيوب سألت الحسن عن قوله (فمرت به) قال لو كنت رجلا عربيا لعرفت ما هى إنما هى فاستمرت به ، وقال قتادة (فمرت به) استبان حملها ، وقال ابن جرير معناه استمرت بالماء قامت به وقعدت ، وقال العوفى عن ابن عباس استمرت به فشكت أحملت أم لا (فلما أثقلت) أى صارت ذات ثقل بحملها ، وقال السدى كبر الولد فى بطنها (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا) أى بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البخترى وأبو مالك أشفقا أن لا يكون إنسانا. وقال الحسن البصرى لئن آتيتنا غلاما (لنكونن من الشاكرين فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون) ذكر المفسرون ههنا آثارا وأحاديث سأوردها وأبين ما فيها ثم نتبع ذلك ببيان الصحيح فى ذلك إن شاء الله وبه الثقة ، قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن إبراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ قال « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فانه يعيش فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار عن بندار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به ورواه الترمذى فى تفسيره هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ورواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيره عن أبى زرعة الرازى عن هلال بن فياض عن عمر بن إبراهيم به به مرفوعا ، وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من حديث شاذ بن فياض عن عمر بن إبراهيم مرفوعا : قلت وشاذ هو هلال وشاذ لقبه والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه (أحدها) أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصرى وقد وثقه ابن معين ولكن قال أبو حاتم الرازى لا يحتج به ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعا فالله أعلم (الثانى) أنه قد روى من قول سمرة نفسه ليس مرفوعا كما قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر عن أبيه حدثنا بكر ابن عبد الله عن سليمان التيمى عن أبى العلاء بن الشخير عن سمرة بن جندب قال سمى آدم ابنه عبد الحارث (الثالث) أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعا لما عدل عنه قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو عن الحسن (جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال كان هذا فى بعض أهل الملل ولم يكن بآدم ،

وحدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال : قال الحسن عنى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده يعنى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) وحدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولادا فهودوا ونصروا ، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن رضى الله عنه أنه فسر الآية بذلك وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ولو كان هذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عدل عنه هو ولا غيره ولاسيما مع تقواه لله وورعه فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابى ويحتمل أنه تلقاه من بعض أهل الكتاب من آمن منهم مثل كعب أو وهب بن منبه وغيرهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع والله أعلم.

فأما الآثار فقال محمد بن إسحق بن يسار عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادا فيعبدهم لله ويسميهم عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت فأتاهما إبليس فقال إنكما لو سميتماه بغير الذى تسميانه به لعاش قال فولدت له رجلا فسماه عبد الحارث ففيه أنزل الله يقول (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — جعلا له شركاء فيما آتاهما) الى آخر الآية ، وقال العوفى عن ابن عباس قوله فى آدم (هو الذى خلقكم من نفس واحدة — إلى قوله — فمرت به) شكت أحملت أم لا ؟ (فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين) فأتاهما الشيطان فقال هل تدريان مايولد لكما ؟ أم هل تدريان ما يكون أبهيمة أم لا ؟ وزين لهما الباطل إنه غوى مبين ، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا فقال لهما الشيطان إنكما إن لم تسمياه بى لم يخرج سويا ومات كما مات الأول فسميا ولدهما عبد الحارث فذلك قول الله تعالى (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) الآية ، وقال عبد الله بن مبارك عن شريك عن خصيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما) قال : قال الله تعالى (هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها) آدم (حملت) فأتاهما إبليس لعنه الله فقال إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى إيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما فسمياه عبد الحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثانية فأتاهما أيضا فقال أنا صاحبكما الذى فعلت مافعلت لتفعلن أو لأفعلن — يخوفهما — فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث فذلك قوله تعالى (جعلا له شركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبى حاتم

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومن الطبقة الثانية قتادة والسدى وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لايحصون كثرة وكأنه والله أعلم أصله مأخوذ من أهل الكتاب فإن ابن عباس رواه عن أبى بن كعب كما رواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد يعنى ابن بشير عن عقبة عن قتادة عن مجاهد عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال لما حملت حواء أتاها الشيطان فقال لها أتطيعينى ويسلم لك ولدك ، سميه عبد الحارث فلم تفعل فولدت فمات ثم حملت فقال لها مثل ذلك فلم تفعل ثم حملت الثالثة فجاءها فقال إن تطيعينى يسلم وإلا فإنه يكون بهيمة فهيبهما فأطاعا

وهذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ثم أخبارهم على ثلاثة أقسام فمنها ماعلمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ومنها ماعلمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ومنها ماهو مسكوت عنه فهو المأذون فى روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج » وهو الذى لايصدق ولا يكذب لقوله « فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثانى أو الثالث فيه نظر ، فأما من حدث به من صحابى أو تابعى فانه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصرى رحمه الله فى هذا وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ولهذا قال الله (فتعالى الله عما يشركون) ثم قال فذكر آدم وحواء أولا كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين وهو كالاستطراد من ذكر الشخص الى الجنس كقوله (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) الآية ومعلوم أن المصابيح وهى النجوم التى زينت بها السماء ليست

هى التى يرمى بها وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها ولهذا نظائر فى القرآن والله أعلم

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ * وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لاتملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها بل هى جماد لاتتحرك ولا تسمع ولا تبصر وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ولهذا قال (أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون) أى أتشركون به من المعبودات مالا يخلق شيئا ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب * ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز) أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة بل لوسلبتهم الذبابة شيئا من حقير المطاعم وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها فمن هذه صفته وحاله كيف يعبد ليرزق ويستنصر ؟ ولهذا قال تعالى (لايخلقون شيئا وهم يخلقون) أى بل هم مخلوقون مصنوعون كما قال الخليل (أتعبدون ماتنحتون) الآية ثم قال تعالى (ولا يستطيعون لهم نصرا) أى لعابديهم (ولا أنفسهم ينصرون) يعنى ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ويهينها غاية الإهانة كما أخبر تعالى عنه فى قوله (فراغ عليهم ضربا باليمين) وقال تعالى (فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم اليه يرجعون) وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين قد أسلما لما قدم رسول الله ﷺ المدينة فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطباً للأرامل ليعتبر قومهما بذلك ويرتأوا لأنفسهم فكان لعمرو بن الجموح وكان سيدا فى قومه صنم يعبده ويطيبه فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ويلطخانه بالعذرة فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ماصنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفاً ويقول له انتصر ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضاً حتى أخذاه مرة فقرناه مع كلب ميت ودلياه فى حبل فى بئر هناك فلما جاء عمرو بن الجموح ورأى ذلك نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل وقال :

تالله لو كنت إلها مستدن * لم تك والكلب جميعا فى قرن

ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدا رضى الله عنه وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم) الآية يعنى أن هذه الأصنام لاتسمع دعاء من دعاها وسواء لديها من دعاها ومن دحاها كما قال إبراهيم (يا أبت لم تعبد مالايسمع ولايبصر ولا يغنى عنك شيئا) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أى مخلوقات مثلهم بل الأناس أكمل منها لأنها تسمع وتبصر وتبطش وتلك لاتفعل شيئا من ذلك وقوله (قل ادعوا شركاءكم) الآية أى استنصروا بها على فلا تؤخرونى طرفة عين واجهدوا جهدكم (إن ولبى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) أى الله حسبي وكافيني وهو نصيرى وعليه متكلى وإليه ألجأ وهو ولي فى الدنيا والآخرة وهو ولى كل صالح بعدى وهذا كما

قال هود عليه السلام لما قال له قومه (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) وكقول الخليل (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون * فانهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين) الآيات وكقوله لأبيه وقومه (إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فانه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون) وقوله (والذين تدعون من دونه) إلى آخر الآية مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال (لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) وقوله (وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) كقوله تعالى (إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم) الآية وقوله (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) إنما قال (ينظرون إليك) أى يقابلونك بعيون مصورة كأنها ناظرة وهى جماد ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان وتراهم ينظرون إليك فعبر عنها بضمير من يعقل ، وقال السدى المراد بهذا المشركون ، وروى عن مجاهد نحوه والأول أولى وهو اختيار ابن جرير وقاله قتادة

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (خذ العفو) يعنى خذ ما عفا لك من أموالهم وما أتوك به من شىء فخذه وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها وما انتهت إليه الصدقات، قاله السدى وقال الضحاك عن ابن عباس (خذ العفو) أنفق الفضل ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس (خذ العفو) قال الفضل وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قوله (خذ العفو) أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ثم أمره بالغلظة عليهم ، واختار هذا القول ابن جرير ، وقال غير واحد عن مجاهد فى قوله تعالى (خذ العفو) قال من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسس ، وقال هشام بن عروة عن أبيه أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وفى رواية قال خذ ما عفا لك من أخلاقهم ، وفى صحيح البخارى عن هشام عن أبيه عروة عن أخيه عبد الله بن الزبير قال إنما أنزل خذ العفو من أخلاق الناس، وفى رواية لغيره عن هشام عن أبيه عن ابن عمر ، وفى رواية عن هشام عن أبيه عن عائشة أنهما قالا مثل ذلك والله أعلم، وفى رواية سعيد بن منصور عن أبى معاوية عن هشام عن وهب بن كيسان عن أبى الزبير خذ العفو قال من أخلاق الناس والله لآخذنه منهم ما صحبتهم وهذا أشهر الأقوال ويشهد له ما رواه ابن جرير وابن أبى حاتم جميعا حدثنا يونس حدثنا سفيان هو ابن عيينة عن أبى قال لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين) قال رسول الله ﷺ « ما هذا يا جبريل ؟» قال إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك ، وقد رواه ابن أبى حاتم أيضا عن أبى يزيد القراطيسى كتابة عن اصبغ بن الفرج عن سفيان عن أبى عن الشعبى نحوه، وهذا مرسل على كل حال وقد روى له شواهد من وجوه أخر وقد روى مرفوعا عن جابر وقيس بن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ أسندهما ابن مردويه ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا شعبة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثنى على بن يزيد عن القاسم بن أبى أمامة الباهلى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : لقيت رسول الله ﷺ فابتدأته فأخذت بيده فقلت يا رسول الله أخبرنى بفواضل الأعمال فقال « يا عقبة صل من قطعك وأعط من حرمك وأعرض عمن ظلمك » وروى الترمذى نحوه من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد به وقال حسن قلت ولكن على بن يزيد وشيخه القاسم أبو عبد الرحمن فيهما ضعف ، وقال البخارى قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) العرف المعروف حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن عباس رضى الله عنهما قال قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته

كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هى يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله عز وجل انفرد باخراجه البخارى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن عبد الله بن نافع أن سالم بن عبد الله بن عمر مر على عير لأهل الشام وفيها جرس فقال إن هذا منهى عنه فقالوا نحن أعلم بهذا منك إنما يكره الجلجل الكبير فأما مثل هذا فلا بأس به فسكت سالم وقال (وأعرض عن الجاهلين) وقول البخارى : العرف المعروف، نص عليه عروة بن الزبير والسدى وقتادة وابن جرير وغير واحد وحكى ابن جرير أنه يقال أوليته معروفا وعارفا وعارفة كل ذلك بمعنى المعروف قال وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ويدخل فى ذلك جميع الطاعات وبالاعراض عن الجاهلين وذلك وإن كان أمرا لنبيه ﷺ فانه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم لا بالاعراض عمن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله وجهل وحدانيته وهو للمسلمين حرب وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال هذه أخلاق أمر الله بها نبيه ﷺ ودله عليها وقد أخذ بعض الحكماء هذا المعنى فسبكه فى بيتين فيهما جناس فقال :

خذ العفو وأمر بعرف كما * أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولن فى الكلام لكل الأنام * فمستحسن من ذوى الجاه لين

وقال بعض العلماء: الناس رجلان فرجل محسن فخذ ما عفا لك من إحسانه ولا تكلفه فوق طاقته ولا ما يحرجه وإما مسىء فمره بالمعروف فان تمادى على ضلاله واستعصى عليك واستمر فى جهله فأعرض عنه فلعل ذلك أن يرد كيده كما قال تعالى (ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) وقال تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى هذه الوصية (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم) وقال فى هذه السورة الكريمة أيضاً (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) فهذه الآيات الثلاث فى الاعراف والمؤمنون وحم السجدة لا رابع لهن فانه تعالى يرشد فيهن إلى معاملة العاصى من الإنس بالمعروف بالتى هى أحسن فانه ذلك يكفه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ولهذا قال (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجان فانه لا يكفه عنك الإحسان وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية فانه عدو مبين لك ولأبيك من قبلك قال ابن جرير فى تفسير قوله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ) وإما يغضبنك من الشيطان غضب يصدك عن الاعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته (فاستعذ بالله) يقول فاستجر بالله من نزغه (إنه سميع عليم) سميع لجهل الجاهل عليك والاستعاذة به من نزغه ولغير ذلك من كلام خلقه لا يخفى عليه منه شىء عليم بما يذهب عنك نزغ الشيطان وغير ذلك من أمور خلقه.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزلت (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) قال: يا رب كيف بالغضب ؟، فأنزل الله (وإما ينزغنك الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) قلت وقد تقدم فى أول الاستعاذة حديث الرجلين اللذين تسابا بحضرة النبى ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضبا ، فقال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له فقال ما بى من جنون . وأصل النزغ الفساد إما بالغضب أو غيره قال الله تعالى (وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم) والعياذ الالتجاء والاستناد والاستجارة من الشر، وأما اللاذ ففى طلب الخير كما قال الحسن بن هانىء فى شعره

يامن ألوذ به فيما أؤمــله * ومن أعوذ به ممــا أحاذره

لايجبر الناس عظماً أنت كاسره * ولايهيضون عظما أنت جابره

وقد قدمنا أحاديث الاستعاذة فيأول التفسير بما أغنى عن إعادته هاهنا

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يخبرتعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ماعنه زجرأنهم (إذا مسهم) أى أصابهم طيف وقرأ الآخرون طائف وقد جاء فيه حديث وهما قراءتان مشهورتان فقيل بمعنى واحد وقيل بينهما فرق ومنهم من فسر ذلك بالغضب ومنهم من فسر بمس الشيطان بالصرع ونحوه ومنهم من فسره بالهم بالذنب ومنهم من فسره باصابة الذنب وقوله (تذكروا) أى عقاب الله وجزيل ثوابه ووعده ووعيده فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا اليه من قريب (فإذاهم مبصرون) أى قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه وقد أورد الحافظ أبوبكر بن مردويه هاهنا حديث محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاءت امرأة الى النبى ﷺ وبها طيف فقالت يارسول الله ادع الله أن يشفيني فقال « إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت فاصبرى ولا حساب عليك » فقالت بل أصبر ولا حساب علىّ ورواه غير واحد من أهل السنن وعندهم قالت يارسول الله إنى أصرع وأتكشف فادع الله أن يشفينى فقال « إن شئت دعوت الله أن يشفيك وإن شئت صبرت ولك الجنة » فقالت بل أصبر ولى الجنة ولكن ادع الله أن لاأتكشف فدعا لها فكانت لاتتكشف وأخرجه الحاكم من مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شابا كان يتعبد فى المسجد فهويته امرأة فدعته إلى نفسها فمازالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون) فخر مغشيا عليه ثم أفاق فأعادها فمات فجاء عمر فعزىفيهأباه وكان قد دفن ليلا فذهب فصلى على قبره بمن معه ثم ناداه عمر فقال يافتى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فأجابه الفتى من داخل القبر ياعمر قد أعطانيهما ربى عزوجل فيالجنة مرتين . وقوله تعالى (وإخوانهم يمدونهم) أىوإخوان الشياطين من الإنس كقوله(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) وهمأتباعهم والمستمعون لهم القابلون لأوامرهميمدونهم فىالغى أىتساعدهم الشياطين علىالمعاصى وتسهلها عليهم وتحسنها لهموقال ابنكثير المد الزيادة يعنىيزيدونهم فىالغى يعنىالجهل والسفه (ثم لايقصرون) قيل معناه إن الشياطين تمد الانس لاتقصر فى أعمالهم بدلك كما قالعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فىقوله (وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لايقصرون) الآية قال لا الانس يقصرون عما يعملون ولا الشياطين تمسك عنهم وقيل معناه كما رواه العوفى عن ابن عباس فىقوله (يمدونهم فىالغى ثم لايقصرون) قالهم الجن يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لايقصرون يقول لايسأمون وكذا قال السدىوغيره أنيعنىالشياطينيمدون أولياءهم من الانس ولا تسأم منإمدادهم فىالشر لأن ذلك طبيعة لهم وسجية (لايقصرون) لاتفتر فيه ولا تبطل عنه كما قال تعالى (ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) قال ابن عباس وغيره تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (قالوا لولا اجتبيتها) يقول لولاتلقيتها وقال مرة أخرى لولا أحدثها فأنشأتها وقال ابن جرير عنعبد الله بن كثير عن مجاهدفىقوله (وإذا لمتأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها) قاللولا

اقتضيتها قالوا تخرجها عن نفسك وكذا قال قتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال العوفى عن ابن عباس (لولا اجتبيتها) يقول تلقيتها من الله تعالى وقال الضحاك (لولا اجتبيتها) يقول لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ومعنى قوله تعالى (وإذا لم تأتهم بآية) أى معجزة وخارق كقوله تعالى (إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) يقولون للرسول صلى الله عليه وسلم ألا تجهد نفسك فى طلب الآيات من الله حتى نراها ونؤمن بها قال الله تعالى له (قل إنما أتبع مايوحى إلىّ من ربى) أى أنا لا أتقدم اليه تعالى فى شىء وإنما أتبع ما أمرنى به فأمتثل مايوحيه إلىّ فان بعث آية قبلتها وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لى فى ذلك فإنه حكيم عليم ثم أرشدهم الى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال (هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاماله واحتراما لا كما كان يعتمده كفار قريش المشركون فى قولهم (لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) الآية ولكن يتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا» وكذا رواه أهل السنن من حديث أبى هريرة أيضا وصححه مسلم بن الحجاج أيضا ولم يخرجه فى كتابه وقال إبراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى عياض عن أبى هريرة قال كانوا يتكلمون فى الصلاة فلما نزلت هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له) والآية الأخرى أمروا بالانصات، قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم عن المسيب بن رافع قال ابن مسعود كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة فجاء القرآن (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن بشير بن جابر قال صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرءون مع الإمام فلما انصرف قال أما آن لكم أن تفهموا أما آن لكم أن تعقلوا (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) كما أمركم الله قال وحدثنى أبو السائب حدثنا حفص عن أشعث عن الزهرى قال نزلت هذه الآية فى فتى من الأنصار(١) كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئا قرأه فنزلت (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث الزهرى عن أبى أكيمة الليثى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال «هل قرأ أحد منكم معى آنفا؟» قال رجل نعم يارسول الله، قال «إنى أقول مالى أنازع القرآن» قال فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله ﷺ فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ وقال الترمذى هذا حديث حسن وصححه أبو حاتم الرازى، وقال عبد الله بن المبارك عن يونس عن الزهرى: قال لايقرأ من وراء الإمام فيما يجهر به الإمام تكفيهم قراءة الإمام وإن لم يسمعهم صوته ولكنهم يقرءون فيما لايجهر به سرا فى أنفسهم ولايصلح لأحد خلفه أن يقرأ معه فيما يجهر به سرا ولاعلانية فإن الله تعالى قال (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قلت هذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لايجب عليه فى الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام لاالفاتحة ولاغيرها وهو أحد قولى الشافعية وهو القديم كمذهب مالك ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة المتقدمة وقال فى الجديد يقرأ الفاتحة فقط فى سكتات الإمام وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل لايجب على المأموم قراءة أصلا فى السرية ولاالجهرية بما ورد فى الحديث «من كان له إمام فقراءته قراءة له» وهذا الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن جابر مرفوعا وهو فى موطأ مالك عن وهب بن كيسان عن جابر موقوفا وهذا أصح وهذه المسألة مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد أفردها الإمام أبو عبدالله البخارى مصنفا على حدة واختار وجوب القراءة خلف الإمام فى السرية والجهرية أيضا والله أعلم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية

(١) فيه أن الآية مكية نزلت قبل إسلام الأنصار.

قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) يعنى فى الصلاة المفروضة ، وكذا روى عن عبد الله بن المغفل ، وقال ابن جرير حدثنا حميد بن مسعدة حدثنا بشر بن المفضل حدثنا الجريرى عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال : رأيت عبيد بن عمير وعطاء بن أبى رباح يتحدثان والقاص يقص ، فقلت ألا تستمعان إلى الذكر وتستوجبان الموعود ؟ قال فنظرا إلى ثم أقبلا على حديثهما ، قال فأعدت فنظرا إلى وأقبلا على حديثهما ، قال فأعدت الثالثة قال فنظرا إلى فقالا : إنما ذلك فى الصلاة (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وكذا قال سفيان الثورى عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة وكذا رواه غير واحد عن مجاهد ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد قال : لا بأس إذا قرأ الرجل فى غير الصلاة أن يتكلم ، وكذا قال سعيد ابن جبير والضحاك وإبراهيم النخعى وقتادة والشعبى والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بذلك فى الصلاة وقال شعبة عن منصور سمعت إبراهيم بن أبى حمزة يحدث أنه سمع مجاهدا يقول فى هذه الآية (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال فى الصلاة والخطبة يوم الجمعة ، وكذا روى ابن جريج عن عطاء مثله ، وقال هشيم عن الربيع بن صبيح عن الحسن قال فى الصلاة وعند الذكر ، وقال ابن المبارك عن بقية سمعت ثابت بن عجلان يقول سمعت سعيد بن جبير يقول فى قوله (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) قال الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة وهذا اختيار ابن جرير أن المراد من ذلك الإنصات فى الصلاة وفى الخطبة كما جاء فى الأحاديث من الأمر بالإنصات خلف الإمام وحال الخطبة ، وقال عبد الرزاق عن الثورى عن ليث عن مجاهد أنه كره إذا مر الإمام بآية خوف أو بآية رحمة أن يقول أحد من خلفه شيئاً قال السكوت ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن إذا جلست إلى القرآن فأنصت له وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا عباد بن ميسرة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار وآخره كثيراً كما أمر بعبادته فى هذين الوقتين فى قوله (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء وهذه الآية مكية ، وقال ههنا بالغدو وهو أول النهار والآصال جمع أصيل كما أن الأيمان جمع يمين ، وأما قوله (تضرعا وخيفة) أى اذكر ربك فى نفسك رغبة ورهبة وبالقول لا جهرا ولهذا قال (ودون الجهر من القول) وهكذا يستحب أن يكون الذكر لا يكون نداء وجهرا بليغا ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار فقال لهم النبى ﷺ « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذى تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه الآية كما فى قوله تعالى (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) فان المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم وليتخذ سبيلا بين الجهر والاسرار ، وكذا قال فى هذه الآية الكريمة (ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين) وقد زعم ابن جرير وقبله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن فى حال استماعه بالذكر على هذه الصفة وهذا بعيد مناف للانصات المأمور به ، ثم إن المراد بذلك فى الصلاة كما تقدم أو فى الصلاة والخطبة ومعلوم

أن الأنصات إذ ذاك أفضل من الذكر باللسان سواء كان سرا أو جهرا فهذا الذى قالاه لم يتابعا عليه ، بل المراد الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال لئلا يكونوا من الغافلين ، ولهذا مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته) الآية ، وإنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم فى كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء فى الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها يتمون الصفوف الأول فالأول ويتراصون فى الصف » وهذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع ، وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجه عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ أنه عدها فى سجدات القرآن آخر تفسير سورة الأعراف ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة الأنفال ﴾

وهى مدنية . آياتها سبعون وست آيات . كلماتها ألف كلمة وستمائة كلمة وإحدى وثلاثون كلمة . حروفها خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفا والله أعلم .

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال البخارى : قال ابن عباس: الأنفال المغانم ، حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان أخبرنا هشيم أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الأنفال قال نزلت فى بدر . أما ما علقه عن ابن عباس فكذلك رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ليس لأحد منها شىء ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء والضحاك وقتادة وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد أنها المغانم ، وقال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه قال : الأنفال الغنائم ، قال فيها لبيد : إن تقوى ربنا خير نفل * وبإذن الله ريثى والعجل

وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد قال سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال فقال ابن عباس رضى الله عنهما : الفرس من النفل والسلب من النفل . ثم عاد لمسألته فقال ابن عباس ذلك أيضا ثم قال الرجل : الأنفال التى قال الله فى كتابه ما هى ؟ قال القاسم فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه فقال ابن عباس أتدرون ما مثل هذا مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن القاسم بن محمد قال : قال ابن عباس: كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إذا سئل عن شىء قال لا آمرك ولا أنهاك ثم قال ابن عباس والله ما بعث الله نبيه ﷺ إلا زاجرا آمرا محللا محرما . قال القاسم فسلط على ابن عباس رجل فسأله عن الأنفال فقال ابن عباس : كان الرجل ينفل فرس الرجل وسلاحه فأعاد عليه الرجل فقال له مثل ذلك ثم عاد عليه حتى أغضبه فقال ابن عباس : أتدرون ما مثل هذا ؟ مثل صبيغ الذى ضربه عمر بن الخطاب حتى سالت الدماء على عقبيه أو على رجليه ، فقال الرجل أما أنت فقد انتقم الله لعمر منك . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس أنه فسر النفل بما ينفله الإمام لبعض الأشخاص من سلب أو نحوه بعد قسم أصل المغنم وهو المتبادر إلى فهم كثير من الفقهاء من لفظ النفل والله أعلم .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : إنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة من الأخماس فنزلت (يسألونك عن الأنفال) وقال ابن مسعود ومسروق لا نفل يوم الزحف إنما النفل قبل التقاء الصفوف رواه ابن أبى حاتم عنهما ، وقال ابن المبارك وغير واحد عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح فى الآية (يسألونك عن الأنفال) قال يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين فى غير قتال من دابة أو عبد أو أمة أو متاع فهو نفل للنبى صلى الله

عليه وسلم يصنع به مايشاء ، وهذا يقتضى أنه فسر الأنفال بالفىء وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال . قال ابن جرير وقال آخرون هى أنفال السرايا حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا على بن صالح بن حى قال بلغنى فى قوله تعالى (يسألونك عن الأنفال) قال السرايا ومعنى هذا ماينفله الإمام لبعض السرايا زيادة على قسمهم مع بقية الجيش . وقد صرح بذلك الشعبى . واختار ابن جرير أنها الزيادة على القسم ويشهد لذلك ماورد فى سبب نزول الآية وهو ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا أبو معاوية حدثنا أبو إسحق الشيبانى عن محمد بن عبيد الله الثقفى عن سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت به النبى صلى الله عليه وسلم فقال « اذهب فاطرحه فى القبض » قال فرجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وأخذ سلبى قال فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله ﷺ « اذهب فخذ سلبك »

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن عاصم بن أبى النجود عن مصعب بن سعد عن سعد بن مالك قال: قلت يارسول الله قد شفانى الله اليوم من المشركين فهب لى هذا السيف، فقال « إن هذا السيف لالك ولا لى ، ضعه » قال فوضعته ثم رجعت فقلت عسى أن يعطى هذا السيف من لا يبلى بلائى ، قال فإذا رجل يدعونى من ورائى قال قلت قد أنزل الله فىّ شيئا ؟ قال كنت سألتنى السيف وليس هو لى وإنه قد وهب لى فهو لك قال وأنزل الله هذه الآية (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن أبى بكر بن عياش به وقال الترمذى حسن صحيح وهكذا رواه أبو داود الطيالسى أخبرنا شعبة أخبرنا سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال نزلت فى أربع آيات أصبت سيفا يوم بدر فأتيت النبى ﷺ فقلت نفلنيه ، فقال « ضعه من حيث أخذته » مرتين ثم عاودته فقال النبى ﷺ « ضعه من حيث أخذته » فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأنفال) الآية وتمام الحديث فى نزول (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) وقوله تعالى (إنما الخمر والميسر) وآية الوصية وقد رواه مسلم فى صحيحه من حديث شعبة به وقال محمد بن إسحق حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة يقول أصبت سيف ابن عائذ يوم بدر وكان السيف يدعى بالمرزبان ، فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يردوا مافى أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته فى النفل وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله فرآه الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه ، ورواه ابن جرير من وجه آخر

﴿ سبب آخر فى نزول الآية ﴾

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن سلمة عن ابن إسحق عن عبد الرحمن عن سليمان بن موسى عن مكحول عن أبى أمامة قال سألت عبادة عن الأنفال فقال فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله الى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين عن بواء ، يقول عن سواء . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو معاوية بن عمرو أخبرنا أبو إسحق عن عبد الرحمن بن الحارث بن عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة عن سليمان بن موسى عن أبى سلامة عن أبى أمامة عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم الى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فنزلت (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أغار فى أرض العدو نفل الربع ، فإذا أقبل راجعا نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ، ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن الحارث به نحوه قال الترمذى هذا حديث صحيح ، ورواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى

مستدركه من حديث عبد الرحمن بن الحارث وقال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه وروى أبوداود والنسائي وابن جرير وابن مردويه واللفظ له، وابن حبان والحاكم من طرق عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا » فتسارع في ذلك شبان القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات ، فلما كانت المغانم جاءوا يطلبون الذي جعل لهم فقال الشيوخ لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءا لكم لوانكشفتم لفئتم الينا . فتنازعوا فأنزل الله تعالى (يسألونك عن الأنفال — إلى قوله — وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) ، وقال الثوري عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا » فجاء أبو اليسر بأسيرين فقال يارسول الله صلى الله عليك أنت وعدتنا فقام سعد بن عبادة فقال يارسول الله : إنك لو أعطيت هؤلاء لم يبق لأصحابك شيء وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الأجر ، ولا جبن عن العدو ، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك مخافة أن يأتوك من ورائك ، فتشاجروا ونزل القرآن (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) قال ونزل القرآن (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) الى آخر الآية وقال الإمام أبوعبيدالله القاسم بن سلام رحمه الله في كتاب الأموال الشرعية وبيان جهاتها ومصارفها : أما الأنفال فهي المغانم وكل نيل ناله المسلمون من أموال أهل الحرب ، فكانت الأنفال الأولى لرسول الله ﷺ يقول الله تعالى (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها على ماذكرناه في حديث سعد ثم نزلت بعد ذلك آية الخمس فنسخت الأولى ، قلت هكذا روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس سواء ، وبه قال مجاهد وعكرمة والسدي . وقال ابن زيد ليست منسوخة بل هي محكمة ، قال أبوعبيد وفي ذلك آثار ، والأنفال أصلها جماع الغنائم إلا أن الخمس منها مخصوص لأهله على ما نزل به الكتاب وجرت به السنة ، ومعنى الأنفال في كلام العرب كل إحسان فعله فاعل تفضلا من غير أن يجب ذلك عليه ، فذلك النفل الذي أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم وإنما هو شيء خصهم الله به تطولا منه عليهم بعد أن كانت الغنائم محرمة على الأمم قبلهم فنفلها الله تعالى هذه الأمة فهذا أصل النفل ، قلت شاهد هذا ما في الصحيحين عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي — فذكر الحديث إلى أن قال — وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي » وذكر تمام الحديث : ثم قال أبو عبيد ولهذا سمي ما جعل الإمام للمقاتلة نفلا وهو تفضيله بعض الجيش على بعض بشيء سوى سهامهم يفعل ذلك بهم على قدر الغناء عن الاسلام والنكاية في العدو ، وفي النفل الذي ينفله الإمام سنن أربع لكل واحدة منهن موضع غير موضع الأخرى (فإحداهن) في النفل لا خمس فيه وذلك السلب (والثانية) النفل الذي يكون من الغنيمة بعد إخراج الخمس وهو أن يوجه الإمام السرايا في أرض الحرب فتأتي بالغنائم فيكون للسرية مما جاءت به الربع أو الثلث بعد الخمس (والثالثة) في النفل من الخمس نفسه وهو أن تحاز الغنيمة كلها ثم تخمس فإذا صار الخمس في يدي الإمام نفل منه على قدر ما يرى (والرابعة) في النفل في جملة الغنيمة قبل أن يخمس منها شيء وهو أن يعطى الأدلاء ورعاة الماشية والسواق لها . وفي كل ذلك اختلاف

قال الربيع : قال الشافعي: الأنفال أن لا يخرج من رأس الغنيمة قبل الخمس شيء غير السلب . قال أبوعبيد والوجه الثاني من النفل هو شيء زيدوه غير الذي كان لهم وذلك من خمس النبي صلى الله عليه وسلم فإن له خمس الخمس من كل غنيمة فينبغي للامام أن يجتهد ، فإذا كثر العدو واشتدت شوكتهم وقل من بإزائه من المسلمين نفل منه اتباعا لسنة رسول الله ﷺ وإذا لم يكن ذلك لم ينفل (والوجه الثالث) من النفل إذا بعث الإمام سرية أو جيشا فقال لهم قبل اللقاء من غنم شيئا فهو له بعد الخمس فهو لهم على ما شرط الامام لأنهم على ذلك غزوا وبه رضوا انتهى كلامه ، وفيما تقدم من كلامه وهو قوله: إن غنائم بدر لم تخمس نظر ، ويرد عليه حديث علي بن أبي طالب في شارفيه اللذين حصلا له من الخمس يوم بدر وقد بينت ذلك في كتاب السيرة بيانا شافيا ولله الحمد والمنة . وقوله تعالى (فاتقوا

الله وأصلحوا ذات بينكم) أى اتقوا الله فى أموركم وأصلحوا فيما بينكم ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه (وأطيعوا الله ورسوله) أى فى قسمه بينكم على ما أراده الله ، فانه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والانصاف وقال ابن عباس هذا تحريج من الله ورسوله أن يتقوا ويصلحوا ذات بينهم وكذا قال مجاهد ، وقال السدى (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم) أى لا تستبوا . ولنذكر ههنا حديثاً أورده الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الوصلى رحمه الله فى مسنده فانه قال : حدثنا مجاهد بن موسى حدثنا عبدالله ابن بكير حدثنا عباد بن شيبة الحبطى عن سعيد بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما أضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ فقال « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة تبارك وتعالى فقال أحدهما : يا رب خذلى مظلمتى من أخى . قال الله تعالى أعط أخاك مظلمته قال : يا رب لم يبق من حسناتى شىء قال : رب فليحمل عنى من أوزارى » قال : ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال « إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى من يتحمل عنهم من أوزارهم ، فقال الله تعالى للطالب ارفع بصرك وانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ . لأى نبى هذا ؟ لأى صديق هذا ؟ لأى شهيد هذا ؟ قال هذا لمن أعطى ثمنه ؟ قال رب ومن يملك ثمنه ؟ قال أنت تملكه قال ماذا يا رب ؟ قال تعفو عن أخيك ، قال يا رب فانى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى خذ بيد أخيك فادخلا الجنة » ثم قال رسول الله ﷺ « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شىء من ذكر الله عند أداء فرائضه . ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ثم وصف الله المؤمنين فقال (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) يقول زادتهم تصديقاً (وعلى ربهم يتوكلون) يقول لا يرجون غيره وقال مجاهد (وجلت قلوبهم) فرقت أى فزعت وخافت وكذا قال السدى وغير واحد ،وهذه صفة المؤمن حق المؤمن الذى إذا ذكر الله وجل قلبه أى خاف منه ، ففعل أوامره ، وترك زواجره كقوله تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) وكقوله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فان الجنة هى المأوى) ولهذا قال سفيان الثورى سمعت السدى يقول فى قوله تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية فيقال له اتق الله فيجل قلبه وقال الثورى أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خيثم عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء فى قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) قال الوجل فى القلب كاحتراق السعفة أما تجد له قشعريرة ؟ قال بلى قالت إذا وجدت ذلك فادع الله عند ذلك فان الدعاء يذهب ذلك ، وقوله (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) كقوله (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وقد استدل البخارى وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها على زيادة الإيمان وتفاضله فى القلوب كما هو مذهب جمهور الأمة بل قد حكى الإجماع عليه غير واحد من الأئمة كالشافعى وأحمد بن حنبل وأبى عبيد كما بينا ذلك مستقصى فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة (وعلى ربهم يتوكلون)

أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وأنه المتصرف فى الملك ، وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ولهذا قال سعيد بن جبير التوكل على الله جماع الإيمان . وقوله (الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعد ما ذكر اعتقادهم وهذه الأعمال تشمل أنواع الخير كلها ، وهو إقامة الصلاة وهو حق الله تعالى وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها ، وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى ﷺ هـذا إقامتها ، والانفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب . والخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لخلقه . قال قتادة فى قوله (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما رزقكم الله فإنما هذه الأموال عوارى وودائع عندك يا ابن آدم أو شكت أن تفارقها

وقوله (أولئك هم المؤمنون حقا) أى المتصفون بهـذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمـان . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن عبدالله الحضرمى حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن يزيد السكسكى عن سعيد بن أبى هلال عن محمد بن أبى الجهم عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله ﷺ فقال له « كيف أصبحت يا حارث ؟» قال . أصبحت مؤمنا حقا قال « انظر ما تقول فان لـكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟» فقال عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها . فقال « يا حارث عرفت فالزم » ثلاثا وقال عمرو بن مرة فى قوله تعالى (أولئك هم المؤمنون حقا) إنما أنزل القرآن بلسان العرب كقولك فلان سيد حقا وفى القوم سادة . وفلان تاجر حقا وفى القوم تجار . وفلان شاعر حقا وفى القوم شعراء . وقوله (لهم درجات عنـد ربهم) أى منازل ومقامات ودرجات فى الجنات كما قال تعالى (هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) (ومغفرة) أى يغفر لهم السيئات ويشكر لهم الحسنات . وقال الضحاك فى قوله (لهم درجات عند ربهم) أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذى هو فوق فضله على الذى هو أسفل منه ، ولا يرى الذى هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد ، ولهذا جاء فى الصحيحين أن رسـول الله ﷺ قال « إن أهـل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الـكوكب الغابر فى أفق من آفاق السماء » قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا ينالها غيرهم فقال « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » وفى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث ابن أبى عطية عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ « إن أهـل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى كما تراءون الـكوكب الغابر فى أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر الطبرى اختلف المفسرون فى السبب الجالب لهذه الـكاف فى قوله (كما أخرجك ربك) فقال بعضهم شبه به فى الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم لله ورسوله ثم روى عن عكرمة نحو هذا ومعنى هذا أن الله تعالى يقول كما أنـكم لما اختلفتم فى المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ﷺ فقسمها على العدل والتسوية فـكان هـذا هو المصلحة التامة لـكم وكذلك لـما كرهتم الخروج إلى

الأعداء من قتال ذات الشوكة وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد رشدا وهدى ، ونصرا وفتحا ، كما قال تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون) قال ابن جرير وقال آخرون معنى ذلك (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم كارهون للقتال فهم يجادلونك فيه بعدما تبين لهم .. ثم روى عن مجاهد نحوه أنه قال (كما أخرجك ربك) قال كذلك يجادلونك في الحق وقال السدى أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) لطلب المشركين (يجادلونك في الحق بعد ماتبين) وقال بعضهم يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له . قلت رسول الله ﷺ إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبى سفيان التى بلغه خبرها أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش فاستنهض رسول الله ﷺ المسلمين من خف منهم فخرج فى ثلثمائة وبضعة عشر رجلا ، وطلب نحو الساحل من على طريق بدر ، وعلم أبوسفيان بخروج رسول الله ﷺ فى طلبه فبعث ضمضم بن عمرو نذيرا إلى أهل مكة فنهضوا فى قريب من ألف مقنع مابين التسعمائة إلى الألف وتيامن أبوسفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا وجاء النفير فوردوا ماء بدر وجمع الله بين المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين ونصرهم على عدوهم والتفرقة بين الحق والباطل كما سيأتى بيانه ، والغرض أن رسول الله ﷺ لما بلغه خروج النفير أوحى الله اليه بعده إحدى الطائفتين إما العير وإما النفير ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال كما قال تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) قال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى حدثنا بكر بن سهل حدثنا عبدالله بن يوسف حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصارى يقول : قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة « إنى أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة فهل لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها ؟ » فقلنا نعم فخرج وخرجنا فلما سرنا يوما أو يومين قال لنا « ماترون فى قتال القوم فإنهم قد أخبروا بخروجكم ؟ » فقلنا لا والله مالنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير ثم قال « ماترون فى قتال القوم ؟ » فقلنا مثل ذلك فقال المقداد بن عمرو إذا لانقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) قال فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد أحب الينا من أن يكون لنا مال عظيم ، قال فأنزل الله على رسوله ﷺ (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) وذكر تمام الحديث ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبى وقاص الليثى عن أبيه عن جده قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال « كيف ترون ؟ » فقال أبو بكر : يا رسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا ، قال : ثم خطب الناس فقال « كيف ترون ؟ » فقال عمر مثل قول أبى بكر ثم خطب الناس فقال « كيف ترون؟ » فقال سعد بن معاذ يارسول الله ايانا تريد ؟ فو الذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ماسلكتها قط ولا لى بها علم ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك ولا نكون كالذين قالوا لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله اليك غيره فانظر الذى أحدث الله اليك فامض له ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ماشئت ، فنزل القرآن على قول سعد (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) الآيات وقال العوفى عن ابن عباس لما شاور النبى صلى الله عليه وسلم فى لقاء العدو ، وقال له سعد بن عبادة ما قال وذلك يوم بدر أمر الناس أن يتهيئوا للقتال وأمرهم بالشوكة فكره ذلك أهل الإيمان فأنزل الله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون * يجادلونك فى الحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم

ينظرون) وقال مجاهد يجادلونك فى الحق : فى القتال ، وقال محمد بن إسحق (يجادلونك فى الحق) أى كراهية للقاء المشركين ، وإنكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم وقال السدى (يجادلونك فى الحق بعد ماتبين) أى بعدماتبين لهم أنك لاتفعل إلاما أمرك الله به . قال ابن جرير وقال آخرون عنى بذلك المشركين ، حدثنا يونس أنبأنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله تعالى (يجادلونك فى الحق بعد ماتبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) قال هؤلاء المشركون جادلوه فى الحق كأنما يساقون إلى الموت حين يدعون إلى الاسلام وهم ينظرون . قال وليس هذا من صفة الآخرين . هذه صفة مبتدأة لأهل الكفر . ثم قال ابن جرير ولا معنى لما قاله لأن الذى قبل قوله (يجادلونك فى الحق) خبر عن أهل الإيمان والذى يتلوه خبر عنهم . والصواب قول ابن عباس وابن إسحق أنه خبر عن المؤمنين وهذا الذى نصره ابن جرير هو الحق وهو الذى يدل عليه سياق الكلام والله أعلم . وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن بكير وعبد الرزاق قالا : حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر عليك بالعير ليس دونها شىء فناداه العباس بن عبد المطلب قال عبدالرزاق وهو أسير فى وثاقه إنه لايصلح لك : قال ولم ؟ قال لأن الله عز وجل إنما وعدك إحدى الطائفتين وقد أعطاك الله ما وعدك إسناد جيد ولم يخرجه[1] ومعنى قوله تعالى (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أى يحبون أن الطائفة التى لاحد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم وهى العير (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أى هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التى لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم وينصركم عليهم . ويظهر دينه ويرفع كلمة الاسلام ويجعله غالبا على الأديان وهو أعلم بعواقب الأمور وهو الذى يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم كقوله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم . وعسى أن تكرهوا شيئاً وهوخير لكم . وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وقال محمد بن إسحق رحمه الله حدثنى محمد بن مسلم الزهرى . وعاصم بن عمر بن قتادة وعبدالله بن أبى بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا عن عبد الله بن عباس كل قد حدثنى بعض هذا الحديث فاجتمع حديثهم فيما سقت من حديث بدر قالوا لما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا وكان أبوسفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز يتجسس الأخبار . ويسأل من لقى من الركبان تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك فحذر عند ذلك فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة وأمره أن يأتى قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه فخرج ضمضم ابن عمرو سريعاً إلى مكة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه حتى بلغ واديا يقال له ذفران فخرج منه حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن . ثم قام عمر رضى الله عنه فقال فأحسن . ثم قام المقداد بن عمرو فقال يارسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد يعنى مدينة الحبشة لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له بخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أشيروا على أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم كانوا عدد الناس وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يارسول الله : إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لاتكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قال له سعد

(١) فى نسخة الأزهر : ولم يخرجوه ، يعنى الشيخين وأصحاب السنن .

ابن معاذ والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال: «أجل» فقال فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أمرك الله فوالذي بعثك بالحق إن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما يتخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال «سيروا على بركة الله وأبشروا فان الله قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم» وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا وكذلك قال السدي وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف والخلف اختصرنا أقوالهما اكتفاء بسياق محمد بن إسحق

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قراد حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل حدثني ابن عباس حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره ، ثم قال «اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا» قال فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجزلك ما وعدك فأنزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعليا فقال أبو بكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا فقال رسول الله ﷺ «ما ترى يا ابن الخطاب ؟» قال: قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكني من فلان قريب لعمر فأضرب عنقه وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم . فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان فقلت: يارسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك فان وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . قال النبي ﷺ «للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة من النبي ﷺ وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض - إلى قوله - فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) فأحل لهم الغنائم . فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه فأنزل الله (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) بأخذكم الفداء ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه على بن المديني والترمذي وقالا لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني وهكذا روى على بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أن هذه الآية الكريمة قوله (إذ تستغيثون ربكم) في دعاء النبي ﷺ وكذا قال يزيد بن تبيع والسدي وابن جريج وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حصين عن أبي صالح قال: لما كان يوم بدر جعل النبي ﷺ يناشد ربه أشد المناشدة يدعو فأتاه عمر بن الخطاب

رضى الله عنه فقال يا رسول الله : بعض مناشدتك فوالله ليفين الله لك بما وعدك ، قال البخارى فى كتاب المغازى باب قول الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم - إلى قوله - فإن الله شديد العقاب) حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن مخارق عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود يقول شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به ، أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره يعنى قوله . حدثنى محمد بن عبد الله بن حوشب حدثنا عبد الوهاب حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبى ﷺ يوم بدر « اللهم أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ورواه النسائى عن بندار عن عبد الوهاب عن عبد المجيد الثقفى وقوله تعالى (بألف من الملائكة مردفين) أى يردف بعضهم بعضا كما قال هارون بن هبيرة عن ابن عباس (مردفين) متتابعين ويحتمل أن المراد (مردفين) لكم أى نجدة لكم كما قال العوفى عن ابن عباس (مردفين) يقول المدد كما تقول أنت للرجل زده كذا وكذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارىء وابن زيد (مردفين) ممدين ، وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس (يمددكم ربكم بألف من الملائكة مردفين) قال وراء كل ملك ملك . وفى رواية بهذا الإسناد (مردفين) قال بعضهم على أثر بعض وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى حدثنى عبد العزيز بن عمران عن الربعى عن أبى الحويرث عن محمد بن جبير عن على رضى الله عنه قال : نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ﷺ وفيها أبو بكر ، ونزل ميكائيل فى ألف من الملائكة عن ميسرة النبى ﷺ وأنا فى الميسرة . وهذا يقتضى إن صح إسناده أن الألف مردفة بمثلها ولهذا قرأ بعضهم (مردفين) بفتح الدال والله أعلم . والمشهور ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل فى خمسمائة من الملائكة مجنبة ، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة ، وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير ومسلم من حديث عكرمة بن عمار عن أبى زميل سماك ابن وليد الحنفى عن ابن عباس عن عمر الحديث المتقدم ثم قال أبو زميل : حدثنى ابن عباس قال : بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا قال فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين وقال البخارى : ﴿باب شهود الملائكة بدرا﴾ حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا جرير عن يحيى بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه وكان أبوه من أهل بدر قال جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها قال : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة . انفرد باخراجه البخارى وقد رواه الطبرانى فى المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج وهو خطأ ، والصواب رواية البخارى والله أعلم وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لعمر لما شاوره فى قتل حاطب بن أبى بلتعة « إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وقوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرى) الآية . أى وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى (ولتطمئن به قلوبكم) وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله أى بدون ذلك ولهذا قال (وما النصر إلا من عند الله) كما قال تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها * ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم) وقال تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا

ويمحق الكافرين) فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدى المؤمنين لأجلها وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التى تعم تلك الأمم المكذبة كما أهلك قوم نوح بالطوفان ، وعادا الأولى بالدبور ، وثمود بالصيحة ، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل ، وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله تعالى موسى وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق فى اليم ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم فى بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر) وقتل المؤمنين للكافرين أشد إهانة للكافرين ، وأشفى لصدور المؤمنين ، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين) ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدى أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان ، فقتل أبى جهل فى معركة القتال وحومة الوغى أشد إهانة له من موته على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك كما مات أبو لهب لعنه الله بالعدسة بحيث لم يقربه أحد من أقاربه ، وإنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد ، ورجموه حتى دفنوه ، ولهذا قال تعالى (إن الله عزيز) أى له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما فى الدنيا والآخرة كقوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (حكيم) فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانا أمنهم به من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) الآية ، قال أبو طلحة : كنت ممن أصابه النعاس يوم أحد ، ولقد سقط السيف من يدى مرارا يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه ولقد نظرت إليهم يميدون وهم تحت الحجف : وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا زهير حدثنا ابن مهدى عن شعبة عن أبى إسحق عن حارثة بن مضرب عن على رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح . وقال سفيان الثورى عن عاصم عن أبى رزين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : النعاس فى القتال أمنة من الله ، وفى الصلاة من الشيطان ، وقال قتادة : النعاس فى الرأس ، والنوم فى القلب ، قلت أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد وأمر ذلك مشهور جدا ، وأما الآية الشريفة إنما هى(1) فى سياق قصة بدر ، وهى دالة على وقوع ذلك أيضا وكأن ذلك كائن للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمته عليهم وكما قال تعالى (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضى الله عنه وهما يدعوان أخذت رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة من النوم ثم استيقظ متبسما فقال « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) وقوله (وينزل عليكم من السماء ماء) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : نزل النبى صلى الله عليه وسلم حين سار الى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد

(1) الوجه أن يقال فإنما هى إلى الخ وفى الأميرية وفى نسخة الأزهر ، وأما يوم بدر فهذه الآية الشريفة إنما هى فى سياق قصة بدر .

غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطرا شديدا فشرب المسلمون وتطهروا وأذهب الله عنهم رجس الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم ، وأمد الله نبيه ﷺ والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل في خمسمائة مجنبة ، وميكائيل في خمسمائة مجنبة . وكذا قال العوفي عن ابن عباس : إن المشركين من قريش لما خرجوا لينصروا العير وليقاتلوا عنها نزلوا على الماء يوم بدر فغلبوا المؤمنين عليه فأصاب المؤمنين الظمأ فجعلوا يصلون مجنبين محدثين حتى تعاطوا ذلك في صدورهم فأنزل الله من السماء ماء حتى سال الوادي فشرب المؤمنون وملؤا الأسقية وسقوا الركاب واغتسلوا من الجنابة فجعل الله في ذلك طهورا وثبت به الأقدام وذلك أنه كانت بينهم وبين القوم رملة فبعث الله المطر عليها فضربها حتى اشتدت وثبتت عليها الأقدام . ونحو ذلك روى عن قتادة والضحاك والسدى ، وقد روى عن سعيد بن المسيب والشعبي والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه طش أصابهم يوم بدر . والمعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر نزل على أدنى ماء هناك أي أول ماء وحده فتقدم اليه الحباب بن المنذر فقال يارسول الله هذا المنزل الذي نزلته منزل أنزلك الله إياه فليس لنا أن نجاوزه أو منزل نزلته للحرب والمكيدة ؟ فقال « بل منزل نزلته للحرب والمكيدة » فقال يارسول الله إن هذا ليس بمنزل ولكن سر بنا حتى ننزل على أدنى ماء يلي القوم ونغور ماوراءه من القلب ، ونستقي الحياض فيكون لنا ماء وليس لهم ماء فسار رسول الله ﷺ ففعل كذلك ، وفي مغازي الأموي أن الحباب لما قال ذلك نزل ملك من السماء وجبريل جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ذلك الملك ، يامحمد إن ربك يقرئك السلام ويقول لك إن الرأى ما أشار به الحباب بن المنذر فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل عليه السلام فقال « هل تعرف هذا ؟ » فنظر إليه فقال : ما كل الملائكة أعرفهم وإنه ملك وليس بشيطان . وأحسن مافي هذا ما رواه الإمام محمد ابن إسحق بن يسار صاحب المغازي رحمه الله حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : بعث الله السماء وكان الوادي دهسا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم من المسير وأصاب قريشا مالم يقدروا على أن يرحلوا معه وقال مجاهد : أنزل الله عليهم المطر قبل النعاس فأطفأ بالمطر الغبار وتلبدت به الأرض وطابت نفوسهم وثبتت به أقدامهم ، وقال ابن جرير : حدثنا هرون بن إسحق حدثنا مصعب بن المقدام حدثنا إسرائيل حدثنا أبو إسحق عن جارية عن على رضى الله قال : أصابنا من الليل طش من المطر يعني الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة بدر فانطلقنا تحت الشجرة والحجف نستظل تحتها من المطر وبات رسول الله ﷺ وحرض على القتال . وقوله (ليطهركم به) أي من حدث أصغر أو أكبر وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي من وسوسة أوخاطر سيء وهو تطهير الباطن كما قال تعالى في حق أهل الجنة (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة) فهذا زينة الظاهر (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) أي مطهرا لما كان من غل أوحسد أوتباغض وهو زينة الباطن وطهارته (وليربط على قلوبكم) أي بالصبر والاقدام على مجالدة الأعداء وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر والله أعلم

وقوله (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحي إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن إسحق : وازروهم ، وقال غيره : قاتلوا معهم وقيل كثروا سوادهم وقيل كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيقول سمعت هؤلاء القوم يعني المشركين يقولون والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه ، وقوله (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) أي ثبتوا أنتم المؤمنين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم وهي

أيديهم وأرجلهم وقد اختلف المفسرون فى معنى (فوق الأعناق) فقيل معناه اضربوا الرءوس قاله عكرمة وقيل معناه أى على الأعناق وهى الرقاب قاله الضحاك وعطية العوفى ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا فى قوله تعالى (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) وقال وكيع عن المسعودى عن القاسم قال : قال النبى ﷺ « إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله ، إنما بعثت لضرب الرقاب وشد الوثاق » واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام ، قلت وفى مغازى الأموى أن رسول الله ﷺ جعل يمر بين القتلى يوم بدر فيقول « يفلق هاما » فيقول أبو بكر (١) ... من رجال أعزة علينا * وهم كانوا أعق وأظلما

فيبتدئ رسول الله ﷺ بأول البيت ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه إنشاد آخره لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال تعالى (وما علمناه الشعر وما ينبغى له) وقال الربيع بن أنس : كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به ، وقوله (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن جرير معناه واضربوا من عدوكم أيها المؤمنون كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم ، والبنان جمع بنانة كما قال الشاعر : ألا ليتنى قطعت منى بنانة * ولاقيته فى البيت يقظان حاذرا

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (واضربوا منهم كل بنان) يعنى بالبنان الأطراف وكذا قال الضحاك وابن جرير وقال السدى البنان الأطراف ويقال كل مفصل وقال عكرمة وعطية العوفى والضحاك فى رواية أخرى كل مفصل وقال الأوزاعى فى قوله تعالى (واضربوا منهم كل بنان) قال اضرب منه الوجه والعين وارمه بشهاب من نار فإذا أخذته حرم ذلك كله عليك وقال العوفى عن ابن عباس فذكر قصة بدر إلى أن قال فقال أبو جهل لا تقتلوهم قتلا ولكن خذوهم أخذا حتى تعرفوهم الذى صنعوا من طعنهم فى دينكم ورغبتهم عن اللات والعزى فأوحى الله إلى الملائكة (أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) الآية . فقتل أبو جهل لعنه الله فى تسعة وستين رجلا ، وأسر عقبة بن أبى معيط فقتل صبرا فوفى ذلك سبعين يعنى قتيلا ولهذا قال تعالى (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) أى خالفوهما فساروا فى شق وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق ، ومأخوذ أيضا من شق العصا وهو جعلها فرقتين (ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) أى هو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه لا يفوته شىء ولا يقوم لغضبه شىء تبارك وتعالى لا إله غيره ولا رب سواه (ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار) هذا خطاب للكفار أى ذوقوا هذا العذاب والنكال فى الدنيا واعلموا أيضا أن للكافرين عذاب النار فى الآخرة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى متوعدا على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا) أى تقاربتم منهم ودنوتم إليهم (فلا تولوهم الأدبار) أى تفروا وتتركوا أصحابكم (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال) أى يفر بين يدى قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله فلا بأس عليه فى ذلك نص عليه سعيد بن جبير والسدى وقال الضحاك أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها (أو متحيزا إلى فئة) أى فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك حتى لو كان فى سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم دخل فى هذه الرخصة قال الإمام أحمد : حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال كنت فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا لو دخلنا المدينة

(١) أى يقول : متمما للبيت

ثم بتنا ثم قلنا لوعرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال « من القوم ؟ » فقلنا نحن الفرارون فقال « لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم وأنا فئة المسلمين » قال فأتيناه حتى قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من طرق عن يزيد بن أبى زياد ، وقال الترمذى حسن لانعرفه إلا من حديث ابن أبى زياد ورواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن أبى زيادبه ، وزاد فى آخره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (أو متحيزا إلى فئة) قال أهل العلم معنى قوله « العكارون » أى العرافون، وكذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أبى عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر لو تحيز إلى لكنت له فئة هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر ، وفى رواية أبى عثمان النهدى عن عمر قال لما قتل أبوعبيدة قال عمر أيها الناس أنا فئتكم ، وقال مجاهد قال عمر أنا فئة كل مسلم ، وقال عبد الملك بن عمير عن عمر أيها الناس لاتغرنكم هذه الآية فإنما كانت يوم بدر وأنا فئة لكل مسلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حسان بن عبد الله المصرى حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمى حدثنا نافع أنه سأل ابن عمر قلت إنا قوم لانثبت عند قتال عدونا ، ولا ندرى من الفئة امامنا أو عسكرنا فقال إن الفئة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن الله يقول (إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً) الآية ، فقال إنما أنزلت هذه الآية فى يوم بدر لاقبلها ولابعدها ، وقال الضحاك فى قوله (أو متحيزا إلى فئة) المتحيز الفار إلى النبى وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى أميره أوأصحابه فأما إن كان الفرار لاعن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام وكبيرة من الكبائر لما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يارسول الله وما هن ؟ قال « الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » وله شواهد من وجوه أخر ، ولهذا قال تعالى (فقد باء) أى رجع (بغضب من الله ومأواه) أى مصيره ومنقلبه يوم ميعاده (جهنم وبئس المصير) وقال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبدالله ابن عمر الرقى عن زيد بن أبى أنيسة حدثنا جبلة بن سحيم عن أبى المثنى العبدى سمعت السدوسى يعنى ابن الخصاصية وهو بشير بن معبد قال أتيت النبى ﷺ لأبايعه فاشترط على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدى الزكاة ، وأن أحج حجة الاسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد فى سبيل الله . فقلت يارسول الله أما اثنتان فوالله لا أطيقهما : الجهاد ، فإنهم زعموا أنه من ولى الدبر فقد باء بغضب من الله فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسى وكرهت الموت ، والصدقة فوالله مالى إلا غنيمة وعشر ذودهن رسل أهلى وحمولتهم ، فقبض رسول الله ﷺ يده ثم حرك يده ثم قال « فلا جهاد ولا صدقة فبم تدخل الجنة إذا ؟ » قلت يارسول الله أنا أبايعك فبايعته عليهن كلهن ، هذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه فى الكتب الستة . وقال الحافظ أبوالقاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة حدثنا إسحق بن إبراهيم أبوالنضر حدثنا يزيد ابن ربيعة حدثنا أبو الأشعث عن ثوبان مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة لاينفع معهن عمل : الشرك بالله وعقوق الوالدين والفرار من الزحف » وهذا أيضا حديث غريب جدا ، وقال الطبرانى أيضا حدثنا العباس ابن مقاتل الاسفاطى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حفص بن عمر السنى حدثنى عمرو بن مرة قال سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى رسول الله ﷺ قال سمعت أبى يحدث عن جدى قال : قال رسول الله ﷺ « من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو وأتوب اليه غفر له وإن كان قد فر من الزحف » وهكذا رواه أبوداود عن موسى بن إسماعيل به وأخرجه الترمذى عن البخارى عن موسى بن إسماعيل به وقال غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، قلت ولا يعرف لزيد مولى النبى ﷺ عنه سواه ، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة لأنه[1] كان فرض عين عليهم ، وقيل على الأنصار خاصة لأنهم بايعوا على السمع والطاعة فى المنشط والمكره . وقيل المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة يروى هذا عن عمر وابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد

(١) كذا والمراد لأن الجهاد .

وأبى نضرة ونافع مولى ابن عمر وسعيد بن جبير والحسن البصرى وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم ، وحجتهم فى هذا أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها إلا عصابتهم تلك كما قال النبى صلى الله عليه « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » ولهذا قال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن فى قوله (ومن يولهم يومئذ دبره) قال ذلك يوم بدر فأما اليوم فان انحاز إلى فئة أو مصر أحسبه قال فلا بأس عليه ، وقال ابن المبارك أيضا عن ابن لهيعة حدثنى يزيد بن أبى حبيب قال أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار قال (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله) فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ـ إلى قوله ـ ولقد عفا الله عنهم) ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين قال (ثم وليتم مدبرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) وفى سنن أبى داود والنسائى ومستدرك الحاكم وتفسير ابن جرير وابن مردويه من حديث داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد أنه قال فى هذه الآية (ومن يولهم يومئذ دبره) إنما أنزلت فى أهل بدر ، وهذا كله لا ينفى أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر؛ وإن كان سبب نزول الآية فيهم كما دل عليه حديث أبى هريرة المتقدم من أن الفرار من الزحف من الموبقات كما هو مذهب الجماهير والله أعلم .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير لأنه هو الذى وفقهم لذلك وأعانهم عليه ولهذا قال (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم) أى ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم . أى بل هو الذى أظفركم عليهم كما قال (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) الآية ، وقال تعالى (لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) يعلم تبارك وتعالى أن النصر ليس على كثرة العدد ولا بلبس اللأمة والعدد ، وإنما النصر من عنده تعالى كما قال تعالى (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) ثم قال تعالى لنبيه ﷺ أيضاً فى شأن القبضة من التراب التى حصب بها وجوه الكافرين يوم بدر حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها وقال « شاهت الوجوه » ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ولهذا قال تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) أى هو الذى بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رفع رسول الله ﷺ يديه يعنى يوم بدر فقال « يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبداً » فقال له جبريل خذ قبضة من التراب فارم بها فى وجوههم فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين ، وقال السدى قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه يوم بدر « أعطنى حصبا من الأرض » فناوله حصبا عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم وأنزل الله (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال أبو معشر المدنى عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظى قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب فرمى بها فى وجوه القوم وقال « شاهت الوجوه » فدخلت فى أعينهم كلهم وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم وكانت هزيمتهم فى رمية رسول الله ﷺ فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال هذا يوم بدر أخذ رسول الله ﷺ ثلاث حصبات فرمى بحصبات ميمنة القوم ، وحصبات فى ميسرة القوم وحصبات بين أظهرهم وقال « شاهت الوجوه » فانهزموا ، وقد روى فى هذه القصة عن عروة ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد من الأئمة أنها نزلت فى رمية النبى ﷺ يوم بدر وإن كان قد فعل ذلك يوم حنين

أيضاً ، وقال أبو جعفر بن جرير . حدثنا أحمد بن منصور حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا عبد العزيز بن عمران حدثنا موسى ابن يعقوب بن عبد الله بن ربيعة عن يزيد بن عبد الله عن أبي بكر بن سليمان بن أبي خيثمة عن حكيم بن حزام قال: لما كان يوم بدر سمعنا صوتا وقع من السماء كأنه صوت حصاة وقعت في طست ورمى رسول الله ﷺ تلك الرمية فانهزمنا غريب من هذا الوجه ، وههنا قولان آخران غريبان جداً (أحدهما) قال ابن جرير حدثني محمد بن عوف الطائي حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان بن عمرو حدثنا عبد الرحمن بن جبير أن رسول الله ﷺ يوم ابن أبي الحقيق بخيبر دعا بقوس فأتي بقوس طويلة وقال « جيئوني بقوس غيرها » فجاءوه بقوس كبداء فرمى النبي ﷺ الحصن فأقبل السهم يهوى حتى قتل ابن أبي الحقيق وهو في فراشه فأنزل الله عز وجل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وهذا غريب وإسناده جيد إلى عبد الرحمن بن جبير بن نفير ولعله اشتبه عليه أو أنه أراد أن الآية تعم هذا كله وإلا فسياق الآية في سورة الأنفال في قصة بدر لا محالة وهذا مما لا يخفى على أئمة العلم والله أعلم (والثاني) روى ابن جرير أيضاً والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب والزهري أنهما قالا : أنزلت في رمية النبي ﷺ يوم أحد أبي بن خلف بالحربة وهو في لأمته فخدشه في ترقوته فجعل يتدأدأ عن فرسه مراراً حتى كانت وفاته بعد أيام قاسى فيها العذاب الأليم موصولا بعذاب البرزخ المتصل بعذاب الآخرة ، وهذا القول عن هذين الإمامين غريب أيضاً جداً ولعلهما أرادا أن الآية تتناوله بعمومها لا أنها نزلت فيه خاصة كما تقدم والله أعلم . وقال محمد ابن إسحق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله (وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من إظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم وقلة عددهم ليعرفوا بذلك حقه ويشكروا بذلك نعمته وهكذا فسره ابن جرير أيضا ، وفي الحديث « وكل بلاء حسن أبلانا » وقوله (إن الله سميع عليم) أي سميع الدعاء عليم بمن يستحق النصر والغلب ، وقوله (ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين) هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل مصغر أمرهم وأنهم كل مالهم في تبار ودمار ولله الحمد والمنة

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى للكفار (إن تستفتحوا) أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم كما قال محمد بن إسحق وغيره عن الزهري عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا يعرف[1] فاحنه الغداة . وكان ذلك استفتاحا منه فنزلت (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) إلى آخر الآية ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد يعني ابن هارون أخبرنا محمد بن إسحق حدثني الزهري عن عبد الله بن ثعلبة أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة . فكان المستفتح ، وأخرجه النسائي في التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهري به ، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من طريق الزهري به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رومان وغير واحد ، وقال السدي كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين فقال الله (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم هو قوله تعالى إخبارا عنهم (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية ، وقوله (وإن تنتهوا) أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله (فهو خير لكم) أي في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى (وإن تعودوا نعد) كقوله (وإن عدتم عدنا) معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة . وقال السدي (وإن

(١) في نسخة الأزهر : بما لا نعرف بالنون

تعودوا) أى إلى الاستفتاح (نعد) أى إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه والأول أقوى (ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت) أى ولو جمعتم من الجموع ماعسى أن تجمعوا ، فان من كان الله معه فلا غالب له (وإن الله مع المؤمنين) وهم الحزب النبوى والجناب المصطفوى

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ولهذا قال (ولا تولوا عنه) أى تتركوا طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره (وأنتم تسمعون) أى بعد ماعلمتم مادعاكم إليه (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون) قيل المراد المشركون واختاره ابن جرير ، وقال ابن إسحق هم المنافقون فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك ، ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بنى آدم شر الخلق والخليقة فقال (إن شر الدواب عند الله الصم) أى عن سماع الحق (البكم) عن فهمه ولهذا قال (الذين لايعقلون) فهؤلاء شر البرية لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له وهؤلاء خلقوا للعبادة فكفروا ، ولهذا شبههم بالأنعام فى قوله (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء) الآية ، وقال فى الآية الأخرى (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقيل المراد بهؤلاء المذكورين نفر من بنى عبد الدار من قريش روى عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير . وقال محمد بن إسحق هم المنافقون ، قلت ولا منافاة بين المشركين والمنافقين فى هذا لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح والقصد إلى العمل الصالح ، ثم أخبر تعالى بأنهم لافهم لهم صحيح ولا قصد لهم صحيح لو فرض أن لهم فهما فقال (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم) أى لأفهمهم وتقدير الكلام (و) لكن لاخير فيهم فلم يفهمهم لأنه يعلم أنه (لو أسمعهم) أى أفهمهم (لتولوا) عن ذلك قصدا وعنادا بعد فهمهم ذلك (وهم معرضون) عنه

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال البخارى (استجيبوا) أجيبوا (لما يحييكم) لما يصلحكم . حدثنى إسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خبيب ابن عبد الرحمن قال : سمعت حفص بن عاصم يحدث عن أبى سعد بن المعلى رضى الله عنه قال كنت أصلى فمر بى النبى صلى الله عليه وسلم فدعانى فلم آته حتى صليت ثم أتيته فقال « مامنعك أن تأتينى ؟ ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) ـ ثم قال ـ لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . وقال معاذ : حدثنا شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن سمع حفص بن عاصم سمع أبا سعيد رجلا من أصحاب النبى ﷺ بهذا وقال (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثانى . هذا لفظه بحروفه وقد تقدم الكلام على هذا الحديث بذكر طرقه فى أول تفسير الفاتحة . وقال مجاهد فى قوله (لما يحييكم) قال للحق ، وقال قتادة (لما يحييكم) قال هو هذا القرآن فيه النجاة والبقاء والحياة وقال السدى (لما يحييكم) ففى الاسلام احياؤهم بعد موتهم بالكفر ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) أى للحرب التى أعزكم الله تعالى بها بعد الذل وقواكم بها بعد الضعف ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم . وقوله تعالى (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) قال ابن عباس يحول بين المؤمن وبين الكفر

وبين الكافر وبين الإيمان ، رواه الحاكم فى مستدركه موقوفا ، وقال صحيح ولم يخرجاه ، ورواه ابن مردويه من وجه آخر مرفوعا ، ولا يصح لضعف إسناده والموقوف أصح ، وكذا قال مجاهد وسعيد وعكرمة والضحاك وأبو صالح وعطية ومقاتل بن حيان والسدى ، وفى رواية عن مجاهد فى قوله (يحول بين المرء وقلبه) أى حتى يتركه لا يعقل ، وقال السدى يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه . وقال قتادة هو كقوله (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قال فقلنا يارسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال « نعم إن القلوب بين اصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها » وهكذا رواه الترمذى فى كتاب القدر من جامعه عن هناد بن السرى عن أبى معاوية محمد بن حازم الضرير عن الأعمش واسمه سليمان بن مهران عن أبى سفيان واسمه طلحة بن نافع عن أنس ثم قال حسن . وهكذا روى عن غير واحد عن الأعمش ، ورواه بعضهم عنه عن أبى سفيان عن جابر عن النبى ﷺ وحديث أبى سفيان عن أنس أصح . (حديث آخر) قال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا شعبة عن الحكم عن ابن أبى ليلى عن بلال رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يدعو « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » هذا حديث جيد الاسناد إلا أن فيه انقطاعا . وهو مع ذلك على شرط أهل السنن ولم يخرجوه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم قال : سمعت ابن جابر يقول : حدثنى بشر بن عبيد الله الحضرمى أنه سمع أبا إدريس الخولانى يقول سمعت النواس بن سمعان الكلابى رضى الله عنه يقول سمعت النبى ﷺ يقول « مامن قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » وكان يقول « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قال « والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه » وهكذا رواه النسائى وابن ماجه من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن جابر فذكر مثله (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا حماد بن زيد عن المعلى بن زياد عن الحسن أن عائشة قالت : دعوات كان رسول الله ﷺ يدعوبها « يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت: فقلت يارسول الله إنك تكثر أن تدعو بهذا الدعاء فقال « إن قلب الآدمى بين أصبعين من أصابع الله فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا عبد الحميد حدثنى شهر سمعت أم سلمة تحدث أن رسول الله ﷺ كان يكثر فى دعائه يقول « اللهم مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » قالت فقلت يارسول الله أو إن القلوب لتقلب ؟ قال « نعم ماخلق الله من بشر من بنى آدم إلا أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب » قالت فقلت يارسول الله ألا تعلمنى دعوة أدعو بها لنفسى ؟ قال « بلى قولى اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن ما أحييتنى » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا حيوة أخبرنى أبو هانىء أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلى أنه سمع عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « إن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء » ثم قال رسول الله ﷺ « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك » انفرد بإخراجه مسلم عن البخارى فرواه مع النسائى من حديث حيوة بن شريح المصرى به .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة أى اختبارا ومحنة يعم بها المسىء وغيره لا يخص بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا شداد بن سعيد حدثنا غيلان ابن جرير عن مطرف قال : قلنا للزبير يا أبا عبد الله ماجاء بكم ؟ ضيعتم الخليفة الذى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه ؟

فقال الزبير رضى الله عنه : إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت ، وقد رواه البزار من حديث مطرف عن الزبير وقال: لا نعرف مطرفا روى عن الزبير غير هذا الحديث ، وقد روى النسائى من حديث جرير بن حازم عن الحسن عن الزبير نحو هذا ، وقد روى ابن جرير حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال الزبير لقد خوفنا يعنى قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ونحن مع رسول الله ﷺ وما ظننا أنا خصصنا بها خاصة وكذا رواه حميد عن الحسن عن الزبير رضى الله عنه وقال داود بن أبى هند عن الحسن فى هذه الآية قال نزلت فى على وعمار وطلحة والزبير رضى الله عنهم ، وقال سفيان الثورى عن الصلت بن دينار عن عقبة بن صهبان سمعت الزبير يقول . لقد قرأت هذه الآية زمانا وما أرانا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) وقد روى من غير وجه عن الزبير بن العوام ، وقال السدى : نزلت فى أهل بدر خاصة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) يعنى أصحاب النبى ﷺ خاصة . وقال فى رواية له عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب ، وهذا تفسير حسن جداً ، ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) هى أيضاً لكم ، وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبى حبيب ، وغير واحد ، وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة إن الله تعالى يقول (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن رواه ابن جرير ، والقول بأن هذا التحذير يعم الصحابة وغيرهم وإن كان الخطاب معهم هو الصحيح ، ويدل عليه الأحاديث الواردة فى التحذير من الفتن ، ولذلك كتاب مستقل يوضح فيه إن شاء الله تعالى كما فعله الأئمة وأفردوه بالتصنيف ، ومن أخص ما يذكر ههنا ما رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا أحمد بن الحجاج أخبرنا عبد الله يعنى ابن المبارك ، أنبأنا سيف بن أبى سليمان سمعت عدى بن عدى الكندى يقول ، حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى يعنى عدى بن عميرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله عز وجل لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه ، فإذ فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » فيه رجل متهم ولم يخرجوه فى الكتب الستة ولا واحد منهم والله أعلم (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا سليمان الهاشمى حدثنا إسماعيل يعنى ابن جعفر أخبرنى عمرو بن أبى عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهل عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » ورواه عن أبى سعيد عن إسماعيل بن جعفر وقال «أو ليبعثن الله عليكم قوما ثم تدعونه فلا يستجيب لكم». وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير قال حدثنا زر بن حبيب الجهنى حدثنى أبو الرقاد قال : خرجت مع مولاى فدفعت إلى حذيفة وهو يقول : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقا ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى المقعد الواحد أربع مرات ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتحاضن على الخير أو ليسحتكم الله جميعا بعذاب أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم (حديث آخر) قال الإمام أحمد أيضا . حدثنا يحيى بن سعيد عن زكريا حدثنا عامر رضى الله عنه قال : سمعت النعمان بن بشير رضى الله عنه يخطب يقول ـ وأومأ بأصبعيه إلى أذنه يقول : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمدهن فيها كمثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم أسفلها وأوعرها وشرها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا لو خرقنا فى نصيبنا خرقا فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا : فإن تركوهم وأمرهم هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعا . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم فرواه فى الشركة والشهادات ، والترمذى فى الفتن من غير وجه عن سليمان بن مهران الأعمش عن عامر بن شراحيل الشعبى به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن

علقمة بن مرثد عن المعرور بن سويد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده » فقلت يا رسول الله أما فيهم أناس صالحون قال « بلى » قالت فكيف يصنع أولئك ؟ قال « يصيبهم ما أصاب الناس ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان » .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حجاج بن محمد حدثنا شريك عن أبي إسحق عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب » ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي الأحوص عن أبي إسحق به : وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت أبا إسحق يحدث عن عبيد الله بن جرير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز وأكثر ممن يعملون ثم لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب) ثم رواه أيضاً عن وكيع عن إسرائيل ، وعن عبد الرزاق عن معمر وعن أسود عن شريك ويونس كلهم عن أبي إسحق السبيعي به وأخرجه ابن ماجه عن علي بن محمد عن وكيع به وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثنا جامع بن أبي راشد عن منذر عن الحسن بن محمد عن امرأته عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ « إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه » فقلت وفيهم أهل طاعة الله ؟ قال « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم ، حيث كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم ، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات واستشكرهم فأطاعوه وامتثلوا جميع ما أمرهم . وهذا كان حال المؤمنين حال مقامهم بمكة قليلين مستخفين مضطهدين يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله من مشرك ومجوسي ورومي كلهم أعداء لهم لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله لهم في الهجرة إلى المدينة فآواهم إليها وقيض لهم أهلها آووا ونصروا يوم بدر وغيره وواسوا بأموالهم وبذلوا مهجهم في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله تعالى (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض) قال كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلا ، وأشقاه عيشا . وأجوعه بطونا ، وأعراه جلودا وأبينه ضلالا ، من عاش منهم عاش شقيا ومن مات منهم ردى في النار يؤكلون ولا يأكلون والله مانعلم قبيلا من حاضر أهل الأرض يومئذ كانوا أشر منزلا منهم حتى جاء الله بالإسلام فمكن به في البلاد ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكا على رقاب الناس وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه فان ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

قال عبد الرزاق بن أبي قتادة والزهري أنزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستشاروه في ذلك فأشار عليهم بذلك وأشار بيده إلى حلقه أي إنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقا حتى يموت أو يتوب الله عليه وانطلق إلى مسجد المدينة فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشيا عليه من الجهد حتى أنزل الله توبته على رسوله فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فحله، فقال يا رسول الله : إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال (يجزيك

الثلث أن تصدق به » . وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا يونس بن الحارث الطائفي حدثنا محمد بن عبد الله بن عون الثقفي عن المغيرة بن شعبة قال نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه (يا أيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول) الآية

وقال ابن جرير أيضا حدثنا القاسم بن بشر بن معروف حدثنا شبابة بن سوار حدثنا محمد بن المحرم قال لقيت عطاء ابن أبي رباح فحدثني قال حدثني جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة فأتى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا ، فقال رسول الله ﷺ « إن أبا سفيان في موضع كذا وكذا فاخرجوا اليه واكتموا » فكتب رجل من المنافقين اليه إن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله عز وجل (لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم) الآية ، هذا حديث غريب جدا وفي سنده وسياقه نظر وفي الصحيحين قصة حاطب ابن أبي بلتعة أنه كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك فبعث في إثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطبا فأقر بما صنع ، وفيها فقام عمر بن الخطاب فقال يارسول الله : ألا أضرب عنقه فإنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ؟ فقال « دعه فإنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » قلت والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص فالأخذ بعموم اللفظ لابخصوص السبب عند الجماهير من العلماء . والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وتخونوا أماناتكم) الأمانة الأعمال التي ائتمن الله عليها العباد يعني الفريضة يقول لاتخونوا لاتنقضوها وقال في رواية لاتخونوا الله والرسول يقول بترك سنته وارتكاب معصيته وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في هذه الآية أي لاتظهروا له من الحق مايرضى به منكم ثم تخالفوه في السر إلى غيره فإن ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم . وقال السدي : إذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتهم . وقال أيضا كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين ، وقال عبد الرحمن بن زيد نهاكم أن تخونوا الله والرسول كما صنع المنافقون ، وقوله (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها أو تشتغلون بها عنه وتعتاضون بها منه كما قال تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) وقال (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) الآية ، وقوله (وأن الله عنده أجر عظيم) أي ثوابه وعطاؤه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد فإنه قد يوجد منهم عدو ، وأكثرهم لايغني عنك شيئا ، والله سبحانه هو المتصرف المالك للدنيا والآخرة ولديه الثواب الجزيل يوم القيامة . وفي الأثر يقول الله تعالى : يا ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء ، وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لايحبه إلا لله ، ومن كان أن يلقى في النار أحب اليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه » بل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدم على الأولاد والأموال والنفوس كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال « والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

قال ابن عباس والسدي ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد (فرقانا) مخرجا ، زاد مجاهد في الدنيا والآخرة ، وفي رواية عن ابن عباس (فرقانا) نجاة ، وفي رواية عنه نصرا وقال محمد بن إسحق (فرقانا) أي

فصلا بين الحق والباطل وهذا التفسير من ابن إسحق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله فان من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها سترها عن الناس وسببا لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم)

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة (ليثبتوك) ليقيدوك ، وقال عطاء وابن زيد . ليحبسوك ، وقال السدى الاثبات هو الحبس والوثاق وهذا يشمل ماقاله هؤلاء وهؤلاء وهو مجمع الأقوال وهو الغالب من صنيع من أراد غيره بسوء ، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج قال عطاء سمعت عبيد بن عمير يقول : لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه . قال له عمه أبوطالب هل تدرى ما ائتمروا بك ؟ قال « يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى » فقال من أخبرك بهذا ؟ قال « ربى » قال نعم الرب ربك استوص به خيرا . قال « أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى محمد بن إسماعيل المصرى المعروف بالوساوسى أخبرنا عبد الحميد بن أبى داود عن ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن المطلب بن أبى وداعة أن أباطالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مايأتمر بك قومك ؟ قال « يريدون أن يسجنونى أويقتلونى أويخرجونى » فقال من أخبرك بهذا قال « ربى » قال نعم الرب ربك فاستوص به خيرا . قال « أنا أستوصى به بل هو يستوصى بى » قال فنزلت (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) الآية وذكر أبى طالب فى هذا غريب جدا بل منكر لأن هذه الآية مدنية ، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الاثبات أو النفى أو القتل إنما كان ليلة الهجرة سواء وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترءوا عليه بسبب موت عمه أبى طالب الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه والدليل على صحة ماقلنا ماروى الإمام محمد بن إسحق بن يسار صاحب المغازى عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : وحدثنى الكلبى عن باذان مولى أم هانىء عن ابن عباس أن نفرا من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له من أنت ؟ قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى : قالوا أجل ادخل فدخل معهم فقال انظروا فى شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره . فقال قائل منهم احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم . قال فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال والله ماهذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم . قالوا صدق الشيخ فانظروا فى غير هذا . قال قائل منهم أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم وكان أمره فى غيركم . فقال الشيخ النجدى والله ماهذا لكم برأى ألم تروا حلاوة قوله . وطلاقة لسانه . وأخذ القلوب ماتسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليأتين اليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم . قالوا صدق والله فانظروا رأيا غير هذا . قال: فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لاأرى غيره ، قالوا وماهو ؟ قال تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربونه ضربة رجل واحد فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها . فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه. قال: فقال الشيخ النجدى هذا والله الرأى القول ماقال الفتى لا أرى غيره . قال فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له . فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره أن لايبيت فى مضجعه

الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وأنزل فى قولهم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة للذى اجتمعوا عليه من الرأى ، وعن السدى نحو هذا السياق وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا) وكذا روى العوفى عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك ، وقال يونس بن بكير عن ابن إسحق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه ويتسجى ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رءوسهم وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ وهو يقرأ (يس والقرآن الحكيم — إلى قوله — فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وقال الحافظ أبو بكر البيهقى : روى عن عكرمة ما يؤكد هذا ، وقد روى ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبت ومالى لا أبكى وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك فقال « يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا هاهو ذا فطأطأوا رءوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا ، ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ولا أعرف له علة . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى عثمان الجريرى عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس فى قوله (وإذ يمكر بك) الآية قال تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدرى فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير فى قوله (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) أى فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَإِذْ قَالُوا ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم أنهم يقولون (قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا) وهذا منهم قول بلا فعل وإلا فقد تحدوا غير ما مرة أن يأتوا بسورة من مثله

فلا يجدون إلا ذلك سبيلا وإنما هذا القول منهم يغرون به أنفسهم ومن تبعهم على باطلهم ، وقد قيل إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدى وابن جريج وغيرهم فانه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار ، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلوا على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصا أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع فى الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبرا بين يديه ففعل ذلك ولله الحمد ، وكان الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير قال قتل النبى ﷺ يوم بدر صبرا عقبة بن أبى معيط وطعيمة بن عدى والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول فى كتاب الله عز وجل ما يقول فأمر رسول الله ﷺ بقتله فقال المقداد يا رسول الله أسيرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أغن المقداد من فضلك » فقال المقداد هذا الذى أردت قال وفيه أنزلت هذه الآية (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) وكذا رواه هشيم عن أبى بشر جعفر بن أبى دحية عن سعيد بن جبير أنه قال المطعم بن عدى بدل طعيمة وهو غلط لأن المطعم بن عدى لم يكن حيا يوم بدر ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ لو كان المطعم بن عدى حيا ثم سألنى فى هؤلاء النتنى لوهبتهم له يعنى الأسارى لأنه كان قد أجار رسول الله ﷺ يوم رجع من الطائف ، ومعنى (أساطير الأولين) وهو جمع أسطورة أى كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس وهذا هو الكذب البحت كما أخبر الله عنهم فى الآية الأخرى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) أى لمن تاب إليه وأناب فانه يتقبل منه ويصفح عنه ، وقوله (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) هذا من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيبوا به وكان الأولى لهم أن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لاتباعه ولكن استفتحوا على أنفسهم واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وقوله (سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج) وكذلك قال الجهلة من الأمم السالفة كما قال قوم شعيب له (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) وقال هؤلاء (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) قال شعبة عن عبد الحميد صاحب الزيادى عن أنس بن مالك قال هو أبو جهل بن هشام قال (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فنزلت (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) رواه البخارى عن أحمد ومحمد بن النضر كلاهما عن عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن شعبة به وأحمد هذا هو أحمد ابن النضر بن عبد الوهاب قاله الحاكم أبو أحمد والحاكم أبو عبد الله النيسابورى والله أعلم وقال الأعمش عن رجل عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس فى قوله (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) قال هو النضر بن الحارث بن كلدة قال : فأنزل الله (سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع) وكذا قال مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والسدى إنه النضر بن الحارث زاد عطاء فقال الله تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) وقال (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) وقال (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين) قال عطاء ولقد أنزل الله فيه بضع عشرة آية من كتاب الله عز وجل وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا الحسن ابن أحمد بن الليث حدثنا أبو غسان حدثنا أبو تميلة حدثنا الحسين عن ابن بريدة عن أبيه قال : رأيت عمرو بن العاص واقفا يوم أحد على فرس وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فاخسف بى وبفرسى. وقال قتادة فى قوله (وإذا قالوا

اللهم إن كان هذا هوالحق من عندك) الآية قال : قال ذلك سفهة هذه الأمة وجهلتها فعاد الله بعائدته ورحمته على سفهة هذه الأمة وجهلتها وقوله تعالى (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة موسى بن مسعود حدثنا عكرمة بن عمار عن أبي زميل سماك الحنفي عن ابن عباس قال كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك . فيقول النبي ﷺ « قد قد » ويقولون : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية قال ابن عباس كان فيهم أمانان النبي صلى الله عليه وسلم والاستغفار فذهب النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الاستغفار . وقال ابن جرير حدثني الحارث حدثني عبد العزيز حدثنا أبو معشر عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض محمد أكرمه الله من بيننا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا غفرانك اللهم . فأنزل الله (وما كان الله معذبهم — إلى قوله — ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) يقول ما كان الله ليعذب قوما وأنبياؤهم بين أظهرهم حتى يخرجهم ثم قال (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يقول وفيهم من قد سبق له من الله الدخول في الإيمان وهو الاستغفار يستغفرون يعني يصلون يعني بهذا أهل مكة وروى عن مجاهد وعكرمة وعطية العوفي وسعيد بن جبير والسدي نحو ذلك وقال الضحاك وأبو مالك (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) يعني المؤمنين الذين كانوا بمكة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الغفار بن داود حدثنا النضر بن عدي قال : قال ابن عباس إن الله جعل في هذه الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ماداما بين أظهرهم فأمان قبضه الله اليه وأمان بقي فيكم قوله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وقال أبو صالح عبد الغفار حدثني بعض أصحابنا أن النضر بن عدي حدثه هذا الحديث عن مجاهد عن ابن عباس . وروى ابن مردويه وابن جرير عن أبي موسى الأشعري نحوا من هذا وكذا روى عن قتادة وأبي العلاء النحوي المقرئ . وقال الترمذي حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا ابن نمير عن إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن عباد بن يوسف عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « أنزل الله علي أمانين لأمتي (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة » ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال « إن الشيطان قال وعزتك يارب لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال الرب وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه، وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا راشد هو ابن سعد حدثني معاوية بن سعد التجيبي عمن حدثه عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ أنه قال « العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله عز وجل »

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام الرسول ﷺ بين أظهرهم ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر فقتل صناديدهم وأسر سراتهم وأرشدهم تعالى إلى الاستغفار من الذنوب التي هم متلبسون بها من الشرك والفساد . وقال قتادة والسدي وغيرهما لم يكن القوم يستغفرون ولو كانوا يستغفرون ما عذبوا . واختاره ابن جرير فلولا ما كان بين أظهرهم من المستضعفين من المؤمنين المستغفرين لوقع بهم البأس الذي لا يرد ولكن دفع عنهم بسبب أولئك كما قال تعالى في يوم الحديبية (الذين كفروا وصدوكم عن

المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً) . قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر بن أبى المغيرة عن ابن أبزى قال كان النبى ﷺ بمكة فأنزل الله (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) قال فخرج النبى ﷺ إلى المدينة فأنزل الله (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) قال وكان أولئك البقية من المسلمين الذين بقوا فيها مستضعفين يعنى بمكة (يستغفرون) فلما خرجوا أنزل الله (وما لهم أن لايعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه) قال فأذن الله فى فتح مكة فهو العذاب الذى وعدهم . وروى عن ابن عباس وأبى مالك والضحاك وغيرواحد نحو هذا ، وقد قيل إن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) على أن يكون المراد صدور الاستغفار منهم أنفسهم قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد النحوى عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال فى الأنفال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فنسختها الآية التى تليها (وما لهم ألا يعذبهم الله — إلى قوله — فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) فقاتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والضر ، وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى تميلة يحيى بن واضح . وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس (وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) ثم استثنى أهل الشرك فقال (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام) وقوله (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لايعلمون) أى وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام أى الذى بمكة يصدون المؤمنين الذين هم أهله عن الصلاة فيه والطواف به ، ولهذا قال (وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون) أى هم ليسوا أهل المسجد الحرام وإنما أهله النبى ﷺ وأصحابه كما قال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) الآية . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية : حدثنا سليمان بن أحمد هو الطبرانى حدثنا جعفر بن الياس بن صدقة المصرى حدثنا نعيم بن حماد حدثنا نوح بن أبى مريم عن يحيى بن سعيد الأنصارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ من أولياؤك ؟ قال « كل تقى » وتلا رسول الله ﷺ (إن أولياؤه إلا المتقون) . وقال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبوبكر الشافعى حدثنا إسحق بن الحسن حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن عبد الله بن خيثم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده قال : جمع رسول الله ﷺ قريشا فقال « هل فيكم من غيركم ؟ » فقالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال « حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائى منكم المتقون » ثم قال هذا صحيح ولم يخرجاه وقال عروة والسدى ومحمد بن إسحق فى قوله تعالى (إن أولياؤه إلا المتقون) قال هم محمد ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم . وقال مجاهد هم المجاهدون من كانوا وحيث كانوا ، ثم ذكر تعالى ما كانوا يعتمدونه عند المسجد الحرام وما كانوا يعاملونه به فقال (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال عبد الله بن عمرو وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو رجاء العطاردى ومحمد بن كعب القرظى وحجر بن عنبس ونبيط بن شريط وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم : هو الصفير وزاد مجاهد وكانوا يدخلون أصابعهم فى أفواههم وقال السدى المكاء الصفير على نحو طير أبيض يقال له المكاء ويكون بأرض الحجاز (وتصدية) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبوخلاد سليمان بن خلاد حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا يعقوب يعنى ابن عبدالله الأشعرى حدثنا جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال كانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق ، والمكاء الصفير

والتصدية التصفيق ، وهكذا روى على بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ، وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد ومحمد بن كعب وأبي سلمة بن عبد الرحمن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وحجر بن عنبس وابن أبزى نحو هذا ، وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عامر حدثنا قرة عن عطية عن ابن عمر في قوله (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) قال المكاء الصفير والتصدية التصفيق قال قرة وحكى لنا عطية فعل ابن عمر فصفر ابن عمر وأمال خده وصفق بيديه ، وعن ابن عمر أيضاً أنه قال إنهم كانوا يضعون خدودهم على الأرض ويصفقون ويصفرون رواه ابن أبي حاتم في تفسيره بسنده عنه . وقال عكرمة كانوا يطوفون بالبيت على الشمال قال مجاهد وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته ، وقال الزهري يستهزئون بالمؤمنين ، وعن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد (وتصدية) قال صدهم الناس عن سبيل الله عز وجل . قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) قال الضحاك وابن جريج ومحمد ابن إسحق هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والسبي ، واختاره ابن جرير ولم يحك غيره ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال عذاب أهل الاقرار بالسيف وعذاب أهل التكذيب بالصيحة والزلزلة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ * لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو ابن سعيد بن معاذ قالوا لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان ابن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ففعلوا قال ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم - إلى قوله - هم الخاسرون) وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم ابن عيينة وقتادة والسدى وابن أبزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ ، وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصا فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق والله متم نوره ولو كره الكافرون وناصر دينه ومعلن كلمته ومظهر دينه على كل دين فهذا الخزى لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فالى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى ، ولهذا قال (فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون) وقوله تعالى (ليميز الله الخبيث من الطيب) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (ليميز الله الخبيث من الطيب) فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، وقال السدى يميز المؤمن من الكافر ، وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله (ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم) الآية وقوله (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) وقال في الآية الأخرى (يومئذ يصدعون) وقال تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله أي إنما أقدرناهم على ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب) أي من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك كقوله (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله

وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) الآية وقال تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب) الآية وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) ونظيرتها فى براءة أيضا فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه) أى يجمعه كله وهو جمع الشىء بعضه على بعض كما قال تعالى فى السحاب (ثم يجعله ركاما) أى متراكما متراكبا (فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون) أى هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (قل للذين كفروا إن ينتهوا) أى عما هم فيه من الكفر والمشاقة والعناد ويدخلوا فى الإسلام والطاعة والانابة يغفر لهم ما قد سلف أى من كفرهم ، وذنوبهم وخطاياهم كما جاء فى الصحيح من حديث أبى وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » وفى الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها » وقوله (وإن يعودوا) أى يستمروا على ما هم فيه (فقد مضت سنة الأولين) أى فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم إنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة . قال مجاهد فى قوله (فقد مضت سنة الأولين) أى فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم ، وقال السدى ومحمد بن إسحق أى يوم بدر وقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال البخارى حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه (وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا) الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى أعير بهذا الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله عز وجل (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) إلى آخر الآية قال : فان الله تعالى يقول (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلا وكان الرجل يفتن فى دينه إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال فما قولكم فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر أما قولى فى على وعثمان أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون ، وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا بيان أن ابن وبرة حدثه قال حدثنى سعيد بن جبير قال : خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضى الله عنهما فقال كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس بقتالكم على الملك . هذا كله سياق البخارى رحمه الله تعالى وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : ان الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال يمنعنى أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا أو لم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله . وكذا روى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أيوب

ابن عبد الله اللخمى قال كنت عند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فأتاه رجل فقال إن الله يقول (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) قال قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله . وكذا رواه حماد بن سلمة فقال ابن عمر قاتلت أناوأصحابى حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ولم تكن فتنة ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله رواهما ابن مردويه . وقال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : قال ذوالبطين يعنى أسامة بن زيد لاأقاتل رجلا يقول لاإله إلاالله أبدا . فقال سعد بن مالك وأنا والله لاأقاتل رجلا يقول لاإله إلاالله أبدا فقال رجل ألم يقل الله (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟) فقالا قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله . رواه ابن مردويه ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة) يعنى لا يكون شرك ، وكذا قال أبوالعالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ابن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم ، وقال محمد بن إسحق بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا حتى لاتكون فتنة حتى لايفتن مسلم عن دينه . وقوله (ويكون الدين كله لله) قال الضحاك عن ابن عباس فى هذه الآية قال يخلص التوحيد لله ، وقال الحسن وقتادة وابن جريج (ويكون الدين كله لله) أن يقال لاإله إلاالله وقال محمد بن إسحق ويكون التوحد خالصا لله ليس فيه شرك ويخلع مادونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (ويكون الدين كله لله) لا يكون مع دينكم كفر ويشهد لهذا ماثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » وفيهما عن أبى موسى الأشعرى قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله عزوجل ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عزوجل » .

وقوله (فإن انتهوا) أى بقتالكم عماهم فيه من الكفر فكفوا عنه وإن لم تعلموا بواطنهم (فإن الله بما يعملون بصير) كقوله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) الآية وفى الآية الأخرى (فإخوانكم فى الدين) وقال (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلاعدوان إلا على الظالمين) وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لاإله إلا الله فضربه فقتله فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة « أقتلته بعد ماقال لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلاإله إلا الله يوم القيامة ؟ » فقال يارسول الله إنما قالها تعوذا قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه « من لك بلاإله إلا الله يوم القيامة ؟ » قال أسامة حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلايومئذ وقوله (وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير) أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم فاعلموا أن الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم فنعم المولى ونعم النصير . وقال محمد جرير حدثنى عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا أبان العطار حدثنا هشام بن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب اليه يسأله عن أشياء فكتب اليه عروة : سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لاإله إلاهو . أما بعد فإنك كتبت إلى تسألنى عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة فنعم النبى ونعم السيد ونعم العشيرة فجزاه الله خيرا وعرفنا وجهه فى الجنة وأحيانا على ملته وأماتنا وبعثنا عليها وأنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول مادعاهم اليه وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس واشتدوا عليه وكرهوا ماقال وأغروا به من أطاعهم فانعطف عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم وهم قليل فمكث بذلك ماقدر الله أن يمكث ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم فكانت فتنة شديدة الزلزال فافتتن من افتتن وعصم الله ماشاء منهم فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وكان بالحبشة ملك

صالح يقال له النجاشي لايظلم أحد بأرضه وكان يثنى عليه مع ذلك وكانت أرض الحبشة متجرا لقريش يتجرون فيها وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها رفاغا من الرزق وأمنا ومتجرا حسنا فأمرهم بها النبي ﷺ فذهب اليها عامتهم لما قهروا بمكة وخافوا عليهم الفتن ومكث هو فلم يبرح فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ثم إنه فشا الإسلام فيها ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاء عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه وكانت الفتنة الأولى هي التي أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها وفرارا مما كانوا فيه من الفتن والزلزال فلما استرخى عنهم ودخل في الإسلام من دخل منهم تحدث باسترخائهم عنهم فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة وأنهم لا يفتنون فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها وجعلوا يزدادون ويكثرون وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير وفشا الإسلام بالمدينة وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة فلما رأت قريش ذلك توامروا على أن يفتنوهم ويشتدوا فأخذوهم فحرصوا على أن يفتنوهم فأصابهم جهد شديد فكانت الفتنة الآخرة فكانت فتنتان فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها وأذن لهم في الخروج اليها وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً رءوس الذين أسلموا فوافوه بالحج فبايعوه بالعقبة وأعطوه عهودهم ومواثيقهم على أنا منك وأنت منا وعلى أن من جاء من أصحابك أوجئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا فاشتدت عليهم قريش عند ذلك فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه وخرج هو. وهي التي أنزل الله عز وجل فيها (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) ثم رواه عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن عروة بن الزبير أنه كتب إلى الوليد يعنى ابن عبد الملك بن مروان بهذا فذكر مثله وهذا صحيح إلى عروة رحمه الله.

﴿ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يبين تعالى تفصيل ماشرعه مخصصا لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة باحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها ولا وارث لهم والجزية والخراج ونحو ذلك هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف ، ومن العلماء من يطلق الفيء على ماتطلق عليه الغنيمة والعكس أيضا ، ولهذا ذهب قتادة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى) الآية قال فنسخت آية الأنفال تلك وجعلت الغنائم أربعة أخماس للمجاهدين وخمسا منها لهؤلاء المذكورين ، وهذا الذى قاله بعيد لأن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر وتلك نزلت في بني النضير ولا خلاف بين علماء السير والمغازى قاطبة أن بنى النضير بعد بدر وهذا أمر لايشك فيه ولا يرتاب فمن يفرق بين معنى الفيء والغنيمة يقول تلك نزلت في أموال الفيء وهذه في الغنائم ومن يجعل أمر الغنائم والفيء راجعا إلى رأى الإمام يقول لامنافاة بين آية الحشر وبين التخميس إذا رآه الإمام والله أعلم . فقوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه) توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط قال الله تعالى (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لايظلمون) وقوله (فأن لله خمسه وللرسول) اختلف المفسرون ههنا فقال بعضهم لله نصيب من الخمس يجعل في الكعبة . قال أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبي العالية الرياحى: قال كان رسول الله ﷺ يؤتى بالغنيمة فيخمسها على خمسة تكون أربعة أخماس لمن شهدها ثم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه فيأخذ منه الذى قبض كفه فيجعله للكعبة وهو سهم الله ثم يقسم مابقي على خمسة أسهم فيكون سهم للرسول وسهم لذوى القربى وسهم لليتامى

وسهم للمساكين وسهم لابن السبيل ؛ وقال آخرون ذكر الله ههنا استفتاح كلام للتبرك وسهم لرسوله عليه السلام قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمس الغنيمة فضرب ذلك الخمس فى خمسة ثم قرأ (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول) فان لله خمسه مفتاح كلام (لله ما فى السموات وما فى الأرض) فجعل سهم الله وسهم الرسول صلى الله عليه وسلم واحدا وهكذا قال إبراهيم النخعى والحسن بن محمد بن الحنفية والحسن البصرى والشعبى وعطاء بن أبى رباح وعبد الله بن بريدة وقتادة ومغيرة وغير واحد أن سهم الله ورسوله واحد ويؤيد هذا ما رواه الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى بإسناد صحيح عن عبدالله بن شقيق عن رجل قال أتيت النبى ﷺ وهو بوادى القرى وهو يعرض فرساً فقلت يا رسول الله ما تقول فى الغنيمة ؟ فقال « لله خمسها وأربعة أخماسها للجيش» قلت فما أحد أولى به من أحد ؟ قال « لا ولا السهم تستخرجه من جيبك ليس أنت أحق به من أخيك المسلم »

وقال ابن جرير : حدثنا عمران بن موسى حدثنا عبد الوارث حدثنا أبان عن الحسن قال أوصى الحسن بالخمس من ماله وقال ألا أرضى من مالى بما رضى الله لنفسه ثم اختلف قائلو هذا القول فروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كانت الغنيمة تخمس على خمسة أخماس فأربعة منها بين من قاتل عليها وخمس واحد يقسم على أربعة أخماس فربع لله وللرسول ﷺ فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يأخذ النبى ﷺ من الخمس شيئا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو معمر المقرى حدثنا عبد الوارث بن سعيد عن حسين المعلم عن عبد الله ابن بريدة فى قوله (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول) قال الذى لله فلنبيه والذى للرسول لأزواجه وقال عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء بن أبى رباح قال خمس الله والرسول واحد يحمل منه ويصنع فيه ماشاء يعنى النبى ﷺ وهذا أعم وأشمل وهو أنه صلى الله عليه وسلم يتصرف فى الخمس الذى جعله الله له بما شاء ويرده فى أمته كيف شاء ، ويشهد لهذا ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا إسماعيل بن عياش عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم عن أبى سلام الأعرج عن المقدام بن معديكرب الكندى أنه جلس مع عبادة ابن الصامت وأبى الدرداء والحارث بن معاوية الكندى رضى الله عنهم فتذاكروا حديث رسول الله ﷺ فقال أبو الدرداء لعبادة يا عبادة كلمات رسول الله ﷺ فى غزوة كذا وكذا فى شأن الأخماس فقال عبادة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم فى غزوة إلى بعير من الغنم فلما سلم قام رسول الله ﷺ فتناول وبرة بين أنملتيه فقال « إن هذه من غنائمكم وإنه ليس لى فيها إلا نصيبى معكم الخمس والخمس مردود عليكم فأدوا الخيط والمخيط وأكبر من ذلك وأصغر ولا تغلوا فان الغلول عار ونار على أصحابه فى الدنيا والآخرة وجاهدوا الناس فى الله القريب والبعيد ولا تبالوا فى الله لومة لائم وأقيموا حدود الله فى السفر والحضر وجاهدوا فى الله فان الجهاد باب من أبواب الجنة عظيم ينجى الله به من الهم والغم » هذا حديث حسن عظيم ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه ولكن روى الإمام أحمد أيضاً وأبو داود والنسائى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحوه فى قصة الخمس والنهى عن الغلول . وعن عمرو بن عنبسة أن رسول الله ﷺ صلى بهم إلى بعير من المغنم فلما سلم أخذ وبرة من هذا البعير ثم قال « ولا يحل لى من غنائمكم مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم » رواه أبو داود والنسائى ، وقد كان للنبى صلى الله علية وسلم من الغنائم شيء يصطفيه لنفسه عبد أو أمة أو فرس أو سيف أو نحو ذلك كما نص عليه محمد بن سيرين وعامر الشعبى وتبعهما على ذلك أكثر العلماء . وروى الإمام أحمد والترمذى وحسنه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت صفية من الصفى رواه أبو داود فى سننه وروى أيضاً بإسناده والنسائى أيضا عن يزيد بن عبد الله قال : كنا بالمربد إذ دخل رجل معه قطعة أديم فقرأناها فإذا فيها « من محمد رسول الله إلى بنى زهير بن أقيش إنكم إن شهدتم أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأديتم الخمس من المغنم وسهم النبي ﷺ وسهم الصفي أنتم آمنون بأمان الله ورسوله » فقلنا من كتب لك هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ فهذه أحاديث جيدة تدل على تقرير هذا وثبوته ولهذا جعل ذلك كثيرون من الخصائص له صلوات الله وسلامه عليه ، وقال آخرون : إن الخمس يتصرف فيه الإمام بالمصلحة للمسلمين كما يتصرف فى مال الفيء وقال شيخنا الإمام العلامة ابن تيمية رحمه الله وهذا قول مالك وأكثر السلف وهو أصح الأقوال . فإذا ثبت هذا وعلم فقد اختلف أيضاً فى الذى كان يناله عليه السلام من الخمس ماذا يصنع به من بعده فقال قائلون يكون لمن يلى الأمر من بعده روى هذا عن أبى بكر وعلى وقتادة وجماعة . وجاء فيه حديث مرفوع وقال آخرون يصرف فى مصالح المسلمين وقال آخرون بل هو مردود على بقية الأصناف ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل اختاره ابن جرير وقال آخرون بل سهم النبي ﷺ وسهم ذوى القربى مردودان على اليتامى والمساكين وابن السبيل. قال ابن جرير وذلك قول جماعة من أهل العراق ، وقيل إن الخمس جميعه لذوى القربى كما رواه ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا عبد الغفار حدثنا المنهال بن عمرو سألت عبد الله ابن محمد بن على وعلى بن الحسين عن الخمس فقالا: هو لنا فقلت لعلى فان الله يقول (واليتامى والمساكين وابن السبيل) فقالا يتامانا ومساكيننا ، وقال سفيان الثورى وأبو نعيم وأبو أسامة عن قيس بن مسلم سألت الحسن بن محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى عن قول الله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول) فقال هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة ثم اختلف الناس فى هذين السهمين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قائلون : سهم النبي صلى الله عليه وسلم تسليما[1] للخليفه من بعده . وقال آخرون لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم وقال آخرون سهم القرابة لقرابة الخليفة ، واجتمع رأيهم أن يجعلوا هذين السهمين فى الخيل والعدة فى سبيل الله فكانا على ذلك فى خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما قال الأعمش عن إبراهيم كان أبو بكر وعمر يجعلان سهم النبي ﷺ فى الكراع والسلاح فقلت لإبراهيم ما كان على يقول فيه ؟ قال : كان أشدهم فيه وهذا قول طائفة كثيرة من العلماء رحمهم الله، وأما سهم ذوى القربى فانه يصرف إلى بنى هاشم وبنى المطلب لأن بنى المطلب وازروا بنى هاشم فى الجاهلية وفى أول الإسلام ودخلوا معهم فى الشعب غضبا لرسول الله ﷺ وحماية له مسلمهم طاعة لله ولرسوله وكافرهم حمية للعشيرة وأنفة وطاعة لأبى طالب عم رسول الله ﷺ وأما بنو عبد شمس وبنو نوفل ، وإن كانوا بنى عمهم فلم يوافقوهم على ذلك بل حاربوهم ونابذوهم ومالؤا بطون قريش على حرب الرسول ولهذا كان ذم أبى طالب لهم فى قصيدته اللامية أشد من غيرهم لشدة قربهم ولهذا يقول فى أثناء قصيدته

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا * عقوبة شر عاجل غير آجل * بميزان قسط لا يخيس شعيرة

له شاهد من نفسه غير عائل * لقد سفهت أحلام قوم تبدلوا * بنى خلف قيضا بنا والعياطل

ونحن الصميم من ذؤابة هاشم * وآل قصى فى الخطوب الأوائل

وقال جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل مشيت أنا وعثمان بن عفان يعنى ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس إلى رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول أعطيت بنى المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن وهم منك بمنزلة واحدة فقال « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد» رواه مسلم[2] وفى بعض روايات هذا الحديث « إنهم لم يفارقونا فى جاهلية ولا إسلام » وهذا قول جمهور العلماء انهم بنو هاشم وبنو المطلب . قال ابن جرير وقال آخرون هم بنو هاشم ثم روى عن خصيف عن مجاهد قال : علم الله أن فى بنى هاشم فقراء فجعل لهم الخمس مكان الصدقة ، وفى رواية عنه قال هم قرابة رسول الله ﷺ الذين لا تحل لهم الصدقة ثم روى عن على بن الحسين نحو ذلك قال ابن جرير وقال آخرون بل هم قريش كلها حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنى عبد الله بن نافع عن أبى معشر عن سعيد المقبرى قال كتب نجدة إلى عبد الله بن عباس يسأله عن ذوى القربى فكتب إليه ابن عباس كنا نقول : إنا هم فأبى علينا ذلك قومنا وقالوا قريش كلها ذوو قربى وهذا الحديث صحيح رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى من حديث سعيد المقبرى عن يزيد بن هرمز

(١) كذا فى الأصول أى يسلم تسليما. (٢) كذا فى جميع النسخ وإنما رواه البخارى فى عدة أبواب قليلة فهو سهو أو سبق قلم من المؤلف.

أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن ذوى القربى فذكره إلى قوله فأبى ذلك علينا قومنا والزيادة من أفراد أبى معشر نجيح بن عبدالرحمن المدنى وفيه ضعف ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابراهيم بن مهدى المصيصى حدثنا المعتمر ابن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « رغبت لكم عن غسالة الأيدى لأن لكم من خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم » هذا حديث حسن الإسناد وإبراهيم بن مهدى هذا وثقه أبو حاتم ، وقال يحيى بن معين يأتى بمناكير والله أعلم ، وقوله (واليتامى) أى أيتام المسلمين واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ، والمساكين هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم (وابن السبيل) هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة وليس له ما ينفقه فى سفره ذلك وسيأتى تفسير ذلك فى آية الصدقات من سورة براءة إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان

وقوله (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا) أى امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس فى الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل على رسوله : ولهذا جاء فى الصحيحين من حديث عبدالله بن عباس فى حديث وفد عبد القيس أن رسول الله ﷺ قال لهم « وآمركم بأربع وأنهاكم عن أربع . آمركم بالإيمان بالله — ثم قال — هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأن تؤدوا الخمس من المغنم » الحديث بطوله فجعل أداء الخمس من جملة الإيمان ، وقد بوب البخارى على ذلك فى كتاب الإيمان من صحيحه فقال ﴿ باب أداء الخمس من الإيمان ﴾ ثم أورد حديث ابن عباس هذا ، وقد بسطنا الكلام عليه فى شرح البخارى ولله الحمد والمنة ، وقال مقاتل بن حيان (وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان) أى فى القسمة وقوله (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير) ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى الفرقان لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل وأظهر دينه ونصر نبيه وحزبه ، قال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس : يوم الفرقان يوم بدر ، فرق الله فيه بين الحق والباطل رواه الحاكم . وكذا قال مجاهد ومقسم وعبيدالله بن عبد الله والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان وغير واحد أنه يوم بدر ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير فى قوله (يوم الفرقان) يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ ، وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذ ثلثمائة وبضعة عشر رجلا والمشركون ما بين الألف والتسعمائة فهزم الله المشركين وقتل منهم زيادة على السبعين وأسر منهم مثل ذلك ، وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن ابن مسعود قال فى ليلة القدر : تحروها لإحدى عشرة يبقين فإن فى صبيحتها يوم بدر وقال على شرطهما ، وروى مثله عن عبد الله بن الزبير أيضا من حديث جعفر بن برقان عن رجل عنه وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا يحيى بن يعقوب أبو طالب عن ابن عون عن محمد بن عبدالله الثقفى عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : قال الحسن بن على كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشرة من رمضان ، إسناد جيد قوى ورواه ابن مردويه عن أبى عبدالرحمن عبدالله بن حبيب عن على قال : كانت ليلة الفرقان ليلة التقى الجمعان فى صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان ، وهو الصحيح عند أهل المغازى والسير وقال يزيد بن أبى حبيب إمام أهل الديار المصرية فى زمانه : كان يوم بدر يوم الاثنين ولم يتابع على هذا وقول الجمهور مقدم عليه والله أعلم

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوم الفرقان (إذ أنتم بالعدوة الدنيا) أى إذ أنتم نزول بعدوة الوادى الدنيا القريبة إلى المدينة (وهم) أى المشركون نزول (بالعدوة القصوى) أى البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة (والركب) أى العير الذى فيه

أبو سفيان بجامعه من التجارة (أسفل منكم) أى مما يلى سيف البحر (ولو تواعدتم) أى أنتم والمشركون إلى مكان (لاختلفتم فى الميعاد) قال محمد بن إسحق وحدثنى يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه فى هذه الآية قال ولو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم مالقيتموهم (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى ليقضى الله ما أراد بقدرته من إعزاز الاسلام وأهله وإذلال الشرك وأهله من غير ملأ منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه ، وفى حديث كعب بن مالك قال إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنى بن علية عن ابن عون عن عمير بن إسحق قال : أقبل أبو سفيان فى الركب من الشام وخرج أبو جهل ليمنعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فالتقوا ببدر ولايشعر هؤلاء بهؤلاء ولاهؤلاء بهؤلاء حتى التقى السقاة ونهد الناس بعضهم لبعض ، وقال محمد بن إسحق فى السيرة ومضى رسول الله ﷺ على وجهه ذلك حتى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو وعدى ابن أبى الزغباء الجهنيين يلتمسان الخبر عن أبى سفيان فانطلقا حتى إذا وردا بدراً فأناخا بعيريهما إلى تل من البطحاء فاستقيا فى شن لهما من الماء فسمعا جاريتين يختصمان تقول إحداهما لصاحبتها اقضينى حقى ، وتقول الأخرى إنما تأت العير غدا أو بعد غد فأقضيك حقك فخاص بينهما مجدى بن عمرو وقال صدقت فسمع ذلك بسبس وعدى فجلسا على بعيريهما حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه الخبر وأقبل أبو سفيان حين وليا وقد حذر فتقدم أمام عيره وقال لمجدى بن عمرو هل أحسست على هذا الماء من أحد تنكره ؟ فقال لا والله إلا أنى قد رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل فاستقيا من شن لهما ثم انطلقا فجاء أبوسفيان إلى مناخ بعيريهما فأخذ من أبعارهما ففته فإذا فيه النوى فقال هذه والله علائف يثرب ، ثم رجع سريعاً فضرب وجه عيره فانطلق بها فساحل حتى إذا رأى أنه قد أحرز عيره بعث إلى قريش فقال : إن الله قد نجى عيركم وأموالكم ورجالكم فارجعوا: فقال: أبو جهل والله لانرجع حتى نأتى بدرا. وكانت بدر سوقا من أسواق العرب . فنقيم بها ثلاثا فنطعم بها الطعام وننحر بها الجزر ونسقى بها الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا فلا يزالون يهابوننا بعدها أبدا . فقال الأخنس بن شريق : يا معشر بنى زهرة إن الله قد أنجى أموالكم ونجى صاحبكم فارجعوا فأطاعوه فرجعت بنوزهرة فلم يشهدوها ولا بنو عدى. قال محمد بن إسحق وحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دنا من بدر على بن أبى طالب وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام فى نفر من أصحابه يتجسسون له الخبر فأصابوا سقاة لقريش غلاما لبنى سعيد بن العاص وغلاما لبنى الحجاج فأتوا بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوه يصلى فجعل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهما لمن أنتما ؟ فيقولان نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان فضربوهما فلما أزلقوهما قالا نحن لأبى سفيان فتركوهما وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجدتين ثم سلم وقال « إذا صدقا كم ضربتموهما وإذا كذبا كم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش أخبرانى عن قريش » قالاهم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، والكثيب : العقنقل فقال لهما رسول الله ﷺ « كم القوم ؟ » قالا كثير قال « ماعدتهم ؟ » قالا ماندرى قال « كم ينحرون كل يوم ؟ » قالا يوما تسعاً ويوما عشرا قال رسول الله ﷺ « القوم ما بين التسعمائة إلى الألف » ثم قال لهما « فمن فيهم من أشراف قريش ؟ » قالا عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبوالبخترى بن هشام وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث ابن عامر بن نوفل وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبوجهل بن هشام وأمية بن خلف ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ودّ فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها » قال محمد بن إسحق رحمه الله تعالى وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن حزم أن سعد بن معاذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما التقى الناس يوم بدر يارسول الله ألا نبنى لك عريشا تكون فيه وننيخ إليك ركائبك ، ونلقى عدونا فإن أظفرنا الله عليهم وأعزنا فذاك ماتحب وإن تكن الأخرى فتجلس

على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا فقد والله تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد لك حبا منهم لو علموا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك ويوازرونك وينصرونك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له به فبنى له عريش فكان فيه رسول الله ﷺ وأبو بكر ما معهما غيرهما . قال ابن إسحق وارتحلت قريش حين أصبحت فلما أقبلت ورآها رسول الله ﷺ تصوب من العقنقل وهو الكثيب الذى جاءوا منه إلى الوادى فقال « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة » وقوله (ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة) قال محمد بن إسحق أى ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك وهذا تفسير جيد . وبسط ذلك أنه تعالى يقول إنما جمعكم مع عدوكم فى مكان واحد على غير ميعاد لينصركم عليهم ويرفع كلمة الحق على الباطل ليصير الأمر ظاهراً والحجة قاطعة والبراهين ساطعة ولا يبقى لأحد حجة ولا شبهة فحينئذ يهلك من هلك أى يستمر فى الكفر من استمر فيه على بصيرة من أمره إنه مبطل لقيام الحجة عليه (ويحيى من حى) أى يؤمن من آمن (عن بينة) أى حجة وبصيرة والإيمان هو حياة القلوب قال الله تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس) وقالت عائشة فى قصة الإفك فهلك فىّ من هلك أى قال فيها ما قال من البهتان والإفك وقوله (وإن الله لسميع) أى لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به (عليم) أى بكم وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

قال مجاهد أراهم الله إياه فى منامه قليلا وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتا لهم ، وكذا قال ابن إسحق وغير واحد وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه رآهم بعينه التى ينام بها ، وقد روى ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو قتيبة عن سهل السراج عن الحسن فى قوله (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) قال بعينك وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذى لا دليل عليه وقوله (ولو أراكهم كثيراً لفشلتم) أى لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم (ولكن الله سلم) أى من ذلك بأن أراكهم قليلا (إنه عليم بذات الصدور) أى بما تجنه الضمائر وتنطوى عليه الأحشاء (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) وقوله (وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا) وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم إذ أراهم إياهم قليلا فى رأى العين فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم قال أبو إسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى تراهم سبعين ؟ قال لا بل هم مائة حتى أخذنا رجلا منهم فسألناه فقال كنا ألفا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقوله (ويقللكم فى أعينهم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن الزبير ابن الحارث عن عكرمة (وإذ يريكموهم إذ التقيتم) الآية قال حضض بعضهم على بعض إسناد صحيح وقال محمد بن إسحق حدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه فى قوله تعالى (ليقضى الله أمراً كان مفعولا) أى ليلقى بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه والانعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته ومعنى هذا أنه تعالى أغرى كلا من الفريقين بالآخر ، وقلله فى عينه ليطمع فيه وذلك عند المواجهة فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقى حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفيه كما قال تعالى (قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين فان كلا منها حق وصدق ولله الحمد والمنة

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَـٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوا إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتظر فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف» ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم وقال «اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» وقال عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن عبد الرحمن ابن زياد عن عبد الله بن يزيد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاثبتوا واذكروا الله فان صخبوا وصاحوا فعليكم بالصمت» وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى حدثنا أمية بن بسطام حدثنا معتمر بن سليمان حدثنا ثابت بن زيد عن رجل عن زيد بن أرقم عن النبى ﷺ مرفوعا قال «إن الله يحب الصمت عند ثلاث عند تلاوة القرآن. وعند الزحف وعند الجنازة» وفى الحديث الآخر المرفوع يقول الله تعالى «إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو مناجز قرنه» أى لا يشغله ذلك الحال عن ذكرى ودعائى واستعانتى

وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى هذه الآية، قال افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون عند الضرب بالسيوف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك عن ابن جريج عن عطاء: قال وجب الانصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية قلت يجهرون بالذكر؟ قال نعم وقال أيضاً قرأ على يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب أخبرنى عبد الله بن عباس عن يزيد بن فوذر عن كعب الأحبار قال مامن شيء أحب إلى الله تعالى من قراءة القرآن والذكر ولولا ذلك ما أمر الناس بالصلاة والقتال ألا ترون أنه أمر الناس بالذكر عند القتال فقال (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) قال الشاعر:

ذكرتك والخطى يخطر بيننا * وقد نهلت فينا المثقفة السمر

وقال عنترة ولقد ذكرتك والرماح نواهل * منى وبيض الهند تقطر من دمى

فأمرتعالى بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا وأن يذكروا الله فى تلك الحال ولا ينسوه بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم وأن يطيعوا الله ورسوله فى حالهم ذلك فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا. وما نهاهم عنه انزجروا ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سببا لتخاذلهم وفشلهم (وتذهب ريحكم) أى قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال (واصبروا إن الله مع الصابرين) وقد كان للصحابة رضى الله عنهم فى باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله به، وامتثال ما أرشدهم إليه مالم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولا يكون لأحد ممن بعدهم فانهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقا وغربا فى المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بنى آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها فى أقل من ثلاثين سنة فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين وحشرنا فى زمرتهم إنه كريم وهاب

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطرا أي دفعا للحق (ورئاء الناس) وهو المفاخرة والتكبر عليهم كما قال أبو جهل لما قيل له إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر وننحر الجزر ونشرب الخمر وتعزف علينا القيان وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبدا فانعكس ذلك عليه أجمع لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ولهذا قال (والله بما يعملون محيط) أي عالم بما جاءوا به وله ، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك والسدي في قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) قالوا هم المشركون الذين قاتلوا رسول الله ﷺ يوم بدر . وقال محمد بن كعب لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل الله (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ، ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) وقوله تعالى (وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم) الآية ، حسن لهم لعنه الله ما جاءوا له وما هموا به وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر فقال إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم في صورة سراقة بن مالك بن جعشم سيد بني مدلج كبير تلك الناحية وكل ذلك منه كما قال تعالى عنه (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) قال ابن جريج قال ابن عباس في هذه الآية لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين وألقى في قلوب المشركين أن أحدا لن يغلبكم ، وإني جار لكم ، فلما التقوا ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة (نكص على عقبيه) قال رجع مدبرا وقال (إني أرى ما لا ترون) الآية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال. جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان للمشركين لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين : وأقبل جبريل عليه السلام إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مدبرا وشيعته فقال الرجل ياسراقة أتزعم أنك لنا جار فقال ، إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب وذلك حين رأى الملائكة وقال محمد بن إسحق حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن إبليس خرج مع قريش في صورة سراقة بن مالك بن جعشم فلما حضر القتال ورأى الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم فتشبث به الحارث ابن هشام فنخر في وجهه فخر صعقا فقيل له ويلك ياسراقة على هذه الحال تخذلنا وتبرأ منا فقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب

وقال محمد بن عمر الواقدي أخبرني عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال لما تواقف الناس أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم كشف عنه فبشر الناس بجبريل في جند من الملائكة ميمنة الناس ، وميكائيل في جند آخر ميسرة الناس ، وإسرافيل في جند آخر ألف ، وإبليس قد تصور في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي يدبر المشركين ويخبرهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس فلما أبصر عدو الله الملائكة نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون فتشبث به الحارث بن هشام وهو يرى أنه سراقة لما سمع من كلامه فضرب في صدر الحارث فسقط الحارث وانطلق إبليس لا يرى حتى سقط في البحر ورفع ثوبه وقال يارب موعدك الذي وعدتني . وفي الطبراني عن رفاعة ابن رافع قريب من هذا السياق وأبسط منه ذكرناه في السيرة ، وقال محمد بن إسحق حدثني يزيد بن رومان عن عروة

ابن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشراف بنى كنانة فقال أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشىء تكرهونه فخرجوا سراعا ، قال محمد بن إسحق فذكر لى أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة سراقة بن مالك لا ينكرونه حتى إذا كان يوم بدر والتقى الجمعان كان الذى رآه حين نكص الحارث بن هشام أو عمير بن وهب فقال أين سراقة ؟ أين وميل عدو الله فذهب قال فأوردهم ثم أسلمهم ، قال ونظر عدو الله إلى جنود الله قد أيد الله بهم رسوله والمؤمنين فنكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون وصدق عدو الله وقال إنى أخاف الله والله شديد العقاب ، وهكذا روى عن السدى والضحاك والحسن البصرى ومحمد بن كعب القرظى وغيرهم رحمهم الله ، وقال قتادة وذكر لنا أنه رأى جبريل عليه السلام تنزل معه الملائكة فعلم عدو الله أنه لا يدان له بالملائكة فقال إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله وكذب عدو الله . والله مابه مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة وتلك عادة عدو الله لمن أطاعه واستقاد له حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم وتبرأ منهم عند ذلك قلت يعنى بعادته لمن أطاعه قوله تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) وقوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحق حدثنى عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن بعض بنى ساعدة قال : سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعدما كف بصره يقول : لو كنت معكم الآن ببدر ومعى بصرى لأخبرتكم بالشعب الذى خرجت منه الملائكة لا أشك ولا أتمارى فلما نزلت الملائكة ورآها إبليس وأوحى الله إليهم أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ، وتثبيتهم أن الملائكة كانت تأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه فيقول له أبشر فإنهم ليسوا بشىء والله معكم فكروا عليهم فلما رأى إبليس الملائكة نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون وهو فى صورة سراقة وأقبل أبو جهل يحضض أصحابه ويقول لا يهولنكم خذلان سراقة إياكم فإنه كان على موعد من محمد وأصحابه . ثم قال واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه فى الحبال فلا تقتلوهم وخذوهم أخذا وهذا من أبى جهل لعنه الله كقول فرعون للسحرة لما أسلموا (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها) وكقوله (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) وهو من باب البهت والافتراء ، ولهذا كان أبو جهل فرعون هذه الأمة .

وقال مالك بن أنس عن إبراهيم بن أبى علية عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال « ما رأى إبليس يوما هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب إلا مارأى يوم بدر » قالوا يارسول الله ومارأى يوم بدر ؟ قال « أما إنه رأى جبريل عليه السلام يزع الملائكة » هذا مرسل من هذا الوجه

وقوله (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين فى أعين المشركين ، وقلل المشركين فى أعين المسلمين فقال المشركون غر هؤلاء دينهم وإنما قالوا ذلك من قلتهم فى أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم لا يشكون فى ذلك فقال الله (ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) وقال قتادة: رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله ، وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله لما أشرف على محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم - قسوة وعتوا . وقال ابن جريج فى قوله (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض) هم قوم كانوا من المنافقين بمكة قالوه يوم بدر ، وقال عامر الشعبى كان ناس من أهل مكة قد تكلموا بالاسلام فخرجوا مع المشركين يوم بدر فلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم . وقال مجاهد فى قوله عزوجل (إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) قال فئة من قريش قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وعلى بن أمية بن خلف

والعاص بن منبه بن الحجاج خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم وهكذا قال محمد بن إسحق بن يسار سواء . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن فى هذه الآية قال هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين ، قال معمر وقال بعضهم هم قوم كانوا أقروا بالإسلام وهم بمكة فخرجوا مع المشركين يوم بدرفلما رأوا قلة المسلمين قالوا غر هؤلاء دينهم ، وقوله (ومن يتوكل على الله) أى يعتمد على جنابه (فإن الله عزيز) أى لا يضام من التجأ إليه فان الله عزيز منيع الجناب عظيم السلطان (حكيم) فى أفعاله لا يضعها إلا فى مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

يقول تعالى ولو عاينت يا محمد حال توفى الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماهائلافضيعا منكراً (إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق) . قال ابن جريج عن مجاهد (أدبارهم) أستاههم ، قال يوم بدر قال ابن جريج قال ابن عباس إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) يوم بدر ، وقال وكيع عن سفيان الثورى عن أبى هاشم إسماعيل بن كثير عن مجاهد، وعن شعبة عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير يضربون وجوههم وأدبارهم قال وأستاههم ولكن الله يكنى وكذا قال عمر مولى عفرة . وعن الحسن البصرى قال : قال رجل يا رسول الله : إنى رأيت بظهر أبى جهل مثل الشوك ، قال « ذاك ضرب الملائكة » رواه ابن جرير وهو مرسل ، وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر ولكنه عام فى حق كل كافر ، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر بل قال تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) وفى سورة القتال مثلها ، وتقدم فى سورة الأنعام قوله تعالى (ولو ترى إذ المجرمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم) أى باسطوا أيديهم بالضرب فيهم بأمر ربهم إذا استصعبت أنفسهم وامتنعت من الخروج من الأجساد أن تخرج قهراً وذلك إذا بشروهم بالعذاب والغضب من الله كما فى حديث البراء أن ملك الموت إذا جاء الكافر عند احتضاره فى تلك الصورة المنكرة يقول : اخرجى أيتها النفس الخبيثة إلى سموم وحميم وظل من يحموم فتتفرق فى بدنه فيستخرجونها من جسده كما يخرج السفود من الصوف المبلول فتخرج معها العروق والعصب ، ولهذا أخبر تعالى أن الملائكة تقول لهم ذوقوا عذاب الحريق ، وقوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم) أى هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة فى حياتكم الدنيا : جازاكم الله بها هذا الجزاء (وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى لا يظلم أحدا من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور تبارك وتعالى وتقدس وتنزه الغنى الحميد ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله من رواية أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ إن الله تعالى يقول « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » ولهذا قال تعالى

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا أى عادتنا وسنتنا فى أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله (فأخذهم الله بذنوبهم) أى بسبب ذنوبهم أهلكهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر (إن الله قوى شديد العقاب)

أى لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) وقوله (كدأب آل فرعون) أى كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته أهلكهم بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، وما ظلمهم الله فى ذلك بل كانوا هم الظالمين

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين كلما عاهدوا عهدا نقضوه وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه (وهم لا يتقون) أى لا يخافون من الله فى شىء ارتكبوه من الآثام (فإما تثقفنهم فى الحرب) أى تغلبهم وتظفر بهم فى حرب (فشرد بهم من خلفهم) أى نكل بهم قاله ابن عباس والحسن البصرى والضحاك والسدى وعطاء الخراسانى وابن عيينة ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلا ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ويصيروا لهم عبرة (لعلهم يذكرون) وقال السدى يقول لعلهم يحذرون أن ينكثوا فيصنع بهم مثل ذلك

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (وإما تخافن من قوم) قد عاهدتهم (خيانة) أى نقضا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود (فانبذ إليهم) أى عهدهم على سواء أى أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أى تستوى أنت وهم فى ذلك قال الراجز

فاضرب وجوه الغدر للأعداء * حتى يجيبوك إلى السواء

وعن الوليد بن مسلم أنه قال فى قوله تعالى (فانبذ إليهم على سواء) أى على مهل (إن الله لا يحب الخائنين) أى حتى ولو فى حق الكفار لا يحبها أيضا. قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى الفيض عن سليم بن عامر قال: كان معاوية يسير فى أرض الروم وكان بينه وبينهم أمد فأراد أن يدنو منهم فإذا انقضى الأمد غزاهم فإذا شيخ على دابة يقول: الله أكبر الله أكبر وفاء لا غدرا إن رسول الله ﷺ قال « ومن كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عقدة ولا يشدها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء» قال فبلغ ذلك معاوية فرجع فإذا بالشيخ عمرو بن عنبسة رضى الله عنه ، وهذا الحديث رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة ، وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من طرق عن شعبة به وقال الترمذى حسن صحيح . وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله الزبيرى حدثنا إسرائيل عن عطاء بن السائب عن أبى البخترى عن سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة فقال لأصحابه دعونى أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم فقال إنما كنت رجلا منكم فهدانى الله عز وجل للاسلام فان أسلمتم فلكم مالنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون، وإن أبيتم نابذناكم على سواء (إن الله لا يحب الخائنين)

يفعل ذلك بهم ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ (ولا تحسبن(١)) يامحمد (الذين كفروا سبقوا) أى فاتونا فلا نقدر عليهم بل هم تحت قهر قدرتنا وفى قبضة مشيئتنا فلا يعجزوننا كقوله تعالى (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء مايحكمون) أى يظنون وقوله تعالى (لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) وقوله تعالى (لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) ثم أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة فقال (وأعدوا لهم ما استطعتم) أى مهما أمكنكم (من قوة ومن رباط الخيل) قال الإمام أحمد : حدثنا هرون بن معروف حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن أبى على ثمامة بن شفى أخى عقبة بن عامر أنه سمع عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر « (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) ألا إن القوة الرمى ألا إن القوة الرمى » رواه مسلم عن هرون بن معروف وأبو داود عن سعيد بن منصور وابن ماجه عن يونس بن عبد الأعلى ثلاثتهم عن عبد الله بن وهب به . ولهذا الحديث طرق أخر عن عقبة بن عامر منها مارواه الترمذى من حديث صالح بن كيسان عن رجل عنه وروى الإمام أحمد وأهل السنن عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ارموا واركبوا وأن ترموا خير من أن تركبوا » وقال الإمام مالك عن زيد بن أسلم عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل ستر وعلى رجل وزر فأما الذى له أجر فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقى به كان ذلك حسنات له فهى لذلك الرجل أجر ، ورجل ربطها تغنيا وتعففا ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهى على ذلك وزر » وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال « ما أنزل الله علىّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) » رواه البخارى وهذا لفظه ومسلم كلاهما من حديث مالك وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج أخبرنا شريك عن الركين بن الربيع عن القاسم بن حسان عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن فالذى يربط فى سبيل الله فعلفه وروثه وبوله -وذكر ماشاء الله- وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليها ، وأما فرس الانسان فالفرس يربطها الانسان يلتمس بطنها فهى له ستر من الفقر » وقد ذهب أكثر العلماء إلى أن الرمى أفضل من ركوب الخيل ، وذهب الإمام مالك إلى أن الركوب أفضل من الرمى ، وقول الجمهور أقوى للحديث والله أعلم وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج وهشام قالا: حدثنا ليث حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن ابن شماسة أن معاوية ابن خديج مر على أبى ذر وهو قائم عند فرس له فسأله ماتعانى من فرسك هذا ؟ فقال إنى أظن أن هذا الفرس قد استجيب له دعوته. قال وما دعاء بهيمة من البهائم ، قال والذى نفسى بيده مامن فرس إلا وهو يدعو كل سحر فيقول: اللهم أنت خولتنى عبدا من عبادك وجعلت رزقى بيده فاجعلنى أحب إليه من أهله وماله وولده . قال وحدثنا يحي بن سعيد عن عبد الحميد بن أبى جعفر حدثنى يزيد بن أبى حبيب عن سويد بن قيس عن معاوية بن خديج عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « إنه ليس من فرس عربى إلا يؤذن له مع كل فجر يدعو بدعوتين يقول اللهم إنك خولتنى

(١) مشى المفسر على قراءة ولا تحسبن بالتاء .

من خولتى من بى آدم فاجعلنى من أحب أهله وماله إليه ـ أو ـ أحب أهله وماله إليه » رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس عن يحيى القطان به . وقال أبوالقاسم الطبرانى حدثنا الحسين بن إسحق التسترى حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا المطعم بن المقدام الصنعانى عن الحسن بن أبى الحسن أنه قال لابن الحنظلية يعنى سهلا حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها ومن ربط فرساً فى سبيل الله كانت النفقة عليه كالماد يده بالصدقة لايقبضها » والأحاديث الواردة فى فضل ارتباط الخيل كثيرة . وفى صحيح البخارى عن عروة بن أبى الجعد البارقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والمغنم » : وقوله (ترهبون) أى تخوفون (به عدوالله وعدوكم) أى من الكفار (وآخرين من دونهم) قال مجاهد يعنى بنى قريظة ، وقال السدى: فارس ، وقال سفيان الثورى قال ابن يمان هم الشياطين التى فى الدور ، وقد ورد حديث بمثل ذلك . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبوعتبة أحمد بن الفرج الحمصى حدثنا أبوحيوة يعنى شريح بن يزيد المقرى حدثنا سعيد بن سنان عن ابن غريب يعنى يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ كان يقول فى قول الله تعالى (وآخرين من دونهم لاتعلمونهم) قال هم الجن ورواه الطبرانى عن إبراهيم بن دحيم عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن غريب به وزاد : قال رسول الله ﷺ « لايخبل بيت فيه عتيق من الخيل » وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولامتنه ، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم هم المنافقون وهذا أشبه الأقوال ويشهد له قوله تعالى (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لاتعلمهم نحن نعلمهم) وقوله (وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون) أى مهما أنفقتم فى الجهاد فإنه يوفى إليكم على التمام والكمال ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبوداود أن الدرهم يضاعف ثوابه فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف كما تقدم فى قوله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى حدثنا أبى عن أبيه حدثنا الأشعث بن إسحق عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يأمر أن لايتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت (وماتنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم) فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وهذا أيضا غريب

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى إذا خفت من قوم خيانة فانبذ إليهم عهدهم على سواء فإن استمروا على حربك ومنابذتك فقاتلهم (وإن جنحوا) أى مالوا (للسلم) أى المسالمة والمصالحة والمهادنة (فاجنح لها) أى فمل إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنى فضيل ابن سليمان يعنى النميرى حدثنا محمد بن أبى يحيى عن إياس بن عمرو الأسلمى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنه سيكون اختلاف أو أمر فإن استطعت أن يكون السلم فافعل » وقال مجاهد نزلت فى بنى قريظة وهذا فيه نظر لأن السياق كله فى وقعة بدر وذكرها مكتنف لهذا كله ، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة : إن هذه الآية منسوخة بآية السيف فى براءة (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا

باليوم الآخر) الآية وفيه نظر أيضاً لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك فأما إن كان العدو كثيفا فانه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه هذه الآية الكريمة وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم . وقوله (وتوكل على الله) أي صالحهم وتوكل على الله فان الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقووا ويستعدوا (فإن حسبك الله) أي كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) أي جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك ومناصرتك وموازرتك (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء فان الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الإيمان كما قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين لكم آياته لعلكم تهتدون) وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي وعالة فأغناكم الله بي وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن ، ولهذا قال تعالى (ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) أي عزيز الجناب فلا يخيب رجاء من توكل عليه حكيم في أفعاله وأحكامه ، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أنبأنا علي بن بشر الصيرفي القزويني في منزلنا أنبأنا أبو عبد الله محمد ابن الحسين القنديلي الاستراباذي حدثنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن النعمان الصفار حدثنا ميمون بن الحكم حدثنا بكر ابن الشرود عن محمد بن مسلم الطائفي عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عباس قال قرابة الرحم تقطع ومنة النعمة تكفر ولم ير مثل تقارب القلوب يقول الله تعالى (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) وذلك موجود في الشعر

إذا بت ذو قربى إليك بزلة * فغشك واستغنى فليس بذي رحم
ولكن ذا القربى الذي إن دعوته * أجاب وأن يرمى العدو الذي ترمي

قال ومن ذلك قول القائل :

ولقد صحبت الناس ثم سبرتهم * وبلوت ما وصلوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطعا * وإذا المودة أقرب الأسباب

قال البيهقي لا أدري هذا موصول بكلام ابن عباس أو هو من قول من دونه من الرواة ، وقال أبو إسحق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سمعه يقول (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) الآية قال هم المتحابون في الله . وفي رواية نزلت في المتحابين في الله . رواه النسائي والحاكم في مستدركه وقال صحيح وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : إن الرحم لتقطع ، وإن النعمة لتكفر وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) رواه الحاكم أيضاً ، وقال أبو عمرو الأوزاعي حدثني عبدة بن أبي لبابة عن مجاهد ولقيته فأخذ بيدي فقال : إذا التقى المتحابان في الله فأخذ أحدهما بيد صاحبه وضحك إليه تحاتت خطاياهما كما تحات ورق الشجر . قال عبدة: فقلت له إن هذا ليسير فقال: لا تقل ذلك فان الله يقول (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) قال عبدة فعرفت أنه أفقه مني وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا ابن يمان عن إبراهيم الجزري عن الوليد بن أبي مغيث عن مجاهد قال إذا التقى المسلمان فتصافحا غفر لهما ، قال قلت لمجاهد بمصافحة يغفر لهما ؟ قال مجاهد أما سمعته يقول (لو أنفقت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) فقال الوليد لمجاهد أنت أعلم مني وكذا روى طلحة بن مصرف عن مجاهد، وقال ابن عون عن عمير بن إسحق قال : كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس الالفة وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني رحمه الله حدثنا الحسين بن إسحق التستري حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا سالم بن غيلان سمعت جعدا أبا عثمان حدثني أبو عثمان النهدي عن سلمان الفارسي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن المسلم إذا لقي

أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تحات الورق عن الشجرة اليابسة فى يوم ريح عاصف وإلا غفر لهما ذنوبهما ولو كانت مثل زبد البحار »

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

يحرض تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم أى كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعدادهم وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين . قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبيد الله بن موسى أنبأنا سفيان عن ابن شوذب عن الشعبى فى قوله (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) قال حسبك الله وحسب من شهد معك قال وروى عن عطاء الخراسانى وعبد الرحمن ابن زيد مثله ، ولهذا قال (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) أى حثهم وذمرهم عليه ولهذا كان رسول الله ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون فى عددهم وعددهم «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» فقال عمير بن الحمام عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ « نعم » فقال بخ بخ فقال « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟» قال رجاء أن أكون من أهلها قال « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ثم ألقى بقيتهن من يده وقال: لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقد روى عن سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت حين أسلم عمر بن الخطاب وكمل به الأربعون ، وفى هذا نظر لأن هذه الآية مدنية وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة والله أعلم . ثم قال تعالى مبشرا المؤمنين وآمرا (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) كل واحد بعشرة ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة . قال عبد الله بن المبارك حدثنا جرير بن حازم حدثنى الزبير بن الخريت عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) شق ذلك على المسلمين حين فرض الله عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ثم جاء التخفيف فقال (الآن خفف الله عنكم) إلى قوله (يغلبوا مائتين) قال خفف الله عنهم من العدة ونقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم . وروى البخارى من حديث ابن المبارك نحوه . وقال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس فى هذه الآية قال : كتب عليهم أن لا يفر عشرون من مائتين ثم خفف الله عنهم فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) فلا ينبغى لمائة أن يفروا من مائتين ، وروى البخارى عن على ابن عبد الله عن سفيان به نحوه ، وقال محمد بن إسحق حدثنى ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ثقل على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مائتين ومائة ألفا فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى فقال (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) الآية فكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم يسغ لهم أن يفروا من عدوهم ، وإذا كانوا دون ذلك لم يجب عليهم قتالهم وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم ، وروى على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس نحو ذلك قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى والضحاك وغيرهم نحو ذلك وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث المسيب بن شريك عن ابن عون عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما فى قوله (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) قال نزلت فينا أصحاب محمد ﷺ ، وروى الحاكم

فى مستدركه من حديث أبى عمرو بن العلاء عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا) رفع ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا على بن هاشم عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال استشار النبى صلى الله عليه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر فقال « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال يارسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبى ﷺ ثم عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن الله قد أمكنكم منهم وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال يارسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه النبى ﷺ ثم عاد النبى ﷺ فقال للناس مثل ذلك فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال يارسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء قال فذهب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه من الغم فعفا عنهم وقبل منهم الفداء قال وأنزل الله عز وجل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وقد سبق فى أول السورة حديث ابن عباس فى صحيح مسلم بنحو ذلك وقال الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ « ماتقولون فى هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر يارسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر يارسول الله كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم ناراً ثم ألقهم فيه قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئا ثم قام فدخل فقال ناس يأخذ بقول أبى بكر وقال ناس يأخذ بقول عمر وقال ناس يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ثم خرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وإن مثلك ياعمر كمثل موسى عليه السلام قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وإن مثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام قال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً) أنتم عالة فلاينفكن أحدمنهم إلا بفداء أوضربة عنق » قال ابن مسعود قلت يارسول الله إلا سهيل ابن بيضاء فانه يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ « إلا سهيل بن بيضاء » فأنزل الله عز وجل (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) إلى آخر الآية رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى معاوية عن الأعمش به والحاكم فى مستدركه ، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وروى الحافظ أبوبكر بن مردويه عن عبد الله بن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ نحوه . وفى الباب عن أبى أيوب الأنصارى وروى ابن مردويه أيضا واللفظ له والحاكم فى مستدركه من حديث عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال لما أسر الأسارى يوم بدر أسر العباس فيمن أسر . أسره رجل من الأنصار ، قال وقد أوعدته الأنصار أن يقتلوه فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ « إنى لم أنم الليلة من أجل عمى العباس وقد زعمت الأنصار أنهم قاتلوه » فقال له عمر أفآتيهم فقال « نعم » فأتى عمر الأنصار فقال لهم أرسلوا العباس فقالوا لا والله لا نرسله فقال لهم عمر فان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم رضى قالوا فان كان لرسول الله ﷺ رضى فخذه فأخذه عمر فلما صار فى يده قال له ياعباس

أسلم فوالله لأن تسلم أحب الى من أن يسلم الخطاب وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك قال واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فيهم فقال أبو بكر عشيرتك فأرسلهم فاستشار عمر فقال اقتلهم ففاداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) الآية قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، وقال سفيان الثورى عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة عن على رضى الله عنه قال جاء جبريل إلى النبى ﷺ يوم بدر فقال خير أصحابك فى الأسارى إن شاءوا الفداء وإن شاءوا القتل على أن يقتل عاما مقبلا منهم مثلهم قالوا الفداء ويقتل منا رواه الترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه من حديث الثورى به ، وهذا حديث غريب جدا ، وقال ابن عون عن عبيدة عن على قال : قال رسول الله ﷺ فى أسارى يوم بدر « إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدتهم » قال فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضى الله عنه ، ومنهم من روى هذا الحديث عن عبيدة مرسلا فالله أعلم وقال محمد بن إسحق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) فقرأ حتى بلغ عذاب عظيم . قال غنائم بدر قبل أن يحلها لهم يقول لولا أنى لا أعذب من عصانى حتى أتقدم اليه لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وكذا روى ابن أبى نجيح عن مجاهد وقال الأعمش سبق منه أن لا يعذب أحدا شهد بدرا وروى نحوه عن سعد بن أبى وقاص وسعيد بن جبير وعطاء ، وقال شعبة عن أبى هاشم عن مجاهد (لولا كتاب من الله سبق) أى لهم بالمغفرة ونحوه عن سفيان الثورى رحمه الله ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (لولا كتاب من الله سبق) يعنى فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم (لمسكم فيما أخذتم) من الأسارى (عذاب عظيم) قال الله تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) الآية . وكذا روى العوفى عن ابن عباس ، وروى مثله عن أبى هريرة وابن مسعود وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة والأعمش أيضا أن المراد (لولا كتاب من الله سبق) لهذه الأمة باحلال الغنائم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، ويستشهد لهذا القول بما أخرجاه فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه وبعثت إلى الناس عامة » وقال الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لم تحل الغنائم لسود الرءوس غيرنا» ولهذا قال تعالى (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) الآية فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء ، وقد روى الإمام أبو داود فى سننه حدثنا عبد الرحمن بن المبارك العيسى حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن أبى العنبس عن أبى الشعثاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة ، وقد استمر الحكم فى الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببنى قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ فى تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا فى سبى سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ فى مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعى وطائفة من العلماء ، وفى المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر فى موضعه من كتب الفقه

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى العباس بن عبد الله بن معقل عن بعض أهله عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر « إنى قد عرفت أن أناسا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى منكم أحدا منهم -أى من بنى هاشم- فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فإنه إنما أخرج مستكرها » فقال أبو حذيفة بن عتبة أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا

وعشائرنا ونترك العباس والله لئن لقيته لألجمنه بالسيف فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لعمر بن الخطاب « يا أبا حفص - قال عمر والله إنه لأول يوم كنانى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا حفص - أيضرب وجه عم رسول الله - ﷺ - بالسيف؟» فقال عمر يا رسول الله ائذن لى فأضرب عنقه فوالله لقد نافق ، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك والله ما آمن من تلك الكلمة التى قلت ولا أزال منها خائفا إلا أن يكفرها الله تعالى عنى بشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا رضى الله عنه . وبه عن ابن عباس قال لما أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر والأسارى محبوسون بالوثاق بات رسول الله ﷺ ساهراً أول الليل فقال له أصحابه يا رسول الله مالك لا تنام ؟ وقد أسر العباس رجل من الأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سمعت أنين عمى العباس فى وثاقه فأطلقوه » فسكت فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن إسحق وكان أكثر الأسارى يوم بدر فداء العباس بن عبد المطلب وذلك أنه كان رجلا موسرا فافتدى نفسه بمائة أوقيه ذهبا ، وفى صحيح البخارى من حديث موسى بن عقبة قال ابن شهاب حدثنا أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار قالوا يا رسول الله ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه . قال « لا والله لا تذرون منه درهما » وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة عن الزهرى عن جماعة سماهم قالوا بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس يا رسول الله قد كنت مسلما فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم بإسلامك فان يكن كما تقول فان الله يجزيك وأما ظاهرك فقد كان علينا فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر» قال ما ذاك عندى يا رسول الله قال « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ فقلت لها إن أصبت فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لبنىّ الفضل وعبد الله وقثم» قال والله يا رسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله إن هذا لشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل فأحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى عشرين أوقية من مال كان معى فقال رسول الله ﷺ « لا ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه فأنزل الله عزوجل فيه (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) قال العباس فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإسلام عشرين عبدا كلهم فى يده مال يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل ، وقد روى ابن إسحق أيضا عن ابن أبى نجيح عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية بنحو مما تقدم . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا ابن إدريس عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال العباس فىّ نزلت (ماكان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) فأخبرت النبى ﷺ باسلامى وسألته أن يحاسبنى بالعشرين الأوقية التى أخذت منى فأبى فأبدلنى الله بها عشرين عبدا كلهم تاجر مالى فى يده ، وقال ابن إسحق أيضا حدثنى الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما عن جابر بن عبد الله بن رباب قال كان العباس بن عبد المطلب يقول فى نزلت والله حين ذكرت لرسول الله ﷺ إسلامى ثم ذكر نحو الحديث كالذى قبله . وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى)عباس وأصحابه قال: قالوا للنبى ﷺ آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله لننصحن لك على قومنا . فأنزل الله (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) إيمانا وتصديقا يخلف لكم خيرا مما أخذ منكم (ويغفر لكم) الشرك الذى كنتم عليه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وإن لى الدنيا لقد قال (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) فقد أعطانى خيرا مما أخذ منى مائة ضعف وقال (ويغفر لكم) وأرجو أن يكون قد غفر لى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية كان العباس أسر يوم بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقية من ذهب فقال العباس حين قرئت هذه الآية لقد أعطانى الله عز وجل خصلتين ما أحب أن لى بهما الدنيا : إنى أسرت يوم بدر ففديت نفسى بأربعين أوقية فآتانى أربعين عبدا وإنى لأرجو المغفرة التى وعدنا الله عز وجل فقال قتادة فى تفسير هذه الآية ذكر لنا أن رسول الله ﷺ

لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفا وقد توضأ لصلاة الظهر فما أعطى يومئذ شاكيا ولا حرم سائلا وما صلى يومئذ حتى فرقه ، فأمر العباس أن يأخذ منه ويحتثى فكان العباس يقول : هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة وقال يعقوب بن سفيان حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال بعث ابن الحضرمى إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفا ما أتاه مال أكثر منه لاقبل ولا بعد . قال فنثرت على حصير ونودى بالصلاة . قال وجاء رسول الله ﷺ فمثل قائما على المال وجاء أهل المسجد فما كان يومئذ عدد ولا وزن ما كان إلا فيضا وجاء العباس بن عبد المطلب فحثا فى خميصة عليه وذهب يقوم فلم يستطع قال فرفع رأسه إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : ارفع على . قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج ضاحكه أو نابه وقال له « أعد من المال طائفة وقم بما تطيق » قال ففعل وجعل العباس يقول : وهو منطلق أما إحدى اللتين وعدنا الله فقد أنجزنا ، وما ندرى ما يصنع فى الأخرى (يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى) الآية ثم قال هذا خير مما أخذ منا وما أدرى ما يصنع الله فى الأخرى فما زال رسول الله ﷺ ماثلا على ذلك المال حتى ما بقى منه درهم وما بعث إلى أهله بدرهم ثم أتى الصلاة فصلى .

(حديث آخر فى ذلك) قال الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ. أخبرنى أبو الطيب محمد بن محمد بن عبد الله السعيدى حدثنا محمد بن عصام حدثنا حفص بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال أتى رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال «انثروه فى مسجدى» قال وكان أكثر مال أتى به رسول الله ﷺ فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه إذ جاءه العباس فقال يا رسول الله أعطنى فإنى فاديت نفسى ، وفاديت عقيلا فقال له رسول الله ﷺ «خذ» فحثا فى ثوبه ثم ذهب يقله فلم يستطع فقال مر بعضهم يرفعه إلىّ قال «لا» قال فارفعه أنت علىّ قال « لا » فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق فما زال رسول الله ﷺ يتبعه بصره حتى خفى عنه عجبا من حرصه فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم ، وقد رواه البخارى فى مواضع من صحيحه تعليقا بصيغة الجزم يقول : وقال إبراهيم بن طهمان ويسوقه وفى السياقات أتم من هذا

وقوله (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل) أى (وإن يريدوا خيانتك) فيما أظهروا لك من الأقوال (فقد خانوا الله من قبل) أى من قبل بدر بالكفر به (فأمكن منهم) أى بالأسارى يوم بدر (والله عليم حكيم) أى عليم بفعله حكيم فيه .قال قتادة نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح الكاتب حين ارتد ولحق بالمشركين وقال ابن جريج عن عطاء الخراسانى عن ابن عباس نزلت فى عباس وأصحابه حين قالوا لننصحن لك على قومنا وفسرها السدى على العموم وهو أشمل وأظهر والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ذكر تعالى أصناف المؤمنين وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم وجاءوا لنصر الله ورسوله وإقامة دينه وبذلوا أموالهم وأنفسهم فى ذلك ، وإلى أنصار وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك آووا إخوانهم المهاجرين فى منازلهم وواسوهم فى أموالهم ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم فهؤلاء (بعضهم أولياء بعض) أى كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار كل اثنين أخوان فكانوا يتوارثون بذلك إرثا مقدما على القرابة حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث . ثبت ذلك فى صحيح البخارى عن ابن عباس ، ورواه

العوفى وعلى بن أبى طلحة عنه ، وقال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد : قال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبى وائل عن جرير هو ابن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة » تفرد به أحمد . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سفيان حدثنا عكرمة يعنى ابن إبراهيم الأزدى حدثنا عاصم عن شقيق عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « المهاجرون والأنصار ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض فى الدنيا والآخرة » هكذا رواه فى مسند عبد الله بن مسعود . وقد أثنى الله ورسوله على المهاجرين والأنصار فى غير ما آية فى كتابه فقال (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار) الآية وقال (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) الآية وقال تعالى (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) الآية وأحسن ماقيل فى قوله (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) أى لا يحسدونهم على فضل ما أعطاهم الله على هجرتهم فان ظاهر الآيات تقديم المهاجرين على الأنصار ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لايختلفون فى ذلك ، ولهذا قال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا محمد بن معمر حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب عن حذيفة قال : خيرنى رسول الله ﷺ بين الهجرة والنصرة فاخترت الهجرة ثم قال لانعرفه إلا من هذا الوجه وقوله تعالى (والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم) قرأ حمزة ولايتهم بالكسر والباقون بالفتح وهما واحد كالدلالة والدلالة (من شىء حتى يهاجروا) هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين وهم الذين آمنوا ولم يهاجرا بل أقاموا فى بواديهم فهؤلاء ليس لهم فى المغانم نصيب ، ولا فى خمسها إلا ماحضروا فيه القتال كما قال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن يزيد بن الحصيب الأسلمى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال « اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال — أو خلال — فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم ، وكف عنهم . ادعهم الى الاسلام فان أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ماللمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين ، فان أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فان أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » انفرد به مسلم وعنده زيادات أخر وقوله (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) الآية يقول تعالى وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا فى قتال دينى على عدولهم فانصروهم فانه واجب عليكم نصرهم لأنهم إخوانكم فى الدين إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق أى مهادنة الى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم وهذا مروى عن ابن عباس رضى الله عنه

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار كما قال الحاكم فى مستدركه حدثنا محمد بن صالح بن هانىء حدثنا أبو سعيد يحيى بن منصور الهروى حدثنا محمد بن أبان حدثنا محمد بن يزيد وسفيان بن حسين عن الزهرى عن على بن الحسين عن عمرو بن عثمان عن أسامة عن النبى ﷺ قال « لا يتوارث أهل

ملتين ولا يرث مسلم كافراً ولا كافر مسلما ـ ثم قرأ ـ (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)» ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . قلت الحديث فى الصحيحين من رواية أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم » وفى المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يتوارث أهل ملتين شتى » وقال الترمذى حسن صحيح وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد عن معمر عن الزهرى أن رسول الله ﷺ أخذ على رجل دخل فى الاسلام فقال « تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان ، وإنك لاترى نار مشرك إلا وأنت له حرب» وهذا مرسل من هذا الوجه وقد روى متصلا من وجه آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال « أنا برىء من كل مسلم بين ظهرانى المشركين » ثم قال « لا يتراءى ناراهما » وقال أبو داود فى آخر كتاب الجهاد حدثنا محمد ابن داود بن سفيان أخبرنى يحيى بن حسان أنبأنا سليمان بن موسى أبو داود حدثنا جعفر بن سعيد بن سمرة بن جندب عن سمرة بن جندب : أما بعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » وذكر الحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حاتم بن إسماعيل عن عبد الله بن هرمز عن محمد وسعيد ابنى عبيد عن أبى حاتم المزنى قال : قال رسول الله ﷺ «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » قالوا يارسول الله وإن كان(١) فيه قال: « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه » ثلاث مرات وأخرجه أبو داود والترمذى من حديث حاتم بن إسماعيل به بنحوه ثم روى من حديث عبد الحميد بن سليمان عن ابن عجلان عن أبى وثيمة النضرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه ، إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض » ومعنى قوله (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » أى إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين وإلا وقعت فتنة فى الناس وهو التباس الأمر واختلاط المؤمنين بالكافرين فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا عطف بذكر مالهم فى الآخرة فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم فى أول السورة وأنه سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب ان كانت ، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه . ثم ذكر أن الأتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم فى الآخرة كما قال (والسابقون الأولون) الآية وقال (والذين جاءوا من بعدهم) الآية . وفى الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « المرء مع من أحب » وفى الحديث الآخر « من أحب قوما فهو منهم » وفى رواية «حشر معهم» . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن شريك عن عاصم عن أبى وائل عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض الى يوم القيامة » قال شريك فحدثنا الأعمش عن تميم بن سلمة عن عبد الرحمن بن هلال عن جرير عن النبى ﷺ مثله تفرد به أحمد من هذين الوجهين. وأما قوله تعالى (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) أى فى حكم الله وليس المراد بقوله (وأولوا الأرحام) خصوصية ما يطلقه علماء الفرائض على القرابة الذين لا فرض لهم ولا هم عصبة بل يدلون بوارث كالخالة والخال والعمة وأولاد البنات وأولاد الأخوات ونحوهم كما قد يزعمه بعضهم ويحتج بالآية ويعتقد ذلك صريحا فى المسألة بل الحق

(١) فى النسخة الأميرية بياض بعد لفظ كان وليس فيها لفظ فيه

أن الآية عامة تشمل جميع القرابات كما نص عليه ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة وغير واحد على أنها ناسخة للارث بالحلف والاخاء اللذين كانوا يتوارثون بهما أولا ، وعلى هذا فتشمل ذوى الارحام بالاسم الخاص ، ومن لم يورثهم يحتج بأدلة من أقواها حديث « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قالوا فلو كان ذا حق لكان ذا فرض فى كتاب الله مسمى فلما لم يكن كذلك لم يكن وارثا والله أعلم

آخر تفسير سورة الأنفال ولله الحمد والمنة وعليه التكلان وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ تفسير سورة التوبة مدنية ﴾

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن أبى إسحق قال سمعت البراء يقول آخر آية نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة) وآخر سورة نزلت براءة ، وإنما لم يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحي بن سعيد ومحمد ابن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطول ما حملكم على ذلك فقال عثمان كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها وخشيت أنها منها وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرق أخر عن عوف الأعرابى به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم فى ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى فى الناس (براءة من الله ورسوله) فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له كما سيأتى بيانه فقوله تعالى (براءة من الله ورسوله) أى هذه براءة أى تبرؤ من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) اختلف المفسرون هٰهنا اختلافا كثيرا فقال قائلون هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى (فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) الآية ولما سيأتى فى الحديث . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها ، وقد اختاره ابن جرير رحمه الله وروى عن الكلبى ومحمد بن كعب القرظى وغير واحد . وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين * فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم

أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضا حتى يدخلوا فى الإسلام وقال أبو معشر المدنى حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع وبعث على بن أبى طالب بثلاثين آية أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (براءة من الله ورسوله) إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد أو غيرهم فقفل رسول الله ﷺ من تبوك حين فرغ فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحج ثم قال : « إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل أبا بكر وعلياً رضى الله عنهما فطافا بالناس فى ذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها وبالمواسم كلها فآذنوا أصحاب العهد بأن يؤمنوا أربعة أشهر فهى الأشهر المتواليات عشرون من ذى الحجة إلى عشر يخلون من ربيع الآخر ثم لا عهد لهم وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا وهكذا روى عن السدى وقتادة وقال الزهرى : كان ابتداء التأجيل من شوال وآخره سلخ المحرم وهذا القول غريب وكيف يحاسبون بمدة لم يبلغهم حكمها وإنما ظهر لهم أمرها يوم النحر حين نادى أصحاب رسول الله ﷺ بذلك ولهذا قال تعالى .

﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى وإعلام (من الله ورسوله) وتقدم وإنذار إلى الناس (يوم الحج الأكبر) وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعا (أن الله برىء من المشركين ورسوله) أى برىء منهم أيضا ثم دعاهم إلى التوبة إليه فقال (فإن تبتم) أى مما أنتم فيه من الشرك والضلال (فهو خير لكم ، وإن توليتم) أى استمررتم على ما أنتم عليه (فاعلموا أنكم غير معجزى الله) ، بل هو قادر عليكم وأنتم فى قبضته وتحت قهره ومشيئته (وبشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى فى الدنيا بالخزى والنكال وفى الآخرة بالمقامع الأغلال ، قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . قال حميد ثم أردف النبى صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة : قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ورواه البخارى أيضا حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : بعثنى أبو بكر فيمن يؤذن يوم النحر بمنى ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ويوم الحج الأكبر يوم النحر وإنما قيل الأكبر من أجل قول الناس الحج الأصغر فنبذ أبو بكر إلى الناس فى ذلك العام فلم يحج عام حجة الوداع الذى حج فيه رسول الله ﷺ مشرك . هذا لفظ البخارى فى كتاب الجهاد . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله (براءة من الله ورسوله) قال لما كان النبى ﷺ زمن حنين اعتمر من الجعرانة ثم أمر أبا بكر على تلك الحجة قال معمر : قال الزهرى وكان أبو هريرة يحدث أن أبا بكر أمر أبا هريرة أن يؤذن ببراءة فى حجة أبى بكر قال أبو هريرة ثم أتبعنا النبى ﷺ علياً وأمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر على الموسم كما هو أو قال على هيئته . وهذا السياق فيه غرابة من جهة أن أمير الحج كان سنة عمرة الجعرانة إنما هو عتاب بن الأسيد فأما أبو بكر إنما كان أميراً سنة تسع

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن مغيرة عن الشعبي عن محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ . قال كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فان أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فاذا مضت الأربعة الأشهر فان الله بريء من المشركين ورسوله ، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادي حتى صحل صوتي ، وقال الشعبي حدثني محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال كنت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ ينادي فكان إذا صحل ناديت فقلت بأي شيء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك . رواه ابن جرير من غير وجه عن الشعبي ، ورواه شعبة عن مغيرة عن الشعبي به إلا أنه قال : ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى أربعة أشهر وذكر تمام الحديث. قال ابن جرير وأخشى أن يكون وهما من بعض نقلته لأن الأخبار متضافرة في الأجل بخلافه . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن سماك عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه ببراءة مع أبي بكر فلما بلغ ذا الحليفة قال «لا يبلغها إلا أنا أو رجل من أهل بيتي» فبعث بها مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورواه الترمذي في التفسير عن بندار عن عفان وعبد الصمد كلاهما عن حماد بن سلمة به ثم قال حسن غريب من حديث أنس رضي الله عنه ، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا محمد بن سليمان حدثنا لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه قال : لما نزلت عشر آيات من براءة على النبي ﷺ دعا النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة ثم دعاني فقال « أدرك أبا بكر فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب إلى أهل مكة فاقرأه عليهم » فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال يارسول الله ، نزل فيّ شيء ؟ فقال « لا ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك » هذا إسناد فيه ضعف ، وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فوره بل بعد قضائه للمناسك التي أمره عليها رسول الله ﷺ كما جاء مبينا في الرواية الأخرى . وقال عبد الله أيضا حدثني أبو بكر حدثنا عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن سماك عن حنش عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه ببراءة قال يانبي الله إني لست باللسن ولا بالخطيب قال « لابد لي أن أذهب بها أنا أو تذهب بها أنت » قال فان كان ولا بد فسأذهب أنا ، قال « انطلق فان الله يثبت لسانك ويهدي قلبك » قال ثم وضع يده على فيه . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع رجل من همدان سألنا عليا بأي شيء بعثت ؟ يعني يوم بعثه النبي ﷺ مع أبي بكر في الحجة قال بعثت بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم عهد فعهده إلى مدته ، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا ، ورواه الترمذي عن قلابة عن سفيان بن عيينة وقال حسن صحيح كذا قال ، ورواه شعبة عن أبي إسحق فقال زيد بن أثيل وهم فيه ، ورواه الثوري عن أبي إسحق عن بعض أصحابه عن علي رضي الله عنه . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن زكريا عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع عن علي قال : بعثني رسول الله ﷺ حين أنزلت براءة بأربع : أن لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ثم رواه ابن جرير عن محمد ابن عبد الأعلى عن ابن ثور عن معمر عن أبي إسحق عن الحارث عن علي قال أمرت بأربع فذكره ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن زيد بن يثيع قال نزلت براءة فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر ثم أرسل عليا فأخذها فلما رجع أبو بكر قال نزل فيّ شيء ؟ قال « لا ولكن أمرت أن أبلغها أنا أو رجل من أهل بيتي » فانطلق إلى أهل مكة فقام فيهم بأربع لا يدخل مكة مشرك بعد عامه هذا ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر

محمد بن على بن الحسين بن على قال : لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس فقيل يارسول الله : لو بعثت إلى أبى بكر فقال « لايؤدى عنى إلارجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان : ومن كان له عهد عند رسول الله ـ ﷺ ـ فهو له إلى مدته » فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أومأمور ؟ فقال بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس إنه لايدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى

وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أخبرنا أبو زرعة وعبدالله بن راشد أخبرنا حيوة بن شريح أخبرنا ابن صخر أنه سمع أبا معاوية البجلى من أهل الكوفة يقول سمعت أبا الصهباء البكرى وهو يقول : سألت عليا عن يوم الحج الأكبر فقال إن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر بن أبى قحافة يقيم للناس الحج وبعثنى معه بأربعين آية من براءة حتى أتى عرفة فخطب الناس يوم عرفة ، فلما قضى خطبته التفت إلىّ فقال قم ياعلى فأد رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت فقرأت عليهم أربعين آية من براءة ثم صدرنا فأتينا منى فرميت الجمرة ونحرت البدنة ثم حلقت رأسى وعلمت أن أهل الجمع لم يكونوا كلهم حضروا خطبة أبى بكر يوم عرفة فطفت أتتبع بها الفساطيط أقرأها عليهم فمن ثم أخال حسبتم أنه يوم النحر ألا وهو يوم عرفة ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحق سألت أبا جحيفة عن يوم الحج الأكبر قال يوم عرفة ، فقلت أمن عندك أم من عند أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال كل فى ذلك وقال عبد الرزاق أيضا عن ابن جريج عن عطاء قال : يوم الحج الأكبر يوم عرفة . وقال عمرو ابن الوليد السهمى حدثنا شهاب بن عباد البصرى عن أبيه قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : هذا يوم عرفة هذا يوم الحج الأكبر فلا يصومنه أحد . قال فحججت بعد أبى فأتيت المدينة فسألت عن أفضل أهلها فقالوا سعيد بن المسيب فأتيته فقلت إنى سألت عن أفضل أهل المدينة فقالوا سعيد بن المسيب فأخبرنى عن صوم يوم عرفة فقال أخبرك عمن هو أفضل منى مائة ضعف عمر أو ابن عمر كان ينهى عن صومه ويقول هو يوم الحج الأكبر رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، وهكذا روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير ومجاهد وعكرمة وطاوس أنهم قالوا يوم عرفة هو يوم الحج الأكبر وقد ورد فيه حديث مرسل رواه ابن جريج أخبرت عن محمد بن قيس عن ابن مخرمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم عرفة فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وروى من وجه آخر عن ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة عن رسول الله ﷺ أنه خطبهم بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر »

والقول الثانى أنه يوم النحر قال هشيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن على رضى الله عنه قال : يوم الحج الأكبر يوم النحر . وقال أبو إسحق السبيعى عن الحارث الأعور سألت عليا رضى الله عنه عن يوم الحج الأكبر فقال هو يوم النحر ، وقال شعبة عن الحكم سمعت يحى بن الجزار يحدث عن على رضى الله عنه أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجل فأخذ بلجام دابته فسأله عن يوم الحج الأكبر فقال هو يومك هذا خل سبيلها ، وقال عبد الرزاق عن سفيان عن شعبة عن عبد الملك بن عمير عن عبدالله بن أبى أوفى أنه قال يوم الحج الأكبر يوم النحر ، وروى شعبة وغيره عن عبدالملك بن عمير به نحوه . وهكذا رواه هشيم وغيره عن الشيبانى عن عبدالله بن أبى أوفى . وقال الأعمش عن عبد الله بن سنان قال خطبنا المغيرة بن شعبة يوم الأضحى على بعير فقال : هذا يوم الأضحى وهذا يوم النحر وهذا يوم الحج الأكبر وقال حماد بن سلمة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس انه قال : الحج الأكبر

يوم النحر ، وكذا روى عن أبي جحيفة وسعيد بن جبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ونافع بن جبير بن مطعم والشعبي وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة وأبي جعفر الباقر والزهري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: يوم الحج الأكبر هو يوم النحر واختاره ابن جرير ، وقد تقدم الحديث عن أبي هريرة في صحيح البخاري أن أبا بكر بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى وقد ورد في ذلك أحاديث أخر كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني سهل بن محمد الحساني حدثنا أبو جابر الحرثي حدثنا هشام بن الغازي الجرشي عن نافع عن ابن عمر قال: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر » وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث أبي جابر واسمه محمد بن عبد الملك به ، ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الوليد بن مسلم عن هشام بن الغازي به ثم رواه من حديث سعيد بن عبد العزيز عن نافع به ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال « أتدرون أي يوم يومكم هذا؟ » قالوا يوم النحر ، قال « صدقتم يوم الحج الأكبر »

وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن المقدام حدثنا يزيد بن زريع حدثنا ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال لما كان ذلك اليوم قعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بعير له وأخذ الناس بخطامه أو زمامه فقال « أي يوم هذا ؟ » قال فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه فقال « أليس هذا يوم الحج الأكبر ؟ » وهذا إسناد صحيح وأصله مخرج في الصحيح . وقال أبو الأحوص عن شبيب عن عروة عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال « أي يوم هذا ؟ » فقالوا اليوم الحج الأكبر ، وعن سعيد بن المسيب أنه قال : يوم الحج الأكبر اليوم الثاني من يوم النحر رواه ابن أبي حاتم ، وقال مجاهد أيضاً: يوم الحج الأكبر أيام الحج كلها، وكذا قال أبو عبيد. قال سفيان: يوم الحج ويوم الجمل ويوم صفين أي أيامه كلها ، وقال سهل السراج سئل الحسن البصري عن يوم الحج الأكبر فقال مالكم وللحج الأكبر ذاك عام حج فيه أبو بكر الذي استخلفه رسول الله ﷺ فحج بالناس رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن ابن عون سألت محمداً يعني ابن سيرين عن يوم الحج الأكبر فقال كان يوما وافق فيه حج رسول الله ﷺ وحج أهل الوبر

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها وقد تقدمت الأحاديث ومن كان له عهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فعهده إلى مدته وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده ولم يظاهر على المسلمين أحدا أي يمالىء عليهم من سواهم فهذا الذي يوفى له بذمته وعهده إلى مدته ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك فقال (إن الله يحب المتقين) أي الموفين بعهدهم

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون في المراد بالأشهر الحرم ههنا ما هي فذهب ابن جرير إلى أنها المذكورة في قوله تعالى (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) الآية قاله أبو جعفر الباقر ولكن قال ابن جرير: آخر الأشهر الحرم في حقهم المحرم وهذا الذي ذهب إليه حكاه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وإليه ذهب الضحاك أيضا وفيه نظر والذي يظهر من

حيث السياق ما ذهب إليه ابن عباس فى رواية العوفى عنه وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحق وقتادة والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله (فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) ثم قال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم) أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم لأن عود العهد على مذكور أولى من مقدر ثم إن الأشهر الأربعة المحرمة سيأتى بيان حكمها فى آية أخرى بعد فى هذه السورة الكريمة ، وقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) أى من الأرض وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال فى الحرم بقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) وقوله (وخذوهم) أى وأسروهم إن شئتم قتلا وإن شئتم أسرا وقوله (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم ، بل اقصدوهم بالحصار فى معاقلهم وحصونهم والرصد فى طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ولهذا قال (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ولهذا اعتمد الصديق رضى الله عنه فى قتال مانعى الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال وهى الدخول فى الإسلام والقيام بأداء واجباته ونبه بأعلاها على أدناها فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التى هى حق الله عز وجل وبعدها أداء الزكاة التى هى نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج وهى أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة . وقد جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث وقال أبو إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال: يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !

وقال الإمام أحمد حدثنا على بن إسحق أنبأنا عبد الله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ﷺ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ورواه البخارى فى صحيحه وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا عبد الأعلى بن واصل الأسدى حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض » قال : وقال أنس: هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل، قال الله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) قال: توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ثم قال فى آية أخرى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) ورواه ابن مردويه ورواه محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة له . حدثنا إسحق بن إبراهيم أنبأنا حكام بن سلمة حدثنا أبو جعفر الرازى به سواء وهذه الآية الكريمة هى آية السيف التى قال فيها الضحاك بن مزاحم إنها نسخت كل عهد بين النبى ﷺ وبين أحد من المشركين وكل عقد وكل مدة وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية: قال أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا فى الإسلام ، ونقض ما كان سمى لهم من العهد والميثاق ،وأذهب الشرط الأول . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا إسحق بن موسى الأنصارى قال : قال سفيان بن عيينة قال على بن أبى طالب بعث النبى ﷺ بأربعة أسياف سيف فى المشركين من العرب ، قال الله تعالى (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) هكذا رواه مختصراً وأظن أن السيف الثانى هو قتال

أهل الكتاب لقوله تعالى (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (والسيف الثالث) قتال المنافقين فى قوله (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) الآية (والرابع) قتال الباغين فى قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله) ثم اختلف المفسرون فى آية السيف هذه فقال الضحاك والسدى هى منسوخة بقوله تعالى (فإما منا بعد وإما فداء) وقال قتادة بالعكس

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم (استجارك) أى استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله أى القرآن تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله (ثم أبلغه مأمنه) أى وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه (ذلك بأنه قوم لايعلمون) أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله فى عباده ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير هذه الآية قال إنسان يأتيك ليسمع ماتقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشدا أو فى رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ومكرز بن حفص وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون فى القضية بينه وبين المشركين فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم ، ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك » وقد قيض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل اليه ابن مسعود فقال له إنك الآن لست فى رسالة وأمر به فضربت عنقه لارحمه الله ولعنه . والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الاسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا مادام مترددا فى دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه ، لكن قال العلماء لايجوز أن يمكن من الاقامة فى دار الاسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر ، وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

يبين تعالى حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف المرهف أين ثقفوا فقال تعالى (كيف يكون للمشركين عهد) أى أمان ويتركون فيما هم فيه وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله (إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) يعنى يوم الحديبية كما قال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله) الآية (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين (فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك والمسلمون . استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى القعدة فى سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد وما لؤا حلفاءهم وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتلوهم معهم فى الحرم أيضا فعند ذلك غزاهم

رسول الله ﷺ فى رمضان سنة ثمان ففتح الله عليه البلد الحرام ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريبا من ألفين ، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير فى الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما ، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام ، والله المحمود على جميع مايقدره ويفعله

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا للمؤمنين على معاداتهم والتبرى منهم ومبينا أنهم لايستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لوظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولاراقبوا فيهم إلا ولاذمة . قال على بن أبى طلحة وعكرمة والعوفى عن ابن عباس : الإل القرابة والذمة العهد . وكذا قال الضحاك والسدى كما قال تميم بن مقبل

أفسد الناس خلوف خلفوا * قطعوا الإل وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضى الله عنه وجدناهم كاذبا إلهم * وذو الإل والعهد لا يكذب

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد لايرقبون فى مؤمن إلا : قال الإل الله ، وفى رواية لايرقبون الله ولا غيره . وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية عن سليمان عن أبى مجلز فى قوله تعالى (لايرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) مثل قوله جبريل ميكائيل إسرافيل كأنه يقول لايرقبون الله والقول الأول أظهر وأشهر وعليه الأكثر . وعن مجاهد أيضا الإل العهد . وقال قتادة الإل الحلف

﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا) يعنى أنهم اعتاضو عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة (فصدوا عن سبيله) أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق (إنهم ساء ما كانوا يعملون * لايرقبون فى مؤمن إلا ولاذمة) تقدم تفسيره وكذا الآية التى بعدها (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) إلى آخرها تقدمت . وقال الحافظ أبوبكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا يحيى بن أبى بكر حدثنا أبوجعفر الرازى حدثنا الربيع بن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته لايشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله (فإن تابوا) يقول فان خلعوا الأوثان وعبادتها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) وقال فى آية أخرى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) ثم قال البزار آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهو عنه راض وباقيه عندى من كلام الربيع بن أنس

﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم أى عهودهم ومواثيقهم (وطعنوا

فى دينكم) أى عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أو من طعن فى دين الإسلام أو ذكره بنقص ، ولهذا قال (فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) أى يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . وقد قال قتادة وغيره : أئمة الكفر كأبى جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدّد رجالا ، وعن مصعب بن سعد بن أبى وقاص قال مر سعد بن أبى وقاص برجل من الخوارج فقال الخارجى هذا من أئمة الكفر فقال سعد كذبت بل أنا قاتلت أئمة الكفر رواه ابن مردويه ، وقال الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة أنه قال ما قوتل أهل هـذه الآية بعد . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه مثله ، والصحيح أن الآية عامة وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم ، وقال الوليد بن مسلم حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبير بن نفير أنه كان فى عهد أبى بكر رضى الله عنه إلى الناس حين وجههم إلى الشام قال إنكم ستجدون قوما مجوفة رءوسهم فاضربوا معاقد الشيطان منهم بالسيوف فوالله لأن أقتل رجلا منهم أحب إلىّ من أن أقتل سبعين من غيرهم وذلك بأن الله يقول (فقاتلوا أئمة الكفر) رواه ابن أبى حاتم

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وهذا أيضا تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا باخراج الرسـول من مكة كما قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقال تعالى (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) الآية وقال تعـالى (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) الآية وقوله (وهم بدءوكم أول مرة) قيل المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلبا للقتال بغيا وتكبرا كما تقدم بسط ذلك ، وقيـل المراد نقضهم العهد وقتالهم مع حلفائهم بنى بكر لخزاعة أحـلاف رسـول الله ﷺ حتى سـار إليهم رسـول الله ﷺ عام الفتح وكان ما كان ولله الحمـد والمنة . وقوله (أتخشوهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) يقول تعالى لا تخشوهم واخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى فبيدى الأمر وما شئت كان وما لم أشأ لم يكن ، ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين وبيانا لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) وهذا عام فى المؤمنين كلهم ، وقال مجاهـد وعكرمة والسدى فى هذه الآية (ويشف صدور قوم مؤمنين) يعنى خزاعة ، وأعاد الضمير فى قوله (ويذهب غيظ قلوبهم) عليهم أيضا . وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة مؤذن لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه عن مسلم بن يسار عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال « يا عويش قولى اللهم رب النبى محمد اغفر ذنبى وأذهب غيظ قلبى وأجرنى من مضلات الفتن » ساقه من طريق أبى أحمد الحاكم عن الباغندى عن هشام بن عمار حدثنا عبد الرحمن بن أبى الجوزاء عنه (ويتوب الله على من يشاء) أى من عباده (والله عليم) أى بما يصلح عباده (حكيم) فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية فيفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو العادل الحاكم الذى لا يجور أبداً ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر بل يجازى عليه فى الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى(أم حسبتم)أيها المؤمنين أن نترككم مهملين لانختبركم بأمور يظهر بها أهل العزم الصادق من الكاذب ولهذا قال (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أى بطانة ودخيلة بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر

وما أدرى إذا يممت أرضا * أريد الخير أيهما يليني

وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى(الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقال تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ؟) الآية وقال تعالى (ماكان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه) الآية : والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فيعلم الشيء قبل كونه ومع كونه على ما هو عليه لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ما ينبغى للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له ، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام أشرف المساجد فى الأرض الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له وأسسه خليل الرحمن هذا وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر أى بحالهم وقالهم كما قال السدى لو سألت النصرانى ما دينك ؟ لقال نصرانى ، ولو سألت اليهودى ما دينك لقال يهودى ، والصابئ لقال صابئ ، والمشرك لقال مشرك (أولئك حبطت أعمالهم) أى بشركهم (وفى النار هم خالدون) وقال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) ولهذا قال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) فشهد تعالى بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا ابن وهب عن عمرو ابن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان .قال الله تعالى(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) » ورواه الترمذى وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث عبدالله بن وهب به : وقال عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح المرى عن ثابت البنانى عن ميمون بن سياه وجعفر بن زيد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الواحد بن غياث عن صالح بن بشير المرى عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إنما عمار المساجد هم أهل الله » ثم قال لا نعلم رواه عن ثابت غير صالح ، وقد روى الدارقطنى فى الإفراد من طريق حكامة بنت عثمان بن دينار عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس مرفوعا « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » ثم قال غريب ، وروى الحافظ البهائى فى المستقصى عن أبيه بسنده إلى أبى أمية الطرسوسى حدثنا منصور بن صفير حدثنا صالح المرى عن ثابت عن أنس مرفوعا يقول الله : وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فىّ وإلى المستغفرين بالإسحار صرفت ذلك عنهم . ثم قال ابن عساكر حديث غريب . وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا سعيد عن قتادة حدثنا العلاء بن زياد عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد » وقال عبد الرزاق عن معمر عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون الأودى قال . أدركت أصحاب محمد ﷺ

وهم يقولون إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها . وقال المسعودى عن حبيب ابن أبى ثابت وعدى بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى عنهما قال : من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصلى فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله . قال الله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) الآية رواه ابن مردويه . وقد روى مرفوعا من وجه آخر وله شواهد من وجوه أخر ليس هذا موضع بسطها . وقوله (وأقام الصلاة) أى التى هى أكبر عبادات البدن (وآتى الزكاة) أى التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق وقوله (ولم يخش إلا الله) أى ولم يخف إلا من الله تعالى ولم يخش سواه (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) يقول من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله (وأقام الصلاة) يعنى الصلوات الخمس (ولم يخش إلا الله) يقول لم يعبد إلا الله ثم قال (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون كقوله لنبيه ﷺ (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وهى الشفاعة ، وكل عسى فى القرآن فهى واجبة ، وقال محمد بن إسحق بن يسار رحمه الله : وعسى من الله حق

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال إن المشركين قالوا عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم فقال لأهل الحرم من المشركين (قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون) يعنى أنهم كانوا يستكبرون بالحرم قال (به سامراً) كانوا يسمرون به ويهجرون القرآن والنبى ﷺ فخير الله الإيمان والجهاد مع النبى ﷺ على عمارة المشركين البيت وقيامهم على السقاية ولم يكن ينفعهم عند الله مع الشرك به ، وإن كانوا يعمرون بيته ويحرمون به . قال الله تعالى (لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى الذين زعموا أنهم أهل العمارة فسماهم الله ظالمين بشركهم فلن تغن عنهم العمارة شيئا

وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: قال قد نزلت فى العباس بن عبد المطلب حين أسر ببدر قال لئن كنتم سبقتمونا بالاسلام والهجرة والجهاد لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى ونفك العانى ، قال الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج — إلى قوله — والله لا يهدى القوم الظالمين) يعنى أن ذلك كله كان فى الشرك ولا أقبل ما كان فى الشرك وقال الضحاك بن مزاحم أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العانى ونحجب البيت ونسقى الحاج فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج) الآية . وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن إسماعيل عن الشعبى قال نزلت فى على والعباس رضى الله عنهما بما تكلما فى ذلك وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن أبى صخرة قال سمعت محمد بن كعب القرظى يقول افتخر طلحة بن شيبة من بنى عبد الدار وعباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فقال طلحة أنا صاحب البيت معى مفتاحه ولو أشاء بت فيه ، وقال العباس أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بت فى المسجد ، فقال على رضى الله عنه ما أدرى ما تقولان لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله عز وجل

(أجعلتم سقاية الحاج ؟) الآية كلها وهكذا قال السدى إلا أنه قال افتخر على والعباس وشيبة بن عثمان وذكر نحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عمرو عن الحسن قال : نزلت فى على وعباس وعثمان وشيبة تكلموا فى ذلك فقال العباس ما أرانى إلا أنى تارك سقايتنا فقال رسول الله ﷺ « أقيموا على سقايتكم فإن لكم فيها خيرا » ورواه محمد بن ثور عن معمر عن الحسن فذكر نحوه ، وقد ورد فى تفسير هذه الآية حديث مرفوع فلابد من ذكره هنا ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن يحيى بن أبى كثير عن النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رجلا قال : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملا بعد الاسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم . فزجرهم عمر رضى الله عنه وقال لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلينا الجمعة دخلنا على النبى ﷺ فسألناه . فنزلت (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام — إلى قوله — لا يستوون عند الله)

(طريق أخرى) قال الوليد بن مسلم حدثنى معاوية بن سلام عن جده أبى سلام الأسود عن النعمان بن بشير الأنصارى قال : كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى أن لا أعمل لله عملا بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام . وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم فزجرهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه . قال ففعل فأنزل الله عز وجل (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام — إلى قوله — والله لا يهدى القوم الظالمين) ورواه مسلم فى صحيحه وأبو داود وابن جرير وهذا لفظه وابن مردويه وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم وابن حبان فى صحيحه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوٓا ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾

أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا أى اختاروا الكفر على الإيمان ، وتوعد على ذلك كقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية . وروى الحافظ البيهقى من حديث عبدالله بن شوذب قال : جعل أبو أبى عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله فأنزل الله فيه هذه الآية (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) الآية . ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد فى سبيله فقال (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها) أى اكتسبتموها وحصلتموها (وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها) أى تحبونها لطيبها وحسنها أى إن كانت هذه الأشياء (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا) أى فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ولهذا قال (حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين)

وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا ابن لهيعة عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يارسول الله لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا من نفسى ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى ، فقال رسول الله « الآن يا عمر » انفرد بإخراجه البخارى فرواه عن يحيى بن سليمان عن ابن وهب عن حيوة بن شريح عن أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع جده عبد الله بن هشام عن النبى ﷺ بهذا وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وروى الإمام أحمد وأبو داود واللفظ له من حديث أبى عبد الرحمن الخراسانى عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » وروى الإمام أحمد أيضا عن يزيد ابن هارون عن أبى حباب عن شهر بن حوشب أنه سمع عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ بنحو ذلك ، وهذا شاهد للذى قبله والله أعلم

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال ابن جريج عن مجاهد هذه أول آية نزلت من براءة يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره لا بعددهم ولا بعددهم ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع أو كثر فان يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئا فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه كما سنبينه إن شاء الله تعالى مفصلا ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده وبامداده وإن قل الجمع فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وهب بن جرير حدثنا أبى سمعت يونس يحدث عن الزهرى عن عبيد الله عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصحابة أربعة ، وخير السرايا أربعمائة ، وخير الجيوش أربعة آلاف ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة » وهكذا رواه أبو داود والترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب جدا لا يسنده أحد غير جرير بن حازم ، وإنما روى عن الزهرى عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا . وقد رواه ابن ماجه والبيهقى وغيره عن أكثم بن الجون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه والله أعلم . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ﷺ من فتح مكة وتمهدت أمورها وأسلم عامة أهلها وأطلقهم رسول الله ﷺ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه وأن أميرهم مالك بن عوف النضرى ، ومعه ثقيف بكمالها وبنو جشم وبنو سعد بن بكر وأوزاع من بنى هلال وهم قليل وناس من بنى عمرو بن عامر وعون بن عامر وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم وجاءوا بقضهم وقضيضهم فخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جيشه الذى جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ومعه الذين أسلموا من أهل مكة وهم الطلقاء فى ألفين فسار بهم إلى العدو فالتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين فكانت فيه الوقعة فى أول النهار فى غلس الصبح انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن فلما تواجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال وأصلتوا السيوف وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين كما قال الله عز وجل ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء

يسوقها إلى نحر العدو ، والعباس عمه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ويدعو المسلمين إلى الرجعة ويقول « إلىّ عباد الله إلىّ أنا رسول الله » ويقول فى تلك الحال « أنا النبى لا كذب * أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مائة ومنهم من قال ثمانون فمنهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما والعباس وعلى والفضل بن عباس وأبو سفيان بن الحارث وأيمن بن أم أيمن وأسامة بن زيد وغيرهم رضى الله عنهم ثم أمر ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته يا أصحاب الشجرة يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على أن لا يفروا عنه فجعل ينادى بهم يا أصحاب السمرة ، ويقول تارة يا أصحاب سورة البقرة ، فجعلوا يقولون يا لبيك يا لبيك، وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ﷺ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ورجع بنفسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم عليه السلام أن يصدقوا الحملة وأخذ قبضة من تراب بعد ما دعا ربه واستنصره، وقال « اللهم أنجز لى ما وعدتنى » ثم رمى القوم بها فما بقى إنسان منهم إلا أصابه منها فى عينيه وفمه ما شغله عن القتال ثم انهزموا فاتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا يعلى بن عطاء عن عبيد الله بن سيار عن أبى همام عن أبى عبد الرحمن الفهرى واسمه يزيد بن أسيد ويقال يزيد بن أنيس ويقال كرز قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فلما زالت الشمس لبست لأمتى وركبت فرسى فانطلقت إلى رسول الله ﷺ وهو فى فسطاطه فقلت السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته حان الرواح فقال : « أجل » فقال « يا بلال » فثار من تحت سمرة كأن ظلها ظل طائر فقال : لبيك وسعديك وأنا فداؤك فقال « أسرج لى فرسى » فأخرج سرجا دفتاه من ليف ليس فيهما أشر ولا بطر قال فأسرج فركب وركبنا فصافقناهم عشيتنا وليلتنا فتشامت الخيلان فولى المسلمون مدبرين كما قال الله تعالى (ثم وليتم مدبرين) فقال رسول الله ﷺ « يا عباد الله أنا عبد الله ورسوله » ثم قال « يا معشر المهاجرين أنا عبد الله ورسوله » قال ثم اقتحم عن فرسه فأخذ كفا من تراب فأخبرنى الذى كان أدنى إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال « شاهت الوجوه » فهزمهم الله تعالى . قال يعلى بن عطاء فحدثنى أبناؤهم عن آبائهم أنهم قالوا لم يبق منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا وسمعنا صلصلة بين السماء والأرض كامرار الحديد على الطست الجديد ، وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة من حديث أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة به وقال محمد بن إسحق حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال فخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين يقول « أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله ، أنا رسول الله ، أنا محمد ابن عبد الله » فلا شىء وركبت الإبل بعضها بعضا فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس قال « ياعباس اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة » فأجابوه لبيك لبيك ، فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيره فلا يقدر على ذلك فيقذف درعه فى عنقه ويأخذ سيفه وقوسه ثم يؤم الصوت حتى اجتمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا وكانت الدعوة أول ما كانت بالأنصار ثم جعلت آخراً بالخزرج وكانوا صبراء عند الحرب وأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ركابه فنظر إلى مجتلد القوم فقال « الآن حمى الوطيس » قال فوالله ما راجعه الناس إلا والأسارى عند رسول الله ملقون فقتل الله منهم من قتل وانهزم منهم ما انهزم وأفاء الله على رسوله أموالهم وأبناءهم وفى الصحيحين من حديث شعبة عن أبى إسحق عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أن رجلا قال له يا أبا عمارة

أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال لكن رسول الله ﷺ لم يفر إن هوازن كانوا قوما رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا فأقبل الناس على الغنائم فاستقبلونا بالسهام فانهزم الناس فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوسفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهويقول « أنا النبي لا كذب * أنا ابن عبدالمطلب » قلت وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة وليست سريعة الجرى ولا تصلح لفر ولا لكر ولا لهرب ، وهو مع هذا أيضاً يركضها إلى وجوههم وينوه باسمه ليعرفه من لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلا عليه وعلماً منه بأنه سينصره ويتم ما أرسله به ويظهر دينه على سائر الأديان ، ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله) أى طمأنينته وثباته على رسوله (وعلى المؤمنين) أى الذين معه (وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة كما قال الإمام أبوجعفر بن جرير حدثنى الحسن بن عرفة قال حدثنى المعتمر بن سليمان عن عوف هو ابن أبى جميلة الاعرابى قال سمعت عبد الرحمن مولى ابن برثن حدثنى رجل كان مع المشركين يوم حنين قال لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة، قال لما كشفناهم جعلنا نسوقهم فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فتلقانا عنده رجال بيض حسان الوجوه فقالوا لنا شاهت الوجوه ارجعوا قال فانهزمنا وركبوا أكتافنا فكانت إياها ، وقال الحافظ أبوبكر البيهقى أنبأنا أبو عبدالله الحافظ حدثنى محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن الحسن الحربى حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحارث بن حصيرة حدثنا القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال : قال ابن مسعود رضى الله عنه كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار قدمنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة قال ورسول الله ﷺ على بغلته البيضاء يمضى قدما فحادت بغلته فمال عن السرج فقلت : ارتفع رفعك الله قال « ناولنى كفاً من التراب » فناولته قال فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً قال « أين المهاجرون والأنصار ؟ » قلت : هم هناك قال « اهتف بهم » فهتفت بهم فجاءوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب وولى المشركون أدبارهم ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عفان به نحوه ، وقال الوليد بن مسلم حدثنى عبدالله بن المبارك عن أبى بكر الهذلى عن عكرمة مولى ابن عباس عن شيبة بن عثمان قال رأيت رسول الله ﷺ يوم حنين قد عرى ذكرت أبى وعمى وقتل على وحمزة إياهما فقلت اليوم أدرك ثأرى منه قال فذهبت لأجيئه عن يمينه فإذا أنا بالعباس بن عبد المطلب قائماً عليه درع بيضاء كأنها فضة يكشف عنها العجاج فقلت : عمه ولن يخذله قال فجئته عن يساره فإذا أنا بأبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب فقلت : ابن عمه ولن يخذله فجئته من خلفه فلم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف إذ رفع لى شواظ من نار بينى وبينه كأنه برق فخفت أن يمحشنى فوضعت يدى على بصرى ومشيت القهقرى فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ياشيبة ياشيبة ادن منى اللهم أذهب عنه الشيطان » قال فرفعت إليه بصرى ولهو أحب إلى من سمعى وبصرى فقال « ياشيبة قاتل الكفار » رواه البيهقى من حديث الوليد فذكره ثم روى من حديث أيوب بن جابر عن صدقة بن سعيد عن مصعب بن شيبة عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجنى إسلام ولا معرفة به ولكننى أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إنى أرى خيلا بلقا فقال « ياشيبة إنه لايراها إلا كافر » فضرب بيده على صدرى ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثانية ثم قال « اللهم اهد شيبة » ثم ضربها الثالثة ثم قال « اللهم اهد شيبة » قال فوالله مارفع يده عن صدرى فى الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلىّ منه وذكر تمام الحديث فى التقاء الناس وانهزام المسلمين ونداء العباس واستنصار رسول الله ﷺ حتى هزم الله تعالى المشركين ، قال محمد بن إسحق حدثنى أبى إسحق بن يسار عمن حدثه عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال إنا لمع رسول الله ﷺ يوم حنين والناس يقتتلون إذ نظرت إلى مثل البجاد الأسود يهوى من السماء حتى وقع بيننا وبين القوم فاذا نمل منثور قد ملأ الوادى فلم يكن إلا هزيمة القوم فما كنا نشك

أنها الملائكة ، وقال سعيد بن السائب بن يسار عن أبيه قال سمعت يزيد بن عامر السوائي وكان شهد حنينا مع المشركين ثم أسلم بعد فكنا نسأله عن الرعب الذي ألقى الله في قلوب المشركين يوم حنين فكان يأخذ الحصاة فيرمى بها في الطست فيطن فيقول كنا نجد في أجوافنا مثل هذا ، وقد تقدم له شاهد من حديث الفهري يزيد بن أسيد فالله أعلم ، وفي صحيح مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام قال هذا ما حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نصرت بالرعب وأوتيت جوامع الكلم » ولهذا قال تعالى (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) وقوله (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا وقدموا عليه مسلمين ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوما فعند ذلك خيرهم بين سبيهم وبين أموالهم فاختاروا سبيهم وكانوا ستة آلاف أسير ما بين صبي وامرأة فرده عليهم وقسم الأموال بين الغانمين ونفل أناسا من الطلقاء لكي يتألف قلوبهم على الاسلام فأعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مائة مالك بن عوف النضري واستعمله على قومه كما كان فامتدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله * في الناس كلهم بمثل محمد * أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى
ومتى يشأ يخبرك عما في غد * وإذا الكتيبة عردت أنيابها * بالسمهري وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله * وسط المباءة خادر في مرصد

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾

أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفي المشركين الذين هم نجس دينا عن المسجد الحرام وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذ وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان . فأتم الله ذلك وحكم به شرعا وقدرا . وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول في قوله تعالى (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) إلا أن يكون عبدا أو أحدا من أهل الذمة . وقد روى مرفوعا من وجه آخر فقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا شريك عن الأشعث يعني ابن سوار عن الحسن عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » تفرد به الإمام أحمد مرفوعا والموقوف أصح إسنادا . وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعي كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين وأتبع نهيه قول الله تعالى (إنما المشركون نجس) وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى (فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن من صافحهم فليتوضأ . رواه ابن جرير . وقوله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) قال محمد بن إسحق وذلك أن الناس قالوا لتقطعن عنا الأسواق ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله (وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله) من وجه غير ذلك (إن شاء) إلى قوله (وهم صاغرون) أي هذا عوض ما تخوفتم من قطع

تلك الأسواق فعوضهم الله مما قطع أمر الشرك ما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية ، وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (إن الله عليم) أى بما يصلحكم (حكيم) أى فيما يأمر به وينهى عنه لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله العادل فى خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التى يأخذونها من أهل الذمة . وقوله تعالى (قاتلوا الذين لا يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) فهم فى نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ولا بما جاءوا به وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم وآباءهم فيما هم فيه لا لأنه شرع الله ودينه ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيمانا صحيحا لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمرو باتباعه فلما جاء وكفروا به وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين لأنه من عند الله . بل لحظوظهم وأهوائهم فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم ، ولهذا قال (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهد أمور المشركين ودخل الناس فى دين الله أفواجا واستقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى وكان ذلك فى سنة تسع ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك وأظهره لهم وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم فأوعبوا معه واجتمع من المقاتلة نحو من ثلاثين ألفا وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم وكان ذلك فى عام جدب ووقت قيظ وحر وخرج رسول الله ﷺ يريد الشام لقتال الروم فبلغ تبوك فنزل بها وأقام بها قريبا من عشرين يوما ثم استخار الله فى الرجوع فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس كما سيأتى بيانه بعد إن شاء الله تعالى . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر وهذا مذهب الشافعى وأحمد فى المشهور عنه وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب. وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابى ومجوسى ووثنى وغير ذلك ولمأخذ هذه المذاهب وذكر أدلتها مكان غير هذا والله أعلم . وقوله (حتى يعطوا الجزية) أى إن لم يسلموا (عن يد) أى عن قهر لهم وغلبة (وهم صاغرون) أى ذليلون حقيرون مهانون فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه » ولهذا اشترط عليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه تلك الشروط المعروفة فى إذلالهم وتصغيرهم وتحقيرهم وذلك مما رواه الأئمة الحفاظ من رواية عبدالرحمن بن غنم الأشعرى قال : كتبت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صالح نصارى من أهل الشام بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا إنكم لما قدمتم علينا سألنا كم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ولا نجدد ما خرب منها ولا نحيى منها ما كان خططا للمسلمين وأن لا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل وأن ننزل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم ولا نؤوى فى كنائسنا ولا منازلنا جاسوسا ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ولا نظهر شركا ولا ندعو إليه أحداً ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أرادوه وأن نوقر المسلمين وأن نقوم لهم من مجالسنا إن أرادوا الجلوس ولا نتشبه بهم فى شىء من ملابسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتنى بكناهم ولا نركب السروج ولا نتقلد السيوف ولا

نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا ولا ننقش خواتيمنا بالعربية ولا نبيع الخمور وأن نجز مقاديم رءوسنا وأن نلزم زينا حيثما كنا وأن نشد الزنانير على أوساطنا وأن لا نظهر الصليب على كنائسنا وأن لا نظهر صلبنا ولا كتبنا فى شىء من طرق السلمين ولا أسواقهم ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضربا خفيفا وأن لا نرفع أصواتنا بالقراءة فى كنائسنا فى شىء من حضرة المسلمين ولا نخرج سعانين ولا بعوثا ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران معهم فى شىء من طرق المسلمين ولا أسواقهم ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع عليهم فى منازلهم . قال فلما أتيت عمر بالكتاب زاد فيه ولا نضرب أحدا من المسلمين شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان فان نحن خالفنا فى شىء مما شرطناه لكم ووظفنا على أنفسنا فلاذمة لنا وقد حل لكم منا ما يحل من أهل المعاندة والشقاق

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا فى العزير إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت الله قال : فان الله حى لا يموت ، قالت يا عزير فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بنى إسرائيل ؟ قال : الله . قالت فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فانك ستلقى هناك شيخا فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئا كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بنى إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحا فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله . وأما ضلال النصارى فى المسيح فظاهر ، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال (ذلك قولهم بأفواههم) أى لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلاقهم (يضاهئون) أى يشابهون (قول الذين كفروا من قبل) أى من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء (قاتلهم الله) قال ابن عباس لعنهم الله (أنى يؤفكون ؟) أى كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل ؟ وقوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم) روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيسا فى قومه طىء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ما يضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله ؟ » ثم دعاه

إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال « إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا ، وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ (لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون) أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب (أن يطفئوا نور الله) أى ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم فمثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه وهذا لا سبيل اليه فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) والكافر هو الذى يستر الشيء ويغطيه ومنه سمى الليل كافرا لأنه يستر الأشياء والزراع كافرا لأنه يغطى الحب فى الأرض كما قال (يعجب الكفار نباته) ثم قال تعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فالهدى هو ما جاء به من الاخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة فى الدنيا والآخرة (ليظهره على الدين كله) أى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها » ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن محمد بن أبى يعقوب سمعت شقيق بن حيان يحدث عن مسعود بن قبيصة أو قبيصة بن مسعود يقول : صلى هذا الحى من محارب الصبح فلما صلوا قال شاب منهم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها فى النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة » . وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان حدثنا سليم بن عامر عن تميم الدارى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز ويذل ذليلا ، عزا يعز الله به الاسلام وذلا يذل الله به الكفر » فكان تميم الدارى يقول قد عرفت ذلك أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية .

وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم حدثنى ابن جابر سمعت سليم بن عامر قال سمعت المقداد بن الأسود يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الاسلام يعز عزيزا ، ويذل ذليلا أما يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما يذلهم فيدينون لها » وفى المسند أيضا حدثنا محمد بن أبى عدى عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبى حذيفة عن عدى بن حاتم سمعه يقول دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ياعدى أسلم تسلم » فقلت إنى من أهل دين قال « أنا أعلم بدينك منك » فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال « نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ » قلت بلى ! قال « فإن هذا لا يحل لك فى دينك » قال فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال « أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الاسلام ، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة ؟ » قلت لم أرها وقد سمعت بها ، قال « فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » قلت كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد » قال عدى بن حاتم : فهذه

الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . وقال مسلم حدثنا أبو معن زيد بن يزيد الرقاشى حدثنا خالد بن الحارث حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن الأسود بن العلاء عن أبى سلمة عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى » فقلت يارسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله عز وجل (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) الآية أن ذلك تام ، قال « إنه سيكون من ذلك ماشاء الله عز وجل ، ثم يبعث الله ريحا طيبة فيتوفى كل من كان فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لاخير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم »

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

قال السدى : الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى وهو كما قال فإن الأحبار هم علماء اليهود كما قال تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) والرهبان عباد النصارى والقسيسون علماؤهم كما قال تعالى (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً) والمقصود التحذير من علماء السوء وعباد الضلال كما قال سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى . وفى الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفى رواية فارس والروم ؟ قال « فمن الناس إلا هؤلاء ؟ » والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى (ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم فلما بعث الله رسوله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى . وقوله تعالى (ويصدون عن سبيل الله) أى وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ويلبسون الحق بالباطل ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير وليسوا كما يزعمون بل هم دعاة إلى النار ويوم القيامة لاينصرون . وقوله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله) الآية . هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس فإن الناس عالة على العلماء وعلى العباد وعلى أرباب الأموال فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك

وهل أفسد الدين إلا الملوك * وأحبار سوء ورهبانها

وأما الكنز فقال مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر هو المال الذى لاتؤدى زكاته ، وروى الثورى وغيره عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لاتؤدى زكاته فهو كنز ، وقد روى هذا عن ابن عباس وجابر وأبى هريرة موقوفا ومرفوعا ، وقال عمر بن الخطاب نحوه أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض ، وروى البخارى من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ، وكذا قال عمر بن العزيز وعراك بن مالك نسخها قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية . وقال سعيد بن محمد بن زياد عن أبى أمامة أنه قال : حلية السيوف من الكنز . ما أحدثكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال الثورى عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن

هبيرة عن على رضى الله عنه قال : أربعة آلاف فمادونها نفقة فما كان أكثر من ذلك فهو كنز وهذا غريب وقد جاء فى مدح التقلل من الذهب والفضة وذم التكثر منهما أحاديث كثيرة. ولنورد منها هنا طرفا يدل على الباقى قال عبد الرزاق أخبرنا الثورى أخبرنى أبو حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن هبيرة عن على رضى الله عنه فى قوله (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية . قال النبى ﷺ « تبا للذهب تبا للفضة » يقولها ثلاثا قال فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه أنا أعلم لكم ذلك فقال يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ قال « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبى محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثنى سالم بن عبد الله أخبرنا عبد الله بن أبى الهذيل حدثنى صاحب لى أن رسول الله ﷺ قال « تبا للذهب والفضة » قال وحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله قولك « تبا للذهب والفضة » ماذا ندخر ؟ قال رسول الله ﷺ « لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة »

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان قال : لما نزل فى الذهب والفضة ما نزل قالوا فأى المال نتخذ ؟ قال عمر فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعير فأدركه وأنا فى أثره فقال يا رسول الله أى المال نتخذ ؟ قال « قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وزوجة تعين أحدكم على أمر الآخرة » ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه عن سالم بن أبى الجعد وقال الترمذى حسن وحكى عن البخارى أن سالما لم يسمعه من ثوبان قلت ولهذا رواه بعضهم عنه مرسلا والله أعلم

(حديث آخر) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا حميد بن مالك حدثنا يحيى بن يعلى المحاربى حدثنا أبى حدثنا غيلان بن جامع المحاربى عن عثمان بن أبى اليقظان عن جعفر بن أبى إياس عن مجاهد عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) الآية كبر ذلك على المسلمين وقالوا ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق عمر واتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يانبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية. فقال رسول الله ﷺ « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم» قال فكبر عمر ثم قال له النبى ﷺ « ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » ورواه أبو داود والحاكم فى مستدركه وابن مردويه من حديث يحيى بن يعلى به وقال الحاكم صحيح على شرطهما ولم يخرجاه

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا الأوزاعى عن حسان بن عطية قال كان شداد بن أوس رضى الله عنه فى سفر فنزل منزلا فقال لغلامه ائتنا بالسفرة نعبث بها فأنكرت عليه فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه فلا تحفظوها على واحفظوا ما أقول لكم سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم ،وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب »

وقوله تعالى (يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعا وتهكما كما فى قوله (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم) أى هذا بذاك وهذا الذى كنتم تكنزون لأنفسكم ولهذا يقال من أحب شيئا وقدمه على طاعة الله عذب به وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها كما كان أبو لهب لعنه الله جاهدا فى عداوة رسول الله ﷺ وامرأته تعينه فى ذلك كانت يوم القيامة عونا على عذابه أيضا فى جيدها أى عنقها حبل من مسد أى تجمع من الحطب فى النار وتلقى عليه ليكون ذلك أبلغ فى عذابه ممن هو أشفق عليه فى الدنيا

كما أن هـذه الأموال لما كانت أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم فى الدار الآخرة فيحمى عليها فى نار جهنم وناهيك بحرها فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم قال سفيان عن الأعمش عن عبدالله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبـد الله بن مسعود : والذى لا إله غيره لا يكوى عبد يكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولـكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته ، وقد رواه ابن مردويه عن أبى هريرة مرفوعا ولا يصح رفعه والله أعلم

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال بلغنى أن الـكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك لا يدرك منه شيئا إلا أخذه . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حـدثنا سعيد عن قتادة عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن ثوبان أن رسـول الله ﷺ كان يقول « من ترك بعده كنزا مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول ويلك ما أنت ؟ فيقول أنا كنزك الذى تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث يزيد عن سعيد به وأصل هذا الحديث فى الصحيحين من رواية أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وفى صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » وذكر تمام الحديث. وقال البخارى فى تفسير هذه الآية حـدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن حصين عن زيد بن وهب قال مررت على أبى ذر بالربذة فقلت ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال كنا بالشام فقرأت (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) فقال معاوية ما هذه فينا ما هذه إلا فى أهل الـكتاب ، قال قلت إنها لفينا وفيهم ورواه ابن جرير من حديث عبيد بن القاسم عن حصين عن زيد بن وهب عن أبى ذر رضى الله عنه فذكره وزاد فارتفع فى ذلك بينى وبينه القول فـكتب إلى عثمان يشكونى فـكتب إلى عثمان أن أقبل إليـه قال فأقبلت إليه فلما قدمت المدينة ركبنى الناس كأنهم لم يرونى قبـل يومئذ فشكوت ذلك إلى عثمان فقال لى تنح قريبا قلت والله لن أدع ما كنت أقول (قلت) كان من مذهب أبى ذر رضى الله عنه تحريم ادخار ما زاد على نفقة العيال وكان يفتى بذلك ويحثهم عليه ويأمرهم به ويغلظ فى خلافه فنهاه معاوية فلم ينته فخشى أن يضر بالناس فى هذا فـكتب يشكوه إلى أمير المؤمنين عثمان وأن يأخذه إليه فاستقدمه عثمان إلى المدينة وأنزله بالربذة وحده وبها مات رضى الله عنه فى خلافة عثمان . وقد اختبره معاوية رضى الله عنه وهو عنده هل يوافق عمله قوله فبعث إليه بألف دينار ففرقها من يومه ثم بعث إليه الذى أتاه بها فقال إن معاوية إنما بعثنى إلى غيرك فأخطأت فهات الذهب فقال ويحك إنها خرجت ولـكن إذا جاء مالى حاسبناك به وهكذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنها عامة وقال السدى هى فى أهل القبلة وقال الأحنف بن قيس قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل أخشن الثياب أخشن الجسد أخشن الوجه فقام عليهم فقال . بشر الـكنازين برضف يحمى عليه فى نار جهنم فيوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل قال فوضع القوم رءوسهم فما رأيت أحدا منهم رجع إليه شيئا قال وأدبر فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال إن هؤلاء لا يعلمون شيئا وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر « ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شىء إلا دينار أرصده لدين » فهذا والله أعلم هو الذى حدا أبا ذر على القول بهذا

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن سعيد بن أبى الحسن عن عبد الله بن الصامت رضى الله عنه أنه كان مع أبى ذر فخرج عطاؤه ومعه جارية فجعلت تقضى حوائجه ففضلت معها سبعة فأمرها أن تشترى به فلوسا قال قلت لو ادخرته لحاجة ببوتك وللضيف ينزل بك قال إن خليلى عهد إلى أن أيما ذهب أو فضة أوكىء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل . ورواه عن يزيد عن همام به وزاد إفراغا

وقال الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الشبلي في ترجمته عن محمد بن مهدي حدثنا عمر بن أبي سلمة عن صدقة ابن عبد الله عن طلحة بن زيد عن أبي فروة الرهاوي عن عطاء عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الق الله فقيراً ولا تلقه غنيا » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ » قال يارسول الله كيف لي بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ « هو ذاك وإلا فالنار » إسناده ضعيف

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عيينة عن يزيد بن الصرم قال سمعت عليا رضي الله عنه يقول مات رجل من أهل الصفة وترك دينارين أو درهمين فقال رسول الله ﷺ « كيتان صلوا على صاحبكم » وقد روى هذا من طرق أخر ، وقال قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة صدى بن عجلان قال مات رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ « كية » ثم توفي رجل آخر فوجد في مئزره ديناران فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيتان » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحق بن إبراهيم الفراديسي حدثنا معاوية بن يحيى الاطرابلسي حدثني أرطاة حدثني أبو عامر الهوزني سمعت ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن رجل يموت وعنده أحمر أو أبيض إلا جعل الله بكل قيراط صفحة من نار يكوى بها من قدمه إلى ذقنه » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمود بن خداش حدثنا سيف بن محمد الثوري حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » سيف هذا كذاب متروك

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل أخبرنا أيوب أخبرنا محمد بن سيرين عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجته فقال « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ثم قال « أي يوم هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس يوم النحر » قلنا بلى ثم قال « أي شهر هذا » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال « أليس ذا الحجة » قلنا بلى ثم قال « أي بلد هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : « أليست البلدة ؟ » قلنا بلى قال « فإن دماءكم وأموالكم — وأحسبه قال — وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا لا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » ورواه البخاري في التفسير وغيره . ومسلم من حديث أيوب عن محمد وهو ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقد قال ابن جرير حدثنا معمر حدثنا روح حدثنا أشعث عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات — ذو القعدة وذو الحجة والمحرم — ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » ورواه البزار عن محمد ابن معمر به . ثم قال لا يروى عن أبي هريرة إلا من هذا الوجه ، وقد رواه ابن عون وقرة عن ابن سيرين عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه به ، وقال ابن جرير أيضا حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروقي حدثنا زيد ابن حباب حدثنا موسى بن عبيدة الربذي حدثني صدقة بن يسار عن ابن عمر قال خطب رسول الله ﷺ في حجة

الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق فقال « أيها الناس إن الزمان قد استدار فهو اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم أولهن رجب مضر بين جمادى وشعبان ، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم » وروى ابن مردويه من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مثله أو نحوه وقال حماد بن سلمة حدثنى على بن زيد عن أبى حمزة الرقاشى عن عمه وكانت له صحبة قال كنت آخذا بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال رسول الله ﷺ « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم فلا تظلموا فيهن أنفسكم » وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (منها أربعة حرم) قال محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة . وقوله ﷺ فى الحديث « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه ، وتثبيت للأمر على ما جعله الله فى أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص ، ولا نسىء ولا تبديل كما قال فى تحريم مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة » وهكذا قال ههنا « إن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السموات والأرض » أى الأمر اليوم شرعا كما ابتدع الله ذلك فى كتابه يوم خلق السموات والأرض ، وقد قال بعض المفسرين والمتكلمين على هذا الحديث إن المراد بقوله « قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أنه اتفق أن حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تلك السنة فى ذى الحجة وأن العرب قد كانت نسأت النسىء يحجون فى كثير من السنين بل أكثرها فى غير ذى الحجة وزعموا أن حجة الصديق فى سنة تسع كانت فى ذى القعدة وفى هذا نظر كما سنبينه إذا تكلمنا على النسىء وأغرب منه ما رواه الطبرانى عن بعض السلف فى جملة حديث أنه اتفق حج المسلمين واليهود والنصارى فى يوم واحد وهو يوم النحر عام حجة الوداع والله أعلم . ﴿فصل﴾ ذكر الشيخ علم الدين السخاوى فى جزء جمعه سماه ﴿المشهور فى أسماء الأيام والشهور﴾ أن المحرم سمى بذلك لكونه شهراً محرما ، وعندى أنه سمى بذلك تأكيدا لتحريمه لأن العرب كانت تتقلب به فتحله عاما وتحرمه عاما قال ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم ، وصفر سمى بذلك لخلو بيوتهم منهم حين يخرجون للقتال والأسفار يقال صفر المكان إذا خلا ويجمع على أصفار كجمل وأجمال ، وشهر ربيع الأول سمى بذلك لارتباعهم فيه والارتباع الإقامة فى عمارة الربع ويجمع على أربعاء كنصيب وأنصباء وعلى أربعة كرغيف وأرغفة ، وربيع الآخر كالأول . جمادى سمى بذلك لجمود الماء فيه ، قال وكانت الشهور فى حسابهم لا تدور ، وفى هذا نظر إذ كانت شهورهم منوطة من دورانها فلعلهم سموه بذلك أول ما سمى عند جمود الماء فى البرد كما قال الشاعر .

وليلة من جمادى ذات أندية * لا يبصر العبد فى ظلمائها الطنبا
لا ينبح الكلب فيها غير واحدة * حتى يلف على خرطومه الذنبا

ويجمع على جماديات كحبارى وحباريات وقد يذكر ويؤنث فيقال جمادى الأولى والأول وجمادى الآخر والآخرة . رجب من الترجيب وهو التعظيم ويجمع على أرجاب ورجاب ورجبات . شعبان من تشعب القبائل وتفرقها للغارة ويجمع على شعابين وشعبانات . رمضان من شدة الرمضاء وهو الحر يقال رمضت الفصال إذا عطشت ويجمع على رمضانات ورماضين وأرمضة قال وقول من قال إنه اسم من أسماء الله خطأ لا يعرج عليه ولا يلتفت اليه ، قلت قد ورد فيه حديث ولكنه ضعيف وبينته فى أول كتاب الصيام . شوال من شالت الإبل بأذنابها للطراق قال ويجمع على شواول وشواويل وشوالات . القعدة بفتح القاف : قلت وكسرها . لقعودهم فيه عن القتال والترحال ويجمع على ذوات القعدة . الحجة بكسر الحاء قلت وفتحها سمى بذلك لإيقاعهم الحج فيه ويجمع على ذوات الحجة . أسماء الأيام أولها الأحد ويجمع على آحاد وأوحاد ووحود ، ثم يوم الاثنين ويجمع على أثانين الثلاثاء عمد ويذكر ويؤنث ويجمع على ثلاثاوات وأثالث ثم الأربعاء بالمد ويجمع على أربعاوات وأرابيع والخميس يجمع على أخمسة وأخامس ثم الجمعة بضم الميم وإسكانها وفتحها أيضا ويجمع على جمع وجماعات ، السبت مأخوذ من السبت وهو القطع لانتهاء العدد عنده وكانت العرب تسمى الأيام أول ثم أهون ثم

جبار ثم دبار ثم مؤنس ثم العروبة ثم شيار ، قال الشاعر : من العرب العرباء العاربة المتقدمين :

أرجى أن أعيش وإن يومى * بأول أو بأهون أو جبار * أو التالى دبار فان أفته * فمؤنس أو عروبة أو شيار

وقوله تعالى (منها أربعة حرم) فهذا مما كانت العرب أيضا فى الجاهلية تحرمه وهو الذى كان عليه جمهورهم إلا طائفة منهم يقال لهم البسل كانوا يحرمون من السنة ثمانية أشهر تعمقا وتشديدا ، وأما قوله « ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » فإنما أضافه إلى مضر ليبين صحة قولهم فى رجب أنه الشهر الذى بين جمادى وشعبان لا كما تظنه ربيعة من أن رجب المحرم هو الشهر الذى بين شعبان وشوال وهو رمضان اليوم فبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة ، وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ثلاثة سرد وواحد فرد ، لأجل أداء مناسك الحج والعمرة فحرم قبل أشهر الحج شهرا وهو ذو القعدة لأنهم يقعدون فيه عن القتال وحرم شهر ذى الحجة لأنهم يوقعون فيه الحج ويشتغلون فيه بأداء المناسك وحرم بعده شهرا آخر وهو المحرم ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب فيزوره ثم يعود إلى وطنه فيه آمنا ، وقوله (ذلك الدين القيم) أى هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم والحذو بها على ما سبق فى كتاب الله الأول قال تعالى (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فى هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ فى الاثم من غيرها كما أن المعاصى فى البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) وكذلك الشهر الحرام تغلظ فيه الآثام ، ولهذا تغلظ فيه الدية فى مذهب الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا فى حق من قتل فى الحرم أو قتل ذا محرم ، وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) قال فى الشهور كلها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (إن عدة الشهور عند الله) الآية فلا تظلموا فيهن أنفسكم فى كلهن ثم اختص من ذلك أربعة أشهر فجعلهن حراما وعظم حرماتهن وجعل الذنب فيهن أعظم والعمل الصالح والأجر أعظم وقال قتادة فى قوله (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) إن الظلم فى الأشهر الحرم أعظم خطيئة ووزرا من الظلم فيما سواها ، وإن كان الظلم على كل حال عظيما ولكن الله يعظم من أمره ما يشاء ، وقال: إن الله اصطفى صفايا من خلقه . اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس رسلا واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم واصطفى من الأيام يوم الجمعة واصطفى من الليالى ليلة القدر فعظموا ما عظم الله . فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله به عند أهل الفهم وأهل العقل وقال الثورى عن قيس بن مسلم عن الحسن عن محمد بن الحنفية بأن لا تحرموهن كحرمتهن وقال محمد بن إسحق (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى لا تجعلوا حرامها حلالا ولا حلالها حراما كما فعل أهل الشرك فإنما النسىء الذى كانوا يصنعون من ذلك زيادة فى الكفر (يضل به الذين كفروا) الآية، وهذا القول اختيار ابن جرير وقوله (وقاتلوا المشركين كافة) أى جميعكم (كما يقاتلونكم كافة) أى جميعهم (واعلموا أن الله مع المتقين) وقد اختلف العلماء فى تحريم ابتداء القتال فى الشهر الحرام هل هو منسوخ أو محكم على قولين (أحدهما) وهو الأشهر أنه منسوخ لأنه تعالى قال ههنا (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وأمر بقتال المشركين ، وظاهر السياق مشعر بأنه أمر بذلك أمرا عاما ولو كان محرما فى الشهر الحرام لأوشك أن يقيده بانسلاخها ولأن رسول الله ﷺ حاصر أهل الطائف فى شهر حرام وهو ذو القعدة كما ثبت فى الصحيحين أنه خرج إلى هوازن فى شوال فلما كسرهم واستفاء أموالهم ورجع فلهم لجئوا إلى الطائف فعمد إلى الطائف فحاصرهم أربعين يوما وانصرف ولم يفتتحها فثبت أنه حاصر فى الشهر الحرام والقول الآخر أن ابتداء القتال فى الشهر الحرام حرام وأنه لم ينسخ تحريم الشهر الحرام لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام) وقال (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) الآية وقال (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) الآية وقد تقدم أنها الأربعة المقررة فى كل سنة لا أشهر التسيير على أحد القولين . وأما قوله تعالى (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) فيحتمل أنه منقطع عما قبله وأنه حكم مستأنف ويكون من باب التهييج

والتحضيض أى كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم وقاتلوهم بنظير ما يفعلون ، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين فى الشهر الحرام إذا كانت البداءة منهم كما قال تعالى (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال تعالى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم) الآية وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام فانه من تتمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف فانهم هم الذين ابتدءوا القتال وجمعوا الرجال ودعوا إلى الحرب والنزال فعندها قصدهم رسـول الله ﷺ كما تقدم فلما تحصنوا بالطائف ذهب إليهم لينزلهم من حصونهم فنالوا من المسلمين وقتلوا جماعة ، واستمر الحصار بالمجانيق وغيرهـا قريبا من أربعين يوما ، وكان ابتداؤه فى شهر حلال ودخـل الشهر الحرام فاستمر فيه أياما ثم قفل عنهم لأنه يغتفر فى الدوام مالا يغتفر فى الابتداء ، وهذا أمر مقرر وله نظائر كثيرة والله أعلم، ولنذكر الأحاديث الواردة فى ذلك (١) وقد حررنا ذلك فى السيرة والله أعلم

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله تعالى به المشركين من تصرفهم فى شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة، وتحليلهم ماحرم الله وتحريمهم ما أحل الله ، فانهم كان فيهم من القوة الغضبية والشهامة والحمية ما استطالوا به مدة الأشهر الثلاثة فى التحريم المانع لهم من قضاء أوطارهم من قتال أعدائهم ، فكانوا قد أحدثوا قبل الإسلام بمدة تحليل المحرم فأخروه إلى صفر فيحلون الشهر الحرام ويحرمون الشهر الحلال ليواطئوا عدة ما حرم الله الأشهر الأربعة كما قال شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بجذل الطعان

لقد علمت معدّ بأن قومى * كرام الناس إن لهم كراما * ألسنا الناسئين على معد
شهور الحل نجعلها حراما * فأى النـاس لم ندرك بوتر * وأى الناس لم نعلك لجاما

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (إنما النسىء زيادة فى الـكفر) قال النسىء أن جنادة بن عوف بن أمية الـكنانى كان يوافى الموسم فى كل عام وكان يكنى أبا ثمامة فينادى ألا إن أبا ثمامة لا يحاب ولا يعاب ألا وإن صفر العام الأول العام حـلال فيحـله للناس فيحرم صفرا عاما ويحرم المحرم عاما فذلك قول الله (إنمـا النسىء زيادة فى الـكفر) يقول يتركون المحرم عاما وعاما يحرمونه ، وروى العوفى عن ابن عباس نحوه ، وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول أيها الناس : إنى لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجىء العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ويقول إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله (ليواطئوا عدة ما حرم الله) قال يعنى الأربعة فيحلوا ما حرم الله بتأخير هذا الشهر الحرام ، وروى عن أبى وائل والضحاك وقتادة نحو هذا ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله (إنمـا النسىء زيادة فى الـكفر) الآية . قال هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لا يغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده، فلما كان هو قال اخرجوا بنا قالوا له هذا المحرم قال ننسئه العام هما العام صفران ، فإذا كان العام القابل قضينا جعلناهما محرمين ، قال ففعل ذلك فلما كان عام قابل قال لا تغزوا فى صفر حرموه مع المحرم هما محرمان ، فهذه صفة غريبة فى النسىء وفيها نظر لأنهم فى عام إنما يحرمون على هذا ثلاثة أشهر فقط وفى العام الذى يليه يحرمون خمسة أشهر فأين هذا من قوله تعالى (يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله) وقد روى عن مجاهد صفة أخرى غريبة أيضا فقال عبد الرزاق أنا معمر عن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (إنما النسىء زيادة فى الـكفر) الآية،قال، فرض الله عز وجل الحج فى ذى الحجة ، قال وكان المشركون

(١) لم يذكر المصنف رحمه الله الأحاديث التى وعد بها فتدبر

يسمون ذا الحجة المحرم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب وشعبان ورمضان وشوالا وذا القعدة وذا الحجة يحجون فيه مرة ثم يسكتون عن المحرم ولا يذكرونه ثم يعودون فيسمون صفرا ، ثم يسمون رجب جمادى الآخر ، ثم يسمون شعبان رمضان ، ثم يسمون شوالا رمضان ، ثم يسمون ذا القعدة شوالا ، ثم يسمون ذا الحجة ذا القعدة ، ثم يسمون المحرم ذا الحجة فيحجون فيه واسمه عندهم ذو الحجة . ثم عادوا بمثل هذه الصفة فكانوا يحجون فى كل شهر عامين حتى إذا وافق حجة أبى بكر الآخر من العامين فى ذى القعدة ، ثم حج النبى صلى الله عليه وسلم حجته التى حج فوافق ذا الحجة فذلك حين يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وهذا الذى قاله مجاهد فيه نظر أيضا وكيف تصح حجة أبى بكر وقد وقعت فى ذى القعدة وأنى هذا ؟ وقد قال الله تعالى (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) الآية وإنما نودى به فى حجة أبى بكر فلو لم تكن فى ذى الحجة لما قال تعالى (يوم الحج الأكبر) ولا يلزم من فعلهم النسىء هذا الذى ذكره من دوران السنة عليهم وحجهم فى كل شهر عامين فإن النسىء حاصل بدون هذا فانهم لما كانوا يحلون شهر المحرم عاما يحرمون عوضه صفرا وبعده ربيع وربيع إلى آخر السنة بحالها على نظامها وعدتها وأسماء شهورها ثم فى السنة الثانية يحرمون المحرم ويتركونه على تحريمه وبعده صفر وربيع وربيع إلى آخرها (فيحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ماحرم الله فيحلوا ماحرم الله) أى فى تحريم أربعة أشهر من السنة إلا أنهم تارة يقدمون تحريم الشهر الثالث من الثلاثة المتوالية وهو المحرم وتارة ينسئونه إلى صفر أى يؤخرونه وقد قدمنا الكلام على قوله ﷺ « إن الزمان قد استدار » الحديث أى إن الأمر فى عدة الشهور وتحريم ماهو محرم منها على ماسبق فى كتاب الله من العدد والتوالى لا كما تعتمده جهلة العرب من فصلهم تحريم بعضها بالنسىء عن بعض والله أعلم وقال ابن أبى حاتم : حدثنا صالح بن بشر بن سلمة الطبرانى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا موسى ابن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر أنه قال : وقف رسول الله ﷺ بالعقبة فاجتمع اليه من شاء الله من المسلمين فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال « وإنما النسىء من الشيطان زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما » فكانوا يحرمون المحرم عاما ويستحلون صفر ويستحلون المحرم وهو النسىء وقد تكلم الإمام محمد بن إسحق على هذا فى كتاب السيرة كلاما جيدا مفيدا حسنا فقال : كان أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ماحرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل القلمس وهو حذيفة بن عبد فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد ثم من بعد عباد ابنه قلع بن عباد ثم ابنه أمية بن قلع ثم ابنه عوف بن أمية ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف وكان آخرهم وعليه قام الإسلام فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فقام فيهم خطيبا فحرم رجبا وذا القعدة وذا الحجة ويحل المحرم عاما ويجعل مكانه صفر ويحرمه عاما ليواطىء عدة ماحرم الله فيحل ماحرم الله يعنى ويحرم ما أحل الله والله أعلم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر وحمارّة القيظ فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله) أى إذا دعيتم إلى الجهاد فى سبيل الله (اثاقلتم إلى الأرض) أى تكاسلتم وملتم إلى المقام فى الدعة والخفض وطيب الثمار (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) أى مالكم فعلتم هكذا رضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى فى الدنيا ، ورغب

فى الآخرة فقال (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) كما قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بما ترجع ؟ » وأشار بالسبابة انفرد بإخراجه مسلم . وروى ابن أبى حاتم حدثنا بشر بن مسلم بن عبد الحميد الحمصى بحمص حدثنا الربيع بن روح حدثنا محمد بن خالد الوهبى حدثنا زياد يعنى الجصاص عن أبى عثمان قال : قلت يا أبا هريرة سمعت من إخوانى بالبصرة أنك تقول سمعت نبى الله ﷺ يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة » قال أبو هريرة بل سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية (فما متاع الحياة فى الدنيا فى الآخرة إلا قليل) فالدنيا مامضى منها وما بقى منها عند الله قليل . وقال الثورى عن الأعمش فى الآية (فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) قال كزاد الراكب وقال عبد العزيز ابن أبى حازم عن أبيه لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة . قال ائتونى بكفنى الذى أكفن فيه أنظر اليه فلما وضع بين يديه نظر اليه فقال أمالى من كبير ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى وهو يقول أف لك من دار إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفى غرور . ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حيا من العرب فتثاقلوا عنه فأمسك الله عنهم القطر فكان عذابهم (ويستبدل قوما غيركم) أى لنصرة نبيه وإقامة دينه كما قال تعالى (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) (ولا تضروه شيئا) أى ولا تضروا الله شيئا بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه (والله على كل شىء قدير) أى قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم ، وقد قيل إن هذه الآية وقوله (انفروا خفافا وثقالا) وقوله (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله) انهن منسوخات بقوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) روى هذا عن ابن عباس وعكرمة والحسن وزيد ابن أسلم ورده ابن جرير وقال إنما هذا فيمن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد فتعين عليهم ذلك فلو تركوه لعوقبوا عليه وهذا له اتجاه والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى (إلا تنصروه) أى تنصروا رسوله فان الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين) أى عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هاربا صحبة صديقه وصاحبه أبى بكر بن أبى قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا فى آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر رضى الله عنه يجزع أن يطلع عليهم أحد فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يسكنه ويثبته ويقول « يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما » كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام أنبأنا ثابت عن أنس أن أبا بكر حدثه قال : قلت للنبى ﷺ ونحن فى الغار لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه قال فقال « يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما » أخرجاه فى الصحيحين ، ولهذا قال تعالى (فأنزل الله سكينته عليه) أى تأييده ونصره عليه أى على الرسول ﷺ فى أشهر القولين وقيل على أبى بكر ، وروى عن ابن عباس وغيره قالوا لأن الرسول ﷺ لم تزل معه سكينة وهذا لاينافى تجدد سكينة خاصة بتلك الحال ولهذا قال (وأيده بجنود لم تروها) أى الملائكة (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) قال ابن عباس يعنى بكلمة الذين كفروا الشرك وكلمة الله هى لا إله إلا الله . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وقوله (والله عزيز) أى فى انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه (حكيم) فى أقواله وأفعاله

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال سفيان الثورى عن أبيه عن أبى الضحى مسلم بن صبيح : هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) أول ما نزل من سورة براءة وقال معتمر بن سليمان عن أبيه قال : زعم حضرمى أنه ذكر له أن ناسا كانوا عسى أن يكون أحدهم عليلا وكبيرا فيقول إنى لا آثم فأنزل الله (انفروا خفافا وثقالا) الآية أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب وحتم على المؤمنين فى الخروج معه على كل حال فى المنشط والمكره والعسر واليسر فقال (انفروا خفافا وثقالا) وقال على بن زيد عن أنس عن أبى طلحة : كهولا وشبانا ما سمع الله عذر أحد ثم خرج إلى الشام فقاتل حتى قتل وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله) فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا جهزونى يا بنى ، فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مات ومع أبى بكر حتى مات ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه فيها وهكذا روى عن ابن عباس وعكرمة وأبى صالح والحسن البصرى وسهيل ابن عطية ومقاتل بن حيان والشعبى وزيد بن أسلم أنهم قالوا فى تفسير هذه الآية (انفروا خفافا وثقالا) كهولا وشبانا وكذا قال عكرمة والضحاك ومقاتل بن حيان وغير واحد ، وقال مجاهد شبانا وشيوخا وأغنياء ومساكين وكذا قال أبو صالح وغيره وقال الحكم بن عتيبة : مشاغيل وغير مشاغيل ، وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) يقول انفروا نشاطا وغير نشاط ، وكذا قال قتادة وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد (انفروا خفافا وثقالا) قالوا فإن فينا الثقيل وذا الحاجة والضيعة والشغل والمتيسر به أمره فأنزل الله وأبى أن يعذرهم دون أن ينفروا (خفافا وثقالا) أى على ما كان منهم وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى أيضا فى العسر واليسر وهذا كله من مقتضيات العموم فى الآية وهذا اختيار ابن جرير

وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى إذا كان النفير إلى دروب الروم نفر الناس إليها خفافا وركبانا وإذا كان النفير إلى هذه السواحل نفروا إليها خفافا وثقالا وركبانا ومشاة وهذا تفصيل فى المسألة وقد روى عن ابن عباس ومحمد ابن كعب وعطاء الخراسانى وغيرهم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) وسيأتى الكلام على ذلك إن شاء الله ، وقال السدى قوله (انفروا خفافا وثقالا) يقول غنيا وفقيرا وقويا وضعيفا فجاءه رجل يومئذ زعموا أنه المقداد وكان عظيما سمينا فشكا إليه وسأله أن يأذن له فأبى فنزلت يومئذ (انفروا خفافا وثقالا) فلما نزلت هذه الآية اشتد على الناس فنسخها الله فقال (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن محمد قال شهد أبو أيوب مع رسول الله ﷺ بدرا ثم لم يتخلف عن غزاة للمسلمين إلا عاما واحدا قال وكان أبو أيوب يقول قال الله تعالى (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا . وقال ابن جرير حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية حدثنا جرير حدثنى عبد الرحمن بن ميسرة حدثنى أبو راشد الحرانى قال وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص وقد فصل عنها من عظمه يريد الغزو فقلت له قد أعذر الله إليك فقال أتت علينا سورة البعوث (انفروا خفافا وثقالا) وقال ابن جرير حدثنى حبان بن زيد الشرعى قال نفرنا مع صفوان بن عمرو وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا

كبيراهما قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار فأقبلت إليه فقلت يا عم لقد أعذر الله إليك قال فرفع حاجبيه فقال يا ابن أخى استنفرنا الله خفافا وثقالا ألا إنه من يحبه الله يبتليه ثم يعيده الله فيبقيه وإنما يبتلى الله من عباده من شكر وصبر وذكر ولم يعبد إلا الله عز وجل . ثم رغب تعالى فى النفقة فى سبيله وبذل المهج فى مرضاته ومرضاة رسوله فقال (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا خير لكم فى الدنيا والآخرة لأنكم تغرمون فى النفقة قليلا فيغنمكم الله أموال عدوكم فى الدنيا مع ما يدخر لكم من الكرامة فى الآخرة كما قال النبى ﷺ « تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة ولهذا قال الله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ومن هذا القبيل ما رواه الإمام أحمد حدثنا محمد ابن أبى عدى عن حميد عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال اجدنى كارها قال « أسلم وإن كنت كارها »

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخا للذين تخلفوا عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك وقعدوا بعد ما استأذنوه فى ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ولم يكونوا كذلك فقال (لو كان عرضا قريبا) قال ابن عباس : غنيمة قريبة (وسفرا قاصدا) أى قريباً أيضا (لاتبعوك) أى لكانوا جاءوا معك لذلك (ولكن بعدت عليهم الشقة) أى المسافة إلى الشام (وسيحلفون بالله) أى لكم إذا رجعتم إليهم (لو استطعنا لخرجنا معكم) أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال الله تعالى (يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون)

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

قال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازى حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة فقال (عفا الله عنك لم أذنت لهم) وكذا قال مورق العجلى وغيره . وقال قتادة عاتبه كما تسمعون ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال (فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم) الآية . وكذا روى عن عطاء الخراسانى ، وقال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس قالوا استأذنوا رسول الله ﷺ فان أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، ولهذا قال تعالى (حتى يتبين لك الذين صدقوا) أى فى إبداء الأعذار (وتعلم الكاذبين) يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب فانهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو وإن لم تأذن لهم فيه . ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال (لا يستأذنك) أى فى القعود عن الغزو (الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) لأنهم يرون الجهاد قربة ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا (والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك) أى فى القعود ممن لا عذر له (الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر) أى لا يرجون ثواب الله فى الدار الآخرة على أعمالهم (وارتابت قلوبهم)

أى شكت فى صحة ماجئتهم به (فهم فى ريبهم يترددون) أى يتحيرون يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى وليست لهم قدم ثابته فى شىء فهم قوم حيارى هلكى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

يقول تعالى (ولو أرادوا الخروج) أى معك إلى الغزو (لأعدوا له عدة) أى لكانوا تأهبوا له (ولكن كره الله انبعاثهم) أى أبغض أن يخرجوا معك قدراً (فثبطهم) أى أخرهم (وقيل اقعدوا مع القاعدين) أى قدرا ثم بين تعالى وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال (لوخرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا) أى لأنهم جبناء مخذولون (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا السير والمشى بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنه (وفيكم سماعون لهم أى مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدى إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير . وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير (وفيكم سماعون لهم) أى عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم بل هذا عام فى جميع الأحوال والمعنى الأول أظهر فى المناسبة بالسياق وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين . وقال محمد بن إسحق كان الذين استأذنوا فيما بلغنى من ذوى الشرف منهم عبد الله بن أبى ابن سلول والجد بن قيس وكانوا أشرافا فى قومهم فثبطهم الله لعلمه بهم أن يخرجوا معه فيفسدوا عليه جنده وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم فقال (وفيكم سماعون لهم) ثم أخبر تعالى عن تمام علمه فقال (والله عليم بالظالمين) فاخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف كان يكون ، ولهذا قال تعالى (لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) فأخبر عن حالهم كيف يكون لوخرجوا ومع هذا ماخرجوا كما قال تعالى (ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقال تعالى (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولوأسمعهم لتولوا وهم معرضون) وقال تعالى (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا مايوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا * وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيما * ولهديناهم صراطا مستقيم) والآيات فى هذا كثيرة

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾

يقول تعالى محرضا لنبيه عليه السلام على المنافقين (لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور) أى لقد أعملوا فكرهم وأجالوا آراءهم فى كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك وإخماده مدة طويلة : وذلك أول مقدم النبى ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته قال عبد الله بن أبى وأصحابه هذا أمر قد توجه فدخلوا فى الإسلام ظاهراً ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ولهذا قال تعالى (حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من يقول لك يامحمد (ائذن لى) فى القعود (ولاتفتنى) بالخروج معك بسبب الجوارى من نساء الروم . قال الله تعالى (ألا فى الفتنة سقطوا) أى قدسقطوا فى الفتنة بقولهم هذا كما قال محمد بن إسحق عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك ياجد العام فى جلاد بنى الأصفر ؟» فقال يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فو الله لقد عرف قومى ما رجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال «قد أذنت لك » ففى الجد بن قيس نزلت هـذه (ومنهم من يقول ائذن لى ولاتفتنى) الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وغير واحد أنها نزلت فى الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بنى سلمة . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم « من سيدكم يا بنى سلمة ؟ » قالوا الجد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول الله ﷺ « وأى داء أدوأ من البخل ! ولـكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » وقوله تعـالى (وإن جهنم لمحيطة بالـكافرين) أى لا محيد لهم عنها ولا محيص ولا مهرب

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعدواة هؤلاء له لأنه مهما أصابه من حسنة أى فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك (وإن تصبك مصيبه يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل) أى قد احترزنا من متابعته من قبل هذا (ويتولوا وهم فرحون) فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى حوابهم فى عداوتهم هذه التامة فقال (قل) أى لهم (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى نحن تحت مشيئته وقدره (هو مولانا) أى سيدنا وملجؤنا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ * قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) لهم يا محمد (هل تربصون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا إحدى الحسنيين) شهادة أو ظفر بكم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم (ونحن نتربص بكم) أى ننتظر بكم (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) أى ننتظر بكم هذا أو هذا إما (أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) بسبى أو بقتل (فتربصوا إنا معكم متربصون) وقوله تعالى (قل أنفقوا طوعا أوكرها) أى مهما أنفقتم من نفقه طائعين أومكرهين (لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك وهو أنهم لا يتقبل منهم (لأنهم كفروا بالله وبرسوله) أى والأعمال إنما تصح بالإيمان (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ليس لهم قدم صحيح ولا همـة فى العمل (ولا ينفقون) نفقة (إلاوهم كارهون) وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرســوله ﷺ (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) كما قال تعالى (ولاتمـدن عينيك إلى

ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) وقال (أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) وقوله (إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) قال الحسن البصرى بزكاتها والنفقة منها فى سبيل الله ، وقال قتادة هذا من المقدم والمؤخر تقديره : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم فى الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الآخرة . واختار ابن جرير قول الحسن ، وهو القول القوى الحسن وقوله (وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذا بالله من ذلك وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم (يحلفون بالله إنهم لمنكم) يمينا مؤكدة (وما هم منكم) أى فى نفس الأمر (ولكنهم قوم يفرقون) أى فهو الذى حملهم على الحلف (لو يجدون ملجأ) أى حصنا يتحصنون به وحرزا يتحرزون به (أو مغارات) وهى التى فى الجبال (أو مدخلا) وهو السرب فى الأرض والنفق قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة (لولوا إليه وهم يجمحون) أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة وودوا أنهم لا يخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ولهذا قال (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم) أى ومن المنافقين (من يلمزك) أى يعيب عليك (فى) قسم (الصدقات) إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك وهم المتهمون المأبونون وهم مع هذا لا ينكرون للدين وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ولهذا (إن أعطوا من الزكاة رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون) أى يغضبون لأنفسهم ، قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها هاهنا وههنا حتى ذهبت قال ووراءه رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة فى قوله (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) يقول ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقسم ذهبا وفضة فقال يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ؟ » ثم قال نبى الله « احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم » وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه إنما أنا خازن » وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى سعيد فى قصة ذى الخويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى صلى الله عليه وسلم حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رآه مقفيا « إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء » وذكر بقية الحديث ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك

فقال (ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيما وسرا شريفا حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده وهو قوله (وقالوا حسبنا الله) وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ وامتثال أوامره وترك زواجره وتصديق أخباره والاقتفاء بآثاره .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبى ﷺ ولمزهم إياه فى قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذى قسمها وبين حكمها وتولى أمرها بنفسه ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين كما رواه الإمام أبو داود فى سننه من حديث عبدالرحمن بن زياد بن أنعم وفيه ضعف عن زياد بن نعيم عن زياد بن الحارث الصدائى رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال أعطنى من الصدقة فقال له « إن الله لم يرض بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك » وقد اختلف العلماء فى هذه الأصناف الثمانية هل يجب استيعاب الدفع لها أو إلى ما أمكن منها ؟ على قولين (أحدهما) أنه يجب ذلك وهو قول الشافعى وجماعة (والثانى) أنه لا يجب استيعابها بل يجوز الدفع الى واحد منها ويعطى جميع الصدقة مع وجود الباقين وهو قول مالك وجماعة من السلف والخلف منهم عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون ابن مهران ، قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم ، وعلى هذا فانما ذكرت الأصناف ههنا لبيان المصرف لا لوجوب استيعابها . ولوجوه الحجاج والمآخذ مكان غير هذا والله أعلم ، وإنما قدم الفقراء ههنا على البقية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور ولشدة فاقتهم وحاجتهم ، وعند أبى حنيفة أن المسكين أسوأ حالا من الفقير وهو كما قال أحمد وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا ابن عون عن محمد قال : قال عمر رضى الله عنه : الفقير ليس بالذى لا مال له ، ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية الأخلق المحارف عندنا ، والجمهور على خلافه وروى عن ابن عباس ومجاهد والحسن البصرى وابن زيد . واختار ابن جرير وغير واحد أن الفقير هو المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئا والمسكين هو الذى يسأل ويطوف ويتبع الناس وقال قتادة الفقير من به زمانة والمسكين الصحيح الجسم وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم هم فقراء المهاجرين ، قال سفيان الثورى يعنى ولا يعطى الأعراب منها شيئا وكذا روى عن سعيد ابن جبير وسعيد بن عبد الرحمن بن أبزى ، وقال عكرمة لا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين إنما المساكين أهل الكتاب ولنذكر أحاديث تتعلق بكل من الأصناف الثمانية * فأما الفقراء فعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » رواه أحمد وأبو داود والترمذى ، ولأحمد أيضا والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة مثله وعن عبيد الله بن عدى بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ﷺ يسألانه من الصدقة فقلب فيهما البصر فرآهما جلدين فقال « إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب » رواه أحمد وأبو داود والنسائى بإسناد جيد قوى وقال ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل: أبو بكر العبسى قال قرأ عمر رضى الله عنه (إنما الصدقات للفقراء) قال هم أهل الكتاب روى عنه عمر بن نافع سمعت أبى يقول ذلك (قلت) وهذا قول غريب جدا بتقدير صحة الإسناد فان أبا بكر هذا وإن لم ينص أبو حاتم على جهالته لكنه فى حكم المجهول ، وأما المساكين فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « ليس المسكين بهذا الطواف الذى يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان قالوا فما المسكين يارسول الله ؟ قال « الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس شيئا » رواه الشيخان . وأما العاملون عليها فهم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطا على ذلك ولا يجوز

أن يكونوا من أقرباء رسـول الله ﷺ الذين تحرم عليهم الصدقه لما ثبت فى صحيح مسلم عن عبد المطلب من ربيعـة بن الحارث أنه انطلق هو والفضل ابن العباس يسألان رسـول الله ﷺ ليستعملهما على الصـدقة فقال « إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد إنما هى أوساخ الناس » . وأما المؤلفة قلوبهم فأقسام منهم من يعطى ليسلم كما أعطى النبى صـلى الله عليه وسلم صفوان بن أمية من غنائم حنين وقدكان شهدها مشركا قال فلم يزل يعطينى حتى صار أحب الناس إلى بعد أن كان أبغض الناس إلى ، كما قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى أنا ابن المبارك عن يونس عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية قال : أعطانى رسـول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الناس إلى فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى ، ورواه مسلم والترمذى من حديث يونس عن الزهرى به ومنهم من يعطى ليحسن إسلامه ويثبت قلبه كما أعطى يوم حنين أيضا جماعة من صناديد الطلقاء وأشرافهم مائة من الإبل مائة من الإبل وقال « إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله على وجهه فى نار جهنم » . وفى الصحيحين عن أبى سعيد أن عليا بعث إلى النبى صلى الله عليه وسلم بذهيبة فى تربتها من اليمن فقسمها بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس ، وعيينة بن بدر ، وعلقمة بن علاثة ، وزيد الخير ، وقال « أتألفهم » ومنهم من يعطى لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد ، ومحل تفصيل هذا فى كتب الفروع والله أعلم

وهل تعطى المؤلفة على الإسـلام بعد النبى ﷺ ؟ فيه خلاف ، فروى عن عمر وعامر والشعبى وجمـاعة أنهم لا يعطون بعده لأن الله قد أعز الإسلام وأهله ومكن لهم فى البلاد ، وأذل لهم رقاب العباد . وقال آخرون بل يعطون لأنه عليه الصلاة والسلام قد أعطاهم بعد فتح مكة وكسر هوازن وهـذا أمر قد يحتاج إليه فيصرف إليهم . وأما الرقاب فروى عن الحسن البصرى ومقاتل بن حيان وعمر بن عبد العزيز وسعيد بن جبير والنخعى والزهرى وابن زيد أنهم المكاتبون ، وروى عن أبى موسى الأشعرى نحوه وهو قول الشافعى والليث رضى الله عنهما . وقال ابن عباس والحسن لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة وهو مذهب أحمـد ومالك وإسحق أى أن الرقاب أعم من أن يعطى المكاتب أو يشترى رقبة فيعتقها استقلالا ، وقد ورد فى ثواب الاعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة وأن الله يعتق بكل عضو منها عضـواً من معتقها حتى الفرج بالفرج وماذاك إلا لأن الجزاء من جنس العمل (وما تجزون إلا ما كنتم تعملون) وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « ثلاثة حق على الله عونهم : الغازى فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلا أبا داود ، وفى المسند عن البراء بن عازب قال جاء رجل فقال يا رسول الله دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار فقال « أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال يا رسول الله أوليسا واحدا ؟ قال « لا ، عتق النسمة أن تفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها » وأما الغارمون فهم أقسام فمنهم من تحمل حمالة أو ضمن دينا فلزمه فأجحف بماله أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم ، والأصل فى هذا الباب حديث قبيصة بن مخارق الهلالى قال : تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال « أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها » قال ثم قال « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سدادا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوى الحجا من قرابة قومه فيقولون لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ـ أو قال سدادا من عيش ـ فما سواهن من المسألة سحت يأكلها صاحبها سحتاً » رواه مسلم ، وعن أبى سعيد قال : أصيب رجل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ثمار ابتاعها فـكثر دينه فقال النبى ﷺ « تصدقوا عليه » فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه فقال النبى صلى الله عليه وسلم لغرمائه « خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك » رواه مسلم . وقال الإمام أحمـد : حدثنا عبد الصمد أنبأنا صدقة بن موسى عن أبى عمران الجونى عن قيس بن يزيد عن قاضى المصرين عن عبد الرحمن بن

أبي بكر قال : قال رسول الله ﷺ « يدعو الله لصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه فيقول : يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول يا رب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن أتى على يدى إما حرق وإما سرق وإما وضيعة . فيقول الله صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك اليوم فيدعو الله بشيء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل الله ورحمته » وأما فى سبيل الله فمنهم الغزاة الذين لاحق لهم فى الديوان وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحج من سبيل الله للحديث ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر المجتاز فى بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده وإن كان له مال وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته فى ذهابه وإيابه .
والدليل على ذلك الآية وما رواه الإمام أبو داود وابن ماجه من حديث معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحل الصدقة لغنى إلا لخمسة : العامل عليها أو رجل اشتراها بماله أو غارم أو غاز فى سبيل الله أو مسكين تصدق عليه منها فأهدى لغنى » وقد رواه السفيانان عن زيد بن أسلم عن عطاء مرسلا ، ولأبى داود عن عطية العوفى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « لا تحل الصدقة لغنى إلا فى سبيل الله وابن السبيل أو جار فقير فيهدى لك أو يدعوك » وقوله (فريضة من الله) أى حكما مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه (والله عليم حكيم) أى عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده (حكيم) فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكلام فيه ويقولون (هو أذن) أى من قال له شيئا صدقه فينا ومن حدثه صدقه فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . روى معناه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. قال الله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى ويصدق المؤمنين (ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو حجة على الكافرين ولهذا قال (والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

قال قتاده فى قوله تعالى (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية . قال ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا وإن كان مايقول محمد حقا ، لهم شر من الحمير . قال فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن مايقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار قال فسعى بها الرجال إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال « ما حملك على الذى قلت ؟ » فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله الآية . وقوله تعالى (ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله) الآية أى ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عزوجل أى شاقه وحاربه وخالفه وكان فى حد والله ورسوله فى حد (فأن له نار جهنم خالداً فيها) أى مهاناً معذبا و(ذلك الخزى العظيم) أى وهذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ثم يقولون عسى الله أن لايفشى علينا سرنا هذا ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) وقال فى هذه الآية (قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون) أى إن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به ويبين له أمركم كقوله تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم - إلى قوله - ولتعرفنهم فى لحن القول) الآية ، ولهذا قال قتادة كانت تسمى هذه السورة الفاضحة فاضحة المنافقين

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قال أبو معشر المدينى عن محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا قال رجل من المنافقين ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء . فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون - إلى قوله - كانوا مجرمين) وإن رجليه لتسفعان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عبد الله بن وهب : أخبرنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رجل فى غزوة تبوك فى مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء . فقال رجل فى المسجد : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن فقال عبد الله بن عمرو أنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون .) الآية . وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا . وقال ابن إسحق وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بنى أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى بن حمير يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا والله لكأنا بكم غداً مقرنين فى الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين فقال مخشى بن حمير والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه وقال رسول الله ﷺ فيما بلغنى لعمار بن ياسر « أدرك القوم فانهم قد احترقوا فاسألهم عما قالوا فان أنكروا فقل بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته فجعل يقول وهو آخذ بحقبها يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب فقال مخشى بن حمير يا رسول الله قعد بى اسمى واسم أبى فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى بن حمير فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أسر. وقال قتادة (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) قال فبينما النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا فقال « على بهؤلاء النفر » فدعاهم فقال « قلتم كذا وكذا » فحلفوا ما كنا إلا نخوض ونلعب . وقال عكرمة فى تفسير هذه الآية كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول اللهم إنى أسمع آية أنا أعنى بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم فاجعل وفاتى قتلا فى سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت. قال فأصيب يوم اليمامة فما من أحد من المسلمين إلا وقد وجد غيره . وقوله (لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى بهذا المقال الذى استهزأتم به (إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة) أى لا يعفى عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم (بأنهم كانوا مجرمين) أى مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكرا على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى عن الانفاق فى سبيل الله (نسوا الله)أى نسوا ذكر الله (فنسيهم) أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى(فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا) (إن المنافقين هم الفاسقون) أى الخارجون عن طريق الحق الداخلون فى طريق الضلاله وقوله (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم)أى على هذا الصنيع الذى ذكر عنهم (خالدين فيها) أى ماكثين فيها مخلدين هم والكفار (هى حسبهم) أى كفايتهم فى العذاب (ولعنهم الله) أى طردهم وأبعدهم (ولهم عذاب مقيم)

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

يقول تعالى أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى فى الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم وقوله (بخلاقهم) قال الحسن بدينهم وقوله (وخضتم كالذى خاضوا) أى فى الكذب والباطل (أولئك حبطت أعمالهم) أى بطلت مساعيهم فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة (فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب. قال ابن جرير عن عمرو بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (كالذين من قبلكم) الآية قال ابن عباس ما أشبه الليلة بالبارحة (كالذين من قبلكم) هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم لا أعلم إلا أنه قال : «والذى نفسى بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه » قال ابن جريج وأخبرنى زياد بن سعد عن محمد بن زياد بن مهاجر عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا بباع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب قال « فمن ؟ » وهكذا رواه أبو معشر عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره وزاد قال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم القرآن (كالذين من قبلكم) الآية قال أبو هريرة الخلاق الدين(وخضتم كالذى خاضوا) قالوا يا رسول الله كما صنعت فارس والروم ؟ قال «فهل الناس إلا هم ؟» وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى واعظا لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم) أى ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل (قوم نوح) وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام (وعاد) كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هودا عليه السلام (وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة (وقوم إبراهيم) كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم وأهلك ملكهم نمروذ بن كنعان بن كوش الكنعانى لعنه الله (وأصحاب مدين) وهم قوم شعيب عليه السلام

وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة (والمؤتفكات) قوم لوط وقد كانوا يسكنون فى مدائن ، وقال فى الآية الأخرى (والمؤتفكة أهوى) أى الأمة المؤتفكة وقيل أم قراهم وهى سدوم والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبى الله لوطا عليه السلام وإتيانهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين (أتتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج والدلائل القاطعات (فما كان الله ليظلمهم) أى باهلاكه إياهم لأنه أقام عليهم الحجة بارسال الرسل وإزاحة العلل (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم الحق فصاروا إلى ما صاروا اليه من العذاب والدمار

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أى يتناصرون ويتعاضدون كما جاء فى الصحيح «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه ، وفى الصحيح أيضا «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) كقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الآية وقوله (ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أى يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه (ويطيعون الله ورسوله) أى فيما أمر وترك ما عنه زجر (أولئك سيرحمهم الله) أى سيرحمهم الله من اتصف بهذه الصفات (إن الله عزيز) أى يعز من أطاعه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (حكيم) فى قسمته هذه الصفات لهؤلاء وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة فانه له الحكمة فى جميع ما يفعله تبارك وتعالى

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم فى (جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كثين فيها أبدا (ومساكن طيبة) أى حسنة البناء طيبة القرار كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى عمران الجونى عن أبى بكر بن أبى موسى عبدالله بن قيس الأشعرى عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» وبه قال : قال رسول الله ﷺ «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فى السماء للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضا» أخرجاه فى الصحيحين ، وفيهما أيضا عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر فى سبيل الله أو حبس فى أرضه التى ولد فيها» قالوا يارسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن» وعند الطبرانى والترمذى وابن ماجه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن معاذ بن جبل رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول فذكر مثله . وللترمذى عن عبادة بن الصامت مثله وعن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف فى الجنة كما ترون الكوكب فى السماء» أخرجاه فى الصحيحين ، ثم ليعلم أن أعلى منزلة فى الجنة مكان يقال له الوسيلة لقربه من العرش وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن ليث عن

كعب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إذا صليتم على فسلوا الله لى الوسيلة » قيل يا رسول الله وما الوسيلة ؟ قال « أعلى درجة فى الجنة لا ينالها إلا رجل واحد وأرجو أن أكون أنا هو »

وفى صحيح مسلم من حديث كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فانه من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لى الوسيلة فانها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أحمد بن على الأبار حدثنا الوليد بن عبد الملك الحرانى حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة فانه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » رواه الطبرانى . وفى مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن مجاهد الطائى عن أبى المدله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ قال « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران . من يدخلها ينعم لا ييأس ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وروى عن ابن عمر مرفوعا نحوه ، وعند الترمذى من حديث عبد الرحمن بن إسحق عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة لغرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقام أعرابى فقال يا رسول الله لمن هى ؟ فقال « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » ثم قال حديث غريب ورواه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو وأبى مالك الأشعرى كل منهما عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وكل من الاسنادين جيد حسن . وعنده أن السائل هو أبو مالك الأشعرى فالله أعلم ، وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « ألا هل من مشمر إلى الجنة ؟ فان الجنة لا حظر لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة فى محلة عالية بهية » قالوا نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال « قولوا إن شاء الله » فقال القوم إن شاء الله ، رواه ابن ماجه . وقوله تعالى (ورضوان من الله أكبر) أى رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال الإمام مالك رحمه الله عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى يارب وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون يارب وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » أخرجاه من حديث مالك ، وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملى حدثنا الفضل الرجائى حدثنا الفريابى عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله عز وجل هل تشتهون شيئا فأزيدكم ؟ قالوا يا ربنا ما خير مما أعطيتنا ؟ قال رضوانى أكبر » ورواه البزار فى مسنده من حديث الثورى ، وقال الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه صفة الجنة هذا عندى على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين وأخبره أن مصير الكفار والمنافقين إلى النار فى الدار الآخرة ، وقد تقدم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : بعث رسول الله ﷺ بأربعة أسياف : سيف للمشركين (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) وسيف للكفار أهل الكتاب (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) وسيف للمنافقين (جاهد الكفار والمنافقين) وسيف للبغاة (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) وهذا يقتضى أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق وهو اختيار ابن جرير ، وقال ابن مسعود فى قوله تعالى (جاهد الكفار والمنافقين)قال بيده فان لم يستطع فليكفهر فى وجهه . وقال ابن عباس أمره الله تعالى بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان وأذهب الرفق عنهم ، وقال الضحاك جاهد الكفار بالسيف واغلظ على المنافقين بالكلام وهو مجاهدتهم . وعن مقاتل والربيع مثله : وقال الحسن وقتادة ومجاهد : مجاهدتهم إقامة الحدود عليهم وقد يقال إنه لا منافاة بين هذه الأقوال لأنه تارة يؤاخذهم بهذا وتارة بهذا بحسب الأحوال والله أعلم . وقوله (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) قال قتادة نزلت فى عبد الله بن أبى وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصار ألا تنصروا أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك ، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية : وروى إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة قال فحدثنى عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك رضى الله عنه يقول حزنت على من أصيب بالحرة من قومى فكتب إلىّ زيد بن أرقم وبلغه شدة حزنى يذكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار » وشك ابن الفضل فى أبناء أبناء الأنصار قال ابن الفضل فسأل أنس بعض من كان عنده عن زيد بن أرقم فقال هو الذى يقول له رسول الله ﷺ « أوفى الله له بإذنه » قال وذلك حين سمع رجلا من المنافقين يقول ورسول الله ﷺ يخطب لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير ، فقال زيد بن أرقم فهو والله صادق ولأنت شر من الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجحده القائل فأنزل الله هذه الآية تصديقا لزيد ، يعنى قوله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية رواه البخارى فى صحيحه عن إسماعيل بن أبى أويس عن إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة - إلى قوله - هذا الذى أوفى الله له بإذنه. ولعل ما بعده من قول موسى بن عقبة وقد رواه محمد بن فليح عن موسى ابن عقبة بإسناده ثم قال : قال ابن شهاب فذكر ما بعده عن موسى عن ابن شهاب . والمشهور فى هذه القصة أنها كانت فى غزوة بنى المصطلق فلعل الراوى وهم فى ذكر الآية وأراد أن يذكر غيرها فذكرها والله أعلم . قال الأموى فى مغازيه: حدثنا محمد بن إسحق عن الزهرى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده قال لما قدم رسول الله ﷺ أخذنى قومى فقالوا إنك امرؤ شاعر فان شئت أن تعتذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض العلة ثم يكون ذنبا تستغفر الله منه وذكر الحديث بطوله إلى أن قال وكان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن منهم ممن كان مع النبى صلى الله عليه وسلم الجلاس بن سويد بن الصامت وكان على أم عمير بن سعد وكان عمير فى حجره فلما نزل القرآن وذكرهم الله بما ذكر مما أنزل فى المنافقين قال الجلاس والله لئن كان هذا الرجل صادقا فيما يقول لنحن شر من الحمير فسمعها عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلىّ وأحسنهم عندى بلاء وأعزهم علىّ أن يصله شىء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنى ولئن كتمتها لتهلكنى ولاحداهما أهون على من الأخرى . فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر له ما قال الجلاس فلما بلغ ذلك الجلاس خرج حتى أتى النبى ﷺ فحلف بالله ما قال ما قال عمير بن سعد ولقد كذب على ، فأنزل الله عز وجل فيه (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم) إلى آخر الآية فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها

فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع . هكذا جاء هذا مدرجا فى الحديث متصلا به وكأنه والله أعلم من كلام ابن إسحق نفسه لا من كلام كعب بن مالك ، وقال عروة بن الزبير نزلت هذه الآية فى الجلاس ابن سويد بن الصامت أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء فقال الجلاس إن كان ما جاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها ، فقال مصعب أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت فأتيت النبى ﷺ وخفت أن ينزل فىّ القرآن أو تصيبنى قارعة أو أن أخلط بخطيئته فقلت يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبنى قارعة ما أخبرتك . قال فدعا الجلاس فقال « يا جلاس أقلت الذى قاله مصعب؟» فحلف فأنزل الله (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقال محمد بن إسحق كان الذى قال تلك المقالة فيما بلغنى الجلاس بن سويد بن الصامت فرفعها عليه رجل كان فى حجره يقال له عمير بن سعد فأنكرها فحلف بالله ما قالها فلما نزل فيه القرآن تاب ونزع وحسنت توبته فيما بلغنى ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنى أيوب ابن إسحق بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ جالسا فى ظل شجرة فقال « إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم - يعنى الشيطان - فإذا جاء فلا تكلموه » فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاءه بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم فأنزل الله عز وجل (يحلفون بالله ما قالوا) الآية وقوله (وهموا بما لم ينالوا) قيل أنزلت فى الجلاس بن سويد وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته حين قال لأخبرن رسول الله ﷺ وقيل فى عبد الله بن أبى هم بقتل رسول صلى الله عليه وسلم ، وقال السدى نزلت فى أناس أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبى وإن لم يرض رسول الله ﷺ وقد ورد أن نفرا من المنافقين هموا بالفتك بالنبى ﷺ وهو فى غزوة تبوك فى بعض تلك الليالى فى حال السير وكانوا بضعة عشر رجلا قال الضحاك ففيهم نزلت هذه الآية ، وذلك بين فيما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة من حديث محمد بن إسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار يسوق الناقة أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال فانتهرهم رسول الله ﷺ بهم ، وصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله ﷺ « هل عرفتم القوم ؟ » قلنا لا يا رسول الله قد كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب قال « هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة وهل تدرون ما أرادوا ؟ » قلنا لا ، قال « أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ فى العقبة فيلقوه منها » قلنا يا رسول الله أفلا نبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال « لا ، أكره أن تتحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم - ثم قال - اللهم ارمهم بالدبيلة » قلنا يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال « شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل قال لما أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة فلا يأخذها أحد فبينما رسول الله ﷺ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ﷺ فأقبل عمار رضى الله عنه يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله ﷺ لحذيفة « قد قد » حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما هبط نزل ورجع عمار فقال يا عمار «هل عرفت القوم؟ » فقال لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون قال « هل تدرى ما أرادوا ؟ » قال الله ورسوله أعلم قال « أرادوا أن ينفروا برسول الله - ﷺ - راحلته فيطرحوه » قال فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ فقال نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال أربعة عشر رجلا فقال إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر قال فعد رسول الله ﷺ منهم ثلاثة قالوا والله ما سمعنا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما علمنا ما أراد القوم فقال عمار أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد وهكذا روى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة بن الزبير نحو هذا وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن يمشى الناس فى بطن الوادى وصعد هو وحذيفة وعمار العقبة فتبعهم هؤلاء النفر الأرذلون وهم متلثمون فأرادوا سلوك العقبة فأطلع الله على مرادهم رسول الله ﷺ فأمر حذيفة فرجع اليهم فضرب وجوه رواحلهم ففزعوا ورجعوا مقبوحين وأعلم رسول الله ﷺ حذيفة وعمارا بأسمائهم وما كانوا هموا به من الفتك به صلوات الله وسلامه عليه وأمرهما أن يكتما عليهم ، وكذا روى يونس بن بكير عن ابن إسحق إلا أنه سمى جماعة منهم فالله أعلم . وكذا قد حكى فى معجم الطبرانى قاله البيهقى ويشهد لهذه القصة بالصحة ما رواه مسلم حدثنا زهير ابن حرب حدثنا أبو أحمد الكوفى حدثنا الوليد بن جميع حدثنا أبو الطفيل قال : كان بين رجل من أهل العقبة وبين حذيفة بعض ما يكون بين الناس فقال أنشدك بالله كم كان أصحاب العقبة قال فقال له القوم أخبره إذ سألك فقال كنا نخبر أنهم أربعة عشر فان كنت منهم فقد كان القوم خمسة عشر وأشهد بالله أن اثنى عشر منهم حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وعذر ثلاثة قالوا ما سمعنا منادى رسول الله ﷺ ولا علمنا بما أراد القوم وقد كان فى حرة يمشى فقال إن الماء قليل فلا يسبقنى اليه أحد فوجد قوما قد سبقوه فلعنهم يومئذ وما رواه مسلم أيضا من حديث قتادة عن أبى نضرة عن قيس بن عباد عن عمار بن ياسر قال : أخبرنى حذيفة عن النبى ﷺ أنه قال « فى أصحابى اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سم الخياط : ثمانية منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم فى صدورهم » ولهذا كان حذيفة يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من تعيين جماعة من المنافقين وهم هؤلاء قد أطلعه عليهم رسول الله ﷺ دون غيره والله أعلم ، وقد ترجم الطبرانى فى مسند حذيفة تسمية أصحاب العقبة ثم روى عن على بن عبد العزيز عن الزبير بن بكار أنه قال : هم معتب بن قشير ووديعة بن ثابت وجد بن عبد الله بن نبتل[1] بن الحارث من بنى عمرو بن عوف والحارث بن يزيد الطائى وأوس ابن قيظى والحارث بن سويد وسعد بن زرارة وقيس بن فهد وسويد بن داعس من بنى الحبلى وقيس بن عمرو بن سهل وزيد بن اللصيت وسلالة بن الحمام وهما من بنى قينقاع أظهروا الاسلام . وقوله تعالى (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويمن سعادته ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال ﷺ للأنصار « ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ، وعالة فأغناكم الله بى » كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن . وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب كقوله (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) الآية وقوله عليه السلام « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيرا فأغناه الله » ثم دعاهم الله تبارك وتعالى إلى التوبه فقال (فإن يتوبوا يك خيرا لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة) أى وان يستمروا على طريقهم يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا أى بالقتل والهم والغم والآخرة أى بالعذاب والنكال والهوان والصغار (ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير) أى وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم لا يحصل لهم خيرا ولا يدفع عنهم شرا

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

يقول تعالى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى فأعقبهم هذا الصنيع نفاقا سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقوا الله عز وجل يوم القيامة عياذا بالله من ذلك وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة

(١) فى النسخة الحجازية : ابن نبيل

فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبى حاتم من حديث معان بن رفاعة عن على بن يزيد عن أبى عبدالرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبدالرحمن بن يزيد بن معاوية عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله ﷺ : ادع الله أن يرزقنى مالا ، قال فقال رسول الله ﷺ « ويحك ياثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لاتطيقه » قال ثم قال مرة أخرى فقال « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فو الذى نفسى بيده لوشئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت » قال والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار فقال رسول الله ﷺ « ما فعل ثعلبة ؟ » فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال « ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة » وأنزل الله جل ثناؤه (خذ من أموالهم صدقة) الآية ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين رجلا من جهينة ورجلا من سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما « مرا بثعلبة وبفلان -رجل من بنى سليم- فخذا صدقاتهما » فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ماأدرى ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأوها قالوا مايجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال بلى فخذوها فان نفسى بذلك طيبة وإنما هى له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال ، أرونى كتابكما فقرأه فقال ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيى فانطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فلما رآهما قال « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى . فأنزل الله عز وجل (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية قال وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله ﷺ « هذا عملك قد أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله وموضعى من الأنصار فاقبل صدقتى فقال أبو بكر لم يقبلها منك رسول الله ﷺ وأبى أن يقبلها فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وأنا أقبلها منك فقبض ولم يقبلها فلما ولى عثمان رضى الله عنه أتاه فقال : اقبل صدقتى فقال لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان ، وقوله تعالى (بما أخلفوا الله ماوعدوه) الآية أى أعقبهم النفاق فى قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم كما فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وله شواهد كثيرة والله أعلم . وقوله (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم) الآية يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى وأنه أعلم بضمائرهم وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها وشكروا عليها فان الله أعلم بهم من أنفسهم لأنه تعالى علام الغيوب أى يعلم كل غيب وشهادة وكل سر ونجوى ويعلم ماظهر ومابطن

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهذا أيضا من صفات المنافقين لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم فى جميع الأحوال حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا هذا مراء وإن جاء بشيء يسير قالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا ، كما روى البخارى حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو النعمان البصرى حدثنا شعبة عن سليمان عن أبى وائل عن أبى مسعود رضى الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل (١) على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مرائى وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغنى عن صدقة هذا . فنزلت (الذين يلمزون المطوعين) الآية . وقد رواه مسلم أيضاً فى صحيحه من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد الجريرى عن أبى السليل قال : وقف علينا رجل فى مجلسنا بالبقيع فقال : حدثنى أبى أو عمى أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع وهو يقول « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال فحللت من عمامتى لوثا أو لوثين وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركنى ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتى . فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلا أشد منه سوادا ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها فقال يا رسول الله أصدقة ؟ قال « نعم » قال دونك هذه الناقة قال فلمزه رجل فقال هذا يتصدق بهذه فوالله لهى خير منه . قال فسمعها رسول الله ﷺ فقال « كذبت بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ثم قال « ويل لأصحاب المئين من الإبل » ثلاثا قالوا إلا من يا رسول الله ؟ قال « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله ثم قال « قد أفلح المزهد المجهد » ثلاثا . المزهد فى العيش المجهد فى العبادة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية قال جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب إلى رسول الله ﷺ وجاءه رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياء ، وقالوا إن الله ورسوله الغنيان عن هذا الصاع . وقال العوفى عن ابن عباس إن رسول الله خرج إلى الناس يوما فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ثم جاء رجل من آخرهم بصاع من تمر فقال يارسول الله هذا صاع من تمر بت ليلتى أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره فى الصدقات فسخر منه رجال وقالوا إن الله ورسوله لغنيان عن هذا وما يصنعون بصاعك من شيء ، ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ هل بقى أحد من أهل الصدقات ؟ فقال رسول الله ﷺ « لم يبق أحد غيرك » فقال له عبد الرحمن بن عوف فان عندى مائة أوقية من ذهب فى الصدقات فقال له عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أمجنون أنت ؟ قال ليس بى جنون قال أفعلت ما فعلت ؟ قال نعم مالى ثمانية آلاف أما أربعة آلاف فأقرضها ربى وأما أربعة آلاف فلى فقال له رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » ولمزه المنافقون فقالوا والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء وهم كاذبون إنما كان به متطوعا فأنزل الله عز وجل عذره وعذر صاحبه المسكين الذى جاء بالصاع من التمر فقال تعالى فى كتابه (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) الآية ، وكذا روى عن مجاهد وغير واحد وقال ابن إسحق كان من المطوعين من المؤمنين فى الصدقات عبد الرحمن بن عوف تصدق بأربعة آلاف درهم وعاصم بن عدى أخو بنى العجلان وذلك أن رسول الله ﷺ رغب فى الصدقة وحض عليها فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى وتصدق بمائة وسق من تمر فلمزوهما وقالوا ما هذا إلا رياء وكان الذى تصدق بجهده أبو عقيل أخو بنى أنيف الاراشى حليف بنى عمرو بن عوف أتى بصاع من تمر فأفرغه فى الصدقة فتضاحكوا به وقالوا إن الله لغنى عن صاع أبى عقيل وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا طالوت بن عباد حدثنا أبو عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « تصدقوا فإنى أريد أن أبعث بعثا » قال فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال يا رسول الله عندى أربعة آلاف ألفين أقرضهما ربى وألفين لعيالى فقال رسول الله ﷺ « بارك الله لك فيما أعطيت

(١) أى نؤاجر أنفسنا فى الحمل ، وفى رواية عنده فى التفسير نتحامل أى يحمل بعضنا لبعض بالأجرة .

وبارك لك فيما أمسكت » وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر فقال يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربى وصاع لعيالى قال فلمزه المنافقون وقالوا ما أعطى الذى أعطى ابن عوف إلا رياء وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) الآية ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة عن عمرو بن أبى سلمة عن أبيه مرسلا قال ولم يسنده أحد إلا طالوت ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة حدثنى خالد ابن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه قال بت أجر الجرير على ظهرى على صاعين من تمر فانقلبت بأحدهما إلى أهلى يتبلغون به وجئت بالآخر أتقرب إلى رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال « انثره فى الصدقة » قال فسخر القوم وقالوا لقد كان الله غنيا عن صدقة هذا المسكين فأنزل الله (الذين يلمزون المطوعين) الآيتين ، وكذا رواه الطبرانى من حديث زيد بن الحباب به وقال اسم أبى عقيل حباب ويقال عبد الرحمن بن عبدالله بن ثعلبة وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصارا للمؤمنين فى الدنيا وأعد للمنافقين فى الآخرة عذابا أليما لأن الجزاء من جنس العمل

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلا للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل إن السبعين إنما ذكرت حسما لمادة الاستغفار لهم لأن العرب فى أساليب كلامها تذكر السبعين فى مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل بل لها مفهوم كما روى العوفى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « لما نزلت هذه الآية أسمع ربى قد رخص لى فيهم فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) الآية . وقال الشعبى لما ثقل عبد الله بن أبى انطلق ابنه إلى النبى ﷺ فقال إن أبى قد احتضر فأحب أن تشهده وتصلى عليه فقال له النبى ﷺ « ما اسمك » قال الحباب بن عبد الله قال « بل أنت عبد الله بن عبد الله إن الحباب اسم شيطان » ، فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وهو عرق وصلى عليه فقيل له : أتصلى عليه ؟ فقال « إن الله قال (إن تستغفر لهم سبعين مرة) ولأستغفرن لهم سبعين وسبعين وسبعين » وكذا روى عن عروة بن الزبير ومجاهد وقتادة بن دعامة ورواه ابن جرير بأسانيده

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا أَن يُجَٰهِدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ذاما للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك وفرحوا بقعودهم بعد خروجه (وكرهوا أن يجاهدوا) معه (بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا) أى بعضهم لبعض (لا تنفروا فى الحر) وذلك أن الخروج فى غزوة تبوك كان فى شدة الحر عند طيب الظلال والثمار فلهذا قالوا (لا تنفروا فى الحر) قال الله تعالى لرسوله ﷺ (قل) لهم (نار جهنم) التى تصيرون إليها بمخالفتكم (أشد حرا) مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « نار بنى آدم التى توقدونها جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله إن كانت لكافية فقال

« فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به ، وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت فى البحر مرتين ولولا ذلك ماجعل الله فيها منفعة لأحد » وهذا أيضا إسناده صحيح ، وقد روى الإمام أبو عيسى الترمذى وابن ماجه عن ابن عباس الدورى ، وعن يحيى بن أبى بكير عن شريك عن عاصم عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء كالليل المظلم » ثم قال الترمذى لا أعلم أحداً رفعه غير يحيى . كذا قال ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه عن إبراهيم بن محمد عن محمد بن الحسين بن مكرم عن عبيد الله بن سعيد عن عمه عن شريك وهو ابن عبدالله النخعى به ، وروى أيضا ابن مردويه من رواية مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (نارا وقودها الناس والحجارة) قال « أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت وألف عام حتى اسودت فهى سوداء كالليل لايضىء لهبها ، وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث تمام بن نجيح وقد اختلف فيه عن الحسن عن أنس رفعه « لو أن شرارة بالمشرق — أى من نار جهنم — لوجد حرها من بالمغرب » وروى الحافظ أبو يعلى عن إسحق بن أبى إسرائيل عن أبى عبيدة الحداد عن هشام بن حسان عن محمد بن شبيب عن جعفر بن أبى وحشية عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدن وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه » غريب وقال الأعمش عن أبى إسحق عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل لايرى أن أحدا من أهل النار أشد عذابا منه وإنه أهونهم عذابا » أخرجاه فى الصحيحين من حديث الأعمش ، وقال مسلم أيضا حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا يحيى بن أبى كثير حدثنا زهير بن محمد عن سهيل بن أبى صالح عن النعمان بن أبى عياش عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن ابن عجلان سمعت أبى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن أدنى أهل النار عذابا رجل يجعل له نعلان يغلى منهما دماغه » وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط مسلم والله أعلم ، والأحاديث والآثار النبوية فى هذا كثيرة ، وقال الله تعالى فى كتابه العزيز (كلا إنها لظى نزاعة للشوى) وقال تعالى (يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) وقال تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون) أى لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع الرسول فى سبيل الله فى الحر ليتقوا به من حر جهنم الذى هو أضعاف أضعاف هذا ولكنهم كما قال الآخر

* كالمستجير من الرمضاء بالنار *

وقال الآخر

عمرك بالحمية أفنيته * خوفا من البارد والحار
وكان أولى لك أن تتقى * من المعاصى حذر النار

ثم قال تعالى جل جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا (فليضحكوا قليلا) الآية قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاءوا فاذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لاينقطع أبدا ، وكذا قال أبو رزين والحسن وقتادة والربيع بن خثيم وعون العقيلى وزيد بن أسلم ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبد الله بن عبد الصمد بن أبى خداش حدثنا محمد بن جبير عن ابن المبارك عن عمران بن زيد حدثنا يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا فان أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم فى وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء

فتقرح العيون فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت » ورواه ابن ماجه من حديث الأعمش عن يزيد الرقاشي به ، وقال الحافظ أبوبكر بن عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن العباس حدثنا حماد الجزرى عن زيد بن رفيع رفعه قال إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ثم بكوا القيح زماناً قال فتقول لهم الخزنة يامعشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا هل تجدون اليوم من تستغيثون به قال فيرفعون أصواتهم يا أهل الجنة يامعشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشا وكنا طول الموقف عطاشا ونحن اليوم عطاش فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة لايجيبهم ثم يجيبهم (إنكم ما كثون) فييأسون من كل خير »

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام (فإن رجعك الله) أى ردك الله من غزوتك هذه (إلى طائفة منهم) قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا (فاستأذنوك للخروج) أى معك إلى غزوة أخرى (فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) أى تعزيرا لهم وعقوبة ثم علل ذلك بقوله (إنكم رضيتم بالقعود أول مرة) وهذا كقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) الآية فإن جزاء السيئة السيئة بعدها كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها كقوله فى عمرة الحديبية (سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها) الآية . وقوله تعالى (فاقعدوا مع الخالفين) قال ابن عباس أى الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة : وقال قتادة (فاقعدوا مع الخالفين) أى مع النساء ، قال ابن جرير وهذا لا يستقيم لأن جمع النساء لا يكون بالياء والنون ولو أريد النساء لقال فاقعدوا مع الخوالف أو الخالفات ورجح قول ابن عباس رضى الله عنهما

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من المنافقين وأن لا يصلى على أحد منهم إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعوله لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين كما قال البخارى : حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبى أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال يارسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما خيرنى الله فقال (استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) وسأزيده على السبعين » قال إنه منافق . قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل آية (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن أبى أسامة حماد بن أسامة به ، ثم رواه البخارى عن إبراهيم بن المنذر عن أنس بن عياض عن عبيد الله وهو ابن عمر العمرى به وقال فصلى عليه وصلينا معه وأنزل الله (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً) الآية . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن عبيد الله به ، وقد روى من حديث عمر بن الخطاب نفسه أيضا بنحو من هذا فقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن ابن إسحق حدثنى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام اليه فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه تحولت حتى قمت فى صدره فقلت يا رسول الله أعلى عدو الله عبد الله بن

أبى القائل يوم كذا كذا وكذا — يعدد أيامه — ، قال ورسول الله ﷺ يتبسم حتى إذا أكثرت عليه قال « أخرعنى ياعمر ، إنى خيرت فاخترت ، قد قيل لى (استغفر لهم) الآية . لو أعلم أنى لوزدت على السبعين غفر له لزدت » قال ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره حتى فرغ منه قال فعجبت من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم . قال فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية . فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل . وهكذا رواه الترمذى فى التفسير من حديث محمد بن إسحق عن الزهرى به وقال حسن صحيح ، ورواه البخارى عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن الزهرى به فذكر مثله وقال « أخرعنى يا عمر » فلما أكثرت عليه قال « إنى خيرت فاخترت ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » قال فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) الآية فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ابن عبيد حدثنا عبد الملك عن ابن الزبير عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبى أتى ابنه النبى ﷺ فقال يا رسول الله إنك إن لم تأته لم نزل نعير بهذا فأتاه النبى ﷺ فوجده قد أدخل فى حفرته فقال « أفلا قبل أن تدخلوه ، » فأخرج من حفرته وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه وألبسه قميصه ؛ ورواه النسائى عن أبى داود الحرانى عن يعلى بن عبيد عن عبد الملك وهو ابن أبى سليمان به ؛ وقال البخارى حدثنا عبد الله بن عثمان أخبرنا ابن عيينة عن عمرو سمع جابر بن عبد الله قال : أتى النبى ﷺ عبد الله بن أبى بعد ما أدخل فى قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم

وقد رواه أيضاً فى غير موضع مسلم والنسائى من غير وجه عن سفيان بن عيينة به. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن عمرو ابن عبد الخالق البزار فى مسنده حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى حدثنا مجالد حدثنا عامر حدثنا جابر ح وحدثنا يوسف بن موسى حدثنا عبد الرحمن بن مغراء الدوسى حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر قال لما مات رأس المنافقين قال يحيى بن سعيد بالمدينة فأوصى أن يصلى عليه النبى ﷺ فجاء ابنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن أبى أوصى أن يكفن بقميصك وهذا الكلام فى حديث عبد الرحمن بن مغراء قال يحيى فى حديثه فصلى عليه وألبسه قميصه فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) وزاد عبد الرحمن : وخلع النبى ﷺ قميصه فأعطاه إياه ومشى فصلى عليه وقام على قبره فأتاه جبريل عليه السلام لما ولى قال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) وإسناده لا بأس به وما قبله شاهد له

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا حماد بن سلمة عن يزيد الرقاشى عن أنس أن رسول الله ﷺ أراد أن يصلى على عبد الله بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) ورواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من حديث يزيد الرقاشى وهو ضعيف . وقال قتادة أرسل عبد الله بن أبى إلى رسول الله ﷺ وهو مريض فلما دخل عليه قال له النبى صلى الله عليه وسلم « أهلكك حب يهود » قال يارسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لى ولم أرسل إليك لتؤنبنى ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله عزوجل (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) الآية ، وقد ذكر بعض السلف أنه إنما كساه قميصه لأن عبد الله بن أبى لما قدم العباس طلب له قميص فلم يوجد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أبى لأنه كان ضخما طويلا ففعل ذلك به رسول الله ﷺ مكافأة له فالله أعلم . ولهذا كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية الكريمة عليه لا يصلى على أحد من المنافقين ولا يقوم على قبره كما قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن أبيه حدثنى عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا دعى إلى جنازة سأل عنها ، فان أثنى عليها خيرا قام فصلى عليها ، وإن كان غير ذلك قال لأهلها « شأنكم بها » ولم يصل

عليها ، وكان عمر بن الخطاب لا يصلى على جنازة من جهل حاله حتى يصلى عليها حذيفة بن اليمان لأنه كان يعلم أعيان المنافقين قد أخبره بهم رسـول الله ﷺ ، ولهـذا كان يقال له صاحب السر الذى لا يعلمه غيره أى من الصحابة . وقال أبو عبيد فى كتاب الغريب فى حديث عمر أنه أراد أن يصلى على جنازة رجل فمرزه حذيفة كانه أراد أن يصده عن الصلاة عليها . ثم حكى عن بعضهم أن المرز بلغة أهل اليمامة هو القرص بأطراف الأصابع ، ولما نهى الله عز وجل عن الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم كان هذا الصنيع من أكبر القربات فى حق المؤمنين فشرع ذلك ، وفى فعله الأجر الجزيل كما ثبت فى الصحاح وغيرها من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » قيل وما القيراطان ؟ قال «أصغرهما مثل أحد» وأما القيام عند قبر المؤمن إذا مات فروى أبو داود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى أخبرنا هشام عن عبدالله بن بحير عن هانىء وهو أبو سعيد البريرى مولى عثمان بن عفان عن عثمان رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل » انفرد بأخراجه أبو داود رحمه الله

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

تقدم تفسير نظير هذه الآية الـكريمة ولله الحمد والمنه

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ * رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا وذاما للمتخلفين عن الجهاد الناكلين عنه مع القدرة عليه ووجود السعة والطول واستأذنوا الرسول فى القعود وقالوا (ذرنا نكن مع القاعدين) ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود فى البلد مع النساء وهن الخوالف بعد خروج الجيش فاذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاما كما قال تعالى عنهم فى الآية الأخرى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) أى علت ألسنتهم بالـكلام الحاد القوى فى الأمن ، وفى الحرب أجبن شىء وكما قال الشاعر

أفى السلم أعيارا جفاء وغلظة وفى الحرب أشباه النساء الفوارك ؟

وقال تعالى فى الآية الأخرى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لـكان خيرا لهم) الآية ، وقوله (وطبع على قلوبهم) أى بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول فى سبيل الله (فهم لا يفقهون) أى لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه

﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين ومالهم فى آخرتهم فقال (لـكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا) إلى آخر الآيتين من بيان حالهم ومآلهم ، وقوله (وأولئك لهم الخيرات) أى فى الدار الآخرة فى جنات الفردوس والدرجات العلى

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوى الأعذار فى ترك الجهاد الذين جاءوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة . قال الضحاك عن ابن عباس إنه كان يقرأ (وجاء المعذرون) بالتخفيف ويقول هم أهل العذر . وكذا روى ابن عيينة عن حميد عن مجاهد سواء قال ابن إسحق وبلغنى أنهم نفر من بنى غفار خفاف بن إيماء بن رحضة وهذا القول هو الأظهر فى معنى الآية لأنه قال بعد هذا (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى لم يأتوا فيعتذروا ، وقال ابن جريج عن مجاهد (وجاء المعذرون من الأعراب) قال نفر من بنى غفار جاءوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ، وكذا قال الحسن وقتادة ومحمد بن إسحق والقول الأول أظهر والله أعلم لما قدمنا من قوله بعده (وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد آخرون من الأعراب عن المجىء للاعتذار ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال (سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التى لا حرج على من قعد معها عن القتال فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه وهو الضعف فى التركيب الذى لا يستطيع معه الجلاد فى الجهاد ومنه العمى والعرج ونحوهما ولهذا بدأ به ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له فى بدنه شغله عن الخروج فى سبيل الله أو بسبب فقره لا يقدر على التجهيز للحرب فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا فى حال قعودهم ولم يرجفوا بالناس ولم يثبطوهم وهم محسنون فى حالهم هذا ولهذا قال (ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع عن أبى ثمامة رضى الله عنه قال: قال الحواريون يا روح الله أخبرنا عن الناصح لله ؟ قال الذى يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذى للآخرة ثم تفرغ للذى للدنيا ، وقال الأوزاعى خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا اللهم نعم فقال اللهم إنا نسمعك تقول (ما على المحسنين من سبيل) اللهم وقد أقررنا بالاساءة فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا ، وقال قتادة نزلت هذه الآية فى عائذ بن عمرو المزنى حدثنا ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى حدثنا ابن جابر عن ابن فروة عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن زيد بن ثابت قال كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة فإنى لواضع القلم على أذنى إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت (ليس على الضعفاء) الآية وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقرن المزنى فقالوا يا رسول الله احملنا فقال لهم « والله لا أجد ما أحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا . فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه فقال (ليس على الضعفاء) إلى قوله (فهم لا يعلمون) وقال مجاهد فى قوله (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) نزلت فى بنى مقرن من مزينة ، وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمرو بن عوف سالم بن عوف ومن بنى واقف حرمى بن عمرو ومن بنى مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ومن بنى المعلى فضل الله ومن بنى سلمة عمرو بن عتبة وعبد الله بن عمرو المزنى ، وقال محمد بن إسحق فى سياق غزوة تبوك ثم إن رجالا من

المسلمين أتوا رسـول الله ﷺ وهم البكاءون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف سـالم ابن عمير وعلية بن زيد أخو بنى حارثة وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة وعبـد الله بن المغفل المزنى وبعض الناس يقول بل هو عبـد الله بن عمرو المزنى وحرمى بن عبـد الله أخو بنى واقف وعياض بن سارية الفزارى فاستحملوا رسـول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة فقال (لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون) وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن الأودى حدثنا وكيع عن الربيع عن الحسن قال : قال رسـول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينـة أقواما ما أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديا ولا نلتم من عدو نيلا إلا وقد شركوكم فى الأجر » ثم قرأ (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) الآية ، وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال « إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ولا سرتم سيرا إلا وهم معكم» قالوا وهم بالمدينة ؟ قال « نعم حبسهم العذر » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حـدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسـول الله ﷺ « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » ورواه مسلم وابن ماجه من طرق عن الأعمش به ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون فى القعود وهم أغنياء وأنبهم فى رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف فى الرحال (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون)

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم (قل لا تعتذروا لن نؤمن لـكم) أى لن نصدقكم (قد نبأنا الله من أخباركم) أى قد أعلمنا الله أحوالكم (وسيرى الله عملكم ورسوله) أى سيظهر أعمالكم للناس فى الدنيا (ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ويجزيكم عليها ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لـكم معتذرين لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقارا لهم إنهم رجس أى خبث نجس بواطنهم واعتقاداتهم ومأواهم فى آخرتهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون أى من الآثام والخطايا وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم (فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) أى الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسوله فإن الفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للافساد ، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أخبر تعالى أن فى الأعراب كفارا ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر أى

أحرى أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله كما قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابى إلى زيد بن صوحان وهو يحدث أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابى والله إن حديثك ليعجبنى ،وإن يدك لتريبنى. فقال زيد مايريبك من يدى إنها الشمال ؟ فقال الأعرابى والله ما أدرى اليمين يقطعون أو الشمال ، فقال زيد بن صوحان: صدق الله (الأعراب أشد كفرا ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا سفيان عن أبى موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من طرق عن سفيان الثورى به ، وقال الترمذى حسن غريب لانعرفه إلا من حديث الثورى ولما كانت الغلظة والجفاء فى أهل البوادى لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ﷺ فرد عليه أضعافها حتى رضى ، قال « لقد هممت أن لا أقبل هدية إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن مكة والطائف والمدينة واليمن فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما فى طباع الأعراب من الجفاء . ﴿حديث الأعرابى فى تقبيل الولد﴾ قال حديث مسلم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وأبو كريب قالا حدثنا أبو أسامة وابن نمير عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا نعم قالوا لكنا والله ما نقبل فقال رسول الله ﷺ « وأملك[1] إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقال ابن نمير « من قلبك الرحمة » وقوله (والله علم حكيم) أى عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والعلم، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والايمان والكفر والنفاق لايسئل عما يفعل لعلمه وحكمته ، وأخبر تعالى أن منهم (من يتخذ ماينفق) أى فى سبيل الله (مغرماً) أى غرامة وخسارة (ويتربص بكم الدوائر) أى ينتظر بكم الحوادث والآفات (عليهم دائرة السوء) أى هى منعكسه عليهم والسوء دائر عليهم (والله سميع علم) أى سميع لدعاء عباده عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان ، وقوله (ومن الأعرب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) هذا هو القسم الممدوح من الأعراب وهم الذين يتخذون ماينفقون فى سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم (ألا إنها قربة لهم) أى ألا إن ذلك حاصل لهم (سيد خلهم الله فى رحمته إن الله غفور رحيم)

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم ، قال الشعبى : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعرى وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب القرظى : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ هذه الآية ، (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر بيده فقال : من أقراك هذا ؟ فقال أبى بن كعب فقال لاتفارقنى حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال نعم . قال : وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال نعم . قال لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لايبلغها أحد بعدنا فقال أبى تصديق هذه الآيه فى أول سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) وفى سورة الحشر (والذين جاءوا من بعدهم) الآية وفى الأنفال (والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا معكم) الآية رواه ابن جرير قال وذكر عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤها برفع الأنصار عطفا على والسابقون الأولون ، فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضى عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

(١) وفى البخارى أو أملك لك إن نزع الله من قلبك الرحمة

بإحسان : فياويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أوسب بعضهم ، ولاسيا سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعنى الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبى قحافة رضى الله عنه فان الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم . عياذا بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضى الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فانهم يترضون عمن رضى الله عنه ويسبون من سبه الله ورسوله ويوالون من يوالى الله ويعادون من يعادى الله وهم متبعون لا مبتدعون ويقتدون ولا يبتدون، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن فى أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفى أهل المدينة أيضا منافقون (مردوا على النفاق) أى مرنوا واستمروا عليه ومنه يقال شيطان مريد ومارد ويقال تمرد فلان على الله أى عتا وتجبر ، وقوله (لاتعلمهم نحن نعلمهم) لاينا فى قوله تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين وقد كان يعلم أن فى بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقا وإن كان يراه صباحا ومساء ، وشاهد هذا بالصحة ما رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم عن رجل عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال قلت : يا رسول الله إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة فقال « لتأتينكم أجوركم ولو كنتم فى جحر ثعلب » وأصغى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال « إن فى أصحابى منافقين » ومعناه أنه قد يبوح بعض المنافقين والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذى سمعه جبير بن مطعم ، وتقدم فى تفسير قوله (وهموا بما لم ينالوا) أنه صلى الله عليه وسلم أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشرة أو خمسة عشر منافقاً وهذا تخصيص لا يقتضى أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم والله أعلم ، وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى عمر البيروتى من طريق هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا ابن جابر حدثنى شيخ ببيروت يكنى أبا عمر أظنه حدثنى عن أبى الدرداء أن رجلا يقال له حرملة أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه : والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل له لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وارزقه حبي وحب من يحبنى ، وصير أمره إلى خير » فقال يا رسول الله : إنه كان لى أصحاب من المنافقين وكنت رأسا فيهم أفلا آتيك بهم ؟ قال « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على احد سترا » قال وكذا رواه أبو أحمد الحاكم عن أبى بكر الباغندى عن هشام بن عمار به ، وقال عبدالرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى هذه الآية أنه قال ما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان فى الجنة وفلان فى النار فاذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدرى لعمرى أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ولقد تكلفت شيئا ما تكلفه الأنبياء قبلك ، قال نبى الله نوح عليه السلام (وما علمى بما كانوا يعملون) وقال نبى الله شعيب عليه السلام (بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ) وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (لا تعلمهم نحن نعلمهم) وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : قام رسول صلى الله تعالى عليه وسلم خطيبا يوم الجمعة فقال « اخرج يا فلان فإنك منافق ، وأخرج يا فلان فانك منافق » فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم ، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا ، واختبؤا هم من عمر ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فاذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم : قال ابن عباس فهذا

العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثانى عذاب القبر ، وكذا قال الثورى عن السدى عن أبى مالك نحو هذا ، وقال مجاهد فى قوله (سنعذبهم مرتين) يعنى القتل والسبى ، وقال فى رواية بالجوع وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ، وقال ابن جريج عذاب الدنيا وعذاب القبر ثم يردون إلى عذاب عظيم النار ، وقال الحسن البصرى عذاب فى الدنيا وعذاب فى القبر ، وقال عبد الرحمن بن زيد : أما عذاب فى الدنيا فالأموال والأولاد وقرأ قوله تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) فهذه المصائب لهم عذاب وهى للمؤمنين أجر ، وعذاب فى الآخرة فى النار (ثم يردون إلى عذاب عظيم) قال النار ، وقال محمد بن إسحق (سنعذبهم مرتين) قال هو فيما بلغنى ماهم فيه من أمر الاسلام وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم فى القبور إذا صاروا اليها ، ثم العذاب العظيم الذى يردون اليه عذاب الآخرة والخلد فيه ، وقال سعيد عن قتادة فى قوله (سنعذبهم مرتين) عذاب الدنيا وعذاب القبر (ثم يردون إلى عـذاب عظيم) وذكر لنا أن نبى الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عشر رجـلا من المنافقين فقال ستة منهم تـكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم يأخذ فى كتف أحدهم حتى يفضى إلى صـدره ، وستة يموتون موتا . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه وإلا تركه وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة أنشدك الله أمنهم أنا ؟ قال لا ولا أومن منها أحدا بعدك

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتـكذيبا وشكا شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلا وميلا إلى الراحة مع إيمـانهم وتصديقهم بالحق فقال (وآخرون اعـترفوا بذنوبهم) أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه ، وهـذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين ، وقد قال مجاهد إنها نزلت فى أبى لبابة لما قال لبنى قريظة إنه الذبح وأشار بيده إلى حلقه ، وقال ابن عباس (وآخرون) نزلت فى أبى لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال بعضهم أبو لبابة وخمسة معه ، وقيل وسـبعة معه ، وقيـل وتسعة معـه ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فلما أنزل الله هـذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم) أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم ، وقال البخارى حدثنا مؤمل بن هشام حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عوف حدثنا أبو رجاء حدثنا سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ لنا « أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضـة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيـه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، قالا لى هذه جنة عدن وهذا منزلك ، قالا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عمـلا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم » هكذا رواه البخارى مختصرا فى تفسير هذه الآية

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخـذ من أموالهم صـدقة يطهرهم ويزكيهم بها وهـذا عام وإن أعاد بعضهم الضمير فى أموالهم إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ولهذا اعتقد بعض مانعى الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الإمام لا يكون وإنما كان هذا خاصا بالرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا احتجوا بقوله

تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية ، وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم الفاسد أبوبكر الصديق وسائر الصحابة وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال الصديق : والله لو منعونى عناقا ـ وفى رواية عقالا ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه ، وقوله (وصل عليهم) أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن أبى أوفى قال : كان النبى ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم فأتاه أبى بصدقته فقال « اللهم صل على آل أبى أوفى » وفى الحديث الآخر أن امرأة قالت يارسول الله صل علىّ وعلى زوجى فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله (إن صلاتك سكن لهم) قرأ بعضهم صلواتك على الجمع وآخرون قرأوا إن صلاتك على الافراد (سكن لهم) قال ابن عباس رحمة لهم ، وقال قتادة وقار ، وقوله (والله سميع) أى لدعائك (عليم) أى بمن يستحق ذلك منك ومن هو أهل له ، قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو العميس عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة عن أبيه أن النبى ﷺ كان إذا دعا لرجل أصابته وأصابت ولده وولد ولده ، ثم رواه عن أبى نعيم عن مسعر عن أبى بكر بن عمرو بن عتبة عن ابن لحذيفة قال مسعر وقد ذكره مرة عن حذيفة إن صلاة النبى ﷺ لتدرك الرجل وولده وولد ولده . وقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب اليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فان الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد ، كما جاء بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ كما قال الثورى ووكيع كلاهما عن عباد بن منصور عن القاسم بن محمد أنه سمع أباهريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقوله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وقال الثورى والأعمش كلاهما عن عبد الله بن السائب عن عبد الله بن أبى قتادة قال : قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إن الصدقة تقع فى يد الله عز وجل قبل أن تقع فى يد السائل ثم قرأ هذه الآية (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقد روى ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة عبد الله بن الشاعر السكسكى الدمشقى وأصله حمصى وكان أحد الفقهاء روى عن معاوية وغيره ، وحكى عنه حوشب بن سيف السكسكى الحمصى قال غزا الناس فى زمان معاوية رضى الله عنه وعليهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فغل رجل من المسلمين مائة دينار رومية . فلما قفل الجيش ندم وأتى الأمير فأبى أن يقبلها منه وقال : قد تفرق الناس ولن أقبلها منك حتى تأتى الله بها يوم القيامة فجعل الرجل يستقرى الصحابة فيقولون له مثل ذلك ، فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه فأبى عليه فخرج من عنده وهو يبكى ويسترجع فمر بعبد الله بن الشاعر السكسكى فقال له مايبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له أومطيعىّ أنت ؟ فقال نعم ، فقال اذهب إلى معاوية فقل له اقبل منى خمسك فادفع اليه عشرين دينارا وانظر إلى الثمانين الباقية فتصدق بها عن ذلك الجيش فإن الله يقبل التوبة عن عباده وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل فقال معاوية رضى الله عنه لأن أكون أفتيته بها أحب إلى من كل شىء أملكه ، أحسن الرجل

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وعيد يعنى من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين وهذا كائن لامحالة يوم القيامة كما قال (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وقال تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال (وحصل مافى الصدور) وقد يظهر الله تعالى ذلك للناس فى الدنيا كما قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا عن رسول الله صلى الله عليه

وسلم أنه قال « لو أن أحدكم يعمل فى صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائنا ما كان » وقد ورد: أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر فى البرزخ كما قال أبو داود الطيالسى : حدثنا الصلت ابن دينار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم فى قبورهم فان كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم ألهمهم أن يعملوا بطاعتك ، وقال الإمام أحمد أنبأنا عبد الرزاق عن سفيان عمن سمع أنسا يقول : قال النبى ﷺ « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فان كان خيرا استبشروا به وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا » وقال البخارى قالت عائشة رضى الله عنها : إذا أعجبك حسن عمل امرىء مسلم فقل (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وقد ورد فى الحديث شبيه بهذا قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ، فان العامل يعمل زمانا من عمره أو برهة من دهره بعمل صالح لو مات عليه دخل الجنة ثم يتحول فيعمل عملا سيئا ، وإن العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيىء لو مات عليه دخل النار ثم يتحول فيعمل عملا صالحا ، وإذا أراد الله بعبده خيرا استعمله قبل موته » قالوا يا رسول الله وكيف يستعمله ؟ قال « يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه » تفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وغير واحد : هم الثلاثة الذين خلفوا أى عن التوبة وهم مرارة بن الربيع وكعب بن مالك وهلال بن أمية قعدوا عن غزوة تبوك فى جملة من قعد كسلا وميلا إلى الدعة والحفظ وطيب الثمار والظلال لا شكا ونفاقا فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسوارى كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء وأرجى هؤلاء عن التوبة حتى نزلت الآية الآتية وهى قوله (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار) الآية (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت) الآية كما سيأتى بيانه فى حديث كعب بن مالك ، وقوله (إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) أى هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه (والله عليم حكيم) أى عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم فى أفعاله وأقواله لا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر فى الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب وكان فيه عبادة فى الجاهلية وله شرف فى الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد فكان من أمر المسلمين ما كان وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم

واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدى شر ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدا طريدا فنالته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي صلى الله عليه وسلم فوعده ومناه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم مسجد قباء الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية هم أناس من الأنصار بنوا مسجدا فقال لهم أبو عامر ابنوا مسجدا واستعدوا بما استطعتم من قوة ومن سلاح فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجنود من الروم وأخرج محمدا وأصحابه ، فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي ﷺ فقالوا قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلى فيه وتدعو لنا بالبركة ، فأنزل الله عز وجل (لا تقم فيه أبدا) إلى قوله (الظالمين) وكذا روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة وغير واحد من العلماء ، وقال محمد بن إسحق بن يسار عن الزهرى ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم قالوا أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى من تبوك حتى نزل بذى أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال « إنى على جناح سفر وحال شغل » أو كما قال رسول الله ﷺ « ولو قد قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا لكم فيه » فلما نزل بذى أوان أتاه خبر المسجد فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم أخا بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى أو أخاه عامر بن عدى أخا بلعجلان فقال « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » فخرجا سريعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم . فقال مالك لمعن أنظرنى أخرج إليك بنار من أهلى فدخل أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه نارا ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا) إلى آخر القصة . وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلا خذام بن خالد من بنى عبيد بن زيد أحد بنى عمرو بن عوف ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، ، وثعلبة بن حاطب من بنى عبيد وموالى بنى أمية بن زيد ومعتب بن قشير من بنى ضبيعة بن زيد ، وأبو حبيبة بن الأزعر من بنى ضبيعة بن زيد وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف من بنى عمرو بن عوف وحارثة بن عامر وابناه مجمع بن حارثة وزيد بن حارثة ونبتل الحارث وهم من بنى ضبيعة ومخرج وهم من بنى ضبيعة وبجاد بن عمران وهو من بنى ضبيعة ووديعة بن ثابت وموالى بنى أمية رهط أبى لبابة بن عبد المنذر . وقوله (وليحلفن) أى الذين بنوه (إن أردنا إلا الحسنى) أى ما أردنا ببنيانه إلا خيرا ورفقا بالناس قال الله تعالى (والله يشهد إنهم لكاذبون) أى فيما قصدوا وفيما نووا وإنما بنوه ضرارا لمسجد قباء وكفرا بالله وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وهو أبو عامر الفاسق الذى يقال له الراهب لعنه الله ، وقوله (لا تقم فيه أبدا) نهى له صلى الله عليه

وسلم والأمة تبع له فى ذلك عن أن يقوم فيه أى يصلى أبداً . ثم حثه على الصلاة بمسجد قباء الذى أسس من أول يوم بنيانه على التقوى وهى طاعة الله وطاعة رسوله وجمعا لكلمة المؤمنين ومعقلا وموئلا للاسلام وأهله ، ولهذا قال تعالى (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه) والسياق إنما هو فى معرض مسجد قباء ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « صلاه فى مسجد قباء كعمرة » وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يزور مسجد قباء راكبا وماشياً ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بناه وأسسه أول قدومه ونزوله على بنى عمرو بن عوف كان جبريل هو الذى عين له جهة القبلة فالله أعلم

وقال أبوداود حدثنا محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن يونس بن الحارث عن إبراهيم بن أبى ميمونة عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « نزلت هذه الآية فى أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) ـ قال ـ كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية» . ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث يونس بن الحارث وهو ضعيف ، وقال الترمذى غريب من هذا الوجه ، وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن على العمرى حدثنا محمد بن حميد الرازى حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) بعث رسول الله ﷺ إلى عويم بن ساعدة فقال «ماهذا الطهور الذى أثنى الله عليكم» فقال يارسول الله ماخرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو قال مقعدته فقال النبى ﷺ «هو هذا» وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن محمد حدثنا أبو أويس حدثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة الأنصارى أنه حدثه أن النبى ﷺ أتاهم فى مسجد قباء فقال « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ » فقالوا والله يارسول الله مانعلم شيئا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه ، وقال هشيم عن عبد الحميد المدنى عن إبراهيم بن المعلى الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال لعويم بن ساعدة « ماهذا الذى أثنى الله عليكم (فيه رجال يحبون أن يتطهروا ؟) » الآية قالوا يارسول الله إنا نغسل الأدبار بالماء ، وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عمارة الأسدى حدثنا محمد ابن سعد عن إبراهيم بن محمد عن شرحبيل بن سعد قال : سمعت خزيمة بن ثابت يقول : نزلت هذه الآية (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) قال كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط

(حديث آخر) قال الإمام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك يعنى ابن مغول سمعت سيارا أبا الحكم عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام قال : لقدم قدم رسول الله ﷺ يعنى قباء فقال « إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فى الطهور خيرا أفلا تخبرونى ؟ » يعنى قوله (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) فقالوا يارسول الله إنا نجده مكتوبا علينا فى التوراة الاستنجاء بالماء

وقد صرح بأنه مسجد قباء جماعة من السلف ، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة بن الزبير ، وقاله عطية العوفى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والشعبى والحسن البصرى ونقله البغوى عن سعيد بن جبير وقتادة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن مسجد رسول الله ﷺ الذى فى جوف المدينة هو المسجد الذى أسس على التقوى ، وهذا صحيح . ولا منافاة بين الآية وبين هذا لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد عن أبى بن كعب أن النبى ﷺ قال « المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا » تفرد به أحمد

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا ربيعة بن عثمان التيمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل بن سعد الساعدى قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله ﷺ فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال أحدهما

هو مسجد رسول الله ﷺ ، وقال الآخر هو مسجد قباء ، فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال « هو مسجدى هذا » تفرد به أحمد أيضا .

(حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ليث عن عمران بن أبي أنس عن سعيد بن أبي سعيد الخدرى قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال أحدهما هو مسجد قباء ، وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدى هذا » تفرد به أحمد

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث حدثنى عمران بن أبي أنس عن ابن أبي سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم فقال رجل هو مسجد قباء وقال الآخر هو مسجد رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هو مسجدى » وكذا رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة عن الليث وصححه الترمذى ورواه مسلم كما سيأتى .

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى عن أنيس بن أبي يحيى حدثنى أبى قال سمعت أبا سعيد الخدرى قال : اختلف رجلان رجل من بنى خدرة ورجل من بنى عمرو بن عوف فى المسجد الذى أسس على التقوى فقال الخدرى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العمرى هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال « هو هذا المسجد » لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى ذلك يعنى مسجد قباء . (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن أنيس قال أبو جعفر بن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حميد الخراط المدنى سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن أبي سعيد فقلت كيف سمعت أباك يقول[1] فى المسجد الذى أسس على التقوى ؟ فقال إنى أتيت رسول الله ﷺ فدخلت عليه فى بيت لبعض نسائه فقلت يا رسول الله : أين المسجد الذى أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفا من حصباء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » ثم قال سمعت أباك يذكره ، رواه مسلم منفرداً به عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد به ، ورواه عن أبى بكر بن أبي شيبة وغيره عن حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط به ، وقد قال بأنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من السلف والخلف وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ، واختاره ابن جرير ، وقوله (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) دليل على استحباب الصلاة فى المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائها على عبادة الله وحده لاشريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين والعباد العاملين المحافظين على اسباغ الوضوء والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ الروم فيها فأوهم فلما انصرف قال « إنه يلبس علينا القرآن إن أقواما منكم يصلون معنا لايحسنون الوضوء فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء » ثم رواه من طريقين آخرين عن عبد الملك بن عمير عن شبيب أبى روح من ذى الكلاع أنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فذكره فدل هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام فى العبادة ويعين على إتمامها وإكمالها والقيام بمشروعاتها . وقال أبو العالية فى قوله تعالى (والله يحب المطهرين) إن الطهور بالماء لحسن ولكنهم المطهرون من الذنوب . وقال الأعمش التوبة من الذنوب والتطهر من الشرك ، وقد ورد فى الحديث المروى من طرق فى السنن وغيرها أن رسول الله ﷺ قال لأهل قباء « قد أثنى الله عليكم فى الطهور فماذا تصنعون ! » فقالوا تستنجى بالماء ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال : وجدته فى كتاب أبى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية فى أهل قباء (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) فسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا إنا نتبع الحجارة بالماء . رواه البزار ، ثم قال تفرد به محمد بن عبد العزيز عن الزهرى ولم يرو عنه سوى ابنه (قلت) وإنما ذكرته بهذا

(١) فى مسلم : يذكر .

اللفظ لأنه مشهور بين الفقهاء ولم يعرفه كثير من المحدثين المتأخرين أو كلهم والله أعلم .

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ومن بنى مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل فانما يبنى هؤلاء بنيانهم على شفا جرف هار أى طرف حفيرة مثاله (فى نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين) أى لا يصلح عمل المفسدين . قال جابر بن عبد الله رأيت المسجد الذى بنى ضرارا يخرج منه الدخان على عهد رسول الله ﷺ ، وقال ابن جريج ذكر لنا أن رجالا حفروا فوجدوا الدخان الذى يخرج منه . وكذا قال قتادة وقال خلف بن ياسين الكوفى رأيت مسجد المنافقين الذى ذكره الله تعالى فى القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة ، رواه ابن جرير رحمه الله . وقوله تعالى (لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم) أى شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع أورثهم نفاقا فى قلوبهم كما أشرب عابدو العجل حبه ، وقوله (إلا أن تقطع قلوبهم) أى بموتهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم والسدى وحبيب بن أبى ثابت والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد من علماء السلف (والله عليم أى بأعمال خلقه (حكيم) فى مجازاتهم عنها من خير وشر

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها فى سبيله بالجنة وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فانه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له . ولهذا قال الحسن البصرى وقتادة بايعهم والله فأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية مامن مسلم إلا ولله عزوجل فى عنقه بيعة وفى بها أو مات عليها ثم تلا هذه الآية . ولهذا يقال من حمل فى سبيل الله بايع الله أى قبل هذا العقد ووفى به . وقال محمد بن كعب القرظى وغيره قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم يعنى ليلة العقبة اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال « أشترط لربى أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا . وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك قال « الجنة » قالوا ربح البيع لا نقيل ولانستقيل ، فنزلت (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم) الآية وقوله (يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون) أى سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة . ولهذا جاء فى الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج فى سبيله لايخرجه إلا جهاد فى سبيلى وتصديق برسلى بأن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله (وعدا عليه حقا فى التوراة والأنجيل والقرآن) تأكيد لهذا الوعد وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة وأنزله على رسله فى كتبه الكبار وهى التوراة المنزلة على موسى . والأنجيل المنزل على عيسى . والقرآن المنزل على محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وقوله (ومن أوفى بعهده من الله) فانه لا يخلف الميعاد . هذا كقوله (ومن أصدق من الله حديثا) (ومن أصدق من الله قيلا) ولهذا قال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو

الفوز العظيم) أى فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم .

﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا نعت المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة (التائبون) من الذنوب كلها التاركون للفواحش (العابدون) أى القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها وهى الأقوال والأفعال فمن أخص الأقوال الحمد فلهذا قال (الحامدون) ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع وهو المراد بالسياحة ههنا ولهذا قال (السائحون) كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك فى قوله تعالى (سائحات) أى صائمات وكذا الركوع والسجود وهما عبارة عن الصلاة ولهذا قال (الراكعون الساجدون) وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما ينبغى فعله ويجب تركه وهو حفظ حدود الله فى تحليله وتحريمه علما وعملا فقاموا بعبادة الحق ونصح الخلق ولهذا قال (وبشر المؤمنين) لأن الإيمان يشمل هذا كله والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

﴿ بيان أن المراد بالسياحة الصيام ﴾ قال سفيان الثورى عن عاصم عن ذر عن عبد الله بن مسعود قال (السائحون) الصائمون وكذا روى عن سعيد بن جبير والعوفى عن ابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كل ما ذكر الله فى القرآن السياحة هم الصائمون وكذا قال الضحاك رحمه الله وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إبراهيم بن يزيد عن الوليد بن عبد الله عن عائشة رضى الله عنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعبد الرحمن السلمى والضحاك بن مزاحم وسفيان بن عيينة وغيرهم أن المراد بالسائحين الصائمون ، وقال الحسن البصرى (السائحون) الصائمون شهر رمضان وقال أبو عمرو العبدى (السائحون) الذين يديمون الصيام من المؤمنين ، وقد ورد فى حديث مرفوع نحو هذا وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا حكيم بن حزام حدثنا سليمان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السائحون هم الصائمون » وهذا الموقوف أصح وقال أيضا حدثنى يونس عن ابن وهب عن عمر بن الحارث عن عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير قال سئل النبي ﷺ عن السائحين فقال « هم الصائمون » وهذا مرسل جيد وهذا أصح الأقوال وأشهرها وجاء ما يدل على أن السياحة الجهاد وهو ما روى أبو داود فى سننه من حديث أبى أمامة أن رجلا قال يا رسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبي ﷺ « سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة أخبرنى عمارة بن غزية أن السياحة ذكرت عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أبدلنا الله بذلك الجهاد فى سبيل الله والتكبير على كل شرف » وعن عكرمة أنه قال : هم طلبة العلم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المهاجرون رواهما ابن أبى حاتم وليس المراد من السياحة ماقد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة فى الأرض والتفرد فى شواهق الجبال والكهوف والبرارى فان هذا ليس بمشروع إلا فى أيام الفتن والزلازل فى الدين كما ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » وقال العوفى وعلى بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (والحافظون لحدود الله) قال القائمون بطاعة الله وكذا قال الحسن البصرى وعنه رواية (الحافظون لحدود الله) قال لفرائض الله وفى رواية القائمون على أمر الله

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ

أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ *وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال « أى عم ، قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبى أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فقال أنا على ملة عبدالمطلب فقال النبى ﷺ « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) قال ونزلت فيه (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) أخرجاه . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم أخبرنا سفيان عن أبى إسحق عن أبى الخليل عن على رضى الله عنه قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ . فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية قال لما مات فلا أدرى قاله سفيان أو قاله إسرائيل أو هو فى الحديث لما مات قلت : هذا ثابت عن مجاهد أنه قال لما مات . وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى حدثنا زهير حدثنا زبيد بن الحارث اليامى عن محارب بن دثار عن ابن بريدة عن أبيه قال كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم ونحن فى سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب فصلى ركعتين ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان فقام إليه عمر بن الخطاب وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله مالك ؟ قال « إنى سألت ربى عز وجل فى الاستغفار لأمى فلم يأذن لى فدمعت عيناى رحمة لها من النار وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم زيارتها خيراً . ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوا وأمسكوا ما شئتم ، ونهيتكم عن الأشربة فى الأوعية فاشربوا فى أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكرا » وروى ابن جرير من حديث علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت . قال « إنى استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى » فما رُئى باكيا أكثر من يومئذ . وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أبى حدثنا خالد بن خداش حدثنا عبد الله بن وهب عن ابن جريج عن أيوب بن هانىء عن مسروق عن عبدالله بن مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوما إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه ثم دعانا فقال « ما أبكاكم ؟ » فقلنا بكينا لبكائك . قال « إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة وإنى استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى » ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه . وفيه « وإنى استأذنت ربى فى الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل على (ما كان للنبى والذين آمنوا) الآية. فأخذنى ما يأخذ الولد للوالد : وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة »

(حديث آخر) فى معناه قال الطبرانى : حدثنا محمد بن على بن المروزى حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب حدثنا إسحق بن عبد الله بن كيسان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه : أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه فناجى ربه طويلا ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه وبكى هؤلاء لبكائه وقالوا ما بكى نبى الله بهذا المكان إلا وقد أحدث الله فى أمته شيئا لا تطيقه فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم فقال « ما يبكيكم ؟ » قالوا يا نبى الله بكينا لبكائك فقلنا لعله أحدث فى أمتك شىء لا تطيقه ، قال « لا ، وقد كان بعضه ولكن نزلت على قبر أمى فسألت الله أن يأذن لى فى شفاعتها يوم القيامة فأبى الله أن يأذن لى فرحمتها وهى أمى فبكيت ثم جاءنى جبريل فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمتها وهى أمى

ودعوت ربى أن يرفع عن أمتى أربعافرفععنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت ربى أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأن لا يلبسهم شيعا وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج » وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كداء وكانت عسفان لهم ، وهذا حديث غريب وسياق عجيب وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب البغدادى فى كتاب السابق واللاحق بسند مجهول عن عائشة فى حديث فيه قصة أن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت ، وكذلك ما رواه السهيلى فى الروض بسندفيه جماعة مجهولون: إن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به. وقدقال الحافظ بن دحية : هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى (ولا الذين يموتون وهم كفار) وقال أبو عبدالله القرطبى : إن مقتضى هذا الحديث ورد على ابن دحية فى هذا الاستدلال بما حاصله أن هذه حياة جديدة كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى على العصر قال الطحاوى وهو حديث ثابت يعنى حديث الشمس قال القرطبى فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا قال وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب فآمن به (قلت) وهذا كله متوقف على صحة الحديث فإذا صح فلا مانع منه والله أعلم . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية أن النبى ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك فقال « إن إبراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم قد استغفر لأبيه » فأنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) الآية ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية وقال قتادة فى الآية ذكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا نبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العانى ويوفى بالذمم أفلا نستغفر لهم ؟ قال فقال النبى صلى الله عله وسلم « بلى والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) حتى بلغ قوله (الجحيم) ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام فقال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه) الآية قال وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال « قد أوحى الله إلى كلمات فدخلن فى أذنى ووقرن فى قلبى : أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركا ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ومن أمسك فهو شر له ولا يلوم الله على كفاف » وقال الثورى عن الشيبانى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مات رجل يهودى وله ابن مسلم فلم يخرج معه فذكر ذلك لابن عباس فقال فكان ينبغى له أن يمشى معه ويدفنه ويدعو له بالصلاح مادام حيا فإذا مات وكله إلى شأنه ثم قال (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه - إلى قوله - تبرأ منه) لم يدع . ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره عن على رضى الله عنه ، لما مات أبو طالب قلت يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات قال « اذهب فواره ولا تحدثن شيئا حتى تأتينى » فذكر تمام الحديث ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما مرت به جنازة عمه أبى طالب قال « وصلتك رحمة يا عم » وقال عطاء بن أبى رباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لأنى لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين يقول الله عز وجل (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) الآية

وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن رامل عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول رحم الله رجلا استغفر لأبى هريرة ولأمه قلت ولأبيه قال لا . قال إن أبى مات مشركا ، وقوله (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) قال ابن عباس ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ،فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وفى رواية لما مات تبين له أنه عدو لله وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم رحمهم الله وقال عبيد بن عمير وسعيد بن جبير إنه يتبرأ منه يوم القيامة حين يلقى أباه وعلى وجه أبيه القترة والغبرة فيقول يا إبراهيم إنى كنت أعصيك وإنى اليوم لا أعصيك فيقول أى ربى ألم تعدنى ان لا تخزنى يوم يبعثون ، فأى خزى أخزى من أبى الأبعد فيقال انظر إلى ماوراءك فإذا هو بذيخ متلطخ أى قد مسخ ضبعا ثم يسحب بقوائمه ويلقى فى النار. وقوله (إن إبراهيم لأواه حليم) قال سفيان الثورى وغير واحد عن عاصم بن بهدلة عن زر بن حبيش عن عبدالله بن مسعود أنه قال الأواه الدعاء وكذا روى من غير وجه عن ابن مسعود وقال ابن جرير

حدثنى المثنى حدثنا الحجاج بن منهال حدثنى عبد الحميد بن بهرام حدثنا شهر بن حوشب عن عبدالله بن شداد بن الهاد قال بينا النبي ﷺ جالس قال رجل يا رسول الله ما الأواه ؟ قال « التضرع » قال (إن إبراهيم لأواه حليم) ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك عن عبد الحميد بن بهرام به ولفظه قال الأواه المتضرع الدعاء . وقال الثورى عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي الغدير أنه سأل ابن مسعود عن الأواه فقال هو الرحيم ، وبه قال مجاهد وأبو ميسرة عمر بن شرحبيل والحسن البصرى وقتادة وغيرهما أنه أى الرحيم أى بعباد الله . وقال ابن المبارك عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس قال الأواه الموقن بلسان الحبشة ، وكذا قال العوفى عن ابن عباس أنه الموقن ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقال على بن أبي طلحة ومجاهد عن ابن عباس الأواه المؤمن زاد على بن أبي طلحة عنه هو المؤمن التواب ، وقال العوفى عنه هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جريج هو المؤمن بلسان الحبشة

وقال الإمام أحمد حدثنا موسى حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن على بن رباح عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين « إنه أواه » وذلك أنه رجل كان إذا ذكر الله فى القرآن رفع صوته بالدعاء ورواه ابن جرير . وقال سعيد بن جبير والشعبي الأواه المسبح وقال ابن وهب عن معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا الأواه ، وقال شفى ابن ماتع عن أبي أيوب الأواه الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها ، وعن مجاهد الأواه الحفيظ الرجل يذنب الذنب سرا ثم يتوب منه سرا ذكر ذلك كله ابن أبي حاتم رحمه الله . وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا المحاربى عن حجاج عن الحكم عن الحسن بن مسلم بن يناق أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواه » وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا ابن هانىء حدثنا المنهال بن خليفة عن حجاج بن أرطاة عن عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا فقال « رحمك الله إن كنت لأواها » يعنى تلاء للقرآن ، وقال شعبة عن أبي يونس الباهلى قال سمعت رجلا بمكة وكان أصله روميا وكان قاصا يحدث عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول فى دعائه أوه أوه فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال « إنه أواه » قال فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح . هذا حديث غريب رواه ابن جرير . وروى عن كعب الأحبار أنه قال سمعت (إن إبراهيم لأواه) قال كان إذا ذكر النار قال أوه من النار وقال ابن جريج عن ابن عباس (إن إبراهيم لأواه) قال فقيه . قال الإمام أبو جعفر بن جرير وأولى الأقوال قول من قال إنه الدعاء وهو المناسب للسياق وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها أياه وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه له فى قوله (أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) فحلم عنه مع أذاه له ودعا له واستغفر ولهذا قال تعالى (إن إبراهيم لأواه حليم)

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم) الآية . وقال مجاهد فى قوله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم) الآية قال بيان الله عزوجل للمؤمنين فى ترك الاستغفار للمشركين خاصة وفى بيانه لهم معصيته وطاعته عامة فافعلوا أو ذروا . وقال ابن جرير يقول الله تعالى وما كان الله ليقضى عليكم فى استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للايمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتتركوا فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهى عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فانه لا يحكم عليكم بالضلال فان الطاعة والمعصية إنما يكونان من الأمور

والنهى ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعا أوعاصياً فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه ، وقوله تعالى (إن الله له ملك السموات والأرض يحي ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) قال ابن جرير هـذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين فى قتـال المشركين وملوك الـكفر وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ولا يرهبوا من أعدائه فانه لا ولى لهم من دون الله ولا نصير لهم سواه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن أبى دلامة البغدادى حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينا رسول الله صلى الله عليه بين أصحابه إذا قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا ما نسمع من شىء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط وما فيها من موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وقال كعب الأحبار ما من موضع خرمة إبرة من الأرض إلا وملك موكل بها يرفع علم ذلك إلى الله ، وإن ملائكة السماء لأكثر من عدد التراب، وإن حملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى مخه مسيرة مائة عام

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال مجاهـد وغير واحد نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر فى سنة مجدبة وحر شـديد وعسر من الزاد والمـاء ، قال قتادة خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد أصابهـم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما وكان النفر يتـداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم ، وقال ابن جرير حدثنى يونس ابن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيـل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا فأصابنا فيـه عطش حتى ظننا أن رقابنـا ستنقطع وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس المـاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقى على كبده فقال أبو بكر الصـديق يا رسول الله إن الله عزوجل قد عودك فى الدعاء خيرا فادع لنا فقال « تحب ذلك ؟ » قال نعم فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت ثم سكنت فمـلؤا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر ، وقال ابن جرير فى قوله (لقـد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة) أى من النفقة والظهر والزاد والماء (من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم) أى عن الحق ويشك فى دين الرسـول صلى الله عليه وسلم ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم (ثم تاب عليهم) يقول ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه (إنه بهم رءوف رحيم)

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن مسلم الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صـلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك لم

أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز واستقبل عدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذى يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازي شيئا فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن ارتحل فألحقهم وليت أني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » فقال رجل من بني سلمة حبسه يارسول الله برداه والنظر في عطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأى من أهلي فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي « تعال » فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي « ماخلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا » فقلت يارسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك على ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت وقام إلى رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك قال فوالله مازالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي قال ثم قلت لهم هل لقي معي هذا أحد قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ماقلت وقيل لهما مثل ماقيل لك فقلت فمن هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي قال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى

تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلايكلمنى أحد وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر فاذا أقبلت على صلاتى نظر الى فاذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه فوالله مارد على السلام فقلت له يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله قال فسكت قال فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فسكت فقال الله ورسوله أعلم . قال ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان وكنت كاتبا فاذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك وان الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال فقلت حين قرأته وهذا أيضا من البلاء قال فتيممت به التنور فسجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال . بل اعتزلها ولا تقربها ، قال وأرسل إلى صاحبىّ بمثل ذلك قال فقلت لامرأتى الحق بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر مايشاء قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه قال « لا ولكن لايقربك » قالت وإنه والله مابه من حركة إلى شىء وإنه والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه قال فقلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته وأنا رجل شاب قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا قال ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته أبشر يا كعب بن مالك قال فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبىّ مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك يومئذ غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ وتلقانى الناس فوجا فوجا يهنونى بتوبة الله يقولون لبهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد والناس حوله فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره قال فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله قال « لابل من عند الله » قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه فلما جلست بين يديه قلت يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله قال « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر وقلت يارسول الله إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا مابقيت قال فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الى يومى هذا ، وانى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى

(قال) وأنزل الله تعالى (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاد يزيغ

قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) إلى آخر الآيات . قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فان الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى (سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله عز وجل (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه . هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) قال هم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد وكلهم قال مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع كما وقع في الصحيحين وهو الصواب ، وقوله فسموا رجلين شهدا بدرا قيل إنه خطأ من الزهري فانه لا يعرف شهود واحد من هؤلاء الثلاثة بدرا والله أعلم . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت أي مع سعتها فسددت عليهم المسالك والمذاهب فلا يهتدون ما يصنعون فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في تخلفهم وأنه كان عن غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب فان الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » أخرجاه في الصحيحين ، وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل اقرءوا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) هكذا قرأها ثم قال فهل تجدون لأحد فيه رخصة ، وعن عبد الله بن عمر وفي قوله (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) قال مع محمد ﷺ وأصحابه ، وقال الضحاك مع أبي بكر وعمر وأصحابهما وقال الحسن البصري إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب ورغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة فانهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم (لا يصيبهم ظمأ) وهو العطش (ولا نصب) وهو التعب (ولا مخمصة) وهي المجاعة (ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار) أي ينزلون منزلا يرهب عدوهم (ولا ينالون) منه ظفراً وغلبة عليه (إلا كتب لهم) بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالا صالحة وثوابا جزيلا (إن الله لا يضيع أجر المحسنين) كقوله (إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا)

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله (نفقة صغيرة ولا كبيرة) أي قليلا ولا كثيرا (ولا يقطعون وادياً) أي في السير إلى الأعداء (إلا كتب لهم) ولم يقل ههنا به لأن هذه أفعال صادرة عنهم ولهذا قال (ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة والأموال الجزيلة كما قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا أبو موسى العنزي حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثني سكن بن المغيرة حدثني الوليد بن أبي هشام عن فرقد بن أبي طلحة عن عبد الرحمن بن حباب السلمي قال خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم حث فقال عثمان علي مائة بعير أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال ثم نزل مرقاة من المنبر ثم حث فقال عثمان بن عفان علي مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده هكذا يحركها ، وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب « ما على عثمان ما عمل بعد هذا » وقال عبد الله أيضا حدثنا هارون ابن معروف حدثنا ضمرة حدثنا عبد الله بن شوذب عن عبد الله بن القاسم عن كثير مولى عبد الرحمن بن سمرة عن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة قال فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول « ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم » يرددها مرارا ، وقال قتادة في قوله تعالى (ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم) الآية ما ازداد قوم في سبيل الله بعدا من أهليهم إلا ازدادوا قربا من الله

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فانه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ولهذا قال تعالى (انفروا خفافا وثقالا) وقال (ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب) الآية قال فنسخ ذلك بهذه الآية . وقد يقال إن هذا بيان لمراده تعالى من نفير الأحياء كلها وشرذمة من كل قبيلة إن لم يخرجوا كلهم ليتفقه الخارجون مع الرسول بما ينزل من الوحي عليه وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم بما كان من أمر العدو فيجتمع لهم الأمران في هذا النفير المعين وبعده ﷺ تكون الطائفة النافرة من الحي إما للتفقه وإما للجهاد فانه فرض كفاية على الأحياء وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول ما كان المؤمنون لينفروا جميعا ويتركوا النبي ﷺ وحده (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيروا

إلا بإذنه فاذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم قرآنا وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ويبعث سرايا أخرى فذلك قوله (ليتفقهوا فى الدين) يقول ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم (لعلهم يحذرون) وقال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا فى البوادى فاصابوا من الناس معروفا ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم مانراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا فى أنفسهم من ذلك تحرجا وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله عزوجل (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يبغون الخير (ليتفقهوا فى الدين) وليستمعوا ما فى الناس وما أنزل الله فعذرهم (ولينذروا قومهم) الناس كلهم إذا رجعوا إليهم (لعلهم يحذرون) وقال قتادة فى الآية هذا إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الجيوش أمرهم الله أن يغزوا بنبيه صلى الله عليه وسلم وتقيم طائفة مع رسول الله تتفقه فى الدين وتنطلق طائفة تدعو قومها وتحذرهم وقائع الله فيمن خلا قبلهم ، وقال الضحاك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه لم يحل لأحد من المسلمين أن يتخلف عنه إلا أهل الأعذار وكان إذا أقام وأسرى السرايا لم يحل لهم أن ينطلقوا إلا باذنه وكان الرجل إذا استرى فنزل بعده قرآن وتلاه نبي الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه القاعدين معه فاذا رجعت السرية قال لهم الذين أقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل بعدكم على نبيه قرآنا فيقرئونهم ويفقهونهم فى الدين وهو قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول إذا أقام رسول الله (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) يعنى بذلك أنه لا ينبغى للمسلمين أن ينفروا جميعا ونبي الله صلى الله عليه وسلم قاعد ولكن إذا قعد نبي الله فسرت السرايا وقعد معه معظم الناس . وقال على بن أبي طلحة أيضاً عن ابن عباس فى الآية قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) إنها ليست فى الجهاد ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالاسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم فذلك قوله (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) الآيه وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة فيأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون فى دينهم ويقولون للنبي صلى الله عليه وسلم ماتأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرنا إذا قدمنا عليهم قال فيأمرهم نبي الله صلى الله عليه وسلم بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا إن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم وينذرهم قومهم فاذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة ، وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية (إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما) (وما كان لأهل المدينة) الآية قال المنافقون هلك أصحاب البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه ، وقد كان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم يفقهونهم فأنزل الله عزوجل (وما كان المؤمنون لينفروا كافة)الآية ونزلت (والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد) وقال الحسن البصرى فى الآية ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولا فأولا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين فى جزيرة العرب ، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضر موت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب ودخل الناس من سائر أحياء العرب فى دين

الله أفواجاً شرع فى قتال أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ، ثم اشتغل فى السنة العاشرة بحجة الوداع ثم عاجلته المنية صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوما فاختاره الله لما عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به فوطد القواعد وثبت الدعائم ، ورد شارد الدين وهو راغم ، ورد أهل الردة إلى الإسلام ، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغام ، وبين الحق لمن جهله ، وأدى عن الرسول ما حمله ، ثم شرع فى تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان ، وإلى الفرس عبدة النيران ، ففتح الله ببركة سفارته البلاد ، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد . وأنفق كنوزهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله وكان تمام الأمر على يدى وصيه من بعده ، وولى عهده الفاروق الأواب ، شهيد المحراب ، أبى حفص عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين ، وقمع الطغاة والمنافقين ، واستولى على الممالك شرقاً وغربا . وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بعداً وقربا . ففرقها على الوجه الشرعى . والسبيل المرضى . ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً . أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه شهيد الدار . فكسى الإسلام رياسة حلة سابغة . وأمدت فى سائر الأقاليم على رقب العباد حجة الله البالغة . فظهر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . وعلت كلمة الله وظهر دينه . وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها . وكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار امتثالا لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) وقوله تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) أى وليجد الكفار منكم غلظة عليهم فى قتالكم لهم فان المؤمن الكامل هو الذى يكون رفيقا لأخيه المؤمن غليظا على عدوه الكافر كقوله تعالى (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) وقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وقال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا الضحوك القتال » يعنى أنه ضحوك فى وجه وليه قتال لهامة عدوه وقوله (واعلموا أن الله مع المتقين) أى قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة فى غاية الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى لم يزالوا ظاهرين على عدوهم . ولم تزل الفتوحات كثيرة ولم تزل الأعداء فى سفال وخسار ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك طمع الأعداء فى أطراف البلاد وتقدموا إليها فلم يمانعوا لشغل الملوك بعضهم ببعض ثم تقدموا إلى حوزة الاسلام فأخذوا من الأطراف بلدانا كثيرة ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام ولله الأمر من قبل ومن بعد ، فكلما قام ملك من ملوك الإسلام وأطاع أوامر الله وتوكل على الله فتح الله عليه من البلاد واسترجع من الأعداء بحسبه وبقدر ما فيه من ولاية الله . والله المسئول المأمول أن يمكن المسلمين نواصى أعدائه الكافرين وأن يعلى كلمتهم فى سائر الأقاليم إنه جواد كريم

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا ما أنزلت سورة) فمن المنافقين (من يقول أيكم زادته هذه إيمانا) أى يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه السورة إيمانا قال الله تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون) وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء . بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك . وقد بسط الكلام على هذه المسألة فى أول شرح البخارى رحمه الله (وأما الذين فى قلوبهم مرض

فزادتهم رجساً إلى رجسهم) أى زادتهم شكا إلى شكهم وريبا إلى ريبهم كما قال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء) الآية ، وقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) وهذا من جملة شقائهم أن مايهدى القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم كما أن سيء المزاج لو غذى بما غذى به لايزيده إلا خبالا ونقصا .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

يقول تعالى أولا يرى هؤلاء المنافقون (أنهم يفتنون) أى يختبرون (فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون) أى لايتوبون من ذنوبهم السالفة ولاهم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو فى السنة مرة أو مرتين ، وقال شريك عن جابر عن الجعفى عن أبى الضحى عن حذيفة فى قوله (أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) قال كنا نسمع فى كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير . وفى الحديث عن أنس : لايزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحا ومامن عام إلا والذى بعده شر منه . سمعته من نبيكم ﷺ وقوله (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ (نظر بعضهم إلى بعض) أى تلفتوا (هل يراكم من أحد ثم انصرفوا) أى تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم فى الدنيا لايثبتون عند الحق ولايقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) وقوله تعالى (فما للذين كفروا قبلك مهطعين * عن اليمين وعن الشمال عزين) أى ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا إلى الباطل وقوله (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) كقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون) أى لايفهمون عن الله خطابه ولا يتصدون لفهمه ولا يريدونه بل هم فى شغل عنه ونفور منه فلهذا صاروا إلى ماصاروا اليه

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته وذكر الحديث وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه فى قوله تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال لم يصبه شىء من ولادة الجاهلية وقال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى فى كتابه الفاصل بين الراوى والواعى : حدثنا أبو أحمد يوسف بن هرون بن زياد حدثنا ابن أبى عمر حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبى لحدثنى عن أبيه عن جده عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شىء » وقوله تعالى (عزيز عليه ماعنتم) أى يعز عليه الشىء الذى يعنت أمته ويشق عليها ولهذا جاء فى الحديث المروى من طرق عنه أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة » وفى الصحيح « إن

هذا الدين يسر وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه » (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم ، وقال الطبرانى حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان بن عيينة عن قطن عن أبى الطفيل عن أبى ذر قال : تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه فى الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علما قال : وقال رسول الله ﷺ « ما بقى شىء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » وقال الإمام أحمد : حدثنا قطن حدثنا المسعودى عن الحسن بن سعد عن عبدة الهذلى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ألا وإنى آخذ بحجزكم أن تهافتوا فى النار كتهافت الفراش أو الذباب » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ابن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه ملكان فيما يرى النائم فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه . فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد مايقطعون به المفازة ولا مايرجعون به فبيناهم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء تتبعونى ؟ فقالوا نعم قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا بلى فقال : فان بين أيديكم رياضا هى أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه ، وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه ، وقال البزار حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن منصور قالا حدثنا إبراهيم بن الحكم ابن أبان حدثنا أبى عن عكرمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ يستعينه فى شىء قال عكرمة أراه قال فى دم[1] فأعطاه رسول الله ﷺ شيئا ثم قال « أحسنت إليك » قال الأعرابى لاولا أجملت فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه فأشار رسول الله ﷺ إليهم أن كفوا فلما قام رسول الله ﷺ وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت فقال « إنك إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت » فزاده رسول الله ﷺ شيئا وقال « أحسنت إليك ؟ » فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ماقلت . وفى أنفس أصحابى عليك من ذلك شىء فاذا جئت فقل بين أيديهم ماقلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم » فقال نعم : فلما جاء الأعرابى قال رسول الله ﷺ « إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ماقال ، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضى ، كذلك يا أعرابى ؟ » فقال الأعرابى نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا . فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا . فقال لهم صاحب الناقة خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها فتوجه لها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها وإنى لو أطعتكم حيث قال ماقال لدخل النار » رواه البزار ثم قال لانعلمه يروى إلا من هذا الوجه (قلت) وهو ضعيف بحال إبراهيم بن الحكم بن أبان والله أعلم ، وقوله (بالمؤمنين رءوف رحيم) كقوله (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم) وهكذا أمره تعالى فى هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى (فإن تولوا) أى تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة (فقل حسبى الله لا إله إلا هو) أى الله كافى لا إله إلا هو عليه توكلت كما قال تعالى (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) (وهو رب العرش العظيم) أى هو مالك كل شىء وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف المخلوقات وجميع الخلائق من السموات والأرضين ومافيهما وما بينهما تحت العرش مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شىء وقدره نافذ فى كل شىء وهو على كل شىء وكيل ، قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى بكر حدثنا بشر بن عمر حدثنا شعبة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما عن أبى بن كعب

(١) أى دية قتيل .

قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة ، وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا عبد المؤمن حدثنا عمر بن شقيق حدثنا أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب رضى الله عنهم أنهم جمعوا القرآن فى مصاحف فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم) الآية فظنوا أن هـذا آخر ما نزل من القرآن فقال لهم أبى بن كعب إن رسـول الله ﷺ أقرأنى بعـدها آيتين (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة قال هـذا آخر ما نزل من القرآن فختم بما فتح به بالله الذى لا إله إلا هو وهو قول الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وهذا غريب أيضاً ، وقال أحمد حدثنا على بن بحر حدثنا على بن محمد بن سلمة عن محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسـول من أنفسكم) إلى عمر بن الخطاب فقال من معك على هـذا ؟ قال لا أدرى والله إنى لأشهد لسمعتها من رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ووعيتها وحفظتها فقال عمر وأنا أشهد لسمعتها من رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ثم قال لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة فانظروا سورة من القرآن فضعوها فيها فوضعوها فى آخر براءة ، وقد تقدم الكلام أن عمر ابن الخطاب هو الذى أشار على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما بجمع القرآن فأمر زيد بن ثابت فجمعه وكان عمر يحضرهم وهم يكتبون ذلك ، وفى الصحيح أن زيدا قال فوجدت آخر سورة براءة مع خزيمة بن ثابت أو أبى خزيمة ، وقد قدمنا أن جماعة من الصحابة تذكروا ذلك عنـد رسـول الله ﷺ كما قال خزيمـة بن ثابت حين ابتدأهم بها والله أعلم ، وقد روى أبو داود عن يزيد بن محمد عن عبد الرزاق بن عمر — وقال كان من ثقات المسلمين من المتعبدين عن مدرك بن سعد قال يزيد شيخ ثقة عن يونس بن ميسرة عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى : حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم . سبع مرات إلا كفاه الله ما أهمه(١) ، وقد رواه ابن عساكر فى ترجمة عبد الرزاق عن عمر هذا من رواية أبا زرعة الدمشقى عنه عن أبى سعد مدرك بن أبى سعد الفزارى عن يونس بن ميسرة بن حليس عن أم الدرداء سمعت أبا الدرداء يقول : مامن عبد يقول حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات صادقا كان بها أو كاذبا إلا كفاه الله ما أهمه . وهذه زيادة غريبة ثم رواه فى ترجمة عبد الرزاق أبى محمد عن أحمد بن عبد الله بن عبد الرزاق عن جده عبد الرزاق بن عمر بسنده فرفعه فذكر مثله بالزيادة وهذا منكر والله أعلم آخر تفسير سورة براءة ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة يونس عليه السلام وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

أما الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها فى أوائل سورة البقرة ، وقال أبو الضحى عن ابن عباس فى قوله تعالى (الر) أى أنا الله أرى . وكذلك قال الضحاك وغيره (تلك آيات الكتاب الحكيم) أى هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) (٢) وقال الحسن التوراة والزبور : وقال قتادة : (تلك آيات الكتاب) قال الكتب التى كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه : وقوله (أكان للناس عجبا) الآية . يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون

(١) كذا فى الأصول بالاستثناء ولا يظهر إلا فى الرواية التالية المبدوءة بالنفى
(٢) بياض بالأصل

الماضين من قولهم (أبشر يهدوننا) وقال هود وصالح لقومهما (أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم) وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا (أجعل الآلهة إلهاً واحدا إن هذا لشيء عجاب) وقال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد قال فأنزل الله عز وجل (أكان للناس عجبا) الآية . وقوله (أن لهم قدم صدق عند ربهم) اختلفوا فيه فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق) يقول سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وقال العوفي عن ابن عباس (أن لهم قدم صدق عند ربهم) يقول أجرا حسنا بما قدموا وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كقوله تعالى (لينذر بأسا شديدا) الآية وقال مجاهد (أن لهم قدم صدق عند ربهم) قال الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم قال ومحمد ﷺ يشفع لهم ، وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان وقال قتادة سلف صدق عند ربهم واختار ابن جرير قول مجاهد أنها الأعمال الصالحة التي قدموها كما يقال له قدم في الإسلام كقول حسان

لنا القدم العليا إليك وخلفنا * لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة : لكم قدم لا ينكر الناس انها * مع الحسب العادي طمت على البحر

وقوله تعالى (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أي مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم رجلا من جنسهم بشيرا ونذيرا (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) أي ظاهر وهم الكاذبون في ذلك

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام قيل كهذه الأيام وقيل كل يوم كألف سنة مما تعدون كما سيأتي بيانه ثم استوى على العرش والعرش أعظم المخلوقات وسقفها قال ابن أبي حاتم حدثنا حجاج ابن حمزة حدثنا أبو أسامة حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال سمعت سعدا الطائي يقول : العرش يا قوتة حمراء ، وقال وهب بن منبه خلقه الله من نوره وهذه غريب وقوله (يدبر الأمر) أي يدبر الخلائق (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) الآية (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) وقال الدراوردي عن سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة أنه قال حين نزلت هذه الآية (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض) الآية لقيهم ركب عظيم لا يرون إلا أنهم من العرب فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا من الجن خرجنا من المدينة أخرجتنا هذه الآية رواه ابن أبي حاتم وقوله (ما من شفيع إلا من بعد إذنه) كقوله تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) وكقوله تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وقوله (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) وقوله (ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون) أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له (أفلا تذكرون) أي أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلها غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون) وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لايترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) أى بالعدل والجزاء الأوفى (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن)

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وجعل شعاع القمر نورا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرا ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى فى تمام شهر كقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وقوله تعالى (والشمس والقمر حسبانا) الآية وقوله فى هذه الآية الكريمة (وقدره) أى القمر (منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام (ما خلق الله ذلك إلا بالحق) أى لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة فى ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) وقوله (نفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يعلمون) وقوله (إن فى اختلاف الليل والنهار) أى تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا وإذا ذهب هذا جاء هذا لايتأخر عنه شيئا كقوله تعالى (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) وقال (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) الآية . وقال تعالى (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا) الآية وقوله (وما خلق الله فى السموات والأرض) أى من الآيات الدالة على عظمته تعالى كما قال (وكأين من آية فى السموات والأرض) الآية وقوله (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وقال (أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض) وقال (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) أى العقول : وقال ههنا (لآيات لقوم يتقون) أى عقاب الله وسخطه وعذابه

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقائه شيئا ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله مازينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام مع ماهم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم ، يحتمل أن تكون الباء ههنا سببية فتقديره بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة كما قال مجاهد فى قوله (يهديهم ربهم بإيمانهم)قال يكون لهم نوراً يمشون به ، وقال ابن جريج فى الآية يمثل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له من أنت ؟ فيقول أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله تعالى(يهديهم ربهم بإيمانهم) والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلاده حتى يقذفه فى النار ، وروى نحوه عن قتادة مرسلا فالله أعلم ، وقوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) أى هذا حال أهل الجنة. قال ابن جريج أخبرت أن قوله (دعواهم فيها سبحانك اللهم) قال إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا سبحانك اللهم وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه فذلك قوله (وتحيتهم فيها سلام)قال فاذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم (سبحانك اللهم) قال فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس فى الأخرى قال فيأكل منهن كلهن ، وقال سفيان الثورى إذا أراد أحدهم أن يدعو بشىء قال(سبحانك اللهم) وهذه الآية فيها شبه من قوله (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الآية . وقوله (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما) وقوله (سلام قولا من رب رحيم) وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) الآية وقوله (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبدا ، المعبود على طول المدا، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره وفى ابتداء كتابه وعند ابتداء تنزيله حيث يقول تعالى (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها وأنه المحمود فى الأولى والآخرة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة فى جميع الأحوال ولهذا جاء فى الحديث: ان أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد فليس لها انقضاء ولا أمد فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر فى حال ضجرهم وغضبهم وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفا ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أولأولادهم بالخير والبركة والنماء ولهذا قال (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم) الآية أى لو استجاب لهم كلما دعوه به فى ذلك لأهلكهم ولكن لا ينبغى الاكثار من ذلك كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر حدثنا يعقوب بن محمد حدثنا حاتم بن إسماعيل حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو جزرة عن عبادة بن الوليد حدثنا جابر قال : قال رسول الله ﷺ لاتدعوا على أنفسكم ،لاتدعوا على أولادكم لاتدعوا على أموالكم . لاتوافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به . وقال البزار وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصارى لم يشاركه أحد فيه وهذا كقوله تعالى(ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) الآية ، وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية (ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير)الآية

هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليـه : اللهم لا تبارك فيه والعنه . فلو يعجل لهـم الاستجابة فى ذلك كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى كثير وهما فى معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله فى كشفها ورفعها عنه فى حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفى جميع أحواله فإذا فرج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب كأنه ما كان به من ذلك شىء (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال (كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون) فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فانه مستثنى من ذلك كقوله تعالى (إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات) وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعـالى عما أحل بالقرون الماضية فى تكذيبهم الرسـل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله وفى صحيح مسلم من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد قال : قال رســول الله ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بنى إسرائيل كانت من النساء » وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة بهذا أنبأنا حماد عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن عوف بن مالك قال لأبى بكر رأيت فيما يرى النائم كأن سببا دلى من السماء فانتشط رسـول الله ﷺ ثم أعيـد فانتشط أبو بكر ثم ذرع الناس حول المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع حول المنبر فقال عمر : دعنا من رؤياك لا أرب لنا فيها فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ قال وهل لك فى رؤياى من حاجة أو لم تنتهرنى ؟ قال ويحك إنى كرهت أن تنعى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه فقص عليـه الرؤيا حتى إذا بلغ ذرع النـاس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع قال : أما إحداهن فانه كان خليفة . وأما الثانية فانه لا يخاف فى الله لومة لائم ، وأما الثالثة فانه شهيد ، قال : فقال يقول الله تعـالى (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) فقد استخلفت يا ابن أم عمر فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله فإنى لا أخاف فى الله لومة لائم فيما شـاء الله وأما قوله (شهيد) فأنى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به ؟

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له ائت بقرآن غير هذا أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي) أي ليس هذا إلي إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن الله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) ثم قال محتجا عليهم في صحة ما جاءهم به (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به) أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عزوجل لا تنتقدون علي شيئا تغمصوني به ولهذا قال : (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ قال هرقل لأبي سفيان هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان فقلت لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين ومع هذا اعترف بالحق * والفضل ما شهدت به الأعداء * فقال له هرقل فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة ، وعن سعيد بن المسيب ثلاثا وأربعين سنة ، والصحيح المشهور الأول

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراما (ممن افترى على الله كذبا) وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك فليس أحد أكبر جرما ولا أعظم ظلما من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء فإن من قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا فلابد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي . قال عبد الله بن سلام لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس (١) فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب قال فكان أول ما سمعته يقول « يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » ولما وفد ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له من رفع هذه السماء قال « الله » قال ومن نصب هذه الجبال ؟ قال « الله » قال ومن سطح هذه الأرض؟ قال « الله » قال فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال « اللهم نعم » ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ويحلف له رسول الله ﷺ فقال له صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه . وقال حسان بن ثابت

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محاله بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة ، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم من فرق بين قوله تعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) إلى آخرها . وبين قول مسيلمة قبحه الله ولعنه : يا ضفدع بنت ضفدعين ، نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله قبحه الله لقد أنعم الله على الحبلى ، إذ أخرج منها نسمة تسعى ، من بين

(١) يعني قومه اليهود . وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

صفاق وحشي . وقوله خلده الله فى نار جهنم، وقد فعل : الفيل وما أدراك ما الفيل ، له خرطوم طويل،وقوله أبعده الله من رحمته : والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، إن قريشا قوم يعتدون. إلى غير ذلك من الخرافات والهذيانات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا على وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم الله أنفه ، وشرب يوم الحديقة حتفه . ومزق شمله . ولعنه صحبه وأهله . وقدموا على الصديق تائبين ، وجاءوا فى دين الله راغبين فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورضى عنه أن يقرأوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله فسألوه أن يعفهم من ذلك فأبى عليهم إلا إن يقرأوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم فقرأوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضى الله عنه ويحكم أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إل ، وذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة وكان صديقا له فى الجاهلية وكان عمرو لم يسلم بعد فقال له مسيلمة ويحك يا عمرو ماذا أنزل على صاحبكم يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه المدة . فقال لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة فقال : وماهى فقال (والعصر إن الإنسان لفى خسر) إلى آخر السورة ففكر مسيلمة ساعة ثم قال وأنا قد أنزل عليّ مثله فقال وما هو فقال ياوبر ، ياوبر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حفر نقر . كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب . فاذا كان هذا من مشرك فى حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولى البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ، ولهذا قال الله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أوقال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) وقال فى هذه الآية الكريمة (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) وكذلك من كذب بالحق الذى جاءت به الرسل . وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما فى الحديث « أعتى الناس على الله رجل قتل نبيا أو قتله نبي »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدا ولهذا قال تعالى (قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض) وقال ابن جرير معناه أتخبرون الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض ؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس كائن بعد أن لم يكن وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام قال ابن عباس كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة (ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة) وقوله (ولولا كلمة سبقت من ربك) الآية أى لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

أى ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهبا أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ولكنه

حكيم فى أفعاله وأقواله كما قال تعالى (تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار و يجعل لك قصورا * بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) وكقوله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية يقول تعالى : إن سنتى فى خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوا ، فان آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة . ولهذا لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اعطائهم ما سألوا فان آمنوا والا عذبوا وبين إنظارهم اختار انظارهم كما حلم عنهم غير مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا (فقل إنما الغيب لله) أى الأمر كله لله وهو يعلم العواقب فى الأمور (فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) أى إن كنتم لاتؤمنون حتى تشاهدوا ماسألتم فانتظروا حكم الله فىّ وفيكم . هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته صلى الله عليه وسلم أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين فرقة من وراء الجبل وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبتا لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا فتركهم فيما رابهم وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد كقوله تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية) الآية. وقوله تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) الآية، ولما فيهم من المكابرة كقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء) الآية ، وقوله تعالى (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) الآية، وقال تعالى (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلاسحر مبين) فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ماسألوا لأنه لا فائدة فى جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ولهذا قال (فانتظروا إنى معكم من المنتظرين)

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب. والمطر بعد القحط ونحو ذلك (إذا لهم مكر فى آياتنا) قال مجاهد استهزاء وتكذيب كقوله (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أوقائما) الآية ، وفى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل أى مطر ثم قال « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟» قالوا الله ورسوله أعلم قال : « قال أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب » وقوله (قل الله أسرع مكرا) أى أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو فى مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع مايفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير ، ثم أخبر تعالى أنه (هو الذى يسيركم فى البر والبحر) أى يحفظكم ويكلؤكم بحراسته (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) أى بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ (جاءتها) أى تلك السفن (ريح عاصف) أى شديدة (وجاءهم الموج من كل مكان) أى اغتلم البحر عليهم (وظنوا أنهم أحيط بهم) أى هلكوا (دعوا الله مخلصين له الدين) أى لا يدعون معه صنما ولا وثنا بل يفردونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه . فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) وقال ههنا (دعوا الله

مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه) أى هذه الحال (لنكونن من الشاكرين) أى لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا ، قال الله تعالى (فلما أنجاهم) أى من تلك الورطة (إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق) أى كأن لم يكن من ذلك شىء (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) ثم قال تعالى (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم) أى إنما يذوق وبال هذا البغى أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم كما جاء فى الحديث « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم » وقوله (متاع الحياة الدنيا) أى إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة (ثم إلينا مرجعكم) أى مصيركم ومآلكم (فننبئكم) أى فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ يَدْعُوٓا إِلَىٰ دَارِ السَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) أى زينتها الفانية (وازينت) أى حسنت بما خرج فى رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان (وظن أهلها) الذين زرعوها وغرسوها (أنهم قادرون عليها) أى على جذاذها وحصادها فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها ولهذا قال تعالى (أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيدا) أى يابسا بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أى كأنها ما كانت حينا قبل ذلك . وقال قتادة : كأن لم تغن كأن لم تنعم ، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن . ولهذا جاء فى الحديث « يؤتى بأنعم أهل الدنيا فيغمس فى النار غمسة فيقال له هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا ، ويؤتى بأشد الناس عذابا فى الدنيا فيغمس فى النعيم غمسة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا » وقال تعالى إخبارا عن المهلكين (فأصبحوا فى دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها) ثم قال تعالى (كذلك نفصل الآيات) أى نبين الحجج والأدلة (لقوم يتفكرون) فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعا مع اغترارهم بها وتمكنهم وثقهم بموعيدها وتفلتها عنهم فان من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض فى غير ما آية من كتابه العزيز فقال فى سورة الكهف (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا) وكذا فى سورة الزمر والحديد يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنى الحارث حدثنا عبد العزيز حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال : سمعت مروان يعنى ابن الحكم يقرأ على المنبر : وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وما كان ليهلكهم إلا بذنوب أهلها . قال قد قرأتها وليست فى المصحف ، فقال عباس بن عبد الله بن عباس هكذا يقرؤها ابن عباس فارسلوا إلى ابن عباس فقال هكذا أقرأنى أبى بن كعب وهذه قراءة غريبة وكأنها زيدت للتفسير وقوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) الآية . لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب فى الجنة ودعا اليها وسماها دار السلام أى من الآفات ، والنقائص والنكبات فقال (والله يدعو إلى دار السلام ، ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) قال أيوب عن أبى قلابة عن النبى ﷺ قال « قيل لى لتنم عينك وليعقل قلبك ولتسمع أذنك فنامت عينى وعقل قلبى وسمعت أذنى ثم قيل لى[1] .كمثل سيد بنى دارا ثم صنع مأدبة وأرسل داعيا فمن أجاب الداعى دخل الدار

(١) هنا بياض بالأصل .

وأكل من المأدبة ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد والله السيد والدار الاسلام والمأدبة الجنة والداعى محمد ﷺ » وهذا حديث مرسل وقد جاء متصلا من حديث الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله ﷺ يوما فقال « إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى وميكائيل عند رجلى يقول أحدهما لصاحبه اضرب له مثلا ، فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارا ثم بنى فيها بيتا ثم جعل فيها مأدبة ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه فمنهم من أجاب الرسول ومنهم من تركه فالله الملك والدار الاسلام والبيت الجنة وأنت يامحمد الرسول فمن أجابك دخل الاسلام ومن دخل الاسلام دخل الجنة ومن دخل الجنة أكل منها » رواه ابن جرير وقال قتادة حدثنى خليد العصرى عن أبى الدرداء مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ماقل وكفى خير مما كثر وألهى » قال وأنزل فى قوله يا أيها الناس هلموا إلى ربكم (والله يدعوا إلى دار السلام) الآية . رواه ابن أبى حاتم وابن جرير

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح : الحسنى فى الدار الآخرة كقوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) وقوله (وزيادة) هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا ويشمل مايعطيهم الله فى الجنان من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فانه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبى بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد ابن المسيب وعبد الرحمن بن أبى ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم من السلف والخلف وقد وردت فيه أحاديث كثير عن النبى ﷺ فمن ذلك مارواه الإمام أحمد حدثنا عفان أخبرنا حماد بن سلمة عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ـ قال ـ فيكشف لهم الحجاب فينظرون اليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب اليهم من النظر اليه ولا أقر لأعينهم » وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به ، وقال ابن جرير حدثنى يونس قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرنى شبيب عن أبان عن أبى تميمة الهجيمى أنه سمع أباموسى الأشعرى يحدث عن رسول الله ﷺ « إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى يا أهل الجنة ـ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ـ إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » ورواه أيضا ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر الهذلى عن أبى تميمة الهجيمى به وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجرة عن النبى ﷺ فى قوله (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال « النظر إلى وجه الرحمن عزوجل » وقال أيضا حدثنا ابن عبدالرحيم حدثنا عمر بن أبى سلمة سمعت زهيرا عمن سمع أبا العالية حدثنا أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : « الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل » ورواه ابن أبى حاتم أيضا من حديث زهير به . وقوله تعالى (ولا يرهق وجوههم قتر) أى قتام وسواد فى عرصات المحشر كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة (ولاذلة) أى هوان وصغار أى لا يحصل لهم إهانة فى الباطن ولا فى الظاهر بل هم كما قال

تعالى فى حقهم (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) أى نضرة فى وجوههم وسرورا فى قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزدادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك (وترهقهم) أى تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل) الآية وقال تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون * إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم) الآيات وقوله (ما لهم من الله من عاصم) أى مانع ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى (يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله (كأنما أغشيت وجوههم) الآية إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة كقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون) وقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة)الآية

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى (ويوم نحشرهم) أى أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (ثم نقول للذين أشركوا) الآية أى الزموا أنتم وهم مكانا معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى (وامتازوا اليوم أيها المجرمون) وقوله (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون)وفى الآية الأخرى (يومئذ يصدعون) أى يصيرون صدعين وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء ولهذا قيل ذلك (1) يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا ، وفى الحديث الآخر « نحن يوم القيامة على كوم فوق الناس » وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخبارا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة (مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم) الآية أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم كقوله (كلا سيكفرون بعبادتهم)الآية وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وقوله (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) الآية وقوله فى هذه الآية إخبارا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم (فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم) الآية أى ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك ، وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده بل تبرأ منهم وقت أحوج ما يكونون إليه وقد تركوا عبادة الحى القيوم السميع البصير القادر على كل شىء العليم بكل شىء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرا بعبادته وحده لا شريك له ناهيا عن عبادة ما سواه كما قال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة)

(1) بياض بالأصل

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله فى كتابه وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد ، وقوله تعالى (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) أى فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) وقال تعالى (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) وقال تعالى (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وقد قرأ بعضهم (هنالك تتلو كل نفس ما أسلفت) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمت من خير وشر وفسرها بعضهم بحديث «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث ، وقوله (وردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار (وضل عنهم) أى ذهب عن المشركين (ما كانوا يفترون) أى ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته فقال تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض) أى من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقا بقدرته ومشيئته فيخرج منها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكها وأبا) أإله مع الله ؟ فسيقولون الله (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه؟) وقوله (أمن يملك السمع والأبصار) أى الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها كقوله تعالى (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) الآية . وقال (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم) الآية وقوله (ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) أى بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك وأن الآية عامة لذلك كله وقوله(ومن يدبر الأمر) أى من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن) فالملك كله العلوى والسفلى وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له خاضعون لديه (فسيقولون الله) أى وهم يعلمون ذلك ويعترفون به (فقل أفلا تتقون) أى أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم وقوله (فذلكم الله ربكم الحق) الآية أى فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة (فماذا بعد الحق إلا الضلال) أى فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد لا شريك له (فأنى تصرفون) أى فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء والمتصرف فى كل شىء ، وقوله (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا) الآية أى كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف فى الملك وحده الذى بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار كقوله(قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين)

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ

إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد (قل هل من شركائكم من يبدؤا الخلق ثم يعيده ؟) أى من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلها بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقا جديدا (قل الله) هو الذى يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له (فأنى تؤفكون) أى فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل الله يهدى للحق) أى أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدى الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد الله الذى لا إله إلا هو (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يهدى) أى أفيتبع العبد الذى يهدى إلى الحق ويبصر بعد العمى أم الذى لا يهدى إلى شىء إلا أن يهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم أنه قال (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً) وقال لقومه (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (فما لكم كيف تحكمون) أى فما بالكم أن يذهب بعقولكم كيف سويتم بين الله وبين خلقه وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ، وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده وأخلصتم إليه الدعوة والانابة ، ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلا ولا برهانا وإنما هو ظن منهم أى توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً (إن الله عليم بما يفعلون) تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ولا بعشر سور ولا بسورة من مثله لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته واشتماله على المعانى العزيزة الغزيرة النافعة فى الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله وأقواله فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ولهذا قال تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله) أى مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المتقدمة ومهيمنا عليه ومبينا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل وقوله (وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) أى وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانا شافياً كافياً حقا لا مرية فيه من الله رب العالمين كما تقدم فى حديث الحارث الأعور عن على بن أبى طالب فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم أى خبر عما سلف وعما سيأتى وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه . وقوله (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) أى إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله وقلتم كذبا ومينا إن هذا من عند محمد فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله ، أى من جنس هذا القرآن واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث فى التحدى فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين فى دعواهم أنه من عند محمد فليعارضوه بنظير ما جاء به وحده وليستعينوا بمن شاءوا وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه فقال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض

ظهيراً) ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال في أول سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكذا في سورة البقرة وهى مدنية تحداهم بسورة منه وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدا فقال (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) الآية ، هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب ، ولـكن جاءهم من الله مالا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الـكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته فـكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأتبعهم له وأشدهم له انقيادا كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذى فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من الله وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله .وكذلك عيسى عليه السلام بعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى فـكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ،ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « مامن نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » . وقوله (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله) يقول بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه (ولما يأتهم تأويله) أى ولم يحصلوا مافيه من الهدى ودين الحق إلى حين تـكذيبهم به جهلا وسفها (كذلك كذب الذين من قبلهم) أى من الأمم السالفة (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) أى فانظر كيف أهلـكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلما وعلوا وكفرا وعنادا وجهلا فاحذروا أيها المـكذبون أن يصيبكم ما أصابهم . وقوله (ومنهم من يؤمن به) الآية ، أى ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به (ومنهم من لا يؤمن به) بل يموت على ذلك ويبعث عليه (وربك أعلم بالمفسدين) أى وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ؟ ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذى لا يجور ، بل يعطى كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَـكُمْ عَمَلُـكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِـعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم (فقل لى عملى ولـكم عملـكم) كقوله تعالى (قل يا أيها الـكافرون لا أعبد ما تعبدون) إلى آخرها ، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين (إنا برآء منـكم ومما تعبدون من دون الله) الآية ، وقوله (ومنهم من يستمعون إليك) أى يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة فى القلوب والأديان والأبدان وفى هذا كفاية عظيمة ، ولـكن ليس ذلك إليك ولا إليهم فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش فـكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله (ومنهم من ينظر إليك) أى ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولى البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شىء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون اليك بعين الوقار ، وهؤلاء الـكفار ينظرون اليك بعين الاحتقار (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا) الآية ، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا شيئا وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من العمى ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف فى ملـكه بما يشاء الذى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالى (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولـكن الناس أنفسهم يظلمون) وفى الحديث عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم

محرما فلا تظالموا ــ إلى أن قال فى آخره ــ ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلو من إلا نفسه » رواه مسلم بطوله

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة وحصرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة (ويوم يحشرهم) الآية . كقوله (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) وكقوله (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وقال تعالى (يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما) وقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) الآيتين ، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا فى الدار الآخرة كقوله (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) ، وقوله (يتعارفون بينهم) أى يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا فى الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم) الآية ، وقال تعالى (ولا يسأل حميم حميما) الآيات وقوله (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) كقوله تعالى (ويل للمكذبين) لأنهم خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ (وإما نرينك بعض الذى نعدهم) أى ننتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم (أو نتوفينك فإلينا مرجعهم) أى مصيرهم ومنقلبهم والله شهيد على أفعالهم بعدك وقد قال الطبرانى ، حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا داود بن الجارود عن أبى السليل عن حذيفة بن أسيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « عرضت علىّ أمتى البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها » فقال رجل يارسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق ؟ فقال « صوروا لى فى الطين حتى أنى لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه . وقوله (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم) قال مجاهد يعنى يوم القيامة (قضى بينهم بالقسط) الآية كقوله تعالى (وأشرقت الأرض بنور ربها) الآية فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم وحفظتهم من الملائكة شهود أيضا أمة بعد أمة وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضى لهم كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا

مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ * ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كفر هؤلاء المشركين فى استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين مما لا فائدة لهم فيه كقوله (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) أى كائنة لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينا ، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال (قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا) الآية أى لا أقول إلا ما علمنى ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يطلعنى الله عليه فأنا عبده ورسوله إليكم وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة ولم يطلعنى على وقتها ولكن (لكل أمة أجل) أى لكل قرن مدة من العمر مقدرة فاذا انقضى أجلهم (فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) كقوله (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) الآية ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال (قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ؟) أى ليلا أو نهارا (ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون) يعنى أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا (ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية وقال تعالى (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) (ثم قيل للذين ظلموا ذوقو عذاب الخلد) أى يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتا وتقريعا كقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون)

﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى ويستخبرونك (أحق هو) أى المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا (قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين) أى ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ف(إنما أمره إذا أراد شيئا أن له كن فيكون) وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم) وفى التغابن (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملم وذلك على الله يسير) ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامه يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط) أى بالحق (وهم لا يظلمون)

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأن وعده حق كائن لا محالة وأنه يحى ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزله من القرآن العظم على رسوله الكريم (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم)

أى زاجر عن الفواحش (وشفاء لما فى الصدور) أى من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس وهدى ورحمة أى يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وقوله (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية، وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا) أى بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فانه أولى ما يفرحون به (هو خير مما يجمعون) أى من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة كما قال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية وذكر بسنده عن بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو سمعت أيفع بن عبد الكلاعى يقول لما قدم خراج العراق إلى عمر رضى الله عنه خرج عمر ومولى له فجعل عمر يعد الإبل فإذا هى أكثر من ذلك فجعل عمر يقول الحمد لله تعالى ويقول مولاه هذا والله من فضل الله ورحمته فقال عمر كذبت ليس هذا . هو الذى يقول الله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته) الآية وهذا مما يجمعون وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبرانى فرواه عن أبى زرعة الدمشقى عن حيوة بن شريح عن بقية فذكره

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نزلت إنكار على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل كقوله تعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً) الآيات وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحق سمعت أبا الأحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيئة فقال « هل لك مال ؟ » قلت نعم . قال من أى المال ؟ قال قلت من كل المال من الإبل والرقيق والخيل والغنم فقال « إذا آتاك الله مالا فلير عليك - وقال - هل تنتج إبلك صحاحا آذانها فتعمد إلى موسى فتقطع آذانها فتقول هذه بحر وتشق جلودها وتقول هذه صرم وتحرمها عليك وعلى أهلك » قال نعم قال «فان ما آتاك الله لك حل ، ساعد الله أشد من ساعدك وموسى الله أحدّ من موساك» وذكر تمام الحديث، ثم رواه عن سفيان بن عيينة عن أبى الزعراء عمرو بن عمرو عن عمه أبى الأحوص ، وعن بهز بن أسد عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير عن أبى الأحوص به ،وهذا حديث جيد قوى الإسناد ، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التى لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة) أى ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ، وقوله (إن الله لذو فضل على الناس) قال ابن جرير فى تركه معاجلتهم بالعقوبة فى الدنيا (قلت) ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم (ولكن أكثرهم لا يشكرون) بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما . وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم . وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا رباح حدثنا عبد الله بن سليمان حدثنا موسى بن الصباح فى قوله عز وجل (إن الله لذو فضل على الناس) قال إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول : عبدى لماذا عملت ؟ فيقول يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليها - قال - فيقول الله تعالى عبدى إنما عملت للجنة هذه الجنة فادخلها ومن فضلى عليك قد أعتقتك من النار ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى

فيدخلهو ومن معه الجنة - قال - ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى فيقول عبدى لماذا عملت فيقول يا رب خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى خوفا منها فيقول عبدى إنما عملت ذلك خوفا من نارى فإنى قد أعتقتك من النار ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى فيدخل هو ومن معه الجنة . ثم يؤتى برجل من الصف الثالث فيقول عبدى لماذا عملت ؟ فيقول رب حباً لك وشوقا إليك وعزتك لقد أسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليك وحبا لك . فيقول تبارك وتعالى : عبدى إنما عملت حبا لى وشوقا إلى فتجتلى له الرب جل جلاله ويقول ها أنا ذا فانظر إلى ثم يقول من فضلى عليك أن أعتقك من النار وأبيحك جنتى وأزيرك ملائكتى وأسلم عليك بنفسى . فيدخل هو ومن معه الجنة

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق فى كل ساعة وأوان ولحظة وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين كقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة فى قوله (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الآية وقال تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) الآية وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة كما قال تعالى (وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) ولهذا قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) أى إذ تأخذون فى ذلك الشىء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك »

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم بهم ، فكل من كان تقيا كان لله وليا فـ(لا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة (ولا هم يحزنون) على ما وراءهم فى الدنيا ، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البزار حدثنا على بن حرب الرازى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى وهو القمى عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رجل يارسول الله من أولياء الله ؟ قال « الذين إذا رؤوا ذكر الله » ثم قال البزار وقد روى عن سعيد مرسلا ، وقال ابن جرير حدثنا أبو هشام الرفاعى حدثنا أبو فضيل حدثنا أبى عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن عمرو بن جرير البجلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عبادا يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال « هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب وجوههم نور على منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ثم رواه أيضا أبو داود من حديث جرير عن عمارة

ابن القعقاع عن أبي زرعة عن عمرو بن جرير عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا أيضا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب والله أعلم ، وفي حديث الإمام أحمد عن أبي النضر عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ « يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا في الله يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن الأعمش عن ذكوان بن أبي صالح عن رجل عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر عن أبي الدرداء في قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال سأل رجل أبا الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدا سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسول الله ﷺ فقال « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو ترى له بشراه في الحياة الدنيا وبشراه في الآخرة الجنة » ثم رواه ابن جرير عن سفيان عن ابن المنكدر عن عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما تقدم ثم قال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا حماد بن زيد عن عاصم بن بهدلة عن أبي صالح قال : سمعت أبا الدرداء سئل عن هذه الآية (الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى) فذكر نحوه سواء وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبان حدثنا يحيى عن أبي سلمة عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فقال « لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن عمران القطان عن يحيى بن أبي كثير به ، ورواه الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير فذكره ورواه علي بن المبارك عن يحيى عن أبي سلمة قال : نبئنا عن عبادة بن الصامت سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فذكره ، وقال ابن جرير حدثني أبو حميد الحمصي حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأخموشي عن حميد بن عبد الله المزني قال : أتى رجل عبادة بن الصامت فقال آية في كتاب الله أسألك عنها قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا) فقال عبادة ما سألني عنها أحد قبلك سألت عنها نبي الله فقال مثل ذلك « ما سألني عنها أحد قبلك الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في النام أو ترى له » ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ابن صفوان عن عبادة بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخره) فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة فما بشرى الدنيا ؟ قال « الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له . وهي جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا بهز حدثنا حماد حدثنا أبو عمران عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر أنه قال يا رسول الله : الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ « تلك عاجل بشرى المؤمن » رواه مسلم ، وقال أحمد أيضا حدثنا حسن يعني الأشيب حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « (لهم البشرى في الحياة الدنيا) - قال - الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثا وليكبر ولا يخبر بها أحدا » لم يخرجوه وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب حدثني عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال « لهم البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وقال أيضا ابن جرير حدثني محمد بن أبي حاتم المؤدب حدثنا عمار ابن محمد حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) - قال - في

الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهى فى الآخرة الجنة » ثم رواه عن أبى كريب عن أبى بكر بن عياش عن أبى حصين عن أبى صالح عن أبى هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرى من الله ، وهى من المبشرات هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا ، وقال أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر حدثنا هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا الحسنة هى البشرى يراها المسلم أو ترى له » وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن حماد الدولابى حدثنا سفيان عن عبيد الله بن أبى يزيد عن أبيه عن سباع بن ثابت عن أم كرز الكعبية سمعت رسول الله ﷺ يقول « ذهبت النبوة وبقيت المبشرات » وهكذا روى عن ابن مسعود وأبى هريرة وابن عباس ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبى كثير وإبراهيم النخعى وعطاء بن أبى رباح وغيرهم أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة . وقيل المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم) وفى حديث البراء رضى الله عنه أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب فقالوا اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء ، وأما بشراهم فى الآخرة فكما قال تعالى (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون) وقال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) وقوله (لا تبديل لكلمات الله) أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة (ذلك هو الفوز العظيم)

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ (ولا يحزنك) قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن العزة لله جميعا أى جميعها له ولرسوله وللمؤمنين (هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم ، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهى لا تملك شيئا لا ضراً ولا نفعا ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم ، ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أى يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم (والنهار مبصراً) أى مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم (إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له (ولدا سبحانه هو الغنى) أى تقدس عن ذلك هو الغنى عن كل ما سواه وكل شىء فقير إليه (له ما فى السموات وما فى الأرض) أى فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شىء مملوك له عبد له (إن عندكم من سلطان بهذا) أى ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان (أتقولون على الله ما لا تعلمون) إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا

أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولدا بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة فأما فى الدنيا فانهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا (ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ) كما قال تعالى ههنا (متاع فى الدنيا) أى مدة قريبة (ثم إلينا مرجعهم) أى يوم القيامة (ثم نذيقهم العذاب الشديد) أى الموجع المؤلم (بما كانوا يكفرون) أى بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه (واتل عليهم) أى أخبرهم واقصص عليهم أى على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك (نبأ نوح) أى خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك (إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم) أى عظم عليكم (مقامى) أى فيكم بين أظهركم (وتذكيرى) إياكم (بآيات الله) أى بحججه وبراهينه (فعلى الله توكلت) أى فانى لا أبالى ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أولا (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) أى فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن (ثم لايكن أمركم عليكم غمة) أى ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبسا ، بل افصلوا حالكم معى فان كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إلى ولا تنظرون أى ولا تؤخرونى ساعة واحدة أى مهما قدرتم فافعلوا فانى لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شىء كما قال هود لقومه (إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم) الآية . وقوله (فان توليتم) أى كذبتم وأدبرتم عن الطاعة (فما سألتكم من أجر) أى لم أطلب منكم على نصحى إياكم شيئا (إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) أى وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عزوجل والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم ، وان تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) قال ابن عباس سبيلا وسنة فهذا نوح يقول (وأمرت أن أكون من المسلمين) وقال تعالى عن إبراهيم الخليل (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وقال يوسف (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) وقال موسى (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقالت السحرة (ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) وقالت بلقيس (رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) . وقال تعالى (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا) وقال تعالى (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلى الله عليه وسلم (إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) أى من هذه الأمة ، ولهذا قال فى الحديث الثابت عنه « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد » أى وهو عبادة الله وحده لاشريك له وإن تنوعت شرائعنا وذلك معنى قوله أولاد علات وهم الاخوة من أمهات شتى والأب واحد ، وقوله تعالى (فكذبوه فنجيناه ومن معه) أى على دينه (فى الفلك) وهى السفينه (وجعلناهم خلائف) أى فى الأرض (وأغرقنا الذين كذبوا باياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) أى يامحمد

كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات أى بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاءوهم به (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) أى فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم كقوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) الآية وقوله (كذلك نطبع على قلوب المعتدين) أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام فان الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . وقال ابن عباس : كان بين آدم و نوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ، وقال الله تعالى (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) الآية ، وفى هذا انذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا سيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين فانه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى (ثم بعثنا) من بعد تلك الرسل (موسى وهارون إلى فرعون وملئه) أى قومه (بآياتنا) أى حججنا وبراهيننا (فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين) أى استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوما مجرمين (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين) كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) الآية (قال) لهم (موسى) منكرا عليهم (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا) أى تثنينا (عما وجدنا عليه آباءنا) أى الدين الذى كانوا عليه (وتكون لكما) أى لك ولهارون (الكبرياء) أى العظمة والرياسة (فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين)

وكثيرا ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون فى كتابه العزيز لأنها من أعجب القصص فان فرعون حذر من موسى كل الحذر فسخره القدر أن ربى هذا الذى يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم ورزقه النبوة والرسالة والتكليم وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة الله تعالى وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام ، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية وقوى رأسه وتولى بركنه وادعى ماليس له وتجهرم على الله وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل والله تعالى يحفظ رسوله موسى عليه السلام وأخاه هارون ويحوطهما بعنايته ويحرسهما بعينه التى لا تنام ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدى موسى شيئا بعد شىء : ومرة بعد مرة مما يبهر العقول ويدهش الألباب مما لا يقوم له شىء ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله (وما تأتيهم

من آية إلا هي أكبر من أختها) وصمم فرعون وملؤه فبحجهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يرد ، وأغرقهم فى صبيحة واحدة أجمعين (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسى عليه السلام فى سورة الأعراف وقد تقدم الكلام عليها هناك وفى هذه السورة وفى سورة طه وفى الشعراء وذلك أن فرعون لعنه الله أراد أن يبهرج على الناس ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين ، بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية فى ذلك المحفل العام (وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) فظن فرعون أنه يستنصر بالسحار ، على رسول عالم الأسرار فخاب وخسر الجنة واستوجب النار (وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل (قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا) فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا ثم يأتى بالحق بعده فيدمغ باطلهم . ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم (فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى) فعند ذلك قال موسى لما ألقوا (ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا عبد الرحمن يعنى الدشتكى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن ليث وهو ابن أبى سليم قال : بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى تقرأ فى إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور الآية التى من سورة يونس (فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) والآية الأخرى (فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون) إلى آخر أربع آيات وقوله (إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ، لأن فرعون لعنه الله كان جبارا عنيدا مسرفا فى التمرد والعتو وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفا شديدا . قال العوفى عن ابن عباس (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم) قال فان الذرية التى آمنت لموسى من أناس غير بنى إسرائيل من قوم فرعون يسير منهم امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون وخازن فرعون وامرأة خازنه وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه) يقول بنى إسرائيل وعن ابن عباس والضحاك وقتادة الذرية القليل وقال مجاهد فى قوله (إلا ذرية من قومه) قال هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية أنها من بنى إسرائيل

لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين ، وفى هذا نظر لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وانهم من بنى إسرائيل فالمعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام واستبشروا به وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم التقدمة وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ولهذا لما بلغ هـذا فرعون حذر كل الحـذر فلم يجد عنـه شيئا ، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشـد الأذى و (قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون) وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل (على خوف من فرعون وملئهم) أى وأشراف قومهم أن يفتنهم ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوى قارون فانه كان من قوم موسى فبغى عليهم لـكنه كان طاويا إلى فرعون متصلا به متعلقا بحباله ومن قال إن الضمير فى قوله وملئهم عائد إلى فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه فقد أبعد وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل (ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) أى فإن الله كاف من توكل عليه (أليس الله بكاف عبده) (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكثيرا ما يقرن الله تعـالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى (فاعبده وتوكل عليه) (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم مرات متعددة (إياك نعبد وإياك نستعين) وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا (على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) أى لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك هكذا روى عن أبى مجلز وأبى الضحى ، وقال ابن أبى نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدى آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين) لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله (ونجنا برحمتك) أى خلصنا برحمة منك وإحسان (من القوم الـكافرين) أى الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعـالى سبب انجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم وذلك أن الله تعـالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ أى يتخذا لقومهما بمصر بيوتا ، واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى (واجعلوا بيوتكم قبلة) فقال الثورى وغيره عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال أمروا أن يتخذوها مساجد ، وقال الثورى أيضا عن ابن منصور عن إبراهيم (واجعلوا بيوتكم قبلة) قال كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم وكذا قال مجاهـد وأبو مالك والربيع بن أنس والضحاك وعبـد الرحمن بن زيد بن أسـلم وأبوه زيد ابن أسلم وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبـل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعـالى (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة) وفى الحـديث كان رسـول الله ﷺ إذا حزبه أمر صـلى أخرجه أبو داود ، ولهـذا قال تعـالى فى هـذه الآية (واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين) أى

بالثواب والنصر القريب ، وقال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام لانستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة ، وقال مجاهد (واجعلوا بيوتكم قبلة) لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا فى الكنائس الجامعة أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سراً وكذا قال قتادة والضحاك وقال سعيد بن جبير (واجعلوا بيوتكم قبلة) أى يقابل بعضها بعضاً

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلما وعلوا وتكبرا وعتوا قال موسى (ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة) أى من أثاث الدنيا ومتاعها (وأموالا) أى جزيلة كثيرة (فى) هذه (الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك) بفتح الياء أى أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لايؤمنون بما أرسلتنى به إليهم استدراجاً منك لهم كقوله تعالى (لنفتنهم فيه) وقرأ آخرون ليضلوا بضم الياء أى ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم (ربنا اطمس على أموالهم) قال ابن عباس ومجاهد أى أهلكها ، وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت ، وقال قتادة بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة ، وقال محمد بن كعب القرظى جعل سكرهم حجارة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث حدثنا يحيى بن أبى بكير عن أبى معشر حدثنى محمد بن قيس أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز حتى بلغ (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا) إلى قوله (ربنا اطمس على أموالهم) الآية فقال عمر يا أباحمزة أى شىء الطمس ؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة ، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له ائتنى بكيس فجاءه بكيس فإذا فيه حمص وبيض قد حول حجارة وقوله (واشدد على قلوبهم) قال ابن عباس أى اطبع عليها (فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لاخير فيهم ولا يجىء منهم شىء كما دعا نوح عليه السلام فقال (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً) ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التى أمن عليها أخوه هرون فقال تعالى (قد أجيبت دعوتكما) قال أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والربيع بن أنس دعا موسى وأمن هرون أى قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون ، وقد يحتج بهذه الآية من يقول إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة ينزل منزلة قراءتها لأن موسى دعا وهرون أمن ، وقال تعالى (قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) الآية أى كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمرى قال ابن جريج عن ابن عباس: فاستقيما فامضيا لأمرى وهى الاستقامة قال ابن جريج يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة ، وقال محمد بن كعب وعلى بن الحسين أربعين يوما

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ

ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده فان بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية وقد كانوا استعاروا من القبط حليا كثيرا فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم فأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم فى أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فى سائر مملكته فلحقوهم وقت شروق الشمس (فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر وفرعون وراءهم ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه فى السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول إنى أمرت أن أسلك ههنا (كلا إن معى ربى سيهدين) فعند ما ضاق الأمر اتسع فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار اثنى عشر طريقا لكل سبط واحد وأمر الله الريح فنشفت أرضه (فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى) وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا . وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى وهو فى مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيبت الدعوة . وجاء جبريل عليه السلام على فرس وديق حائل فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا فتجلد لأمرائه وقال لهم ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل فى ساقتهم لا يترك منهم أحدا إلا ألحقه بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال وهو كذلك (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) فآمن حيث لا ينفعه الإيمان (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون) ولهذا قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال (آلآن وقد عصيت قبل) أى أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه (وكنت من المفسدين) أى فى الأرض الذين أضلوا الناس (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله ذلك من أسرار الغيب التى أعلم الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ـ قال ـ قال لى جبريل لو رأيتنى وقد أخذت من حال[1] البحر فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذى حديث حسن ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « قال لى جبريل لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » وقد رواه أبو عيسى الترمذى أيضا وابن جرير أيضا من غير وجه عن شعبة به فذكر مثله ، وقال الترمذى حسن غريب صحيح ، ووقع فى رواية عند ابن جرير عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن عطاء وعدى عن سعيد عن ابن عباس رفعه أحدهما فكأن الآخر لم يرفع فالله أعلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أغرق الله فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل) قال فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه فجعل يأخذ الحال بجناحيه فيضرب به وجهه فيرمسه ، وكذا رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبى خالد به

(١) حال البحر : طينه الاسود .

موقوفا ، وقد روى من حديث أبي هريرة أيضا فقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا حكام عن عنبسة هو ابن أبي سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال لي جبريل يا محمد لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال[1] في فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » يعني فرعون . كثير بن زاذان هذا قال ابن معين لا أعرفه ، وقال أبو زرعة وأبو حاتم مجهول وباقي رجاله ثقات ، وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ونقل عن الضحاك بن قيس أنه خطب بهذا للناس فالله أعلم وقوله (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) قال ابن عباس وغيره من السلف إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع ليتحققوا موته وهلاكه ولهذا قال تعالى (فاليوم ننجيك) أي نرفعك على نشز من الأرض (ببدنك) قال مجاهد بجسدك ، وقال الحسن بجسم لا روح فيه ، وقال عبد الله بن شداد سويا صحيحا أي لم يتمزق ليحققوه ويعرفوه ، وقال أبو صخر بدرعك . وكل هذه الأقوال لا منافاة بينهما كما تقدم والله أعلم وقوله (لتكون لمن خلفك آية) أي لتكون لبني إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده وأنه لا يقوم لغضبه شيء ولهذا قرأ بعضهم (لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها ، وقد كان إهلاكهم يوم عشوراء كما قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي ﷺ لأصحابه « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه »

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية الدنيوية وقوله (مبوأ صدق) قيل هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فان الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها كما قال الله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانو يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانو يعرشون) وقال في الآية الأخرى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل)وقال(كم تركوا من جنات وعيون) الآيات ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة فنكل بنو اسرائيل عن قتالهم فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ففتح الله عليهم بيت المقدس واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر ثم عادت إليهم ثم أخذها ملوك اليونان فكانت أحكامهم مدة طويلة وبعث الله عيسى بن مريم عليه السلام في تلك المدة فاستعانت اليهود قبحهم الله على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه فرفعه الله إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو (وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلثمائة سنة دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية وكان فيلسوفا قبل ذلك فدخل في دين النصارى قيل تقية وقيل حيلة ليفسده فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة بدعوها وأحدثوها فبنى لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهيا كل والمعابد والقلايات وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان واشتهر على مافيه من تبديل وتغيير

(١) نسخة ابن جرير من حمئه .

وتحريف ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان فاتخذوا لهم الصوامع فى البرارى والمهامه والقفار ، واستحوذت يد النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم وكنائس بلاد بيت المقدس ومدن حوران كبصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة وعبدوا الصليب من حينئذ وصلوا إلى الشرق وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع فى دينهم والأصول ووضعوا له الأمانة الحقيرة التى يسمونها الكبيرة وصنفوا له القوانين وبسط هذا يطول . والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضى الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولله الحمد والمنة وقوله (ورزقناهم من الطيبات) أى الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا وقوله (فما اختلفوا حتى جاءهم العلم) أى ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم أى ولم يكن لهم أن يختلفوا وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس ،وقد ورد فى الحديث : أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقه وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة منها واحدة فى الجنة وثنتان وسبعون فى النار . قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « ما أنا عليه وأصحابى » رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ وهو فى السنن والمسانيد ولهذا قال الله تعالى (إن ربك يقضى بينهم) أى يفصل بينهم (يوم القيامة فيما كانو فيه يختلفون)

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

قال قتادة بن دعامة بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » وكذا قال ابن عباس وسعيد ابن جبير والحسن البصرى وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) الآية ثم مع هذا العلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) أى لا يؤمنون إيمانا ينفعهم بل حين لا ينفع نفساً إيمانها ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) كما قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ثم قال تعالى

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم كقوله تعالى (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وفى الحديث الصحيح « عرض على الأنبياء فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس والنبى يمر معه الرجل والنبى معه الرجلان والنبى ليس معه أحد» ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرة سدت الخافقين الشرقى والغربى ، والغرض ، أنه لم توجد قرية آمنت

بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس وهم أهل نينوى وما كان إيمانهم إلا تخوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم فعندها رحمهم الله وكشف عنهم العذاب وأخروا كما قال تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط ؟ على قولين (أحدهما) إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا كما هو مقيد فى هذه الآية (والثانى) فيهما لقوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلى حين) فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمان منقذ من العذاب الأخروى وهذا هو الظاهر والله أعلم . وقال قتادة فى تفسير هذه الآية لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله فى قلوبهم التوبة ولبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ، قال قتادة وذكر أن قوم يونس بنينوى أرض الموصل وكذا روى عن ابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف وكان ابن مسعود يقرؤها (فهلا كانت قرية آمنت) وقال أبو عمران عن أبى الجلد قال لما نزل بهم العذاب جعل يدور على رءوسهم كقطع الليل المظلم فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا علمنا دعاء ندعوا به لعل الله أن يكشف عنا العذاب فقال قولوا ياحى حين لا حى ، ياحى محيي الموتى ، يا حى لا إله إلا أنت ، قال فكشف عنهم العذاب . وتمام القصة سيأتى مفصلا فى سورة الصافات إن شاء الله

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (ولو شاء ربك) يامحمد لأذن لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) ولهذا قال تعالى (أفأنت تكره الناس) أى تلزمهم وتلجئهم (حتى يكونوا مؤمنين) أى ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله (يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) (لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين) (إنك لا تهدى من أحببت) (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد الهادى من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس) وهو الخبال والضلال (على الذين لا يعقلون) أى حجج الله وأدلته ، وهو العادل فى كل ذلك فى هداية من هدى وإضلال من ضل

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر فى آلائه وما خلق الله فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب ، مما فى السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما وإيلاج أحدهما

فى الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما فى البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا مسخر مذلل للسالكين يحمل سفنهم ويجرى بها برفق بتسخير القدير لا إله إلا هو ولا رب سواه . وقوله (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) أى وأى شىء تغنى الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون كقوله (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون) الآية . وقوله (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) أى فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم (قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا) أى ونهلك المكذبين بالرسل (كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين) حقا أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة كقوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وكما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أى أنه قال « إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت[1] غضبى »

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذى أوحاه الله إلى فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله وحده لا شريك له وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم فان كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرنى فانها لا تضر ولا تنفع وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له وأمرت أن أكون من المؤمنين وقوله (وأن أقم وجهك للدين حنيفا) الآية أى أخلص العبادة لله وحده حنيفا أى منحرفا عن الشرك ولهذا قال (ولا تكونن من الشركين) وهو معطوف على قوله (وأمرت أن أكون من المؤمنين) وقوله (وإن يمسسك الله بضر) الآية فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه فى ذلك أحد فهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له ، روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة صفوان بن سليم من طريق عبد الله بن وهب أخبرنى يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى عن صفوان بن سليم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم ، فان لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » ثم رواه من طريق الليث عن عيسى بن موسى عن صفوان عن رجل من أشجع عن أبى هريرة مرفوعا بمثله سواء وقوله (وهو الغفور الرحيم) أى لمن تاب إليه ولو من أى ذنب كان حتى من الشرك به فانه يتوب عليه

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ * وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾

يقول تعالى آمرا لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لامرية

(١) فى النسخة المكية : تغلب .

فيه ولا شك فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه (وما أنا عليكم بوكيل) أى وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى وقوله (واتبع ما يوحى إليك واصبر) أى تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك واصبر على مخالفة من خالفك من الناس (حتى يحكم الله) أى يفتح بينك وبينهم (وهو خير الحاكمين) أى خير الفاتحين بعدله وحكمته .

﴿ تفسير سورة هود عليه السلام وهى مكية ﴾

قال الحافظ أبو يعلى حدثنا خلف بن هشام البزار حدثنا أبو الأحوص عن أبى إسحق عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شيبك ؟ قال « شيبتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا أبو كريب محمد بن العلاء حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبى إسحق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت قال « شيبتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا حجاج بن الحسن حدثنا سعيد بن سلام حدثنا عمر بن محمد عن أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شيبتنى هود وأخواتها : الواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت » وفى رواية « هود وأخواتها » وقد روى من حديث ابن مسعود نحوه فقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى فى معجمه الكبير حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة حدثنا أحمد بن طارق الرابشى حدثنا عمرو بن ثابت عن أبى إسحق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن أبابكر قال يا رسول الله ما شيبك ؟ ، قال « هود والواقعة » . عمرو بن ثابت متروك وأبو إسحق لم يدرك ابن مسعود والله أعلم

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وبالله التوفيق ، وأما قوله (أحكمت آياته ثم فصلت) أى هى محكمة فى لفظها مفصلة فى معناها فهو كامل صورة ومعنى ، هذا معنى ماروى عن مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير . وقوله (من لدن حكيم خبير) أى من عند الله الحكيم فى أقواله ، وأحكامه خبير بعواقب الأمور (ألا تعبدوا إلا الله) أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له كقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقوله (إننى لكم نذير وبشير) أى إنى لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه كما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ؟ » فقالوا ما جربنا عليك كذبا قال « فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » وقوله (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) أى وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك (يمتعكم متاعا حسنا) أى فى الدنيا (إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله) أى فى الدار الآخرة قاله قتادة كقوله (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فلنحيينه حياة طيبة) الآيه وقد جاء فى الصحيح أن رسـول الله ﷺ قال لسعد « وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل فى فى امرأتك » وقال ابن جرير حدثنى المسيب بن شريك عن أبى بكر عن سعيد بن جبير عن ابن مسعود رضى الله عنه فى قوله (ويؤت كل ذى فضل فضله) قال من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات فإن عوقب بالسيئة التى كان عملها فى الدنيا بقيت له عشر حسنات وإن لم يعاقب بها فى الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول هلك من غلب آحاده على أعشاره ، وقوله (وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) هـذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى وكذب رسله فان العذاب يناله يوم القيامة لا محالة (إلى الله مرجعكم) أى معادكم يوم القيامة (وهو على كل شىء قدير) أى وهو القادر على مايشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب كما أن الأول مقام ترغيب .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

قال ابن عباس كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم فأنزل الله هذه الآية ، روى البخارى من طريق ابن جريج عن محمد بن عباد بن جعفر أن ابن عباس قرأ ألا إنهم تثنونى صدورهم ، الآية فقلت يا أبا العباس ما تثنونى صدورهم ؟ قال الرجل كان يجامع امرأته فيستحى أو يتخلى فيستحى فنزلت : ألا إنهم تثنونى صدورهم . وفى لفظ آخر له قال ابن عباس أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم ثم قال : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال قرأ ابن عباس . ألا إنهم تثنونى صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم . قال البخارى وقال غيره عن ابن عباس (يستغشون) يغطون رءوسهم ، وقال ابن عباس فى رواية أخرى فى تفسير هذه الآية يعنى به الشك فى الله وعمل السيئات وكذا روى عن مجاهد والحسن وغيرهم أى أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك فأخبرهم الله تعـالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل (يعلم مايسرون) من القول (وما يعلنون * إنه عليم بذات الصدور) أى يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر ، وما أحسن ما قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة

فلا تكتمن الله ما فى قلوبكم * ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر * ليوم حساب أو يعجل فينقم

فقد اعترف هذا الشاعر الجاهلى بوجود الصانع وعلمه بالجزئيات وبالمعاد وبالجزاء وبكتابة الأعمال فى الصحف ليوم القيامة ، وقال عبـد الله بن شداد : كان أحدهم إذا مر برسـول الله ﷺ ثنى عنه صدره وغطى رأسـه فأنزل الله ذلك ، وعود الضمير إلى الله أولى لقوله (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) وقرأ ابن عباس ألا إنهم تثنونى صدورهم برفع الصدور على الفاعلية وهو قريب المعنى

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

أخبر تعالى أنه متكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض صغيرها وكبيرها بحريها وبريها وأنه يعلم مستقرها ومستودعها أى يعلم أين منتهى سيرها فى الأرض وأين تأوى إليه من وكرها وهو مستودعها . وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس (ويعلم مستقرها) أى حيث تأوى (ومستودعها) حيث تموت ، وعن مجاهد (مستقرها) فى الرحم (ومستودعها) فى الصلب كالتى فى الأنعام ، وكذا روى عن ابن عباس والضحاك وجماعة ، وذكر ابن أبى حاتم أقوال المفسرين ههنا كما ذكره عند تلك الآية فالله أعلم ، وأن جميع ذلك مكتوب فى كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك كقوله

(ومامن دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون) وقوله (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ، ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولايابس إلا فى كتاب مبين)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شىء وأنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن جامع بن شداد عن صفوان بن محرز عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا قد بشرتنا فأعطنا ، قال « اقبلوا البشرى ياأهل اليمن » قالوا قد قبلنا . فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان ؟ قال « كان الله قبل كل شىء ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى اللوح المحفوظ ذكر كل شىء » قال : فأتانى آت فقال ياعمران انحلت ناقتك من عقالها ، قال فخرجت فى إثرها فلاأدرى ما كان بعدى ، وهذا الحديث مخرج فى صحيحى البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة فمنها قالوا جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال « كان الله ولم يكن شىء قبله - وفى رواية غيره - وفى رواية معه - وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ، ثم خلق السموات والأرض » وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » وقال البخارى فى تفسير هذه الآية : حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب أخبرنا أبوالزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل أنفق أنفق عليك » وقال « يدالله ملأى لايغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال « أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما فى يمينه وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع »

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا حماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدس عن عمه أبى رزين واسمه لقيط بن عامر بن المنفق العقيلى قال : قلت يارسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه قال « كان فى عماء ماتحته هواء ومافوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك » وقد رواه الترمذى فى التفسير وابن ماجه فى السنن من حديث يزيد بن هرون به وقال الترمذى هذا حديث حسن ، وقال مجاهد (وكان عرشه على الماء) قبل أن يخلق شيئا ، وكذا قال وهب بن منبه وضمرة وقتادة وابن جرير وغير واحد ، وقال قتادة فى قوله (وكان عرشه على الماء) ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض ، وقال الربيع بن أنس (وكان عرشه على الماء) فلما خلق السموات والأرض قسم ذلك الماء قسمين فجعل نصفاً تحت العرش وهو البحر المسجور . وقال ابن عباس إنما سمى العرش عرشا لارتفاعه ، وقال إسماعيل بن أبى خالد سمعت سعداً الطائى يقول : العرش ياقوتة حمراء ، وقال محمد بن إسحق فى قوله تعالى (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) فكان كما وصف نفسه تعالى إذ ليس إلا الماء وعليه العرش وعلى العرش ذو الجلال والاكرام ، والعزة والسلطان ، والملك والقدرة ، والحلم والعلم ، والرحمة والنعمة الفعال لما يريد ؟ وقال الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير قال : سئل ابن عباس عن قول الله (وكان عرشه على الماء) على أى شىء كان الماء ؟ قال على متن الريح ، وقوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أى خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ولا يشركوا به شيئا ولم يخلق ذلك عبثا كقوله (وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون

فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) الآية وقوله (ليبلوكم) أى ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل أكثر عملا ، بل أحسن عملا ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عزوجل على شريعة رسول الله ﷺ فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين حبط وبطل . وقوله (ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت) الآية يقول تعالى ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذى خلق السموات والأرض كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذى هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة كما قال تعالى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقولهم (إن هذا إلا سحر مبين) أى يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول ، وقوله (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة) الآية . يقول تعالى ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولن تكذيبا واستعجالا : ما يحبسه أى يؤخر هذا العذاب عنا فان سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد والأمة تستعمل فى القرآن والسنة فى معان متعددة فيراد بها الأمد كقوله فى هذه الآية (إلى أمة معدودة) وقوله فى يوسف (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) وتستعمل فى الإمام المقتدى به كقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتستعمل فى الملة والدين كقوله اخبارا عن المشركين إنهم قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) وتستعمل فى الجماعة كقوله (ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم كما فى صحيح مسلم « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى لا يؤمن بى إلا دخل النار » وأما أمة الأتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى الصحيح « فأقول أمتى أمتى » وتستعمل الأمة فى الفرقة والطائفة كقوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) الآية

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن الانسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل وكفر وجحود لماضى الحال كأنه لم ير خيرا ولم يرج بعد ذلك فرجا . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة (ليقولن ذهب السيئات عنى) أى يقول ما ينالنى بعد هذا ضيم ولا سوء (إنه لفرح فخور) أى فرح بما فى يده بطر فخور على غيره ، قال الله تعالى (إلا الذين صبروا) أى على الشدائد والمكاره (وعملوا الصالحات) أى فى الرخاء والعافية (أولئك لهم مغفرة) أى بما يصيبهم من الضراء (وأجر كبير) بما أسلفوه فى زمن الرخاء كما جاء فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » وفى الصحيحين « والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » ولهذا قال الله تعالى (والعصر إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر

وقال تعالى (إن الإنسان خلق هلوعا) الآيات

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم فى قوله (وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسوق ؟ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا * أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً) فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنينه عن دعائهم إلى الله عزوجل آناء الليل وأطرف النهار كما قال تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) الآية ، وقال ههنا (فلعك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا) أى لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة باخوانك من الرسل قبلك فانهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عزوجل ، ثم بين تعالى إعجاز القرآن وأنه لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين كما أن صفاته لاتشبه صفات المحدثات . وذاته لايشبهها شىء تعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو ولارب سواه ثم قال تعالى (فان لم يستجيبوا لكم) أى فان لم يأتوا بمعارضة مادعوتموهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله متضمن علمه وأمره ونهيه (وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة وحبط عمله الذى كان يعمله لا لتماس الدنيا وهو فى الآخرة من الخاسرين : وهكذا روى عن مجاهد والضحاك وغير واحد ، وقال أنس بن مالك والحسن: نزلت فى اليهود والنصارى ، وقال مجاهد وغيره: نزلت فى أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ويثاب عليها فى الآخرة ، وقد ورد فى الحديث المرفوع نحو من هذا ، وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التى فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها) الآية وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » الحديث . وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا » وفى المسند والسنن « كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه » الحديث، فالمؤمن باق على هذه الفطرة ، وقوله (ويتلوه شاهد منه) أى وجاءه شاهد من الله وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . ولهذا قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو العالية والضحاك وإبراهيم النخعى والسدى وغير واحد فى قوله تعالى (ويتلوه شاهد منه) انه جبريل عليه السلام ، وعن على رضى الله عنه والحسن وقتادة هو محمد صلى الله عليه وسلم وكلاهما قريب فى المعنى لأن كلا من جبريل ومحمد صلوات الله عليهما بلغ رسالة الله تعالى فجبريل إلى محمد ومحمد إلى الأمة ، وقيل هو علىّ وهو ضعيف لا يثبت له قائل والأول والثانى هو الحق ، وذلك أن المؤمن عنده من الفطرة ما يشهد للشريعة من حيث الجملة والتفاصيل تؤخذ من الشريعة والفطرة تصدقها وتؤمن بها ، ولهذا قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) وهو القرآن بلغه جبريل إلى النبى ﷺ وبلغه النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى أمته ، ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى) أى ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة (إماما ورحمة) أى أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماما لهم وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن ، ولهذا قال تعالى (أولئك يؤمنون به) ثم قال تعالى متوعدا لمن كذب بالقرآن أو بشىء منه (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) أى ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن كما قال تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى (قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) وقال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده). وفى صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار » وقال أيوب السختيانى عن سعيد ابن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم على وجهه إلا وجدت مصداقه أو قال تصديقه فى القرآن فبلغنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا دخل النار » فجعلت أقول أين مصداقه فى كتاب الله ؟ قال وقلما سمعت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وجدت له تصديقا فى القرآن حتى وجدت هذه الآية (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) قال من الملل كلها وقوله (فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك) الآية ، أى القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى (الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال تعالى (الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه) وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال تعالى (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ

كَفِرُونَ * أُوْلَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

يبين تعالى حال المفترين عليه وفضيحتهم فى الدار الآخرة على رءوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء وسائر البشر والجان كما قال الإمام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ، قال سمعته يقول « إن الله عزوجل يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فانى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول (الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) » الآية أخرجه البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث قتادة به وقوله (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا) أى يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عزوجل ويجنبونهم الجنة (ويبغونها عوجا) أى ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة (وهم بالآخرة هم كافرون) أى جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها (أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء) أى بل كانوا تحت قهره وغلبته وفى قبضته وسلطانه وهو قادر على الانتقام منهم فى الدار الدنيا قبل الآخرة (ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وفى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ولهذا قال تعالى (يضاعف لهم العذاب) الآية أى يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صما عن سماع الحق عميا عن اتباعه كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار كقوله (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وقال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) الآية ، ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه وعلى كل نهى ارتكبوه ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة وقوله (أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نارا حامية فهم معذبون فيها لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين كما قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) (وضل عنهم) أى ذهب عنهم (ما كانوا يفترون) من دون الله من الأنداد والأصنام فلم تجد عنهم شيئا بل ضرتهم كل الضرر كما قال تعالى (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقوله (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرهم ودمارهم ولهذا قال (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون) يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة فى الدار الآخرة لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن وعن شرب الرحيق المختوم . بسموم وحميم وظل من يحموم وعن الحور العين بطعام من غسلين وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

لما ذكرتعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا ورثوا الجنات ، المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات والحسان الخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم فى ذلك خالدون لايموتون ولا يهرمون ولا يمرضون وينامون ولايتغطون ولايبصقون ولايتمخطون ، إنهو إلارشح مسك يعرقون ؟ ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال (مثل الفريقين) أى الذين وصفهم أولا بالشقاء والمؤمنين بالسعادة فأولئك كالأعمى والأصم وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق فى الدنيا والآخرة لايهتدى إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ماينتفع به (ولوعلم الله فيهم خيراً لأسمعهم) الآية ، وأما المؤمن ففطن ذكى لبيب بصير بالحق يميزبينه وبين الباطل فيتبع الخير ويترك الشر سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة فلا يروج عليه باطل ، فهل يستوى هذا وهذا ؟ (أفلاتذكرون) أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلا كما قال فى الآية الأخرى (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وكقوله (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولاالنور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلاخلا فيهانذير)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه (إنى لكم نذير مبين) أى ظاهر النذارة لكم من عذاب الله إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال (أن لاتعبدوا إلا الله) وقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم) أى إن استمررتم على ماأنتم عليه عذبكم الله عذابا أليما موجعا شاقا فى الدار الآخرة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه) والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم (مانراك إلا بشرا مثلنا) أى لست بملك ولكنك بشر فكيف أوحى إليك من دوننا ثم مانراك اتبعك إلاالذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن ترو منهم ولافكر ولا نظر بل بمجرد مادعوتهم أجابوك فاتبعوك ولهذا قالوا (وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى) أى فى أول بادىء (وما نرى لكم علينا من فضل) يقولون مارأينا لكم علينا فضيلة فى خلق ولاخلق ولا رزق ولاحال لما دخلتم فى دينكم هذا (بل نظنكم كاذبين) أى فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة والسعادة فى الدار الآخرة إذ صرتم إليها ، هذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم فانه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فان الحق فى نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أوالأراذل بل الحق الذى لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء والذين يأبونه هم الأراذل ولو كانوا أغنياء ثم الواقع غالبا أن مايتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته كما قال تعالى و (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال بل ضعفاؤهم . فقال هرقل هم أتباع الرسل ، وقولهم بادى الرأى ليس بمذمة ولاعيب لأن الحق إذا وضح لايبقى للرأى ولاللفكر مجال بل لابد من اتباع الحق والحالةهذه لكل ذى ذكاء وذكاء بل لايفكرههنا إلا غبى أوعيي ، والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

إنما جاءوا بأمر جلي واضح . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فانه لم يتعلثم » أي ما تردد ولا تروى لأنه رأى أمرا جليا عظيما واضحا فبادر إليه وسارع وقوله: وما نرى لكم علينا من فضل هم لا يرون ذلك لأنهم عمى عن الحق لا يسمعون ولا يبصرون بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون وهم الأفاكون الكاذبون الأقلون الأرذلون وفي الآخرة هم الأخسرون

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما رد به نوح على قومه في ذلك (أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم (فعميت عليكم) أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها (أنلزمكموها) أي نغصبكم بقبولها وأنتم لها كارهون .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول لقومه لا أسألكم على نصحي لكم مالا: أجرة آخذها منكم إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل (وما أنا بطارد الذين آمنوا) كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاما ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلسا خاصا فأنزل الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) الآية وقال تعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين) الآية

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله له في ذلك ولا يسألهم على ذلك أجرا بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع فمن استجاب له فقد نجا ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه وليس هو بملك من الملائكة بل هو بشر مرسل مؤيد بالمعجزات ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم الله أعلم بما في أنفسهم فان كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى ولو قطع لهم أحد بشر بعد ما آمنوا لكان ظالما قائلا مالا علم له به

﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه ، والبلاء موكل بالمنطق . (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) أي حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك (فأتنا بما تعدنا) أي من النقمة والعذاب

ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به (إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين) أى إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذى لا يعجزه شىء (ولا ينفعكم نصحى أن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) أىأى شىء يجدى عليكم إبلاغى لكم وإنذارىإياكم ونصحى(ان كان الله يريد أن يغويكم) أىاغواءكم ودماركم (هو ربكم وإليه ترجعون) أى هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور، له الخلق وله الأمر وهو المبدىء المعيد مالك الدنيا والآخرة

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

هذا كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد لها . مقرر لها يقول تعالى لمحمد ﷺ أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون افترى هذا وافتعله من عنده(قل إن افتريته فعلى إجرامى) أى فإثم ذلك على (وأنا برىء مما تجرمون) أى ليس ذلك مفتعلا ولا مفترى لأنى أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمه الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبرا عنه أنه قال (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) فعند ذلك أوحى الله إليه (أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) فلا تحزن عليهم ولا يهمنك أمرهم (واصنع الفلك) يعنى السفينة (بأعيننا)أى بمرأى منا (ووحينا) أى تعليمنا لك ما تصنعه (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) فقال بعض السلف أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ويقطعه وييبسه فكان ذلك فى مائة سنة ونجرها فى مائة سنة أخرىوقيل فى أربعين سنة والله أعلم ، وذكر محمد بن إسحق عن التوراة أن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا وعرضها خمسين ذراعا وأن يطلى باطنها وظاهرها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤا أزورا يشق الماء ، وقال قتادة كان طولها ثلثمائة ذراع فى عرض خمسين وعن الحسن طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة وعنه مع ابن عباس طولها ألف ومائتا ذراع فى عرض ستمائة وقيل طولها ألفا ذراع وعرضها مائة ذراع فالله أعلم ، قالوا كلهم وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ثلاث طبقات كل طبقة عشرة أذرع فالسفلى للدواب والوحوش والوسطى للانس والعليا للطيور وكان بابها فى عرضها ولها غطاء من فوقها مطبق عليها ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرا غريبا من حديث على بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها قال فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال أتدرون ما هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم . قال هذا كعب حام بن نوح . قال فضرب الكثيب بعصاه قال قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب قال له عيسى عليه السلام أهكذا هلكت ؟ قال لا . ولكنى مت وأنا شاب ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت ، قال حدثنا عن سفينة نوح ؟ قال كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات فطبقة فيها الدواب والوحوش وطبقة فيها الإنس وطبقة فيها الطير فلما كثر روث الدواب أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام أن اغمز ذنب الفيل فغمزه

فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث فلما وقع الفأر بجوف السفينة يقرضها وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر ، فقال له عيسى عليه السلام كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت ؟ قال بعث الغراب يأتية بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت. قال ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها فعلم أن البلاد قد غرقت قال فطوقها الخضرة التى فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت قال فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له عد بإذن الله فعاد ترابا ، وقوله (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أى يهزءون به ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق (قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم) الآيه وعيد شديد وتهديد أكيد (من يأتيه عذاب يخزيه) أى يهينه فى الدنيا (ويحل عليه عذاب مقيم) أى دائم مستمر أبدا.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذى لا يقلع ولا يفتر ، بل هو كما قال تعالى (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر) وأما قوله (وفار التنور) فعن ابن عباس التنور وجه الأرض ، أى صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير التى هى مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف وعلماء الخلف ، وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه التنور فلق الصبح وتنوير الفجر وهو ضياؤه وإشراقه والأول أظهر وقال مجاهد والشعبى كان هذا التنور بالكوفة، وعن ابن عباس عين بالهند ، وعن قتادة عين بالجزيرة يقال لها عين الوردة وهذه أقوال غريبة فحينئذ أمر الله نوحا عليه السلام أن يحمل معه فى السفينة من كل زوجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل وغيرها من النباتات اثنين ذكرا وأنثى فقيل كان أول من أدخل من الطيور الدرة وآخر من أدخل من الحيوانات الحمار فتعلق إبليس بذنبه وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس وهو متعلق بذنبه فجعل يقول له نوح عليه السلام : مالك ويحك ادخل فينهض ولا يقدر فقال : ادخل وإن كان إبليس معك فدخلا فى السفينة ، وذكر بعض السلف أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم الأسد حتى ألقيت عليه الحمى .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى الليث حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين قال أصحابه وكيف تطمئن الواشى ومعها الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ثم شكوا الفأرة فقالوا الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها . وقوله (وأهلك إلا من سبق عليه القول) أى واحمل فيها أهلك وهم أهل بيته وقرابته إلا من سبق عليه القول منهم ممن لم يؤمن بالله فكان منهم ابنه يام الذى انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله ، وقوله (ومن آمن) أى من قومك (وما آمن معه إلا قليل) أى نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فعن ابن عباس كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار كانوا اثنين وسبعين نفسا . وقيل كانوا عشرة ، وقيل إنما كان نوح وبنوه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها والله أعلم وأحكم :

﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ

﴿ونَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَـٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ولَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾

يقول تعالى إخبار عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة (اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها) أى بسم الله يكون جريها على وجهه الماء ، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها ، وقرأ أبو رجاء العطاردى (بسم الله مجريها ومرسيها) وقال الله تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة وعلى الدابة كما قال تعالى (والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون لتستووا على ظهوره) الآية ، وجاءت السنة بالحث على ذلك والندب إليه كما سيأتى فى سورة الزخرف إن شاء الله وبه الثقة وقال أبو القاسم الطبرانى حدثنا إبراهيم بن هاشم البغوى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى وحدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا محمد بن موسى الحرشى قالا حدثنا عبد الحميد بن الحسن الهلالى عن نهشل بن سعيد عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا بسم الله الملك (وما قدرو الله حق قدره) -الآية- (بسم الله مجريها ومرساها أن ربى لغفور رحيم) » وقوله (إن ربى لغفور رحيم) مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله (إن ربك لسريع العقاب * وإنه لغفور رحيم) وقال (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب) إلى غير ذلك من الآيات التى يقرن فيها بين رحمته وانتقامه وقوله (وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) أى السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذى قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رءوس الجبال وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعا وقيل بثمانين ميلا ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء سائرة باذن الله وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه كما قال تعالى (إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكره وتعيها أذن واعية) وقال تعالى (وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آيه فهل من مدكر) وقوله (ونادى نوح ابنه) الآية ، هذا هو الابن الرابع واسمه يام وكان كافرا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون (قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وقيل إنه اتخذ له مركبا من زجاج وهذا من الاسرائيليات والله أعلم بصحته ، والذى نص عليه القرآن أنه قال (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رءوس الجبال ، وأنه لو تعلق فى رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ،فقال له أبوه نوح عليه السلام (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) أى ليس شىء يعصم اليوم من أمر الله . وقيل إن عاصما بمعنى معصوم كما يقال طاعم وكاس بمعنى مطعوم ومكسو (وحال بينها الموج فكان من المغرقين)

﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم الا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها واجتمع عليها، وأمر السماء أن تقلع عن المطر (وغيض الماء) أى شرع فى النقص (وقضى الأمر) أى فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منهم ديار (واستوت) السفينة بمن فيها (على الجودى) قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت وتواضع هو لله عزوجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام وقال قتادة استوت عليه شهرا حتى نزلوا منها ، قال قتادة . قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودى من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً

وقال الضحاك : الجودى جبل بالموصل وقال بعضهم : هو الطور ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عمرو بن رافع حدثنا محمد بن عبيد عن توبة بن سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلى فى الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته إنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغنى أن سفينة نوح أرست من ههنا . وقال علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم وإنهم كانوا فيها مائة وخمسين يوما وإن الله وجه السفينة إلى مكة فطافت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها الله إلى الجودى فاستقرت عليه فبعث نوح الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون فلطخت رجلها بالطين فعرف نوح عليه السلام أن الماء قد نضب فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها اللسان العربى ، فكان بعضهم لا يفقه كلام بعض فكان نوح عليه السلام يعبر عنهم . وقال كعب الأحبار : إن السفينة طافت ما بين المشرق والمغرب قبل أن تستقر على الجودى ، وقال قتادة وغيره ركبوا فى عاشر شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودى شهراً وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم ، وقد ورد نحو هذا فى حديث مرفوع رواه ابن جرير وأنهم صاموا يومهم ذلك والله أعلم .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو جعفر حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله عن شبل عن أبى هريرة قال : مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال « ماهذا الصوم ؟ » قالوا هذا اليوم الذى نجى الله به موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل : فقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم » فصام وقال لأصحابه « من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولبعضه شاهد فى الصحيح ، وقوله (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى هلاكا وخسارا لهم وبعدا من رحمة الله فانهم قد هلكوا عن آخرهم فلم يبق لهم بقية ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير والحبر أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من حديث يعقوب بن موسى الزمعى عن قائد مولى عبيد الله بن أبى رافع أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن النبى ﷺ قال « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى » قال رسول الله ﷺ «كان نوح عليه السلام مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يعنى وغرس مائة سنة الشجر فعظمت وذهبت كل مذهب ثم قطعها ثم جعلها سفينة ويمرون عليه ويسخرون منه ويقولون تعمل سفينة فى البر فكيف تجرى ؟ قال سوف تعلمون فلما فرغ ونبع الماء وصار فى السكك خشيت أم الصبى عليه وكانت تحبه حبا شديدا فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء ارتفعت حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد ابن جبير قصة هذا الصبى وأمه بنحو من هذا

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذى غرق (قال رب إن ابنى من أهلى) أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى ووعدك الحق الذى لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين (قال يانوح إنه ليس من أهلك) أى الذين وعدت إنجاءهم لأنى إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال (وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم) فكان هذا

الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحا عليه السلام ، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه وإنما كان ابن زنية ، ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله (إنه عمل غير صالح) وبقوله (فخانتاهما) فممن قاله الحسن البصري احتج بهاتين الآيتين وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد ما أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازا لكونه كان ربيبا عنده فالله أعلم . وقال ابن عباس وغير واحد من السلف ما زنت امرأة نبي قط قال: وقوله (إنه ليس من أهلك) أي الذين وعدتك نجاتهم ، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذي لا محيد عنه فان الله سبحانه أغير من أن يمكن امرأة نبي من الفاحشة ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبي ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه ولهذا قال تعالى (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم * لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴿إلى قوله﴾ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة وغيره عن عكرمة عن ابن عباس قال: هو ابنه غير أنه خالفه في العمل والنية قال عكرمة في بعض الحروف إنه عمل عملا غير صالح ، والخيانة تكون على غير باب ، وقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بذلك فقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعته يقول (ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً) ولا يبالي (إنه هو الغفور الرحيم) وقال أحمد أيضا حدثنا وكيع حدثنا هارون النحوي عن ثابت البناني عن شهر بن حوشب عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأها (إنه عمل غير صالح) أعاده أحمد أيضا في مسنده ، أم سلمة هي أم المؤمنين والظاهر والله أعلم أنها أسماء بنت يزيد فانها تكنى بذلك أيضا . وقال عبد الرزاق أيضا أنا الثوري عن ابن عيينة عن موسى ابن أبي عائشة عن سليمان بن قبة قال سمعت ابن عباس سئل وهو إلى جنب الكعبة عن قول الله (فخانتاهما) قال أما إنه لم يكن بالزنا ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون ، وكانت هذه تدل على الأضياف ثم قرأ (إنه عمل غير صالح) قال ابن عيينة وأخبرني عمار الذهبي أنه سأل سعيد بن جبير عن ذلك فقال: كان ابن نوح إن الله لا يكذب . قال تعالى (ونادى نوح ابنه) قال وقال بعض العلماء ما فجرت امرأة نبي قط . وكذا روى عن مجاهد أيضا وعكرمة والضحاك وميمون بن مهران وثابت بن الحجاج وهو اختيار أبي جعفر بن جرير وهو الصواب الذي لا شك فيه

﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه وعلى من معه من المؤمنين وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة كما قال محمد بن كعب دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة وقال محمد بن إسحق لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض الغمر الأكبر وأبواب السماء يقول الله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك) الآية فجعل الماء ينقص ويغيض ويدبر وكان استواء الفلك على الجودي فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه وفي أول يوم من الشهر العاشر رأى رؤوس الجبال فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي ركب فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما صنع الماء فلم يرجع اليه فأرسل الحمامة فرجعت اليه لم تجد لرجلها موضعا فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ثم مضى سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتون فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها

فلم ترجع فعلم نوح أن الأرض قد برزت فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنتين برز وجه الأرض وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك وفى الشهر الثانى من سنة اثنتين فى ست وعشرين ليلة منه (قيل يا نوح اهبط بسلام منا) الآية

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ هذه القصة وأشباهها (من أنباء الغيب) يعنى من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها كأنك شاهدها نوحيها إليك أى نعلمك بها وحيا منا إليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) أى لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها حتى يقول من يكذبك إنك تعلمتها منه بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك فانا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ونجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا) الآية وقال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) الآية وقال تعالى (فاصبر إن العاقبة للمتقين)

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى (و) لقد أرسلنا (إلى عاد أخاهم هودا) آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيا لهم عن الأوثان التى افتروها واختلفوا لها أسماء الآلهة وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره أفلا تعقلون من يدعوكم إلى ما يصلحكم فى الدنيا والآخرة من غير أجرة ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة وبالتوبة عما يستقبلون ، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه وسهل عليه أمره وحفظ شأنه ولهذا قال (يرسل السماء عليكم مدرارا) وفى الحديث « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم (ما جئتنا ببينة) أى بحجة وبرهان على ما تدعيه (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) أى بمجرد قولك اتركوهم نتركهم (وما نحن لك بمؤمنين) بمصدقين (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل فى عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها (قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه) يقول إنى برىء من جميع الأنداد والأصنام (فكيدونى جميعا) أى أنتم وآلهتكم إن كانت حقا (ثم لا تنظرون) أى طرفة عين وقوله (إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها) أى

تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذى لا يجور فى حكمه فانه على صراط مستقيم قال الوليد بن مسلم عن صفوان ابن عمرو عن أيفع بن عبد الكلاعى أنه قال فى قوله تعالى (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) قال فيأخذ بنواصى عباده فيلقن المؤمن حتى يكون له أشفق من الوالد لولده ويقول (ما غرك بربك الكريم) وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به وبطلان ماهم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى وإنما يستحق إخلاص العبادة الله وحده لا شريك له الذى بيده الملك وله التصرف وما من شىء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه فلا إله إلا هو ولا رب سواه

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

يقول لهم هود فإن تولوا عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بابلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها (ويستخلف ربى قوما غيركم)يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالى بكم فانكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم (إن ربى على كل شىء حفيظ) أى شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيرا فخيرا وإن شرا فشر (ولما جاء أمرنا) وهو الريح العقيم فأهلكهم الله عن آخرهم ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها وعصوا رسل الله وذلك أن من كفر بنبى فقد كفر بجميع الأنبياء لأنه لا فرق بين أحد منهم فى وجوب الإيمان به فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، فلهذا أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد (ألا إن عادا كفروا ربهم) الآية قال السدى ما بعث نبى بعد عاد إلا لعنوا على لسانه

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

يقول تعالى (و)لقد أرسلنا (إلى ثمود) وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينه وكانوا بعد عاد فبعث الله منهم(أخاهم صالحا)فأمرهم بعبادة الله وحده ولهذا قال (هو أنشأكم من الأرض) أى ابتدأ خلقكم منها خلق منها أباكم آدم (واستعمركم فيها) أى جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها (فاستغفروه) لسالف ذنوبكم (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه (إن ربى قريب مجيب) كما قال تعالى (وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) الآية

﴿ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم (قد كنت فينا مرجوا قبل هذا) أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) وما كان عليه أسلافنا (وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب) أي شك كثير (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي) فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان (وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته) وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني (غير تخسير) أي خسارة .

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته هاهنا وبالله التوفيق .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

يقول تعالى (ولما جاءت رسلنا) وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى قيل تبشره باسحق وقيل بهلاك قوم لوط ويشهد للاول قوله تعالى (ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط) (قالوا سلاما قال سلام) أي عليكم قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) أي ذهب سريعا فأتاهم بالضيافة وهو عجل فتى البقر: حنيذ: مشوي على الرضف وهي الحجارة المحماة . هذا معنى ماروى عن ابن عباس وقتادة وغير واحد كما قال في الآية الأخرى (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون) وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة وقوله (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم) نكرهم (وأوجس منهم خيفة) وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولايشتهونه ولا يأكلونه فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم (وأوجس منهم خفية) قال السدي لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صور رجال شبان حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه ، فلما رآهم أجلهم (فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين) فذبحه ثم شواه في الرضف وأتاهم به فقعد معهم وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول ـ وامرأته قائمة وهو جالس ـ في قراءة ابن مسعود (فلما قربه إليهم قال ألا تأكلون ؟) قالوا يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن، قال فان لهذا ثمنا، قالوا وما ثمنه ؟ قال تذكرون اسم الله على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال حق لهذا أن يتخذه ربه خليلا (فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم) يقول فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم وأوجس منهم خيفة ، فلما نظرت سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم ضحكت وقالت : عجبا لأضيافنا هؤلاء نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم وهم لا يأكلون

طعامنا ! وقال ابن حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس عن عثمان بن محيصن فى ضيف إبراهيم قال كانو أربعة : جبريل وميكائيل وإسرافيل ورفائيل . قال نوح بن قيس فزعم نوح بن أبى شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم فقرب إليهم العجل مسحه جبريل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمه وأم العجل فى الدار ، وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة (قالوا لا تخف) أى قالوا لا تخف منا إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم، فضحكت سارة استبشارا بهلاكهم لكثرة فسادهم وغلظ كفرهم وعنادهم فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس ، وقال قتادة ضحكت وعجبت أن قوما يأتيهم العذاب وهم فى غفلة ، وقوله (ومن وراء إسحق يعقوب) قال العوفى عن ابن عباس فضحكت أى حاضت ، وقول محمد بن قيس إنها إنما ضحكت من أنها ظنت أنهم يريدون أن يعملوا كما يعمل قوم لوط . وقول الكلبى إنها إنما ضحكت لما رأت من الروع بإبراهيم ضعفا ووجدا وإن كان ابن جرير قد رواهما بسنده إليهما فلا يلتفت إلى ذلك والله أعلم . وقول وهب بن منبه : إنما ضحكت لما بشرت بإسحق وهذا مخالف لهذا السياق فان البشارة صريحة مرتبة على ضحكها (فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) أى بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل فان يعقوب ولد إسحق كما قال فى آية البقرة (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذا قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحق الها واحدا ونحن له مسلمون) ومن ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحق لأنه وقعت البشارة به وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ووعد الله حق لا خلف فيه فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه ،فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه وأبينه ولله الحمد (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا) الآية حكى قولها فى هذه الآية كما حكى فعلها فى الآية الأخرى فانها (قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز) وفى الذاريات (فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) كما جرت به عادة النساء فى أقوالهن وأفعالهن عند التعجب (قالوا أتعجبين من أمر الله أى قالت الملائكة لها لا تعجبى من أمر الله فانه إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فلا تعجبى من هذا وإن كنت عجوزا عقيما وبعلك شيخا كبيرا فان الله على ما يشاء قدير (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت أنه حميد مجيد) أى هو الحميد فى جميع أفعاله وأقواله محمود ممجد فى صفاته وذاته ، ولهذا ثبت فى الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال « قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبرهيم إنك حميد مجيد »

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ* إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ* يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير فى الآية قال لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له (انا مهلكوا أهل هذه القرية) قال لهم أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن ؟ قالوا لا، قال أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا قال أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنا ؟ قالوا لا ، قال ثلاثون ؟ قالوا لا ، حتى بلغ خمسة قالوا لا قال؟ أرأيتكم أن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك (إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته) الآية فسكت عنهم واطمأنت نفسه ، وقال قتادة وغيره قريبا من هذا زاد ابن إسحق أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا ، قال فان كان فيها لوط يدفع به عنهم العذاب قالوا (نحن أعلم بمن فيها) الآية ، وقوله (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة ، وقد تقدم تفسيرها، وقوله تعالى (يا إبراهيم أعرض عن هذا

أنه قد جاء أمر ربك) الآية ، أى أنه قد نفذ فيهم القضاء وحقت عليهم الكلمة بالهلاك وحلول البأس الذى لا يرد عن القوم المجرمين

﴿ ولمَّا جَاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعد ما أعلموا إبراهيم بهلاكهم وفارقوه وأخبروه باهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فأتوا لوطا عليه السلام وهو على ما قيل فى أرض له وقيل فى منزله ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء (وقال هذا يوم عصيب) قال ابن عباس وغير واحد شديد بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك . وذكر قتادة أنهم أتوه وهو فى أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم فانطلق أمامهم وقال لهم فى أثناء الطريق كالمعرض لهم بان ينصرفوا عنه انه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء . ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات ، قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك ، وقال السدى خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار ولقوا بنت لوط تستقى فقالوا يا جارية هل من منزل ؟ فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم لا يأخذهم قومك وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاءوا يهرعون إليه وقوله (يهرعون إليه) أى يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) أى لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال وقوله (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) يرشدهم إلى نسائهم فان النبى للأمة بمنزلة الوالد فأرشدهم إلى ماهو أنفع لهم فى الدنيا والآخرة كما قال لهم فى الآية الأخرى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون) وقوله فى الآية الأخرى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أى ألم ننهك عن ضيافة الرجال (قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) وقال فى هذه الآية الكريمة (هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبى أبو أمته وكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج : أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض عليهم سفاحا . وقال سعيد بن جبير يعنى نساءهم هن بناته وهو أب لهم ويقال فى بعض القراءات (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا روى عن الربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم وقوله (فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى) أى اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم) أليس منكم رجل رشيد) أى فيه خير يقبل ما آمره به ويترك ما أنهاه عنه (قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق) أى إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن (وإنك لتعلم ما نريد) أى ليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأى حاجة فى تكرار القول علينا فى ذلك ؟ قال السدى (وإنك لتعلم ما نريد) إنما نريد الرجال

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطا توعدهم بقوله (لو أن لى بكم قوة) الآية أى لكنت نكلت بكم

وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسـول الله ﷺ قال « رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شـديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه » فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنهم لا وصول لهم إليه (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) وأمروه أن يسرى بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم أي يكون ساقة لأهله (ولا يلتفت منكم أحد) أي إذا سمعت ما نزل بهم ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين (إلا امرأتك) قال الأكثرون هو استثناء من المثبت وهو قوله (فأسر بأهلك) تقديره (إلا امرأتك) وكذلك قرأها ابن مسعود ، ونصب هؤلاء امرأتك لأنه من مثبت فوجب نصبه عندهم ، وقال آخرون من القراء والنحاة هو استثناء من قوله (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) فجوزوا الرفع والنصب . وذكر هؤلاء أنها خرجت معهم وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلها ثم قربوا له هلاك قومه تبشيرا له لأنه قال لهم أهلكوهم الساعة فقالوا (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) هذا وقوم لوط وقوف على الباب وعكوف قد جاءوا يهرعون إليه من كل جانب ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه وهم لا يقبلون منه بل يتوعدونه ويتهددونه فعند ذلك خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا وهم لا يهتدون الطريق كما قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر) الآية وقال معمر عن قتادة عن حذيفة بن اليمان قال كان إبراهيم عليه السلام يأتي قوم لوط فيقول أنهاكم الله أن تعرضوا لعقوبته فلم يطيعوه حتى إذا بلغ الكتاب أجله انتهت الملائكة إلى لوط وهو يعمل في أرض له فدعاهم إلى الضيافة فقالوا إنا ضيوفك الليلة وكان الله قد عهد إلى جبريل ألا يعذبهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث شهادات فلما توجه بهم لوط إلى الضيافة ذكر ما يعمل قومه من الشر فمشى معهم ساعة ثم التفت إليهم فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض شرا منهم أين أذهب بكم ؟ إلى قومي وهم أشر خلق الله ، فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوها هـذه واحدة ثم مشى معهم ساعة فلما توسط القرية وأشفق عليهم واستحيا منهم قال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أشر منهم إن قومي أشر خلق الله فالتفت جبريل إلى الملائكة فقال احفظوا هاتان اثنتان ، فلما انتهى إلى باب الدار بكى حياء منهم وشفقة عليهم فقال إن قومي أشر خلق الله ؟ أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ؟ ما أعلم على وجه الأرض أهل قرية شرا منهم . فقال جبريل للملائكة احفظوا هذه ثلاث قد حق العذاب فلما دخلوا ذهبت عجوزه عجوز السوء فصعدت فلوحت بثوبها فأتاها الفساق يهرعون سراعا قالوا ما عندك ؟ قالت ضيف لوط قوما ما رأيت قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحا منهم فهرعوا يسارعون إلى الباب فعالجهم لوط على الباب فدافعوه طويلا وهو داخل وهم خارج يناشدهم الله ويقول (هؤلاء بناتي هن أطهر لكم) فقام الملك فلز بالباب ـ يقول فشده ـ واستأذن جبريل في عقوبتهم فأذن الله له فقام في الصورة التي يكون فيها في السماء، فنشر جناحه ـ ولجبريل جناحان ـ وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا أجلى الجبين ورأسه حبك حبك مثل المرجان وهو اللؤلؤ كأنه الثلج ورجلاه إلى الخضرة فقال يا لوط (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) امض يا لوط عن الباب ودعني وإياهم ، فتنحى لوط عن الباب فخرج إليهم فنشر جناحه فضرب به وجوههم ضربة شدخ أعينهم فصاروا عميا لا يعرفون الطريق ، ثم أمر لوط فاحتمل بأهله في ليلته قال (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وروى عن محمد بن كعب وقتادة والسدي نحو هذا

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (فلما جاء أمرنا) وكان ذلك عند طلوع الشمس (جعلنا عاليها) وهي سدوم (سافلها) كقوله (فغشاها ما غشى) أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل وهي بالفارسية حجارة من طين قاله ابن عباس وغيره وقال بعضهم أي

من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين وقد قال فى الآية الأخرى حجارة من طين أى مستحجرة قوية شديدة ، وقال بعضهم مشوية ، وقال البخارى سجيل : الشديد الكبير ، سجيل وسجين اللام والنون أختان ، وقال تميم بن مقبل

ورجله يضربون البيض صاحية * ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وقوله (منضود) قال بعضهم منضودة فى السماء أى معدة لذلك وقال آخرون (منضود) أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم وقوله (مسومة) أى معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه وقال قتادة وعكرمة (مسومة) مطوقة بها نضح من حمرة وذكروا أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين فى القرى مما حولها فبينا أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره فتتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ، وقال مجاهد أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن قال ولما قلبها كان أول ماسقط منها شرفاتها ، وقال قتادة بلغنا أن جبريل أخذ بعروة القرية الوسطى ثم ألوى بها إلى جو السماء حتى سمع أهل السماء ضواغى كلابهم ثم دمر بعضها على بعض ثم اتبع شذاذ القوم صخراً قال وذكرلنا أنهم كانوا أربع قرى فى كل قرية مائة ألف وفى رواية ثلاث قرى الكبرى منها سدوم ، قال وبلغنا أن إبراهيم عليه السلام كان يشرف على سدوم ويقول سدوم يوم هالك وفى رواية عن قتادة وغيره بلغنا أن جبريل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وحجارتها وشجرها وجميع ما فيها فضمها فى جناحه فحواها وطواها فى جوف جناحه ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب وكانوا أربعة آلاف ألف ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة ودمدم بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها ثم أتبعها حجارة من سجيل ، وقال محمد بن كعب القرظى كانت قرى قوم لوط خمس قريات سدوم وهى العظمى وصعبه وصعود وعمرة ودوحاء احتملها جبريل بجناحه ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها ثم كفأها على وجهها ثم أتبعها الله بالحجارة يقول الله تعالى (جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل) فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات ، وقال السدى لما أصبح قوم لوط نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم ثم قلبها فقتلهم فذلك قوله (والمؤتفكة أهوى) ومن لم يمت حتى سقط للأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله فذلك قوله عز وجل (وأمطرنا عليهم) أى فى القرى حجارة من سجيل هكذا قال السدى وقوله (وما هى من الظالمين ببعيد) أى وما هذه النقمة ممن تشبه بهم فى ظلمهم ببعيد عنه ، وقد ورد فى الحديث المروى فى السنن عن ابن عباس مرفوعا «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به» وذهب الإمام الشافعى فى قول عنه وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصنا أو غير محصن عملا بهذا الحديث ، وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

يقول تعالى ولقد أرسلنا إلى مدين وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان . بلادا تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله اليهم شعيبا وكان من أشرفهم نسبا ، ولهذا قال (أخاهم شعيبا) يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له وينهاهم عن التطفيف فى المكيال والميزان (إنى أراكم بخير) أى فى معيشتكم ورزقكم

وإنى أخاف أن تسلبوا ماأنتم فيه بانتهاككم محارم الله (وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط) أى فى الدار الآخرة

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو فى الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق ، وقوله (بقية الله خير لكم) قال ابن عباس: رزق الله خير لكم وقال الحسن رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقال الربيع بن أنس وصية الله خير لكم ، وقال مجاهد طاعة الله وقال قتادة حظكم من الله خير لكم ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الهلاك فى العذاب والبقية فى الرحمة ، وقال أبو جعفر بن جرير (بقية الله خير لكم) أى مايفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس قال وقد روى هذا عن ابن عباس قلت ويشبه قوله تعالى (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) الآية وقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) أى برقيب ولا حفيظ أى افعلوا ذلك لله عز وجل لاتفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل

﴿ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾

يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله (أصلاتك) قال الأعمش أى قراءتك (تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) أى الأوثان والأصنام (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) فنترك التطفيف عن قولك وهى أموالنا نفعل فيها مانريد ، قال الحسن فى قوله (أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) أى والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ماكان يعبد آباؤهم ، وقال الثورى فى قوله (أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء) يعنون الزكاة (إنك لأنت الحليم الرشيد) قال ابن عباس وميمون ابن مهران وابن جريج وأسلم وابن جرير يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبحهم الله ولعنهم عن رحمته وقد فعل

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَٰحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم هل أرأيتم ياقوم إن كنت (على بينة من ربى) أى على بصيرة فيما أدعوا إليه (ورزقنى منه رزقا حسنا) قيل أراد النبوة وقيل أراد الرزق الحلال ويحتمل الأمرين ، وقال الثورى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) أى لا أنهاكم عن الشىء وأخالف أنا فى السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة فى قوله (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه يقول لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) أى فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدى وطاقتى (وما توفيقى) أى فى إصابة الحق فيما أريده (إلا بالله عليه توكلت) فى جميع أمورى (وإليه أنيب) أى أرجع قاله مجاهد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمه حدثنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلى عن حكيم بن معاوية عن أبيه أن أخاه مالكا قال يامعاوية إن محمدا أخذ جيرانى فانطلق إليه فانه قد كلمك وعرفك فانطلقت معه فقال : دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا فأعرض عنه فقام مغضبا فقال : أما والله لئن فعلت إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره وجعلت أجره وهويتكم فقال رسول الله « ماتقول ؟ » فقال إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره . قال فقال « أوقد قالوها — أى قائلهم —[1] ولئن فعلت ماذاك إلا على وما

(١) وفى نسخة الأزهر : أو قائلهم يعنى أوقالها قائلهم .

عليهم من ذلك من شيء أرسلوا له جيرانه » وقال أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : أخذ النبي ﷺ ناسا من قومي في تهمة فحبسهم فجاء رجل من قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب فقال يا محمد علام تحبس جيراني ؟ فصمت رسول الله ﷺ فقال : إن ناسا ليقولون إنك تنهى عن الشيء وتستخلي به فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما تقول » قال فجعلت أعرض بينهما كلاما مخافة أن يسمعها فيدعو على قومي دعوة لا يفلحون بعدها أبداً فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فهمها فقال « قد قالوها أو قائلها منهم والله لو فعلت لكان علي وما كان عليهم خلوا عن جيرانه » ومن هذا القبيل الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن عبد الملك بن سعيد بن سويد الأنصاري قال سمعت أبا حميد وأبا أسيد يقولون عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب فانا أولاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه » إسناده صحيح . وقد أخرج مسلم بهذا السند حديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل اللهم إني أسألك من فضلك » ومعناه والله أعلم مهما بلغكم عني من خير فأنا أولاكم به . ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال قتادة عن عروة عن الحسن العرني عن يحيى بن البزار عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت تنهى عن الواصلة ؟ قال نعم ، قالت فعله بعض نسائك ، فقال ما حفظت وصية العبد الصالح إذاً (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي سليمان الضبي قال كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز فيها الأمر والنهي فيكتب في آخرها وما كانت من ذلك إلا كما قال العبد الصالح (وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

يقول لهم (ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي) أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الاصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب وقال قتادة (وياقوم لا يجرمنكم شقاقي) يقول لا يحملنكم فراقي ، وقال السدي عداوتي ، على أن تمادوا في الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عوف الحمصي حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج حدثنا ابن أبي عيينه حدثني عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن أبي ليلى الكندي قال : كنت مع مولاي أمسك دابته وقد أحاط الناس بعثمان ابن عفان إذ أشرف علينا من داره فقال (يا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح) يا قوم لا تقتلوني إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا وشبك بين أصابعه ، وقوله (وما قوم لوط منكم ببعيد) قيل المراد في الزمان ، قال قتادة يعني إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل في المكان ويحتمل الأمران (واستغفروا ربكم) من سالف الذنوب (ثم توبوا إليه) فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة وقوله (إن ربي رحيم ودود) لمن تاب

﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

يقولون (يا شعيب ما نفقه) ما نفهم (كثيرا) من قولك (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال سعيد بن جبير والثوري وكان ضرير البصر ؟ وقال الثوري كان يقال له خطيب الأنبياء ؟ قال السدي (وإنا لنراك فينا ضعيفا) قال أنت واحد، وقال أبو روق يعنون ذليلا لأن عشيرتك ليسوا على دينك (ولو لا رهطك لرجمناك) أي قومك لولا معزتهم علينا

لرجمناك قيل بالحجارة وقيل لسببناك (وما أنت علينا بعزيز) أى ليس عندنا لك معزة (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) يقول أتتركونى لأجل قومى ولا تتركونى إعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة وقد اتخذتم جانب الله (وراءكم ظهريا) أى نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظمونه (إن ربى بما تعملون محيط) أى هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم

﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ * وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

لما يئس نبى الله شعيب من استجابتهم له قال يا قوم (اعملوا على مكانتكم) أى طريقتكم وهذا تهديد شديد (إنى عامل) على طريقتى (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) أى منى ومنكم (وارتقبوا) أى انتظروا (إنى معكم رقيب) قال الله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) وقوله جاثمين أى هامدين لا حراك بهم . وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفى الأعراف رجفة وفى الشعراء عذاب يوم الظلة وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه ففى الأعراف لما قالوا (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) ناسب أن يذكر هناك الرجفة فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التى استلبثتهم وأخمدتهم ، وفى الشعراء لما قالوا (فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) قال فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) وهذا من الأسرار الدقيقة ولله الحمد والمنة كثيرا دائما ، وقوله كأن لم يغنوا فيها) أى يعيشوا فى دارهم قبل ذلك (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) وكانوا جيرانهم قريبا منهم فى الدار وشبيها بهم فى الكفر وقطع الطريق وكانوا عربا مثلهم

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه (فاتبعوا أمر فرعون) أى منهجه ومسلكه وطريقته فى الغى (وما أمر فرعون برشيد) أى ليس فيه رشد ولا هدى . وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد ، وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ؛ وله فى ذلك الحظ الأوفر ، من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى (فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) وقال تعالى (فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود) وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين فى العذاب يوم القيامة كما قال تعالى (لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقال تعالى إخبارا عن الكفرة أنهم يقولون فى النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا أبو الجهم عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » وقوله

(وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة) الآية أى أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة فى الدنيا (ويوم القيامة بئس الرفد المرفود) قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة فتلك لعنتان ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (بئس الرفد المرفود) قال لعنة الدنيا والآخرة وكذا قال الضحاك وقتادة وهو كقوله (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون* وأتبعناهم فى هــذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) وقال تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

لما ذكر تعــالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم وكيف أهلك الـكافرين ونجى المؤمنين قال (ذلك من أنباء القرى) أى أخبارهم (نقصه عليك منها قائم)أى عامر (وحصيد) أى هالك (وما ظلمناهم) أى إذ أهلكناهم (ولـكن ظلموا أنفسهم) بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم (فما أغنت عنهم آلهتهم) أوثانهم التى يعبدونها ويدعونها (من دون الله من شىء) ما نفعوهم ولا أنقذوهم باهلاكهم (وما زادوهم غير تتبيب) قال مجاهد وقتادة وغيرهما أى غير تخسير وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا فى الدنيا والآخرة

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى وكما أهلـكنا أولئك القرون الظالمة المـكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم (إن أخذه أليم شديد) وفى الصحيحين عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة) الآية

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

يقول تعالى إن فى إهلاكنا الـكافرين وإنجائنا المؤمنين (لآية) أى عظة واعتبارا على صدق موعودنا فى الآخرة (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) وقال تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلـكن الظالمين) الآية وقوله (ذلك يوم مجموع له الناس) أى أولهم وآخرهم كقوله (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (وذلك يوم مشهود) أى عظيم تحضره الملائـكة ويجتمع فيه الرسل وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة إن تك حسنة يضاعفها ، وقوله (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتـكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة ولهذا قال (وما نؤخره إلا لأجل معدود) أى لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها (يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه) أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً) وقال (وخشعت الأصوات للرحمن)الآية . وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم» وقوله (فمنهم شقى وسعيد) أى فمن أهل الجمع شقى ومنهم سعيد كما قال (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده ثنا موسى بن حسان ثنا عبد الملك بن عمرو ثنا سليمان أبو سفيان ثنا عبدالله بن دينار عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت (فمنهم شقى وسعيد) سألت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله : علام نعمل ؟ على شىء قد فرغ منه أم على شىء لم يفرغ منه ، فقال «على شىء

قد فرغ منه يا عمر وجرت به الأقلام ، ولكن كل ميسر لما خلق له » ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾

يقول تعالى (لهم فيها زفير وشهيق) قال ابن عباس الزفير في الحلق والشهيق في الصدر أي تنفسهم زفير وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ما اختلف الليل والنهار ، وما سمر أبناء سمير وما لألأت العير بأذنابهم يعنون بذلك كله أبدا فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) قلت : ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرض الجنس لأنه لابد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) ولهذا قال الحسن البصري في قوله (ما دامت السموات والأرض) قال يقول سماء غير هذه السماء وأرض غير هذه فما دامت تلك السماء وتلك الأرض . وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سفيان بن حسين عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس قوله (مادامت السموات والأرض) قال لكل جنة سماء وأرض ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مادامت الأرض أرضا والسماء سماء . وقوله (إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد) كقوله (النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم) وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه زاد المسير ، وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه واختار هو ما نقله عن خالد بن معدان والضحاك وقتادة وابن سنان ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن أيضا أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعون في أصحاب الكبائر ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط وقال يوما من الدهر لا إله إلا الله كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ولا محيد له عنها ، وهذا الذي عليه كثير من العلماء قديماً وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة . وقد روي في تفسيرها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وابن مسعود وابن عباس و أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وجابر وأبي سعيد من الصحابة ، وعن أبي مجلز والشعبي وغيرهما من التابعين ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وإسحق بن راهويه وغيرهما من الأئمة في أقوال غريبة وورد حديث غريب في معجم الطبراني الكبير عن أبي أمامة صدى بن عجلان الباهلي ولكن سنده ضعيف والله أعلم. وقال قتادة: الله أعلم بثنياه ، وقال السدي هي منسوخة بقوله (خالدين فيها أبدا)

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

يقول تعالى (وأما الذين سعدوا) وهم أتباع الرسل (ففي الجنة) أي فمأواهم الجنة (خالدين فيها) أي ماكثين فيها أبدا (ما دامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك) معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائما ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصري هي في حق عصاة الموحدين الذين كانوا في النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله (عطاء غير مجذوذ) أي غير مقطوع قاله مجاهد وابن عباس وأبو العالية وغير واحد لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء بل ختم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار في النار دائما مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال (إن ربك فعال لما يريد) كما قال (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله

(عطاء غير مجذوذ) وقد جاء فى الصحيحين « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلاموت ، ويا أهل النار خلود فلاموت » وفى الصحيح أيضا « فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلاتهرموا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلاتسقموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلاتبأسوا أبدا »

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى (فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء) المشركون انه باطل وجهل وضلال فانهم إنما يعبدون مايعبد آباؤهم من قبل أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء فيعذبهم عذابا لايعذبه أحدا وان كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة . قال سفيان الثورى عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس (وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص) قال ماوعدوا من خير أوشر . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ومن كافر به فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يامحمد أسوة فلا يغيظنك تكذيبهم لك ولايهيدنك ذلك (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم) قال ابن جرير لولا ماتقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لايعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول اليه كما قال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فانه قد قال فى الآية الأخرى (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى * فاصبر على مايقولون) ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وان شرا فشر فقال (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير) أى عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها وفى هذه الآية قراآت كثيرة يرجع معناها إلى هذا الذى ذكرناه كما فى قوله تعالى (وإن كل لما جميع لدينا محضرون)

وقوله (ولاتركنوا إلى الذين ظلموا) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس لاتداهنوا وقال العوفى عن ابن عباس هو الركون إلى الشرك وقال أبو العالية لاترضوا بأعمالهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ولاتميلوا إلى الذين ظلموا وهذا القول حسن أى لاتستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم (فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون) أى ليس لكم من دونه من ولى ينقذكم ولاناصر يخلصكم من عذابه

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ومخالفة الأضداد ونهى عن الطغيان وهو البغى فانه مصرعة حتى ولو كان على مشرك وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد لايغفل عن شىء ولايخفى عليه شىء

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وأقم الصلاة طرفى النهار) قال يعنى الصبح والمغرب وكذا قال الحسن وعبد الرحمن

ابن زيد بن أسلم ، وقال الحسن فى رواية قتادة والضحاك وغيرهم هى الصبح والعصر وقال مجاهد هى الصبح فى أول النهار والظهر والعصر مرة أخرى (وزلفاً من الليل) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم يعنى صلاة العشاء وقال الحسن فى رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه (وزلفاً من الليل) يعنى المغرب والعشاء قال رسول الله ﷺ « هما زلفا الليل المغرب والعشاء » وكذا قال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة والضحاك إنها صلاة المغرب والعشاء ، وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان . صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ثم نسخ فى حق الأمة وثبت وجوبه عليه ثم نسخ عنه أيضا فى قول والله أعلم .

وقوله (إن الحسنات يذهبن السيئات) يقول إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا نفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد استحلفته فاذا حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « مامن مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له » وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال « من توضأ وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ماتقدم من ذنبه » وروى الإمام أحمد وأبو جعفر بن جرير من حديث أبى عقيل زهرة بن معبد أنه سمع الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء فى إناء أظنه سيكون فيه قدر مد فتوضأ ثم قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال « من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات » وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيئا ؟ » قالوا لا يارسول الله قال « كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا » وقال مسلم فى صحيحه حدثنا أبو الطاهر وهو ابن سعيد قالا حدثنا ابن وهب عن أبى صخر أن عمر بن إسحق مولى زائدة حدثه عن أبيه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عباس عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد أن أبارهم السمعى كان يحدث أن أباأيوب الأنصارى حدثه أن رسول الله ﷺ كان يقول « إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة » وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا أبى عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « جعلت الصلوات كفارات لما بينهن » فإن الله قال (إن الحسنات يذهبن السيئات)

وقال البخارى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) فقال الرجل يارسول الله ألى هذا ؟ قال « لجميع أمتى كلهم » هكذا رواه فى كتاب الصلاة وأخرجه فى التفسير عن مسدد عن يزيد بن زريع بنحوه ورواه مسلم وأحمد وأهل السنن إلا أباداود من طرق عن أبى عثمان النهدى واسمه عبدالرحمن بن مل به . ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وهذا لفظه من طرق عن سماك بن حرب أنه سمع إبراهيم بن يزيد يحدث عن علقمة والأسود عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله انى وجدت امرأة فى بستان ففعلت بها كل شىء غير أنى لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك فافعل بى ماشئت فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل . فقال عمر لقد استر الله عليه لو ستر على نفسه ، فأتبعه رسول الله ﷺ بصره

ثم قال « ردوه على » فردوه عليه فقرأ عليه (أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال معاذ وفى روايه عمر يا رسول الله أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال « بل للناس كافة » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا أبان بن إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا من أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه » قال قلنا وما بوائقه يانبى الله ؟ قال « غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراما فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث » وقال ابن جرير حدثنا أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم قال كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار فقال يارسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنى لم أواقعها فلم يدر رسول الله ما يجيبه حتى نزلت هذه الآية (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فدعاه رسول الله فقرأها عليه وعن ابن عباس أنه عمرو بن غزية الأنصارى التمار وقال مقاتل هو إبو نفيل عامر بن قيس الأنصارى وذكر الخطيب البغدادى أنه أبو اليسر كعب بن عمرو . وقال الإمام أحمد حدثنا يونس وعفان قالا حدثنا حماد يعنى ابن سلمة عن على بن زيد قال عفان أنبانا على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رجلا أتى عمر فقال إن امرأة جاءت تبايعه فأدخلتها الدولج فأصبت منها مادون الجماع ، فقال ويحك لعلها مغيبة فى سبيل الله ؟ قال أجل ، قال فائت أبا بكر فسله . قال فأتاه فسأله فقال لعلها مغيبة فى سبيل الله ؟ فقال مثل قول عمر ثم أتى النبى ﷺ فقال له مثل ذلك قال « فلعلها مغيبة فى سبيل الله » ونزل القرآن (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) إلى آخر الآية، فقال يارسول الله لى خاصة أم للناس عامة ؟ فضرب يعنى عمر صدره بيده وقال لا ولا نعمة عين بل للناس عامه فقال رسول الله ﷺ « صدق عمر » وروى الإمام أبو جعفر بن جرير من حديث قيس بن الربيع عن عثمان بن موهب موسى بن طلحة عن أبى اليسر كعب بن عمرو الأنصارى قال أتتنى امرأة تبتاع منى بدرهم تمرا فقلت إن فى البيت تمرا أجود من هذا فدخلت فأهويت إليها فقبلتها فأتيت عمر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحدا فلم أصبر حتى أتيت أبا بكر فسألته فقال اتق الله واستر على نفسك ولا تخبرن أحدا قال فلم أصبر حتى أتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال « أخلفت رجلا غازيا فى سبيل الله فى أهله بمثل هذا؟! » حتى ظننت أنى من أهل النار حتى تمنيت أنى أسلمت ساعتئذ فاطرق رسول الله ﷺ ساعة فنزل جبريل فقال أبو اليسر فجئت فقرأ على رسول الله (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) فقال إنسان يارسول الله له خاصة أم للناس عامة ؟ قال « للناس عامة » وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطنى حدثنا الحسين بن سهل المحاملى حدثنا يوسف بن موسى حدثنا جرير عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن معاذ بن جبل أنه كان قاعدا عند النبى ﷺ فجاء رجل فقال يارسول ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لاتحل له فلم يدع شيئا يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبى ﷺ توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل » فأنزل الله عزوجل هذه الآية يعنى قوله (وأقم الصلاة طرفى النهار) فقال معاذ أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال « بل للمسلمين عامة » ورواه ابن جرير من طرق عن عبد الملك بن عمير به . وقال عبد الرزاق حدثنا محمد بن مسلم عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة أن رجلا من أصحاب النبى ﷺ ذكر امرأة وهو جالس مع رسول الله فاستأذنه لحاجة فأذن له فذهب يطلبها فلم يجدها فأقبل الرجل يريد أن يبشر النبى ﷺ بالمطر فوجد المرأة جالسة على غدير فدفع فى صدرها وجلس بين رجليها فصار ذكره مثل الهدبة فقام نادما حتى أتى النبى ﷺ فأخبره بما صنع فقال له « استغفر ربك وصل أربع ركعات » قال وتلا عليه (وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل الآية . وقال ابن جرير حدثنى عبد الله بن أحمد بن سيبويه حدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنى عمرو بن الحارث حدثنى عبد الله بن سالم عن الزبيدى سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أقم فى حد الله ـ مرة أو اثنتين ـ فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ النبى ﷺ من الصلاة قال « أين هذا

الرجل القائل أقم فيّ حـد الله ؟ » قال أنا ذا . قال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفا ؟ قال نعم . قال « فانك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد » وأنزل الله على رسول الله (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا علي بن زيد عن أبي عثمان قال كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ثم قال أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا قلت ولم تفعله قال هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال: إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق. وقال (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال له يا معاذ « أتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » وقال أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أوصني ، قال « إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها » قال قلت يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال « هي أفضل الحسنات » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا هذيل بن إبراهيم الجماني حدثنا عثمان بن عبد الرحمن الزهري من ولد سعد بن أبي وقاص عن الزهري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » عثمان بن عبد الرحمن يقال له الوقاصي فيه ضعف . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا بشر بن آدم وزيد بن أخرم قالا حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا مستور بن عباد عن ثابت عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله ما تركت من حاجة ولا داجه فقال رسول الله ﷺ « تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ » قال بلى . قال « فان هذا يأتي على ذلك » تفرد به من هذا الوجه مستور

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله (الا قليلا) أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وفي الحديث « ان الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » ولهذا قال تعالى (فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم) وقوله (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) أي استمروا على ماهم عليه من المعاصي والمنكرات ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب (وكانوا مجرمين) ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين كما قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وقال (وما ربك بظلام للعبيد)

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحده من إيمان أو كفر كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من

فى الأرض كلهم جميعا) وقوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) أى ولا يزال الخلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم ، قال عكرمة مختلفين فى الهدى وقال الحسن البصرى مختلفين فى الرزق يسخر بعضهم بعضا ،والمشهور الصحيح الأول . وقوله (إلا من رحم ربك) أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين، أخبرتهم به رسل الله إليهم ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففاز بسعادة الدنيا والآخرة لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا « ان اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وان النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة واحدة » قالوا ومن هم يا رسول الله ؟ قال «ما أنا عليه وأصحابى » رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة، وقال عطاء (ولا يزالون مختلفين) يعنى اليهود والنصارى والمجوس إلا من رحم ربك) يعنى الحنيفية وقال قتادة أهل رحمة الله أهل الجماعة وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم ، وقوله (ولذلك خلقهم) قال الحسن البصرى فى رواية عنه وللاختلاف خلقهم ، وقال مكى بن أبى طلحة عن ابن عباس: خلقهم فريقين كقوله (فمنهم شقى وسعيد) وقيل للرحمة خلقهم قال ابن وهب أخبرنى مسلم بن خالد عن ابن أبى نجيح عن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا فقال طاوس اختلفتما وأكثرتما فقال أحد الرجلين لذلك خلقنا فقال طاوس : كذبت فقال أليس الله يقول (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال لم يخلقهم ليختلفوا ولكن خلقهم للجماعة والرحمة كما قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول إلى قوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وقيل بل المراد للرحمة والاختلاف خلقهم كما قال الحسن البصرى فى رواية عنه فى قوله (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال الناس مختلفون على أديان شتى (إلا من رحم ربك) فمن رحم ربك غير مختلف فقيل له لذلك خلقهم قال خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لعذابه وكذا قال عطاء بن أبى رباح والأعمش ، وقال ابن وهب سألت مالكا عن قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وقد اختار هذا القول ابن جرير وأبو عبيد الفراء وعن مالك فيما روينا عنه فى التفسير (ولذلك خلقهم) قال للرحمة وقال قوم للاختلاف وقوله (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ومنهم من يستحق النار وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس وله الحجة البالغة والحكمة التامة. وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشىء الله لها خلقا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك » .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين . كل هذا مما نثبت به فؤادك أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة ، وقوله (وجاءك فى هذه الحق) أى هذه السورة قاله ابن عباس ومجاهد وجماعة من السلف ، وعن الحسن فى رواية عنه وقتادة فى هذه الدنيا والصحيح فى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم وأهلك الكافرين جاءك فيها

قصص حق ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون وذكرى يتذكر بها المؤمنون

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد (اعملوا على مكانتكم)أى على طريقتكم ومنهجكم (إنا عاملون) أى على طريقتنا ومنهجنا (وانتظروا إنا منتظرون) أى (فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون) وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه . فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه ، وقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين ، وقال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن جعفر ابن سليمان عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن رباح عن كعب قال خاتمة التوراة خاتمة هود

﴿ تم تفسير سورة هود ﴾

﴿ تفسير سورة يوسف عليه السلام وهى مكية ﴾

روى الثعلبى وغيره من طريق سلام بن سليم ويقال سلم المدائنى وهو متروك عن هارون بن كثير وقد نص على جهالته أبو حاتم عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى أمامة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « علموا أرقاكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أوعلمها أهله أوما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلماً » وهذا من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية ، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير به ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضرى عن على ابن زيد بن جدعان ، وعن عطاء بن أبى ميمونة عن زر بن حبيش عن أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه ، وروى البيهقى فى الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها ما عندهم وهو من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقوله (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن المبين أى الواضح الجلى الذى يفصح عن الأشياء المبهمة ويفسرها ويبينها (إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها وأكثرها تأدية للمعانى التى تقوم بالنفوس فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك فى أشرف بقاع الأرض ، وابتدىء إنزاله فى أشرف شهور السنة وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال تعالى (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن ، وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية

ماروواه ابن جرير حدثنى نصر بن عبدالرحمن الأودى حدثنا حكام الرازى عن أيوب عن عمرو هو ابن قيس الملائى عن ابن عباس قال : قالوا يارسول الله صلى الله عليك وسلم لو قصصت علينا ؟ فنزلت (نحن نقص عليك أحسن القصص) ورواه من وجه آخر عن عمرو بن قيس مرسلا . وقال أيضا حدثنا محمد بن سعيد القطان حدثنا عمرو بن محمد أنبأنا خالد الصفار عن عمرو بن قيس عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم القرآن قال فتلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو قصصت علينا ؟ فأنزل الله عز وجل (الر تلك آيات الكتاب المبين) إلى قوله (لعلكم تعقلون) ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا يارسول الله لو حدثتنا فأنزل الله عز وجل (الله نزل أحسن الحديث) الآية وذكر الحديث ، ورواه الحاكم من حديث إسحق بن راهويه عن عمرو بن محمد القرشى المنقرى به ، وروى ابن جرير بسنده عن المسعودى عن عون بن عبد الله قال مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة فقالوا : يا رسول الله حدثنا فأنزل الله (الله نزل أحسن الحديث) ثم ملوا ملة أخرى فقالوا يارسول الله حدثنا فوق الحديث ودون القرآن يعنون القصص - فأنزل الله عز وجل (الر تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص) الآية فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث ، وأرادوا القصص فدلهم على أحسن القصص . ومما يناسب ذكره عند هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ماسواه من الكتب ماروواه الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان أنا هشيم أنبأنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال فغضب وقال «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ماوسعه إلا أن يتبعنى» وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن عبدالله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ ، قال عبد الله بن ثابت فقلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، قال فسرى عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال « والذى نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا عبدالغفار بن عبدالله بن الزبير حدثنا على بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحق عن خليفة بن قيس عن خالد بن عرفطة قال كنت جالسا عند عمر إذ أتى برجل من عبدالقيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال نعم ، قال وأنت النازل بالسوس؟ قال نعم ، فضربه بقناة معه ، قال فقال الرجل مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه (بسم الله الرحمن الرحيم * الر * تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون* نحن نقص عليك أحسن القصص - إلى قوله - لمن الغافلين) فقرأها عليه ثلاثا وضربه ثلاثا فقال له الرجل مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال أنت الذى نسخت كتاب دانيال ، قال مرنى بأمرك أتبعه ، قال انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ثم لاتقرأه ولا تقرئه أحدا من الناس فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة ثم قال اجلس فجلس بين يديه ، فقال انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله ﷺ « ماهذا فى يدك ياعمر ؟» قال قلت يارسول الله كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار أغضب نبيكم صلى الله عليه وسلم السلاح السلاح ، فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال « يا أيها الناس إنى قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون » قال عمر فقمت فقلت رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مختصرا من حديث عبد الرحمن بن إسحق به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وعبدالرحمن بن إسحق هو أبو شيبة الواسطى وقد

ضعفوه وشيخه . قال البخاري لا يصح حديثه ، قلت وقد روى له شاهد من وجه آخر فقال الحافظ أبو بكر أحمد بن إبراهيم الاسماعيلي أخبرني الحسن بن سفيان حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا إسحق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى حدثني عمرو بن الحارث حدثنا عبدالله بن سالم الأشعرى عن الزبيدى حدثنا سليم بن عامر أن جبير بن نفير حدثهم أن رجلين كانا بحمص في خلافة عمر رضي الله عنه فأرسل اليهما فيمن أرسل من أهل حمص وكانا قد اكتتبا من اليهود صلاصفة فأخذاها معهما يستفتيان فيها أمير المؤمنين يقولون : إن رضيها لنا أمير المؤمنين ازددنا فيها رغبة . وإن نهانا عنها رفضناها ، فلما قدما عليه قالا إنا بأرض أهل الكتاب وإنا نسمع منهم كلاما تقشعر منه جلودنا أفنأخذ منه أو نترك ؟ فقال لعلكما كتبتما منه شيئا فقالا : لا ، قال سأحدثكما : انطلقت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتيت خيبر فوجدت يهوديا يقول قولا أعجبني فقلت : هل أنت مكتبي مما تقول ، قال نعم فأتيت بأديم فأخذ يملى علي حتى كتبت في الأكراع فلما رجعت قلت يانبي الله وأخبرته قال « ائتني به » فانطلقت أرغب عن الشيء رجاء أن أكون جئت رسول الله ببعض ما يحب ؟ فلما أتيت به قال « اجلس اقرأ علي » فقرأت ساعة ثم نظرت إلى وجه رسول الله ﷺ فاذاهو يتلون فتحيرت من الفرق فما استطعت أن أجيز منه حرفا ، فلما رأى الذى بي رفعه ثم جعل يتبعه رسما رسما فيمحوه بريقه وهو يقول « لاتتبعوا هؤلاء فانهم قد هوكوا وتهوكوا » حتى محا آخره حرفا حرفا : قال عمر رضي الله عنه فلو علمت أنكما كتبتما منه شيئا جعلتكما نكالا لهذه الأمة ، قالا والله ما نكتب منه شيئا أبدا فخرجا بصلاصفتهما فحفرا لها فلم يألوا أن يعمقا ودفناها فكان آخر العهد منها ، وهكذا روى الثورى عن جابر بن يزيد الجعفي عن الشعبي عن عبدالله بن ثابت الأنصاري عن عمر بن الخطاب بنحوه ، وروى أبوداود في المراسيل من حديث أبي قلابة عن عمر نحوه والله أعلم

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ﴾

يقول تعالى اذكر لقومك يامحمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم » انفرد بإخراجه البخاري فرواه عن عبد الله بن محمد عن عبد الصمد به ، وقال البخاري أيضا حدثنا محمد أنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم ؟ قال « أكرمهم عندالله أتقاهم » قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال « فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله » قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا نعم قال « فخياركم في الجاهلية خياركم في الاسلام اذا فقهوا » ثم قال تابعه أبوأسامة عن عبيد الله . وقال ابن عباس رؤيا الأنبياء وحي ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن اخوته وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه . روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة وقيل ثمانين سنة وذلك حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وإخوته بين يديه (وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربي حقا) وقد جاء في حديث تسمية هذه الأحد عشر كوكبا فقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني على بن سعيد الكندى حدثنا الحكم بن ظهير عن السدى عن عبدالرحمن بن سابط عن جابر قال : أتى النبي ﷺ رجل من يهود يقال له بستانة اليهودى فقال له : يامحمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له ما أسماؤها ؟ قال فسكت النبي ﷺ ساعة فلم يجبه بشيء ونزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها قال فبعث رسول الله ﷺ إليه فقال « هل أنت مؤمن إذا أخبرتك بأسمائها ؟ » فقال نعم قال « جريان ، والطارق والذيال ، وذوالكنفات(١) ، وقابس ، ووثاب ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح وذوالفرع (٢) والضياء والنور(٣) » فقال اليهودى : إى والله إنها لأسماؤها . ورواه البيهقي في الدلائل من حديث سعيد بن منصور عن الحكم بن ظهير . وقد روى

(١) في النسخة الأميرية : ذوالكتفين . (٢) وفيها : والفرغ . (٣) الضياء والنور ، زيادة في النسخة المكية .

هذا الحديث الحافظان أبو يعلى الموصلي وأبو بكر البزار في مسنديهما ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، أما أبو يعلى فرواه عن أربعة من شيوخه عن الحكم بن ظهير به وزاد : قال رسول الله ﷺ « لما رآها يوسف قصها على أبيه يعقوب فقال له أبوه هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد ، -قال- والشمس أبوه والقمر أمه » تفرد به الحكم بن ظهير الفزاري وقد ضعفه الأئمة وتركه الأكثرون وقال الجوزجاني ساقط وهو صاحب حديث حسن يوسف ثم ذكر الحديث المروى عن جابر أن يهوديا سأل النبي ﷺ عن الكواكب التي رآها يوسف ما أسماؤها وأنه أجابه ثم قال تفرد به الحكم بن ظهير ، وقد ضعفه الأربعة

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا التي تعبيرها خضوع إخوته له وتعظيمهم إياه تعظيما زائداً بحيث يخرون له ساجدين إجلالا واحتراما وإكراما فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال له (لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا) أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها ، ولهذا ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ قال « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر وليتفل عن يساره ثلاثا وليستعذ بالله من شرها ولا يحدث بها أحداً فانها لن تضره » . وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنن من رواية معاوية بن حيدة (١) القشيري أنه قال : قال رسول الله ﷺ « الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر ، فاذا عبرت وقعت » ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فان كل ذي نعمة محسود »

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك (كذلك يجتبيك ربك) أي يختارك ويصطفيك لنبوته (ويعلمك من تأويل الأحاديث) قال مجاهد وغير واحد يعني تعبير الرؤيا (ويتم نعمته عليك) أي بارسالك والايحاء إليك ، ولهذا قال (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم) وهو الخليل (وإسحق) ولده وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح (إن ربك عليم حكيم) أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ * إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ * قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

يقول تعالى لقد كان في قصة يوسف وخبره مع إخوته آيات أي عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فانه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه (إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا) أي حلفوا فيما يظنون والله ليوسف وأخوه ، يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه (أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة) أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة (إن أبانا لفي ضلال مبين) يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة اخوة يوسف ، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنهم أوحي

---

(١) في الأميرية : ابن حيد

إليهم بعد ذلك وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط كما يقال للعرب قبائل وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم والله أعلم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) يقولون هذا الذى يزاحمكم فى محبة أبيكم لكم أعدموه من وجه أبيكم ليخلو لكم وحدكم إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه وتخلوا أنتم بأبيكم (وتكونوا من بعده قوما صالحين) فأضمروا التوبة قبل الذنب (قال قائل منهم) قال قتادة ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روبيل وقال السدى الذى قال ذلك يهوذا وقال مجاهد هو شمعون الصفا (لا تقتلوا يوسف) اى لا تصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ومن التمكين له ببلاد مصر والحكم بها فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله . قال قتادة وهى بئر بيت المقدس (يلتقطه بعض السيارة أى المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ولا حاجة إلى قتله (إن كنتم فاعلين) أى إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله مع حق الوالد على ولده ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه مع مكانه من الله ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين فقد احتملوا أمرا عظيما رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه

﴿ قَالُوا يَـٰأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه فى البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا ما بالك (لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون) وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له (أرسله معنا) أى ابعثه معنا (غدا نرتع ونلعب) وقرأ بعضهم بالياء (يرتع ويلعب) قال ابن عباس يسعى وينشط وكذا قال قتادة والضحاك والسدى وغيرهم (وإنا له لحافظون) يقولون ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك

﴿ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء (إنى ليحزننى أن تذهبوا به) أى يشق على مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع وذلك لفرط محبته له لما يتوسم فيه من الخير العظيم وشمائل النبوة والكمال فى الخلق والخلق صلوات الله وسلامه عليه . وقوله (وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون) يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة (لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون) يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن جماعة إنا إذا لهالكون عاجزون

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى فلما ذهب به إخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك (وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب) هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراما له وبسطا وشرحا لصدره وإدخالا للسرور عليه فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له. فذكر السدى وغيره أنه لم يكن بين إكرامهم له وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه وتواروا عنه ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه والفعل من ضرب ونحوه ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فغمره فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه يقال لها الراغوفة فقام فوقها وقوله (وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وانزاله اليسر فى حال العسر إنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق تطييبا لقلبه وتثبيتا له إنك لا تحزن مما أنت فيه فان لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع وقوله (وهم لا يشعرون) قال مجاهد وقتادة (وهم لا يشعرون) بإيحاء الله إليه وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك وهم لا يعرفونك ولا يستشعرون بك كما قال ابن جرير حدثنى الحارث ثنا عبد العزيز ثنا صدقة بن عبادة الأسدى عن أبيه سمعت ابن عباس يقول: لما دخل إخوة يوسف عليه فعرفهم وهم له منكرون قال جىء بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال إنه ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف يدنيه دونكم وأنكم انطلقتم به فألقيتموه فى غيابة الجب قال ثم نقره فطن قال فأتيتم أباكم فقلتم إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب قال فقال بعضهم لبعض إن هذا الجام ليخبره بخبركم قال ابن عباس رضى الله عنهما فلا نرى هذه الآية نزلت إلا فيهم لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون

﴿ وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَـٰأَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ * وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الذى اعتمده إخوة يوسف بعد ما ألقوه فى غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ويتغممون لأبيهم وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا (إنا ذهبنا نستبق) أى نترامى (وتركنا يوسف عند متاعنا) أى ثيابنا وأمتعتنا (فأكله الذئب) وهو الذى كان قد جزع منه وحذر عليه وقوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) تلطف عظيم فى تقرير ما يحاولونه يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين فكيف وأنت تتهمنا فى ذلك لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب فأنت معذور فى تكذيبك لنا لغرابة ما وقع وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا (وجاءوا على قميصه بدم كذب) أى مكذوب مفترى وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب وقد أصابه من دمه ولكنهم نسوا أن يخرقوه فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب بل قال لهم معرضا عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من لبسهم عليه (بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) أى فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه (والله المستعان على ما تصفون) أى على ما تذكرون من الكذب والمحال وقال الثورى عن سماك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وجاءوا على قميصه بدم كذب) قال لو أكله السبع لخرق القميص وكذا قال الشعبى والحسن وقتادة وغير واحد وقال مجاهد الصبر الجميل الذى لا جزع فيه وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى جبلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله (فصبر جميل) فقال صبر لا شكوى فيه ، وهذا مرسل . وقال عبد الرزاق قال الثورى عن بعض أصحابه أنه قال ثلاث من الصبر: أن لا تحدث

بوحمك ولا بمصيبتك ، ولا تزكى نفسك، وذكر البخارى ههنا حديث عائشة فى الافك حتى ذكر قولها والله لا أجدلى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون)

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عماجرى ليوسف عليه السلام فى الجب حين ألقاه إخوته وتركوه فى ذلك الجب وحيدا فريدا فمكث عليه السلام فى البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش ، وقال محمد بن إسحق لما ألقاه إخوته فى البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون ماذا يصنع وما يصنع به فساق الله له سيارة فنزلوا قريبا من تلك البئر وأرسلوا واردهم وهو الذى ينطلب لهم الماء فلما جاء ذلك البئر وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال (يا بشرى هـذا غلام) وقرأ بعض القراء يا بشراى فزعم السدى أنه اسم رجل ناداه ذلك الرجل الذى أدلى دلوه معلما له أنه أصاب غلاما وهذا القول من السدى غريب لأنه لم يسبق إلى تفسير هذه القراءة بهذا إلا فى رواية عن ابن عباس والله أعلم وإنما معنى القراءة على هذا النحو يرجع إلى القراءة الأخرى ويكون قد أضاف البشرى إلى نفسه وحذف ياء الإضافة وهو يريدها كما تقول العرب يا نفس اصبرى وياغلام أقبل بحذف حرف الاضافة ، ويجوز الكسر حينئذ والرفع وهذا منه ، وتفسرها القراءة الأخرى يا بشراى والله أعلم ، وقوله (وأسروه بضاعة) أى وأسره الواردون من بقية السيارة وقالوا اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره قاله مجاهد والسدى وابن جرير هذا قول، وقال العوفى عن ابن عباس قوله (وأسروه بضاعة) يعنى إخوة يوسف أسروا شأنه وكتموا أن يكون أخاهم وكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته واختار البيع فذكره إخوته لوارد القوم فنادى أصحابه (يابشرى هذا غلام) يباع فباعه إخوته وقوله (والله عليم بما يعملون) أى عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ذلك ليمضى ماقدره وقضاه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وفى هـذا تعريض لرسـوله محمـد ﷺ وإعلام له بأنى عالم بأذى قومك لك وأنا قادر على الانـكار عليهم ولكنى سأملى لهم ثم أجعل لك العاقبة والحكم عليهم كما جعلت ليوسف الحكم والعاقبة على إخوته . وقوله (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة) يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . قاله مجاهد وعكرمة ، والبخس: هو النقص كما قال تعالى (فلا يخاف بخسا ولا رهقا) أى اعتاض عنه إخوته بثمن دون قليل ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين أى ليس لهم رغبة فيه بل لو سألوه بلا شىء لأجابوا . قال ابن عباس ومجاهد والضحاك: إن الضمير فى قوله (وشروه) عائد على إخوة يوسف ، وقال قتادة بل هو عائد على السيارة والأول أقوى لأن قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه فترجح من هذا أن الضمير فى (شروه) إنما هو لإخوته وقيل المراد بقوله (بخس) الحرام ، وقيل الظلم وهذا وإن كان كذلك لكن ليس هو المراد هنا لأن هذا معلوم يعرفه كل أحد لأن ثمنه حرام على كل حال وعلى كل أحد لأنه نبى ابن نبى ابن نبى ابن خليل الرحمن فهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم وإنما المراد هنا بالبخس الناقص أو الزيوف أو كلاهما أى إنهم إخوته وقد باعوه ومع هذا بأنقص الأثمان ولهذا قال (دراهم معدودة) فعن ابن مسعود رضى الله عنه باعوه بعشرين درهما وكذا قال ابن عباس ونوف البكالى والسدى وقتادة وعطية العوفى وزاد اقتسموها درهمين درهمين ، وقال مجاهد اثنان وعشرون درهما، وقال محمد بن إسحق وعكرمة أربعون درهما وقال الضحاك فى قوله (وكانوا فيه من الزاهدين) وذلك أنهم لم يعلموا نبوته ومنزلته عند الله عز وجل، وقال مجاهد لما باعوه جعلوا يتبعونهم ويقولون لهم استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر فقال : من يبتاعنى وليبشر ؟ فاشتراه الملك وكان مسلماً

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذى اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح فقال لامرأته (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً) وكان الذى اشتراه من مصر عزيزها وهو الوزير بها . حدثنا العوفى عن ابن عباس وكان اسمه قطفير ، وقال محمد بن إسحق اسمه اطفير بن روحيب وهو العزيز وكان على خزائن مصر وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد رجل من العماليق قال واسم امرأته راعيل بنت رعابيل ، وقال غيره اسمها زليخا ، وقال محمدبن إسحق أيضاً عن محمد بن السائب عن أبى صالح عن ابن عباس كان الذى باعه بمصر مالك بن ذعر بن قريب بن عنقا بن مديان بن إبراهيم فالله أعلم وقال أبو إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته (أكرمى مثواه) والمرأة التى قالت لأبيها (يا أبت استأجره) الآية وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما . يقول تعالى كما أنقذنا يوسف من إخوته (كذلك مكنا ليوسف فى الأرض) يعنى بلاد مصر (ولنعلمه من تأويل الأحاديث) قال مجاهد والسدى هو تعبير الرؤيا (والله غالب على أمره) أى إذا أراد شيئاً فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف بل هو الغالب لما سواه ، قال سعيد بن جبير فى قوله (والله غالب على أمره) أى فعال لما يشاء ، وقوله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يقول لا يدرون حكمته فى خلقه وتلطفه وفعله لما يريد ، وقوله (ولما بلغ) أى يوسف عليه السلام (أشده) أى استكمل عقله وتم خلقه (آتيناه حكما وعلما) يعنى النبوة انه حباه بها بين أولئك الأقوام (وكذلك نجزى المحسنين) أى انه كان محسناً فى عمله عاملا بطاعة الله تعالى ، وقد اختلف فى مقدار المدة التى بلغ فيها أشده فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة ثلاث وثلاثون سنة وعن ابن عباس بضع وثلاثون ، وقال الضحاك عشرون ، وقال الحسن أربعون سنة ، وقال عكرمة خمس وعشرون سنة ، وقال السدى ثلاثون سنة ، وقال سعيد بن جبير ثمانى عشرة سنة ، وقال الإمام مالك وربيعة بن زيد بن أسلم والشعبى الأشد الحلم وقيل غير ذلك والله أعلم .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه فراودته عن نفسه أى حاولته على نفسه ودعته اليها وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها (وقالت هيت لك) فامتنع من ذلك أشد الامتناع و (قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى) وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير أى إن بعلك ربى أحسن مثواى أى منزلى وأحسن إلىّ فلا أقابله بالفاحشة فى أهله (إنه لا يفلح الظالمون) قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم ، وقد اختلف القراء فى قوله (هيت لك) فقرأه كثيرون بفتح الهاء وإسكان الياء وفتح التاء قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، وقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس هيت لك تقول هلم لك وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة ، قال عمرو بن عبيد عن الحسن وهى كلمة بالسريانية أى عليك ، وقال السدى هيت لك أى هلم لك وهى بالقبطية ، وقال مجاهد : هى لغة عربية تدعوه بها ، وقال البخارى وقال عكرمة هيت لك أى هلم لك بالحورانية . هكذا ذكره معلقاً وقد

أسنده الإمام أبوجعفر بن جرير حدثني أحمد بن سهل الواسطي حدثنا قرة بن عيسى حدثنا النضر بن على الجزرى عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله (هيت لك) قال هلم لك قال : هى بالحورانية ، وقال أبوعبيد القاسم بن سلام وكان الكسائى يحكى هذه القراءة يعنى هيت لك ويقول هى لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز ومعناها تعال ، وقال أبوعبيدة سألت شيخا عالما من أهل حوران فذكر أنها لغتهم يعرفها واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه .

أبلغ أمير المؤمنـ * ين أخى العراق إذا أتينا ... إن العراق وأهله * عنق إليك فهيت هيتا

بقول فتعال واقترب ، وقرأ ذلك آخرون هئت لك بكسر الهاء والهمز وضم التاء بمعنى تهيأت لك من قول القائل هئت بالأمر أهيء هئة ، وممن روى عنه هذه القراءة ابن عباس وأبو عبدالرحمن السلمى وأبووائل وعكرمة وقتادة وكلهم يفسرها بمعنى تهيأت لك . قال ابن جرير وكان أبوعمرو والكسائى ينكران هذه القراءة ، وقرأ عبدالله بن إسحق هيت بفتح الهاء وكسر التاء وهى غريبة ، وقرأ آخرون منهم عامة أهل المدينة هيت بفتح الهاء وضم التاء وأنشد قول الشاعر :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داع من العشيرة هيت

قال عبدالرزاق أنبأنا الثورى عن الأعمش عن أبى وائل قال : قال ابن مسعود وقد سمع القراء سمعتهم متقاربين فاقرءوا كما علمتم وإياكم والتنطع والاختلاف وإنما هو كقول أحدكم هلم وتعال . ثم قرأ عبدالله هيت لك فقال ياأباعبدالرحمن إن ناسا يقرءونها هيت قال عبدالله أن أقرأها كما علمت أحب إلىّ ، وقال ابن جرير حدثنى ابن وكيع حدثنا ابن عيينة عن منصور عن أبى وائل قال : قال عبدالله : هيت لك فقال له مسروق إن ناسا يقرءونها هيت لك فقال دعونى فإنى أقرأ كما أقرئت أحب إلىّ وقال أيضا حدثنى المثنى حدثنا آدم بن أبى إياس حدثنا شعبة عن شقيق عن ابن مسعود قال : هيت لك بنصب الهاء والتاء ولا تهمز ، وقال آخرون هيت لك بكسر الهاء وإسكان الياء وضم التاء ، قال أبو عبيد معمر بن المثنى هت لا تثنى ولا تجمع ولا تؤنث بل يخاطب الجميع بلفظ واحد فيقال هيت لك وهيت لكم وهيت لكما وهيت لكن وهيت لهن

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

اختلفت أقوال الناس وعباراتهم فى هذا المقام ، وقد روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وطائفة من السلف فى ذلك مارواه ابن جرير وغيره والله أعلم ، وقيل المراد بهمه بها خطرات حديث النفس حكاه البغوى عن بعض أهل التحقيق ثم أورد البغوى ههنا حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فانما تركها من جرائى فان عملها فاكتبوها بمثلها » وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها ، وقيل هم بضربها ، وقيل تمناها زوجة وقيل هم بها لولا أن رأى برهان ربه أى فلم يهم بها ، وفى هذا القول نظر من حيث العربية حكاه ابن جرير وغيره ، وأما البرهان الذى رآه ففيه أقوال أيضا فعن ابن عباس وسعيد ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة وأبى صالح والضحاك ومحمد بن إسحق وغيرهم رأى صورة أبيه يعقوب عاضا على اصبعه بفمه وقيل عنه فى رواية فضرب فى صدر يوسف . وقال العوفى عن ابن عباس رأى خيال الملك يعنى سيده وكذا قال محمد بن إسحق فيما حكاه عن بعضهم إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن أبى مودود سمعت من محمد بن كعب القرظى قال رفع يوسف رأسه الى سقف البيت فاذا كتاب فى حائط البيت (لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) وكذا رواه أبومعشر المدنى عن محمد بن كعب . وقال عبدالله بن وهب أخبرنى نافع بن يزيد عن أبى صخر قال سمعت القرظى يقول فى البرهان

الذى رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله (إن عليكم لحافظين) الآية وقوله (وما تكون فى شأن) الآية وقوله (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) قال نافع سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظى وزاد آية رابعة (ولا تقربوا الزنا) وقال الأوزاعى رأى آية من كتاب الله فى الجدار تنهاه عن ذلك. قال ابن جرير والصواب أن يقال إنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به، وجائز أن يكون صورة يعقوب وجائز أن يكون صورة الملك وجائز أن يكون مارآه مكتوبا من الزجر عن ذلك ولا حجة قاطعة على تعيين شىء من ذلك، فالصواب أن يطلق كما قال الله تعالى وقوله (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء) أى كما أريناه برهانا صرفه عما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء فى جميع أموره (إنه من عبادنا المخلصين) أى من المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب يوسف هارب والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت، فلحقته فى أثناء ذلك فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعا يقال إنه سقط عنه واستمر يوسف هاربا ذاهبا وهى فى إثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب فعند ذلك خرجت مما هى فيه بمكرها وكيدها وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها (ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً) أى فاحشة (إلا أن يسجن) أى يحبس (أو عذاب أليم) أى يضرب ضربا شديداً موجعا. فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق وتبرأ مما رمته به من الخيانة، و (قال) بارا صادقا (هى راودتنى عن نفسى) وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل) أى من قدامه (فصدقت) أى فى قولها إنه راودها على نفسها لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته فى صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت (وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين) وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه، وقد اختلفوا فى هذا الشاهد هل هو صغير أو كبير، على قولين لعلماء السلف فقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس (وشهد شاهد من أهلها) قال ذو لحية وقال الثورى عن جابر عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس كان من خاصة الملك وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومحمد بن إسحق وغيرهم إنه كان رجلا، وقال زيد بن أسلم والسدى كان ابن عمها، وقال ابن عباس كان من خاصة الملك وقد ذكر ابن إسحق أن زليخا كانت بنت أخت الملك الريان بن الوليد وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (وشهد شاهد من أهلها) قال كان صبيا فى المهد وكذا روى عن أبى هريرة وهلال ابن يساف والحسن وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم أنه كان صبيا فى الدار واختاره ابن جرير وقد ورد فيه حديث مرفوع فقال ابن جرير حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا حماد هو ابن سلمة أخبرنى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «تكلم أربعة وهم صغار» فذكر فيهم شاهد يوسف ورواه غيره عن حماد بن سلمة عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال «تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم» وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد كان من أمر الله تعالى ولم يكن

إنسيا وهذا قول غريب وقوله (فلما رأى قميصه قد من دبر) أى لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به (قال إنه من كيدكن) أى إن هذا البهت واللطخ الذى لطخت عرض هذا الشاب به من جملة كيدكن (إن كيدكن عظيم) ثم قال آمرا ليوسف عليه السلام بكتمان ما وقع (يوسف أعرض عن هذا) أى اضرب عن هذا صفحا أى فلا تذكره لأحد (واستغفرى لذنبك) يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلا أو أنه عذرها لأنها رأت مالا صبر لها عنه فقال لها استغفرى لذنبك أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو برىء منه (إنك كنت من الخاطئين)

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ * قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع فى المدينة وهى مصر حتى تحدث به الناس (وقال نسوة فى المدينة) مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرن على امرأة العزيز وهو الوزير ويعبن ذلك عليها (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) أى تحاول غلامها عن نفسه وتدعوه إلى نفسها (قد شغفها حبا) أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها وهو غلافه قال الضحاك عن ابن عباس: الشغف الحب القاتل والشغف دون ذلك والشغاف حجاب القلب (إنا لنراها فى ضلال مبين) أى فى صنيعها هذا من حبها فتاها ومراودتها إياه عن نفسه (فلما سمعت بمكرهن)قال بعضهم بقولهن ذهب الحب بها وقال محمد بن إسحق بل بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك (أرسلت إليهن) أى دعتهن إلى منزلها لتضيفهن (وأعتدت لهن متكأ) قال ابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد والحسن والسدى وغيرهم هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ولهذا قال تعالى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) وكان هذا مكيدة منها ومقابلة لهن فى احتيالهن على رؤيته (وقالت اخرج عليهن) وذلك أنها كانت قد خبأته فى مكان آخر (فلما) خرج و(رأينه أكبرنه) أى أعظمنه أى أعظمن شأنه وأجللن قدره وجعلن يقطعن أيديهن دهشا برؤيته وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين والمراد أنهن حززن أيديهن بها قاله غير واحد وعن مجاهد وقتادة قطعن أيديهن حتى ألقينها فالله أعلم . وقد ذكر غير واحد أنها قالت لهن بعدما أكلن وطابت أنفسهن ثم وضعت بين أيديهن أترجا وآتت كل واحد منهن سكينا هل لكن فى النظر إلى يوسف ؟ قلن نعم فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ثم أمرته أن يرجع ليرينه مقبلا ومدبرا فرجع وهن يحززن فى أيديهن فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن فقالت أنتن من نظرة واحدة فعلتن هذا فكيف ألام أنا ؟ (فقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم) ثم قلن لها وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذى رأينا ، لأنهن لم يرين فى البشر شبهه ولا قريبا منه فانه عليه السلام كان قد أعطى شطر الحسن كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح فى حديث الاسراء أن رسول الله ﷺ مر بيوسف عليه السلام فى السماء الثالثة قال « فاذا هو قد أعطى شطر الحسن » وقال حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال أعطى يوسف وأمه ثلث الحسن ، وقال أبو إسحق

أيضا عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : كان وجه يوسف مثل البرق وكانت المرأة إذا أتته لحاجة غطى وجهه مخافة أن تفتتن به ورواه الحسن البصرى مرسلا عن النبى ﷺ أنه قال « أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطى الناس الثلثين » أو قال « أعطى يوسف وأمه الثلثين والناس الثلث » وقال سفيان عن منصور عن مجاهد عن ربيعة الحرشى قال : قسم الحسن نصفين فأعطى يوسف وأمه سارة نصف الحسن . والنصف الآخر بين سائر الخلق . وقال الإمام أبوالقاسم السهيلى معناه أن يوسف عليه السلام كان على النصف من حسن آدم عليه السلام فان الله خلق آدم بيده على أكمل صورة وأحسنها ولم يكن فى ذريته من يوازيه فى جماله وكان يوسف قد أعطى شطر حسنه فلهذا قال هؤلاء النسوة عند رؤيته (حاش لله) قال مجاهد وغير واحد معاذ الله (ماهذا بشرا) وقرأ بعضهم ماهذا بشرى أى بمشترى بشراء (إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه) تقول هذا معتذرة اليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى فامتنع قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التى تخفى عنهن وهى العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعده (ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين) فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن و(قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه) أى من الفاحشة (وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن) أى إن وكلتنى إلى نفسى فليس لى منها قدرة ولا أملك لها ضرا ولا نفعا إلا بحولك وقوتك أنت المستعان وعليك التكلان فلاتكلنى إلى نفسى (أصب إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه) الآية ، وذلك أن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمة عظيمة وحماه فامتنع منها أشد الامتناع واختار السجن على ذلك وهذا فى غاية مقامات الكمال أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهى امرأة عزيز مصر وهى مع هذا فى غاية الجمال والمال والرياسة ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفا من الله ورجاء ثوابه

ولهذا ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله . ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود اليه . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لاتعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه »

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أى إلى مدة وذلك بعدما عرفوا براءته وظهرت الآيات وهى الأدلة على صدقه فى عفته ونزاهته وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب اليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدى أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها فى حقه ويبرأ عرضه فيفضحها

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال قتادة كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه . قال محمد بن إسحق كان اسم الذى على الشراب نبوا والآخر مجلث. قال السدى كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة وصدق الحديث وحسن السمت وكثرة العبادة صلوات الله عليه وسلامه . ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن وعيادة مرضاهم والقيام بحقوقهم . ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبا شديدا وقالا له : والله لقد أحببناك حبا زائدا . قال بارك الله فيكما إنه ما أحبنى أحد إلا دخل على من محبته

ضرر ، أحبتني عمتي فدخل علىّ الضرر بسببها ، وأحبني أبي فأوذيت بسببه ، وأحبتني امرأة العزيز فكذلك ، فقالا والله مانستطيع إلا ذلك ، ثم إنهما رأيا مناما فرأى الساقي أنه يعصر خمرا يعني عنبا وكذلك هي في قراءة عبدالله بن مسعود إني أراني أعصر عنبا ، ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن يزيد بن هرون عن شريك عن الأعمش عن زيد ابن وهب عن ابن مسعود أنه قرأها أعصر عنبا . وقال الضحاك في قوله (إني أراني أعصر خمرا) يعني عنبا ، قال وأهل عمان يسمون العنب خمرا ، وقال عكرمة : قال له إني رأيت فيما يرى النائم أني غرست حبلة من عنب فنبتت فخرج فيها عناقيد فعصرتهن ثم سقيتهن الملك فقال : تمكث في السجن ثلاثة أيام ثم تخرج فتسقيه خمرا . وقال الآخر وهو الخباز (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله) الآية والمشهور عند الأكثرين ماذكرناه أنهما رأيا مناما وطلبا تعبيره . وقال ابن جرير حدثنا وكيع وابن حميد قالا حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم عن عبد الله ابن مسعود قال : مارأى صاحبا يوسف شيئا إنما كانا تحالما ليجربا عليه

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم فانه عارف بتفسيره ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ولهذا قال (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) قال مجاهد يقول (لا يأتيكما طعام ترزقانه) في يومكما (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) وكذا قال السدي وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا محمد بن يزيد شيخ له حدثنا رشدين عن الحسن بن ثوبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : ما أدري لعل يوسف عليه السلام كان يعتاف وهو كذلك لأني أجد في كتاب الله حين قال للرجلين (لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله) قال إذا جاء الطعام حلوا أو مرا اعتاف عند ذلك . ثم قال ابن عباس إنما علم فعلم وهذا أثر غريب ثم قال وهذا إنما هو من تعليم الله إياي لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب) الآية يقول هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه مالم يكن يعلم ويجعله إماما يقتدى به في الخير وداعيا إلى سبيل الرشاد (ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس) هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له (من فضل الله علينا) أي أوحاه إلينا وأمرنا به (وعلى الناس) إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل (بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يجعل الجد أبا ويقول والله لمن شاء لاعنته عند الحجر ماذكر الله جدا ولا جدة قال الله تعالى يعني إخبارا عن يوسف (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب)

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ماسواه من الأوثان التى يعبدها قومهما فقال (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) أى الذى ذل كل شىء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال (ما أنزل الله بها من سلطان) أى حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلهذا كان أكثرهم مشركين (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقد قال ابن جريج إنما عدل بهم يوسف عن تعبير الرؤيا إلى هذا لأنه عرف أنها ضارة لأحدهما فأحب أن يشغلهما بغير ذلك لئلا يعاودوه فيها فعاودوه فأعاد عليهم الموعظة، وفى هذا الذى قاله نظر لأنه قد وعدهما أولا بتعبيرها ولكن جعل سؤالهما له على وجه التعظيم والاحترام وصلة وسببا إلى دعائهما إلى التوحيد والإسلام لما رأى فى سجيتهما من قبول الخير والاقبال عليه والإنصات إليه، ولهذا لما فرغ من دعوتهما شرع فى تعبير رؤياهما من غير تكرار سؤال فقال.

﴿ يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

يقول لهما (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا) وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا ولكنه لم يعينه لئلا يحزن ذاك ولهذا أبهمه فى قوله (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه) وهو فى نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه وهو واقع لامحالة لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فإذا عبرت وقعت، وقال الثورى عن عمارة بن القعقاع عن إبراهيم بن عبدالله قال: لما قالا ما قالا وأخبرهما قالا ما رأينا شيئا فقال (قضى الأمر الذى فيه تستفيان) ورواه محمد بن فضيل عن عمارة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به وكذا فسره مجاهد وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وحاصله أن من تحلم بباطل وفسره فانه يلزم بتأويله والله تعالى أعلم، وقد ورد فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبى ﷺ قال «الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فإذا عبرت وقعت» وفى مسند أبى يعلى من طريق يزيد الرقاشى عن أنس مرفوعا «الرؤيا لأول عابر»

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم — لئلا يشعره أنه المصلوب — قال له (اذكرنى عند ربك) يقول اذكر قصتى عند ربك وهو الملك فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبى الله من السجن هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله (فأنساه الشيطان ذكر ربه) عائد على الناجى كما قاله مجاهد ومحمد بن إسحق وغير واحد ويقال إن الضمير عائد على يوسف عليه السلام رواه ابن جرير عن ابن عباس ومجاهد أيضا وعكرمة وغيرهم وأسند ابن جرير ههنا حديثا فقال: حدثنا ابن وكيع حدثنا عمرو بن محمد عن إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعا قال: قال النبى ﷺ «لو لم يقل — يعنى يوسف — الكلمة التى قال ما لبث فى السجن طول ما لبث حيث يبتغى الفرج من عند غير الله» وهذا الحديث ضعيف جدا لأن سفيان بن وكيع ضعيف وإبراهيم بن يزيد هو الجوزى أضعف منه أيضا، وقد روى عن الحسن وقتادة مرسلا عن كل منهما وهذه المرسلات ههنا لا تقبل من قبل المرسل من حيث هو فى غير هذا الموطن والله أعلم، وأما البضع فقال مجاهد وقتادة: هو ما بين الثلاث إلى التسع، وقال وهب بن منبه: مكث أيوب فى البلاء سبعا

ويوسف فى السجن سبعا وعذب بختنصر سبعا ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما (فلبث فى السجن بضع سنين) قال ثنتا عشرة سنة ، وقال الضحاك أربعة عشرة سنة

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززا مكرما، وذلك أن الملك رأى هـذه الرؤيا فهالته وتعجب من أمرها وما يكون تفسيرها فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك واعتذروا إليه بأنها (أضغاث أحلام) أى أخلاط أحلام اقتضته رؤياك هذه (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) أى لو كانت رؤيا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها وهو تعبيرها فعند ذلك تذكر الذى نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا فى السجن مع يوسف وكان الشيطان قد أنساه ما وصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك تذكر بعد أمة أى مدة وقرأ بعضهم بعد أمه أى بعد نسيان فقال لهم أى للملك والذين جمعهم لذلك (أنا أنبئكم بتأويله) أى بتأويل هذا المنام (فأرسلون) أى فابعثون إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال (يوسف أيها الصديق أفتنا) وذكر المنام الذى رآه الملك فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى فى نسيانه ما وصاه به ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك بل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) أى يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ففسر البقر بالسنين لأنها تثير الأرض التى تشتغل منها الثمرات والزروع وهن السنبلات الخضر ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه فى تلك السنين فقال (فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون) أى مهما استغللتم فى هـذه السبع السنين الخصب فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه وليكن قليلا قليلا لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهن السبع السنين المحل التى تعقب هذه السبع المتواليات وهن البقرات العجاف اللاتى تأكل السمان لأن سنى الجدب يؤكل فيها ما جمعوه فى سنى الخصب وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئا وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شىء ولهذا قال (يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون) ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالى بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس أى يأتيهم الغيث وهو المطر وتغل البلاد ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه وسكر ونحوه حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضا . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وفيه يعصرون) يحلبون

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ

أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التي كان رآها بما أعجبه وأينقه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال (ائتونى به) أى أخرجوه من السجن وأحضروه فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلما وعدوانا فقال (ارجع إلى ربك) الآية وقد وردت السنة بمدحه على ذلك والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه. فى المسند والصحيحين من حديث الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذا قال (رب أرنى كيف تحيي الموتى) ـ الآية ـ ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى » وفى لفظ لأحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله (فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيدهن إن ربى بكيدهن عليم) فقال رسول الله ﷺ « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أجبتهم حتى أشترط أن يخرجونى ، ولقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر» هذا حديث مرسل وقوله تعالى (قال ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه) إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز فقال مخاطبا لهن كلهن وهو يريد امرأة وزيره وهو العزيز قال الملك للنسوة اللاتى قطعن أيديهن (ما خطبكن) أى شأنكن وخبركن (إذ راودتن يوسف عن نفسه) يعنى يوم الضيافة (قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء) أى قالت النسوة جوابا للملك حاش لله أن يكون يوسف متهما والله ما علمنا عليه من سوء فعند ذلك (قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد تقول الآن تبين الحق وظهر وبرز (أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين) أى فى قوله (هى راودتنى عن نفسى) (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) تقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ولا وقع المحذور الأكبر وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة (وأن الله لا يهدى كيد الخائنين * وما أبرىء نفسىء) تقول المرأة ولست أبرىء نفسى فان النفس تتحدث وتتمنى ولهذا راودته لأن (النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى) أى إلا من عصمه الله تعالى (إن ربى غفور رحيم) وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام وقد حكاه الماوردى فى تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس بن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة وقد قيل إن ذلك من كلام يوسف عليه السلام يقول (ذلك ليعلم أنى لم أخنه) فى زوجته (بالغيب) الآيتين أى إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى وليعلم العزيز (أنى لم أخنه) فى زوجته (بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين) الآية وهذا القول هو الذى لم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم سواه . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما جمع الملك النسوة فسألهن هل راودتن يوسف عن نفسه ؟ (قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق) الآية قال يوسف (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) فقال له جبريل عليه السلام : ولا يوم هممت بما هممت به ؟ فقال (وما أبرىء نفسى) الآية وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة

وابن أبى الهذيل والضحاك والحسن وقتادة والسدى والقول الأول أقوى وأظهر لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم بل بعد ذلك أحضره الملك

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن الملك حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال (ائتونى به أستخلصه لنفسى) أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى (فلما كلمه) أى خاطبه الملك وعرفه ورأى فضله وبراعته وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكمال قال له الملك (إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة فقال يوسف عليه السلام (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) مدح نفسه ويجوز للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة، وذكر أنه (حفيظ) أى خازن أمين (عليم) ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وقال شيبة بن نعامة : حفيظ لما استودعتنى عليم بسنى الجدب رواه ابن أبى حاتم وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ولما فيه من المصالح للناس وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد فأجيب إلى ذلك رغبة فيه وتكرمة له ولهذا قال تعالى

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض) أى أرض مصر (يتبوأ منها حيث يشاء) قال السدى وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يتصرف فيها كيف يشاء ، وقال ابن جرير يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار (نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) أى وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عزوجل السلام والنصر والتأييد (ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا كقوله فى حق سليمان عليه السلام (هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام. قاله مجاهد

وقال محمد بن إسحق لما قال يوسف للملك (اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) قال الملك قد فعلت فولاه فيما ذكروا عمل اطفير وعزل اطفير عما كان عليه ، يقول الله عزوجل (وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين) قال فذكر لى والله أعلم أن اطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف امرأة اطفير راعيل وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟ قال فيزعمون أنها قالت أيها الصديق لاتلمنى فانى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا وكان صاحبى لا يأتى النساء وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت ، فيزعمون أنه وجدها عذراء فأصابها فولدت له رجلين افرايثم بن يوسف وميشا بن يوسف وولد لافرايثم نون والد يوشع بن نون ورحمة امرأة أيوب عليه السلام ، وقال الفضيل بن عياض وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف فقالت : الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكا بطاعته ، والملوك عبيدا بمعصيته .

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ

لَكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ * فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ذكر السدى ومحمد بن إسحق وغيرهما من المفسرين أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر أن يوسف عليه السلام لما باشر الوزارة بمصر ومضت السبع السنين المخصبة ثم تلتها السبع السنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكمالها ووصل إلى بلاد كنعان وهى التى فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس فى غلاتهم وجمعها أحسن جمع فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم فكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة ، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة فى وسط النهار حتى يتكفأ الناس بما فى أيديهم مدة السبع سنين وكان رحمة من الله على أهل مصر . وما ذكره بعض المفسرين من أنه باعهم فى السنة الأولى بالأموال ، وفى الثانية بالمتاع وفى الثالثة بكذا . وفى الرابعة بكذا حتى باعهم بأنفسهم وأولادهم بعد ما تملك عليهم جميع ما يملكون ، ثم أعتقهم ورد عليهم أموالهم كلها ، الله أعلم بصحة ذلك وهو من الإسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب ، والغرض أنه كان فى جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم فى ذلك فانه بلغهم أن عزيز مصر يعطى الناس الطعام بثمنه فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاما وركبوا عشرة نفر واحتبس يعقوب عليه السلام عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف عليه السلام وكان أحب ولده إليه بعد يوسف ، فلما دخلوا على يوسف وهو جالس فى أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم وهم له منكرون أى لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون فى أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه ، فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم . فذكر السدى وغيره أنه شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا أيها العزيز إنا قدمنا للميرة ، قال فلعلكم عيون ؟ قالوا معاذ الله ، قال فمن أين أنتم ؟ قالوا من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله ، قال وله أولاد غيركم ؟ قالوا نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية وكان أحبنا إلى أبيه وبقى شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم (ولما جهزهم بجهازهم) أى أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم قال ائتونى بأخيكم هذا الذى ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم (ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟) يرغبهم فى الرجوع اليه ، ثم رهبهم فقال (فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) الآية . أى إن لم تقدموا به معكم فى المرة الثانية فليس لكم عندى ميرة (ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون) أى سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهودا لتعلم صدقنا فيما قلناه ، وذكر السدى أنه أخذ منهم رهائن حتى يقدموا به معهم وفى هذا نظر لأنه أحسن اليهم ورغبهم كثيرا وهذا لحرصه على رجوعهم (وقال لفتيانه) أى غلمانه (اجعلوا بضاعتهم) أى التى قدموا بها ليمتاروا عوضا عنها (فى رحالهم) أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون (لعلهم يرجعون) بها ، قيل خشى يوسف عليه السلام أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها ، وقيل تذمم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضا عن الطعام ، وقيل أراد أن يردهم إذا وجدوها فى متاعهم تحرجا وتورعا لأنه يعلم ذلك منهم والله أعلم

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

يقول تعالى عنهم إنهم رجعوا إلى أبيهم (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا

بنيامين لانكتل فأرسله معنا نكتل وإناله لحافظون ، قرأ بعضهم بالياء أى يكتل هو (وإناله لحافظون) أى لا تخف عليه فانه سيرجع اليك وهذا كما قالوا له فى يوسف (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإناله لحافظون) ولهذا قال لهم (هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عنى وتحولون بينى وبينه ؟ (فالله خير حافظا) وقرأ بعضهم حفظا (وهو أرحم الراحمين) أى هو أرحم الراحمين بى وسيرحم كبرى وضعفى ووجدى بولدى وأرجو من الله أن يرده على ويجمع شملى به إنه أرحم الراحمين .

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

يقول تعالى . ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم فلما وجدوها فى متاعهم (قالوا يا أبانا ما نبغى) أى ماذا نريد (هذه بضاعتنا ردت إلينا) كما قال قتادة . ما نبغى وراء هذا إن بضاعتنا ردت إلينا وقد أوفى لنا الكيل (ونمير أهلنا) أى إذا أرسلت أخانا معنا نأتى بالميرة إلى أهلنا (ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير) وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطى كل رجل حمل بعير ، وقال مجاهد حمل حمار ، وقد يسمى فى بعض اللغات بعيرا ، كذا قال (ذلك كيل يسير) هذا من تمام الكلام وتحسينه أى إن هذا يسير فى مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا (قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى تحلفون بالعهود والمواثيق (لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) إلا أن تغلبوا كلكم ولا تقدرون على تخليصه (فلما آتوه موثقهم) أكده عليهم فقال (الله على ما نقول وكيل) قال ابن إسحق وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بدا من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن يعقوب عليه السلام أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر أن لا يدخلوا كلهم من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة فانه كما قال ابن عباس ومحمد بن كعب ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد انه خشى عليهم العين وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه وروى ابن أبى حاتم عن إبراهيم النخعى فى قوله (وادخلوا من أبواب متفرقة) قال علم أنه سيلقى إخوته فى بعض تلك الأبواب وقوله (وما أغنى عنكم من الله من شىء) أى ان هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه فان الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع (إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) قالوا هى دفع إصابة العين لهم (وإنه لذو علم لما علمناه) . قال قتادة والثورى لذو عمل بعلمه ، وقال ابن جرير لذو علم لتعليمنا إياه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين وأدخلهم دار كرامته ومنزل ضيافته وأفاض عليهم الصلة والإلطاف والإحسان واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه وما جرى له وعرفه أنه أخوه ، وقال له لاتبتئس أى لا تأسف على ما صنعوا بى وأمره بكتمان ذلك عنهم وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززا مكرما معظما

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾

لما جهزهم وحمل لهم أبعرتهم طعاما أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية وهى إناء من فضة فى قول الأكثرين ، وقيل من ذهب قاله ابن زيد كان يشرب فيه ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ، وقال شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس صواع الملك قال : كان من فضة يشربون فيه وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله فى الجاهلية ، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحد ثم نادى مناد بينهم (أيتها العير إنكم لسارقون) فالتفتوا إلى المنادى وقالوا (ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك) أى صاعه الذى يكيل به (ولمن جاء به حمل بعير) وهذا من باب الجعالة (وأنا به زعيم) وهذا من باب الضمان والكفالة

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف (تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة أنا (ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى ليست سجايانا تقتضى هذه الصفة فقال لهم الفتيان (فما جزاؤه) أى السارق إن كان فيكم (إن كنتم كاذبين) أى أى شىء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟ (قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين) وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، وهذا هو الذى أراد يوسف عليه السلام ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه أى فتشها قبله تورية (ثم استخرجها من وعاء أخيه) فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم وإلزاما لهم بما يعتقدونه ولهذا قال تعالى (كذلك كدنا ليوسف) وهذا من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله (ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر قاله الضحاك وغيره وإنما قيض الله له أن التزم له اخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ولهذا مدحه الله تعالى فقال (نرفع درجات من نشاء) كما قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم) الآية (وفوق كل ذى علم عليم) قال الحسن البصرى ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل ، وكذا روى عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن عبد الأعلى الثعلبى عن سعيد بن جبير قال كنا عند ابن عباس فحدث بحديث عجيب فتعجب رجل فقال : الحمد لله فوق كل ذى علم عليم ، فقال ابن عباس بئس ما قلت ، الله العليم فوق كل عالم ، وكذا روى سماك عن عكرمة

عن ابن عباس (وفوق كل ذى علم عليم) قال يكون هذا أعلم من هذا وهذا أعلم من هذا والله فوق كل عالم وهكذا قال عكرمة وقال قتادة: وفوق كل ذى علم عليم. حتى ينتهى العلم إلى الله ، منه بدىء وتعلمت العلماء واليه يعود ، وفى قراءة عبد الله وفوق كل عالم عليم

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع بنيامين (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل يعنون به يوسف عليه السلام قال سعيد بن جبير عن قتادة كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجده أبى أمه فكسره ، وقال محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى أن عمته ابنة إسحق وكانت أكبر ولد إسحق وكانت عندها منطقة إسحق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختبأها ممن وليها كان له سلما لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وله فلم تحب أحدا حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام فأتاها فقال يا أخية سلمى إلىّ يوسف فوالله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت فوالله ما أنا بتاركته ثم قالت: فدعه عندى أياما أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة إسحق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت والله إنه لى لسلم أصنع فيه ما شئت فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وقوله (فأسرها يوسف فى نفسه) يعنى الكلمة التى بعدها وهى قوله (أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون) أى تذكرون قال هذا فى نفسه ولم يبده لهم وهذا من باب الاضمار قبل الذكر وهو كثير كقول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يجزى سنمار

وله شواهد كثيرة فى القرآن والحديث واللغة فى منثورها وأخبارها وأشعارها. قال العوفى عن ابن عباس (فأسرها يوسف فى نفسه) قال أسر فى نفسه (أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون)

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ ﴾

لما تعين أخذ بنيامين وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم (فقالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) يعنون وهو يحبه حبا شديدا ويتسلى به عن ولده الذى فقده (فخذ أحدنا مكانه)أى بدله يكون عندك عوضا عنه (إنا نراك من المحسنين) أى العادلين المنصفين القابلين للخير (قال معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى كما قلتم واعترفتم (إنا إذا لظالمون) أى إن أخذنا بريئا بسقيم[1] .

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ

(١) المناسب أن يقال : بمذنب او جان .

مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ * ٱرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَـٰٓأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ * وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه وعاهدوه على ذلك فامتنع عليهم ذلك (خلصوا) أى انفردوا عن الناس (نجيا) يتناجون فيما بينهم (قال كبيرهم) وهو روبيل وقيل يهوذا وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عند ماهموا بقتله قال لهم (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) لتردنه إليه فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ماتقدم لكم من إضاعة يوسف عنه (فلن أبرح الأرض) أى لن أفارق هذه البلدة (حتى يأذن لى أبى) فى الرجوع اليه راضياً عنى (أو يحكم الله لى) قيل بالسيف ، وقيل بأن يمكنى من أخذ أخى (وهو خير الحاكمين) ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ماوقع حتى يكون عذرا لهم عنده ويتنصلوا إليه ويبرؤا مما وقع بقولهم وقوله (وما كنا للغيب حافظين) قال قتادة وعكرمة : ماعلمنا أن ابنك سرق . وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : ماعلمنا فى الغيب أنه سرق له شيئا ، إنما سألنا ماجزاء السارق ؟ (واسأل القرية التى كنا فيها) قيل المراد مصر قاله قتادة وقيل غيرها (والعير التى أقبلنا فيها) أى التى رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا (وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ * قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) قال محمد ابن إسحق لما جاءوا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال (بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل) وقال بعض الناس لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه وصح قوله (بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل) ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة يوسف وأخاه بنيامين وروبيل الذى أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع اليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا إنه هو العليم) أى العليم بحالى (الحكيم) فى أفعاله وقضائه وقدره (وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف) أى أعرض عن بنيه وقال متذكرا حزن يوسف القديم الأول (يا أسفا على يوسف) جدد له حزن الابنين الحزن الدفين ، قال عبد الرزاق أنا الثورى عن سفيان العصفرى عن سعيد بن جبير أنه قال لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ، ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام (يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم) أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق . قاله قتادة وغيره ، وقال الضحاك فهو كظيم كئيب حزين

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن عن الأحنف بن قيس أن النبى ﷺ قال « إن داود عليه السلام قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحق ويعقوب فاجعلنى لهم رابعاً فأوحى الله تعالى اليه أن ياداود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر وتلك بلية لم تنلك وإن إسحق بذل مهجة دمه بسببى فصبر وتلك بلية لم تنلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر وتلك بلية لم تنلك » وهذا

مرسل وفيه نكارة فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح ، ولكن على بن زيد بن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم ، وأقرب ما في هذا أن الأحنف بن قيس رحمه الله حكاه عن بعض بنى إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما والله أعلم فان بنى إسرائيل ينقلون أن يعقوب كتب الى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له في رد ابنه ويذكر له انهم أهل بيت مصابون بالبلاء فابراهيم ابتلى بالنار وإسحق بالذبح ويعقوب بفراق يوسف في حديث طويل لا يصح والله أعلم ، فعند ذلك رق له بنوه وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه (تالله تفتؤ تذكر يوسف) أى لا تفارق تذكر يوسف (حتى تكون حرضاً) أى ضعيف القوة (أو تكون من الهالكين) يقولون إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف (قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) أى أجابهم عما قالوا بقوله (إنما أشكو بثى وحزنى) أى همى وما أنا فيه (إلى الله) وحده (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى أرجو منه كل خير ، وعن ابن عباس (وأعلم من الله مالا تعلمون) يعنى رؤيا يوسف أنها صدق وأن الله لا بد أن يظهرها ، وقال العوفى عنه فى الآية أعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأنى سوف أسجد له . وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا يحيى بن عبد الملك بن أبى غنية عن حفص بن عمر بن أبى الزبير عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « كان ليعقوب النبى عليه السلام أخ مؤاخ له فقال له ذات يوم ما الذى أذهب بصرك وقوس ظهرك ؟ قال أما الذى أذهب بصرى فالبكاء على يوسف وأما الذى قوس ظهرى فالحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا يعقوب إن الله يقرئك السلام ويقول لك أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى ؟ فقال يعقوب إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل عليه السلام الله أعلم بما تشكو » وهذا حديث غريب فيه نكارة :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ * فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام إنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين والتحسس يكون فى الخير والتجسس يكون فى الشر ، ونهضهم وبشرهم وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله أى لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فانه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. وقوله (فلما دخلوا عليه) تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف (قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام (وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل قاله مجاهد والحسن وغير واحد وقال ابن عباس الردىء لا ينفق مثل خلق الغرارة والحبل والشىء ، وفى رواية عنه الدراهم الرديئة التى لا تجوز إلا بنقصان وكذا قال قتادة والسدى وقال سعيد بن جبير هى الدراهم الفسول. وقال أبو صالح :هو الصنوبر وحبة الخضراء وقال الضحاك كاسدة لا تنفق وقال أبو صالح جاءوا بحب البطم الأخضر والصنوبر ، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشىء كما قال حاتم طىء

ليبك على ملحان ضيف مدافع * وأرملة تزجى مع الليل أرملا

وقال أعشى بنى ثعلبة الواهب المائة الهجان وعبدها * عوذا تزجى خلفها أطفالها

وقوله إخبارا عنهم (فأوف لنا الكيل) أى أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك وقرأ ابن مسعود فأوقر ركابنا وتصدق علينا وقال ابن جريج وتصدق علينا برد أخينا إلينا وقال سعيد بن جبير والسدى (وتصدق علينا) يقولون تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة وتجوز فيها وسئل سفيان بن عيينة هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ فقال ألم تسمع قوله (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى

المتصدقين) رواه ابن جرير عن الحارث عن القاسم عنه . وقال ابن جرير حدثنا الحارث حدثنا القاسم حدثنا مروان ابن معاوية عن عثمان بن الأسود سمعت مجاهدا وسئل هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه : اللهم تصدق على ؟ قال نعم إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ * قَالُوٓا أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ * قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته وبدره البكاء فتعرف إليهم فيقال إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة وقال (هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه (إذ أنتم جاهلون) أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى ارتكبتموه كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل وقرأ (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) الآية والظاهر والله أعلم أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له فى ذلك كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك والله أعلم ولكن لما ضاق الحال واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق كما قال تعالى (فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) فعند ذلك قالوا (أئنك لأنت يوسف ؟) وقرأ أبى بن كعب (إنك لأنت يوسف) وقرأ ابن محيصن (أنت يوسف) والقراءة المشهورة هى الأولى لأن الاستفهام يدل على الاستعظام أى أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام (أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى) . وقوله (قد من الله علينا) أى بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) الآية يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق والسعة والملك والتصرف والنبوة أيضا على قول من لم يجعلهم أنبياء وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا فى حقه (قال لا تثريب عليكم اليوم) يقول أى لا تأنيب عليكم ولا عتب عليكم اليوم ولا أعيد عليكم ذنبكم فى حق بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال (يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) قال السدى اعتذروا إلى يوسف فقال (لا تثريب عليكم اليوم) يقول لا أذكر لكم ذنبكم وقال ابن إسحق والثورى (لا تثريب عليكم) أى لا تأنيب عليكم اليوم عندى فيما صنعتم (يغفر الله لكم) أى يستر الله عليكم فيما فعلتم (وهو أرحم الراحمين)

﴿ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ * وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

يقول اذهبوا بهذا القميص (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) وكان قد عمى من كثرة البكاء (وأتونى بأهلكم أجمعين أى بجميع بنى يعقوب (ولما فصلت العير)أى خرجت من مصر(قال أبوهم) يعنى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) تنسبونى إلى الفند والكبر . قال عبد الرزاق أنبأنا إسرائيل عن أبى سنان عن عبد الله بن أبى الهذيل قال سمعت ابن عباس يقول : ولما فصلت العير قال لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال(إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون)قال فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام وكذا رواه سفيان الثورى

وشعبة وغيرهما عن أبى سنان به ، وقال الحسن وابن جريج كان بينهما ثمانون فرسخا وكان بينه وبينه منذ افترقا ثمانون سنة وقوله (لولا أن تفندون) قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وسعيد بن جبير تسفهون ، وقال مجاهد أيضا والحسن تهرمون وقولهم (إنك لفى ضلالك القديم) قال ابن عباس لفى خطئك القديم وقال قتادة أى من حب يوسف لاتنساه ولا تسلاه قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبى الله ﷺ وكذا قال السدى وغيره .

﴿ فَلَمَّا أَن جَآءَ الْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

قال ابن عباس والضحاك (البشير) البريد ، وقال مجاهد والسدى كان يهوذا بن يعقوب قال السدى إنما جاء به لأنه هو الذى جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيرا وقال لبنيه عند ذلك (ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) أى أعلم أن الله سيرده إلى وقلت لكم (إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له (ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) أى من تاب إليه تاب عليه قال ابن مسعود وإبراهيم التيمى وعمرو بن قيس وابن جريج وغيرهم أرجأهم إلى وقت السحر وقال ابن جرير حدثنى أبو السائب حدثنا ابن إدريس سمعت عبد الرحمن بن إسحق يذكر عن محارب بن دثار قال كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنسانا يقول : اللهم دعوتنى فأجبت وأمرتنى فأطعت وهذا السحر فاغفر لى قال فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود فسأل عبد الله عن ذلك فقال إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله (سوف أستغفر لكم ربى) وقد ورد فى الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة كما قال ابن جرير أيضا حدثنى المثنى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن أبو أيوب الدمشقى حدثنا أبو الوليد أنبأنا ابن جريج عن عطاء وعكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ « (سوف أستغفر لكم ربى) يقول حتى تأتى ليلة الجمعة وهو قول أخى يعقوب لبنيه » وهذا غريب من هذا الوجه وفى رفعه نظر والله أعلم

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لإخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين فتحملوا عن آخرهم وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقى نبى الله يعقوب عليه السلام ويقال إن الملك خرج أيضا لتلقيه وهو الأشبه وقد أشكل قوله (آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر) على كثير من المفسرين فقال بعضهم هذا من المقدم والمؤخر ومعنى الكلام (وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ورد ابن جرير هذا وأجاد فى ذلك ثم اختار ما حكاه عن السدى أن يوسف آوى اليه أبويه لما تلقاهما ثم لما وصلوا باب البلد قال (ادخلوا مصر إن شاء آمنين) وفى هذا نظر أيضا لأن الإيواء إنما يكون فى المنزل كقوله (آوى إليه أخاه) وفى الحديث « من آوى محدثا » وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أى مما كنتم فيه من الجهد والقحط ويقال والله أعلم إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التى دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال « اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع

يوسف » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه وأرسلوا أباسفيان فى ذلك فدعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه عليه السلام وقوله (آوى إليه أبويه) قال السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما كان أباه وخالته وكانت أمه قد ماتت قديما ، وقال محمد بن إسحق وابن جرير كان أبوه وأمه يعيشان قال ابن جرير ولم يقم دليل على موت أمه ، وظاهر القرآن يدل على حياتها وهذا الذى نصره هو المنصور الذى يدل عليه السياق وقوله (ورفع أبويه على العرش) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى السرير أى أجلسهما معه على سريره (وخروا له سجداً) أى سجد له أبواه وإخوته الباقون وكانوا أحد عشر رجلا (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى التى كان قصها على أبيه من قبل (إنى رأيت أحد عشر كوكباً) الآية وقد كان هذا سائغا فى شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا فى هذه الملة وجعل السجود مختصا بجناب الرب سبحانه وتعالى هذا مضمون قول قتادة وغيره ، وفى الحديث أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال « ماهذا يامعاذ ؟ » فقال إنى رأيتهم يسجدون لأساقفهم وأنت أحق أن يسجد لك يارسول الله فقال « لو كنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » وفى حديث آخر : أن سلمان لقى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طرق المدينة وكان سلمان حديث عهد بالاسلام فسجد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال « لا تسجدلى ياسلمان واسجد للحى الذى لايموت » والغرض أن هذا كان جائزا فى شريعتهم ولهذا خروا له سجدا فعندها قال يوسف (يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) أى هذا ما آل إليه الأمر فان التأويل يطلق على مايصير إليه الأمر كما قال تعالى (هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله) أى يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر وقوله (قد جعلها ربى حقا) أى صحيحة صدقا يذكر نعم الله عليه (وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) أى البادية قال ابن جريج وغيره كانوا أهل بادية وماشية ، وقال كانوا يسكنون بالعربات من أرض فلسطين من غور الشام ، قال وبعض يقول كانوا بالأولاج من ناحية شعب أسفل من حسمى وكانوا أصحاب بادية وشاء وإبل ، (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء) أى إذا أراد أمرا قيض له أسبابا وقدره ويسره (إنه هو العليم) بمصالح عباده (الحكيم) فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره ومايختاره ويريده ، قال أبو عثمان النهدى عن سلمان كان بين رؤيا يوسف وتأويلها أربعون سنة قال عبد الله بن شداد وإليها ينتهى أقصى الرؤيا رواه ابن جرير وقال أيضا حدثنا عمر بن على حدثنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا هشام عن الحسن قال كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه وماعلى وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب ، وقال هشيم عن يونس عن الحسن ثلاث وثمانون سنة ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة فغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة فمات وله عشرون ومائة سنة وقال قتادة كان بينهما خمس وثلاثون سنة وقال محمد بن إسحق : ذكروا والله أعلم ان غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمانى عشرة سنة ، قال وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها ، وأن يعقوب عليه السلام بقى مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة ثم قبضه الله إليه . وقال أبو إسحق السبيعى عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال : دخل بنو إسرائيل مصر وهم ثلاثة(١) وستون إنسانا وخرجوا منها وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا ، وقال أبو إسحق عن مسروق دخلوا وهم ثلثمائة وتسعون بين رجل وامرأة فالله أعلم . وقال موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى عن عبد الله بن شداد اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانا صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم وخرجوا منها وهم ستمائة ألف ونيف .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(١) فى النسخة المكية ثلاثمائة وستون .

هذا دعاء من يوسف الصديق دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته وما منّ الله به عليه من النبوة والملك، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه قاله الضحاك، وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول « اللهم في الرفيق الأعلى » ثلاثا ويحتمل أنه سأل الوفاة على الاسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزاً كما يقول الداعي لغيره أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغا في ملتهم كما قال قتادة قوله (توفني مسلما وألحقني بالصالحين) لما جمع الله شمله وأقر عينه وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها اشتاق الى الصالحين قبله، وكان ابن عباس يقول ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السلام، وكذا ذكر ابن جرير والسدى عن ابن عباس أنه أول نبي دعا بذلك وهذا يحتمل أنه أول من سأل الوفاة على الاسلام كما أن نوحا أول من قال (رب اغفرلي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا) ويحتمل أنه أول من سأل إنجاز ذلك وهو ظاهر سياق قول قتادة، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ « لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فان كان ولا بد متمنيا الموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي » وأخرجاه في الصحيحين، وعندهما « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به إما محسنا فيزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب، ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا معاذ بن رفاعة حدثني على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ورققنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء وقال ياليتني مت، فقال النبي ﷺ « ياسعد أعندي تتمنى الموت؟ » فردد ذلك ثلاث مرات ثم قال « ياسعد إن كنت خلقت للجنة فما طال من عمرك وحسن من عملك فهو خير لك » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو يونس هو مسلم بن جبير عن أبي هريرة عن النبي ﷺ

أنه قال « لايتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ولا يدع به من قبل أن يأتيه إلا أن يكون قد وثق بعمله، فإنه إذا مات أحدكم انقطع عنه عمله وإنه لايزيد المؤمن عمله إلا خيرا » تفرد به أحمد، وهذا فيما إذا كان الضر خاصا به، وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت كما قال الله تعالى إخبارا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين) وقالت مريم لما أجاءها المخاض وهو الطلق إلى جذع النخلة (ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا) لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة لأنها لم تكن ذات زوج وقد حملت ووضعت وقد قالوا (يامريم لقد جئت شيئا فريا يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) فجعل الله لها من ذلك الحال فرجا ومخرجا وأنطق الصبي في المهد بأنه عبد الله ورسوله فكان آية عظيمة ومعجزة باهرة صلوات الله وسلامه عليه. وفي حديث معاذ الذي رواه الإمام أحمد والترمذي في قصة المنام والدعاء الذي فيه « وإذا أردت بقوم فتنة فاقبضني إليك غير مفتون »

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة أنا عبد العزيز بن محمد عن عمرو بن عاصم عن كثير بن قتادة عن محمود بن لبيد مرفوعا أن النبي ﷺ قال « اثنتان يكرههما ابن آدم: يكره الموت والموت خير للمؤمن من الفتن، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب » فعند حلول الفتن في الدين يجوز سؤال الموت، ولهذا قال على بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ولا يزداد الأمر إلا شدة فقال: اللهم خذني إليك فقد سئمتهم وسئموني. وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة وجرى له مع أمير خراسان ما جرى قال: اللهم توفني إليك وفي الحديث « إن الرجل ليمر بالقبر — أي في زمان الدجال — فيقول ياليتني مكانك » لما يرى من الفتن والزلازل

والبلابل والأمور الهائلة التي هي فتنة لكل مفتون . قال أبو جعفر بن جرير: وذكر أن بني يعقوب الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا استغفر لهم أبوهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ذنوبهم

﴿ ذكر من قال ذلك ﴾

حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني حجاج عن صالح المري عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال إن الله تعالى لما جمع ليعقوب شمله بعينيه خلا ولده نجيا فقال بعضهم لبعض ألستم قد علمتم ما صنعتم وما لقي منكم الشيخ وما لقي منكم يوسف ؟ قالوا بلى ، قال فيغركم عفوهما عنكم فكيف لكم بربكم ؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه ويوسف إلى جنب أبيه قاعد قالوا يا أبانا إنا أتيناك لأمر لم نأتك لأمر مثله قط ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله قط حتى حركوه والأنبياء عليهم السلام أرحم البرية فقال ما لكم يا بني ؟ قالوا ألست قد علمت ما كان منا إليك وما كان منا إلى أخينا يوسف ، قال بلى ، قالوا أو لستما قد غفرتما لنا ؟ قالا بلى ، قالوا فان عفوكما لا يغني عنا شيئا إن كان الله لم يعف عنا ، قال فما تريدون يا بني ؟ فالوا نريد أن تدعو الله لنا ، فإذا جاءك الوحي من الله بأنه قد عفا عما اقترفنا قرت أعيننا واطمأنت قلوبنا وإلا فلا قرة عين في الدنيا لنا أبداً ، قال فقام الشيخ فاستقبل القبلة وقام يوسف خلف أبيه وقاموا خلفهما أذلة خاشعين ، قال فدعا وأمن يوسف فلم يجب فيهم عشرين سنة ، قال صالح المري يخيفهم قال حتى إذا كان على رأس العشرين نزل جبريل عليه السلام على يعقوب عليه السلام فقال إن الله تعالى قد بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك وأن الله تعالى قد عفا عما صنعوا وأنه قد اعتقد مواثيقهم من بعدك على النبوة . هذا الأثر موقوف عن أنس . ويزيد الرقاشي وصالح المري ضعيفان جداً ، وذكر السدي أن يعقوب عليه السلام لما حضره الموت أوصى إلى يوسف بأن يدفن عند إبراهيم وإسحق ، فلما مات صبره وأرسله إلى الشام فدفن عندهما عليهم السلام .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف وكيف رفعه الله عليهم وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والاعدام هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة (نوحيه إليك) ونعلمك به يا محمد لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك (وما كنت لديهم) حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم (إذ أجمعوا أمرهم) أي على إلقائه في الجب (وهم يمكرون) به ، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك وإنزالا عليك كقوله (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) الآية وقال تعالى (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر) الآية إلى قوله (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) الآية ، وقال (وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا) الآية وقال (ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون * إن يوحى إلا أنما أنا نذير مبين) يقول تعالى إنه رسوله وإنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) وقال (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) كقوله (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) إلى غير ذلك من الآيات وقوله (وما تسألهم عليه من أجر) أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر أي من جعالة ولا أجرة بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلقه (إن هو إلا ذكر للعالمين) أي يتذكرون به ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات . والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات. وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك

وقوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا الله وهم مشركون به . وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وفي الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ « قد قد » أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وقال الله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله: أي الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقال الحسن البصري في قوله (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبا فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه — أو انتزعه — ثم قال (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي الحديث « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر ، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » وفي لفظ لهما « الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل » ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى الجزار عن ابن أخي زينب عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه قالت وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت: قلت خيط رقي لي فيه فأخذه فقطعه ثم قال إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » قالت: قلت له لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت ، فقال إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ « أذهب الباس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما » وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع عن ابن أبي ليلى عن عيسى بن عبد الرحمن قال دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له لو تعلقت شيئا ، فقال أتعلق شيئا وقد قال رسول الله ﷺ « من تعلق شيئا وكل إليه » ورواه النسائي عن أبي هريرة . وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ « من علق تميمة فقد أشرك » وفي رواية « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » رواه مسلم . وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله فان الله أغنى الشركاء عن الشرك » رواه الإمام أحمد. وقال أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ

قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال «الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟» وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمرو عن قتادة عن محمود بن لبيد به، وقال الإمام أحمد حدثنا حسن أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا ابن هبيرة عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» قالوا يارسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال «أن يقول أحدهم اللهم لاخير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك» وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان العرزمى عن أبى على رجل من بنى كاهل قال: خطبنا أبو موسى الأشعرى فقال: يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا والله لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأذون قال بل أخرج مما قلت خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل» فقال له من شاء الله أن يقول فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال «قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه» وقد روى من وجه آخر وفيه أن السائل فى ذلك هو الصديق كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى من حديث عبد العزيز بن مسلم عن ليث بن أبى سليم عن أبى محمد عن معقل بن يسار قال شهدت النبى ﷺ أو قال حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال «الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل» فقال أبو بكر وهل الشرك إلا من دعا مع الله إله آخر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» ثم قال «ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره ؟ قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم» وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوى عن شيبان بن فروخ عن يحى بن كثير عن الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد عن قيس بن أبى حازم عن أبى بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ «الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا» قال: فقال أبو بكر يارسول الله فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال «ألا أخبرك بشىء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره ؟» قال بلى يارسول الله قال: «قل اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم» قال الدارقطنى يحى بن أبى كثير هذا يقال له أبو النضر متروك الحديث، وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وصححه والنسائى من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاص سمعت أباهريرة قال: قال أبو بكر الصديق يارسول الله علمنى شيئا أقوله اذا أصبحت واذا أمسيت واذا أخذت مضجعى قال «قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه» ورواه أبو داود والنسائى وصححه، وزاد الإمام أحمد فى رواية له من حديث ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن أبى بكر الصديق قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أقول — فذكر هذا الدعاء وزاد فى آخره — «وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره الى مسلم». وقوله (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) الآية: أى أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله ؟ فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الإنس والجن آمرا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله أى طريقته ومسلكه وسنته وهى الدعوة الى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ويقين

وبرهان هو وكل من اتبعه يدعو إلى مادعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي ؛ وقوله (وسبحان الله) أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أونظير أوعديل أونديد أو ولد أو والد أوصاحبة أو وزير أومشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيراً (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لامن النساء وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع. وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب وبقوله (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) الآية وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) وهذا القدر حاصل لهن ولكن لايلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لاشك فيه ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبرا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والاعظام فهي صديقة بنص القرآن . وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) الآية أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) الآية وقوله تعالى (وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين) وقوله تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) الآية وقوله (من أهل القرى) المراد بالقرى المدن لاأنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعا وأخلاقا وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا وألطف من أهل بوادبهم وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي ولهذا قال تعالى (الأعراب أشد كفرا ونفاقا) الآية وقال قتادة في قوله (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحلم من أهل العمود ، وفي الحديث الآخر أن رجلا من الأعراب أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ناقة فلم يزل يعطيه ويزيده حتى رضي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد هممت أن لا أتهب هبة إلا من قرشي أو أنصاري أو ثقفي أو دوسي»

وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شعبة عن الأعمش عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش هو عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لايخالطهم ولايصبر على أذاهم » وقوله (أفلم يسيروا في الأرض) يعني هؤلاء المكذبين لك يامحمد في الأرض (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أي من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها كقوله (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية فاذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ونجى المؤمنين وهذه كانت سنته تعالى في خلقه ولهذا قال تعالى (ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهي خير لهم من الدنيا بكثير كقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) وأضاف الدار إلى الآخره فقال (ولدار الآخرة)

كما يقال صلاة الأولى ومسجد الجامع وعام أول وبارحة الأولى ويوم الخميس . قال الشاعر :

أتمدح فقعسا وتذم عبسا * ألا لله أمك من هجين * ولو أقوت عليك ديار عبس * عرفت الذل عرفان اليقين

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله فى أحوج الأوقات إليه كقوله تعالى (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) الآية وفى قوله (كذبوا) قراءتان إحداهما بالتشديد قد كذبوا ، وكذلك كانت عائشة رضى الله عنها تقرؤها ، قال البخارى حدثنا عبد العزيز ابن عبدالله حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال أخبرنى عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى (حتى إذا استيأس الرسل) قال قلت أ كذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة كذبوا قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن ؟ قالت أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك فقلت لها (وظنوا أنهم قد كذبوا ؟ قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها) قلت فما هذه الآية؟ قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر (حتى إذا استيأس الرسل) ممن كذبهم من قومهم وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعبة عن الزهرى قال أخبرنا عروة فقلت لها لعلها قد كذبوا مخففة ؟ قالت معاذ الله . انتهى ما ذكره، وقال ابن جريج أخبرنى ابن أبى مليكة أن ابن عباس قرأها (وظنوا أنهم قد كذبوا) خفيفة قال عبد الله هو ابن أبى مليكة ثم قال لى ابن عباس كانوا بشرا ثم تلا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) قال ابن جريج وقال لى ابن أبى مليكة وأخبرنى عروة عن عائشة أنها خالفت ذلك وأبته وقالت ما وعد الله محمداً ﷺ من شىء إلا قد علم أنه سيكون حتى مات ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم. قال ابن أبى مليكة فى حديث عروة كانت عائشة تقرؤها (وظنوا أنهم قد كذبوا) مثقلة من التكذيب وقال ابن أبى حاتم أنا يونس ابن عبد الأعلى قراءة أنا ابن وهب أخبرنى سليمان بن بلال عن يحي بن سعيد قال : جاء إنسان إلى القاسم بن محمد فقال إن محمد بن كعب القرظى قرأ هذه الآية (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) فقال القاسم أخبره عنى أنى سمعت عائشة زوج النبى ﷺ تقول (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) تقول كذبتهم أتباعهم . إسناد صحيح أيضا . والقراءة الثانية بالتخفيف ، واختلفوا فى تفسيرها فقال ابن عباس ما تقدم ، وعن ابن مسعود فيما رواه سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن عبدالله أنه قرأ (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) مخففة قال عبد الله هو الذى تكره وهذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما مخالف لما رواه آخرون عنهما. أما ابن عباس فروى الأعمش عن مسلم عن ابن عباس فى قوله (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قال لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم جاءهم النصر على ذلك (فنجى من نشاء) وكذا روى عن سعيد بن جبير وعمران بن الحارث السلمى وعبدالرحمن بن معاوية وعلى بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس بمثله وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد حدثنا شعيب حدثنا إبراهيم بن أبى حمزة الجزرى قال : سأل فتى من قريش سعيد بن جبير قال أخبرنا أبا عبد الله كيف هذا الحرف فانى إذا أتيت عليه تمنيت أن لا أقرأ هذه السورة (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا) قال نعم حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يصدقوهم وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، فقال الضحاك بن مزاحم ما رأيت كاليوم قط رجلا يدعى إلى علم فيتلكأ لو رحلت إلى اليمن فى هذه كان قليلا ، ثم روى ابن جرير أيضا من وجه آخر أن مسلم بن يسار سأل سعيد بن جبير عن ذلك فأجابه بهذا الجواب فقام إلى سعيد فاعتنقه وقال فرج الله عنك كما فرجت عنى وهكذا روى من غير وجه عن سعيد بن جبير أنه فسرها كذلك وكذا فسرها مجاهد بن جبر وغير واحد من السلف حتى إن مجاهدا قرأها (وظنوا أنهم قد كذبوا

بفتح الذال . رواه ابن جرير إلا أن بعض من فسرها كذلك يعيد الضمير فى قوله (وظنوا أنهم قد كذبوا) إلى أتباع الرسل من المؤمنين ومنهم من يعيده إلى الكافرين منهم أى وظن الكفار أن الرسل قد كذبوا مخففة فيما وعدوا به من النصر ، وأما ابن مسعود فقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد بن فضيل عن محمش[1] بن زياد الضبى عن تميم بن حزم[2] قال سمعت عبدالله بن مسعود يقول فى هذه الآية (حتى إذا استيأس الرسل) من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا بالتخفيف. فهاتان الروايتان عن كل من ابن مسعود وابن عباس وقد أنكرت ذلك عائشة على من فسرها بذلك وانتصر لها ابن جرير ووجه المشهور عن الجمهور وزيف القول الآخر بالكلية ورده وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه والله أعلم

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى لقد كان فى خبر المرسلين مع قومهم وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين (عبرة لأولى الألباب وهى العقول (ما كان حديثاً يفترى) أى وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أى يكذب ويختلق (ولكن تصديق الذى بين يديه) أى من الكتب المنزلة من السماء هو يصدق ما فيها من الصحيح وينفى ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير (وتفصيل كل شىء) من تحليل وتحريم ومحبوب ومكروه وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات والنهى عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات والإخبار عن الأمور الجلية وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات وتنزهه عن مماثلة المخلوقات فلهذا كان (هدى ورحمة لقوم يؤمنون) تهتدى به قلوبهم من الغى إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد ، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، فى هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد ، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة، يوم يفوز بالربح المبيضة وجوههم الناضرة ، ويرجع المسودة وجوههم بالصفقة الخاسرة. آخر تفسير سورة يوسف عليه السلام ولله الحمد والمنة وبه المستعان

﴿ تفسير سورة الرعد وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور فقد تقدم فى أول سورة البقرة وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولاريب ولهذا قال (تلك آيات الكتاب) أى هذه آيات الكتاب وهو القرآن وقيل التوراة والإنجيل قاله مجاهد وقتادة وفيه نظر بل هو بعيد ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال (والذى أنزل إليك) أى يا محمد (من ربك الحق) خبر تقدم مبتدؤه وهو قوله (والذى أنزل إليك من ربك) هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا ، واستشهد بقول الشاعر : إلى الملك القرم وابن الهمام ۞ وليث الكتيبة فى المزدحم

وقوله (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) كقوله (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق ، والعناد والنفاق .

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

(١) فى نسخة ابن جرير جحش (٢) فى النسخة المكية جثامة وفى نسخة ابن جرير حذلم بالذال والصواب الذى فى التقريب أنه حزلم بالزاى المعجمة.

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظم سلطانه أنه الذى بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لاتنال ولا يدرك مداها ، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء وبعد مابينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام وسمكها فى نفسها مسيرة خمسمائة عام ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وبينهما من بعد السير خمسمائة عام وسمكها خمسمائة عام وهكذا الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة كما قال تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) الآية. وفى الحديث « ماالسموات السبع ومافيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة والكرسى فى العرش المجيد كتلك الحلقة فى تلك الفلاة » وفى رواية « والعرش لايقدر قدره إلا الله عز وجل » وجاء عن بعض السلف أن بعد مابين العرش الى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة وبعد مابين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة وهو من ياقوتة حمراء . وقوله (بغير عمد ترونها) روى عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا لها عمد ولكن لاترى ، وقال إياس بن معاوية السماء على الأرض مثل القبة يعنى بلا عمد وكذا روى عن قتادة وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله تعالى (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه) فعلى هذا يكون قوله (ترونها) تأكيدا لنفى ذلك أى هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها وهذا هو الأكمل فى القدرة ، وفى شعر أمية ابن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه كما ورد فى الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضى الله عنه

وأنت الذى من فضل منّ ورحمة * بعثت إلى موسى رسولا مناديا * فقلت له فاذهب وهرون فادعوا
إلى الله فرعون الذى كان طاغيا * وقولا له هل أنت سويت هذه * بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه * بلا عمد أو فوق ذلك بانيا ؟ * وقولا له هل أنت سويت وسطها
منيرا إذا ماجنك الليل هاديا * وقولا له من يرسل الشمس غدوة * فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من أنبت الحب فى الثرى * فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه * ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله تعالى (ثم استوى على العرش) تقدم تفسيره فى سورة الأعراف وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، تعالى الله علوا كبيرا . وقوله (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) قيل المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة كقوله تعالى (والشمس تجرى لمستقر لها) وقيل المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر فانهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك يكونون أبعد ما يكون عن العرش لأنه على الصحيح الذى تقوم عليه الأدلة قبة مما يلى العالم من هذا الوجه وليس بمحيط كسائر الأفلاك لأن له قوائم وحملة يحملونه ، ولا يتصور هذا فى الفلك المستدير وهذا واضح لمن تدبر ما وردت به الآيات والأحاديث الصحيحة ولله الحمد والمنة . وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التى هى أشرف وأعظم من الثوابت فاذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل فى التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى كما نبه بقوله تعالى (لاتسجدوا للشمس ولاللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) مع أنه قد صرح بذلك بقوله (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ، وقوله (يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لاإله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ

وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوى شرع فى ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى فقال (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض وأرساها بجبال راسيات شامخات وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ماجعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح (من كل زوجين اثنين) أى من كل شكل صنفان (يغشى الليل النهار) أى جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا فاذا ذهب هذا غشيه هذا واذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضا فى الزمان كما يتصرف فى المكان والسكان (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى فى آلاء الله وحكمه ودلائله . وقوله (وفى الأرض قطع متجاورات) أى أراض يجاور بعضها بعضا مع أن هذه طيبة تنبت ماينفع الناس وهذه سبخة مالحة لاتنبت شيئا . هكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد ، ويدخل فى هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض فهذه تربة حمراء وهذه بيضاء وهذه صفراء وهذه سوداء وهذه محجرة وهذه سهلة وهذه مرملة وهذه سميكة وهذه رقيقة والكل متجاورات فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لاإله إلاهو ولارب سواه ، وقوله (وجنات من أعناب وزرع ونخيل) يحتمل أن تكون عاطفة على جنات فيكون (وزرع ونخيل) مرفوعين . ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب فيكون مجرورا ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة . وقوله (صنوان وغير صنوان) الصنوان هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك ، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه كما جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وقال سفيان الثورى وشعبة عن أبى إسحق عن البراء رضى الله عنه : الصنوان هى النخلات فى أصل واحد وغير الصنوان المتفرقات . وقاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد . وقوله (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قال الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ (ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) قال « الدقل والفارسى والحلو والحامض » رواه الترمذى وقال حسن غريب أى هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع فى أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها فهذا فى غاية الحلاوة وهذا فى غاية الحموضة وذا فى غاية المرارة وذا عفص وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا ثم يستحيل إلى طعم آخر باذن الله تعالى ، وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذى لاينحصر ولا ينضبط ، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على مايريد ولهذا قال تعالى (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون)

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ (وإن تعجب) من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله فى خلقه على أنه القادر على مايشاء ومع مايعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالم خلقا جديدا وقد اعترفوا وشاهدوا ماهو أعجب مما كذبوا به فالعجب من قولهم (أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد) وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالاعادة عليه أسهل كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذى

خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شىء قدير) ثم نعت المكذبين بهذا فقال (أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى يسحبون بها فى النار (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ماكثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى (ويستعجلونك)أى هؤلاء المكذبون (بالسيئة قبل الحسنة) أى بالعقوبة كما أخبر عنهم فى قوله (وقالوا يا أيها الذى أنزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ، ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب) الآيتين وقال تعالى (سأل سائل بعذاب واقع) وقال (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا) الآية أى عقابنا وحسابنا كما قال مخبرا عنهم (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك) الآية فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله قال الله تعالى (وقد خلت من قبلهم المثلات) أى قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين)وقال(إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم) وقال (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم) إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) الآية قال رسول الله ﷺ « لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحدا العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد » وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الرمادى(1) أنه رأى رب العزة فى النوم ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته فقال له ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) قال ثم انتبهت

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية قال الله تعالى (إنما أنت منذر) أى إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها ، و (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) وقوله (ولكل قوم هاد) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أى ولكل قوم داع ، وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية يقول الله تعالى أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغير واحد وعن مجاهد (ولكل قوم هاد) أى نبى كقوله (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد وقال أبو صالح ويحي بن رافع (ولكل قوم هاد) أى قائد وقال أبو العالية : الهادى القائد والقائد الإمام والإمام العمل وعن عكرمة وأبى الضحى (ولكل قوم هاد) قالا هو محمد ﷺ وقال مالك (ولكل قوم هاد) يدعوهم إلى الله عز وجل وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى أحمد بن يحي الصوفى حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى حدثنا معاذ بن مسلم حدثنا الهروى عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير

(1) فى النسخة المكية : الزيادى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزلت (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) قال وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره وقال « أنا المنذر ولكل قوم هاد » وأومأ بيده إلى منكب على فقال « أنت الهادى يا على بك يهتدى المهتدون من بعدى » وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا المطلب بن زياد عن السدى عن عبد خير عن على (ولكل قوم هاد) قال الهادى رجل من بنى هاشم قال الجنيد هو على بن أبى طالب رضى الله عنه قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس فى إحدى الروايات وعن أبى جعفر محمد بن على نحو ذلك .

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى (ويعلم ما فى الأرحام) أى ما حملت من ذكر أو أنثى أو حسن أو قبيح . أو شقى أو سعيد أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة) الآية وقال تعالى (يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث) أى خلقكم طورا من بعد طور كما قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد » وفى الحديث الآخر « فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك » وقوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال البخارى حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا معن حدثنا مالك عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمن إلا الله لا يعلم ما فى غد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله . ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله » وقال العوفى عن ابن عباس (وما تغيض الأرحام) يعنى السقط (وما تزداد) يقول ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ومن تحمل تسعة أشهر ومنهن من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما نقصت من تسعة وما زاد عليها ، وقال الضحاك وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين وولدتنى وقد نبتت ثنيتى وقال ابن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل ، وقال مجاهد (وما تغيض الأرحام وما تزداد) قال ما ترى من الدم فى حملها وما تزداد على تسعة أشهر وبه قال عطية العوفى والحسن البصرى وقتادة والضحاك وقال مجاهد أيضا إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة مثل أيام الحيض وقاله عكرمة وسعيد بن جبير وابن زيد وقال مجاهد أيضا (وما تغيض الأرحام) إراقة الدم حتى يخس الولد (وما تزداد) إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم ، وقال مكحول : الجنين فى بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل ، فإذا وقع إلى الأرض استهل واستهلاله استنكاره لمكانه فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثدى أمه حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله فإذا هو بلغ قال هو الموت أو القتل أنى لى بالرزق ؟ فيقول مكحول يا ويحك ، غذاك وأنت فى بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتددت وعقلت قلت هو الموت أو القتل أنى لى بالرزق ، ثم قرأ مكحول (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) الآية وقال

قتادة (وكل شيء عنده بمقدار) أى بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلا معلوما . وفى الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت اليه أن ابناً لها فى الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث اليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » الحديث بتمامه ، وقوله (عالم الغيب والشهادة) أى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء (الكبير) الذى هو أكبر من كل شيء (المتعال) أى على كل شيء (قد أحاط بكل شيء علما) وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعا وكرها .

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ * لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فانه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) وقال (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وقالت عائشة رضى الله عنها : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) وقوله (ومن هو مستخف بالليل) أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل (وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه فان كلاهما فى علم الله على السواء كقوله تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم) الآية وقوله تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . وقوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وآخر من قدامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان كما جاء فى الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » وفى الحديث الآخر « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) والمعقبات من الله هى الملائكة ، وقال عكرمة عن ابن عباس (يحفظونه من أمر الله) قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فاذا جاء قدر الله خلوا عنه ، وقال مجاهد ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له : الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) قال ذلك ملك من ملوك الدنيا له حرس من دونه حرس ، وقال العوفى عن ابن عباس (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) يعنى ولى السلطان يكون عليه الحرس ، وقال عكرمة فى تفسيرها هؤلاء الأمراء المواكب من بين يديه ومن خلفه ، وقال الضحاك فى الآية هو السلطان المحروس من أمر الله وهم أهل الشرك ، والظاهر والله أعلم أن مراد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبد يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم ، وقد روى الإمام أبو جعفر

ابن جرير هٰهنا حديثاً غريباً جداً فقال حدثني المثنى حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القشيري حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال « ملك على يمينك على حسناتك وهو أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشرا ، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين اكتبها ؟ قال لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فاذا قال ثلاثا قال اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا ، يقول الله (مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) - الآية - وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وملك قائم على فيك لايدع أن تدخل الحية في فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل » . وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أسود بن عامر حدثنا سفيان حدثني منصور عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ «مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا وإياك يارسول الله ، قال «وإياي ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير » انفرد باخراجه مسلم وقوله (يحفظونه من أمر الله) قيل المراد حفظهم له من أمر الله رواه علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وغيرهم وقال قتادة (يحفظونه من أمر الله) قال وفي بعض القراءات يحفظونه بأمر الله ، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئا يقينه لولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لتخطفتم . وقال أبو أمامة مامن آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له ، وقال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي فقال احترس فإن ناساً من مراد يريدون قتلك فقال إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه . إن الأجل جنة حصينة ، وقال بعضهم (يحفظونه من أمر الله) بأمر الله كما جاء في الحديث أنهم قالوا يارسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيئا ، فقال « هي من قدر الله » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبوسعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال أوحى الله الى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك انه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها الى معصية الله الا حول الله عنهم مايحبون الى ما يكرهون ثم قال ان تصديق ذلك في كتاب الله (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد ورد هذا في حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبي شيبة في كتابة صفة العرش حدثنا الحسن بن علي حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصاري عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال : كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأني وإذا سألته عن الخبر أنبأني وإنه حدثني عن ربه عزوجل قال « قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي مامن قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى مايحبون من رحمتي » وهذا غريب وفي إسناده من لاأعرفه

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق وهو مايرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب ،وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسأله عن البرق فقال:البرق: الماء . وقوله(خوفا وطمعا)قال قتادة خوفا للمسافر يخاف

أذاه ومشقته وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله (وينشىء السحاب الثقال) أى ويخلقها منشأة حديدة وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد : السحاب الثقال الذى فيه الماء قال (ويسبح الرعد بحمده) كقوله (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا إبراهيم بن سعد أخبرنى أبى قال كنت جالساً إلى جنب حميد بن عبد الرحمن فى المسجد فمر شيخ من بنى غفار فأرسل إليه حميد فلما أقبل قال يا ابن أخى وسع فيما بينى وبينك فإنه قد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه فقال له حميد ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله ﷺ فقال له الشيخ سمعت عن شيخ من بنى غفار أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ينشىء السحاب فينطق أحسن النطق ويضحك أحسن الضحك » والمراد والله أعلم أن نطقها الرعد وضحكها البرق ، وقال موسى بن عبيدة عن سعد بن إبراهيم قال يبعث الله الغيث فلا أحسن منه مضحكا ولا آنس منه منطقا فضحكه البرق ومنطقه الرعد، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى عن محمد بن مسلم قال بلغنا أن البرق ، ملك له أربعة وجوه : وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد فإذا مصع بذنبه فذاك البرق ، وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الحجاج حدثنا أبو مطر عن سالم عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » ورواه الترمذى والبخارى فى كتاب الأدب والنسائى فى اليوم والليلة والحاكم فى مستدركه من حديث الحجاج بن أرطاة عن أبى مطر ولم يسم به ، وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن أبيه عن رجل عن أبى هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال « سبحان من يسبح الرعد بحمده » وروى عن على رضى الله عنه أنه كان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبحت له . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس والأسود بن يزيد أنهم كانوا يقولون كذلك ، وقال الأوزاعى كان ابن أبى زكريا يقول : من قال حين يسمع الرعد سبحان الله وبحمده لم تصبه صاعقة ، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويقول إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض رواه مالك فى موطئه والبخارى فى كتاب الأدب

وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود الطيالسى حدثنا صدقة بن موسى حدثنا محمد بن واسع عن معمر بن نهار عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « قال ربكم عز وجل لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ، ولما أسمعتهم صوت الرعد» وقال الطبرانى حدثنا زكريا بن يحيى الساجى حدثنا أبو كامل الجحدرى حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر حدثنا عبد الكريم حدثنا عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله فانه لا يصيب ذاكرا » وقوله تعالى (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) أى يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ولهذا تكثر فى آخر الزمان كما قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن مصعب حدثنا عمارة عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتى الرجل القوم فيقول من صعق قبلكم الغداة فيقولون صعق فلان وفلان وفلان » ، وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا إسحق حدثنا على بن أبى سارة الشيبانى حدثنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال « اذهب فادعه لى » قال فذهب إليه فقال يدعوك رسول الله ﷺ ، فقال له من رسول الله ، وما الله ، أمن ذهب هو أم من فضة هو أم من نحاس هو ؟ قال فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يا رسول الله قد خبرتك أنه أعتى من ذلك قال لى كذا وكذا ، فقال لى « ارجع إليه الثانية » فذهب فقال له مثلها فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك . فقال « ارجع اليه فادعه » فرجع اليه الثالثة قال فأعاد عليه ذلك الكلام فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عز وجل سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله عز وجل (ويرسل الصواعق) الآية ، ورواه ابن جرير من حديث على بن أبى سارة به ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبدة بن عبد الله عن يزيد

ابن هارون عن ديلم بن غزوان عن ثابت عن أنس فذكر نحوه وقال : حدثنا الحسن بن محمد حدثنا عفان حدثنا أبان ابن يزيد حدثنا أبو عمران الجونى عن عبد الرحمن بن صحار العبدى أنه بلغه أن النبى ﷺ بعثه إلى جبار يدعوه فقال أرأيتكم ربكم أذهب هو ؟ أم فضة هو ؟ أم لؤلؤ هو ؟ قال فبينما هو يجادلهم إذ بعث الله سحابة فرعدت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه ونزلت هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد قال : جاء يهودى فقال يا محمد أخبرنى عن ربك من أى شىء هو ؟ من نحاس هو ، أم من لؤلؤ أو ياقوت ، قال فجاءت صاعقة فأخذته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية

وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا أنكر القرآن وكذب النبى ﷺ فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل الله (ويرسل الصواعق) الآية وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأنها عليك خيلا جردا ورجالا مردا فقال له رسول الله ﷺ « يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة » يعنى الأنصار ، ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر وموت فى بيت سلولية ، حتى ماتا لعنهما الله ، وأنزل الله فى مثل ذلك (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله) وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخو أربد يرثيه

أخشى على أربد الحتوف ولا * أرهب نوء السماك والأسد

فجعنى الرعد والصواعق با * لفارس يوم الكريهة النجد

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا مسعدة بن سعيد العطار حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى حدثنى عبد العزيز ابن عمران حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عن ابن عباس أن أربد بن قيس ابن حز بن جليد بن جعفر بن كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتهيا إليه وهو جالس فجلسا بين يديه فقال عامر بن الطفيل يا محمد ما تجعل لى إن أسلمت ، فقال رسول الله ﷺ « لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم » قال عامر بن الطفيل أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك ، قال رسول الله ﷺ « ليس ذلك لك ولا لقومك ولكن لك أعنة الخيل » قال أنا الآن فى أعنة خيل نجد اجعل لى الوبر ولك المدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا » فلما قفلا من عنده قال عامر : أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يمنعك الله » فلما خرج أربد وعامر قال عامر يا أربد أنا أشغل عنك محمدا بالحديث فاضربه بالسيف فان الناس إذا قتلت محمدا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب فنعطيهم الدية ، قال أربد افعل ، فأقبلا راجعين إليه فقال عامر يا محمد قم معى أكلمك فقام معه رسول الله ﷺ فجلسا إلى الجدار ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه وسل أربد السيف فلما وضع يده على السيف يبست يده على قائم السيف فلم يستطع سل السيف فأبطأ أربد على عامر بالضرب فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى أربد وما يصنع فانصرف عنهما فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كانا بالحرة ـ حرة راقم ـ نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا اشخصا ياعدوى الله لعنكما الله فقال عامر من هذا يا سعد، قال هذا أسيد بن حضير الكتائب فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم أرسل الله قرحة فأخذته فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول فجعل يمس قرحته فى حلقه ويقول غدة كغدة الجمل فى بيت سلولية يرغب أن يموت فى بيتها، ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا فأنزل الله فيهما (الله يعلم ما تحمل كل أنثى — إلى قوله — وما لهم من دونه من وال) قال المعقبات من أمر الله يحفظون محمدا ﷺ ، ثم

ذكر أربد وماقتله به فقال (ويرسل الصواعق) الآية وقوله (وهم يجادلون فى الله) أى يشكون فى عظمته وأنه لا إله إلا هو (وهو شديد المحال) قال ابن جرير شديدة مماحلته فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره ، وهذه الآية شبيهة بقوله (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ❊ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) وعن على رضى الله عنه (وهو شديد المحال) أى شديد الأخذ ، وقال مجاهد: شديد القوة .

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه (له دعوة الحق) قال التوحيد رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر (له دعوة الحق) لا إله إلا الله (والذين يدعون من دونه) الآية أى ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله (كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه) قال على بن أبى طالب كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا بيده فكيف يبلغ فاه ؟ وقال مجاهد (كباسط كفيه) يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبدا . وقيل المراد كقابض يده على الماء فانه لا يحكم منه على شىء كما قال الشاعر :

فانى وإياكم وشوقاً إليكم ❊ كقابض ماء لم تسقه أنامله

وقال الآخر
فأصبحت مما كان بينى وبينها ❊ من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلا للشرب فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة ولهذا قال (وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال)

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء ودان له كل شىء ولهذا يسجد له كل شىء طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين (وظلالهم بالغدو) أى البكر (والآصال) وهو جميع أصيل وهو آخر النهار كقوله تعالى (أولم يروا إلى ماخلق الله من شىء يتفيؤ ظلاله) الآية

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم وأولئك الآلهة لا تملك لانفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضرا أى لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لاشريك له فهو على نور من ربه ؟ ولهذا قال (قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أى ليس الأمر كذلك فانه لا يشابهه شىء ولا يماثله ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لاشريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما

ملك وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فأنكر تعالى عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لايشفع أحد عنده إلا بإذنه (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) (وكم من ملك فى السموات) الآية وقال (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً) فاذا كان الجميع عبيدا فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لامحالة (ولا يظلم ربك أحدا)

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه فقال تعالى (أنزل من السماء ماء) أى مطرا (فسالت أودية بقدرها) أى أخذ كل واد بحسبه فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير وسع بقدره وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها فمنها مايسع علما كثيرا ومنها من لايتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها (فاحتمل السيل زبدا رابياً) أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه هذا مثل وقوله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع) الآية هذا هو المثل الثانى وهو مايسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية أى ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدا فيجعل متاعا فانه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولادوام له كما أن الزبد لايثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ولهذا قال (فأما الزبد فيذهب جفاء) أى لا ينتفع به بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شىء ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ولهذا قال (وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) كقوله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون) وقال بعض السلف كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله تعالى يقول (ومايعقلها إلا العالمون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله وهو قوله (فأما الزبد) وهو الشك (فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) وهو اليقين وكما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه فى النار فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك ، وقال العوفى عن ابن عباس قوله (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً) يقول احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة (ومما يوقدون عليه فى النار) فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد فللنحاس والحديد خبث فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء فأما ماينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ماينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله والعمل السيء يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد وكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقى كما بقى ماينفع الناس فى الأرض وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل فاذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا روى فى تفسيرها عن مجاهد والحسن البصرى وعطاء وقتادة وغير واحد من السلف والخلف ، وقد ضرب سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريا ومائيا وهما قوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله) الآية ثم قال (أو كصيب من

السماء فيه ظلمات ورعد وبرق) الآية وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (أحدهما) قوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب) الآيه والسراب إنما يكون فى شدة الحر ولهذا جاء فى الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون ؟ فيردون النار فاذا هى كسراب يحطم بعضها بعضا ثم قال تعالى فى المثل الآخر (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ؛ ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » فهذا مثل مائى وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ماحدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها — قال — فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها » وأخرجاه فى الصحيحين أيضا فهذا مثل نارى

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَٱفْتَدَوْا بِهِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال (للذين استجابوا لربهم) أى أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم (الحسنى) وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال (أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا) وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقوله (والذين لم يستجيبوا له) أى لم يطيعوا الله (لو أن لهم ما فى الأرض جميعا) أى فى الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لايقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا (أولئك لهم سوء الحساب) أى فى الدار الآخرة . أى يناقشون على النقير والقطمير والجليل والحقير ومن نوقش الحساب عذب ، ولهذا قال (ومأواهم جهنم وبئس المهاد)

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى (أنزل إليك) يا محمد (من ربك) هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا لا يضاد شىء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق وأوامره ونواهيه عدل كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) أى صدقاً فى الإخبار ، وعدلا فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ومن هو أعمى لايهتدى إلى خير ولايفهمه ولو فهمه ما انقاد له ولاصدقه ولااتبعه كقوله تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال فى هذه الآية الكريمة (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى أفهذا كهذا؟ لااستواء، وقوله (إنما يتذكر أولو الألباب) أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر . وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف (ويخشون ربهم) أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال يراقبون الله فى ذلك ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامه فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) أى عن المحارم والمآثم ففطموا أنفسهم عنها لله عزوجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه (وأقاموا الصلاة) بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى (وأنفقوا مما رزقناهم) أى على الذين يجب عليهم الانفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين (سرا وعلانية) أى فى السر والجهر لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار (ويدرءون بالحسنة السيئة) أى يدفعون القبيح بالحسن ، فاذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا كقوله تعالى (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * ومايلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم) ولهذا قال مخبرا عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ثم فسر ذلك بقوله (جنات عدن) والعدن الإقامة أى جنات إقامه يخلدون فيها ، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والمروج فيه خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لايدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد ، وقال الضحاك فى قوله (جنات عدن) مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها رواها ابن جرير ، وقوله (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الأباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) الآية وقوله (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والانعام والاقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنى سعيد بن أبى أيوب حدثنا معروف ابن سويد الحرانى عن أبى عشانة المعافرى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم . قال « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول إنهم كانوا عبادا يعبدونى لا يشركون بى شيئا وتسد بهم الثغور وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء — قال — فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)» ورواه أبو القاسم الطبرانى عن أحمد بن رشدين عن أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى عشانة سمع عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال « أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى

الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى فتدخل عليهم الملائكة من كل باب : (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ») وقال عبدالله بن المبارك عن بقية بن الوليد حدثنا أرطاة بن المنذر سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول جلست إلى أبى أمامة فقال : إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن فيقول للذى يليه ملك يستأذن ويقول الذى يليه للذى يليه ملك يستأذن حتى يبلغ المؤمن فيقول ائذنوا فيقول أقربهم للمؤمن ائذنوا له ويقول الذى يليه للذى يليه ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له فيدخل فيسلم ثم ينصرف رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش عن أرطاة بن المنذر عن أبى الحجاج يوسف الإلهانى قال سمعت أبا أمامة فذكر نحوه وقد جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول فيقول لهم «(سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) » وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مالهم فى الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ماصار اليه المؤمنون كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء (ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض) كما ثبت فى الحديث « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان » وفى رواية « وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ولهذا قال (أولئك لهم اللعنة) وهى الإبعاد عن الرحمة (ولهم سوء الدار) وهى سوء العاقبة والمآل (ومأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال أبو العالية فى قوله تعالى (والذين ينقضون عهد الله) الآية قال هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل وأفسدوا فى الأرض ، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال : إذا حدثوا كذبوا وإذا وعدوا أخلفوا وإذا ائتمنوا خانوا

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة والعدل وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا كما قال (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة فقال (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) كما قال (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) وقال (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا : حدثنا اسماعيل بن أبى خالد عن قيس عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة رواه مسلم فى صحيحه . وفى الحديث الآخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدى أسك ميت والأسك الصغير الأذنين فقال « والله للدنيا أهون على الله

من هدا على أهله حين ألقوه » .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾

يخبر تعالى عن قيل المشركين (لولا) أى هلا (أنزل عليه آية من ربه) كقولهم (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة وأن الله قادر على إجابة ماسألوا ، وفى الحديث أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً وأن يجرى لهم ينبوعا وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يامحمد أعطيتهم ذلك فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة فقال « بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة » ولهذا قال لرسوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى هو المضل والهادى سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم فان الهداية والاضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه كما قال (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وقال (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ولهذا قال (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى ويهدى إليه من أناب إلى الله ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ولهذا قال (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى هو حقيق بذلك وقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: فرح وقرة عين . وقال عكرمة نعم مالهم ، وقال الضحاك غبطة لهم ، وقال إبراهيم النخعى خير لهم ، وقال قتادة هى كلمة عربية يقول الرجل طوبى لك أى أصبت خيراً وقال فى رواية طوبى لهم حسنى لهم (وحسن مآب) أى مرجع وهذه الأقوال شىء واحد لامنافاة بينها ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس (طوبى لهم) قال هى أرض الجنة بالحبشية ، وقال سعيد بن مسجوع: طوبى اسم الجنة بالهندية وكذا روى السدى عن عكرمة طوبى لهم هى الجنة وبه قال مجاهد وقال العوفى عن ابن عباس لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) وذلك حين أعجبته .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب عن جعفر عن شهر بن حوشب قال طوبى شجرة فى الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها من وراء سور الجنة وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس ومغيث بن سمى وأبى إسحق السبيعى وغير واحد من السلف أن طوبى شجرة فى الجنة فى كل دار منها غصن منها ، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن ، وقد قال عبد الله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا « طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح أن أبا الهيثم حدثه عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال يارسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال « طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى » قال له رجل وما طوبى ، قال « شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » وروى البخارى ومسلم جميعاً عن إسحق بن راهويه عن مغيرة المخزومى عن وهيب عن أبى حازم عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لايقطعها » قال فحدثت به النعمان بن أبى عياش الزرقى فقال حدثنى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام

ما يقطعها » وفى صحيح البخارى من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قول الله تعالى (وظل ممدود) قال « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا فليح عن هلال بن على عن عبد الرحمن بن أبى عمرة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله « فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة اقرأوا إن شئتم وظل ممدود » أخرجاه فى الصحيحين وفى لفظ لأحمد أيضا حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ـ أو مائة سنة ـ هى شجرة الخلد » وقال محمد ابن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال « يسير فى ظل الغصن منها الراكب مائة سنة — أو قال — يستظل فى الفنن منها مائة راكب فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال » رواه الترمذى وقال إسماعيل بن عياش عن سعيد بن يوسف عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى فتفتح له أكمامها فيأخذ من أى ذلك شاء ، إن شاء أبيض وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن » وقال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: طوبى شجرة فى الجنة يقول الله لها تفتقى لعبدى عما شاء فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها ، وعن الإبل بأزمتها ، وعما شاء من الكسوة ، وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً ، قال وهب رحمه الله إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، زهرها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها ياقوت وترابها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل وهى مجلس لأهل الجنة فبينما هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا ووبرها كخز المرعزى من لينه عليها رحال ألواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق فيفتحونها يقولون إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال فيركبونها فهى أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش نجبا من غير مهنة يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب أذن راحلة منها أذن الأخرى ولا برك راحلة برك الأخرى ، حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه ، قال فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه فإذا رأوه قالوا اللهم أنت السلام ومنك السلام وحق لك الجلال والإكرام قال فيقول تعالى عند ذلك : أنا السلام ومنى السلام وعليكم حقت رحمتى ومحبتى ، مرحبا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى . قال فيقولون ربنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك فأذن لنا فى السجود قدامك . قال فيقول الله إنها ليست بدار نصيب ولا عبادة ولكنها دار ملك ونعيم . وإنى قد رفعت عنكم نصب العبادة فسلونى ما شئتم فان لكل رجل منكم أمنيته فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنية ليقول ربى تنافس أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتنى مثل كل شىء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا فيقول الله تعالى لقد قصرت بك أمنيتك ولقد سألت دون منزلتك . هذا لك منى لأنه ليس فى عطائى نكد ولا قصريد ، قال ثم يقول اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال قال فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة فى كل قبة منها فرش من فرش الجنة متظاهرة فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما ولا ريح ولا طيب إلا قد عبق بهما ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صاحبه كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل ، ويرى هو لهما مثل ذلك ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلان ويتعلقان به ويقولان له والله ما ظننا

أن الله يخلق مثلك ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة حتى ينتهى كل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له ، وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى وغرف مبنية من الدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى فى النهار المضىء ، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها ، فلولا أنه مسخر إذاً لا لتمع الأبصار ، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وما كان فيها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر وما كان فيها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر ، وما كان فيها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء قوائمها وأركانها من الجوهر وشرفها قباب من لؤلؤ ، وبروجها غرف من المرجان ، فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح تجنبها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم ببطن رياض الجنة ، فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعودا على منابر من نور ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم ، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وتمنوا ، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان وجنتان مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان ، وفيهما من كل فاكهة زوجان ، وحور مقصورات فى الخيام ، فلما تبوءوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم وربنا ، قال هل رضيتم ثواب ربكم ؟ قالوا ربنا رضينا فارض عنا ، قال برضاى عنكم حللتم دارى ونظرتم إلى وجهى وصافحتكم ملائكتى فهنيئاً هنيئاً لكم (عطاء غير مجذوذ) ليس فيه تنغيص ولا قصريد فعند ذلك قالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وأدخلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب . إن ربنا لغفور شكور وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد ، ففى الصحيحين أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة : تمن فيتمنى حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: تمن من كذا وتمن من كذا يذكره ثم يقول ذلك لك وعشرة أمثاله .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر » الحديث بطوله ، وقال خالد بن معدان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى ، لها ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة ، وإن سقط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبى حاتم

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة (لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) أى تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم فان تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين قال الله تعالى (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك) الآية ، وقال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة،

وقوله (وهم يكفرون بالرحمن) أى هـذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا ماندرى ما الرحمن الرحيم ، قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى ، وقد قال الله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن » (قل هو ربى لا إله إلا هو) أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به معترف ،مقر له بالربوبية والإلاهية هو ربى لا إله إلا هو (عليه توكلت) أى فى جميع أمورى (وإليه متاب) أى إليه أرجع وأنيب فانه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى لوكان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق أوتكلم به الموتى فى قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الاعجاز الذى لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له (بل لله الأمر جميعا) أى مرجع الأمور كلها إلى الله عزوجل ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع ، قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ماحدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه » انفرد باخراجه البخارى ، والمراد بالقرآن هو الزبور وقوله (أفلم ييأس الذين آمنوا) أى من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا (أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) فانه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى العقول والنفوس من هذا القرآن الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « مامن نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » معناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب ابن الحارث أنبأنا بشر بن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) الآية قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية ، قال قلت هل ترون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ ؟ قال نعم عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم وكذا روى عن ابن عباس والشعبى وقتادة والثورى وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية والله أعلم ، وقال قتادة لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم ، وقوله (بل لله الأمر جميعا) قال ابن عباس أى لا يصنع من ذلك إلا ماشاء ولم يكن ليفعل رواه ابن إسحق بسنده عنه وقاله ابن جرير أيضا وقال غير واحد من السلف فى قوله (أفلم ييأس الذين آمنوا) أفلم يعلم الذين آمنوا ، وقرأ آخرون أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا وقال أبو العالية قد يئس الذين آمنوا أن يهدوا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا ، وقوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من

دارهم) أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) وقال (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) قال قتادة عن الحسن (أو تحل قريباً من دارهم) أى القارعة وهذا هو الظاهر من السياق ، وقال أبو داود الطيالسى حدثنا المسعودى عن قتادة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال سرية (أو تحل قريباً من دارهم) قال محمد صلى الله عليه وسلم (حتى يأتى وعد الله) قال « فتح مكة » وهكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد فى رواية ، وقال العوفى عن ابن عباس (تصيبهم بما صنعوا قارعة) قال عذاب من السماء ينزل عليهم (أو تحل قريباً من دارهم) يعنى نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وقتاله إياهم وكذا قال مجاهد وقتادة وقال عكرمة فى رواية عن ابن عباس (قارعة) أى نكبة وكلهم قال (حتى يأتى وعد الله) يعنى فتح مكة وقال الحسن البصرى يوم القيامة ، وقوله (إن الله لا يخلف الميعاد) أى لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام)

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه (ولقد استهزىء برسل من قبلك) أى فلك فيهم أسوة (فأمليت للذين كفروا) أى أنظرتهم وأجلتهم (ثم أخذتهم) أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم كما قال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد)

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

يقول تعالى (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) وقال (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وقال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) وقال (يعلم السر وأخفى) وقال (وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير) أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها ؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه وهو قوله (وجعلوا لله شركاء) أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان (قل سموهم) أى أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ولهذا قال (أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى لا وجود له لأنه لو كان لها وجود فى الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية (أم بظاهر من القول) قال مجاهد بظن من القول ، وقال الضحاك وقتادة بباطل من القول أى إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة (إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان * إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) (بل زين للذين كفروا مكرهم) قال مجاهد قولهم أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار كقوله تعالى (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم) الآية (وصدوا عن السبيل) من قرأها بفتح الصاد معناه أنه لما زين لهم ما فيه وأنه حق دعوا إليه وصدوا الناس عن اتباع طريق الرسل ، ومن قرأها بالضم أى بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال (ومن يضلل الله فما له من هاد) كما قال (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا) وقال (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين)

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار فقال بعد إخباره عن حال المشركين وماهم عليه من الكفر والشرك (لهم عذاب فى الحياة الدنيا) أى بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا (ولعذاب الآخرة) أى المدخر مع هذا الخزى فى الدنيا (أشق) أى من هـذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه. فإن عذاب الدنيا له انقضاء وذاك دائم أبدا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا ووثاق لايتصور كثافته وشـدته كما قال تعالى (فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد) وقال تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً * لاتدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاءا ومصيراً) ولهذا قرن هذا بقوله (مثل الجنة التى وعد المتقون) أى صفتها ونعتها (تجرى من تحتها الأنهار) أى سارحة فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً أى يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا كقوله (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة) الآية وقوله (أكلها دائم وظلها) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء، وفى الصحيحين من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف وفيه قالوا يارسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت فقال «إنى رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيدالله حدثنا أبو عقيل عن جابر قال: بينا نحن فى صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا ثم تناول شيئا ليأخـذه ثم تأخر فلما قضى الصـلاة قال له أبى بن كعب يارسول الله صنعت اليوم فى الصلاة شيئا مارأيناك كنت تصنعه فقال «إنى عرضت على الجنة ومافيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لاينقصونه» وروى مسلم من حديث أبى الزبير عن جابر شاهدا لبعضه، وعن عتبة بن عبد السلمى أن أعرابيا سأل النبى ﷺ عن الجنة فقال فيها عنب؟ قال «نعم» قال فما عظم العنقود؟ قال «مسيرة شهر للغراب الأبقع ولا يفتر» رواه الإمام أحمد وقال الطبرانى حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا على بن المدينى حدثنا ريحان بن سعيد عن عباد بن منصور عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى أسماء عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنـة عادت مكانها أخرى» وعن جابر بن عبـد الله قال: قال رسول الله ﷺ «يأكل أهـل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس» ورواه مسلم، وروى الإمام أحمد والنسائى من حديث الأعمش عن ثمام بن عقبة سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم: تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال «نعم والذى نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة» قال إن الذى يأكل ويشرب تـكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى قال «تـكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه» رواه الإمام أحمد والنسائى وقال الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد بن الأعرج عن عبدالله بن الحارث عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لى رسول الله ﷺ «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنـة فيخر بين يديك مشويا» وجاء فى بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منـه عاد طائراً كما كان باذن الله تعالى وقد قال الله تعالى (وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة) وقال (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) وكذلك ظلها لايزول ولا يقلص كما قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى

من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا)
وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها » ثم قرأ (وظل ممدود) وكثيرا مايقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار ، ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده (تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار) كما قال تعالى (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه : عباد الله ، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم تقبلت منكم أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم ؟ (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون) والله لو عجل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم ، أوترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم ولا تنافسون في جنة (أكلها دائم) رواه ابن أبي حاتم

﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

يقول تعالى (والذين آتيناهم الكتاب) وهم قائمون بمقتضاه (يفرحون بما أنزل إليك) أى من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) الآية وقال تعالى (قل آمنوا به أولا تؤمنوا — إلى قوله — إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة وكائنا فسبحانه ما أصدق وعده فله الحمد وحده (ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً) وقوله (ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل اليك وقال مجاهد (ومن الأحزاب) أى اليهود والنصارى (من ينكر بعضه) أى بعض ما جاءك من الحق وكذا قال قتاده وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كما قال تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) الآية (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى إنما بعثت بعبادة الله وحده لاشريك له كما أرسل الأنبياء من قبلى (إليه أدعو) أى إلى سبيله أدعو الناس (وإليه مآب) أى مرجعى ومصيرى . وقوله (وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله (ولئن اتبعت أهواءهم) أى آراءهم (بعد ماجاءك من العلم) أى من الله سبحانه (مالك من الله من ولىّ ولا واق) وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا اليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم وجعلنا لهم أزواجا وذرية وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أنبأنا الحجاج

ابن أرطاة عن مكحول قال : قال أبو أيوب : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن من المرسلين . التعطر والنكاح والسواك والحناء » وقد رواه أبو عيسى الترمذى عن سفيان بن وكيع عن حفص بن غيلان عن الحجاج عن مكحول عن أبى الشمال عن أبى أيوب فذكره ثم قال وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال

وقوله (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد (لكل أجل كتاب) أى لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شىء عنده بمقدار (ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وكان الضحاك ابن مزاحم يقول فى قوله (لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل يعنى لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين فلهذا (يمحوا الله ما يشاء) منها (ويثبت) يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) اختلف المفسرون فى ذلك فقال الثورى ووكيع وهشيم عن ابن أبى ليلى عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : يدبر أمر السنة فيمحوا الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وفى رواية (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) قال كل شىء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فانهما قد فرغ منهما ، وقال مجاهد (يمحو الله ما يشاء ويثبت) إلا الحياة والموت والشقاء والسعادة فانهما لا يتغيران ، وقال منصور سألت مجاهداً فقلت أرأيت دعاء أحدنا يقول : اللهم إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء فقال حسن ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك فقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) الآيتين قال يقضى فى ليلة القدر ما يكون فى السنة من رزق أو مصيبة ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء ، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير ، وقال الأعمش عن أبى وائل شقيق بن سلمة إنه كان كثيرا يدعو بهذا الدعاء : اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه واكتبنا سعداء وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا فانك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . رواه ابن جرير ، وقال ابن جرير أيضا حدثنا عمرو بن على حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن أبى حكيمة عصمة[1] عن أبى عثمان النهدى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكى : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه فإنك تمحوا ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة

وقال حماد عن خالد الحذاء عن أبى قلابة عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا ورواه شريك عن هلال بن حميد عن عبد الله بن عليم عن ابن مسعود بمثله ، وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا حجاج حدثنا خصاف[2] عن أبى حمزة عن إبراهيم أن كعبا قال لعمر بن الخطاب : يا أمير المؤمنين لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال وما هى؟ قال قول الله تعالى (يمحو الله ما يشاء) الآية ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان هو الثورى عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله بن أبى الجعد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر » ورواه النسائى وابن ماجه من حديث سفيان الثورى به ، وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، وفى حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سهل بن عسكر حدثنا عبد الرزاق أنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال إن لله لوحا محفوظاً مسيرة خمسمائة عام من درة بيضاء لها دفتان من ياقوت — والدفتان لوحان — لله كل يوم ثلاثمائة وستون لحظة يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . وقال الليث بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ « يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت » وذكر تمام الحديث رواه ابن جرير وقال الكلبى يمحو الله ما يشاء ويثبت قال يمحو من الرزق ويزيد فيه ، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، فقيل له من حدثك بهذا ؟ فقال أبو صالح عن جابر بن عبد الله بن رئاب عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم سئل بعد ذلك

(١) كلمة عصمة غير موجودة فى نسخة ابن جرير . (٢) وفيها : حماد .

عن هذه الآية فقال يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب مثل قولك أكلت وشربت دخلت وخرجت ونحو ذلك من الكلام وهو صادق ويثبت ما كان فيه الثواب وعليه العقاب ، وقال عكرمة عن ابن عباس: الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) يقول هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة فهو الذي يمحو ؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت ، وروى عن سعيد بن جبير أنها بمعنى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يقول يبدل ما يشاء فينسخه ويثبت ما يشاء فلا يبدله (وعنده أم الكتاب) وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب ، وقال قتادة في قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت) كقوله (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله (يمحوا الله ما يشاء ويثبت) قال قالت كفار قريش لما نزلت (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر فأنزلت هذه الآية تخويفا ووعيداً لهم إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا ونحدث في كل رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم ، وقال الحسن البصري (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قال من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله ، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله وقوله (وعنده أم الكتاب) قال الحلال والحرام ، وقال قتادة أي جملة الكتاب وأصله ، وقال الضحاك (وعنده أم الكتاب) قال كتاب عند رب العالمين ، وقال سنيد بن داود حدثني معتمر عن أبيه عن يسار عن ابن عباس أنه سأل كعباً عن أم الكتاب فقال : علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون ثم قال لعلمه : كن كتابا فكان كتاباً ، وقال ابن جريج عن ابن عباس (وعنده أم الكتاب) قال الذكر .

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى لرسوله (وإما نرينك) يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا (أو نتوفينك) أي قبل ذلك (فإنما عليك البلاغ) أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به (وعلينا الحساب) أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم) وقوله (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) قال ابن عباس أو لم يروا أنا نفتح لمحمد صلى الله عليه وسلم الأرض بعد الأرض ، وقال في رواية أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية وقال مجاهد وعكرمة ننقصها من أطرافها قال خرابها ، وقال الحسن والضحاك هو ظهور المسلمين على المشركين ، وقال العوفي عن ابن عباس : نقصان أهلها وبركتها وقال مجاهد نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، وقال الشعبي لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك ولكن تنقص الأنفس والثمرات وكذا قال عكرمة لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه ولكن هو الموت . وقال ابن عباس في رواية خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ، وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء ، وفي هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبي القاسم المصري الواعظ سكن أصبهان حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المري بدمشق أنشدنا أبو بكر الآجري بمكة قال أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه .

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها * متى يمت عالم منها يمت طرف

كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها * وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية كقوله (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى)

الآية وهذا اختيار ابن جرير .

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾

يقول تعالى (وقد مكر الذين من قبلهم) برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين) وقوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) الآيتين ، وقوله (يعلم ما تكسب كل نفس) أى أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزى كل عامل بعمله (وسيعلم الكافر) والقراءة الأخرى الكفار (لمن عقبى الدار) أى لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾

يقول تعالى يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون (لست مرسلا) أى ما أرسلك الله (قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم) أى حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ، شاهد على فيما بلغت عنه من الرسالة وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان ، وقوله (ومن عنده علم الكتاب) قيل نزلت فى عبد الله بن سلام . قاله مجاهد وهذا القول غريب لأن هذه الآية مكية ، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم النبى ﷺ المدينة ، والأظهر فى هذا ما قاله العوفى عن ابن عباس قال هم من اليهود والنصارى ، وقال قتادة منهم ابن سلام وسلمان وتميم الدارى ، وقال مجاهد فى رواية عنه هو الله تعالى وكان سعيد بن جبير ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام ويقول هى مكية وكان يقرؤها (ومن عنده علم الكتاب) ويقول من عند الله ، وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى . وقد روى ابن جرير من حديث هارون الأعور عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأها (ومن عنده علم الكتاب) ثم قال لا أصل له من حديث الزهرى عند الثقات ، قلت وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده من طريق هارون بن موسى هذا عن سليمان ابن أرقم وهو ضعيف عن الزهرى عن سالم عن أبيه مرفوعا كذلك ولا يثبت والله أعلم . والصحيح فى هذا أن (ومن عنده) اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته فى كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به كما قال تعالى (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) الآية ، وقال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) الآية وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة . وقد ورد فى حديث الأحبار عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة . قال الحافظ أبو نعيم الاصبهانى فى كتاب دلائل النبوة وهو كتاب جليل حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا محمد بن مصفى حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده عبد الله بن سلام أنه قال لأحبار اليهود إنى أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فوافاهم وقد انصرفوا من الحج فوجد رسول الله ﷺ بمنى والناس حوله فقام مع الناس ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال « أنت عبد الله بن سلام؟ » قال قلت نعم ؟ قال « ادن » قال فدنوت منه قال « أنشدك بالله يا عبد الله ابن سلام أما تجدنى فى التوراة رسول الله ؟ » فقلت له انعت ربنا ، قال فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له (قل هو الله أحد الله الصمد) إلى آخرها ، فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن سلام أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجذها فألقيت نفسى فقالت أمى : لله أنت لو كان موسى بن عمران ما كان

لك أن نأتي نفسك من رأس الحلة فقلت والله لأنا أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بعث . وهذا حديث غريب جدا آخر تفسير سورة الرعد ولله الحمد والمنة

﴿ تفسير سورة إبرهيم عليه السلام وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور (كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذى هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله فى الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم (لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغى إلى الهدى والرشد كما قال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) الآية . وقال تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور) الآية وقوله (بإذن ربهم) أى هو الهادى لمن قدر له الهداية على يدى رسوله المبعوث عن أمره يهديهم (إلى صراط العزيز) أى العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب بل هو القاهر لكل ماسواه (الحميد) أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه الصادق فى خبره وقوله (الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) قرأ بعضهم مستأنفاً مرفوعا وقرأ آخرون على الاتباع صفة للجلالة كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض) الآية وقوله (وويل للكافرين من عذاب شديد) أى ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك ، ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة أى يقدمونها ويؤثرونها عليها ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم (ويصدون عن سبيل الله) وهى اتباع الرسل (ويبغونها عوجا) أى ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة عائلة وهى مستقيمة فى نفسها لا يضرها من خالفها ولا من خذلها فهم فى ابتغائهم ذلك فى جهل وضلال بعيد من الحق لا يرجى لهم والحالة هذه صلاح

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم كما روى الأمام أحمد حدثنا وكيع عن عمر بن ذر قال : قال مجاهد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « لم يبعث الله عزوجل نبيا إلا بلغة قومه » وقوله (فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ويهدى من يشاء إلى الحق (وهو العزيز) الذى ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن (الحكيم) فى أفعاله فيضل من يستحق الاضلال ويهدى من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته فى خلقه أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم واختص محمد بن عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وله شواهد من وجوه كثيرة وقال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا قال مجاهد : هي التسع الآيات (أن أخرج قومك) أي أمرناه قائلين له (أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان (وذكرهم بأيام الله) أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم الغمام وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد ، وقد ورد فيه الحديث المرفوع الذي رواه عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل في مسند أبيه حيث قال حدثني يحيي بن عبدالله مولى بني هاشم حدثنا محمد بن أبان الجعفي عن أبي إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وذكرهم بأيام الله) قال بنعم الله ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان به ورواه عبدالله ابنه أيضا موقوفا وهو أشبه ، وقوله (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة لكل صبار أي في الضراء شكور أي في السراء كما قال قتادة نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر وإذا أعطي شكر . وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له »

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ونعمه عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ويتركون إناثهم فأنقذهم الله من ذلك وهذه نعمة عظيمة ولهذا قال (وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أي نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها . وقيل وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) أي اختبار عظيم ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا والله أعلم كقوله تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) وقوله (وإذ تأذن ربكم) أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه كقوله تعالى (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة) وقوله (لئن شكرتم لأزيدنكم) أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها (ولئن كفرتم) أي كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها (إن عذابي لشديد) وذلك بسلبها عنهم وعقابه إياهم على كفرها وقد جاء في الحديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » وفي المسند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به سائل

فأعطاه تمرة فتسخطها ولم يقبلها ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها وقال تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر له أربعين درهما أوكما قال: قال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا عمارة الصيدلانى عن ثابت عن أنس قال أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها أو وحش بها ـ قال ـ وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية « اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها » تفرد به الإمام أحمد وعمارة بن زاذان وثقه ابن حبان وأحمد ويعقوب بن سفيان ، وقال ابن معين : صالح وقال أبو زرعة لا بأس به وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ليس بالمتين ، وقال البخارى ربما يضطرب فى حديثه وعن أحمد أيضا أنه قال روى أحاديث منكرة ، وقال أبو داود ليس بذاك وضعفه الدارقطنى وقال ابن عدى لا بأس به ممن يكتب حديثه

وقوله تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنىٌّ حميد) أى هو غنى عن شكر عباده وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره كقوله (إن تكفروا فإن الله غنى عنكم) الآية وقوله (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد) وفى صحيح مسلم(١) عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال « ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك من ملكى شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر » فسبحانه وتعالى الغنى الحميد

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

قال ابن جرير هذا من تمام قول موسى لقومه يعنى وتذكيره إياهم بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، وفيما قال ابن جرير نظر ، والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة فانه قد قيل إن قصة عاد وثمود ليست فى التوراة فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقصصه عليهم لاشك أن تكون هاتان القصتان فى التوراة والله أعلم و بالجملة فالله تعالى قد قص علينا خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل مما لا يحصى عددهم إلا الله عز وجل (جاءتهم رسلهم بالبينات) أى بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ، وقال ابن إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبدالله أنه قال فى قوله (لا يعلمهم إلا الله) كذب النسابون وقال عروة بن الزبير ماوجدنا أحداً يعرف مابعد معد بن عدنان وقوله (فردوا أيديهم فى أفواههم) اختلف المفسرون فى معناه قيل معناه أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل وقيل بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم ، وقيل بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة: معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم قال ابن جرير وتوجيهه أن فى هنا بمعنى الباء قال وقد سمع من العرب أدخلك الله بالجنة يعنون فى الجنة ، وقال الشاعر :

وأرغب فيها عن لقيط ورهطه * ولكننى عن سنبس لست أرغب

يريد أرغب بها قلت ويؤيد قول مجاهد تفسير ذلك بتمام الكلام (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) فكأن هذا والله أعلم تفسير لمعنى (فردوا أيديهم فى أفواههم) وقال سفيان الثورى وإسرائيل عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبدالله فى قوله (فردوا أيديهم فى أفواههم) قال عضوا عليها غيظا وقال شعبة عن أبى إسحق عن أبى هبيرة بن مريم عن عبدالله أنه قال ذلك أيضا ، وقد اختاره عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ووجهه ابن جرير مختارا له بقوله تعالى عن المنافقين (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) وقال العوفى عن ابن عباس لما سمعوا كلام الله عجبوا ورجعوا

(١) قوله وفى صحيح مسلم إلخ الموجود هنا بعض الحديث .

بأيديهم إلى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به الآية يقولون لا نصدقكم فيما جئتم به فإن عندنا فيه شكا قويا

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له قالت الرسل (أفي الله شك) وهذا يحتمل شيئين (أحدهما) أفي وجوده شك فإن الفطر مشاهدة بوجوده ومجبولة على الاقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه (فاطر السموات والأرض) الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما فلابد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلاهه ومليكه، والمعنى الثاني في قولهم (أفي الله شك) أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى ، وقالت لهم رسلهم (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) أي في الدار الآخره (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أي في الدنيا كما قال تعالى (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) الآية فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول وحاصل ما قالوه (إن أنتم إلا بشر مثلنا) أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ولما نر منكم معجزة (فأتونا بسلطان مبين) أي خارق نقترحه عليكم (قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم) أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية (ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) أي بالرسالة والنبوة (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان) على وفق ما سألتم (إلا بإذن الله) أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي في جميع أمورهم ثم قالت الرسل (وما لنا أن لا نتوكل على الله) أي وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها (ولنصبرن على ما آذيتمونا) أي من الكلام السيء والأفعال السخيفة (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّٰلِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الاخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به (لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا) الآية. وكما قال قوم لوط (أخرجوا آل لوط من قريتكم) الآية وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك

إلا قليلا) وقال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا يقاتلون في سبيل الله تعالى ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته ومكن له فيها وأرغم أنوف أعدائهم منهم من سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجا وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان ولهذا قال تعالى (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم كما قال (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) وقال تعالى (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر) الآية (وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) وقال تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) وقوله (ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد) أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة وخشي من وعيدي وهو تخويفي وعذابي كما قال تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى) وقال (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله (واستفتحوا) أي استنصرت الرسل ربها على قومها قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) ويحتمل أن يكون هذا مرادا وهذا مرادا كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر ، وقال الله تعالى للمشركين (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم) الآية والله أعلم (وخاب كل جبار عنيد) أي متجبر في نفسه عنيد معاند للحق كقوله تعالى (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد ، مناع للخير معتد مريب ، الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد) وفي الحديث « انه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق فتقول إني وكلت بكل جبار عنيد » الحديث . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر ، وقوله (من ورائه جهنم) وراء هنا بمعنى أمام كقوله تعالى (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا) وكان ابن عباس يقرؤها وكان أمامهم ملك أي من وراء الجبار العنيد جهنم أي هي له بالمرصاد يسكنها مخلدا يوم المعاد ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد (ويسقى من ماء صديد) أي في النار ليس له شراب إلا من حميم وغساق فهذا حار في غاية الحرارة وهذا بارد في غاية البرد والنتن كما قال (هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم ، وقال قتادة هو ما يسيل من لحمه وجلده وفي رواية عنه الصديد ما يخرج من جوف الكافر قد خالط القيح والدم ، وفي حديث شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ابن السكن قالت قلت يا رسول الله ما طينة الخبال قال « صديد أهل النار » وفي رواية « عصارة أهل النار » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله أنا صفوان بن عمرو عن عبيد الله بن بشر عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله (ويسقى من ماء صديد يتجرعه) قال « يقرب إليه فيتكرهه فإذا أدني منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » يقول الله تعالى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) ويقول (وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه) الآية ، وهكذا رواه ابن جرير من حديث عبد الله بن المبارك به ورواه هو وابن أبي حاتم من حديث بقية بن الوليد عن صفوان بن عمرو به ، وقوله (يتجرعه) أي يتغصصه ويتكرهه أي يشربه قهرا وقسرا لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد كما قال تعالى (ولهم مقامع من حديد) (ولا يكاد يسيغه) أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع (ويأتيه الموت من كل مكان) أي يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه قال عمرو بن ميمون بن مهران من كل عظم وعصب وعرق ، وقال عكرمة حتى من أطراف شعره ، وقال إبراهيم التيمي من موضع كل شعرة أي من جسده حتى من أطراف شعره وقال ابن جرير (ويأتيه الموت من كل مكان) أي من أمامه وخلفه وفي رواية وعن يمينه وشماله ومن فوقه

ومن تحت أرجله ومن سائر أعضاء جسده ، وقال الضحاك عن ابن عباس (ويأتيه الموت من كل مكان) قال أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لوكان يموت ولكن لا يموت لأن الله تعالى قال (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) ومعنى كلام ابن عباس رضى الله عنه أنه مامن نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه لو كان يموت ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال ولهذا قال تعالى (ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) وقوله (ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم صعب شديد أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) فاخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم وتارة فى شرب حميم وتارة يردون إلى جحيم عياذاً بالله من ذلك وهكذا قال تعالى (هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن) وقال تعالى (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون) وقال (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم) وقال تعالى (هذا وإن للطاغين لشرمآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله عزوجل جزاء وفاقا (وما ربك بظلام للعبيد)

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره وكذبوا رسله وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانها رت وعدموها أحوج ماكانوا إليها ، فقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أى مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شىء فلم يجدوا شيئاً ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة (فى يوم عاصف) أى ذى ريح شديدة عاصفة قوية فلم يقدروا على شىء من أعمالهم التى كسبوا فى الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد فى هذا اليوم كقوله تعالى (وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) وقوله تعالى (مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وماظلمهم الله . ولكن أنفسهم يظلمون) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين) وقوله فى هذه الآية (ذلك هو الضلال البعيد) أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه (ذلك هو الضلال البعيد)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة بأنه خلق السموات والأرض التى هى أكبر من خلق الناس أفليس الذى قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وعظمتها ومافيها من الكواكب الثوابت والسيارات والحركات المختلفات والآيات الباهرات وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد وبرارى وصحارى وقفار وبحار وأشجار ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها (أولم يروا أن الله الذى خلق

السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ، بلى إنه على كل شيء قدير) وقال تعالى (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون * أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)وقوله (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد* وما ذلك على الله بعزيز) أي بعظيم ولا ممتنع بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره أن يذهبكم ويأت بآخرين على غير صفتكم كما قال (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وماذلك على الله بعزيز) وقال (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) وقال (يا أيها الذين آمنوا من يرتدمنكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) وقال إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً)

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾

يقول تعالى (وبرزوا) أي برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار أي اجتمعوا له في براز من الارض وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا (فقال الضعفاء) وهم الاتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم (للذين استكبروا) عن عبادة الله وحده لا شريك له وعن موافقة الرسل قالوا لهم (إنا كنا لكم تبعا) أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا (فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء) أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم (لوهدانا الله لهدينا كم) ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله وحقت كلمة العذاب على الكافرين (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أوجزعنا منه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : إن أهل النار قال بعضهم لبعض تعالوا فانما أدرك أهل الجنة الجنة ببكائهم وتضرعهم إلى الله عزوجل تعالوا نبك ونتضرع إلى الله فبكوا وتضرعوا فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا إنما أدرك أهل الجنة الجنة بالصبر تعالوا حتى نصبر فصبروا صبرا لم ير مثله فلم ينفعهم ذلك فعند ذلك قالوا (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا) الآية ، قلت والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها كما قال تعالى (وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعافهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ؛ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وقال تعالى (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) وأما تخاصمهم في المحشر فقال تعالى (ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذا جاءكم ، بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تامروننا أن نكفر بالله ونجعل له اندادا وأسروا الندامة لما راوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون)

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن

سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعد ماقضى الله بين عباده فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيباً ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم فقال (إن الله وعدكم وعد الحق) أى على ألسنة رسله ووعدكم فى اتباعهم النجاة والسلامة وكان وعداً حقا وخبرا صدقا وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم كما قال الله تعالى (يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلاغروراً) ثم قال (وما كان لى عليكم من سلطان) أى ما كان لى عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به (إلاأن دعوتكم فاستجبتم لى) بمجرد ذلك هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ماجاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه (فلاتلومونى) اليوم (ولوموا أنفسكم) فان الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتمونى بمجرد مادعوتكم إلى الباطل (ما أنا بمصرخكم) أى بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه (وما أنتم بمصرخىّ) أى بنافعى بانقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال (إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) قال قتادة أى بسبب ما أشركتمون من قبل ، وقال ابن جرير يقول إنى جحدت أن أكون شريكا لله عزوجل وهذا الذى قاله هو الراجح كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداءا وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال (كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقوله (إن الظالمين) أى فى إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل لهم عذاب أليم والظاهر من سياق الآية أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار كما قدمنا ولكن قد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم وهذا لفظه وابن جرير من رواية عبد الرحمن بن زياد : حدثنى دخين الحجرى عن عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا جمع الله الأولين والآخرين فقضى بينهم ففرغ من القضاء، قال المؤمنون قد قضى بيننا ربنا فمن يشفع لنا ؟ فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم وذكر نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى فيقول عيسى أدلكم على النبى الأمى فيأتونى فيأذن الله لى أن أقوم اليه فيثور من مجلسى من أطيب ريح شمها أحد قط حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون هذا قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا ؟ ماهو إلا إبليس هو الذى أضلنا ، فيأتون إبليس فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط ثم يعظم نحيبهم (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلاتلومونى ولوموا أنفسكم) » وهذا سياق ابن أبى حاتم ورواه المبارك عن رشدين بن سعد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن دخين عن عقبة به مرفوعا ، وقال محمد بن كعب القرظى رحمه الله لما قال أهل النار (سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) قال لهم إبليس (إن الله وعدكم وعد الحق) الآية فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون) وقال عامر الشعبى يقوم خطيبان يوم القيامة على رءوس الناس يقول الله تعالى لعيسى بن مريم (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟) إلى قوله (قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) قال ويقوم إبليس لعنه الله فيقول (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) الآية . ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا اليه من الخزى والنكال ، وأن خطيبهم إبليس عطف بمآل السعداء فقال (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار) سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا (خالدين فيها) ماكثين أبدا لايحولون ولا يزولون (بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام) كما قال تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم)

وقال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقال تعالى (ويلقون فيها تحية وسلاما) وقال تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله (مثلا كلمة طيبة) شهادة أن لا إله إلا الله (كشجرة طيبة) وهو المؤمن (أصلها ثابت) يقول لا إله إلا الله فى قلب المؤمن (وفرعها فى السماء) يقول يرفع بها عمل المؤمن الى السماء وهكذا قال الضحاك وسعيد ابن جبير وعكرمة ومجاهد وغير واحد إن ذلك عبارة عن عمل المؤمن وقوله الطيب وعمله الصالح وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح فى كل حين ووقت وصباح ومساء وهكذا رواه السدى عن مرة عن ابن مسعود قال هى النخلة وشعبة عن معاوية بن قرة عن أنس هى النخلة ، وحماد بن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس أن رسول الله ﷺ أتى بقناع بسر فقرأ (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال هى النخلة ، وروى من هذا الوجه ومن غيره عن أنس موقوفا وكذا نص عليه مسروق ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وغيرهم ، وقال البخارى حدثنا عبيد بن إسماعيل عن أبى أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « أخبرونى عن شجرة تشبه — أو — كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر فوقع فى نفسى أنها النخلة ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله ﷺ « هى النخلة » فلما قمنا قلت لعمر يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب الىّ من كذا وكذا ، وقال أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد صحبت ابن عمر إلى المدينة فلم أسمعه يحدث عن رسول الله ﷺ إلا حديثا واحدا قال كنا عند رسول الله ﷺ وأتى بجمار فقال « من الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم » فأردت أن أقول هى النخلة فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هى النخلة » أخرجاه . وقال مالك وعبد العزيز عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما لأصحابه « إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن » قال فوقع الناس فى شجر البوادى ووقع فى قلبى أنها النخلة فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ « هى النخلة » أخرجاه أيضا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبان يعنى ابن زيد العطار حدثنا قتادة أن رجلا قال يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور ، فقال « أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء ؟» قال ماهو يارسول الله ؟ قال « تقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء » وعن ابن عباس (كشجرة طيبة) قال هى شجرة فى الجنة وقوله (تؤتى أكلها كل حين) قيل غدوة وعشيا وقيل كل شهر وقيل كل شهرين وقيل كل ستة أشهر وقيل كل سبعة أشهر وقيل كل سنة ، والظاهر من السياق أن المؤمن مثله كمثل شجرة لا يزال يوجد منها ثمر فى كل وقت من صيف أو شتاء أو ليل أو نهار كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار فى كل وقت وحين (بإذن ربها) أى كاملا حسنا كثيراً طيبا مباركا (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) وقوله تعالى (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هذا مثل كفر الكافر لا أصل له ولا ثبات مشبه بشجرة الحنظل ويقال لها الشريان رواه شعبة عن معاوية بن أبى قرة عن أنس بن مالك: أنها شجرة الحنظل ، وقال أبو بكر البزار الحافظ حدثنا يحيى بن محمد السكن حدثنا أبو زيد سعيد بن الربيع حدثنا شعبة عن معاوية بن

قرة عن أنس أحسبه رفعه قال (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) قال هي النخلة (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) قال هى الشريان ثم رواه عن محمد بن المثنى عن غندر عن شعبة عن معاوية عن أنس موقوفا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد هو ابن سلمة عن شعيب بن الحبحاب عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة) هى الحنظلة » فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : هكذا كنا نسمع ، ورواه ابن جرير من حديث حماد بن سلمة به ورواه أبو يعلى فى مسنده بأبسط من هذا فقال حدثنا غسان عن حماد عن شعيب عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بقناع عليه بسر فقال (مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) فقال « هى النخلة » (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالهـا من قرار) قال هى الحنظل » قال شعيب فأخبرت بذلك أبا العالية فقال : كذلك كنا نسمع. وقوله (اجتثت)أى استؤصلت (من فوق الأرض مالها من قرار) أى لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتقبل منه شيء

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أخبرنى علقمة بن مرثد قال سمعت سعد بن عبيدة عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) » ورواه مسلم أيضاً وبقية الجماعة كلهم من حديث شعبة به ، وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثا ثم قال «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليـه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ــ قال ــ فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهذه الروح الطيبة؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك؟ فيقول ربى الله فيقولان له مادينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة ــ قال ــ فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول رب أقم الساعة رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى ــ قال ــ وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة: اخرجى

إلى سخط من الله وغضب ـ قال ـ فتفرق فى جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ماهذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ـ ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ـ ثم قرأ (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى منادى من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة » ورواه أبو داود من حديث الأعمش والنسائى وابن ماجه من حديث المنهال بن عمرو به ، وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن يونس بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن زاذان عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة فذكر نحوه وفيه « فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم » وفى آخره « ثم يقيض له أعمى أصم أبكم وفى يده مرزبة لو ضرب بها جبل لكان ترابا فيضربه ضربة فيصير ترابا ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه ضربة أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الثقلين » قال البراء ثم يفتح له باب إلى النار ويمهد له من فرش النار ، وقال سفيان الثورى عن أبيه عن خيثمة عن البراء فى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) قال عذاب القبر . وقال المسعودى عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره فيقال له ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد صلى الله عليه وسلم وقرأ عبد الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وقال الإمام عبد بن حميد رحمه الله فى مسنده حدثنا يونس بن محمد حدثنا شيبان بن عبد الرحمن عن قتادة حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة » قال النبى صلى الله عليه وسلم « فيراهما جميعا » قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم القيامة رواه مسلم عن عبد بن حميد به وأخرجه النسائى من حديث يونس بن محمد المؤدب به ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتانى القبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار فيقول له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فأما المؤمن فيقول إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبده فيقول له الملك انظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذى ترى من النار مقعدك الذى ترى من الجنة فيراهما كلاهما ، فيقول المؤمن دعونى أبشر أهلى فيقال له اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى أقول كما يقول الناس ، فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار » قال جابر فسمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول « يبعث كل عبد فى القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه » إسناد صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا عباد بن راشد عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال:

شهدنا مع رسول الله ﷺ جنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك فى يده مطراق من حديد فأقعده فقال ما تقول فى هذا الرجل ؟ فان كان مؤمنا قال أشهد أن لا إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقول له صدقت ثم يفتح له بابا إلى النار فيقول كان هذا منزلك لو كفرت بربك فأما إذ آمنت فهذا منزلك فيفتح له بابا إلى الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقول له اسكن ويفسح له فى قبره، وإن كان كافرا أو منافقا يقول له ما تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فيقول لا دريت ولا تليت ولا اهتديت ثم يفتح له بابا إلى الجنه فيقول له هذا منزلك لو آمنت بربك فأما إذ كفرت به فإن الله عزوجل أبدلك به هذا فيفتح له بابا إلى النار ثم يقمعه قمعة بالمطراق فيصيح صيحة يسمعها خلق الله عزوجل كلهم غير الثقلين، فقال بعض القوم يارسول الله ما أحد يقوم عليه ملك فى يده مطراق إلا هيل عند ذلك فقال رسول الله ﷺ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) وهذا أيضا إسناد لا بأس به فان عباد بن راشد التميمى روى له البخارى مقرونا ولكن ضعفه بعضهم وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن محمد عن ابن أبى ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان فيقولون مرحبا بالروح الطيبة كانت فى الجسد الطيب ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان — قال — فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله عزوجل . وإذا كان الرجل السوء قالوا اخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث اخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان فيقال لا مرحبا بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فانه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل فى الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول . ورواه النسائى وابن ماجه من طريق ابن أبى ذئب بنحوه ؛ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها قال حماد فذكر من طيب ريحها وذكر المسك — قال — ويقول أهل السماء روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه فينطلق به إلى ربه عزوجل فيقول انطلقوا به إلى آخر الأجل . وإن الكافر إذا خرجت روحه — قال حماد — وذكر من نتنها وذكر مقتا ويقول أهل السماء روح خبيثة جاءت من قبل الأرض فيقال انطلقوا به إلى آخر الأجل — قال أبو هريرة فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه على أنفه هكذا.

وقال(١) ابن حبان فى صحيحه حدثنا عمر بن محمد الهمدانى حدثنا زيد بن أخزم حدثنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة عن قسامة بن زهير عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال « إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجى إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل الأرض ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فانه كان فى غم فيقول قد مات أما أتاكم فيقولون ذهب به إلى أمه الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض »

وقد روى أيضا من طريق همام بن يحيى عن أبى الجوزاء عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه قال « فيسأل ما فعل فلان، ما فعلت فلانة ، قال وأما الكافر فإذا قبضت نفسه وذهب بها إلى باب الأرض تقول خزنة الأرض ما وجدنا ريحا أنتن من هذه فيبلغ بها الأرض السفلى » قال قتادة وحدثنى رجل عن سعيد بن المسيب عن عبدالله ابن عمرو قال : أرواح المؤمنين تجتمع بالجابيين ، وأرواح الكفار تجتمع ببرهوت سبخة بحضرموت ثم يضيق عليه

(١) من هنا إلى قوله الآتى : وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى غير موجود فى النسخة المكية .

قبره . وقال الحافظ أبو عيسى الترمذى رحمه الله حدثنا يحي بن خلف حدثنا بشر بن المفضل عن عبدالرحمن عن سعيد ابن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قبر الميت ـ أو قال أحدكم ـ أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر والآخر نكير فيقولان ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا فى سبعين وينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع إلى أهلى فأخبرهم فيقولان نم نومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقا قال سمعت الناس يقولون فقلت مثلهم لا أدرى فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب . وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ـ قال ـ « ذلك إذا قيل له فى القبر من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله : ودينى الإسلام ونبيى محمد جاءنا بالبينات من عند الله فآمنت به وصدقت فيقال له صدقت على هذا عشت وعليه مت وعليه تبعث » وقال ابن جرير حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا حدثنا يزيد أنبانا محمد بن عمرو وعن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « والذى نفسى بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولون عنه مدبرين ، فان كان مؤمنا كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلى مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعنى حتى أصلى فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألونى ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أمحمد ؟ فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعا وينور له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم تجعل نسمته فى النسم الطيب وهى طير خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدىء من التراب » وذلك قول الله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) ورواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد ابن عمرو وذكر جواب الكافر وعذابه . وقال البزار حدثنا سعيد بن بحر القراطيسى حدثنا الوليد بن القاسم حدثنا يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة أحسبه رفعه قال « إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين فيود لو خرجت يعنى نفسه والله يحب لقاءه وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض ، فاذا قال تركت فلانا فى الأرض أعجبهم ذلك وإذا قال إن فلانا قد مات قالوا ما جىء به إلينا ، وإن المؤمن يجلس فى قبره فيسئل من ربك فيقول ربى الله ، ويسئل من نبيك فيقول محمد نبيى فيقال ماذا دينك ؟ قال دينى الإسلام فيفتح له باب فى قبره فيقول ـ أو يقال ـ انظر إلى مجلسك ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ما عاين فانه لا يحب روحه أبداً والله يبغض لقاءه فاذا جلس فى قبره أو أجلس فيقال له من ربك ؟ فيقول لا أدرى فيقال لادريت فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال له نم كما ينام النهوش » قلت لأبى هريرة ما النهوش ؟ قال الذى تنهشه الدواب والحيات ثم يضيق عليه قبره ثم قال لانعلم رواه إلا الوليد بن مسلم(١) . وقال الأمام أحمد رحمه الله حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال : كانت أسماء يعنى بنت الصديق رضى الله عنها تحدث عن النبى ﷺ قالت : قال « إذا دخل الإنسان قبره فان كان مؤمنا حف به عمله الصلاة والصيام قال فيأتيه الملك من نحو الصلاة فترده ومن نحو الصيام فيرده قال فيناديه اجلس فيجلس فيقول له ماذا تقول فى هذا الرجل يعنى النبى ﷺ

(١) فى النسخة المكية ابن قاسم .

قال من ؟ قال محمد ، قال أشهد أنه رسول الله، قال وما يدريك أدركته ، قال أشهد أنه رسول الله قال : يقول على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، وإن كان فاجراً أوكافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه فيقول له ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ قال أى رجل ؟ قال محمد ؟ قال يقول والله ما أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك على ذلك عشت ، وعليه مت ، وعليه تبعث ، قال ويسلط عليه دابة فى قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير تضربه ماشاء الله صماء لاتسمع صوته فترحمه » . وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ثم صلوا عليه مع الناس ، فاذا دفن أجلس فى قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقال له من رسولك ؟ فيقول محمد ﷺ فيقال له ماشهادتك ؟ فيقول أشهد أن لاإله إلاالله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيوسع له فى قبره مد بصره ، وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم ، والبسط هو الضرب (يضربون وجوههم وأدبارهم) عند الموت ، فاذا أدخل قبره أقعد فقيل له من ربك ؟ فلم يرجع اليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذاقيل من الرسول الذى بعث اليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع اليهم شيئاً (كذلك يضل الله الظالمين) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عثمان بن حكيم الأودى حدثنا شريح بن مسلمة حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى إسحق عن عامر بن سعد البجلى عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) الآية ، قال إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره فيقال له من ربك ؟ فيقول الله ، فيقال له من نبيك : فيقول محمد بن عبدالله ، فيقال له ذلك مرات ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك من النار لوزغت ، ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال له انظر الى منزلك من الجنة إذ ثبت ، وإذا مات الكافر أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ من نبيك فيقول لاأدرى كنت أسمع الناس يقولون ، فيقال له لادريت ثم يفتح له باب الى الجنة فيقال له انظر إلى منزلك إذ ثبت ، ثم يفتح له باب الى النار فيقال له انظر الى منزلك إذ زغت فذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) وقال عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا) قال لا إله إلا الله (وفى الآخرة) المسئلة فى القبر ، وقال قتادة أما الحياة الدنيا فيثبتهم بالخير والعمل الصالح (وفى الآخرة) فى القبر ، وكذا روى عن غير واحد من السلف ، وقال أبو عبدالله الحكيم الترمذى فى كتابه نوادر الأصول حدثنا أبى حدثنا عبدالله بن نافع عن ابن أبى فديك عن عبد الرحمن بن عبدالله عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة فقال « إنى رأيت البارحة عجبا ، رأيت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما ورد حوضا منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلقا حلقا كلما دنا لحلقة طردوه فجاءه اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يامعشر المؤمنين : كلموه فكلموه ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت له ستراً على وجهه وظلا على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم وأدخلاه مع ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه بينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى هوى فى

النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار ، ورأيت رجلا من أمتي قائما على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحيانا ويحبو أحيانا فجاءته صلاته على فأخذت بيده فأقامته ومضى على الصراط ، ورأيت رجلا من أمتي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة » قال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه هذا حديث عظيم ذكر فيه أعمالا خاصة تنجي من أهوال خاصة أورده هكذا في كتابه التذكرة . وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في هذا حديثا غريبا مطولا فقال : حدثنا أبو عبد الرحمن أحمد بن إبراهيم الشكري حدثنا محمد ابن بكر البرساني أبو عثمان حدثنا أبو عاصم الحبطي وكان من أخيار أهل البصرة وكان من أصحاب حزم ، وسلام بن أبي مطيع حدثنا بكر بن حبيش عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك عن تميم الداري عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل لملك الموت انطلق إلى ولي فأتني به فاني قد ضربته بالسراء والضراء فوجدته حيث أحب ، ائتني به فلأريحنه . فينطلق اليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم أكفان وحنوط من الجنة ومعهم ضبائر الريحان أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لونا لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه وتحف به الملائكة ويضع كل ملك منهم يده على عضو من أعضائه ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ويفتح له باب إلى الجنة فان نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة تارة بأزواجها وتارة بكسوتها ومرة بثمارها كما يعلل الصبي أهله إذا بكى قال وإن أزواجه ليبتهشن عند ذلك ابتهاشا قال وتبرز الروح قال البرساني يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب قال ويقول ملك الموت اخرجي يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب قال ولملك الموت أشد به لطفا من الوالدة بولدها يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحببا لديه رضاء للرب عنه فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين قال : وقال الله عز وجل (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) وقال (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم) قال روح من جهة الموت وريحان يتلقى به وجنة نعيم تقابله قال فاذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد جزاك الله عني خيرا فقد كنت سريعا بي إلى طاعة الله بطيئا بي عن معصية الله فقد نجيت وأنجيت قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك قال وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه أربعين ليلة قال فاذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده فلا يقلبه بنو آدم لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بني آدم وحنوط قبل حنوط بني آدم ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده قال ويقول لجنوده الويل لكم كيف خلص هذا العبد منكم فيقولون إن هذا كان عبدا معصوما قال فاذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل في سبعين ألفا من الملائكة كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه قال فاذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش خر الروح ساجدا قال يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . قال فاذا وضع في قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه وجاءه الصيام فكان عن يساره وجاءه القرآن فكان عند رأسه وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجليه وجاءه الصبر فكان ناحية القبر قال فيبعث الله عز وجل عنقا من العذاب قالوا فيأتيه عن يمينه قال فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائبا عمره كله وإنما استراح الآن حين وضع في قبره قال فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك قال ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد اليه مساغا إلا وجد ولي الله قد أخذ جنته قال فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج قال ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعني أن أباشر أنا بنفسي إلا أني نظرت ما عندكم فان عجزتم كنت أنا صاحبه فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان قال ويبعث الله ملكين أبصارهما

كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب يطآن فى أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير فى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها قال فيقولان له اجلس قال فيجلس فيستوى جالسا قال وتقع أكفانه فى حقويه قال فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ قال قالوا يا رسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك وأنت تصف من الملكين ما تصف؟ قال : فقال رسول الله ﷺ (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة * ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) قال فيقول ربى الله وحده لا شريك له ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ونبيى محمد خاتم النبيين قال فيقولان له صدقت قال فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعا وعن يمينه أربعين ذراعا وعن شماله أربعين ذراعا ومن خلفه أربعين ذراعا ومن عند رأسه أربعين ذراعا ومن عند رجليه أربعين ذراعا قال فيوسعان له مائتى ذراع : قال البرسانى فأحسبه وأربعين ذراعا تحاط به قال ثم يقولان له انظر فوقك فإذا باب مفتوح إلى الجنة قال فيقولان له : ولى الله هذا منزلك إذ أطعت الله فقال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا » ثم يقال له انظر تحتك قال فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ـ قال ـ فيقولان ، ولى الله نجوت آخر ما عليك ـ قال: فقال رسول الله ﷺ ـ إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبدا » قال : قالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون بابا إلى الجنة يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عزوجل

وبالإسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال : ويقول الله تعالى لملك الموت انطلق إلى عدوى فأتنى به فإنى قد بسطت له رزقى . ويسرت له نعمتى ، فأبى إلا معصيتى فأتنى به لأنتقم منه ، قال فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة رآها أحد من الناس قط له اثنتا عشرة عينا ومعه سفود من النار كثير الشوك ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم ومعهم سياط من نار لينها لين السياط وهى نار تأجج قال فيضربه ملك الموت بذلك السفود ضربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود فى أصل كل شعرة وعرق وظفر ، قال ثم يلويه ليا شديدا قال فينزع روحه من أظفار قدميه قال فيلقيها فى عقبيه.قال فيسكر عدو الله عن ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه ، قال وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط.قال فيشده الملك الموت شدة فينزع روحه من عقبيه فيلقيها فى ركبتيه ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه قال فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال ثم ينتره ملك الموت نترة فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه قال فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط قال كذلك إلى صدره ثم كذلك إلى حلقه قال ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه قال ويقول ملك الموت اخرجى أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ـ قال ـ فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عنى شرا فقد كنت سريعا بى إلى معصية الله بطيئا بى عن طاعة الله فقد هلكت وأهلكت ـ قال ـ ويقول الجسد للروح مثل ذلك وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها وتنطلق جنود إبليس اليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبدا من ولد آدم النار قال فإذا وضع فى قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه حتى تدخل اليمنى فى اليسرى واليسرى فى اليمنى قال ويبعث الله إليه أفاعى دهما كأعناق الإبل يأخذن بأذنيه وإبهامى قدميه فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه قال ويبعث الله ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف وأصواتهما كالرعد القاصف وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب يطآن فى أشعارهما بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا قد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير فى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها ، قال فيقولان له اجلس فيستوى جالسا وتقع أكفانه فى حقويه ، قال فيقولان له من ربك ، وما دينك ، ومن نبيك ؟ فيقول لا أدرى فيقولان له لا دريت ولا تليت فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره ثم يعودان ، قال فيقولان انظر فوقك فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة فيقولان : عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله .قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبدا » ـ قال ـ ويقولان له انظر تحتك فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ـ فيقولان: عدو الله ـ هذا

منزلك إذ عصيت الله قال رسول صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً » قال : وقالت عائشة ويفتح له سبعة وسبعون بابا إلى النار يأتية حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها . هذا حديث غريب جداً وسياق عجيب ويزيد الرقاشى راويه عن أنس له غرائب ومنكرات وهو ضعيف الرواية عند الأئمة والله أعلم ،ولهذا قال أبوداود حدثنا إبراهيم بن موسى الرازى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن عبد الله بن بحير عن هانىء مولى عثمان عن عثمان رضى الله عنه قال ،كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسئل» تفرد به أبو داود ، وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه عند قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم) الآية حديثا مطولا جداً من طرق غريبة عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا وفيه غرائب أيضاً

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾

قال البخارى قوله (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) ألم تعلم كقوله (ألم تر كيف) (ألم تر إلى الذين خرجوا) البوار الهلاك بار يبور بوراً (قوما بورا) هالكين . حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء سمع ابن عباس (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) قال هم كفار أهل مكة وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية هو جبلة ابن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم والمشهور الصحيح عن ابن عباس هو القول الأول وإن كان المعنى يعم جميع الكفار فان الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ونعمة للناس فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ومن ردها وكفرها دخل النار ،وقد روى عن على نحو قول ابن عباس الأول . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا شعبة عن القاسم بن أبى بزة عن أبى الطفيل أن ابن الكواء سأل علياً عن (الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم كفار قريش يوم بدر ، حدثنا المنذر بن شاذان حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا بسام هو الصيرفى عن أبى الطفيل قال جاء رجل إلى على فقال يا أمير المؤمنين من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ؟ قال منافقو قريش وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن نفيل قال قرأت على معقل عن ابن أبى حسين قال : قام على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال ألا أحد يسألنى عن القرآن فوالله لو أعلم اليوم أحداً أعلم به منى وإن كان من وراء البحار لأتيته ، فقام عبد الله بن الكواء فقال من الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البور ؟ قال مشركو قريش أتتهم نعمة الله الإيمان فبدلوا نعمة الله كفراً وأحلو قومهم دار البوار .

وقال السدى(1) فى قوله (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) الآية ذكر مسلم المستوفى عن على أنه قال هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة، فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر ، وأما بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد ، وكان أبو جهل يوم بدر وأبو سفيان يوم أحد ، وأما دار البوار فهى جهنم

وقال ابن أبى حاتم رحمه الله حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحارث أبو منصور عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو ابن مرة قال سمعت عليا قرأ هذه الآية (وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم الأفحران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فأهلكوا يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين ورواه أبو إسحق عن عمرو بن مرة عن على نحوه ، وروى من غير وجه عنه . وقال سفيان الثورى عن على بن زيد عن يوسف بن سعد عن عمر بن الخطاب فى قوله (ألم تر لى الذين بدلوا نعمت الله كفراً) قال هم الأفجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين . وكذا رواه حمزة الزيات عن عمرو بن مرة قال : قال ابن عباس لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين هذه الآية (ألم تر إلى الذين نعمت الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم الأفجران

(١) فى النسخة المكية : ذكر قول السدى هذا بعد قول ابن أبى حاتم الآن .

من قريش أخوالى وأعمامك . فأما أخوالى فاستأصلهم الله يوم بدر ، وأما أعمامك فأملى الله لهم إلى حين . وقال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن زيد هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر ، وكذا رواه مالك فى تفسيره عن نافع عن ابن عمر وقوله (وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله) أى جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك ، ثم قال تعالى مهددا لهم ومتوعدا لهم على لسان نبيه ﷺ (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) أى مهما قدرتم عليه فى الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شىء (فإن مصيركم إلى النار) أى مرجعكم وموئلكم إليها كما قال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال تعالى (متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات والنفقة على القرابات والإحسان إلى الأجانب ، والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها ، وأمر تعالى بالانفاق مما رزق فى السر أى فى الخفية والعلانية وهى الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم (من قبل أن يأتى يوم) وهو يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خلال) أى ولا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه كما قال تعالى (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) وقوله (ولا خلال) قال ابن جرير يقول ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هناك العدل والقسط ، والخلال مصدر من قول القائل خاللت فلانا فأنا أخاله مخالة وخلالا ومنه قول امرىء القيس :

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ✽ ولست بمقلى الخلال ولا قالى

وقال قتادة إن الله قد علم أن فى الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها فى الدنيا فينظر الرجل من يخالل وعلام يصاحب ، فإن كان لله فليداوم ، وإن كان لغير الله فسيقطع عنه ، قلت والمراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية ، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده ولا تنفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقى الله كافرا قال الله تعالى (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ✽ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ✽ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السموات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً (وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى) ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجرى عليه بأمر الله تعالى وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر لجلب ما هنا إلى هناك ، وما هناك إلى هنا وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من أنواع المنافع (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى يسيران لا يفتران ليلا ولا نهاراً (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) (يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله العالمين) فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر (يولج

الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألاهو العزيز الغفار) . وقوله (وآتاكم من كل ماسألتموه) يقول هيأ لكم كل ماتحتاجون اليه فى جميع أحوالكم مما تسألونه بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف من كل ماسألتموه ومالم تسألوه ، وقرأ بعضهم (وآتاكم من كل ماسألتموه ومالم تسألوه) وقوله (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المرى عن جعفر ابن زيد العبدى عن أنس عن النبى ﷺ أنه قال « يخرج لابن آدم يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان فيه العمل الصالح وديوان فيه ذنوبه وديوان فيه النعم من الله تعالى عليه ، فيقول الله تعالى لأصغر نعمه ـ أحسبه قال فى ديوان النعم ـ خذى ثمنك من عمله الصالح فتستوعب عمله الصالح كله ثم تنحى وتقول : وعزتك ما استوفيت وتبقى الذنوب والنعم فاذا أراد الله أن يرحمه قال ياعبدى قد ضاعفت لك حسناتك وتجاوزت لك عن سيئاتك ـ أحسبه قال ووهبت لك نعمى ـ» غريب وسنده ضعيف. وقد روى فى الأثر أن داود عليه السلام قال يارب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة منك على ؟ فقال الله تعالى الآن شكرتنى ياداود ، أى حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر المنعم ، وقال الإمام الشافعى رحمه الله : الحمد لله الذى لايؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها ، وقال القائل فى ذلك .

لو كل جارحة منى لها لغة * تثنى عليك بما أوليت من حسن

لكان مازاد شكرى إذ شكرت به * إليك أبلغ فى الاحسان والمنن

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يذكر تعالى فى هذا المقام محتجا على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ماوضعت على عبادة الله وحده لاشريك له وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه آهلة تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال (رب اجعل هذا البلد آمنا) وقد استجاب الله له فقال تعالى (أولم يروا أناجعلنا حرما آمنا) الآية وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وقال فى هذه القصة (رب اجعل هذا البلد آمنا) فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ولهذا قال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق) ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب باسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فانه دعا أيضا فقال (رب اجعل هذا بلدا آمنا) كما ذكرناه هنالك فى سورة البقرة مستقصى مطولا . وقوله (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته . ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى لاتجويز وقوع ذلك . قال عبدالله بن وهب حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبدالرحمن بن جرير عن عبدالله ابن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس) الآية وقول عيسى عليه السلام (إن تعذبهم فإنهم عبادك) الآية ثم رفع يديه ثم قال « اللهم أمتى اللهم أمتى ، اللهم أمتى » وبكى فقال الله اذهب ياجبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله مايبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ماقال فقال الله اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى أمتك ولانسوءك

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذى دعابه عند ما ولى عن هاجر وولدها وذلك قبل بناء البيت وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ولهذا قال (عند بيتك المحرم) وقوله (ربنا ليقيموا الصلاة) قال ابن جرير هو متعلق بقوله (المحرم) أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده (فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره لوقال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ولكن قال (من الناس) فاختص به المسلمون ، وقوله (وارزقهم من الثمرات) أى ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا) وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال (ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن) أى أنت تعلم قصدى فى دعائى وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها لا يخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء) أى إنه يستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد ثم قال (رب اجعلنى مقيم الصلاة) أى محافظا عليها مقيما لحدودها (ومن ذريتى) أى واجعلهم كذلك مقيمين لها (ربنا وتقبل دعاء) أى فيما سألتك فيه كله (ربنا اغفر لى ولوالدى) قرأ بعضهم ولوالدى بالإفراد وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل (وللمؤمنين) أى كلهم (يوم يقوم الحساب) أى يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

يقول تعالى ولا تحسبن الله يامحمد غافلا عما يعمل الظالمون أى لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عليهم عداً (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى من شدة الأهوال يوم القيامة، ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر فقال (مهطعين) أى مسرعين كما قال تعالى (مهطعين إلى الداع) الآية وقال تعالى (يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له — إلى قوله — وعنت الوجوه للحى القيوم) وقال تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعاً) الآية وقوله (مقنعى رءوسهم)) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد رافعى رءوسهم (لا يرتد إليهم طرفهم) أى أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر لا يطرفون لحظة لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة والمخافة لما يحل بهم عياذاً بالله العظيم من ذلك ، ولهذا قال (وأفئدتهم هواء) أى وقلوبهم

خاوية خالية ليس فيها شىء لكثرة الوجل والخوف ولهذا قال قتادة وجماعة إن أمكنة أفئدتهم خالية لأن القلوب لدى الحناجر قد خرجت من أماكنها من شدة الخوف . وقال بعضهم هى خراب لا تعى شيئا لشدة ما أخبر به تعالى عنهم ، ثم قال تعالى لرسوله ﷺ .

﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قيل الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب (ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل) كقوله (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم) الآيتين وقال تعالى مخبرا عنهم فى حال محشرهم (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم) الآية وقال (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا) الآية وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها) الآية قال تعالى رادا عليهم فى قولهم هذا (أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) أى أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك قال مجاهد وغيره (ما لكم من زوال) أى ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) الآية (وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر (حكمة بالغة فما تغنى النذر) وقد روى شعبة عن أبى إسحاق عن عبد الرحمن بن رباب[1] أن عليا رضى الله عنه قال فى هذه الآية (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) قال أخذ ذلك الذى حاج إبراهيم فى ربه نسرين صغيرين فرباهما حتى استغلظا واستفحلا وشبا قال فأوثق رجل كل واحد منهما بوتد إلى تابوت وجوعهما وقعد هو ورجل آخر فى التابوت قال ورفع فى التابوت عصا على رأسه اللحم فطارا وجعل يقول لصاحبه انظر ما ترى قال أرى كذا وكذا حتى قال أرى الدنيا كلها كأنها ذباب . قال فصوب العصا فصوبها فهبطا جميعا قال فهو قوله عز وجل (وإن كاد مكرهم لتزول منه الجبال) قال أبو إسحق وكذلك هى فى قراءة عبد الله (وإن كاد مكرهم) قلت وكذا روى عن أبى بن كعب وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما أنهما قرآ (وإن كاد) كما قرأ على وكذا رواه سفيان الثورى وإسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن رباب[2] عن على فذكر نحوه وكذا روى عن عكرمة أن سياق هذه القصة لنمروذ ملك كنعان أنه رام أسباب السماء بهذه الحيلة والمكر كما رام ذلك بعده فرعون ملك القبط ببناء الصرح فعجزا وضعفا وهما أقل وأحقر وأصغر وأدحر ، وذكر مجاهد هذه القصة عن بختنصر وأنه لما انقطع بصره عن الأرض وأهلها نودى أيها الطاغية أين تريد ؟ ففرق ثم سمع الصوت فوقه فصوب الرماح فصوبت النسور ففزعت الجبال من هدتها وكادت الجبال أن تزول من حس ذلك فذلك قوله (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) ونقل ابن جريج عن مجاهد أنه قرأها (لتزول منه الجبال) بفتح اللام الأولى وضم الثانية ، وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقول ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصرى ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها وإنما عاد وبال ذلك عليهم قلت ويشبه هذا قول الله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) والقول الثانى فى تفسيرها ما رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) يقول شركهم

(١) كذا فى الأميرية ، وفى المكية ابن دابل (٢) كذا فيها أيضا . وفى المكية ابن أبان وهو الصواب فيها كما فى تقريب التهذيب .

كقوله (تكاد السموات يتفطرن منه) الآية وهكذا قال الضحاك وقتادة

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) أى من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شىء أراده ولا يغالب وذو انتقام ممن كفر به وجحده (فويل يومئذ للمكذبين) ولهذا قال (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها معلم لأحد » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبى عن مسروق عن عائشة أنها قالت أنا أول الناس سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قالت قلت أين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال « على الصراط » رواه مسلم منفرداً به دون البخارى والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به ، وقال الترمذى حسن صحيح ورواه أحمد أيضاً عن عفان عن وهيب عن داود عن الشعبى عنها ولم يذكر مسروقاً ، وقال قتادة عن حسان بن بلال المزنى عن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قالت : قلت يارسول الله فأين الناس يومئذ ؟ قال « لقد سألتنى عن شىء ماسألنى عنه أحد من أمتى ، ذاك أن الناس على جسرهم » ، وروى الإمام أحمد من حديث حبيب بن أبى عمرة عن مجاهد عن ابن عباس حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) فأين الناس يومئذ يارسول الله ؟ قال « هم على متن جهنم » وقال ابن جرير حدثنا الحسن حدثنا على ابن الجعد أخبرنا القاسم سمعت الحسن قال : قالت عائشة يارسول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) فأين الناس يومئذ ؟ قال « إن هذا شىء ماسألنى عنه أحد — قال — على الصراط ياعائشة » ورواه أحمد عن عفان عن القاسم بن الفضل عن الحسن به ، وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه حدثنى الحسن بن على الحلوانى حدثنى أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعنى أخاه أنه سمع أبا سلام حدثنى أبو أسماء الرحبى أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه قال : كنت قائماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال السلام عليك يامحمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى ؟ فقلت ألا تقول يارسول الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله ﷺ « إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى » فقال اليهودى جئت أسألك ، فقال رسول الله ﷺ « أينفعك شيئاً إن حدثتك » قال أسمع بأذنى فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال « سل » فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هم فى الظلمة دون الجسر » قال فمن أول الناس إجازة ؟ فقال « فقراء المهاجرين » فقال اليهودى فما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال « زيادة كبد النون » قال فما غذاؤهم فى أثرها ؟ قال « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها » قال فما شرابهم عليه ؟ قال « من عين فيها تسمى سلسبيلا » قال صدقت قال وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان قال « أينفعك إن حدثتك » قال أسمع بأذنى . قال جئت أسألك عن الولد ، قال « ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكرا بإذن الله تعالى وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثا بإذن الله » قال اليهودى لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشىء منه حتى أتانى الله به » قال أبو جعفر بن جرير الطبرى حدثنا ابن عوف حدثنا أبو المغيرة حدثنا ابن أبى مريم حدثنا سعيد بن ثوبان الكلاعى عن أبى أيوب الأنصارى أن حبرا من اليهود سأل النبى صلى الله عليه وسلم فقال

أرأيت إذ يقول الله تعالى فى كتابه (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) فأين الخلق عند ذلك ؟ فقال « أضياف الله فلن يعجزهم ما لديه » ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم به ، وقال شعبة أخبرنا أبو إسحق سمعت عمرو بن ميمون ، وربما قال : قال عبد الله وربما لم يقل فقلت له عن عبد الله فقال سمعت عمرو بن ميمون يقول (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال أرض كالفضة البيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة ينفذهم البصر ويسمعهم الداعى حفاة عراة كما خلقوا قال أراه قال قياما حتى يلجمهم العرق ، وروى من وجه آخر عن شعبة عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن ابن مسعود بنحوه ، وكذا رواه عاصم عن زر عن ابن مسعود به ، وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون لم يخبر به أورد ذلك كله ابن جرير ، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل حدثنا سهل بن حماد أبو غياث حدثنا جرير بن أيوب عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله عن النبى ﷺ فى قول الله عزوجل (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال « أرض بيضاء لم يسفك عليها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة » ثم قال لا نعلم رفعه إلا جرير بن أيوب وليس بالقوى ، ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب ثنا معاوية بن هشام عن سنان عن جابر الجعفى عن أبى جبيرة عن زيد قال أرسل رسول الله ﷺ إلى اليهود فقال « هل تدرون لم أرسلت إليهم؟» قالوا الله ورسوله أعلم ، قال « فإنى أرسلت إليهم أسألهم عن قول الله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) إنها تكون يومئذ بيضاء مثل الفضة » فلما جاءوا سألهم فقالوا تكون بيضاء مثل النقى ، وهكذا روى عن على وابن عباس وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر أنها تبدل يوم القيامة بأرض من فضة ، وعن على رضى الله عنه أنه قال تصير الأرض فضة والسموات ذهبا ، وقال الربيع عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : تصير السموات جنانا ، وقال أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى عن محمد ابن قيس فى قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال خبزة يأكل منها المؤمنون من تحت أقدامهم وكذا روى وكيع عن عمر بن بشر الهمدانى عن سعيد بن جبير فى قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض) قال تبدل الأرض خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه ، وقال الأعمش عن خيثمة قال : قال عبد الله بن مسعود : الأرض يوم القيامة كلها نار والجنة من ورائها ترى كواعبها وأكوابها ويلجم الناس العرق ويبلغ منهم العرق ولم يبلغوا الحساب . وقال الأعمش أيضاً عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن قال : قال عبد الله الأرض كلها نار يوم القيامة والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها والذى نفس عبد الله بيده إن الرجل ليفيض عرقا حتى ترشح فى الأرض قدمه ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب قالوا مم ذلك يا أبا عبد الرحمن ، قال مما يرى الناس ويلقون . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن كعب فى قوله (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) قال تصير السموات جنانا ويصير مكان البحر ناراً وتبدل الأرض غيرها ، وفى الحديث الذى رواه أبو داود « لا يركب البحر إلا غاز أو حاج أو معتمر فان تحت البحر ناراً — أو تحت النار بحراً — » وفى حديث الصور المشهور المروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم العكاظى لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ثم يزجر الله الخلق زجرة فإذا هم فى هذه المبدلة » وقوله (وبرزوا لله) أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله (الواحد القهار) أى الذى قهر كل شىء وغلبه ودانت له الرقاب وخضعت له الألباب

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ * لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وتبرز الخلائق لديانها ترى يا محمد يومئذ المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم (مقرنين) أى بعضهم الى بعض قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم كل صنف إلى صنف كما قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وقال (وإذا النفوس زوجت) وقال (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبوراً) وقال (والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد) والأصفاد هى القيود قاله ابن عباس

وسعيد بن جبير والأعمش وعبد الرحمن بن زيد وهو مشهور فى اللغة ، قال عمرو بن كلثوم

فآبوا بالثياب وبالسبايا * وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله (سرابيلهم من قطران) أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران وهو الذى تهنأ به الإبل أى تطلى قال قتادة وهو ألصق شىء بالنار . ويقال فيه قطران بفتح القاف وكسر الطاء وتسكينها وبكسر القاف وتسكين الطاء ومنه قول أبى النجم

كأن قطرانا إذا تلاها * ترمى به الريح إلى مجراها

وكان ابن عباس يقول القطران هو النحاس المذاب وربما قرأها (سرابيلهم من قطران) أى من نحاس حار قد انتهى حره وكذا روى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وقوله (وتغشى وجوههم النار) كقوله (تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا يحيى بن إسحق أنبأنا أبان بن يزيد عن يحيى بن أبى كثير عن زيد عن أبى سلام عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب » انفرد بإخراجه مسلم . وفى حديث القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ رفعه « النائحة إذا لم تتب توقف فى طريق بين الجنة والنار وسرابيلها من قطران وتغشى وجهها النار »

وقوله (ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى يوم القيامة (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية (إن الله سريع الحساب) يحتمل أن يكون كقوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) ويحتمل أنه فى حال محاسبته لعبده سريع النجاز لأنه يعلم كل شىء ولا يخفى عليه خافية وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم كقوله تعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وهذا معنى قول مجاهد (سريع الحساب) إحصاء ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين والله أعلم .

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس كقوله (لأنذركم به ومن بلغ) أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال فى أول السورة (الر * كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) الآية (ولينذروا به) أى ليتعظوا به (وليعلموا أنما هو إله واحد) أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو (وليذكر أولو الألباب) أى ذوو العقول آخر تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة الحجر وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الر تِلْكَ ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ * رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ * ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقوله تعالى (ربما يود الذين كفروا) الآية إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ويتمنون لو كانوا فى الدنيا مسلمين ، ونقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين . وقيل المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمنا ، وقيل هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزاهرية عن عبد الله فى قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قال هذا فى الجهنميين إذ رأوهم يخرجون من النار ، وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبى فروة

العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هـذه الآية (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) يتأولانها يوم يحبس الله أهـل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار قال فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا قال فيغضب الله لهم بفضل رحمته فيخرجهم فذلك حين يقول (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن حماد عن إبراهيم وعن خصيف عن مجاهد قالا يقول أهل النار للموحدين ما أغنى عنكم إيمانكم ؟ فإذا قالوا ذلك قال الله أخرجوا من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، قال فعند ذلك قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) وهكذا روى عن الضحاك وقتادة وأبى العالية وغيرهم ، وقد ورد فى ذلك أحاديث مرفوعة فقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا محمد بن العباس هو الأخرم حدثنا محمد بن منصور الطوسى حدثنا صالح بن إسحق الجهبذ وابن علية يحيى بن موسى[1] حدثنا معروف بن واصل عن يعقوب بن نباتة عن عبد الرحمن الأغر عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم « إن ناسا من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهـل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا فى النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين » ، فقال رجل يا أنس أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ، ثم قال الطبرانى تفرد به الجهبذ

﴿ الحديث الثانى ﴾ قال الطبرانى أيضاً حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبو الشعثاء على بن حسن الواسطى حدثنا خالد بن نافع الأشعرى عن سعيد بن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهـل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسـلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ فالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا — قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم — أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) » ورواه ابن أبى حاتم من حديث خالد بن نافع به وزاد فيه بسم الله الرحمن الرحيم عوض الاستعاذة . ﴿ الحديث الثالث ﴾ قال الطبرانى أيضا حـدثنا موسى بن هارون حـدثنا إسحق ابن راهويه قال قلت لأبى أسامة أحدثكم أبو روق واسمه عطية بن الحارث حدثنى صالح بن أبى شريف قال سألت أبا سعيد الخـدرى فقلت له هـل سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسـلم يقول فى هذه الآية (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) ؟ قال نعم سمعته يقول « يخرج الله ناسا من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نقمته منهم » وقال « لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله فى الدنيا فما بالكم معنا فى النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا يا ليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم — قال — فذلك قول الله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) فيسمون فى الجنة الجهنميين من أجل سواد فى وجوههم فيقولون يارب أذهب عنا هـذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون فى نهر فى الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم » فأقر به أبو أسامة وقال نعم ﴿ الحـديث الرابع ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا العباس بن الوليد النرسى حدثنا مسكين أبو فاطمة حدثنى اليمان بن يزيد عن محمد بن جبير عن محمد بن على عن أبيه عن جده قال : قال رسـول الله ﷺ « منهم من تأخـذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخـذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهرا ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثا بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل الأديان والأوثان لمن فى النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه

(١) فى النسخة المكية : ابن معين

ورسله فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء ، فيغضب الله لهم غضبا لم يغضبه لشىء فيما مضى فيخرجهم إلى عين فى الجنة وهو قوله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين)» وقوله (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا) تهديد شديد لهم ووعيد أكيد كقوله تعالى (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) ولهذا قال (ويلههم الأمل)أى عن التوبة والانابة (فسوف يعلمون) أى عاقبة أمرهم

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَٰبٌ مَّعْلُومٌ * مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم ، وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الاقلاع عماهم عليه من الشرك والعناد والالحاد الذى يستحقون به الهلاك

﴿ وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا إِذًا مُّنظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم فى قولهم (يا أيها الذى نزل عليه الذكر) أى الذى تدعى ذلك (إنك لمجنون) أى فى دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ماوجدنا عليه آباءنا (لوما) أى هلا (تأتينا بالملائكة) أى يشهدون لك بصحة ماجئت به كما قال فرعون (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أوجاء معه الملائكة مقترنين) ، (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أونرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) وكذا قال فى هذه الآية (ماننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين) وقال مجاهد فى قوله (ماننزل الملائكة إلا بالحق) بالرسالة والعذاب ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر وهو القرآن وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى (له لحافظون) على النبى ﷺ كقوله (والله يعصمك من الناس) والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش إنه أرسل من قبله من الأمم الماضيه وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزءوا به ، ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى ، قال أنس والحسن البصرى(كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين) يعنى الشرك وقوله (قدخلت سنة الأولين)أى قدعلم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لماصدقوا بذلك بل قالوا (إنما سكرت أبصارنا) قال مجاهد وابن كثير والضحاك: سدت أبصارنا ، وقال قتادة عن ابن عباس: أخذت أبصارنا ، وقال العوفى عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا ، وقال الكلبى : عميت أبصارنا وقال ابن زيد : سكرت أبصارنا . السكران الذى لا يعقل .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ

ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء فى ارتفاعها وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه ولهذا قال مجاهد وقتادة البروج ههنا هى الكواكب (قلت) وهذا كقوله تبارك وتعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) الآية. ومنهم من قال البروج هى منازل الشمس والقمر، وقال عطية العوفى البروج ههنا هى قصور فيها الحرس وجعل الشهب حرسا لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه فربما يكون قد ألقى الكلمة التى سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذى هو دونه فيأخذها الآخر ويأتى بها إلى وليه كما جاء مصرحا به فى الصحيح كما قال البخارى فى تفسير هذه الآية: حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عكرمة عن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ قال «إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان» قال على وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترقو السمع ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه إلى الذى هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض وربما قال سفيان حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق فيقولون ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقا للكلمة التى سمعت من السماء ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ومده إياها وتوسيعها وبسطها وما جعل فيها من الجبال الرواسى والأودية والأراضى والرمال وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة، وقال ابن عباس (من كل شىء موزون) أى معلوم وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة وأبو مالك ومجاهد والحكم بن عيينة والحسن بن محمد وأبو صالح وقتادة ومنهم من يقول مقدر بقدر. وقال ابن زيد من كل شىء يوزن ويقدر بقدر، وقال ابن زيد ما يزنه أهل الأسواق. وقوله، (وجعلنا لكم فيها معايش) يذكر تعالى أنه صرفهم فى الأرض فى صنوف الأسباب والمعايش وهى جمع معيشة وقوله (ومن لستم له برازقين) قال مجاهد هى الدواب والأنعام، وقال ابن جرير هم العبيد والاماء والدواب والأنعام، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التى يركبونها والأنعام التى يأكلونها والعبيد والاماء التى يستخدمونها ورزقهم على خالقهم لا عليهم، فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شىء وأن كل شىء سهل عليه يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف (وما ننزله إلا بقدر معلوم) كما يشاء وكما يريد ولماله فى ذلك من الحكمة البالغة والرحمة بعباده لا على جهة الوجوب بل هو كتب على نفسه الرحمة. قال يزيد بن أبى زياد عن أبى جحيفة عن عبد الله ما من عام أمطر من عام ولكن الله يقسمه حيث شاء عاما ههنا وعاما ههنا ثم قرأ (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) الآية رواه ابن جرير، وقال أيضا حدثنا القاسم حدثنا هشيم أخبرنا إسماعيل بن سالم عن الحكم بن عيينة فى قوله (وما ننزله إلا بقدر معلوم) قال ما عام

بأكثر مطراً من عام ولا أقل ولكنه يمطر قوم ويحرم آخرون بما كان فى البحر ، قال وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كل قطرة حيث تقع وما تنبت ، وقال البزار حدثنا داود هو ابن بكير حدثنا حيان بن أغلب بن تميم حدثنى أبى عن هشام عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خزائن الله الكلام فإذا أراد شيئاً قال له كن فكان » ثم قال لايرويه إلا أغلب وليس بالقوى وقد حدث عنه غير واحد من المتقدمين ولم يروه عنه إلا ابنه وقوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح) أى تلقح السحاب فتدر ماء وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها وذكرها بصيغة الجمع ليكون منها الانتاج بخلاف الريح العقيم فإنه أفردها ووصفها بالعقيم وهو عدم الانتاج لأنه لا يكون إلا بين شيئين فصاعدا ، وقال الأعمش عن المنهال ابن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود فى قوله (وأرسلنا الرياح لواقح) قال ترسل الريح فتحمل الماء من السماء ثم تمر مر السحاب حتى تدر كما تدر اللقحة وكذا قال ابن عباس وإبراهيم النخعى وقتادة ، وقال الضحاك يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلىء ماء ، وقال عبيد بن عمير الليثى يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قما ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر ثم تلا (وأرسلنا الرياح لواقح) وقد روى ابن جرير من حديث عبيس بن ميمون عن أبى المهزم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الريح الجنوب من الجنة وهى التى ذكر الله فى كتابه وفيها منافع للناس » وهذا إسناد ضعيف ، وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى فى مسنده حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى يزيد بن جعدبة الليثى أنه سمع عبد الرحمن ابن مخراق يحدث عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق فى الجنة ريحاً بعد الريح سبع سنين وإن من دونها باباً مغلقاً وإنما يأتيكم الريح من ذلك الباب ولو فتح لأذرت مابين السماء والأرض من شىء وهى عند الله الاذيب وهى فيكم الجنوب » وقوله (فأسقيناكموه) أى أنزلناه لكم عذبا يمكنكم أن تشربوا منه لو نشاء جعلناه أجاجاً كما نبه على ذلك فى الآية الأخرى فى سورة الواقعة وهو قوله تعالى (أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون) وفى قوله (هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) وقوله (وما أنتم له بخازنين) قال سفيان الثورى بمانعين ويحتمل أن المراد وما أنتم له بحافظين بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله معينا وينابيع فى الأرض ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا وحفظه فى العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ليبقى لهم فى طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم وقوله (وإنا لنحن نحيي ونميت) إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته وأنه هو الذى أحيا الخلق من العدم ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) الآية قال ابن عباس رضى الله عنهما: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هو حى ومن سيأتى إلى يوم القيامة ، وروى نحوه عن عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة ومحمد بن كعب والشعبى وغيرهم وهو اختيار ابن جرير رحمه الله ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن رجل عن مروان بن الحكم أنه قال كان أناس يستأخرون فى الصفوف من أجل النساء فأنزل الله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وقد ورد فيه حديث غريب جدا فقال ابن جرير حدثنى محمد بن موسى الجرشى حدثنا نوح بن قيس حدثنا عمرو بن قيس حدثنا عمرو بن مالك عن أبى الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كانت تصلى خلف النبى ﷺ امرأة حسناء قال ابن عباس لاوالله مارأيت مثلها قط وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يروها وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم فأنزل الله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وكذا رواه أحمد وابن أبى حاتم فى تفسيره ورواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننهما وابن ماجه من طرق عن نوح بن قيس الحدانى وقد وثقه أحمد وأبوداود وغيرهما ، وحكى عن ابن معين تضعيفه وأخرجه مسلم وأهل السنن ، وهذا الحديث

فيه نكارة شديدة وقد رواه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن عمرو بن مالك وهو النكرى أنه سمع أبا الجوزاء يقول في قوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم) في الصفوف في الصلاة (والمستأخرين) فالظاهر أنه من كلام أبي الجوزاء فقط ليس فيه لابن عباس ذكر ، وقد قال الترمذي هذا أشبه من رواية نوح بن قيس والله أعلم وهكذا روى ابن جرير عن محمد بن أبي معشر عن أبيه أنه سمع عون بن عبد الله يذكر محمد بن كعب في قوله (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) وأنها في صفوف الصلاة فقال محمد بن كعب ليس هكذا (ولقد علمنا المستقدمين منكم) الميت والمقتول (والمستأخرين) من يخلق بعد (وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم) فقال عون بن عبد الله وفقك الله وجزاك خيراً

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس والظاهر أنه كقوله تعالى (خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) وعن مجاهد أيضاً (الصلصال) المنتن وتفسير الآية بالآية أولى وقوله (من حمأ مسنون) أي الصلصال من حمأ وهو الطين . والمسنون الأملس كما قال الشاعر :

ثم خاصرتها إلى القبة الخضـ * ـراء تمشي في مرمر مسنون

أي أملس صقيل ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال هو التراب الرطب ، وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً والضحاك ان الحمأ المسنون هو المنتن وقيل المراد بالمسنون ههنا المصبوب ، وقوله (والجان خلقناه من قبل) أي من قبل الانسان (من نار السموم) قال ابن عباس هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم السموم بالليل والنهار ومنهم من يقول السموم بالليل والحرور بالنهار ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن أبي إسحق قال دخلت على عمر الأصم أعوده فقال ألا أحدثك حديثاً سمعته من عبد الله بن مسعود يقول هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التي خلق منها الجان ثم قرأ (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وعن ابن عباس أن الجان خلق من لهب النار وفي رواية من أحسن النار ، وعن عمرو بن دينار من نار الشمس ، وقد ورد في الصحيح « خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »(1) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتده

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ولهذا قال (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) كقوله (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) وقوله (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) الآية . وقد روى ابن جرير ههنا أثرا غريباً عجيباً من حديث شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال لما خلق الله الملائكة قال (إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) قالوا لا نفعل ، فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق ملائكة أخرى فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا نفعل فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق ملائكة أخرى فقال إني خالق بشرا من طين فاذا أنا خلقته فاسجدوا له فأبوا فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم ثم خلق ملائكة فقال إني خالق بشرا من طين فإذا أنا خلقته فاسجدوا له قالوا سمعنا وأطعنا ، إلا إبليس كان من الكافرين الأولين وفي ثبوت هذا عنه بعد ، والظاهر أنه إسرائيلي والله أعلم

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

(1) رواه مسلم وأحمد عن عائشة

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى وأنه رجيم أى مرجوم وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به لا حقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة . وعن سعيد بن جبير أنه قال : لما لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة ورن رنة فكل رنة فى الدنيا إلى يوم القيامة منها رواه ابن أبى حاتم ، وأنه لما تحقق الغضب الذى لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة وهو يوم البعث وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له وإمهالا فلما تحقق النظرة قبحه الله

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب (بما أغويتنى) قال بعضهم أقسم باغواء الله له (قلت) ويحتمل أنه بسبب ما أغويتنى وأضللتنى (لأزينن لهم) أى لذرية آدم عليه السلام (فى الأرض) أى أحبب إليهم المعاصى وأرغبهم فيها وأؤزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً (ولأغوينهم أجمعين) أى كما أغويتنى وقدرت علىّ ذلك (إلا عبادك منهم المخلصين) كقوله (أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) (قال) الله تعالى له متهدداً ومتوعداً (هذا صراط على مستقيم) أى مرجعكم كلكم إلى فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر كقوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد) وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهى قاله مجاهد والحسن وقتادة كقوله (وعلى الله قصد السبيل) وقرأ قيس بن عبادة ومحمد بن سيرين وقتادة (هذا صراط على مستقيم) كقوله (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) أى رفيع والمشهور القراءة الأولى . وقوله (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم (إلا من اتبعك من الغاوين) استثناء منقطع. وقد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن موهب حدثنا يزيد بن قسيط قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم فإذا أراد النبى أن يستنبئ ربه عن شىء خرج إلى مسجده فصلى ما كتب الله له ثم سأله ما بداله ، فبينا نبى فى مسجده إذ جاء عدو الله — يعنى إبليس — حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال فرد ذلك ثلاث مرات فقال عدو الله أخبرنى بأى شىء تنجو منى فقال النبى بل أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل واحد على صاحبه فقال النبى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقال عدو الله أرأيت الذى تعوذ منه فهو هو فقال النبى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال فرده ذلك ثلاث مرات ، فقال عدو الله أخبرنى بأى شىء تنجو منى فقال النبى بل أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم مرتين فأخذ كل واحد منهما على صاحبه فقال النبى إن الله تعالى يقول (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) قال عدو الله قد سمعت هذا قبل أن تولد قال النبى ويقول الله (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم) وإنى والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك ، قال عدو الله صدقت بهذا تنجو منى فقال النبى أخبرنى بأى شىء تغلب ابن آدم ، قال آخذه عند الغضب والهوى . وقوله (وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى جهنم موعد جميع من اتبع إبليس كما قال عن القرآن (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب (لكل باب منهم جزء مقسوم) أى قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ويستقر فى درك بقدر عمله ، قال إسماعيل بن علية وشعبة كلاهما عن أبى هارون الغنوى عن حطان بن عبد الله أنه قال سمعت على بن أبى طالب وهو يخطب قال : إن أبواب جهنم هكذا — قال أبو هارون — أطباقا بعضها

فوق بعض ، وقال إسرائيل عن أبي إسحق عن هبيرة بن أبي مريم عن علي رضي الله عنه قال أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض فيمتلىء الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تمتلىء كلها ، وقال عكرمة سبعة أبواب سبعة أطباق ، وقال ابن جريج سبعة أبواب أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية . وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه ، وكذا روى عن الأعمش بنحوه أيضاً ، وقال قتاده (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) هي والله منازل بأعمالهم رواهن ابن جرير ، وقال جويبر عن الضحاك (لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم) قال باب لليهود وباب للنصارى وباب للصابئين وباب للمجوس وباب للذين أشركوا وهم كفار العرب وباب للمنافقين وباب لأهل التوحيد ، فأهل التوحيد يرجى لهم ولا يرجى لأولئك أبداً

وقال الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عثمان بن عمر عن مالك بن مغول عن حميد عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لجهنم سبعة أبواب باب منها لمن سل السيف على أمتي — أو قال على أمة محمد — » ثم قال لا نعرفه إلا من حديث مالك بن مغول . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عباس بن الوليد الخلال حدثنا زيد — يعني ابن يحيى — حدثنا سعيد بن بشير عن قتاده عن أبي نضرة عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ في قوله (لكل باب منهم جزء مقسوم) قال « إن من أهل النار من تأخذه النار إلى كعبيه وإن منهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى تراقيه منازلهم بأعمالهم فذلك قوله (لكل باب منهم جزء مقسوم) » .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ * نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة وأنهم في جنات وعيون وقوله (ادخلوها بسلام) أي سالمين من الآفات مسلم عليكم (آمنين) أي من كل خوف وفزع ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء، وقوله (ونزعنا مافي صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) روى القاسم عن أبي أمامة قال يدخل أهل الجنة الجنة على مافي صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله مافي صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ (ونزعنا مافي صدورهم من غل) هكذا في هذه الرواية والقاسم بن عبد الرحمن في روايته عن أبي أمامة ضعيف ، وقد روى سعيد في تفسيره حدثنا ابن فضالة عن لقمان عن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله مافي صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري . وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » وقال ابن جرير حدثنا الحسن حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا هشام عن محمد هو ابن سيرين قال استأذن الأشتر على علي رضي الله عنه وعنده ابن لطلحة فحبسه ثم أذن له ، فلما دخل قال إني لا أراك إنما حبستني لهذا ؟ قال أجل قال إني لأراه لو كان عندك ابن لعثمان لحبستني قال أجل إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى (ونزعنا مافي صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين)وقال ابن جرير أيضاً حدثنا الحسن بن محمد حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا أبو مالك الأشجعي حدثنا أبو حبيبة مولى لطلحة قال : دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله (ونزعنا مافي صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) وحدثنا الحسن حدثنا أبو معاوية الضرير حدثنا أبو مالك الأشجعي عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال : دخل عمران بن طلحة على علي رضي الله عنه بعد ما فرغ من أصحاب الجمل فرحب به وقال : إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله (ونزعنا مافي صدورهم من غل إخوانا على سرر

متقابلين) قال ورجلان جالسان إلى ناحية البساط فقالا الله أعدل من ذلك تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا ، فقال علي رضي الله عنه قوما أبعد أرض وأسحقها فمن هم إذاً إن لم أكن أنا وطلحة ، وذكر أبو معاوية الحديث بطوله وروى وكيع عن أبان بن عبد الله البجلي عن نعيم بن أبي هند عن ربعي بن خراش عن علي نحوه وقال فيه فقام رجل من همدان فقال الله أعدل من ذلك ياأمير المؤمنين ، قال فصاح به علي صيحة فظننت أن القصر تدهده لها ثم قال إذا لم نكن نحن فمن هم ؟ وقال سعيد بن مسروق عن أبي طلحة وذكره وفيه فقال الحارث الأعور ذلك فقام إليه علي رضي الله عنه فضربه بشيء كان في يده في رأسه وقال فمن هم ياأعور إذا لم نكن نحن ؟ وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم قال: جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على علي رضي الله عنه فحجبه طويلا ثم أذن له فقال له أما أهل البلاء فتجفوهم فقال علي: بفيك التراب إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرور متقابلين) وكذا روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بنحوه ، وقال سفيان بن عيينه عن إسرائيل عن أبي موسى سمع الحسن البصري يقول . قال علي فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) وقال كثير النوا : دخلت على أبي جعفر محمد بن علي فقلت وليي وليكم ، وسلمي سلمكم ، وعدوي عدوكم ، وحربي حربكم . أنا أسألك بالله أتبرأ من أبي بكر وعمر فقال (قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) تولهما يا كثير فما أدركك فهو في رقبتي هذه ، ثم تلا هذه الآية (إخوانا على سرر متقابلين) قال أبو بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين ، وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح في قوله (إخوانا على سرر متقابلين) قال هم عشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين ، وقوله (متقابلين) قال مجاهد لا ينظر بعضهم في قفا بعض وفيه حديث مرفوع

قال ابن أبي حاتم حدثنا يحي بن عبد الله حدثنا حسان بن حسان حدثنا إبراهيم بن بشر حدثنا يحي بن معين عن إبراهيم القومسي عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبي أوفى قال . خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية (إخوانا على سرر متقابلين) في الله ينظر بعضهم إلى بعض ، وقوله (لا يمسهم فيها نصب) يعني المشقة والأذى كما جاء في الصحيحين « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب » وقوله (وما هم منها بمخرجين) كما جاء في الحديث « يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبدا » وقال الله تعالى (خالدين فيها لا يبغون عنها حولا)

وقوله (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) أي أخبر يا محمد عبادي أني ذو رحمة وذو عذاب أليم ، وقد تقدم ذكر نظير هذه الآية الكريمة وهي دالة على مقامي الرجاء والخوف ، وذكر في سبب نزولها ما رواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال « اذكروا الجنة واذكروا النار » فنزلت (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) رواه ابن أبي حاتم وهو مرسل ، وقال ابن جرير حدثني المثنى حدثنا إسحق أخبرنا ابن المكي أخبرنا ابن المبارك أخبرنا مصعب بن ثابت حدثنا عاصم بن عبد الله عن ابن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة فقال « ألا أراكم تضحكون » ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى فقال « إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لم تقنط عبادي (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن عذابي هو العذاب الأليم) » وقال سعيد عن قتادة في قوله (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم) قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه »

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا

نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

يقول تعالى وخبرهم يا محمد عن قصة (ضيف إبراهيم) والضيف يطلق على الواحد والجمع كالزور والسفر، وكيف (دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون) أي خائفون، وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ (قالوا لا توجل) أي لا تخف (وبشروه بغلام عليم) أي إسحق عليه السلام كما تقدم في سورة هود ثم (قال) متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد (أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون) فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) وقرأ بعضهم القنطين فأجابهم بأنه ليس يقنط ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته فانه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى انه شرع يسألهم عما جاءوا له فقالوا (إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فانها من الهالكين، ولهذا قالوا (إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أي الباقين المهلكين

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال (إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم وحلوله بساحتهم (وأتيناك بالحق) كقوله تعالى (ما تنزل الملائكة إلا بالحق) وقوله (وإنا لصادقون) تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسرى بأهله بعد مضي جانب من الليل وأن يكون لوط عليه السلام يمشى وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشى في الغزو إنما يكون ساقة يزجي الضعيف ويحمل المنقطع وقوله (ولا يلتفت منكم أحد) أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال (وامضوا حيث تؤمرون) كأنه كان معهم من يهديهم السبيل (وقضينا إليه ذلك الأمر) أي تقدمنا إليه في هذا (أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أي وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب)

﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ * وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ *

﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين (قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون) وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله كما قال في سورة هود وأما ههنا فتقدم ذكر أنهم رسل الله وعطف بذكر مجيء قومه ومحاجته لهم ولكن الواو لا تقتضي الترتيب ولاسيما إذا دل دليل على خلافه فقالوا له مجيبين (أولم ننهك عن العالمين) أي أوما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وماخلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . وقد تقدم إيضاح القول في ذلك بما أغنى عن إعادته . هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر . ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض . قال عمرو بن مالك النكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس أنه قال : ماخلق الله وما ذرأ ومابرأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وماسمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ، قال الله تعالى (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) يقول وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) رواه ابن جرير وقال قتادة (في سكرتهم) أي في ضلالتهم (يعمهون) أي يلعبون ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (لعمرك) لعيشك (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) قال يترددون

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى (فأخذتهم الصيحة) وهي ماجاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وإرسال حجارة السجيل عليهم وقد تقدم الكلام على السجيل في هود بما فيه كفاية ، وقوله (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) أي إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته كما قال مجاهد في قوله (للمتوسمين) قال للتفرسين ، وعن ابن عباس والضحاك للناظرين وقال قتادة للمعتبرين ، وقال مالك عن بعض أهل المدينة (للمتوسمين) للمتأملين . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير العبدي عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعا قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ النبي ﷺ (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) رواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية عن أبي سعيد وقال الترمذي لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال ابن جرير أيضاً حدثني أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحسن بن محمد حدثنا الفرات بن السائب حدثنا ميمون ابن مهران عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله » وقال ابن جرير حدثني أبو شرحبيل الحمصي حدثنا سليمان بن سلمة حدثنا المؤمل بن سعيد بن يوسف الرحبي حدثنا أبو المعلى أسد بن وداعة الطائي حدثنا وهب بن منبه عن طاوس بن كيسان عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احذروا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وبتوفيق الله » . وقال أيضاً حدثنا عبد الأعلى بن واصل حدثنا سعيد ابن محمد الجرمي حدثنا عبد الواحد بن واصل حدثنا أبو بشر المزلق عن ثابت عن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » ، ورواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا سهل بن بحر حدثنا سعيد بن محمد الجرمي حدثنا أبو بشر يقال له ابن المزلق قال وكان ثقة عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم » وقوله (وإنها لبسبيل مقيم) أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم كقوله (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون * وإن يونس لمن المرسلين) وقال مجاهد والضحاك (وإنها لبسبيل

مقيم) قال معلم ، وقال قتادة بطريق واضح ، وقال قتادة أيضا بصقع من الأرض واحد ، وقال السدى بكتاب مبين يعنى كقوله (وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) ولكن ليس المعنى على ما قال ههنا والله أعلم ، وقوله (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن الذى صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وانجائنا لوطا وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ * فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب ، قال الضحاك وقتادة وغيرهما الأيكة الشجر التلف وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم فى الزمان ومسامتين لهم فى المكان ، ولهذا قال تعالى (وإنهما لبإمام مبين) أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره طريق ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال فى نذارته إياهم (وما قوم لوط منكم ببعيد)

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحا نبيهم عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه أتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التى أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء وكانت تسرح فى بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم (تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب) وقال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وذكر تعالى أنهم (كانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) أى من غير خوف ولا احتياج اليها بل أشرا وبطرا وعبثا كما هو المشاهد من صنيعهم فى بيوتهم بوادى الحجر الذى مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك فقنع رأسه وأسرع دابته وقال لأصحابه « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فان لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » وقوله (فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى وقت الصباح من اليوم الرابع (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التى ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم فى المياه ، فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية) أى بالعدل (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا) الآية ، وقال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ثم أخبر نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين فى أذاهم له وتكذيبهم ما جاءهم به كقوله (فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون) وقال مجاهد وقتادة وغيرهما كان هذا قبل القتال ، وهو كما قالا ، فان هذه مكية والقتال إنما شرع بعد الهجرة ، وقوله (إن ربك هو الخلاق العليم) تقرير للمعاد وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة فانه الخلاق الذى لا يعجزه خلق شيء العليم بما تمزق من الأجساد وتفرق فى سائر أقطار الأرض كقوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه فلا تغبطهم بما هم فيه ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزنا عليهم فى تكذيبهم لك ومخالفتهم دينك (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى ألن لهم جانبك كقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) وقد اختلف فى السبع المثانى ماهى، فقال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم هى السبع الطول يعنون البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، نص عليه ابن عباس وسعيد بن جبير، وقال سعيد بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام ، وقال ابن عباس بين الأمثال والخبر والعبر وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر قال : قال سفيان: المثانى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ، والأنفال وبراءة سورة واحدة ، قال ابن عباس ولم يعطهن أحد إلا النبى صلى الله عليه وسلم وأعطى موسى منهن ثنتين. رواه هشيم عن الحجاج عن الوليد بن العيذار عن سعيد بن جبير عنه، وقال الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أوتى النبى ﷺ سبعاً من المثانى الطول وأوتى موسى عليه السلام ستا ، فلما ألقى الألواح ارتفع اثنتان وبقيت أربع ، وقال مجاهد هى السبع الطوال ويقال هى القرآن العظيم وقال خصيف عن زياد بن أبى مريم فى قوله تعالى (سبعا من المثانى) قال أعطيتك سبعة أجزاء مر، وانه، وبشر، وأنذر واضرب الأمثال، واعدد النعم وانبئك بنبأ القرآن. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم (والقول الثانى) أنها الفاتحة وهى سبع آيات. وروى ذلك عن على وعمر وابن مسعود وابن عباس ، قال ابن عباس والبسملة هى الآية السابعة وقد خصكم الله بها وبه قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن عبيد بن عمير وابن أبى مليكة وشهر بن حوشب والحسن البصرى ومجاهد، وقال قتادة ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب وأنهن يثنين فى كل ركعة مكتوبة أو تطوع ، واختاره ابن جرير واحتج بالأحاديث الواردة فى ذلك وقد قدمناها فى فضائل سورة الفاتحة فى أول التفسير ولله الحمد ، وقد أورد البخارى رحمه الله ههنا حديثين أحدهما قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبى سعيد بن المعلى قال مر بى النبى ﷺ وأنا أصلى فدعانى فلم آته حتى صليت فأتيته فقال « ما منعك أن تأتينى ؟ » فقلت كنت أصلى فقال «ألم يقل الله (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم) ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبى صلى الله عليه وسلم ليخرج فذكرت فقال « (الحمد لله رب العالمين) هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » (الثانى) قال حدثنا آدم حدثنا ابن أبى ذئب حدثنا المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم » فهذا نص فى أن الفاتحة السبع المثانى والقرآن العظيم ولكن لا ينافى وصف غيرها من السبع الطول بذلك لما فيها من هذه الصفة كما لا ينافى وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً كما قال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى) فهو مثانى من وجه ومتشابه من وجه ، وهو القرآن العظيم أيضاً كما أنه عليه الصلاة والسلام لما سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فأشار إلى مسجده والآية نزلت فى مسجد قباء فلا تنافى فان ذكر الشىء لا ينفى ذكر ما عداه إذا اشتركا فى تلك الصفة والله أعلم وقوله (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» إلى أنه يستغنى به عما عداه وهو تفسير صحيح ولكن ليس هو المقصود من الحديث كما تقدم فى أول التفسير . وقال ابن أبى حاتم ذكر عن وكيع بن الجراح حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى رافع صاحب النبى صلى الله عليه وسلم قال : ضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيف ولم يكن عند النبى ﷺ شىء يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود « يقول لك محمد رسول الله أسلفنى

دقيقا إلى هلال رجب» قال لا ،إلا برهن فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال « أما والله إنى لأمين من فى السماء وأمين من فى الأرض ولئن أسلفنى أو باعنى لأؤدين إليه » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا) إلى آخر الآية كأنه يعزيه عن الدنيا قال العوفى عن ابن عباس (لا تمدن عينيك) قال نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه . وقال مجاهد (إلى متعنا به أزواجا منهم) هم الأغنياء

﴿ وَقُلْ إِنِّى أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ * كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس (إنى أنا النذير المبين) البين النذارة نذير الناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام وقوله (المقتسمين) أى المتحالفين أى تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم كقوله تعالى إخباراً عن قوم صالح إنهم (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) الآية أى نقتلهم ليلا قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) (أو لم تكونوا أقسمتم من قبل) الآية (أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ،) فكأنهم كانوا لا يكذبون بشىء من الدنيا إلا أقسموا عليه فسموا مقتسمين : قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم المقتسمون أصحاب صالح الذين تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله . وفى الصحيحين عن أبى موسى عن النبي ﷺ قال « إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ،فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق » وقوله (الذين جعلوا القرآن عضين) أى جزءوا كتبهم المنزلة عليهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، قال البخارى حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أنبأنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين)قال هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين)قال هم أهل الكتاب جزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس قال (كما أنزلنا على المقتسمين) قال آمنوا ببعض وكفروا ببعض اليهود والنصارى ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والحسن والضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم نحو ذلك ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس (جعلوا القرآن عضين) قال السحر ، وقال عكرمة العضه السحر بلسان قريش تقول للساحرة إنها العاضهة وقال مجاهد عضوه أعضاء قالوا سحر وقالوا كهانة وقالوا أساطير الأولين ، وقال عطاء قال بعضهم ساحر وقالوا مجنون وقال كاهن فذلك العضين وكذا روى عن الضحاك وغيره ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا شرف فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ويرد قولكم بعضه بعضا فقالوا وأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال بل أنتم قولوا لأسمع قالوا نقول كاهن ، قال ما هو بكاهن قالوا فنقول مجنون ، قال ماهو بمجنون قالوا فنقول شاعر ، قال ما هو بشاعر قالوا فنقول ساحر ، قال ما هو بساحر قالوا فماذا نقول ، قال والله إن لقوله لحلاوة فما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول أن تقولوا هو ساحر ، فتفرقوا عنه بذلك وأنزل الله فيهم (الذين جعلوا القرآن عضين) أصنافا (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا تعملون) أولئك النفر الذين قالوا لرسول الله ، وقال عطية العوفى عن ابن عمر فى قوله (لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال عن لا إله إلا الله وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن ليث هو ابن أبى سليم عن مجاهد فى قوله تعالى (لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال

عن لا إله إلا الله وقد روى الترمذى وأبو يعلى الموصلى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث شريك القاضى عن ليث بن أبى سليم عن بشير بن نهيك عن أنس عن النبى ﷺ (فوربك لنسألنهم أجمعين) قال عن لا إله إلا الله ، ورواه ابن ادريس عن ليث عن بشير عن أنس موقوفا ، وقال ابن جرير حدثنا أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن هلال عن عبد الله بن حكيم قال ورواه الترمذى وغيره من حديث أنس مرفوعا وقال عبد الله هو ابن مسعود والذى لا إله غيره ما منكم من أحد إلا سيخلوا الله به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر فيقول : ابن آدم ماذا غرك منى بى؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت ؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) قال يسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعما ذا أجابوا المرسلين ؛ وقال ابن عيينة عن عملك وعن مالك وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنا يونس الحذاء عن أبى حمزة الشيبانى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « يا معاذ إن المرء يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك » وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ثم قال (فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان) قال لا يسألهم هل عملتم كذا ؟ لأنه أعلم بذلك منهم ولكن يقول لم عملتم كذا وكذا ؟

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بابلاغ ما بعثه به وبانفاذه والصدع به وهو مواجهة المشركين به كما قال ابن عباس فى قوله (فاصدع بما تؤمر) أى أمضه ، وفى رواية (افعل ما تؤمر) وقال مجاهد هو الجهر بالقرآن فى الصلاة وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود مازال النبى صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزلت (فاصدع بما تؤمر) فخرج هو وأصحابه وقوله (وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين) أى بلغ ما أنزل إليك من ربك ولا تلتفت إلى المشركين الذى يريدون أن يصدوك عن آيات الله (ودوا لو تدهن فيدهنون) ولا تخفهم فإن الله كافيك إياهم وحافظك منهم كقوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يحى بن محمد بن السكن حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا عون بن كهمس عن يزيد ابن درهم عن أنس قال سمعت أنساً يقول فى هذه الآية (إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر) قال مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل أحسبه قال فغمزهم فوقع فى أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا ، وقال محمد بن إسحق كان عظماء المستهزئين كما حدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير خمسة نفر وكانوا ذوى أسنان وشرف فى قومهم من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى الأسود بن المطلب أبو زمعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه فقال « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » ومن بنى زهرة الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ومن بنى مخزوم الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ومن بنى سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سعد ، ومن خزاعة الحارث بن الطلاطلة ابن عمرو بن الحارث بن عبد بن عمرو بن ملكان . فلما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين — إلى قوله — فسوف يعلمون) قال ابن إسحق فحدثنى يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير اوغيره من العلماء أن جبريل أتى رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه فمر به الأسود بن عبد يغوث فأشار إلى

بطنه فاستسقى بطنه فمات منه ، ومر به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله وكان أصابه قبل ذلك بسنين وهو يجر إزاره وذلك أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدش رجله ذلك الخدش وليس بشيء فانتقض به فقتله ومر به العاص بن وائل فأشار إلى أخمص قدمه فخرج على حمار له يريد الطائف فربض على شبرقة فدخلت في أخمص قدمه فقتلته ومر به الحارث بن الطلاطلة فأشار إلى رأسه فامتخط قيحا فقتله ، قال محمد بن اسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن رجل عن ابن عباس قال كان رأسهم الوليد بن المغيرة وهو الذي جمعهم وهكذا روى عن سعيد بن جبير وعكرمة نحو سياق محمد بن إسحق به عن يزيد عن عروة بطوله إلا أن سعيدا يقول الحارث بن غيطلة وعكرمة يقول الحارث بن قيس قال الزهري وصدقا هو الحارث بن قيس وأمه غيطلة وكذا روى عن مجاهد ومقسم وقتادة وغير واحد أنهم كانوا خمسة وقال الشعبي كانوا سبعة والمشهور الأول وقوله (الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون) تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر وقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض فلا يهيدنك ذلك ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله وتوكل عليه فانه كافيك وناصرك عليهم فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة . ولهذا قال (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين) كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن نعيم بن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » ورواه أبو داود والنسائي من حديث مكحول عن كثير بن مرة بنحوه ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، وقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال البخاري قال سالم الموت وسالم هذا هو سالم بن عبد الله بن عمر كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنا طارق بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) قال الموت وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره والدليل على ذلك قوله تعالى إخباراً عن أهل النار أنهم قالوا (لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين) وفي الصحيح من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات قالت أم العلاء رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وما يدريك أن الله أكرمه : » فقلت بأبي وأمي يارسول الله فمن ؟ فقال « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير » ويستدل بهذه الآية الكريمة وهي قوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان مادام عقله ثابتاً فيصلي بحسب حاله كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « صل قائما فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم وهذا كفر وضلال وجهل فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه ولله الحمد والمنه والحمد لله على الهداية وعليه الاستعانة والتوكل وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها فانه جواد كريم. آخر تفسير سورة الحجر والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة النحل وهي مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرا بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة كقوله (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) وقال (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقوله (فلا تستعجلوه) أي قرب ماتباعد فلا تستعجلوه يحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) وقد ذهب الضحاك في تفسير هذه الآية إلى قول عجيب فقال في قوله (أتى أمر الله) أي فرائضه وحدوده وقد رده ابن جرير فقال : لا نعلم أحداً استعجل بالفرائض وبالشرائع قبل وجودها بخلاف العذاب فإنهم استعجلوه قبل كونه استبعاداً وتكذيبا ، قلت كما قال تعالى (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد)

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش عن محمد بن عبدالله مولى المغيرة بن شعبة عن كعب بن علقمة عن عبد الرحمن بن حجيرة عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ « تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب مثل الترس ، فما تزال ترتفع في السماء ثم ينادي مناد فيها : يا أيها الناس فيقبل الناس بعضهم على بعض : هل سمعتم ، فمنهم من يقول نعم ومنهم من يشك ، ثم ينادي الثانية يا أيها الناس فيقول الناس بعضهم لبعض : هل سمعتم ، فيقولون نعم ، ثم ينادي الثالثة يا أيها الناس أتى أمر الله فلا تستعجلوه » قال رسول الله ﷺ « فوالذي نفسي بيده إن الرجلين لينشران الثوب فما يطويانه أبدا ، وإن الرجل ليمدن حوضه فما يسقي فيه شيئا أبدا ، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدا -قال- ويشتغل الناس » ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ماسواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون)

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى (ينزل الملائكة بالروح) أي الوحي كقوله (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا) وقوله (على من يشاء من عباده) وهم الأنبياء كما قال تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) وقال (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار) وقوله (أن أنذروا) أي لينذروا (أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي وهو السموات والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق لا للعبث بل (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم نبه على خلق جنس الانسان من نطفة أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ويحارب رسله وهو إنما خلق ليكون عبداً لا ضدا كقوله تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً * ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً) وقوله (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وابن ماجه عن بشر بن جحاش قال بصق رسول الله ﷺ في كفه ثم قال « يقول الله تعالى ابن آدم : أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك فعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت الحلقوم قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ »

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ومن ألبانها يشربون ويأكلون من أولادها وما لهم فيها من الجمال وهو الزينة ولهذا قال (ولكم فيها جمال حين تريحون) وهو وقت رجوعها عشيا من المرعى فإنها تكون أمده خواصر وأعظمه ضروعا وأعلاه أسنمة (وحين تسرحون) أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى (وتحمل أثقالكم) وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها (إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة وما جرى مجرى ذلك تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل كقوله (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) وقال تعالى (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون ،) ولهذا قال ههنا بعد تعداد هذه النعم (إن ربكم لرءوف رحيم) أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كقوله (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) وقال (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) قال ابن عباس (لكم فيها دفء) أي ثياب (ومنافع) ما تنتفعون به من الأطعمة والأشربة ، وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس : دفء ومنافع نسل كل دابة ، وقال مجاهد لكم فيها دفء أي لباس ينسج ومنافع مركب ولحم ولبن ، وقال قتادة : دفء ومنافع يقول لكم فيها لباس ومنفعة وبلغة وكذا قال غير واحد من المفسرين بألفاظ متقاربة

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها وذلك أكبر المقاصد منها ، ولما فصلها من الأنعام وأفردها بالذكر استدل من استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير وهي حرام كما ثبتت به السنة النبوية وذهب إليه أكثر العلماء ، وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية أنبأنا هشام الدستوائي حدثنا يحيى بن أبي كثير عن مولى نافع بن علقمة عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير وكان يقول قال الله تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) فهذه للأكل (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) فهذه للركوب ، وكذا روى من طريق سعيد بن جبير وغيره عن ابن عباس بمثله وقال مثل ذلك الحكم بن عتيبة أيضا رضي الله عنه ، واستأنسوا بحديث رواه الإمام أحمد في مسنده حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية ابن الوليد حدثنا ثور بن يزيد عن صالح بن يحيى بن المقدام بن معديكرب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير . وأخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث صالح ابن يحيى بن المقدام وفيه كلام ، ورواه أحمد أيضاً من وجه آخر بأبسط من هذا وأدل منه فقال حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا محمد بن حرب حدثنا سليمان بن سليم عن صالح بن يحيى بن المقدام عن جده المقدام بن معد يكرب قال غزونا مع خالد ابن الوليد الصائفة فقدم أصحابنا إلى اللحم فسألوني رمكة فدفعتها إليهم فحبلوها وقلت مكانكم حتى آتي خالداً فأسأله فأتيته فسألته فقال غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة خيبر فأسرع الناس في حظائر يهود فأمرني أن أنادي الصلاة جامعة ولا يدخل الجنة إلا مسلم ثم قال « أيها الناس : إنكم قد أسرعتم في حظائر يهود ، ألا لا يحل أموال المعاهدين إلا بحقها

وحرام عليكم لحوم الحمر الأهلية وخيلها وبغالها وكل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » والرمكة هى الحجرة ، وقوله حبلوها أى أوثقوها فى الحبل ليذبحوها ، والحظائر البساتين القريبة من العمران وكأن هذا الصنيع وقع بعد إعطائهم العهد ومعاملتهم على الشطر والله أعلم . فلو صح هذا الحديث لكان نصاً فى تحريم لحوم الخيل ولكن لا يقاوم ماثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى لحوم الخيل . ورواه الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال : ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل وفى صحيح مسلم عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : نحرنا على عهد رسول صلى الله عليه وسلم فرسا فأكلناه ونحن بالمدينة . فهذه أدل وأقوى وأثبت ، وإلى ذلك صار جمهور العلماء مالك والشافعى وأحمد وأصحابهم وأكثر السلف والخلف والله أعلم . وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس قال كانت الخيل وحشية فذللها الله لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وذكر وهب بن منبه فى إسرائيلياته أن الله خلق الخيل من ريح الجنوب والله أعلم . فقد دل النص على جواز ركوب هذه الدواب ومنها البغال ، وقد أهديت إلى رسول الله ﷺ بغلة فكان يركبها مع أنه قد نهى عن انزاء الحمر على الخيل لئلا ينقطع النسل . قال الإمام أحمد حدثنى محمد بن عبيد حدثنا عمر من آل حذيفة عنه عن الشعبى عن دحية الكلبى قال : قلت يا رسول الله ألا أحمل لك حمارا على فرس فتنتج لك بغلا فتركبها قال « إنما يفعل ذلك الذين لا يعلمون »

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه فى السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع فى القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقال تعالى (يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير) ولما ذكر تعالى فى هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التى يركبونها ويبلغون عليها حاجة فى صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة والأسفار الشاقة ، شرع فى ذكر الطرق التى يسلكها الناس إليه ، فبين أن الحق منها ما هى موصلة إليه فقال (وعلى الله قصد السبيل) كقوله (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) وقال (قال هذا صراط على مستقيم) قال مجاهد فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) قال طريق الحق على الله ، وقال السدى (وعلى الله قصد السبيل) الإسلام وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله (وعلى الله قصد السبيل) يقول وعلى الله البيان أى يبين الهدى والضلالة . وكذا روى على بن أبى طلحة عنه وكذا قال قتادة والضحاك وقول مجاهد ههنا أقوى من حيث السياق لأنه تعالى أخبر أن ثم طرقا تسلك إليه فليس يصل إليه منها إلا طريق الحق وهى الطريق التى شرعها ورضيها ، وما عداها مسدودة والأعمال فيها مردودة ، ولهذا قال تعالى (ومنها جائر) أى حائد مائل زائغ عن الحق قال ابن عباس وغيره هى الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية ، وقرأ ابن مسعود (ومنكم جائر) ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال (ولو شاء لهداكم أجمعين) كما قال تعالى (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء وهو العلو مما لهم فيه بلغة ومتاع لهم ولأنعامهم فقال (لكم منه شراب) أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله

ملحاً أجاجاً (ومنه شجر فيه تسيمون) أى وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم . كما قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة وابن زيد فى قوله فيه تسيمون أى ترعون ومنه الإبل السائمة ، والسوم : الرعى ، وروى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ نهى عن السوم قبل طلوع الشمس وقوله (ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال (إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ؟ أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون) ثم قال تعالى

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ومننه الجسام فى تسخيره الليل والنهار يتعاقبان والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات فى أرجاء السموات نورا وضياء ليهتدى بها فى الظلمات ، وكل منها يسير فى فلكه الذى جعله الله تعالى فيه يسير بحركة مقدرة لا يزيد عليها ولا ينقص عنها ، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسهيله كقوله (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) ولهذا قال (إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى لدلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه . وقوله (وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه) لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق فى الأرض من الأمور العجيبة والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص (إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) أى آلاء الله ونعمه فيشكرونها

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم وتيسيرهم للركوب فيه وجعله السمك والحيتان فيه وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها فى الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها وتسخيره البحر لحمل السفن التى تمخره أى تشقه وقيل تمخر الرياح وكلاهما صحيح وقيل تمخره بجؤجئها وهو صدرها المسنم الذى أرشد العباد إلى صنعتها وهداهم إلى ذلك إرثا عن أبيهم نوح عليه السلام فإنه أول من ركب السفن وله كان تعلم صنعتها ثم أخذها الناس عنه قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل يسيرون من قطر إلى قطر ومن بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى ما هنا وما هنا إلى ما هناك ولهذا قال تعالى (ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى نعمه وإحسانه، وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده وجدت فى كتابى عن محمد بن معاوية البغدادى حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو عن سهل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال كلم الله البحر الغربى وكلم البحر الشرقى فقال للبحر الغربى إنى حامل فيك عبادا من عبادى فكيف أنت صانع فيهم؟ قال أغرقهم، فقال

بأسك فى نواحيك واحملهم على يدى وحرمت الحلية والصيد ، وكلم هذا البحر الشرقى فقال : إنى حامل فيك عبادا من عبادى فما أنت صانع بهم ؟ فقال : أحملهم على يدى وأكون لهم كالوالدة لولدها فأثابه الحلية والصيد ، ثم قال البزار لا نعلم من رواه عن سهل غير عبد الرحمن بن عبد الله بن عمرو وهو منكر الحديث . وقد رواه سهل عن النعمان بن أبى عياش عن عبد الله بن عمرو موقوفا . ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسى الشامخات والجبال الراسيات لتقر الأرض ولا تميد أى تضطرب بما عليها من الحيوانات فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك ولهذا قال (والجبال أرساها) وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة سمعت الحسن يقول : لما خلقت الأرض كانت تميد فقالوا ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا فأصبحوا وقد خلقت الجبال فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال ، وقال سعيد عن قتادة عن الحسن عن قيس بن عبادة أن الله لما خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحداً فأصبحت صبحا وفيها رواسيها ، وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنى حجاج بن منهال حدثنا حماد عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن حبيب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لما خلق الله الأرض قمصت وقالت أى رب تجعل على بنى آدم يعملون الخطايا ويجعلون على الخبث ؟ قال فأرسى الله فيها من الجبال ماترون ومالا ترون فكان إقرارها كاللحم يترجرج . وقوله (وأنهاراً وسبلا) أى جعل فيها أنهارا تجرى من مكان إلى مكان آخر رزقا للعباد ينبع فى موضع وهو رزق لأهل موضع آخر فيقطع البقاع والبرارى والقفار ويخترق الجبال والآكام فيصل إلى البلد الذى سخر لأهله وهى سائرة فى الأرض يمنة ويسرة وجنوبا وشمالا وشرقاً وغربا ما بين صغار وكبار وأودية تجرى حينا وتنقطع فى وقت وما بين نبع وجمع وقوى السير وبطئه بحسب ما أراد وقدر وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكا كما قال تعالى (وجعلنا فيها فجاجا سبلا) الآية وقوله (وعلامات) أى دلائل من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك يستدل بها المسافرون برا وبحراً إذا ضلوا الطرق . وقوله (وبالنجم هم يهتدون) أى فى ظلام الليل قاله ابن عباس وعن مالك فى قوله (وعلامات وبالنجم هم يهدون) يقول النجوم وهى الجبال ، ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغى العبادة إلا له دون ما سواه من الأوثان التى لا تخلق شيئا بل هم يخلقون ولهذا قال (أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون :) ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) أى يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ولكنه غفور رحيم يغفر الكثير ويجازى على اليسير ، وقال ابن جرير يقول إن الله لغفور لما كان منكم من تقصير فى شكر بعض ذلك إذا تبتم وأنبتم إلى طاعته واتباع مرضاته رحيم بكم لا يعذبكم بعد الانابة والتوبة

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر . ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون كما قال الخليل (أتعبدون ماتنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون) وقوله (أموات غير أحياء) أى هى جمادات لا أرواح فيها فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل (وما يشعرون أيان يبعثون) أى لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذى يعلم كل شىء وهو خالق كل شىء

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك (أجعل الآلهة إلها واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب) وقال تعالى (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون) وقوله (وهم مستكبرون) أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيد خلون جهنم داخرين) ولهذا قال ههنا (لاجرم) أى حقا (أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون) أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء (إنه لا يحب المستكبرين)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين (ماذا أنزل ربكم قالوا) معرضين عن الجواب (أساطير الأولين) أى لم ينزل شيئا إنما هذا الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى مأخوذ من كتب المتقدمين كما قال تعالى (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا) أى يفترون على الرسول ويقولون أقوالا متضادة مختلفة كلها باطلة كما قال تعالى (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) وذلك أن كل من خرج عن الحق فمهما قال أخطأ ، وكانوا يقولون ساحر وشاعر وكاهن ومجنون ثم استقر أمرهم إلى ما اختلقه لهم شيخهم الوحيد المسمى بالوليد بن المغيرة المخزومى لما (فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى ينقل ويحكى فتفرقوا عن قوله ورأيه قبحهم الله ، قال الله تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى إنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك ليتحملوا أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون) وهكذا روى العوفى عن ابن عباس فى الآية (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) انها كقوله (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم) وقال مجاهد يحملون أثقالهم ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ولا يخفف عمن أطاعهم من العذاب شيئا

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس فى قوله (قد مكر الذين من قبلهم) قال هو النمروذ الذى بنى الصرح ؟ قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد نحوه وقال عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أول جبار كان فى الأرض النمروذ فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من جمع يديه فضرب بهما رأسه ، وكان جبارا أربعمائة سنة فعذبه الله أربعمائة سنة كملكه ثم أماته وهو الذى بنى الصرح إلى السماء الذى قال الله تعالى (فأتى الله بنيانهم من القواعد) وقال آخرون بل هو بختنصر وذكروا من المكر الذى حكاه الله ههنا كما قال فى سورة إبراهيم (وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) وقال آخرون هذا من المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا فى عبادته غيره كما قال نوح عليه السلام (ومكروا مكرا كبارا) أى احتالوا فى إضلال الناس بكل حيلة

وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً) الآية وقوله (فأتى الله بنيانهم من القواعد) أى اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالى (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) وقوله (فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار) وقال الله ههنا (فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ثم يوم القيامة يخزيهم) أى يظهر فضائحهم وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية كقوله تعالى (يوم تبلى السرائر) أى تظهر وتشتهر كما فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته فيقال هذه غدرة فلان بن فلان » وهكذا هؤلاء يظهر للناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رءوس الخلائق ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا (أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) تحاربون وتعادون فى سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ (هل ينصرونكم أو ينتصرون) (فما له من قوة ولا ناصر) فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار (قال الذين أوتوا العلم) وهم السادة فى الدنيا والآخرة والمخبرون عن الحق فى الدنيا والآخرة فيقولون حينئذ (إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ❊ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمى أنفسهم عند احتضارهم ومجىء الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة (فألقوا السلم) أى أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين (ما كنا نعمل من سوء) كما يقولون يوم المعاد (والله ربنا ما كنا مشركين) (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم) قال الله مكذبا لهم فى قيلهم ذلك (بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ❊ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين) أى بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله واتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم فى قبورها من حرها وسمومها فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم فى أجسادهم وخلدت فى نار جهنم (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) كما قال الله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ❊ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء فإن أولئك قيل لهم (ماذا أنزل ربكم) قالوا معرضين عن الجواب لم ينزل شيئا إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا خيرا أى أنزل خيرا أى رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به ، ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال (للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) الآية كقوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى من أحسن عمله فى الدنيا أحسن الله إليه عمله فى الدنيا والآخرة ثم أخبر بأن دار الآخرة خير أى من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء فى الدنيا كقوله (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير) الآية . وقال تعالى (وما عند الله خير للأبرار) وقال تعالى (والآخرة خير وأبقى) وقال لرسوله ﷺ (وللآخرة خير لك من الأولى) ثم وصف الدار الآخرة فقال (ولنعم دار المتقين) وقوله

(جنات عدن) بدل من دار المتقين أى لهم فى الآخرة جنات عدن أى مقام يدخلونها (تجرى من تحتها الأنهار) أى بين أشجارها وقصورها (لهم فيها ما يشاءون) كقوله تعالى (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) وفى الحديث « إن السحابة لتمر بالملأ من أهل الجنة وهم جلوس على شرابهم فلا يشتهى أحدهم شيئاً إلا أمطرته عليه حتى إن منهم لمن يقول أمطرينا كواعب أتراباً فيكون ذلك » (كذلك يجزى الله المتقين) أى كذلك يجزى الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله، ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون أى مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة كقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم) وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى قبض روح المؤمن وروح الكافر عند قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم قاله قتادة (أو يأتى أمر ربك) أى يوم القيامة وما يعاينونه من الأهوال وقوله (كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى فى شركهم أسلافهم ونظراؤهم وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال (وما ظلمهم الله) لأنه تعالى أعذر إليهم وأقام حججه عليهم بارسال رسله وإنزال كتبه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاءوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك (وحاق بهم) أى أحاط بهم من العذاب الأليم (ما كانوا به يستهزئون) أى يسخرون من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله فلهذا يقال لهم يوم القيامة (هذه النار التى كنتم بها تكذبون)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء) أى من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطانا ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه قال الله تعالى راداً عليهم شبهتهم (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ونهاكم عنه آكد النهى وبعث فى كل أمة أى فى كل قرن وطائفة من الناس رسولا وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن فى المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقوله تعالى (واسئل

من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة وهو لا يرضى لعباده الكفر وله فى ذلك حجة بالغة وحكمة قاطعة ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة فى الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال (فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف (دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها) فقال (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير) ثم أخبر الله تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً) وقال نوح لقومه (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم) وقال فى هذه الآية الكريمة (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) كما قال الله (من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون) وقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)وقوله (فان الله) أى شأنه وأمره أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فلهذا قال (لا يهدى من يضل) أى من أضله، فمن ذا الذى يهديه من بعد الله ؟ أى لا أحد (وما لهم من ناصرين) أى ينقذونهم من عذابه ووثاقه (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم أى اجتهدوا فى الحلف وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت أى استبعدوا ذلك وكذبوا الرسل فى إخبارهم لهم بذلك وحلفوا على نقيضه فقال تعالى مكذبا لهم ورادا عليهم (بلى) أى بلى سيكون ذلك (وعدا عليه حقا) أى لا بد منه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلجهلهم يخالفون الرسل ويقعون فى الكفر، ثم ذكر تعالى حكمته فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال (ليبين لهم) أى للناس (الذى يختلفون فيه) أى من كل شيء (ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) (وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى فى أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية (هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون) ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون والمعاد من ذلك إذا أراد كونه فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء كقوله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال فى هذه الآية الكريمة (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى أن نأمر به مرة واحدة فإذا هو كائن كما قال الشاعر

إذا ما أراد الله أمرا فإنما * يقول له كن قولة فيكون

أى أنه تعالى لا يحتاج إلى تأكيد فيما يأمر به فإنه تعالى لا يمانع ولا يخالف لأنه الواحد القهار العظيم الذى قهر سلطانه وجبروته وعزته كل شيء فلا إله إلا هو ولا رب سواه ، وقال ابن أبى حاتم ذكر الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى عطاء أنه سمع أبا هريرة يقول قال الله تعالى: شتمنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك وكذبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له ذلك فأما تكذيبه إياى فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت)

قال وقلت (بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أما شتمه إياى فقال (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) . هكذا ذكره موقوفا وهو فى الصحيحين مرفوعا بلفظ آخر

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين فى سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ويحتمل أن يكون سبب نزولها فى مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وجعفر بن أبى طالب بن عم الرسول وأبو سلمة بن عبد الأسود فى جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضى الله عنهم وأرضاهم وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة فى الدنيا والآخرة فقال (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) قال ابن عباس والشعبى وقتادة المدينة وقيل الرزق الطيب قاله مجاهد ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم فعوضهم الله خيراً منها فى الدنيا فان من ترك شيئا لله عوضه الله بما هو خير له منه وكذلك وقع فانهم مكن الله لهم فى البلاد وحكمهم على رقاب العباد وصاروا أمراء حكاما وكل منهم للمتقين إماما وأخبر أن ثوابه للمهاجرين فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا فقال (ولأجر الآخرة أكبر) أى مما أعطيناهم فى الدنيا (لو كانوا يعلمون) أى لو كان المتخلفون عن الهجرة معهم يعلمون ما ادخر الله لمن أطاعه واتبع رسوله ولهذا قال هشيم عن العوام عمن حدثه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله فى الدنيا وما ادخر لك فى الآخرة أفضل ثم قرأ هذه الآية (لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ثم وصفهم تعالى فقال (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

قال الضحاك عن ابن عباس لما بعث الله محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) الآية وقال (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) يعنى أهل الكتب الماضية أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فان كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولا قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) ليسوا من أهل السماء كما قلتم وكذا روى عن مجاهد عن ابن عباس أن المراد بأهل الذكر أهل الكتاب وقاله مجاهد والأعمش وقول عبد الرحمن بن زيد الذكر القرآن واستشهد بقوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) صحيح لكن ليس هو المراد ههنا لأن المخالف لا يرجع فى إثباته بعد إنكاره إليه وكذا قول أبى جعفر الباقر نحن أهل الذكر ومراده أن هذه الأمة أهل الذكر صحيح فان هذه الأمة أعلم من جميع الأمم السالفة . وعلماء أهل بيت رسول الله عليهم السلام والرحمة من خير العلماء إذا كانوا على السنة المستقيمة كعلى وابن عباس وابنى على الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعلى بن الحسين زين العابدين وعلى بن عبد الله بن عباس وأبى جعفر الباقر وهو محمد بن على بن الحسين وجعفر ابنه وأمثالهم وأضرابهم وأشكالهم ممن هو متمسك بحبل الله المتين وصراطه المستقيم وعرف لكل ذى حق حقه ونزل كل[1] المنزل الذى أعطاه

(١) هكذا فى جميع النسخ والوجه ونزل كلا الخ .

الله ورسوله واجتمعت عليه قلوب عباده المؤمنين ، والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا بشراً كما هو بشر كما قال تعالى (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ؟) وقال تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقال تعالى (وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) وقال (قل ما كنت بدعاً من الرسل) وقال تعالى (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ) ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم (بالبينات) أى بالحجج والدلائل (والزبر) وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيرهم ، والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبته . وقال تعالى (وكل شىء فعلوه فى الزبر) وقال (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ثم قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر) يعنى القرآن (لتبين للناس ما نزل إليهم) أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك وحرصك عليه واتباعك له ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل (ولعلهم يتفكرون) أى ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم كقوله تعالى (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير) وقوله (أو يأخذهم فى تقلبهم) أى فى تقلبهم فى المعايش واشتغالهم بها فى أسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة والسدى تقلبهم أى أسفارهم ، وقال مجاهد والضحاك وقتادة (فى تقلبهم) فى الليل والنهار كقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) وقوله (فما هم بمعجزين) أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه وقوله (أو يأخذهم على تخوف) أى أو يأخذهم الله فى حال خوفهم من أخذه لهم فإنه يكون أبلغ وأشد فان حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ولهذا قال العوفى عن ابن عباس (أو يأخذهم على تخوف) يقول إن شئت أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك وكذا روى عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم ثم قال تعالى (فإن ربكم لرءوف رحيم) أى حيث لم يعاجلكم بالعقوبة كما ثبت فى الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وفيهما « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) وقال تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَٱلْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذى خضع له كل شىء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة فأخبر أن كل ماله ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال أى بكرة

وعشيا فانه ساجد بظله لله تعالى . قال مجاهد إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عز وجل وكذا قال قتادة والضحاك وغيرهم ، وقوله (وهم داخرون) أى صاغرون وقال مجاهد أيضاً سجود كل شيء فيؤه وذكر الجبال قال سجودها فيؤها وقال أبو غالب الشيبانى أمواج البحر صلاته ونزلهم منزلة من يعقل إذ أسند السجود إليهم فقال (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة) كما قال (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) وقوله (والملائكة وهم لا يستكبرون) أى تسجد لله أى غير مستكبرين عن عبادته (يخافون ربهم من فوقهم) أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله (ويفعلون ما يؤمرون) أى مثابرين على طاعته تعالى وامتثال أوامره ، وترك زواجره

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه لا ينبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له فانه مالك كل شيء وخالقه وربه (وله الدين واصباً) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وميمون بن مهران والسدى وقتادة وغير واحد أى دائما وعن ابن عباس أيضاً أى واجبا ، وقال مجاهد أى خالصا له أى له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض كقوله (أفغير دين الله يبغون* وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) هذا على قول ابن عباس وعكرمة فيكون من باب الخبر وأما على قول مجاهد فانه يكون من باب الطلب أى ارهبوا أن تشركوا بى شيئا وأخلصوا لى الطاعة كقوله تعالى (ألا لله الدين الخالص) ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم ، وإحسانه إليهم (ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون اليه وتسألونه وتلحون فى الرغبة اليه مستغيثين به كقوله تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) وقال ههنا (ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم) قيل اللام ههنا لام العاقبة وقيل لام التعليل بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا أى يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم وأنه المسدى إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلا (فتمتعوا) أى اعملوا ماشئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا (فسوف تعلمون) أى عاقبة ذلك

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم وجعلوا للأوثان نصيبا مما رزقهم الله فقالوا (هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال (تالله لتسئلن عما

كنتم تفترون) ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها بنات الله فعبدوها معه فأخطأوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال (ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذا قسمة ضيزى) وقوله ههنا (ويجعلون لله البنات سبحانه) أى عن قولهم وإفكهم (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون) وقوله (ولهم ما يشتهون) أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا. فانه (إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا) أى كئيبا من الهم (وهو كظيم) ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن (يتوارى من القوم)أى يكره أن يراه الناس (من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى إن أبقاها أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتنى بها ويفضل أولاده الذكور عليها (أم يدسه فى التراب) أى يئدها وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ (ألا ساء ما يحكمون) أى بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) وقوله ههنا (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى النقص إنما ينسب إليهم (ولله المثل الأعلى) أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه (وهو العزيز الحكيم)

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ماترك على ظهر الأرض من دابة أى لأهلك جميع دواب الارض تبعا لإهلاك بنى آدم ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى أى لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحدا ، قال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن أبى الاحوص أنه قال كاد الجعل أن يعذب بذنب بنى آدم وقرأ الآية (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) وكذا روى الاعمش عن أبى إسحق عن أبى عبيدة قال : قال عبد الله كاد الجعل أن يهلك فى جحره بخطيئة بنى آدم وقال ابن جرير حدثنى محمد بن المثنى حدثنا إسماعيل ابن حكيم الخزاعى حدثنا محمد بن جابر الحنفى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة قال سمع أبو هريرة رجلا وهو يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، قال فالتفت إليه فقال بلى والله حتى إن الحبارى لتموت فى وكرها بظلم الظالم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين أنبأنا الوليد بن عبد الملك حدثنا عبيد الله بن شرحبيل حدثنا سليمان بن عطاء عن سلمة بن عبد الله عن عمه أبى مشجعة بن ربعى عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « إن الله لا يؤخر شيئا إذا جاء أجله وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها الله العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره فذلك زيادة العمر » . وقوله (ويجعلون لله ما يكرهون) أى من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيده وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له فى ماله وقوله (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) إنكار عليهم فى دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى فى الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضا لهم الحسنى وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور) وكقوله (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) وقوله (أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا) وقال إخبارا عن أحد الرجلين أنه (١) دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما

(١) التلاوة : بالواو .

أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيرا منها منقلبا) فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمنى الباطل بأن يجازوا على ذلك حسنا وهذا مستحيل ، كما ذكر ابن إسحق أنه وجد حجر فى أساس الكعبة حين نقضوها لبحددوها مكتوب عليه حكم مواعظ ، فمن ذلك : تعملون السيئات وتجزون الحسنات ؟ أجل كما يجتنى من الشوك العنب . وقال مجاهد وقتادة (وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى الغلمان وقال ابن جرير (أن لهم الحسنى) أى يوم القيامة كما قدمنا بيانه وهو الصواب ولله الحمد ، ولهذا قال تعالى رادا عليهم فى تمنيهم ذلك (لاجرم) أى حقا لابد منه (أن لهم النار) أى يوم القيامة (وأنهم مفرطون) قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم منسيون فيها مضيعون وهذا كقوله تعالى (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) وعن قتادة أيضا مفرطون أى معجلون إلى النار من الفرط وهو السابق إلى الورد ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار وينسون فيها أى يخلدون

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلا فكذبت الرسل فلك يا محمد فى إخوانك من المرسلين أسوة فلا يهيدنك تكذيب قومك لك ، وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم مافعلوه . (فهو وليهم اليوم) أى هم تحت العقوبة والنكال والشيطان وليهم ولا يملك لهم خلاصا ولا صريخ لهم ولهم عذاب أليم . ثم قال تعالى لرسوله إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذى يختلفون فيه فالقرآن فاصل بين الناس فى كل ما يتنازعون فيه (وهدى) أى للقلوب (ورحمة) أى لمن تمسك به (لقوم يؤمنون) وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء (إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) أى يفهمون الكلام ومعناه

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ * وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (وإن لكم) أيها الناس (فى الأنعام) وهى الإبل والبقر والغنم (لعبرة) أى لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه (نسقيكم مما فى بطونه) أفرده ههنا عوداً على معنى النعم أو الضمير عائد على الحيوان فان الأنعام حيوانات أى نسقيكم مما فى بطن هذا الحيوان ، وفى الآية الأخرى مما فى بطونها ويجوز هذا وهذا كما فى قوله تعالى (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره) وفى قوله تعالى (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون * فلما جاء سليمان) أى المال ، وقوله (من بين فرث ودم لبناً خالصاً) أى يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم فى باطن الحيوان فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته فيصرف منه دم إلى العروق ولبن إلى الضرع وبول إلى المثانة وروث إلى المخرج وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغير به ، وقوله لبناً خالصاً سائغا للشاربين) أى لا يغص به أحد ، ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شرابا للناس سائغا ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً) دل على إباحته شرعا قبل تحريمه ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل والمتخذ من العنب كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذره والعسل كما جاءت السنة بتفصيل ذلك ، وليس هذا موضع بسط

ذلك كما قال ابن عباس فى قوله (سكرا ورزقا حسناً) السكر ماحرم من ثمرتيهما والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما وفى رواية السكر حرامه والرزق الحسن حلاله يعنى مايبس منهما من تمر وزبيب وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد كما وردت السنة بذلك (إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) ناسب ذكر العقل ههنا فانه أشرف مافى الانسان ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها قال الله تعالى (وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلايشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون)

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

المراد بالوحى هنا الالهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوى اليها، ومن الشجر ومما يعرشون ثم هى محكمة فى غاية الاتقان فى تسديسها ورصها بحيث لا يكون فى بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لاتحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها وتقىء العسل من فيها وتبيض الفراخ من دبرها ثم تصبح إلى مراعيها، وقال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم (فاسلكى سبل ربك ذللا) أى مطيعة فجعلاه حالا من السالكة، قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) قال: ألاترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم، والقول الأول هو الأظهر وهو أنه حال من الطريق أى فاسلكيها مذللة لك، نص عليه مجاهد، وقال ابن جرير كلا القولين صحيح، وقد قال أبو يعلى الموصلى حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا مكين بن عبد العزيز عن أبيه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «عمر الذباب أربعون يوما، والذباب كله فى النار إلا النحل» وقوله تعالى (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) مابين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها. وقوله (فيه شفاء للناس) أى فى العسل شفاء للناس أى من أدواء تعرض لهم، قال بعض من تكلم على الطب النبوى لوقال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ولكن قال فيه شفاء للناس أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة فانه حار والشىء يداوى بضده، وقال مجاهد وابن جرير فى قوله (فيه شفاء للناس) يعنى القرآن وهذا قول صحيح فى نفسه ولكن ليس هو الظاهر ههنا من سياق الآية فان الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا وإنما الذى قاله ذكروه فى قوله تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) والدليل على أن المراد بقوله تعالى (فيه شفاء للناس) هو العسل. الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من رواية قتادة عن أبى المتوكل على بن داود الناجى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله وسلم فقال إن أخى استطلق بطنه فقال «اسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا، قال «اذهب فاسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله مازاده إلا استطلاقا فقال رسول الله ﷺ «صدق الله وكذب بطن أخيك. اذهب فاسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا فبرىء. قال بعض العلماء بالطب كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالا فاعتقد الاعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما

اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام ، وفي الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، هذا لفظ البخاري . وفي صحيح البخاري من حديث سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار وأنهى أمتي عن الكي » وقال البخاري حدثنا أبونعيم حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن عاصم بن عمر ابن قتادة سمعت جابر بن عبدالله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير : ففي شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو لذعة بنار توافق الداء وما أحب أن أكتوى » ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر به ، وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن إسحق أنبأنا عبد الله ، أنبأنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثنا عبدالله بن الوليد عن أبي الخير عن عقبة بن عامر الجهني قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية تصيب ألما وأنا أكره الكي ولا أحبه » ورواه الطبراني عن هرون بن سلول المصري عن أبي عبد الرحمن المقرى عن عبد الله بن الوليد به . ولفظه « إن كان في شيء شفاء : فشرطة محجم » وذكره وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه وقال الإمام أبوعبدالله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه حدثنا علي بن سلمة هو التغلبي ، حدثنا زيد بن حباب ، حدثنا سفيان عن أبي إسحق ، عن أبي الأحوص عن عبدالله هو ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن » وهذا إسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعاً وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان هو الثوري به موقوفا وله شبه . وروينا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إذا أراد أحدكم الشفاء فليكتب آية من كتاب الله في صحفة وليغسلها بماء السماء وليأخذ من امرأته درهما عن طيب نفس منها فليشتر به عسلا فليشربه كذلك فانه شفاء : أي من وجوه قال الله تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقال (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) وقال (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) وقال في العسل (فيه شفاء للناس) وقال ابن ماجه أيضاً : حدثنا محمود بن خداش حدثنا سعيد بن زكريا القرشي حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبدالحميد بن سالم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « من لعق العسل ثلاث غدوات في كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء » الزبير بن سعيد متروك ، وقال ابن ماجه أيضاً حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف بن سرح الفريابي حدثنا عمرو بن بكر السكسكي ، حدثنا إبراهيم ابن أبي عبلة سمعت أبا أبي بن أم حرام وكان قد صلى القبلتين يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام » قيل يارسول الله وما السام ؟ قال « الموت » قال عمرو قال ابن أبي عبلة السنوت الشبت وقال آخرون بل هو العسل الذي في زقاق السمن وهو قول الشاعر :

هم السمن بالسنوت لا لبس فيهم * وهم يمنعون الجار أن يقردا

كذا رواه ابن ماجه ، وقوله لا لبس فيهم أي لاخلط وقوله يمنعون الجار أن يقردا أي يضطهد ويظلم وقوله (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) أي إن في إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك في هذه المهامه والاجتناء من سائر الثمار ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون في عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر الحكيم العليم الكريم الرحيم

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلقة كما قال الله تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة) الآية وقد روى

عن على رضى الله عنه أرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال لكيلا يعلم بعد علم شيئاً أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً من الفند والخرف ولهذا روى البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا موسى بن إسماعيل : حدثنا هارون بن موسى أبو عبد الله الأعور عن شعيب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات » وقال زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين عاما لا أبالك يسأم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب * تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يبين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى منكرا عليهم أنتم لا ترضون أن تساووا عبيدكم فيما رزقناكم فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الإلهية والتعظيم كما قال فى الآية الأخرى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) الآية قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية يقول لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم ونسائهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى فذلك قوله (أفبنعمة الله يجحدون) وقال فى الرواية الأخرى عنه فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم ، وقال مجاهد فى هذه الآية هذا مثل الآلهة الباطلة ، وقال قتادة هذا مثل ضربه الله فهل منكم من أحد يشاركه مملوكه فى زوجته وفى فراشه فتعدلون بالله خلقه وعباده ؟ فان لم ترض لنفسك هذا فالله أحق أن ينزه منك ، وقوله (أفبنعمة الله يجحدون) أى أنهم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فجحدوا نعمته وأشركوا معه غيره ، وعن الحسن البصرى قال كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذه الرسالة إلى أبى موسى الأشعرى : واقنع برزقك من الدنيا فان الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق بلاء يبتلى به كلا فيبتلى من بسط له كيف شكره لله وأداؤه الحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله . رواه ابن أبى حاتم

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثا وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد قال شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وبنين وحفدة: وهم الولد وولد الولد . وقال سنيد حدثنا حجاج عن أبى بكر عن عكرمة عن ابن عباس قال : بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويعينونك ويخدمونك : قال جميل حفد الولائد حولهن وأسلمت * بأكفهن أزمة الأجمال

وقال مجاهد بنين وحفدة : ابنه وخادمه . وقال فى رواية . الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ، وقال طاوس وغير واحد : الحفدة الخدم . وكذا قال قتادة وأبو مالك والحسن البصرى . وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن الحكم ابن أبان عن عكرمة أنه قال : الحفدة من خدمك من ولدك وولد ولدك ، قال الضحاك : إنما كانت العرب تخدمها

بنوها وقال العوفى عن ابن عباس قوله (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) يقول بنو امرأة الرجل ليسوا منه ويقال الحفدة الرجل يعمل بين يدى الرجل . يقال فلان يحفد لنا أى يعمل لنا قال وزعم رجال أن الحفدة أختان الرجل ، وهذا الأخير الذى ذكره ابن عباس قاله ابن مسعود ومسروق وأبو الضحى وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير ومجاهد والقرظى ورواه عكرمة عن ابن عباس وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هم الأصهار قال ابن جرير : وهذه الأقوال كلها داخلة فى معنى الحفدة وهو الخدمة الذى منه قوله فى القنوت : وإليك نسعى ونحفد ولما كانت الخدمة قد تكون من الأولاد والخدم والأصهار فالنعمة حاصلة بهذا كله ولهذا قال (وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) قلت فمن جعل (وحفدة) متعلقا بأزواجكم فلا بد أن يكون المراد الأولاد وأولاد الأولاد أو الأصهار لأنهم أزواج البنات أو أولاد الزوجة وكذا قال الشعبى والضحاك فإنهم يكونون غالبا تحت كنف الرجل وفى حجره وفى خدمته وقد يكون هذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث نضرة بن أكثم « والولد عبد لك » رواه أبو داود . وأما من جعل الحفدة الخدم فعنده أنه معطوف على قوله (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أى جعل لكم الأزواج والأولاد خدما وقوله (ورزقكم من الطيبات) أى من الطاعم والمشارب ثم قال تعالى منكرا على من أشرك فى عبادة المنعم غيره (أفبالباطل يؤمنون) وهم الأنداد والأصنام (وبنعمةالله هم يكفرون) أى يسترون نعم الله عليهم ويضيفونها إلى غيره . وفى الحديث الصحيح « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه ألم أزوجك؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ »

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان مالا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيئا أى لا يقدر على إنزال مطر ولا إنبات زرع ولا شجر ولا يملكون ذلك لأنفسهم أى ليس لهم ذلك ولا يقدرون عليه لو أرادوه ولهذا قال تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) أى لا تجعلوا له أندادا وأشباها وأمثالا (إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى انه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس . هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير فالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء مثل الكافر والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سرا وجهرا هو المؤمن وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوى هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبى قال الله تعالى (الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون)

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد وهذا أيضاً المراد به الوثن والحق تعالى يعنى أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشىء ولا يقدر على شىء بالكلية فلا مقال ولا فعال وهو مع هذا كل أى عيال وكلفة على مولاه (أينما يوجهه) أى يبعثه (لا يأت

بخير) ولا بنجح مسعاه (هل يستوى) من هذه صفاته (ومن يأمر بالعدل) أى بالقسط فمقاله حق وفعاله مستقيمة (وهو على صراط مستقيم) وقيل الأبكم مولى لعثمان وبهذا قال السدى وقتادة وعطاء الخراسانى واختار هذا القول ابن جرير.

وقال العوفى عن ابن عباس هو مثل للكافر والمؤمن أيضاً كما تقدم وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا يحيى بن إسحق السالحينى حدثنا حماد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إبراهيم عن عكرمة عن يعلى بن أمية عن ابن عباس فى قوله (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء) قال نزلت فى رجل من قريش وعبده يعنى قوله (عبدا مملوكا) الآية وفى قوله (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم – إلى قوله – وهو على صراط مستقيم) قال هو عثمان بن عفان، قال والأبكم الذى أينما يوجهه لا يأت بخير قال هو مولى لعثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكلفه ويكفيه المؤونة وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه وقدرته على الأشياء فى علمه غيب السموات والأرض واختصاصه بعلم الغيب فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء وفى قدرته التامة التى لا تخالف ولا تمانع وأنه إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون كما قال (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) أى فيكون ما يريد كطرف العين وهكذا قال ههنا (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير) كما قال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) ثم ذكر تعالى منته على عباده فى إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذى به يدركون به الأصوات والأبصار التى بها يحسون المرئيات والأفئدة وهى العقول التى مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها وهذه القوى والحواس تحصل للانسان على التدريج قليلا قليلا كلما كبر زيد فى سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده. وإنما جعل تعالى هذه فى الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه كما جاء فى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقول تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أفضل من أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطينه ولئن دعانى لأجيبنه ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه» فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عزوجل فلا يسمع إلا لله ولا يبصر إلا لله أى ما شرعه الله له ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعة الله عزوجل مستعينا بالله فى ذلك كله ولهذا جاء فى بعض رواية الحديث فى غير الصحيح بعد قوله ورجله التى يمشى بها «فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى» ولهذا قال تعالى (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) كقوله تعالى فى الآية الأخرى (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون) ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين بين السماء والأرض فى جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته تعالى التى جعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر الهواء يحملها ويسير الطير كذلك كما قال تعالى فى سورة الملك (أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير) وقال ههنا (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون)

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التى هى سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتا أى من الأدم يستخفون حملها فى أسفارهم ليضربوها لهم فى إقامتهم فى السفر والحضر . ولهذا قال (تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها) أى الغنم (وأوبارها) أى الإبل (وأشعارها) أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام (أثاثا) أى تتخذون منه أثاثا وهو المال وقيل المتاع وقيل الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله فإنه يتخذ من الأساس البسط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالا وتجارة ، وقال ابن عباس: الأثاث المتاع، وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والضحاك وقتادة ، وقوله (إلى حين) أى إلى أجل مسمى ووقت معلوم وقوله (والله جعل لكم مما خلق ظلالا) قال قتادة يعنى الشجر (وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى حصونا ومعاقل كما (جعل لكم سرابيل تقيكم الحر) وهى الثياب من القطن والكتان والصوف (وسرابيل تقيكم بأسكم) كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك (كذلك يتم نعمته عليكم) أى هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وما تحتاجون إليه ليكون عونا لكم على طاعته وعبادته (لعلكم تسلمون) هكذا فسره الجمهور وقروه بكسر اللام من تسلمون أى من الاسلام ، وقال قتادة فى قوله (كذلك يتم نعمته عليكم) هذه السورة تسمى سورة النعم ، وقال عبدالله بن المبارك وعباد بن العوام عن حنظلة السدوسى عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه كان يقرؤها (تسلمون) بفتح اللام يعنى من الجراح رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين ورد هذه القراءة وقال عطاء الخراسانى إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب ألا ترى إلى قوله تعالى (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا) وما جعل من السهل أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب جبال ؟ ألا ترى إلى قوله (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) وما جعل لهم من غير ذلك أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب وبر وشعر ؟ ألا ترى إلى قوله (وينزل من السماء من جبال فيها من برد) لعجبهم من ذلك وما أنزل من الثلج أعظم وأكثر ولكنهم كانوا لا يعرفونه ؟ ألا ترى الى قوله تعالى (سرابيل تقيكم الحر) وما تقى من البرد أعظم وأكثر ولكنهم كانوا أصحاب حر ، وقوله (فان تولوا) أى بعد هذا البيان وهذا الامتنان فلا عليك منهم (فإنما عليك البلاغ المبين) وقد أديته إليهم (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى يعرفون أن الله تعالى هو المسدى إليهم ذلك وهو المتفضل به عليهم ومع هذا ينكرون ذلك ويعبدون معه غيره ويسندون النصر والرزق إلى غيره (وأكثرهم الكافرون) كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مجاهد أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فسأله فقرأ عليه رسول الله ﷺ (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) فقال الأعرابى نعم ، قال (وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا) الآية قال الأعرابى نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابى نعم حتى بلغ (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) فولى الأعرابى فأنزل الله (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) الآية

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا

الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة وأنه يبعث من كل أمة شهيدا وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى (ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى فى الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فلهذا قال (ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا) أى الذين أشركوا (العذاب فلا يخفف عنهم) أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينظرون) أى لا يؤخر عنهم بل يأخذهم سريعا من الموقف بلا حساب فانه إذا جىء بجهنم تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك فيشرف عنق منها على الخلائق وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه فتقول إنى وكلت بكل جبار عنيد الذى جعل مع الله إلها آخر وبكذا وبكذا وتذكر أصنافا من الناس كما جاء فى الحديث ، ثم تنطوى عليهم وتلتقطهم من الموقف كما يلتقط الطائر الحب قال الله تعالى (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا ، لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) وقال تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) وقال تعالى (لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون) ، ثم أخبر تعالى عن تبرى آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم) أى الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) الآية وقال تعالى (وقيل ادعوا شركاءكم) الآية ، والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) قال قتادة وعكرمة ذلوا واستسلموا يومئذ أى استسلموا لله جميعهم فلا أحد إلا سامع مطيع ، وكقوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) أى ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ وقال (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا) الآية وقال (وعنت الوجوه للحى القيوم) أى خضعت وذلت واستكانت وأنابت واستسلمت ، وقوله (وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير . ثم قال تعالى (الذين كفروا وصدو عن سبيل الله زدناهم عذابا) الآية أى عذاباً على كفرهم وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق كقوله تعالى (وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى ينهون الناس عن اتباعه ويبتعدون هم منه أيضاً (وإن يهلكون إلا أنفسهم ومايشعرون) وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم كما قال تعالى (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقد قال الحافظ أبو يعلى حدثنا سريج بن يونس حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عبد الله ابن مرة عن مسروق عن عبد الله فى قول الله (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال. وحدثنا سريج بن يونس حدثنا إبراهيم بن سليمان حدثنا الأعمش عن الحسن عن ابن عباس فى الآية أنه قال (زدناهم عذابا فوق العذاب) قال هى خمسة أنهار تحت العرش يعذبون ببعضها فى الليل وببعضها فى النهار

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) يعنى أمتك ، أى اذكر ذلك اليوم وهوله وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء فلما وصل إلى قوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) فقال له رسول الله ﷺ « حسبك » فقال ابن مسعود رضى الله عنه فالتفت فإذا عيناه تذرفان وقوله (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) قال ابن مسعود قد بين لنا فى هذا القرآن كل علم وكل شىء ، وقال مجاهد كل حلال وكل حرام ، وقول ابن مسعود أعم وأشمل فان القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتى وكل حلال وحرام وما الناس اليه محتاجون فى أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم (وهدى) أى للقلوب (ورحمة وبشرى للمسلمين) وقال الأوزاعى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء) أى بالسنة ، ووجه اقتران قوله (ونزلنا عليك الكتاب) مع قوله (وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أن المراد والله أعلم إن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك سائلك عن ذلك يوم القيامة (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) وقال تعالى (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ومعيدك يوم القيامة وسائلك عن أداء ما فرض عليك . هذا أحد الأقوال وهو متجه حسن

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقال (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرعية العدل والندب إلى الفضل ، وقال على بن أبى طلحه عن ابن عباس : (إن الله يأمر بالعدل) قال شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال سفيان بن عيينة العدل فى هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا ، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته والفحشاء والمنكر أن تكون علانيه أحسن من سريرته ، وقوله (وإيتاء ذى القربى) أى يأمر بصلة الأرحام كما قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا)وقوله (وينهى عن الفحشاء والمنكر) فالفواحش المحرمات والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها ، ولهذا قال فى الموضع الآخر (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن) وأما البغى فهو العدوان على الناس ، وقد جاء فى الحديث « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع مايدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطعية الرحم » وقوله (يعظكم) أى يأمركم بما يأمركم به من الخير وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر (لعلكم تذكرون) وقال الشعبى عن بشير بن نهيك سمعت ابن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية رواه ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيىء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه . وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [قلت] ولهذا جاء فى الحديث «إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها» وقال الحافظ أبو يعلى فى كتاب معرفة الصحابة حدثنا أبو بكر محمد بن الفتح الحنبلى حدثنا يحيى بن محمد مولى بنى هاشم حدثنا الحسن بن داود المنكدرى حدثنا عمر بن على المقدمى عن على بن عبد الملك بن عمير عن أبيه قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فاراد أن يأتيه فأبى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه قال فليأته من يبلغه عنى ويبلغنى عنه فانتدب رجلان

فأتيا النبي ﷺ فقالا نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك من أنت وما أنت؟ فقال النبي ﷺ «أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله وأما ماأنا فأنا عبد الله ورسله» قال ثم تلا عليهم هذه الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية قالوا ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكي النسب وسطا في مضر - أي شريفا - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها فلما سمعهن أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها فكونوا في هذا الأمر رءوسا ولا تكونوا فيه أذنابا وقد ورد في نزولها حديث حسن رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد حدثنا شهر حدثني عبد الله بن عباس قال بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان ابن مظعون فكشر إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «ألا تجلس؟» فقال بلى قال فجلس رسول الله ﷺ مستقبله فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرف رسول الله ﷺ عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له وابن مظعون ينظر فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال يا محمد فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة فقال «ومارأيتني فعلت؟» قال رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته حيث وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئا يقال لك قال «وفطنت لذلك؟» فقال عثمان نعم قال رسول الله ﷺ «أتاني رسول الله آنفا وأنت جالس» قال رسول الله؟ قال «نعم» قال فما قال لك قال «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية قال عثمان فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمدا ﷺ، إسناد جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصرا، حديث آخر عن عثمان بن أبي العاص الثقفي في ذلك قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا هريم عن ليث عن شهر بن حوشب عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله ﷺ جالسا إذ شخص بصره فقال «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السوره (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) » الآية وهذا إسناد لا بأس به ولعله عند شهر بن حوشب من الوجهين والله أعلم.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة ولهذا قال (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) ولا تعارض بين هذا وبين قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية وبين قوله تعالى (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم) أي لا تتركوها بلا كفارة وبين قوله عليه السلام فيما ثبت عنه في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام قال «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها - وفي رواية - وكفرت عن يميني» لا تعارض بين هذا كله ولا بين الآية المذكورة ههنا وهي قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لأن هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان التي هي واردة على حث أومنع ولهذا قال مجاهد في قوله (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) يعني الحلف أي حلف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد - هو ابن أبي شيبة - حدثنا ابن نمير وأبو أسامة عن زكريا - هو ابن أبي زائدة - عن سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ «لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية فانه لا يزيده الإسلام إلا شدة» وكذ رواه مسلم عن ابن أبي شيبة به ومعناه

أن الإسلام لايحتاج معه إلى الحلف الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه فان فى التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه وأما ماورد فى الصحيحين عن عاصم الأحول عن أنس رضى الله عنه أنه قال : حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فى دورنا . فمعناه أنه آخى بينهم فكانوا يتوارثون به حتى نسخ الله ذلك والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنى محمد بن عمارة الأسدى حدثنا عبد الله بن موسى أخبرنا أبو ليلى عن بريدة فى قوله (وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم) قال نزلت فى بيعة النبى ﷺ كان من أسلم بايع النبىّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام فقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) هذه البيعة التى بايعتم على الإسلام (ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) لا يحملنكم قلة محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا صخر ابن جويرية عن نافع قال لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله ثم تشهد ثم قال : أما بعد فانا قد بايعنا هذا الرجل على بيعة الله ورسوله وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان ، وإن من أعظم الغدر ــ إلا أن يكون الاشراك بالله ــ أن يبايع رجل رجلا على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته ، فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه » المرفوع منه فى الصحيحين ، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حجاج عن عبد الرحمن بن عابس عن أبيه عن حذيفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شرط لأخيه شرطا لايريد أن يفى له به فهو كالمدلى جاره إلى غير منعة » وقوله (إن الله يعلم ماتفعلون) تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها وقوله (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) قال عبدالله بن كثير والسدى : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه وقال مجاهد وقتادة وابن زيد هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . وقوله (أنكاثا) يحتمل أن يكون اسم مصدر ، نقضت غزلها أنكاثا أى أنقاضا ويحتمل أن يكون بدلا عن خبر كان أى لا تكونوا أنكاثا جمع نكث من ناكث ولهذا قال بعده (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) أى خديعة ومكرا (أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم فنهى الله عن ذلك لينبه بالأدنى على الأعلى إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وقد قدمنا ولله الحمد فى سورة الأنفال قصة معاوية لما كان بينه وبين ملك الروم أمد فسار معاوية إليهم فى آخر الأجل حتى إذا انقضى وهو قريب من بلادهم أغار عليهم وهم غارون لايشعرون فقال له عمرو بن عنبسة الله أكبر يا معاوية وفاء لا غدر سمعت رسول الله ﷺ يقول « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضى أمدها » فرجع معاوية رضى الله عنه بالجيش قال ابن عباس (أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى أكثر وقال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك وقال الضحاك وقتادة وابن زيد نحوه وقوله (إنما يبلوكم الله به) قال سعيد بن جبير يعنى بالكثرة رواه ابن أبى حاتم وقال ابن جرير أى بأمره إياكم بالوفاء بالعهد (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) فيجازى كل عامل بعمله من خير وشر

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يقول الله تعالى (ولو شاء الله لجعلكم) أيها الناس (أمة واحدة) كقوله تعالى (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً) أي لوفق بينكم ولما جعل اختلافا ولا تباغض ولا شحناء (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وهكذا قال ههنا (ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء) ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير، ثم حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان دخلا أي خديعة ومكراً لئلا تزل قدم بعد ثبوتها مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الاسلام ولهذا قال (وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) ثم قال تعالى (ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أي لاتعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها فإنها قليلة ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ماعند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه وحفظ عهده رجاء موعوده ولهذا قال (إن كنتم تعلمون * ماعندكم ينفد) أي يفرغ وينقضي فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه (وما عند الله باق) أي وثوابه لكم في الجنة باق لاانقطاع ولانفاد له فإنه دائم لايحول ولا يزول (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً وهو العمل التابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من ذكر أو أنثى من بني آدم وقلبه مؤمن بالله ورسوله وان هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا وأن يجزيه بأحسن ماعمله في الدار الآخرة، والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت، وقد روى عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب، وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه فسرها بالقناعة، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن منبه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها هي السعادة، وقال الحسن ومجاهد وقتادة لايطيب لأحد حياة إلا في الجنة، وقال الضحاك هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا، وقال الضحاك أيضاً هي العمل بالطاعة والانشراح بها، والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن يزيد حدثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن شريك عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقري به. وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانئ عن أبي علي الجنبي عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «قد أفلح من هدى للاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به» وقال الترمذي هذا حديث صحيح، وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيي عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله لايظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا» انفرد بإخراجه مسلم

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من

الشيطان الرجيم وهذا أمر ندب ليس بواجب حكى الاجماع على ذلك أبوجعفر بن جرير وغيره من الأئمة ، وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى الاستعاذة مبسوطة فى أول التفسير ولله الحمد والمنة . والمعنى فى الاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارىء قراءته ويخلط عليه ويمنعه من التدبر والتفكر ولهذا ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة إنما تكون قبل التلاوة ، وحكى عن حمزة وأبى حاتم السجستانى أنها تكون بعد التلاوة واحتجا بهذه الآية ، ونقل النووى فى شرح المهذب مثل ذلك عن أبى هريرة أيضاً ومحمد بن سيرين وإبراهيم النخعى ، والصحيح الأول لما تقدم من الأحاديث الدالة على تقدمها على التلاوة والله أعلم . وقوله (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) قال الثورى ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه ، وقال آخرون معناه لا حجة له عليهم ، وقال آخرون كقوله (إلا عبادك منهم المخلصين) ، (إنما سلطانه على الذين يتلونه) قال مجاهد يطيعونه ، وقال آخرون اتخذوه ولياً من دون الله (وهم به مشركون) أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم وأنه لا يتصور منهم الإيمان وقد كتب عليهم الشقاوة وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ (إنما أنت مفتر) أى كذاب وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقال مجاهد (بدلنا آية مكان آية) أى ورفعناها وأثبتنا غيرها ، وقال قتادة هو كقوله تعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها) الآية فقال تعالى مجيباً لهم (قل نزله روح القدس) أى جبريل (من ربك بالحق) أى بالصدق والعدل (ليثبت الذين آمنوا) فيصدقوا بما أنزل أولا وثانياً وتخبت له قلوبهم (وهدى وبشرى للمسلمين) أى وجعله هاديا وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب والافتراء والبهت ان محمداً إنما يعلمه هذا الذى يتلوه علينا من القرآن بشر ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش وكان بياعاً يبيع عند الصفا وربما كان رسول الله ﷺ يجلس اليه ويكلمه بعض الشيء وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لابد منه فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم فى افترائهم ذلك (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى القرآن أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل قال محمد بن إسحق بن يسار فى السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة غلام نصرانى يقال له جبر عبد لبعض بنى الحضرمى فأنزل الله (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وكذا قال عبد الله بن كثير ، وعن عكرمة وقتادة كان اسمه يعيش . وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن محمد الطوسى حدثنا أبوعامر حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم ابن عبد الله الملائى عن مجاهد عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يعلم قينا بمكة وكان اسمه بلعام وكان أعجمى اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) وقال الضحاك بن مزاحم هو سلمان الفارسى وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية وسلمان إنما أسلم بالمدينة ،

وقال عبيد الله بن مسلم كان لنا غلامان روميان يقرآن كتابا لهما بلسانهما فكان النبي ﷺ يمر بهما فيقوم فيسمع منهما فقال المشركون يتعلم منهما فأنزل الله هذه الآية ، وقال الزهري عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فارتد بعد ذلك عن الإسلام وافترى هذه المقالة قبحه الله

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره وتغافل عما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله في الدنيا ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة ، ثم أخبر تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم ليس بمفتر ولا كذاب لأنه إنما يفتري الكذب على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم شرار الخلق (الذين لا يؤمنون بآيات الله) من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ كان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملا وإيمانا وإيقانا ، معروفا بالصدق في قومه لايشك في ذلك أحد منهم بحيث لايدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ولا أغنت عنهم شيئا فهم غافلون عما يراد بهم (لاجرم) أي لابد ولاعجب أن من هذه صفته (أنهم في الآخرة هم الخاسرون) أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة — وأما قوله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وهكذا قال الشعبي وقتادة وأبو مالك . وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عبد الكريم الجزري عن أبي عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « كيف تجد قلبك ؟ » قال مطمئنا بالإيمان قال النبي ﷺ « إن عادوا فعد » ورواه البيهقي بأبسط من ذلك وفيه أنه سب النبي صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم

فقال يا رسول الله ما تركت حتى سببتك وذكرت آلهتهم بخير قال « كيف تجد قلبك ؟ » قال مطمئناً بالإيمان فقال « إن عادوا فعد » وفى ذلك أنزل الله (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالى إبقاء لمهجته ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضى الله عنه يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل حتى إنهم ليضعوا الصخرة العظيمة على صدره فى شدة الحر ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول : أحد، أحد . ويقول : والله لو أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها. رضى الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم ، فيقول أتشهد أنى رسول الله ؟ فيقول لا أسمع . فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك . وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن عكرمة أن علياً رضى الله عنه حرق ناسا ارتدوا عن الإسلام فبلغ ذلك ابن عباس فقال لم أكن لأحرقهم بالنار ، إن رسول الله ﷺ قال « لا تعذبوا بعذاب الله » وكنت قاتلهم بقول رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » فبلغ ذلك عليا فقال ويح أم ابن عباس : رواه البخارى

وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أيوب عن حميد بن هلال العدوى عن أبى بردة قال : قدم على أبى موسى معاذ بن جبل باليمن فإذا رجل عنده قال ماهذا ؟ قال رجل كان يهوديا فأسلم ثم تهود ونحن نريده على الإسلام منذ قال أحسبه شهرين فقال والله لا أقعد حتى تضربوا عنقه فضربت عنقه فقال قضى الله ورسوله أن من رجع عن دينه فاقتلوه أو قال «من بدل دينه فاقتلوه » وهذه القصة فى الصحيحين بلفظ آخر . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه ولو أفضى إلى قتله كما ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن حذافة السهمى أحد الصحابة أنه أسرته الروم فجاءوا به إلى ملكهم فقال له تنصر وأنا أشركك فى ملكى وأزوجك ابنتى ، فقال له لو أعطيتنى جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت فقال إذاً أقتلك فقال أنت ، وذاك ، قال فأمر به فصلب وأمر الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه وهو يعرض عليه دين النصرانية فيأبى ثم أمر به فأنزل ، ثم أمر بقدر وفى رواية ببقرة من نحاس فأحميت وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر فإذا هو عظام تلوح وعرض عليه فأبى فأمر به أن يلقى فيها فرفع فى البكرة ليلقى فيها فبكى فطمع فيه ودعاه فقال إنى إنما بكيت لأن نفسى إنما هى نفس واحدة تلقى فى هذه القدر الساعة فى الله فأحببت أن يكون لى بعدد كل شعرة فى جسدى نفس تعذب هذا العذاب فى الله . وفى بعض الروايات أنه سجنه ومنع منه الطعام والشراب أياما ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير فلم يقربه ثم استدعاه فقال ما منعك أن تأكل ؟ فقال أما إنه قد حل لى ولكن لم أكن لأشمتك بى ، فقال له الملك فقبل رأسى وأنا أطلقك فقال وتطلق معى جميع أسارى المسلمين قال نعم فقبل رأسه فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده ، فلما رجع قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة وأنا أبدأ فقام فقبل رأسه رضى الله عنهما

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوهم على الفتنة ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا معهم الكافرين وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أى تلك الفعلة وهى الإجابة إلى الفتنة لغفور لهم رحيم بهم يوم معادهم (يوم تأتى كل نفس تجادل) أى تحاج (عن نفسها) ليس أحد يحاج عنها لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة (وتوفى كل نفس ما عملت) أى من خير وشر (وهم لا يظلمون) أى لا ينقص من ثواب الخير ولا يراد على ثواب الشر ولا يظلمون نقيرا

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لا يخاف كما قال تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا) وهكذا قال ههنا (يأتيها رزقها رغداً) أى هنيئاً سهلا (من كل مكان فكفرت بأنعم الله) أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ اليهم كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى اليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه وقوله (والخوف) وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم فى دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم منهم وامتن به عليهم فى قوله (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية . وقوله تعالى (فاتقوا الله يا أولى الألباب * الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولا) الآية وقوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة — إلى قوله — ولا تكفرون) وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ورزقهم بعد العيلة وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفى عن ابن عباس واليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وحكاه مالك عن الزهرى رحمهم الله وقال ابن جرير حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عبد الرحمن بن شريح أن عبد الكريم بن الحارث الحضرمى حدثه أنه سمع مشرح بن هاعان يقول سمعت سليم بن نمير يقول صدرنا من الحج مع حفصة زوج النبى ﷺ وعثمان رضى الله عنه محصور بالمدينة فكانت تسأل عنه ما فعل ؟ حتى رأت راكبين فأرسلت إليهما تسألهما فقالا قتل . فقالت حفصة والذى نفسى بيده إنها القرية — تعنى المدينة — التى قال الله تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله) قال ابن شريح وأخبرنى عبيد الله بن المغيرة عمن حدثه أنه كان يقول إنها المدينة

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك فإنه المنعم المتفضل به ابتداء الذى يستحق العبادة وحده لاشريك له ثم ذكر تعالى ماحرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فى دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير (وما أهل لغير الله به) أى ذبح على غير اسم الله ومع هذا (فمن اضطر اليه) أى احتاج من غير بغى ولا عدوان (فإن الله غفور رحيم) . وقد تقدم الكلام على مثل هذه الآية فى سورة البقرة بما فيه كفاية عن إعادته ولله الحمد ، ثم نهى

تعالى عن سلوك سبيل المشركين الذين حللوا وحرموا بمجرد ماوصفوه واصطلحوا عليه من الأسماء بآرائهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك مما كان شرعا لهم ابتدعوه في جاهليتهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي أو حلل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه، وما في قوله (لما تصف) مصدرية أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم، ثم توعد على ذلك فقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) أي في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فمتاع قليل وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم كما قال (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقال (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون)

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وإنما أرخص فيه عند الضرورة — وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى — ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال (وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل) أي في سورة الأنعام في قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما — إلى قوله — لصادقون) ولهذا قال ههنا (وما ظلمناهم) أي فيما ضيقنا عليهم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أي فاستحقوا ذلك كقوله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه فقال (ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة) قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل (ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات (إن ربك من بعدها) أي تلك الفعلة والزلة (لغفور رحيم)

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

يمدح تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية فقال (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً) فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به، والقانت: هو الخاشع المطيع، والحنيف المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ولهذا قال (ولم يك من المشركين) قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن أبي العبيدين أنه سأل عبد الله بن مسعود عن الأمة القانت فقال الأمة معلم الخير والقانت المطيع لله ورسوله، وعن مالك قال: قال ابن عمر: الأمة الذي يعلم الناس دينهم، وقال الأعمش عن يحيى بن الجزار عن أبي العبيدين أنه جاء إلى عبد الله فقال من نسأل إذا لم نسألك؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال أخبرني عن الأمة، فقال الذي يعلم الناس الخير، وقال الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال: قال ابن مسعود إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي غلط أبو عبد الرحمن وقال إنما قال الله (إن إبراهيم كان أمة) فقال تدري ما الأمة وما القانت؟ قلت الله أعلم فقال الأمة الذي يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ، وقد روي من غير وجه عن ابن

مسعود، أخرجه ابن جرير ، وقال مجاهد أمة أى أمة وحده والقانت المطيع وقال مجاهد أيضا كان إبراهيم أمة أى مؤمنا وحده والناس كلهم إذ ذاك كفار وقال قتادة كان إمام هدى والقانت المطيع لله ، وقوله (شاكرا لأنعمه) أى قائماً بشكر نعم الله عليه كقوله تعالى (وإبراهيم الذى وفى) أى قام بجميع ماأمره الله تعالى به وقوله (اجتباه) أى اختاره واصطفاه كقوله (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) ثم قال (وهداه إلى صراط مستقيم) وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى ، وقوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه فى إكمال حياته الطيبة (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) وقال مجاهد فى قوله (وآتيناه فى الدنيا حسنة) أى لسان صدق ، وقوله (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا) أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده ، وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) كقوله فى الأنعام (قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم * دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ثم قال تعالى منكرا على اليهود

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لا شك أن الله تعالى شرع فى كل ملة يوما من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ، ويقال إن الله تعالى شرع ذلك لبنى إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه واختاروا السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات الذى كمل خلقها يوم الجمعة فألزمهم تعالى به فى شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك ولهذا قال تعالى (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) قال مجاهد اتبعوه وتركوا الجمعة ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال إنه حولهم إلى يوم الأحد ويقال إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها وإنه لم يزل محافظا على السبت حتى رفع وإن النصارى بعده فى زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود وتحولوا إلى الصلاة شرقا عن الصخرة والله أعلم

وقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد » لفظ البخارى . وعن أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة والمقضى بينهم قبل الخلائق » رواه مسلم

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة . قال ابن جرير : وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى ، وقوله (وجادلهم بالتى هى أحسن) أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى احسن إلا الذين ظلموا منهم) الآية ، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فى قوله (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقوله (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الآية أى قد علم الشقى منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب

(إنك لا تهدى من أحببت) ، (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء) .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

يأمر تعالى بالعدل فى القصاص والمماثلة فى استيفاء الحق كما قال عبد الرزاق عن الثورى عن خالد عن ابن سيرين أنه قال فى قوله تعالى (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله وكذا قال مجاهد وإبراهيم والحسن البصرى وغيرهم واختاره ابن جرير ، وقال ابن زيد كانوا قد أمروا بالصفح عن المشركين فأسلم رجال ذوو منعة فقالوا يا رسول الله لو أذن الله لنا لانتصرنا من هؤلاء الكلاب فنزلت هذه الآية ثم نسخ ذلك بالجهاد

وقال محمد بن إسحق عن بعض أصحابه عن عطاء بن يسار قال نزلت سورة النحل كلها بمكة وهى مكية إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضى الله عنه ومثل به فقال رسول الله ﷺ « لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة ، وهذا مرسل وفيه رجل مبهم لم يسم ، وقد روى هذا من وجه آخر متصل فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا الحسن بن يحيى حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا صالح المرى عن سليمان التيمى عن أبى عثمان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه حين استشهد فنظر إلى منظر لم ينظر إلى منظر أوجع للقلب منه أو قال لقلبه فنظر إليه وقد مثل به فقال « رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولا للرحم فعولا للخيرات والله لولا حزن من بعدك عليك لسرنى أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ــ أو كلمة نحوها ــ أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك » فنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بهذه السورة وقرأ (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر الآية ، فكفر رسول الله ﷺ يعنى عن يمينه وأمسك عن ذلك ، وهذا إسناد فيه ضعف لأن صالحا هو ابن بشير المرى ضعيف عند الأئمة ، وقال البخارى هو منكر الحديث وقال الشعبى وابن جريج نزلت فى قول المسلمين يوم أحد فيمن مثل بهم لنمثلن بهم فأنزل الله فيهم ذلك ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه حدثنا هدبة بن عبد الوهاب المروزى حدثنا الفضل بن موسى حدثنا عيسى بن عبيد عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم أحد قتل من الأنصار ستون رجلا ومن المهاجرين ستة فقال أصحاب رسول الله ﷺ لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لنمثلن بهم فلما كان يوم الفتح قال رجل لا تعرف قريش بعد اليوم ، فنادى مناد : إن رسول الله ﷺ قد أمن الأسود والأبيض إلا فلانا وفلانا ــ ناساً سماهم ــ فأنزل الله تبارك وتعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) إلى آخر السورة فقال رسول الله ﷺ « نصبر ولا نعاقب » وهذه الآية الكريمة لها أمثال فى القرآن فانها مشتملة على مشروعية العدل والندب إلى الفضل كما فى قوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ثم قال (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) الآية . وقال (والجروح قصاص) ثم قال (فمن تصدق به فهو كفارة له) وقال فى هذه الآية (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ثم قال (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله تعالى (واصبر وما صبرك إلا بالله) تأكيد للأمر بالصبر وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته ، وحوله وقوته ، ثم قال تعالى (ولا تحزن عليهم) أى على من خالفك فإن الله قدر ذلك (ولا تك فى ضيق) أى غم (مما يمكرون) أى مما يجهدون أنفسهم فى عداوتك وإيصال الشر إليك فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك ومظهرك ومظفرك بهم ، وقوله (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه وهذه معية خاصة كقوله (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقوله لموسى وهرون (لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) وقول النبى ﷺ للصديق وهما فى الغار « لا تحزن إن الله معنا » وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله

تعالى (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) وكقوله تعالى (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) وكما قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً) الآية ومعنى (الذين اتقوا) أى تركوا المحرمات (والذين هم محسنون) أى فعلوا الطاعات ، فهؤلاء الله يحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم ويظفرهم على أعدائهم ومخالفيهم ، وقال ابن أبى حاتم ثنا أبى ثنا محمد بن بشار ثنا أبو أحمد الزبير ثنا مسعر عن ابن عون عن محمد بن حاطب قال كان عثمان رضى الله من الذين اتقوا والذين هم محسنون . آخر تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

بعون الله تعالى قد تم طبع الجزء الثانى من تفسير الإمام الحافظ ابن كثير

ويليه الجزء الثالث إن شاء الله

وأوله تفسير سورة الإسراء والحمد لله

أولا وآخراً

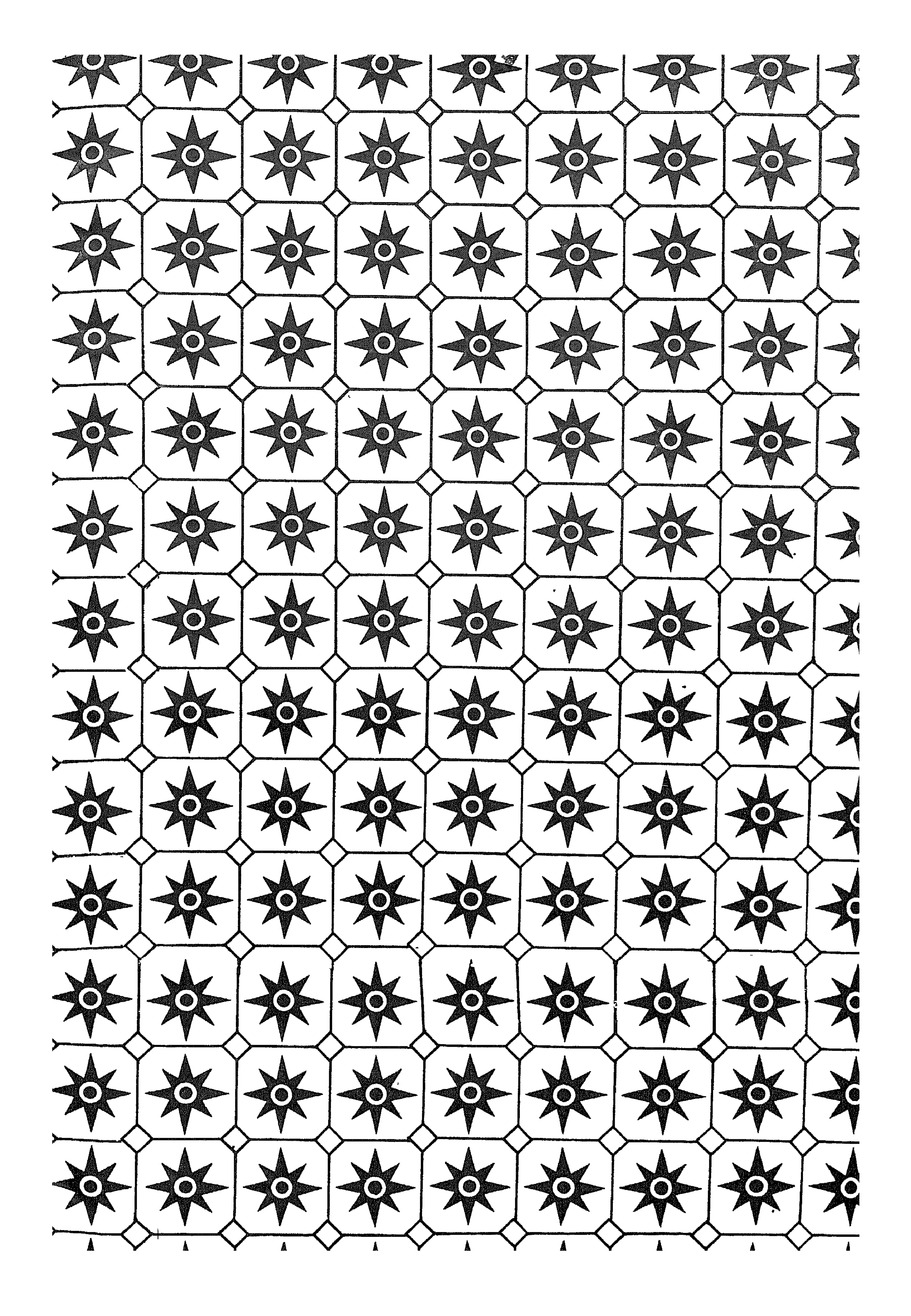


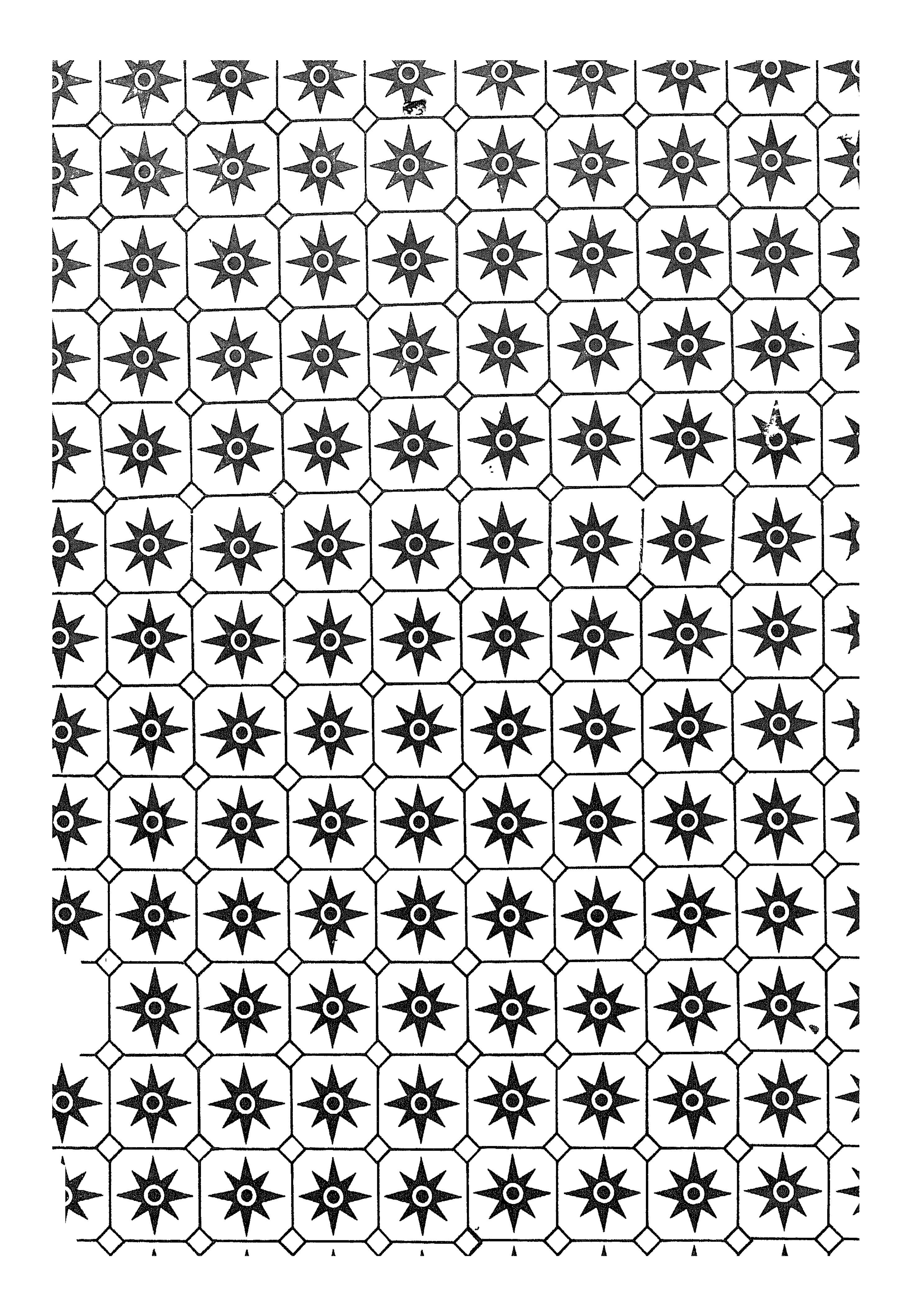
فهرست

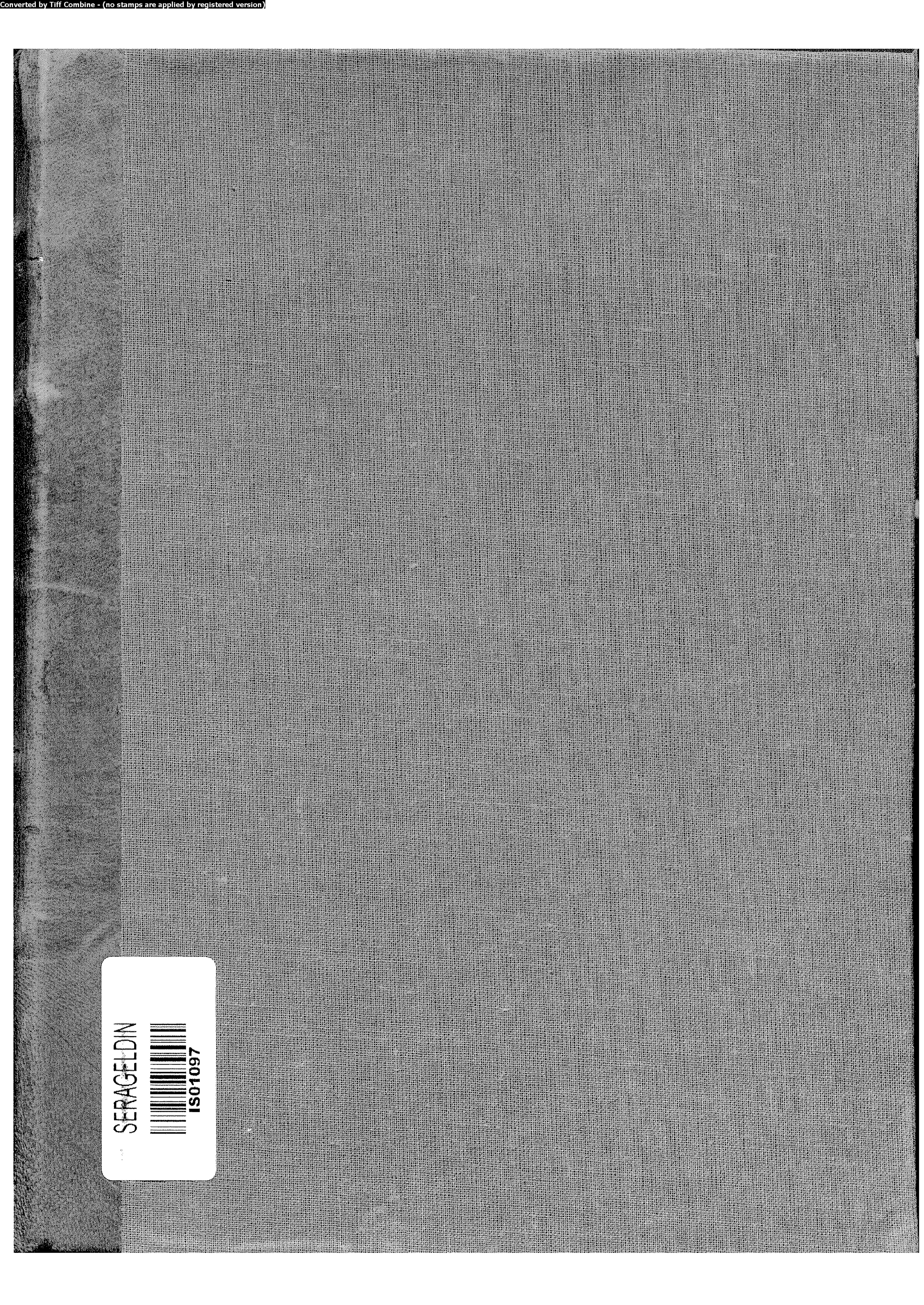
الجزء الثانى ، من تفسير ابن كثير

تم الفهرست








SERAGELDIN
IS01097